

حَمْدُ شَيْخِ

الْأُسْطُوْرَةِ وَالشَّائِخِ



حَمْدُ شَيْخِ

الْأُسْطُوَّةِ وَالتَّالِيهِ

إعداد و ترتيب

حسن زكي الصّواف

دار المصنعي

الطبعة الأولى 2010 – 1430

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

سورية - دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا

ص.ب 31426 هاتف 2248433 فاكس 2248432

e-mail: almaktabi@mail.sy


للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

تقديم

الأستاذ هاني المبارك

دمشق - أقدم عاصمة مأهولة

دمشق المدينة الخالدة التي صح فيها قول من قال : إنها المدينة الأولى بين عواصم دول العالم التي ما تزال مأهولة بسكانها حتى اليوم .

ومن هنا جاءت أهميتها التاريخية ، فكانت تراثاً لعصور قديمة في أغوار التاريخ القديم حتى العصر الحاضر ، فدمشق تعتبر من أجمل مدن العالم فقد وصفها ياقوت الحموي في معجمه بقوله : إنها جنة الأرض بلا خلاف لحسن عمارة ، ونضارة بقعة ، وكثرة فاكهة ، ونزاهة رقعة وكثرة مياه . . .

وقد قال عنها أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي : جنان الدنيا أربع : غوطة دمشق وصفد وسمرقند وشعب بوان وجزيرة الأبلّة ، وقد رأيتها كلها وأفضلها دمشق . وقد أكثر الشعراء والكتاب والرحالة في وصفها فهي سفر من أسفار التاريخ ، يحوي تراثاً يندر أن تعرف مدينة أخرى في العالم مثيلاً له .

وقد أحب دمشق بل وعشقها كل من عاش فيها من أبنائها أو مرّ بها تاجراً أو دبلوماسياً ، أو رحّالة أو عالماً أو طالب علم ، ولا زلت أذكر حفلاً أقامه سفير ألمانيا في دمشق في داره في حي الدقاقين في البزورية حيث قالت زوجته في كلمة ألقتها أثنت فيها على دمشق وأبنائها فقالت : إنني عشقت هذه المدينة وسأعود إليها إن شاء الله بعد أن تنتهي مهمة زوجي من العمل في الخارجية الألمانية ؛ لأقيم فيها بقية أيام حياتي .

ويكفي دمشق فخراً أن الحافظ ابن عساكر الفقيه المشهور والمؤرخ الكبير ألف كتاباً عن مدينة دمشق يقع في ثمانين مجلداً .

ويعد العصر الأموي هو العصر الذهبي لمدينة دمشق حيث غدت عاصمة للدولة العربية الإسلامية ، ووصل نفوذها إلى حدود الصين شرقاً ومياه الأطلسي غرباً .

وقد ارتفع اسم دمشق في مقاومة الاحتلال الفرنسي الذي بدأ عام ١٩٢٠م إثر معركة ميسلون حتى نالت استقلالها عام ١٩٤٦م وتم جلاء الأجنبي عن أرضها .

هذه المدينة الخالدة مدينة دمشق التي تمثل الشرق العربي بقديمه وحديثه وتنعم بحب كل عربي بل بحب كل من زارها ، فهي مدينة السحر والحضارة والجمال .

ولا يسعني في هذه المناسبة إلا أن أتقدم بشكري وتقديري للأستاذ حسن الصواف على كتابه عن مدينة دمشق أقدم عاصمة في العالم ، الذي لم يترك شاردة ولا واردة تتعلق بمدينة دمشق إلا وأتى على ذكرها . فقد ذكر الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي أشارت إلى أهمية دمشق ومكانتها وفضلها على بقية مدن العالم .

كما ذكر أقوال القدامى والمحدثين عن هذه المدينة ، وأشار إلى عائلات دمشق العريقة ، ثم أتى على موجز لتاريخ مدينة دمشق ماراً بالعصور التاريخية من أقدم الأزمنة حتى اليوم الحاضر ، متحدثاً عن الأحداث المهمة التي شهدتها هذه المدينة خلال تلك العصور كبناء البيمارستانات مستشهداً ببيمارستان النوري الذي كان مثلاً نادراً لمشافي العالم في تلك الأيام ، ثم عدد المنتزهات في دمشق ولم ينسَ ذكر المعلم الرئيسي لهذه المدينة وهو جبل قاسيون والمغارات الموجودة فيه . وذكر الربوة والمزة وساحات دمشق وسور المدينة وقلعتها ، وأتى على ذكر الدور السياسي والاجتماعي والعسكري لهذه القلعة ، كما تحدث عن أبواب سور المدينة وعن أهم أحيائها ومعالمها الأثرية من قصور وبيمارستانات ومدارس وعن جوامعها وخاصة الجامع الأموي .

وقد تعرض لأهم الآثار المسيحية في دمشق ذاكراً أهم الكنائس في هذه المدينة ثم تحدث عن الأسواق القديمة ، فلم يترك سوقاً صغيراً أو كبيراً إلا أتى على وصفه وذكره كسوق المسكية وسوق الحرير ، وسوق الخياطين وسوق السلاح وسوق

القطن ، وسوق الصوف والدرويشية... ثم أتى على ذكر الخانات والقيساريات والحمامات وأتى على ذكر من دفن في دمشق من العظماء ، مثل بعض الأنبياء وعدد من آل بيت رسول الله ﷺ ومن الصحابة والخلفاء والأمراء والعلماء والفقهاء والقادة .

وأنهى المؤلف كتابه بإطالة على التقاليد والعادات الدمشقية الأصيلة في الأفراح والمناسبات المختلفة .

ويسرني أن أنهي تقديمي لهذا الكتاب بأبيات من الشعر لابن دمشق البار الشاعر نزار قباني الذي يقول في دمشق :

يا شامة الدنيا ووردها	يا من بحسبك أوجعت الأزاميلا
وددت لو زرعوني فيك مئذنة	أو علقوني على الأبواب قنديلا
يا بلدة السبعة الأنهار يا بلدي	يا قميصاً بزهر الخوخ مشغولا
هواك يا بردي كالسيف يسكنني	وما ملكت لأمر الحب تبديلا

هاني المبارك

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ، ونستعينه ونستهديه ونستغفره ، ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي اخترق السبع الطباق بنور أضواء منه قصور بصرى من أرض الشام ، وأحمد الله الذي جعل الشام في وجه الأرض شامة خضراء ، ووهبها عيوناً تروي قلب الصادي وتشرح صدره ، وحباها رياض الجنان مع مزيد الإنعام . ونسأل الله تعالى التوفيق والسداد وأن يتقبل منا صالح أعمالنا إنه سميع مجيب الدعاء .

أما بعد :

ففضائل الشام من مواهب الله عز وجل الهنية لأهل هذا الصقع ، وقد حُقَّ للشام أن تمتاز بين أقاليم الدنيا بما وهبها الله ، والفضل يعرفه أهل الفضل .

والدماشقة قوم أمناء ذوو شهامة وناموس ودعة ومؤانسة ، رقيقو الطباع ، حسنو المعاشرة ، سليمو النية والطوية ، كرماء يحبون الغرباء ويكرمونهم ، ويميلون إلى السلام ، ويرغبون في البسط والانشراح . ولو لم يكن في دمشق بعض الأشقياء الذين يُسوّدون اسم مدينتهم بما يرتكبون من الجرائم ، ويقتربون من الآثام ؛ لساغ أن نقول بأن حسن أخلاق أهل دمشق يضعهم في مقدمة السوريين .

دمشق أقدم مدينة في العالم لم تنقطع فيها الحياة . . فأي كتاب ، والحال هذه ، يمكن أن يعطي دمشق العظيمة ، دمشق التاريخ ، بل ما قبل التاريخ ، دمشق لأولؤة الشرق ، حقها في التأريخ والتعريف ؟ هذه المدينة التي لم تنقطع فيها الحياة يوماً ، فكانت وما زالت دائماً عامرة بالسكان ، منذ بدء التاريخ حتى اليوم ؛ لتبقى قبلة من

يعشق سحر الشرق وعبقه وقراءة تاريخه ، وستبقى كذلك على مر العصور .

لذا ، فهذا الكتاب محاولة لإعطاء دمشق بعض حقها علينا ، إذا جاز التعبير ، نرجيه لها سرداً لتاريخها العمراني والفني ، ووصفاً لحاراتها وبيوتها وحمّاماتها وأبوابها وقلعتها ، وفوق كل ذلك وقبله ، تذكيراً بمكانتها عند الله ورسوله ﷺ .

لكنني ، وأنا أكتب هذه الصفحات أخاف أن أقصر في ذلك . . فدمشق أكبر من أن أعطيها حقها وأن أوفيها بعض مالها علي من واجب ، لكن محبتي لها دفعني للكتابة عنها ، لعلّي أوفيها بذلك ولو جزءاً يسيراً مما لها عليّ ، فكان هذا الكتاب الوثائقي الذي يبحث في المواقع التاريخية الأثرية والمستحدثة ، خلال قرون عديدة ضمن مدينة دمشق القديمة وخارج سورها ، كما يأتي على ذكر غوطتها وأحيائها وأزقتها وحمّاماتها وقاسيونها ، وما فيها من مزارات وأضرحة أنبياء ورسل وصحابة وشهداء من آل البيت وتابعيهم ، وحكماء وعباقره وعلماء ومصلحين ؛ وكل ذلك وغيره ، يَرِدُ مشفوعاً مع ما أنزل الله تعالى في دمشق من آيات مباركات تبين قدسيتها ومكانة أهلها عنده ، سبحانه وتعالى ، ثم مشفوعاً بما ورد عن فضلها من أحاديث شريفة رويت عن النبي ﷺ ، وبما تغني به الشعراء من جمالها وروحانيتها ، جيلاً بعد جيل ، على مدى الأزمان ، في قصائدهم الجميلة المعبرة .

وفي حديثي عن آثارها ، حرصت على بيان زمن ظهور كل أثر منها ، وإلى أي عصر من عصور التاريخ يعود . وهكذا ، تناولت ما حوته دمشق من أثر يعود إلى ما قبل التاريخ المدون ، إلى آخر ما ظهر مع بداية التاريخ ، وصولاً إلى الفترة الإسلامية التي عرضت ما ظهر خلالها من أبنية وصروح ، منتقلاً من صرح أموي عربي مسلم قرشي ، إلى صرح سلجوقي وأتابكي ، إلى ثالث أيوبي ، أو مملوكي ، أو عثماني ، كل ذلك متمثلاً في قصر وجامع ، ومجرى نهر ، وبيمارستان ، وخانقاه ، وزاوية ، وتكية ، وحمّام ، ومدرسة ، وقلعة ، ومزار كريم ، ومقبرة .

ولما كانت دمشق كنز معرفة إلى جانب كونها كنز آثار ، فقد حاولت أن أخرج للنور كنز معرفتها أيضاً ؛ ليقيني بأن هذه المدينة قد حوت في رحلة تاريخها

الطويل ، من الآداب والمعارف والعلوم ما يفوق كل تصور وخيال ، وما يجدر ذكره والعناية به ورعايته والبحث والسعي لكشفه ونشره ، إثباتاً لمكانتها في تاريخ الثقافة الإسلامية والعربية ، بل في تاريخ الثقافة الإنسانية أيضاً ، وإحياءً للخالدين في التاريخ من المبدعين والعلماء والعظماء الذين استوطنوا دمشق ، مهد الحضارات ، ثم دفنوا فيها .

فإلى أرواح كل من عمل في بناء دمشق ، ووضع لبنة في مدماك صرحها بما يحويه من سور وبوابات وقلعة ومسجد وأسواق ومدارس ودور حديث ، وخانقاهات ، وبیمارستانات وحمامات ومعابد ، وإلى كل من كانت له أياد بيض في حضارة هذه المدينة القديمة التي أصبحت سويداء القلوب ، وشامة على خد الزمن ، ووردة جورية تتهدى على سفح جبلها الشامخ قاسيون ، إليهم جميعاً كل محبة وتقدير .

وإليك أنتِ ، يا شام ، يا (دمشق) يا مدينة السحر والجمال والعشق والياسمين والأقحوان والفل والليلك وزهر الليمون والكباد ، وإلى أبنائك ، شبيهاً وشباباً ، وعشاقاً ومحبين ، أقدم هذا الكتاب حاملاً بين صفحاته وصفاً جليلاً ودقيقاً عنك ، أنت أيتها المدينة الرائعة التي تأصلت محبتك في قلبي ، منذ وعيتك وفتحت عيني على جمالك وسمائك ، ومنذ أن دخلت أول نسمة من هوائك رثتي ، ومنذ كبرت وبدأت قدماي تحملانني متجولاً بين أزقتك وحواريك ، ومنذ أن بدأ يدغدغ سمعي خرير الماء ، ماء الجدول ينساب قرب بيتنا ثم يدخل من أسفل الجدار ليعاود ظهوره على شكل نافورة في بحرة الدار يتدفق عذباً زلالاً نقياً نطفئ عطشنا منه دون خوف أو وجل .

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد ، ما دامت الشام عامرة بحديثه الشريف الماحي لصور الكفر الواهية ، وعلى آله وصحبه الذين تعاونوا على البر والتقوى في فتحها ، فمنهم من أخذ شطرها الشرقي عنوة ، ومنهم من أخذ الشطر الغربي صلحاً من باب الجابية .

ويقال : إن من قصد دمشق الشام بسوء ونواه كبّه الله تعالى فيه وأعره . ومن طريف ما يروى من ذلك ، وربما كان من اختلاق بعض الولاة ، أنه لما قدم عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس رضي الله عنهم ، دمشق وهدم سورها بعد أن حاصر أهلها وراءه ، وقع من السور حجر كان مكتوباً عليه باليونانية ، فأرسل خلف بعض الرهبان فطبعه وقرأه ، فإذا هو مكتوب عليه (ويك أم الجبابرة من رماك بسوء قصمه الله ، ويك من الخمسة الأعين ينقض سورك على يديه بعد ألف سنة) ، فوجدوا الخمسة الأعين هي عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب .

وهذا كله وغيره يؤكد أنها بلدة كثيرة البركات ، غزيرة الخيرات ، وكيف لا وهي بلدة الأنبياء ، وموطن الأصفياء والأولياء ، وبها الكثير من الصحابة الأجلاء الذين حوّث مقابرها أجسامهم الطاهرة مع ما حوث من أجسام غيرهم من أمثال الفضلاء .

إذن : ليس غريباً أن يعد المؤرخون دمشق أقدم مدينة مأهولة ومزدهرة في العالم ، إذ إن كل شبر فيها يدل على قدم تاريخ بنائها بعد أن كشفت الحفريات في منطقة « باب شرقي » على أن أرض هذه المدينة القديمة ، والتي كان الرومان قد خططوها على شكل مربع في العام (٣٣٣) قبل الميلاد تنخفض عن المستوى الحالي لأرضها بأكثر من عشرة أمتار . وعلى الرغم من مرور آلاف السنين على تأسيس دمشق إلا أن الحياة لم تغب عن أرضها ، وظلت للناس موطن السكن المفضل عندهم ، وكلما غزاها قوم أو ضربها زلزال أعاد السكان بناء مدينتهم التي تحولت مع كل ما تزخر به حالياً من بيوت وقصور ومدارس وجوامع وكنائس إلى متحف ضخم ، يزوره مئات الآلاف من السياح سنوياً ، فمنذ أن بزغ ضوء الشمس على هذه المدينة العامرة بتاريخها وتراثها وعلى مر العصور إلى الآن ، يصعب على أي مؤرخ ومؤلف وباحث أن يحيط بكل تاريخها العظيم .

فدمشق مهد الحضارة والشرائع . . . وهي عنوان المحبة والسلام . . . وهي رمز
التآخي والتآلف الديني عبر العصور .

وهي العروس التي اختارها الزمن لتبقى شابة حلوة من دون أن تهرم بل تزداد ألفاً
ودفناً وحياة وازدهاراً .

وعلى هذا فلست بالذي يزعم ، أنني أسير في طريق لم يسلك من قبل ، إذ كتب
في تاريخ مدينتنا دمشق كثيرون ، ولم يخل الأمر من كتابات رائدة أدت هدفاً نبيلاً
مشكوراً ، ولكن ما زال هناك مجال واسع لمزيد من الدراسات والأبحاث لتتضح
معالم وتاريخ هذه المدينة الخالدة .

(مدينة دمشق أعظم عاصمة في العالم)

قال أبو الحسن بن جببر رحمه الله تعالى : (وأما دمشق فهي جنة المشرق ،
ومطلع نوره المشرق وخاتمة بلاد الإسلام التي استقريناها ، وعروس المدن التي
اجتليناها ، قد تحلت بأزاهير الرياض ، وتجلّت في حُلل سندسية ، من
البساتين . وحلت من موضع الحُسن بالمكان المكين . وتزينت في منصتها
أجمل تزيين ، وتشرفت بأن أوى السيد المسيح عليه السلام وأمه إليها إلى ﴿ رَبَّوْهُ
ذَاتَ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ . وظل ظليل ، وماء سلسبيل تنساب مزايبه انسياب الأرقام
بكل سبيل ، ورياضٌ تحيي النفوس نسيمها العليل ، وقد سئمت أرضها كثرة
الماء ، حتى اشتاقت إلى الظمأ ، فتكاد تناديك بها الصم الصلاب ، ﴿ أَرْكُضْ بِرَجْلِكَ
هَذَا مَغْسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ . وقد أهدت البساتين بها إحداق الهالة بالقمر ، والأكمام
بالثمر ، وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر ، وبردى الشريان
الحيوي والوفي للشابة الحلوة الذي يروي ظمأها ويهبها جنة الغوطة الغناء .
دمشق الفاتنة . . . النائمة في قلب منخفض تحيط بها جبال شماء تحرسها من
هبات الرياح الصحراوية) .

وإنني أتوجه إلى الله سبحانه وتعالى أن يمدني بعونه ؛ لأقوم بواجبي تجاه مدينتي
وأن يجعل دراستي هذه ذات أثر فعال في إلقاء المزيد من الضوء على تاريخ دمشق ،
بحيث أكون قد قدمت خدمة ضئيلة لمدينتي ، لما لها علي من فضل غمرتني به منذ
نشأتي وإلى الآن :

ما أجملك ، يا دمشق!

أنت عريقة ، عراقة التاريخ

ندية كأنفاس الربيع

متفتحة كالبراعم

فواحة كالورود

عبقه برائحة زهر الياسمين

ما أجملك ، يا دمشق

يا لؤلؤة الشرق

هذه دمشق ، أم العواصم ، وجوهرة المدائن ، وربما لم تحظ مدينة في الدنيا
بما حظيت به دمشق من مكانة تاريخية وحضارية جعلتها محط اهتمام المؤرخين
والباحثين في شرق وغرب على مدى العصور ، ولعل آلاف المؤلفات والمجلدات
التي رسمت صورة المدينة الخالدة ، وعرضت لتفاصيل الأحداث الحاسمة التي
كانت مسرحاً لها... هي الأغنى والأشمل مما كتب عن المدن الأخرى . فلماذا ؟
لماذا تبقى دمشق فرح كل نفس ، وشغل كل فكر ؟ أين يكمن سر هذه الحاضرة دوماً
في نبض الحياة وذاكرة الأيام ؟ .

الجواب بحاجة إلى دراسات وأبحاث .

أرجو أن تقدمها للقارئ الكريم صفحات هذا الكتاب ، وتثري محصلته عن
مدينتنا الخالدة دمشق :

شامُ يا شامُ يا أميرة حُبِّي كيف ينسى غرامهُ المجنونُ ؟
أوقدي النارَ فالحديثُ طويلُ وطويلُ لمن يُحبُّ الحنينُ
رضي اللهُ والرسولُ عن الشامِ فنصُرُ آتٍ وفتحُ مُبينُ
كتبَ اللهُ أن تكوني عشقاً بكِ يبدأ وينتهي التكوينُ

دمشق عروس المدن لا تحتاج إلى تزويق ، بل إلى حب وحماية .

وختاماً أدعو الله سبحانه وتعالى أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه تعالى وأن
يُنتفع به .

حسن زكي الصواف

تمهيد

دمشق تاريخ وحضارة

تعتبر مدينة دمشق أقدم مدينة في العالم صمدت على مر العصور المتعاقبة ، وكانت مركزاً وعاصمة لكثير من الحضارات والدول .

إن جميع الحضارات والعهود التي مرت على هذه المدينة تركت أثراً لها رغم الدمار والخراب الذي لحق بأوابدها ومعالمها التاريخية .

كما تعتبر المباني الأيوبية والمملوكية والعثمانية أغنى المباني القائمة حتى الآن . وإن نسيج المدينة القديمة الناتج عن البيوت السكنية والمحلات التجارية والصناعية والحرفية ، يعتبر عنصراً حيوياً يعطي المدينة الحياة والاستمرارية ، هذا فضلاً عما في المدينة من أسواق أثرية وخانات وحمامات ومباني ثقافية وتعليمية ؛ بحيث امتزجت كل هذه النشاطات مع بعضها بعضاً .

ولكن المدينة القديمة كسائر المدن في العالم تريد أن تنمو وتتوسع في سبيل تأمين الاحتياجات المتزايدة لسكانها مع اضطراد نموهم وتزايدهم ، ووفق العصر الذي يعيشونه .

وأدى ذلك كله إلى حركة غير عادية من وإلى المدينة ، حيث غادرها سكانها إلى المناطق الحديثة ، وحل محلهم السكان القادمون من الخارج ، إضافةً إلى التمرکز الصناعي والحرفي في الأسواق القديمة وفي البيوت القديمة ، وكان للسكان الجدد الذين حلوا في بيوت المدينة القديمة كمستأجرين وبعدة عائلات في بيت واحد دون الاهتمام بصيانة البيت أثره الكبير في ضياع واندثار القيم الفنية والأثرية في محتويات هذه البيوت .

كما أن المالكين الأصليين لم تعد لديهم رغبة في صيانة أو ترميم بيوتهم سواء لانخفاض ريعيتها ، أو لارتفاع تكاليف الصيانة والترميم . والأمر الأكثر خطورة هو تحول عدد من هذه البيوت إلى معامل صناعية شوهت معالمها وغيّرت بنيتها بكاملها ، وذلك إما بإزالة بعض غرفها ومنشأتها ، أو بإضافة منشآت جديدة .

هل نحوّل المدينة القديمة إلى تحفة أثرية ميتة ؛ ليشاهدها الزائرون أم نبقيها مدينة تنبض فيها الحياة .

إن مصير المدينة القديمة ككل ، ومصير كل جزء من أجزائها يتحلى بنفس أهمية الوظيفة المقبلة .

أين يجب أن يدخل فريق الصيانة والترميم ؟ وأين يجب أن يدخل فريق حملة المعاول والبنّاؤون الجدد ؟

ربما كان في الإجابة عن هذا السؤال شيء متميز يخص مدينة مثل مدينة دمشق القديمة ، فنحن أمام واقع أكثر تعقيداً يتعلق بمواد البناء المستعملة في قسم كبير من المباني السكنية .

إن الخطأ الذي يرتكبه المعول والبنّاء حيال أي مبنى أو أي جزء من أجزاء المدينة ، خطأ لا يمكن إصلاحه ؛ لذا يجب التفكير ملياً قبل اتخاذ القرار ، شريطة أن لا يكون الحل شبيهاً بما يطبّق على الأحياء القديمة .

لا يمكن فصل الدراسة التفصيلية لمستقبل المدينة القديمة عن التصورات ؛ ولذا فلا بد من أن تسير عملية الدراسة جنباً إلى جنب مع وضع التصورات ، فالتأثير بينهما متبادل ، والعلاقة بينهما دياكتيكية .

إننا نبحث في التراث كأنه مشكل . بينما التراث هو علاقة إنسانية لشكل أو طراز يمكن أن نحافظ عليه ، في كل وقت . والمدينة القديمة لم تكن شكلاً بل كانت حياة . إنها حركة ، تمويل ، نقل ، خدمات ، سياحة ، مقاهٍ . كيف كان الإنسان يعيش داخل الحي ؟ . إن هذا ما يجب أن نحافظ عليه ضمن إطار مدينتنا القديمة .

إن التراث الذي يجب أن نحافظ عليه هو المدلول الفكري الذي يعبر عنه البناء .
هذا هو التراث . إنه يعبر عن فكر ، عن علاقة هندسية إنسانية خدمتية ؛ لذلك هذا
التراث إذا خرجنا بدون تعريف له ، فكأننا ندخل في إطار الشكل فقط .

التراث هو علاقة إنسانية بين الناس وبين الإسكان من خلال حياتهم .
إن التحليل الإنشائي ، أو بعبارة مبسطة ، أن معرفة طريقة بناء هذه البيوت
والأبنية ، ومقارنة الأسس الهندسية لها بالأسس الحديثة في الهندسة الإنشائية سوف
يزيدنا إعجاباً بالوعي الهندسي الكبير الذي أودعه البناؤون القدماء فيها .
وهذا ما يدفعنا مرة أخرى للإعجاب بهذه البيوت والأبنية وسوف يعطينا سبباً
إضافياً للحفاظ عليها .

ظلت البيوت الدمشقية القديمة مثار إعجابنا جميعاً بعمارتها ، فهي تتيح لنا ركناً
شمساً هنا ، وركناً ظليلاً هناك . هنا نستمتع بالبحرات الداخلية ، وهناك بالأشجار
وأحواض الزهور . فالبيوت الدمشقية القديمة مدرسة معمارية متميزة توحى
للمهندسين المعماريين الحديثين بأفكار معمارية حية . فلا عجب إذا ما وجدنا أن
البيوت الدمشقية ، وقد وضعت في قالب حديث ، نشاهدها في كثير من الأبنية
الحديثة . . . ولئن كان الدمشقي القديم معمارياً قديراً طويل الباع ، ومستوعباً لكثير
من أمور هذه الهندسة التي كانت أقرب إلى الفن والجمال فثمة أمثلة كثيرة تشير إلى
وعي البناء الدمشقي لكثير من الأمور الإنشائية .

إن مدينة دمشق كنز كبير . . . فهي حضارة متكاملة بمختلف وجوها تقضي منا
كل رعاية وتطوير . ودعم الجهات الموجودة حالياً ، وإحداث مركز أو هيئة عليا
تعنى بأمور المدينة القديمة ، يحدث داخلها مكتب للعناية بمجمل الأمور الإنشائية
لهذه الأبنية وترميمها ، ومنح هذا المركز صلاحية رفض ومنع أية عملية ترميم أو
صيانة تسيء إلى المبنى الأصلي إنشائياً أو معمارياً أو تشوّهه .

إن الدافع الذي دفعني للقيام بهذه الدراسة هو إصرار الكثيرين على دراسة البيوت
الدمشقية من الوجهة المعمارية فقط ، في حين لاحظت أن هناك براعة في الهندسة

الإنشائية لا تقل عن البراعة في الهندسة المعمارية ، والهندسة الإنشائية كانت موجودة لدى الأمويين ، استفاد منها العثمانيون وظهرت في بعض مساجدهم بعد أكثر من ستمائة وخمسين عاماً .

- دمشق : أقدم مدن وعواصم العالم ، عاشت وما زالت تعيش حتى الآن .
- دمشق : مهد الحضارات التاريخية ومنارة العلم والفن على مرّ العصور .
- دمشق : موسوعة تاريخية غنية تحكي لنا قسماً كبيراً من تاريخ الإنسانية .
- دمشق : موسوعة تاريخية للأنظمة العمرانية والتخطيطية منذ آلاف السنين .
- دمشق : قلب العروبة النابض .

ويتمركز معظم هذا الفن التاريخي الكبير في المدينة القديمة لدمشق التي أصبحت عاجزة عن حضان هذا الفن وأصبحت تعاني الكثير من المشاكل التخطيطية والفنية .

تعتبر دمشق إحدى أقدم المدن والعواصم في العالم التي ما زالت تعيش حتى الآن ، فقد أصبحت في عهد سليمان ، حوالي (٩٤٠) قبل الميلاد ، عاصمة للمملكة الآرامية . واحتفظت بمكانتها كعاصمة ، منذ ذلك العصر حتى الآن ، ويكاد يكون هذا الحدث فريداً في تاريخ العالم .

وتشهد دمشق تطوراً عمرانياً كبيراً في عهد الأمويين فقد جعلوها مركزاً لهم ، ولكن للأسف لم يبق من آثارهم إلا القليل . ولعل أهمها المسجد الأموي الذي يكفي وحده للتعبير عن هؤلاء العمرانيين .

وكان مخطط دمشق وقتئذ على شكل مستطيل (١٥٠٠م x ٧٥٠م) محاط بسور يضم مساحة (١٠٥) هكتارات ، وكانت جوانبه توازي الشوارع المستقيمة والمتعامدة فيما بينها وفق نظام شطرنجي . وكانت لهذا السور سبعة أبواب : ثلاثة من الجهة الشمالية ، واثنان في الجهة الجنوبية ، واثنان آخران هما البابان الكبيران ، أحدهما في الشرق والآخر في الغرب .

ويصل بين هذين البابين شارع مستقيم ، وهو أكبر شوارع المدينة ، ويبلغ طوله (١٥٠٠ م) وعرضه (٢٥,٥ م) وكان مبلطاً بالحجارة الجميلة ، وعلى كل من جانبيه رواق يقوم على أعمدة رخامية من الطراز الكورنثي ويتخذ رصيفاً ومكاناً للبيع .

بعد العهد الأموي بدأ مخطط المدينة يتبدل ، وتتغير ملامحه وتسوده الفوضى ، فتتخذ المدينة طابع القرون الوسطى . أما مركز المدينة فقد حافظ على وجوده حول الجامع الأموي مع أسواق متخصصة للبيع .

وأما الأحياء فقد بدأت تنشأ نوعاً من الاستقلال الذاتي ، وأصبح كل حي يتزود بالخدمات الأساسية كالمسجد والحمام والفرن وسوق البيع لمختلف الحاجات . وأصبحت الأحياء منفصلة ، ولها نظام الحماية الخاص بها ، حيث كان لكل حي بابه الخاص ، ولا تزال في دمشق حتى الآن نماذج من هذه الأبواب .

في هذا العصر تغيرت معالم الشارع الروماني المستقيم ، وتحول إلى شارع ضيق ملتوٍ لا يشبه الأصل في شيء . وفي القرون الوسطى تجاوزت مدينة دمشق حدود الأسوار ، وبدأت بالامتداد شمال قلعة صلاح الدين حيث كان سوق الخيل يقع خارج الأسوار .

ونمت على سفح جبل قاسيون في عهد صلاح الدين منطقة أخرى لإسكان الأكراد الذين رافقوه .

وفي ظل الحكم العثماني الذي بدأ عام (١٥١٦ م) أنشئت خانات ومساجد جميلة جداً كمسجد السلطان سليمان ومسجد السلطان سليم . وفي هذه الحقبة أصبحت دمشق مركزاً لتجمع الحج الإسلامي مما أدى إلى ازدهار الطريق المؤدي إلى مكة المكرمة ، ونمو منطقتي الميدان الفوقاني والتحتاني .

وقد كان النظام التخطيطي للمدينة آنذاك غير خاضع لأيّة تأثيرات خارجية ، وكانت مساحة مدينة دمشق عام (١٩٢٠ م) حوالي (٦٠٠) هكتار أي ما يعادل ستة أضعاف مساحة المدينة في العهد الروماني ، ونظراً للتضخم العمراني الكبير الذي

عاشته دمشق في الفترة الأخيرة بسبب الهجرة الكبيرة إليها ، فقد فاق عدد سكانها اليوم جميع التصورات التخطيطية .

إن إلقاء نظرة واعية على المدينة القديمة في دمشق ، يجعلنا نرى أن هذه المدينة تتعرض لتشوهات كبيرة تعود إلى الأسباب التالية :

تحملها لوظائف تفوق طاقتها ، ذلك أن المدينة القديمة ما زالت تعتبر من المراكز التجارية الأساسية في مدينة دمشق ، ومع أن هذه الظاهرة تعتبر إيجابية بالنسبة لأحياء هذه المنطقة ، وجعلها تعيش وتساير متطلبات الحياة الحديثة ، فتصبح متحفاً مفتوحاً يومياً لكافة السكان المستفيدين من هذه الخدمات ، إلا أن هذا الضغط الكبير أصبح عبئاً كبيراً عليها ، يفوق تحملها ويشوه معالمها .

وترجع أسباب هذا الضغط إلى التضخم العمراني الكبير الذي تعيشه دمشق في السنوات الأخيرة نتيجة لتركز الكثير من النشاط الاقتصادي والاجتماعي فيها ، وللوضع التنظيمي للمدينة القديمة نفسها ضمن إطار النظام العام لمخطط دمشق الذي حافظ على مركزية المدينة القديمة ، وأحاطها بالطرق الرئيسية التي تصب عليها الطرق الرئيسية الأخرى من كافة الجهات .

ولقد بدأت الصناعات والحرف في بيوت المدينة القديمة ، تشوه معالمها كالسرطان ، وتضفي عليها طابعاً دخليلاً غريباً ومشوهاً ونتيجة لأزمة السكن ، نرى أحياناً عدة عائلات تسكن في بيت عربي واحد فتحدث تشويهاً في البيوت نتيجة التعديلات الغربية التي تجريها مما يؤدي إلى تداعي هذه البيوت ، ويشكل عدم ترميمها تشويهاً آخر .

وأصبحت بعض شوارع المدينة كسوق مدحت باشا خطاً للنقل تمر فيه الباصات مما يشكل بدوره خطراً كبيراً على البيوت القديمة الموجودة هناك ، ويؤدي إلى تداعيها ، فضلاً عن أن شق بعض الشوارع وإحداث مواقف للسيارات بطريقة غير مدروسة يؤدي إلى تشويه النظام التخطيطي القديم للمدينة ، والمعالجة الفردية بترميم مباني المدينة القديمة يتم بشكل يتعرض غالباً للبناء نفسه ، مع العلم أن هذا

البناء يجب أن يعالج ضمن النظام التخطيطي الذي يوجد فيه ، لا بل تجب معالجة النظام التخطيطي في البدء ، والمحافظة عليه ، ومن ثم يمكن معالجة مثل هذه الأبنية الأثرية .

ويسبب نقص الوعي بقيمة الأبنية القديمة في كثير من الأحيان إزالتها واستبدالها بأبنية حديثة .

وإن عملية التوثيق تعتمد على حفظ الوثائق الفنية التاريخية . وهي عملية مستمرة لكي يمكن التعرف على حال المدينة ، في أي عصر من العصور ، من خلال الوثائق المحفوظة ، كما تسجل الأوابد التي تم هدمها . ومن المؤسف أن هذه العملية مفقودة عندنا ، وهي تعد أحد الأسباب الأساسية لعدم معرفة ما لدينا من مناطق أثرية ، وبالتالي تُزال مناطق أثرية بكاملها دون أن نعرف سبب ذلك .

ويجب من الناحية الإدارية إحداث مركز توثيق خاص بالمناطق الأثرية لمدينة دمشق والمناطق المحيطة بها . وأيضاً تشكيل مكتب فني خاص بالمدينة القديمة يحوي على جميع الاختصاصات الفنية ، ودعمه بكافة الإمكانيات الفنية والمادية للقيام بعمله بشكل جيد . وتشكيل لجنة عليا للمدينة القديمة ، وعلى أعلى المستويات مهمتها متابعة أعمال المدينة ، والإشراف عليها ، وإقرار البرامج لها . وتخفيف الضغط عن مدينة دمشق القديمة وذلك عن طريق إجراء دراسة إقليمية للمدينة مهمتها تخفيف الضغط عن المدينة القديمة بشكل خاص ، ثم نقل الصناعات من المدينة القديمة إلى مكان آخر والمحافظة على الطابع التخطيطي العربي وإجراء عملية الترميم أو التحديث من خلاله وحماية المباني الأثرية في المدينة القديمة ، وذلك من خلال إعطائها وظائف ثقافية أو سياحية تليق بمكانتها ومساعدة السكان في إجراء عمليات الترميم لبيوتهم بطريقة فنية صحيحة ، وبشكل عام تجب معالجة المدينة القديمة بشكل كلي مع أخذ الناحية الفنية والاجتماعية والاقتصادية بعين الاعتبار لصيانة وحماية وإعادة أحياء المدينة القديمة والعمل على إنقاذ ما يمكن إنقاذه مما تبقى منها .

هذا وينبغي علينا أن لا نكتفي بالمدينة القديمة ضمن السور بل علينا أن نحافظ على امتداداتها أو الضواحي التابعة لها .

فالعقبة مثلاً وساروجة ، وضاحية الميدان القديمة وضاحية الصالحية القديمة ، كلها مراكز تاريخية مليئة بالمتعلقات الثقافية يجب المحافظة عليها ، وينبغي عدم تخريبها ، كما تفعل محافظة مدينة دمشق بما تسميه مخططات تنظيمية أو استملاكية ، وهي مخططات ناتجة عن دراسة مكتبية عشوائية ، لا تمت إلى الأسس العلمية وإلى التراث وإلى الواقع بأي صلة .

إن ترميم وإعادة إحياء مركز تاريخي ، أو بيئة قديمة أو موقع يجب أن يعتبر كجزء متكامل مع تخطيط المدينة ، وإلى جانب ذلك فإن المناطق المبنية تحتوي عادة على أشياء ذات قيمة تاريخية وفنية وبيئية ، وهنا يكمن جوهر هذه الدراسة للنسيج العمراني في المواقع القديمة والذي تخرب تدريجياً في الحقب الأخيرة .

مدينة دمشق القديمة ضمن السور ، مدينة يقطنها حوالي (٥٥,٠٠٠) نسمة حسب إحصاء عام (١٩٧٠م) وهي مركز إداري وثقافي واقتصادي في سورية . وفي هذه المدينة تراث كامل وكمية كبيرة من المتعلقات الثقافية ، وفي الوقت نفسه تمتلك اقتصاداً يتطور بسرعة ، ويعتمد على الصناعة الخفيفة والتجارة والسياحة .

وإن القيمة التاريخية والفنية الرئيسية تكمن في المسجد الأموي وأبواب دمشق والقلعة والمارستان النوري ، والمدرسة النورية ودار الحديث النورية وضريح صلاح الدين وضريح نور الدين الشهيد وخضراء معاوية ، ومنزل عمر بن عبد العزيز (الآن المدرسة السيساطية) وبعض المنازل التي تعود إلى عهود مختلفة . ولكن القيمة الأساسية ناتجة عن التركيب العمراني ، وهو تجميع توافقي إيقاعي عضوي عفوي للنسيج العمراني ذي المقياس الإنساني الذي تطور في مختلف العصور .

إن الطرق والأفكار التي طرحت لترميم المدينة والمحافظة عليها لم تتمكن من حل هذه المشكلة . فضلاً عن ذلك هناك مشاكل أخرى لها خلفيتها ، ولكنها تؤثر بشكل جدي على حياة المدينة القديمة ، ومن خلال تحليل هذه المشاكل منابع

مختلفة لها ، مثلاً الشروط السيئة للحياة في المركز المكتظ والمزدحم ، استهلاك المنزل ، الوظائف غير الملائمة للأرض ، التنظيم السيء لحركة السير ، الهجرة ، النشاط الصناعي ، وهو من أخطر أمراض المدينة القديمة .

قدمت محافظة مدينة دمشق عام (١٩٦٨ م) مخططاً لمركز المدينة التاريخي وضعه مهندسون أجانب ، وصدفته لجنة عليا لتنظيم المدن . كان تخطيط المدينة هو الشرط الأساسي لتنظيم أفضل للعمل ، ولكنه فشل ، لكون المخططين أجانب ، ولأن اللجنة العليا لم تفهم المدينة القديمة ؛ لأن المخطط لم يأخذ بعين الاعتبار اللامركزية لمختلف النشاطات في البلد . أضف إلى ذلك أن المخطط أدخل السيارات إلى مركز المدينة التاريخي ، مما أدى إلى تخريب النسيج الرائع وإحلال نسيج المواقف محله وساهم في إحداث الأزمات الاجتماعية والسكنية في المناطق التي اختطت فيها الطرق والمواقف ، إضافة إلى هدم المنازل .

إن المخطط يجب أن يتم بأيدي مهندسين دمشقيين حتماً ، يفهمون المدينة تماماً ويستوعبونها ، والدراسة يجب أن تتم على أساس تحليل المركز التاريخي وتحديد الهدف ووضع الخطة المدروسة ؛ لكي نحصل على نتائج ملموسة في سنين قليلة ، مشترطين الشرط الرئيسي الأخير وهو التعاون بين مختلف المؤسسات المعنية بالأمر ، والسلطة إلى جانب الصلاحيات التي ينبغي أن تمنح للجنة أو هيئة المدينة القديمة لمنع ارتكاب المخالفات ووضع الحلول موضع التنفيذ .

إن أوسع عمل لإعادة الأحياء يجب أن يجري في مركز المدينة التاريخي هو ترميم معظم المنازل السكنية التالفة ، أو المنازل المستعملة لأغراض أخرى استناداً إلى برنامج إعادة الأحياء .

ويجب أن يتم كذلك تقييم وحماية جميع العناصر ذات القيمة الفنية والبيئية . ويجب أن تتم طريقة الترميم بالدراسة والمسح الكامل للمبنى ، ودراسة الوضع الراهن مع الاختبارات والتحليل ، ودراسة الوضع الأصلي والتطور خلال القرون وبرنامج الوظيفة الجديدة . ومن خلال هذه المراحل ، تبدأ المدينة القديمة بتمثيل

دورها بشكل هام في حياة المدينة كلها ، مع التأكيد في الوقت الحاضر على ضرورة وقاية وحماية وتطوير الممتلكات الثقافية والمعمارية .

ترزخ دمشق في الوقت الحاضر تحت كاهل عدد من المشاكل التي تهدد بيئتها وعمرانها الأثري . ومن الممكن أن نعزو ذلك إلى النمو السريع . لقد فاقت في نموها تطلعات المخطط المقترح لمستقبلها عام ١٩٦٨م وذلك ضمن فترة وجيزة لا تزيد عن أربعة عشر عاماً .

لقد سبب هذا النمو اضطراباً نشاهده في عمرانها يبرز في فقدان الطابع المعماري الفريد . إن سرعة تنفيذ دراسات المشاريع ورغبة أصحابها في الحصول على المردود المادي الأكثر قيدتا المهندس المصمم الذي لجأ إلى استخدام البيتون المسلح والكسوة الرخيصة التي تتطلب جهداً وإشرافاً ضئيلين .

بدأت المعاول تنهش قلب دمشق ، وبدأت صروح العمارة الغربية تظهر في مركزها ، وأصبحت أحياء دمشق مهددة بالألومنيوم والزجاج . هدوء أحيائنا وحرارتنا القديمة وخصوصياتها ورومانسيتها وعرائشها تزول لتفسح المجال واسعاً أمام حضارة البيتون المسلح والعمارة الاستهلاكية المستوردة ، حضارة الآلة بكل عنفوانها .

إن الحمل الأكبر من مشاكل دمشق القديمة يقع على سوء الاستخدام الذي يسمح بممارسته في فراغاتها وضمن نسيجها الأثري . مع عدم وجود الوازع الفردي عند المواطن ، إلى قيام الأفراد المتسلطين باستخدام الأبنية السكنية التي هجرها أصحابها كمكان لممارسة نشاطهم الصناعي أو الحرفي أو تحويلها إلى أماكن عامة من مطاعم ومقاهي... إلخ ؛ مما يؤدي إلى تأكلها أو تعريضها للحريق الذي يلتهمها وجوارها ، فكيف الحال إذا كانت هذه الأبنية السكنية ذات الالتصاق والتراكم الكبيرين قريبة من أبنية آثارنا جميعها بدون استثناء .

ونشاهد على الأوتوسترادات الداخلة إلى دمشق إعلانات عن ضواح إسكانية تقوم بها مؤسسات حكومية وشعبية للإسكان سوف تضيف بدون أدنى شك إلى

الأرقام المتوقعة لكل من السكان والمساحات المخصصة لهذه المدينة أرقاماً أخرى .

الأمر الذي يضع سؤالاً واحداً تجاه المسؤولين في البلدية عن مدى كفاية المدينة القديمة كمركز تجاري وبأي اتجاه سيتم الضغط مستقبلاً ، ولتحويل أي نوع من الأبنية للخدمات التجارية .

تتمركز بعض هذه الضواحي الإسكانية في المناطق الخضراء والأرض الزراعية المحتوية في جوفها على قدر من المياه يمكن الاستفادة منه في ري المزروعات والخضراوات التي أصبح أمر وجودها في واحتنا مطروحاً على الاستفسار .

إن إحصائيات التقرير المتعلقة بالموارد المائية والأبحاث الفنية المنجزة من قبل الخبراء الأجانب وردت فيه كمسلمات لم تناقش أو تمثل نتائجها على المخطط التنظيمي مستقبلاً . ومن الحياء بالطبع أن يناقش ، عند العودة مستقبلاً لهذا المخطط ، موضوع ضرورة المياه في حياة سكان دمشق ، ولماذا يشربون الآن مياه الآبار بدلاً من مياه عين الفيحة وبقيين ، في حين تباع مياه مدينتهم في زجاجات بلاستيكية في دول الصحراء العربية بحفنة دولارات .

نتذكر ، ونحن نناقش المدينة القديمة ، أنفسنا أطفالاً صغاراً نسير في دروبها ، ونعبر ساحاتها دونما وجل ، نتذكر أجدادنا وتراثنا ونتطلع إلى المستقبل بعين التفاؤل ، ونبني مستقبلنا ضمن برنامج واضح مرتبط بالمدينة العاصمة ذات القلب الأخوي الصادق الكبير الذي يضم بين جناحيه رؤى الأطفال . ونحن جميعاً لن نفقد الأمل في أن تبقى دمشق القديمة صامدة ريثما تقوم الأجيال الصاعدة من المعماريين والمهندسين والمفكرين ، بالتصدي للمؤامرة في المخطط التنظيمي .

وفي الختام... إن مدينة دمشق كثر كبير... فهي حضارة متكاملة بمختلف وجوهها تقتضي منا كل رعاية وتطوير .

إن مدينة دمشق القديمة ضمن السور ، لم تعد تستطيع الانتظار ، فقد أخذ سكانها يمارسون فيها سلطة البلدية ، والردع وحده لا يكفي ، لا بد من الشروع

بوضع الحلول والقرارات وإيجاد هيئة لها الظروف الملائمة للتنفيذ .

إن مسألة مصير المدينة القديمة ككل ، ومصير كل جزء من أجزائها تتحلى بنفس أهمية مسألة الوظيفة المقبلة .

هل نحول المدينة القديمة إلى تحفة أثرية مية ليشاهدها الزائرون ، أم نبقىها مدينة تنبض فيها الحياة التي يجب أن يتحمل كل مواطن مسؤوليته تجاهها من حيث الحفاظ عليها وحمايتها ؛ لأنها تمثل الأصالة والتراث التاريخي على مر العصور والأجيال .

إن حماية مدينة دمشق القديمة عملية معقدة ولكنها ليست مستحيلة . دمشق القديمة تراث حضاري لا مثيل له ولكنه أهمل وحل به التشويه والاستخدام السيء .

* * *

تحية الشام

إيليا أبو ماضي

والغوطة الخضراء والمحرايا	حيي الشام مهنداً وكتابا
عزم تمرد فاستطال قبابا	ليست قباباً ما رأيت وإنما
للعلی سكنت حصی وترابا	فالثم بروحك أرضها تلثم عصوراً
يستعطف التلعات والأعشابا	واهبط على بردی يصفق ضاحكاً
فرأى الجمال هنا فحنّ فذابا	روحٌ أطلّ من السماء عشيّة
تنساب من وجد به منسابا	وصفا وشفّ فأوشكت صفاته
شوقاً ولم تملك لهنّ إيابا	بل أدمع حور الجنان ذرفنها
وبني النهى فترشفوك رضابا	بردى ذكرتك للعطاشى فارتوا
تفسد وكم خبث الزمان وطابا	مرت بك الأدهار لم تخبث ولم

* * *

فضل مدينة دمشق وبلاد الشام

الشام محط الأنبياء ، وبلاد الأولياء ، وحسنةٌ من حسنات الدهر ، لها من الفضائل ما تعجز هذه العجالة عن جمعه وإحصائه ، وهذه الفضائل مبثوثة في كتب ومجموعات يصعب حصرها . ولعل الكتب التي تتحدث عن تاريخ دمشق وفضائلها لو جمعت لكانت مجمعةً في دراسة تاريخ دمشق دراسة تفصيلية تحيط بكل صغيرة وكبيرة في تاريخ هذه المدينة المباركة .

فما من مدينة تُخدم تاريخها وتراثها بالقدر الذي خدم به تاريخ دمشق وتراثها ، ولم ينطلق هذا العمل الجبار من فراغ بل كانت وراءه دوافع عدة مُحَرِّضة ، منها :

ما حبا الله به هذه المدينة من صفات طبيعية جميلة ، وأخرى سكانية ودينية جليلة ، أعلت من شأنها بين المدن حتى صارت في نظر كثيرين من أجل بلاد الشام مكاناً ، وأحسنها بنياناً ، وأعدلها هواءً ، وأعذبها ماءً ، وفيها الغوطة التي لم يكن على وجه الأرض مثلها ، بها أنهار جارية مخترقة ، وعيون سارحة متدفقة ، وأشجار باسقة ، وثمار يانعة ، وفواكه مختلفة منها التفاح المتنوع طعماً ولوناً وشكلاً الذي يضرب به المثل في الحسن والطيب والرائحة ، والمشمش الحموي والعنب الزيني اللذان لا نظير لهما بسواها ، وغير ذلك من الصفات الطبيعية التي سنأتي على ذكر بعضها ، في هذا الكتاب .

ومن أبرز الدوافع التي حَدَّتْ بالباحثين إلى الاهتمام الزائد بدمشق ، كثرة ما ورد في الأثر من أحاديث شريفة يحث فيها رسول الله ﷺ أمته على سكنى الشام التي أخبر بتكفل الله عز وجل لمن سكنها . يضاف إلى هذا الاعتقاد بأنها أرض المحشر

والمنشر^(١) والميزان ، استناداً لحديث أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ الذي يقول فيه : قلت للنبي ﷺ : يا رسول الله أين الناس يوم القيامة ؟ فقال : في خير أرض الله وأحبها إليه : الشام^(٢) .

ومما زاد في رفعة دمشق ومكانتها عند المسلمين خاصة ، إخبار الرسول ﷺ بأنها مهبط عيسى ابن مريم عليهما السلام ، كما ورد في الحديث الشريف الذي يقول فيه ﷺ : « ينزل عيسى ابن مريم على المنارة البيضاء شرقي دمشق » .

والأحاديث في فضل الشام كثيرة لا يتسع المقام لحصرها ، وربما لهذا عدها البعض رابعة المدن المقدسة عند المسلمين بعد مكة المكرمة ، والمدينة المنورة ، والقدس الشريف ، هذا فضلاً عن كونها مقدسة عند اليهود والنصارى أيضاً .

ومن الدوافع الأخرى الهامة لاهتمام الباحثين والمؤرخين بدمشق والحديث عنها وعن فضائلها ، موقعها الهام في بلاد الشام ، إضافة إلى تاريخها الحافل بالأمجاد والبطولات في مختلف العهود ، وما رأته من عز ومكانة لا تضاهى في الكثير من أدوارها التاريخية ، ولا سيما أيام دولة بني أمية .

لكل هذه السمات ، وكثير غيرها ، كثر المتحدثون عن فضائل دمشق ، ومن أبرز هؤلاء ابن عبد الرزاق الدمشقي في كتابه (حقائق الإنعام في فضائل الشام) الذي مازال مخطوطاً^(٣) وموجوداً في مكتبة الأسد الوطنية بدمشق تحت رقم (٧٣) . ومما ورد في هذا المخطوط قول ابن عبد الرزاق :

(١) عن ميمونة بنت سعد مولاة النبي (ﷺ) قالت : يا نبي الله ، افتنا في بيت المقدس ، فقال : أرض المحشر والمنشر . انظر : فضائل الشام للربيعي رقم ٤ .

(٢) عن أنس قال : قلت للنبي صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، أين الناس يوم القيامة ؟ قال : في خير أرض الله وأحبها إليه الشام وهي أرض فلسطين والإسكندرية من خير الأرضين ، المقتولون فيها لا يبعثهم الله إلى غيرها فيها قتلوا ومنها يبعثون ومنها يحشرون ومنها يدخلون الجنة . رواه ابن عساكر بإسناد ضعيف .

(٣) طبع الكتاب في دمشق ١٩٩٩م بتحقيق يوسف بديوي .

بسم الله الرحمن الرحيم

« حمداً لمن فجر ينابيع الحكم والأحكام ، كما فجر الأرض عيوناً من بحر الكرم والإنعام ، وشكراً لمن جعل الأماكن المقدسة مهبطاً لملائكته الكرام وجعلها باسطة أجنحتها على الشام التي هي مورد الأقطاب ومسكن الأبدال الفخام ، وأصلي وأسلم على نبيه الذي أينعت غصون شريعته في قلوب أهل الإسلام ، وانتظمت جوامع كلمه وبدائع حكمه في سلك البلاغة وفصيح الكلام ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الأئمة الأعلام ، ما سجدت في محراب الطروس (جمع الطرس ، وهو الصحيفة ، والكتاب) جباه الأعلام .

دمشق حدائق ربوتها عاطرة الأزهار والأكماء ، فكانها عروس تجلى وقد فاقت بمحاسنها الأقمار ، بل هي جنة عدن تجري من تحتها الأنهار .

أحمدته سبحانه وتعالى على نعم كثيرة لا تتناهى ، وأشكره على ما أنعم في شامنا ، وفضل أبدالها (الأبدال : جمع بَدَل وبَدَل ، وهم قوم من الصالحين بهم يقيم الله الأرض ، منهم أربعون في الشام وثلاثون في سائر البلاد ، لا يموت منهم أحد إلا قام مكانه آخر ولذلك سموا أبدالاً) .

أما بعد ، أيها الناس فأوصيكم وإياي بسلوك منهج التقى ، فإن من اتقى ارتقى ، ومن خالف هوى في مهوى الشقا ، واعلموا أنه تعالى فضّل بعض البلدان وضاعف فيها الحسنات ، كما فضل الناس ورفع بعضهم فوق بعض درجات ، وقد جعل سبحانه بلدتنا هذه دمشق الشام مقدسة بأرواح الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ألا وإنها موطن الأبدال ومنزلة الأقطاب ومهبط الأعور الكذاب ، فمن دعا الله تعالى فيها عند زيارة قبور الصالحين أجاب الله دعاءه وأشهده عين اليقين ، ومن زرع فيها لطائف البر والإنعام حصد أنعام الشكر من أفواه الأنام . وقد وردت الأخبار بفضلها وفضل من دخلها من المؤمنين ، قال تعالى ﴿ وَأَوْثَنَهُمَا إِلَىٰ رَبِّهِ ذَاتَ قَرَارٍ وَمَعِينٌ ﴾ قال ابن عباس : ثبت أنها أنهار دمشق .

والحمد لله الذي فتح خزائن رحمته ، وهو الكريم الفتاح وفضل الشام وجعلها مسكن الأبدال وأهل الصلاح ، ومما يدل على فضل دمشق المحمية ، وأنها ذات العماد المشتملة على المحاسن البهية ، قوله تعالى في سورة الفجر ﴿إِرمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ .

قال السهيلي في كتابه الإعلام : قد ذكرنا ﴿إِرمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ وأن جيرون بن سعد بن إرم هو الذي بنى مدينة دمشق ، وبه تُعرف ، وتُسمى جيرون وأنه وُجد فيها من آثار بنائه أربعمئة ألف وأربعون ألف عمود من رخام ونيف .

ومما يدل على فضل الشام ويُشعر بأنها نزهة الناظرين وذات أنهار وبساتين قوله تعالى في سورة المؤمنون [الآية : ٥٠] ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ قال الإمام السيوطي في تفسيره المسمى بالدرّ المنثور : أخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿وَأَوَيْنَاهُمَا﴾ قال : عيسى وأمه حين أويا إلى الغوطة وما حولها .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : الربوة المستوى ، والمعين الماء الجاري ، وهو النهر الذي قال الله تعالى فيه : ﴿قَدْ جَعَلْنَا لَكَ رَبِّكَ نَحْنًا سَرِيًّا﴾ ، وأخرج ابن عساکر عن ابن سلام في قوله ﴿إِلَى رَبْوَةٍ﴾ قال : هي دمشق .

وأخرج أيضاً عن يزيد بن شجرة الصحابي قال : دمشق هي الربوة المباركة ، وقال السهيلي في الإعلام في قوله تعالى ﴿طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَثَابٍ﴾ وهي شجرة أصلها في قصر النبي ﷺ في الجنة ، ثم تنقسم فروعها على منازل أهل الجنة ، كما انتشر منه العلم والإيمان على أهل الدنيا ، وهذه الشجرة هي من شجر الجوز ، روي ذلك من طريق صحيح ذكره أبو عمر في (التمهيد) أن أعرابياً سأل النبي ﷺ عن شجرة (طوبى) فقال له : « هل أتيت الشام ؟ فإن فيها شجرة يقال لها الجوزة »^(١) .

(١) في التمهيد (٣/ ٣٢٠-٣٢١) : حدثني أحمد بن عمر قال : حدثنا عبد الله بن محمد بن علي قال : حدثنا محمد بن فطيس قال : حدثنا محمد بن إسحاق السجسي قال : حدثنا عبد الرزاق قال : أخبرنا معمر عن يحيى بن أبي كثير عن عمرو بن يزيد البكالي عن عتبة بن =

ومما قاله ابن جبير الأندلسي في رحلته في دمشق : جنة المشرق ، ومطلع نوره المشرق ، وهي خاتمة بلاد الإسلام التي استقريناها ، وعروس المدن التي اجتليناها ، وقد تحلّت بأزاهير الرياحين ، وتجلّت في حلل سندسية من البساتين ، وحلّت من موضع الحسن بالمكان المكين ، وتزينت في منصتها أجمل تزيين ، وتشرفت بأن آوى الله تعالى المسيح وأمه منها إلى ربوة ذات قرار ومعين ، ظلّ ظليل ، وماء سلسيل ، تنساب مذائبه انسياب الأرقام بكل سبيل ، ورياض يحيي النفوس نسيمها العليل ، تتبرج لناظريها بمجتلئ صقيل ، وتنادي هلموا إلى مغرس للحسن ومقيل ، قد سمت أرضها كثرة الماء حتى احتاجت للظماء فكاد تناديك بها الصّم الصلاب : اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ، قد أحدثت البساتين بها إحداق الهالة بالقمر ، واكتنفها اكتناف الكمامة للزهر ، وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر ، فكل موضع لحظته بجهات الأربعة نضرتة اليانعة قيد النظر ، والله درُّ القائلين عنها : إن كانت الجنة في الأرض فدمشق لا شك فيها وإن كانت في السماء فهي بحيث تساميهما وتحاذيهما :

للشام فضل باهر يعيشها الرغد النضر
في كل حين يلتقي ماء الحياة والخضر

= عبد السلمي قال : جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن الجنة وذكر الحوض فقال : فيها فاكهة ، قال : نعم شجرة تدعى طوبى ، قال يا رسول الله : أي شجر أرضنا تشبه قال : لا تشبه شيئاً من شجر أرضك ائت الشام هناك شجرة تدعى الجوزة تنبت على ساق يفترش أعلاها ، قال يا رسول الله : فما عظم أصلها ، قال : لو ارتحلت جذعة من إبل أهلك ما أحاطت بأصلها حتى تنكسر ترقوتها هراً قال : هل فيها عنب ؟ قال : نعم ، قال : فما عظم العنقود منها قال : مسيرة الغراب شهر ألا يقع ولا يفتر ، قال : فما عظم حبها قال : أما عمد أبوك وأهلك إلى جذعة فذبها وسلخ أهابها ؟ فقال : افروا لنا منها دلواً فقال رسول الله : إن تلك الحبة لتشبعني وأهل بيتي قال : نعم وأهل عشيرتك . بإسناد ضعيف .

دمشق الشام تلك المدينة العظيمة في التاريخ والحاضر والتي جمعت ما لم تجمع
مثله مدينة في الشام .

ميراث ضخّم من الماضي جعلها أقدم المدن المسكونة في الأرض بلا خلاف ،
فقد تجمّع فيها ما تفرّق في مدن الأرض من الجمال ، فالجنان في غوطتها ،
والأنهار في ربوتها ، والسهل في مزّتها ، والبساتين التي يضل فيها النظر سكران من
الفتون ، والجبال من حولها وكل مجالي الوجود فيها ، من قاسيون ترى الخضرة
النضرة ، وقد احتوى هذا الجبل على معابد للصالحين وأماكن للزهاد والعابدين ،
وكهوف تشهد فيها الأنوار وتقصد للزيارة والدعاء بنزول المطر ، وعلى رأسه قبة
جليلة ، أعجوبة للناظرين مشرفة على دمشق وما حولها من البساتين تسمى قبة
النصر ، تحمل إليها النسائم طيب الرياحين والزهر ، وفي هذا الجبل آوى الله تعالى
عيسى ابن مريم وأمه عليهما السلام من اليهود ونجاه ، وفيه قتل ابن آدم أخاه ، وكم
فيه من آثار الأنبياء عليهم السلام كما نقله الأئمة الأعلام) .

قال ابن الوردي في خريدة العجائب :

(ومن خواصّ الشام أنها كانت موطن الأنبياء عليهم السلام ، والزهاد ، وعشّ
العباد . ومن خصائصها التفاح الذي يضرب به المثل في الحسن والطيب والرائحة ،
ومنها الزجاج الذي يشبه به كل شيء رقيق ويقال على ألسنة الأنام أرق من زجاج
الشام) .

الأبدال :

ومما رفع من مكانة دمشق أيضاً ، وخصوصاً في نظر المسلمين ، كثرة ما فيها
من الأبدال والأولياء ، ولذلك قيل : (ستكون دمشق أكثر المدن أبدالاً وزهاداً
وأكثرها مساجد ، وهي لأهلها معقل ، وأكثر المدن أهلاً وأكثرها مالاً ورجالاً) ،
ونسب لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه قوله : (الأبدال بالشام ، بهم يرحم الله
جميع أهل الأرض وينصرهم على الأعداء ، كلما هلك منهم رجل أخلف الله مكانه

رجلاً) ، ونسب لأحمد بن حنبل قوله : (الأبدال يكونون بالشام ، وهم أربعون رجلاً ، كلما مات منهم رجل أبدل الله مكانه رجلاً ، يسقى بهم الغيث ، وينتصر بهم على الأعداء ويصرفُ عن أهل الشام بهم العذاب) .

ولا ينافي قوله ها هنا (دمشق أكثر المدن أبدالاً وزهاداً) ما مرَّ من أنهم في الشام ؛ لأن الشام تطلق على عدة مدن كما نعلم ، ودمشق بعض مدنها ، وقد خصت بوجود أكثر الأبدال فيها فكانت أفضل من سائر مدنها .

وأخرج السيوطي بأسانيد ضعيفة عن الرسول ﷺ ، أنه قال : « الأبدال في هذه الأمة ثلاثون رجلاً ، قلوبهم على قلب إبراهيم خليل الرحمن ، كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلاً » . وقال : « الأبدال في أمتي ثلاثون بهم تقوم الأرض وبهم تمطرون وبهم تنصرون » .

وبهذا الصدد ، يقول الإمام الغزالي : (إنما استتر الأبدال عن أعين الناس ؛ لأنهم لا يطيقون النظر إلى علماء الوقت ؛ لأنهم عندهم جهال بالله وهم عند أنفسهم علماء) .

ومما ورد في فضل دمشق أيضاً ما نسب إلى علي بن أبي طالب (لا تسبوا أهل الشام فإن فيهم الأبدال) . وهذا ، كما لا يخفى ، مما يدل على فضل دمشق وأهلها ، فما يقع من بعض الجهلة من السب والشتم لأهلها على العموم ، فحرام ويجب الكف عنه .

والأبدال بفتح الهمزة جمع بَدَل بفتحين ، وقوله بالشام بالباء ، أي مقامهم بأرض الشام ومجمعهم فيها ، وهم من أهلها (الأبدال في أهل الشام) وسموا أبدالاً ؛ لأنه (كلما مات واحد منهم أبدل الله مكانه آخر) . أو لأنهم أبدلوا أخلاقهم السيئة بالأخلاق الحسنة حتى صارت محاسن أخلاقهم حلية أعمالهم ، أو لأن حسناتهم بدل عن السيئات ؛ لقول العارف الشاذلي : من بُدِّلَتْ سيئاته حسنات فهو بدل ، وهذا عند العارفين أول مراتب البدلية ، أو لأن الأنبياء كانوا في الخلق كالأوتاد في الأرض ، فلما انقطعت النبوة أبدل الله مكانهم هؤلاء . وفي هذا أخرج

الإمام السيوطي بإسناد ضعيف عن الرسول ﷺ أنه قال : « الأبدال أربعون رجلاً وأربعون امرأة كلما مات رجل منهم أبدل الله تعالى مكانه رجلاً ، وكلما ماتت منهم امرأة أبدل الله تعالى مكانها امرأة » .

وفي سبب تقدير هؤلاء الأبدال ، قال الإمام المناوي : وزاد في رواية الحكيم (لم يسبقوا الناس بكثرة صلاة ولا صوم ولا تسبيح ، ولكن بحسن الخلق وصدق الورع وحسن النية وسلامة الصدر ، أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون) . وعن معروف الكرخي : (من قال كل يوم : اللهم ارحم أمة محمد كتبه الله من الأبدال) وهو في الحلية بلفظ : (من قال كل يوم عشر مرات : اللهم أصلح أمة محمد ، اللهم فرج عن أمة محمد ، اللهم ارحم أمة محمد كُتِبَ من الأبدال) . ومما يعده الناس دليلاً على عظمة دمشق ، ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما ، والمقصود قوله : (وكَلَّ الله بكل بلد ملكاً يحرسه إلا دمشق فإنه عز وجل تولاهما بنفسه) ذكره سبط ابن الجوزي .

وروي أحمد وأبو داود بسند ضعيف عن علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « من مات بالشام أعطي الأمان من ضغطة القبر ، والجواز على الصراط » . ذكره في تحفة الحبيب .

ومما ذكر في فضل دمشق أيضاً قول : (من استطاع أن يضم كفيه على حفنة من تراب الشام فليفعل فإنها من ترب الجنة) .

ومما يدل على فضل دمشق كذلك ، أنها ذات العمد المشملة على المحاسن السنية ، لقوله تعالى في سورة الفجر : ﴿ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿ الفجر : ٧-٨ ﴾ .

وقال كعب الأحبار رضي الله عنه لرجل : (من أين أنت ؟ قال : من الشام ، قال : لعلك من الذين في ظل عرش الله يوم القيامة ، قال : من هم ، قال : أهل الأردن ، قال : لا ، قال : لعلك من الذين يشفع شهيدهم في سبعين ؟ قال : من هم ؟ قال : أهل حمص ، قال : لا ، قال : لعلك من الذين يُعرفون في الجنة

بالثياب الخضراء؟ قال : من هم ؟ قال : أهل دمشق ، قال : لا ، قال : لعلك من الذين ينظر الله تعالى إليهم كل يوم مرتين ؟ قال : من هم ؟ قال : أهل فلسطين ، قال : نعم) .

وما من نبي إلا وهو من الشام أو هاجر إليها . وإن سيد الخلائق أجمعين وحبيب رب العالمين قدم مع عمه إلى بلاد الشام وهو ابن اثنتي عشرة سنة ، وعرفه (الراهب بحيرا) وذلك مما حازه ﷺ ، من وصف النبوة وحواه .

وقد دخل الشام عشرة آلاف عين رأَت النبي ﷺ ، ونزل في حمص سبع مئة صحابي رضي الله عنهم .

* * *

قالوا في دمشق

عُرِفَتْ دمشق منذ القدم بأنها ملتقى الطرق التجارية القديمة ، وبوابة الساحل إلى الداخل ، ودار عز ، وعاصمة ملك ، ومركز ثقافي وصناعي وزراعي . وما أكثر ما قيل في دمشق من أقوال وأشعار ، وما أكثر ما كُتِبَ عن فضلها وجمالها وأهلها ، وما فيها من كنوز المعرفة والحضارة ، وعن فضل العيش في ربوعها . ولعل خير ما أبدأ به هذا الفصل ما قاله الحبيب المصطفى ﷺ فيها من أحاديث شريفة ترخر بها كتب القدماء ، وكلها تتحدث عن دمشق ومديح الرسول ﷺ لها ولأهلها ، وترغيبه ﷺ الناس بسكنائها . ومن أبرز من صنف في هذا المجال ، فجمع طائفة كبيرة من هذه الأحاديث الشريفة عن دمشق وأهلها ، سلطان العلماء (العز بن عبد السلام)^(١) في كتابه (ترغيب أهل الإسلام في سكنى الشام) ، ولكن قبله وبعده جمع القدماء وصنفوا الكثير من الكتب التي ضمت بين دفتيها الكثير من أحاديث رسول الله ﷺ في فضل الشام وسكنائها ، وفيما يلي عدد من أبرز هذه الأحاديث^(٢) وأشهرها .

آيات قرآنية ذُكرت فيها دمشق :

١- أخبرنا أبو بكر محمد بن إبراهيم بن سهل بن يحيى بن صالح بن حية البزاز قال : أنبأنا أبو نصر إسماعيل بن محمد بن إسحاق العذري أنبأنا سليمان بن

(١) هو عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السُّلمي المتوفى سنة ٦٦٠ هجرية .

(٢) ذكر المصنف في كتابه كثيراً من الأحاديث المرفوعة والموقوفة وأقوال التابعين فيها الكثير من الموضوع والضعف ، والقليل من الصحيح ، فليتبته لذلك . وقد آثرنا إبقاءها ؛ ليتعرف القارئ على هذا الكم المتداول ، وتكون له بذلك فسحة الانتقاء .

عبد الرحمن أنبأنا مسلمة بن علي أبو سعيد الأسدي عن سليم بن عامر عن أبي أمامة عن النبي ﷺ أنه تلا هذه الآية : ﴿وَأَوَيْنَهُمَا إِلَى رُبُورٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ فقال : هل تدرون أين هي ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « هي بالشام بأرض يقال لها الغوطة ، في مدينة يقال لها دمشق ، هي خير مدن الشام » .

٢- ﴿وَأَوَيْنَهُمَا إِلَى رُبُورٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ قال : (هي دمشق) (١) .

٣- حدثني أم عبد الله عن أبيها في قوله عز وجل : ﴿وَأَوَيْنَهُمَا إِلَى رُبُورٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ ، قال : هي دمشق . وفي قوله تعالى : ﴿وَاللَّيْلِ وَالزَّيْتُونِ﴾ وقوله تعالى : ﴿لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْإِلَادِ﴾ ، قال : هي دمشق .

٤- حدثني أم عبد الله عن أبيها وهو خالد بن معدان في قول الله تعالى : ﴿رُبُورٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ أنه قال : هي دمشق ، وكذلك قوله : ﴿وَاللَّيْلِ وَالزَّيْتُونِ﴾ ، وقوله : ﴿لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْإِلَادِ﴾ قال : يعني دمشق .

٥- ﴿رُبُورٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون : ٥٠] إن النبي ﷺ قال : في هذه الآية وأويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين ، قال : هل تدرون أين هي ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم !! قال : هي بالشام بأرض يقال لها : الغوطة ، مدينة يقال لها : دمشق هي خيرها (٢) .

٦- عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : من أراد أن يرى الموضع الذي قال الله عز وجل فيه : ﴿وَأَوَيْنَهُمَا إِلَى رُبُورٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ فليأت النيرب الأعلى بدمشق بين النهرين . وليصعد إلى الغار بجبل قاسيون ، فليصل فيه فإنه بيت عيسى وأمه عليهما السلام ، وهو كان معقلهما من اليهود ، ومن أراد أن ينظر إلى (إرم) فليأت نهراً في حوض دمشق يقال له : (بردى) ، ومن أراد أن ينظر إلى المقبرة التي فيها مريم بنت عمران والحواريون فليأت مقبرة الفراديس .

٧- عن خالد بن معدان في قوله عز وجل : ﴿لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْإِلَادِ﴾ ، قال : هي

دمشق .

(١) سعيد بن المسيب .

(٢) بسند ابن عساكر إلى أبي أمامة .

٨- عن المقبري ، في قوله تعالى ، في سورة الفجر : ﴿إِرم ذاتَ الْعِمَادِ﴾ قال : هي دمشق .

٩- قال تعالى في سورة الأنبياء صلوات الله عليهم : ﴿وَجَعَلْنَاهُ لُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الآية : ٧١] ، وفي الدر المنثور ، أخرج ابن أبي شيبة عن ابن مالك قال : (هي الشام) : وأخرج عبد بن حميد وغيره عن قتادة قوله في ﴿وَجَعَلْنَاهُ لُوطًا...﴾ كان في أرض العراق ، فأنجيناها إلى أرض الشام . وكان يقال : الشام دار الهجرة وما نقص من الأرض زيد في الشام ، وما نقص من الشام زيد في فلسطين . وكان يقال : هي أرض المحشر والمنشر ، وبها ينزل عيسى ، وبها يهلك الله مسيح الضلالة الدجال . وقال البغوي : ﴿وَجَعَلْنَاهُ لُوطًا﴾ ، أي : من نمرود ، وفوقه من العراق ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ ، يعني الشام التي بارك الله فيها بالخصب وكثرة الأشجار والثمار والأنهار ، ومنها بعث أكثر الأنبياء .

قال أبي بن كعب : سمّاها مباركة ؛ لأنه ما من ماء عذب إلا ينبع أصله من تحت الصخرة التي ببيت المقدس . وقال أيضاً في (المدارك) ﴿بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ : أي : أرض الشام وبركتها ، أوى أكثر الأنبياء إليها ، فانتشرت في العالمين آثارهم الدينية والدنيوية ، وهي أرض خصب يطيب فيها عيش الغني والفقير .

١٠- بالسند إلى عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنها ستكون هجرة بعد هجرة ، فخير الناس إلى مهاجر إبراهيم كما قال تعالى : ﴿فَقَامَنَ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾ [العنكبوت : ٢٦] ، فخرج إبراهيم عليه السلام من أرض العراق يلتمس الفرار بدينه حتى نزل حرّان ، ثم هاجر إلى مصر ، ثم إلى الشام ، فنزل السبع من أرض فلسطين ، وهو برية الشام ، ونزل لوط بالمؤتفكة ، وبينهما يوم وليلة أو أقرب » .

١١- قال مقاتل : نزل إبراهيم بجبل لبنان ، وأقام مدة ، فاشتاق إلى الأرض المقدسة فأوحى الله إليه : اصعد على رأس لبنان وانظر أي مكان اخترت من الأرض

فهو مقدس ، فنظر فانتهى إلى دمشق الشام والأردن وفلسطين ، فقال الله تعالى :
هذه الأماكن كلها مقدسة .

١٢- قال العيني في تاريخه : قال ابن هشام : لما اعتزل إبراهيم قومه ، وقطع
الفرات ودخل الشام ، ووصل إلى دمشق ، ومعه سارة ولوط وجماعة آمنوا به ،
وكان له أربع مئة عبد يجاهدون بالعصي ، وكان بدمشق جبار ، فخرج إليه إبراهيم
وقتله ، مما يدل أيضاً على فضل الشام وأنها الأرض التي يرثها العباد الصالحون من
أمة خير الأنام ، كما في قوله تعالى في سورة الأنبياء : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ
بَعْدَ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ [الآية : ١٠٥] .

قال السهيلي في كتابه (الإعلام) هي الشام . وقيل : أرض الجنة . والأول
قول أبي الدرداء وجماعة . وعباده الصالحون هم أمة محمد ﷺ . كذلك قال
النسفي في المدارك : (إن الأرض) أي الشام (يرثها عبادي الصالحون) أي أمة
محمد ﷺ .

١٣- قال الله تعالى في كتابه العزيز عندما حاول الكفار إحراق سيدنا إبراهيم عليه
السلام : ﴿ قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۚ ۝ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ
الْأَخْسَرِينَ ۚ ۝ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٦٩-٧١] ، هي
الشام بعد أن كان في بابل بالعراق .

١٤- ومما يدل أيضاً على فضل الشام ، وأنها الأرض المقدسة التي بارك الله فيها
للأنام ، قوله تعالى في سورة الأنبياء : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي
بَارَكْنَا فِيهَا ۚ ﴾ [الآية : ٨١] قال صاحب تفسير الجلالين وغيره : هي الشام . وقال الإمام
النسفي في المدارك : ﴿ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۚ ﴾ بكثرة الأنهار والأشجار والثمار ،
والمراد الشام ، وكان منزله بها ، وتحمله الريح من نواحي الأرض إليها .

١٥- ومما يدل على فضل الشام ، ويُشعر بأنها منزلٌ صالح ، وموطن كرامة
وإنعام قوله تعالى في سورة يونس عليه السلام : ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبُوءًا صَدَقِ
وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ [الآية : ٩٣] قال السهيلي : المبوء هنا الشام وبيت المقدس ،

وقال الضحاك : الشام ومصر . وقال البيضاوي : ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا ﴾ أنزلنا ﴿ بَنِي إِسْرَءِيلَ مُبَوَّأً صَدَقِ ﴾ منزلاً صالحاً مرضياً وهو الشام ومصر ﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ من اللذائذ . وقال صاحب تفسير الجلالين ﴿ مُبَوَّأً صَدَقِ ﴾ منزل كرامة وهو الشام ومصر .

١٦- ومما يدل أيضاً على فضل الشام البهية ، وأنه تعالى بارك فيها بالخصب وكثرة الأنهار والأشجار الوفية ، قوله تعالى في سورة الأعراف ﴿ وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعِفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا ﴾ [الآية : ١٣٧] قال الحافظ النسفي في المدارك : ﴿ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا ﴾ يعني أرض مصر والشام التي باركنا فيها بالخصب وسعة الرزق وكثرة الأنهار والأشجار . وقال (مشير الغرام) معنى قوله : ﴿ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا ﴾ ، أي : جهات شرقها أرض الشام ، ﴿ وَمَغْرِبَهَا ﴾ أي : جهات غربها أرض مصر .

مكانة بلاد الشام في الحديث النبوي الشريف :

هذه مقالة كتبها د . الشيخ محمود عكام ، أثرت نقلها بفصها ونصها لفائدتها .

١- الحدود والجغرافيا :

بلاد الشام أو الشام أو سورية ، مهد الإنسان الأول ، وأحد الأقاليم الجغرافية الأكثر شهرة في العالم القديم ، ومن أكثر المناطق الاستراتيجية أهمية في العالم الحديث . واسم (الشام) قديم ، وقد استعمله العرب للدلالة على جميع المناطق الواقعة إلى الشمال من الجزيرة العربية ، ما عدا إقليم العراق ، كما كانوا يطلقون اسم اليمن - يَمَنَات أو يمون - على مناطق الجنوب .

ولم يكن لبلاد الشام حدود سياسية ثابتة ، وقد حددها الجغرافيون العرب بعبارات مختلفة إلا أنها متفقة عموماً .

يقول ياقوت الحموي : « حدّ الشام من الفرات إلى العريش المتاخمة للديار المصرية ، وأما عرضها فمن جبل طيء من نحو القبلة إلى بحر الروم » .

وكأن الأصطخري من أقدم من أوضح حدود الشام ، فهو يقول : « وأما الشام فإن غربها بحر الروم ، وشرقها البادية من أيلة إلى الفرات ، ثم من الفرات إلى حد الروم ، وشمالها بلاد الروم ، وجنوبها حد مصر وتيه سيناء ، وآخر حدودها مما يلي مصر رفح ، ومما يلي الروم الثغور » .

ويضيف الأصطخري وهو يتحدث عن الثغور الشمالية لبلاد الشام أنها مما يلي الروم ، وهي ملطية والحداث ومرعش والهارونية وعين زربة والمصيصة وأذنة وطرسوس . وتقع كلها اليوم في تركيا .

ويتفق الأصطخري مع ابن حوقل والمقدسي في تحديد أقاليم بلاد الشام ، فيرون أنها فلسطين والأردن ودمشق وحمص وقنسرين ، ويضيفون إليها الجبال والشراة .

وهكذا فإن حدود بلاد الشام ، بحسب ما أورده الجغرافيون العرب الأوائل هي تقريباً سورية الحالية ولبنان وفلسطين والأردن وسيناء وقسم من تركيا .

٢- أرض مباركة على مستوى الدين كله :

- قال الله تعالى : ﴿ وَأَوْثَرْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعَفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ [الأعراف : ١٣٧] . ومعلوم أن المقصود هنا مشارق أرض بلاد الشام ومغاربها .

- قال الله تعالى : ﴿ سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ عَيْنِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء : ١] (والمسجد الأقصى من أرض الشام) .

- قال الله تعالى : ﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾ [يوسف : ٢٥] وَبَجَيْتَهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧٠-٧١] . ومعلوم أن إبراهيم إنما نجاه الله ولوطاً- من أرض الجزيرة والعراق - إلى أرض الشام .

- قال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴾ [سبا : ١٨] . والقرى التي بارك فيها هي قرى الشام ، وأما القرى الظاهرة فهي ما كان بين اليمن - التي هي مساكن سبأ - وبين قرى الشام من العمارة القديمة .

- وأيضاً ففي بلاد الشام الطور الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام ، والذي أقسم به في سورة الطور ، قال الله تعالى : ﴿ وَالْطُّورِ ﴾ وَكَتَبَ مُسْطُورٍ ﴿ [الطور : ٢٠١] .

- وقال الله تعالى : ﴿ وَتَدْنِيَهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقرْنَهُ نَجِيًّا ﴾ [مريم : ٥٢] .

- وقال الله تعالى : ﴿ وَاللَّيْنِ وَالزَّيْتُونِ ﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿ [النبي : ٢٠١] .

- وفي الشام عمود الدين والطائفة المنصورة وإليها المحشر والمعاد كما سئرى في الأحاديث الشريفة محل دراستنا وموضوعنا .

٣- مكانة بلاد الشام في أحاديث النبي ﷺ :

١- عن زيد بن ثابت الأنصاري قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يا طوبى للشام . يا طوبى للشام . يا طوبى للشام » . قالوا : يا رسول الله ، وبم ذلك ؟ قال : « تلك ملائكة الله باسطو أجنحتها على الشام » . [حديث صحيح أخرجه الترمذي وأحمد] .

٢- عن عبد الله بن حوالة قال : قال رسول الله ﷺ : « ستُجندون أجناداً : جنداً بالشام وجنداً بالعراق وجنداً باليمن » .

قال عبد الله : فقمْتُ فقلت : خِرْ لي يا رسول الله . فقال : « عليكم بالشام . فمن أي فليلحق بيمنه وليستق من غدره ، فإن الله عز وجل قد تكفل لي بالشام وأهله » .

قال ربيعة : فسمعت أبا إدريس يحدث بهذا الحديث يقول : ومن تكفل الله به فلا ضيعة عليه . [حديث صحيح أخرجه الحاكم وأحمد وأبو داود والطحاوي] .

٣- عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « إني رأيت عمود الكتاب انتزع من تحت وسادتي ، فنظرت فإذا هو نور ساطع عُمد به على الشام . ألا إن الإيمان إذا وقعت الفتن بالشام ، وعقر دار المؤمنين بالشام » . [حديث صحيح أخرجه الحاكم والطبراني وابن عساکر وأحمد] .

٤- عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « الشام أرض المحشر والمنشر » . [حديث صحيح أخرجه أحمد] .

٥- عن شعبة عن معاوية مرفوعاً : « إذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم ، لا تزال طائفة من أمتي منصورين لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة » [حديث صحيح رواه الترمذي وأحمد وابن ماجه] .

٦- عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لن تبرح هذه الأمة منصورين أينما توجهوا ، لا يضرهم من خذلهم من الناس حتى يأتي أمر الله وهم بالشام » . [حديث صحيح] .

وكلمة « وهم بالشام » يشهد لها ما رواه مسلم وغيره ؛ من حديث سعد بن أبي وقاص مرفوعاً : « لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة » ، على اعتبار أن أهل الغرب هم أهل الشام كما قال الإمام أحمد وأيده شيخ الإسلام ابن تيمية .

وقد ورد هذا صراحة في بعض الأحاديث ، كما إن لغة النبي ﷺ ولغة أهل مدينته في أن أهل الغرب هم أهل الشام .

٧- عن عبد الله بن عمر قال : صَلَّى رسول الله ﷺ الفجر ثم أقبل على القوم فقال : « اللهم بارك لنا في مدينتنا ، وبارك لنا في مُدُننا وصاعنا . اللهم بارك لنا في شامنا » .

فقال رجل : وفي العراق ؟ فسكت ثم أعاد ، قال الرجل : وفي عراقنا فسكت .

وفي رواية فقال : « فيها الزلازل والفتن وبها يطلع قرن الشيطان » . [رواه أبو نعيم وابن عساكر] .

وأخرجه أحمد مختصراً بلفظ : قال : رأيت رسول الله ﷺ يشير بيده يؤم العراق : « إن الفتنة ههنا » (ثلاث مرات) من حيث يطلع [قرن الشيطان] . وإسناده صحيح على شرط مسلم .

وقد أخرج مسلم في صحيحه : أن رسول الله ﷺ قام عند باب حفصة وقال بيده نحو المشرق : « الفتنة ههنا ، من حيث يطلع قرن الشيطان » ، قالها مرتين أو ثلاثاً . وعن ابن عمر مرفوعاً إلى النبي ﷺ : « اللهم بارك لنا في شامنا . اللهم بارك لنا في يمننا » . قالوا : وفي نجدنا ؟ قال : « هناك الزلازل » . [أخرجه البخاري ومسلم وابن عساكر] .

ويستفاد من مجموع طرق الحديث أن المراد من « نجد » في رواية البخاري ليس هو الإقليم المعروف بهذا الاسم ، وإنما العراق وبذلك فسرهُ الإمام الخطابي وابن حجر العسقلاني .

٨- عن عبد الله بن حوالة أنه قال : يا رسول الله اكتب لي بلداً أكون فيه ، فلو أعلم أنك تبقى لم اختر على قريب . فقال ﷺ : « عليك بالشام » ثلاثاً . [حديث صحيح أخرجه ابن عساكر والطبراني] .

٩- عن سالم بن عبد الله عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « ستخرج نار في آخر الزمان من حضرموت تحشر الناس » . قلنا : فماذا تأمرنا يا رسول الله ؟ قال : « عليكم بالشام » . [حديث صحيح ، أخرجه أحمد والترمذي وابن حبان] .

١٠- عن بهز بن حكيم بن معاوية القشيري عن أبيه عن جده قال : قلت : يا رسول الله أين تأمرني ؟ فقال : « ها هنا » . وأوماً بيده نحو الشام . قال : « إنكم محشورون رجالاً وركباناً ومجرون على وجوهكم » . [حديث صحيح ، أخرجه أحمد والترمذي وابن عساكر] .

١١- عن أبي الدرداء أن رسول الله ﷺ قال : « فسطاط المسلمين بأرض يقال لها الغوطة . فيها مدينة يقال لها دمشق . خير منازل المسلمين يومئذ » وفي رواية : « فسطاط المسلمين يوم الملحمة بالغوطة إلى جانب مدينة يقال لها دمشق ، من خير مدائن الشام » . [حديث صحيح ، أخرجه أبو داود وأحمد والحاكم] .

١٢- عن أوس بن أوس الثقفي أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « ينزل عيسى ابن مريم عليهما السلام عند المنارة البيضاء شرقي دمشق » .
وفي رواية : « عليه ممصرتان كأن رأسه يقطر منه الجمان » .

الممصرة : لباس فيه صفرة خفيفة . [حديث صحيح رواه الطبراني ، وقال الهيثمي : رجاله ثقات . وروي عن النواس بن سمعان في مسلم وأبو داود وابن ماجه والترمذي] .

١٣- عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إذا وقعت الملاحم بعث الله من دمشق بعثاً من الموالي ، أكرمُ العرب فرساً وأجودهم سلاحاً ، يؤيد الله بهم الدين » . [حديث حسن ، أخرجه ابن ماجه والحاكم على شرط الشيخين] .

١٤- عن عوف بن مالك قال : أتيت رسول الله ﷺ وهو في بناء له ، فسلمت عليه . فقال : « عوف ؟ » . قلت : نعم يا رسول الله ، قال : « ادخل » . فقلت : كلي أم بعضي ؟ . قال : « بل كُلْكَ » . فقال لي : « أُعْذُ يا عوف ستأ بين يدي الساعة : أولهن موتي » . قال : فاستبكت حتى جعل رسول الله ﷺ يسكتني .
قال : « قل : إحدى . والثانية فتح بيت المقدس . قل : اثنتين . والثالثة فتنة تكون في أمتي » .

قال عوف : وعظّمها . قال : « والرابعة مَوْتان يقع في أمتي يأخذهم كقصاص الغنم . والخامسة يفيض المال فيكم فيضاً ، حتى عن الرجل ليعطى المئة دينار يسخطها . قل : خمساً . والسادسة هنأ تكون بينكم وبين بني الأصفر ، يسيرون إليكم على ثمانين راية ، تحت كل راية اثنا عشر ألفاً ، فسطاط المسلمين يومئذ في أرض يقال لها الغوطة ، فيها مدينة ويقال لها دمشق » . [صحيح ، أخرجه البخاري وأحمد وابن ماجه] .

١٥- وقال رسول الله ﷺ : « لا يزال أهل المغرب ظاهرين لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة » . [صحيح أخرجه مسلم] .

قال أحمد بن حنبل : أهل المغرب هم أهل الشام ، وقد كان أهل المدينة - بناء على هذا - يسمون الأوزاعي إمام أهل المغرب ، وهو إمام الديار الشامية ، ولد في بعلبك ٨٨هـ ، وتوفي ببغداد ١٥٧هـ .

تعليق أخير :

يذهب بعض الباحثين إلى أن الأحاديث النبوية التي تطول البلدان والمدن مدحاً أو ذماً أحاديث مطعون بها ، ولا يمكن أن تكون صحيحة النسبة للرسول ﷺ ، وقد ابتدأ مشوار وضع الأحاديث البلدانية - حسب رأيهم - مع الأمويين الذين جهدوا في إضفاء الشرعية على عصرهم وحكمهم ؛ من خلال امتداح البلدان التي انطلقوا منها وحطوا فيها واتخذوها مراكز لهم ، وهي بلاد الشام .

على أننا ونحن نسوق الأحاديث المتعلقة ببلاد الشام ، لم نكن على موعد لمناقشة ذاك الرأي ، بل سلطنا في ذكر الأحاديث مسلك علماء الحديث أو مصطلح الحديث ، وفحصنا الأحاديث الواردة في بلاد الشام على ضوء قواعد التحديث . وقد رأينا في الروح العامة لمقولات ديننا من قرآن وسنة ما يدعم مضمون الأحاديث التي أوردناها .

فبلاد الشام تحوي « المسجد الأقصى » وهو موطن مبارك وذو ميزة في القرآن الكريم ، وكذلك فبلاد الشام موطن ولادة أنبياء كثيرين وعلماء عديدين ، وقد توالى عليه من العظماء ما يند عن العد والإحصاء .

ثم إننا أردنا أمراً آخر من خلال سوقنا هذه الأحاديث ، ألا وهو لفت انتباه المسلمين إلى قضية الوطن والعناية به واعتباره في تنظيراتهم ومناهجهم ، وتأکید مسؤولياتهم عن أراضيهم ، وإن ذلك كله من مطالب الدين الحنيف منهم . هذا كله عندما تكون الأوطان عادية لا خصوصية لها ، فكيف إذا كانت محط تقدير ورعاية ومباركة من قبل الله عز وجل ، وكذلك من النبي ﷺ .

فيا أهل الشام ارعوا الشام ، وقفوا صامدين أمام المعتدين عليها ، سواء أكانوا أعداء بيني العداوة ، أم كانوا أعداء في لبوس أهل وأصدقاء .

فيا ربّ الشام كن للشام ولغيرها من بلاد الإنسان قاطبة ، لأن كل الأرض قد منحت بصمة القداسة في ديننا عندما قال رسول الله ﷺ : « جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً » .

من أقوال الصحابة والتابعين في دمشق :

عن كعب الأحبار رضي الله عنه أنه قال : ما بعث الله نبياً إلا من الشام ، فإن لم يكن من الشام ، هاجر إلى الشام .

بها رأس يحيى بن نبي الله زكريا عليهما السلام بين الأساطين ، من الجانب القبلي قبره .

أهل الشام يعرفون في الجنة بالثياب الخضراء .

أهل الشام قد رزقوا حظاً في سيوفهم .

كل ما بينه العبد يحاسب عليه يوم القيامة ، إلا البناء بدمشق .

لا تسبوا أهل الشام ، ففيها الأبدال وبهم ترزقون .

ما بين أرزة وبرزة ثمان مئة قبر نبي .

من صلى بمسجد إبراهيم عليه السلام في قرية برزة ، بسفح قاسيون ، أربع ركعات ، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، ولم يسأل الله تعالى شيئاً إلا أعطاه .

تخرب الأرض قبل الشام بأربعين سنة .

أطيب نزه الدنيا أربع : غوطة دمشق ونهر الأبلّة وشعب بوان وصغد سمرقند .

عن كعب الأحبار قال : أهل الشام سيف من سيوف الله ينتقم الله بهم ممن عصاه في أرضه .

عن عون بن عبد الله بن عتبة قال : قرأت فيما أنزل الله عز وجل على الأنبياء أن الله يقول : الشام كنانتي فإذا غضبت على قوم رميتهم منها بسهم .

عن يزيد بن شجرة قال : دمشق هي الربوة المباركة ، حدثنا أشياخنا أنهم لما فتحوا دمشق في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه وجدوا حجراً في جيرون مكتوب عليه باليونانية ، قال : فبعثوا إلى النصارى فلم يقرؤوه ، وإلى اليهود فلم يقرؤوه ، فجاؤوا برجل يوناني فقرأه فإذا فيه مكتوب (دمشق جبارة ، لا يهزم بها جبار إلا قصمه الله الجبار . الجبابرة تبني والقروء تخرب ، الآخرس الآخرس إلى يوم القيامة) .

عن وهب الأماري أنه كان يقول : إن الله كتب للشام : إني قدستك وباركتك ، وجعلت فيك مقامي ، وأنت صفوتي من بلادي ، وأنا سائق إليك صفوتي من عبادي ، فاتسعي لهم برزقك ومساكنك كما يتسع الرحم إن وضع فيه اثنان وسعهم ، وإن ثلاثة مثل ذلك . وعيني عليك بالطل والمطر من أول السنين إلى آخر الدهر ، فلن أنساك حتى أنسى يميني ، وحتى تنسى ذات الرحم ما في رحمها .

عن أبي بكر النهشلي قال : كنت في الجَمْع - ويعني جمع الكوفة - يوم جاء أهل الشام يقاتلون أهل الكوفة ، فإذا شيخ حسن الخضاب ، حسن الهيئة ، على دابة له وهو يقول : اللهم لا تنصرنا عليهم ، اللهم فرق بيننا وبينهم ، اللهم اللهم . قال : قلت : يا عبد الله ألا تتقي الله ، ألا تخرج ترى قوماً قد جاؤوا يريدون أن يقاتلوا مقاتلينا ، ويسبوا ذرارينا ، وأنت تقول : اللهم لا تنصرنا عليهم اللهم اللهم ؟ قال : ويحك ، إني سمعت عبد الله بن مسعود يقول : لا يغلب أهل الشام إلا شرار الخلق .

عن خالد بن معدان في قوله تعالى ﴿لَمْ يَخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبَلَدِ﴾ - سورة الفجر - قال : هي دمشق .

عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر قال : قلت لأبي سلام الحبشي : ما نقلك من

حمص إلى دمشق ؟ قال : ما سألتني عنها عربي قبلك !! بلغني أن البركة تضاعف فيها .

روي عن كعب الأحبار أنه قال : في التوراة : محمد رسول الله ، لا فظ ولا غليظ ، مولده بمكة ، وهجرته بطيبة ، وملكه بالشام . وقد قال العز بن عبد السلام مامعناه : الذي ذكره كعب موافق للمشاهدة والعيان فإن قوة الدين في الشام .

وعن كعب الأحبار أيضاً : أهل الشام سيف من سيوف الله عز وجل ينتقم الله عز وجل بهم ممن عصاه في أرضه .

قال علي بن ضمام عن كعب الأحبار : جاء إليه رجل فقال : إني أريد الخروج أبتغي فضل الله عز وجل . فقال : عليك بالشام فإنه ما نقص من بركة الأرضين يزداد في الشام .

وقال الحافظ ابن رجب في كتاب اللطائف : وأما إضاءة قصور بصرى بالنور الذي ظهر عند ولادته ﷺ ، فهو الإشارة إلى ما خصّ الشام من (نور نبوته) بأنها دار ملكه .

قال كعب الأحبار : رأيت في بعض الكتب السابقة أن محمداً عبدي ورسولي ، مولده بمكة ، ومهاجره يثرب ، وملكه بالشام ، فمن مكة بدأت نبوته وإلى الشام انتهى ملكه ، ولهذا أسري به ﷺ إلى الشام وإلى بيت المقدس كما هاجر إبراهيم عليه السلام من قبله إلى الشام .

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : وُلد إبراهيم عليه السلام بغوطة دمشق في قرية يقال لها : برزة ، في جبل يقال له : قاسيون . وأشرف عيسى بن مريم عليه السلام على الغوطة فقال : يا غوطة ، إن عجز الغني أن يجمع منك كنزاً ، لم يعجز المسكين أن يشبع منك خبزاً .

عن عبد الله بن سلام قال : بالشام من قبور الأنبياء ألفا قبر وسبع مئة قبر ، وقبر موسى عليه السلام بدمشق فإن دمشق معقل الناس في آخر الزمان من الملاحم .

عن عثمان بن أبي العاتكة قال : قبله مسجد دمشق قبر هود النبي عليه السلام .

عن كعب قال : أول حائط وضع على وجه الأرض بعد الطوفان حائط حرّان دمشق وبابل .

سمعت خالد بن معدان قال : يهزم السفيناني الجماعة مرتين ثم يهلك ، وسمعتة يقول : لا يخرج المهدي حتى يخسف بقرية في الغوطة تسمى حرستا .

حدثني عمرو بن عبد الرحيم بن إبراهيم قال : سمعت أبي يقول : حيّطان مسجد دمشق من بناء هود عليه السلام وما كان من الفسيفساء فهو من بناء الوليد بن عبد الملك .

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : من أراد أن ينظر إلى قبور الأنبياء عليهم السلام فعليه بالشام .

وروي أن أبا بكر بن سليمان الأشعث قال : بالشام عشرة آلاف عين رأت النبي ﷺ .

عن كعب أنه كان يقول : يا أهل الشام إن الناس يريدون أن يضعوكم والله يرفعكم ، والله تعالى يتعاهدكم كما يتعاهد الرجل نبلة في كنانته ، لأنها أحب أرضه إليه ، يسكنها أحب خلقه إليه . من دخلها مرحوم ، ومن خرج منها فهو مغبون .

وعن كعب أنه قال : مكتوب في التوراة ، أن الشام كنز الله عز وجل ، يسكنها كنزه من عباده ، يعني بها قبور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام : إبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب .

عن وهب بن منبه قال : إني لأجد ترداد الشام في الكتب ، حتى كأنه ليس لله تعالى حاجة إلا بالشام .

عن وائلة بن الأسقع قال : إن الملائكة تغشى مدينتكم هذه ، يعني دمشق ، ليلة الجمعة ، فإذا كان بكرة افترقوا على أبواب دمشق براياتهم وبقيودهم ، فيكونون سبعين رجلاً ، ثم يرتفعون ويدعون الله لهم : اللهم اشفِ مريضهم وردّ غائبهم .

عن ثابت بن معبد قال : قال تعالى : يا شام أنت خيرتي من أرضي ، أسكنك خيرتي من عبادي .

عن سفيان في قول الله عز وجل : ﴿ وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعِفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا ﴾ فقال : الشام .

اقتباسات من أقوال القدماء والمحدثين في دمشق :

دمشق بلد مضياف ، ما من غريب قصدها إلا وجد فيها الأمان والمكان والقبول من السكان ، كما وصفها محمد بن أحمد المقدسي في كتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) ، فقال :

(دمشق هي مصر الشام ودار الملك أيام بني أمية ، ففيها قصورهم وأثارهم ، بنيانها خشب وطين وعليها حصن . . أكثر أسواقها مغطاة ، ولهم سوق على طول البلد مكشوف حسن . وهي بلد قد خرقت الأنهار ، وأحدثت به الأشجار ، وكثرت فيه الثمار مع رخص الأسعار . ولا ترى أحسن من حماماتها ، ولا أعجب من فواراتها ، ولا أحزم من أهلها) .

وقال ابن بطوطة في رحلته :

(دمشق هي التي تفضل جميع البلدان حسناً ، وتتقدمها جمالاً ، وكل وصف وإن طال فهو قاصر عن محاسنها) .

وقال الشيخ عبد الله الأرموي رحمه الله : (دمشق من أي جهة أقبلت عليها تجدها حلة بيضاء طرازها أخضر) .

رحلة المقرئزي إلى دمشق :

ومما قاله المقرئزي في رحلته إلى دمشق :

ثم حدث لي في منتصف شعبان ، عزم على الرحلة إلى المدينة التي ظهر فضلها وبيان ، دمشق الشام ، ذات الحسن والبهاء والحياء والاحتشام ، والأدواح

المتنوعة ، والأرواح المتضوّعة ، حيث المشاهد المكرّمة والمعاهد المحترمة ،
والغوطة الغنّاء والحديقة ، والمكارم التي يباري فيها المرء شأنه وصديقه ،
والأظلال الوريقة ، والأفنان الوريقة ، والزهر الذي تخاله مبسماً والندى ريقه ،
والقضبان المُلد التي تشوق رائيتها بجنة الخلد... وهي المدينة المستولية على
الطباع ، المعمورة البقاع بالفضل والرباع .

ودخلتها في أواخر شعبان المذكور ، وحمدتُ الرحلة إليها وجعلها الله من
السعي المشكور ، وشاهدتُ بعض مغانيها الحسنة ومبانيها المستحسنة ، ورأينا من
محاسنها ما لا يستوفيه من تأتق في الخطاب وأطال في الوصف وأطاب ، وإن ملأ
من البلاغة الوطاب ، كما قلتُ :

محاسنُ الشام أجلى	من أن تحاط بحدّ
لسولا حمى الشرع قلنا	ولم نقف عند حدّ
كأنها معجزات	مقرونة بالتحدي

فالجامع الجامع للبدائع يبهر الفكر ، والغوطة المنوطة بالحسن تسحر الأبواب ،
لاسيما إذا حيّاها النسيم وابتكر . فلله مرآها الجميل الجليل ، وبيوتها التي لم
تخرج عن عروض الخليل ، ومخبرها الذي هو على فضلها وفضل أهلها أدلّ دليل ،
ومنظرها الذي ينقلب عن البصر عن بهجته وهو كليل .

فكم من حُسن لها ظاهرٍ وكامنٍ ، كما قلتُ موطناً للبيت الثامن :

أما دمشق فجنة	لعبت بألباب الخلائق
هي بهجة الدنيا التي	منها بديع الحُسن فائق
لله منها الصالح	ية فاخرت بذوي الحقائق
والغوطة الغنّاء حيّة	ت بالورود وبالشقائق
والنهر صافٍ والنسيم	اللدن للأشواق سائق
والطير بالعيدان أبدت	في الغنا أحلى الطرائق

ولآلىء الأزمهار حذ
ومراود الأمطار قد
لازال مغناها مصوناً
ت جيد غصن فهو رائق
كُحلت بها حديق الحدائق
أمنأ كلّ البوائق

وكما قلت مرتجلاً أيضاً مضمناً الرابع والخامس :

دمشق راقست رواء
فيها نسيم عليل
وغوطة كعروس
يا حُسنها من رياض
كالزهر زهراً وعنهما
والجامع الفرد منها
وحاصل القول فيها
تذكيرها من رآها
دامت تفوق سواها
وبهجة وغضارة
صحّ فوافقت بشاره
تُزهى بأعجب شاره
مثل النُّضار نضاره
عَرَفُ العبير عباره
أعلى الإله مناره
لمن أراد اختصاره
عدناً وحسبي إشاره
إناللة وإناره

كما ارتجلتُ فيها أيضاً :

قال لي ما تقول في الشام حبرٌ
قلتُ ماذا أقول في وصف قُطرٍ
وقلتُ أيضاً :

قال لي صف دمشق مولى رئيسٌ
قلتُ كلَّ اللسان في وصف قُطرٍ
وقلتُ أيضاً :

وإذا وصفت محاسن الدنيا فلا
بلدٌ إذا أرسلت طرْفك نحوه
ذا وصفٌ بعض صفاتها وهي التي
تبدأ بغير دمشق فيها أولاً
لم تلقَ إلا جنّة أو جدولا
يعيا البليغ وإن أجاد وطولا

وقال ابن نباته :

أرى الحسن مجموعاً بجامع جَلَّقَ وفي صدره معنى الملاحاة مشروحُ
فإن يتغالى في الجوامع معشرُ فقل لهمُ « باب الزيادة » مفتوحُ

وقال :

الجامع الأموي أضحى حسنه حسناً عليه في البرية مُجمَعاً
حلَّوه إذ حلَّوه فانظر صحنه تلقاه أصبح للحلاوة مَجْمَعاً

وقال محمد بن عبد الله الحسيني الموسوي :

وما الشام إلا في البلاد كشامة عروسة أرض الله في الشرق والغرب
بها مرجة ترهو وقد فاح نشرها وشحرورها غنى سُحيراً على القضب
بها الورد سلطان ينادي بدوحها هلموا قبيل الموت للأكل والشرب
ولابن عُنين :

ولا تتركوا يوم السرور إلى غدٍ فربَّ غدٍ يمضي المُحيل إلى الترب
وقال :

دمشق فبي شوقٌ إليها مبرِّحٌ وإنَّ لَجّ واثٍ أو أَلَحَّ عذول
تسلسل فيها ماؤها وهو مطلقٌ وصحَّ نسيم الروض وهو عليل
بلاد بها الحصباء درٌّ وتربها عيبر وأنفاس الشمال شمول

وقال :

حسنها ما رأيت من فعل نهر لهواه الغصون يجري إليها
فهو من فرط وجده إذ يراها شامخات يخرّ بين يديها

وقال :

تحنُّ إلى وادي دمشق جوانحي وإن كان ممّا قلّ فيه نصيبي
وإنني لأهوى قاسيون لأنني رأيت اسمه يحكي فؤاد حبيبي

وقال :

بها ينجلي عن قلب ناظرها الهمُّ
وليس له منها نصيبٌ ولا سهمٌ

دمشق بواديها رياض نواضر
على نفسه فليك من ضاع عمره

وقال :

حنّ قلبي إليه بالأشواق
أتمشّي هناك بالأحداق

علّاني عن الشّام بذكرٍ
مثلته الذكرى لعيني كأنني

وقال :

ولذات النعيم لساكنيها
سوى الإكرام للغرباء فيها

دمشق في محاسنها جنان
وما فيها حماها الله عيبٌ

وقال :

واحكّ عن الربوة ما تحكي
وزفّها بالدفّ والجنك

دمشق قل ماشئت في حسنّها
فالطير قد غنى على عوده

وقال :

تجد من اللّذة ما يكفي
في الروض بين الجنك والدفّ

انظر إلى الربوة مستمتعاً
فالطيرُ قد غنى على عوده

وقال :

حلفَ الزمانُ بمثله لا يغلطُ
والريحُ تكتب والسحاب ينقط

لله يومٌ في دمشق قطعته
الطيرُ يقرأ والغدير صحيفةٌ

وقال :

كل الجمال إلى حماه ينسبُ
أو جدولٌ أو بلبلٌ أو رُربُ

أشواق في وادي دمشق معهدا
ما فيه إلا روضة أو جوسقُ

وكان ذاك النهر فيه معصم
وإذا تكسّر ماؤه أبصرته
والوُزْقُ تشد والنسيم مشبّب
وضياعها ضاع النسيم بها فكم
ولكم طربتُ على السماع بعودها
وقد أبدع ابن الصائغ حيث قال :

أدمشق لا بعدتُ ديارك عن فتى
أشتاق منك منازلًا لم أنسها
مهما اتجهتُ رأيت دوحاً ماؤه
فالريح تكتب والجداول أسطر
والطير يقرأ والنسيم مردّد
ومعاطف الأغصان هزّتْها الصّبا
والورد في الألوان يجلو منظراً
فبلا بل منها تهيج بلابلي
وهزاره يصبو إلى شحروره
وكانما في كل عود صادق
والوُزْقُ في الأوراق يشبه شجوها
يتلو على الأغصان أخبار الهوى
يا سائراً والريح تعثر دونه
إن جئتُ من وادي دمشق منزلاً
بالجبهة الغراء والنهر الذي
ورأيت ذاك الجامع الفرد الذي
أبلغ منازلها السنيّة أنني

بيد النسيم منقش ومكتب
في الحال بين رياضه يتشعب
والنهر يسقي والحدائق تشرب
أضحى له من بيننا متطلب
وغدا بربوتها اللسان يشبّب

أبدأ إليك بكله يتشوّق
إنّي وقلبي في ربوعك موثق
متسلسلٌ يعلو عليه ويخفق
خطاً له نسج الغمام محقق
والغصن يرقص والغدير يصفق
طرباً فذا عارٍ وهذا مورق
ونسيمه عطر كمسكٍ يعبق
ولذاك أثواب الشقيق تشقّق
ويجاوب القمريّ فيه مطوّق
عود حلا مرموزه والمطلق
شجوي وأين من الخليّ الموثق
فيكاد ساكن كل شيء ينطق
والبرق ييسم إذ به يتألّق
لي نحوه حتى الممات تشوّق
يزهو به القصر المنيف الأبلق
في الأرض مثل جماله لا يُخلق
أبدأ لحسن بهائها أتشوّق

وما أنصح ما قال :

عَرَّجَ رِكَابَكَ عَنْ دَمَشَقٍ فَإِنَّهَا
بَلَدٌ تَذُلُّ لَهَا اللَّيُوثُ وَتَخْضَعُ
مَا بَيْنَ جَانِبَيْهَا وَبَابُ بَرِيدِهَا
قَمَرٌ يَغِيبُ وَأَلْفُ بَدْرِ يَطْلَعُ

ابن تميم :

رعى الله وادي النيريين فلإنني
درى أنني قد جئتُه متنزَّها
وأخدمني الماءُ القُراحَ فأينما
ذهبتُ وجدتُ الماءَ في خدمتي يجري

وقال :

دمشقُ فيها نُزْرَةٌ
ففي كلِّ روضٍ يلتقي
وسفحها زاهٍ نضِرٌ
ماءُ الحياةِ والخضرِ

وقال :

سقى دمشق وأياماً مضت فيها
ولا يزال جنينُ النَّبتِ ترضعه
من السحائب ساريها وغاديتها
حوامل المزنِ في أحشا أراضيتها

ومن محاسن الشام :

زَيْنُ الشَّامِ وَحَقُّ الصَّمَدِ
لا ترى في سائر الدنيا له
حُسْنُ حَمَامٍ كَثِيرِ الْعَدَدِ
حار عقلي لجحيم جنة
ثانياً لا والإله الأحد
بل نعيم فيه عيش رغد

لطيفة : أبواب دمشق ثمانية ، وفي ذلك إشارة أنها جنة الدنيا وبالجمله فإنها
الروضة الغناء ، والغیضة الحسناء :

وما الشام إلا في البلاد كشامة
فحيى مُحياه الإله وزانه
وأقمار واديه الشميم تمام
ولا زال برقُ الحُسن فيه يُشام

وقال :

قال ماذا يقول في الشام حَبْرٌ شامَ من بارق العُلا ما شامه ؟
قلت ماذا أقول في وصف أرض هي في وجنة المحاسن شامه ؟

وقال الشيخ عبد الغني النابلسي ، ولفظها :

يا حُسن فَوَّارٍ له رونق	يروق للسامع والناظر
كأنه قضبان من فضّة	ينساب في الروض الزّهّي العاطر
للنفس فيه كلّ ما تشتهي	ونزهة للقلب والخاطر
بربوة ذات قرار لها	طيب نسيم فاح من باكر
والطير غنى فوق أغصانها	مهتياً للقادم الزائر
فكلّ همّ ساكن ينقضي	بمقعد الربوة يا عاذري
فنعم من قد شاد بنيانه	قد فاز بالفخر على الآخر

قلتُ : فلما رأيتُ ذلك هزّنتني أريحية الأدب إلى معارضته عن كتب ، فنظمتُ
أبياتاً هناك ، ورقمتُ ما نظمتُهُ على الجدار كذلك ، وهو :

لله بستان حللنا به	أشغل من حُسنٍ له سائري
فالسمع قد لاح به مغرماً	والطرف أضحى فيه كالحائر
بلحظ فَوَّارٍ له رونق	عود لجين راقص زامر
به صحاب شاقني وصفهم	من كل شهيم فائق شاعر
شكرت إحساناً لدهر قضى	لي باللقا في منزّه ناضر
حوى من الإحسان ما شاق من	يأتيه من بادٍ ومن حاضر
نوفرة قامت بأوصافها	جاري نهر في الرّبي عابر
جزى إله العرش من شادها	أعظمَ أجر شامخ وافر

* * *

مواضع في دمشق يجاب فيها الدعاء

قال الحافظ ابن سرور المقدسي في فضائله :

ورد في الأخبار أن المواضع التي يجاب فيها الدعاء بدمشق كثيرة منها :

- مغارة الدم في جبل قاسيون ؛ لأنها مأوى الأنبياء ومصلاتهم (ومستغاثهم) .

- والمغارة التي في جبل النيرب كانت مأوى عيسى عليه الصلاة والسلام .

- ومسجد إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) الذي ببرزة .

- ومسجد القدم في رأس ميدان الحصى ، يقال : إن هناك قبر موسى

(الكلیم) عليه الصلاة والسلام .

قال الهروي : النيرب قرية بقاسيون بجامعها قبر موسى بن عمران . قرية

النيرب هي ما قبل الربوة (منطقة كيوان) من ناحية دمشق .

عن صاحب الروضة البهية في فضائل دمشق المحمية نقلاً عن حكماء

اليونان : إن في دمشق بركة بناها بعض حواربي المسيح وأنهم كانوا يغسلون فيها

كل مصاب بأي مرض ويسقونه منها فيعافيه الله من مرضه (تدعى اليوم بركة

المنجدين تقع تجاه زقاق الحصرية بجادة سوق مدحت باشا) ويضيف المؤلف

أنهم قد وضعوا عليها حديداً ويقصدها الإفرنج والسياح لأجل الشرب منها

والتبرك بها . ومن جاء دمشق يقصد أهلها خاصة أو عامة بضر أو إهانة وشرب من

مائها تبدلت نيته بالخير .

وعن أحمد بن سليمان سمعت شيوخنا (الدمشقيين) قديماً يذكرون ، أن

(الآثار) التي بدمشق في برزة عند المسجد الذي يقال له مسجد إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، والذي في الجبل عند الشق مكان إبراهيم وإن (الآثار) التي فوق الشق هي موضع رأى إبراهيم الكوكب (أي الزهرة) الذي (ذكره) الله في كتابه العزيز ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى الْكُوكَبَ قَالَ هَذَا رَبِّي ﴾ [الأنعام : ٧٦] (إنه كان في ذلك الموضع) وهو معروف فمن قصده وصلّى فيه ودعا أجابه الله تعالى في دعائه ، فإن ذلك الجبل كان فيه لوط وجماعة من الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) ، وآثارهم في مواضع (في الجبل) بالقرب من مسجد إبراهيم وأدركت الشيوخ هناك وهم يقصدون ويقيمون فيه ويدعون الله تعالى ، وهو نافع لقسوة القلب ، وكثرة الذنوب ، وإن بعض الشيوخ جاء من مكة فصلى في الموضع الذي فوق الشق (من الموضع الذي يقال إنه رأى إبراهيم الكوكب فيه وذكر أنه رأى في نومه : إن أحببت أن ترى الموضع الذي رأى فيه إبراهيم (الكوكب) فاقصد دمشق ، واقصد (موضعاً) يقال له : برزة عند مسجد إبراهيم (فوق الجبل) . فصلّ فيه ركعتين ثم ادع بما شئت (تجاب) . فقصدت الموضع .

وقال أحمد بن (صالح) : وأدركت الشيوخ بدمشق قديماً وهم يفضلون مسجد إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) (الذي ببرزة ، ويقصدونه ، ويصلون فيه ، ويقرؤون ، ويدعون ، ويذكرون أن الدعاء فيه مجاب ، وهو موضع شريف عظيم قديم ، ويذكرون عن شيوخهم ومن أدركوا من أهل العلم ، أنهم يفضلون (ذلك الموضع) ، ويقولون إنه مسجد إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وإن الشق الذي في الجبل خارج باب المسجد هو الموضع الذي اختبأ فيه إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) من النمروذ الذي كان ملكاً (بالشام) في وقت إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) والدعاء فيه (مجاب) فمن قصد الله تعالى في ذلك الموضع ، ودعا فيه بنية (صادقة) رأى الإجابة .

وعن الأوزاعي : إن الخليل صلّى في هذا المقام في (برزة) واتخذة مسجداً .

وعن الزهري : إن مسجد إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) في قرية برزة ، من

صلى فيه أربع ركعات خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، وإن الدعاء (عند قبره مستجاب) وفي رواية : يسأل الله ما شاء فإنه لا (يرده) خائباً .

قال ابن طولون في (فتح الجليل فيما ورد في مقام الخليل) : وعن هشام بن خالد بن الوليد) ، عن عروة ، عن أبيه قال : سمعت علياً - وقد سأله رجل عن (الآثار) بدمشق فقال : بها جبل يقال له : قاسيون فيه قَتَلَ ابن آدم أخاه ، (وآوى) الله تعالى عيسى (ابن مريم) وأمه فيه من اليهود ، فمن أتى ذلك الموضع فلا يَعجز فيه عن الدعاء .

نعل النبي ﷺ في دار الحديث الأشرفية

والمشهور المأثور أنه بدار الحديث التي عند باب القلعة في حائطها القبلي فوق المحراب (وهي دار الحديث الأشرفية أو الجوانية وهي التي كان يسكنها النووي وأبو شامة والسبكي رحمهم الله تعالى وهي موجودة إلى الآن) . مدفون في الحائط نعل النبي ﷺ ، وهو مكان شريف يزار (ويلتمس) بركته . وفي هذه المدرسة أقام النووي (رحمه الله تعالى) صاحب الكرامات والمناقب الظاهرات مدة ، يقرأ العلم ويدرسه .

قدم النبي ﷺ في المجاهدية

قال الهروي في الزيارات :

وفي مدرسة مجاهد الدين (هو مجاهد الدين بزان بن يامين أو ياسين الكردي) ويقال لها اليوم مسجد السادات المجاهدية (العمارة الجوانية) التي داخل باب (الفرائيس) قدم النبي ﷺ في صخرة سوداء أتوا بها من حوران .

قبر هود عليه السلام

وعن عثمان بن أبي (العاتكة) قال : قبله مسجد دمشق قبر هود (عليه الصلاة والسلام) .

صخرة القربان

قال الحافظ عبد الواحد المقدسي الدمشقي شيخ الشام : عند باب جامع دمشق (الأموي) المسمى بباب الساعات - صخرة عظيمة ، كان قديماً يوضع عليها القربان من تقبل منه (نزلت) نار من السماء فأحرقتة .

مكان نزول المسيح ، وحجر موسى

وقال العلامة ابن الوردي الشافعي (فقيه لغوي مؤرخ) في الخريدة : ومنارة الجامع الأموي الشرقية يقال : إن المسيح ابن مريم (عليه السلام) ينزل عليها ، وعندها حجر يقال : إنه قطعة من الحجر الذي ضربه موسى عليه السلام بعصاه فانبعثت منه اثنتا عشرة عيناً .

* * *

من أقوال الشعراء في دمشق

تعلق شعراؤنا القدامى والمحدثون بدمشق ، وأحبوها ، وكتبوا عنها أشعارهم .
وهم لم يفعلوا ذلك لتاريخها العريق فقط ، وإنما لطبيعتها الخلابة أيضاً ، ولمناخها
العليل ، وغوطتها الغناء ، وأنهارها السبعة .

وقد بلغ إعجاب الكثير من الشعراء بدمشق إلى حد وصفها بأنها (جنة الله على
الأرض) ، وهو ما يبدو واضحاً في قول أمير الشعراء أحمد شوقي مثلاً :

أمنت بالله واستثيت جنته دمشق روحٌ وجناتٌ وريحانٌ

وقال الشيخ علاء الدين علي بن الشرف المارداني :

ليس في الحُسن للشَّامَ نظيرُ	لا يغرَّنك بالبلاد الغرورُ
كل ما تشتهيه نفسك فيها	وبها البشرُ والهنا والسرورُ
قلتُ للرَّكبِ مُذْ أُنخنا عليها	وتراءتُ ولدانُها والحوورُ
هذه الجنةُ ادخلوا بسلام	بلدٌ طيبٌ وربُّ غفورُ

وقال آخر :

وكم بالشام من شرف وفضل	ومرتقب لدى برٍّ وبحرٍ
بلاد بارك الرحمن فيها	فقدسها على علم وخبرٍ

وقديماً ، قال البحري يصف جمال دمشق وحسنها :

أما دمشق فقد أبدت محاسنها	وقد وفي لك مطريها بما وعدا
إذا أردت ملأت العين من بلد	مستحسن وزمان يشبه البلدا

يُسمي السحاب على أجباليها فَرَقاً ويصبح النبتُ في صحرائها بددا
كأنما القيظُ ولَّى بعد جيئته أو الربيع دنا من بعد ما بعدا
ويقول الأمير مجير الدين محمد بن تميم ، يصف الميدان :

عجباً لميداني دمشق وقد غدا كل له شرف إليه يؤول
والنهر بينهما لغير جناية سيف على طول المدى مسلول
وقال ابن سعيد الموصلي :

سقى دمشق وأياماً مضت فيها مواطر السحب ساريها وغاديهها
ولا يزال جنين النبت ترضعه حوامل المزن في أحشا أراضيهها

وقد نوّه الباحثون بفضائل دمشق ، ونشروا شمائلها ، وجمعوا أخبارها ، ودوّنوا
محاسنها ؛ وذلك لأنها تمتاز عن غيرها من البلدان بجملّة من الخصائص التي
خصّها الله بها . وقد قال ابن جرّي : إن بعض الشعراء قد نظم هذه الأبيات بهذا
المعنى :

إن تكن جنة الخلود بأرض فدمشق ، ولا تكون سواها
أو تكن في السماء فهي عليها قد أبدأت هواءها وهواها
بلد طيّب ورب غفور فاغتنمها عشية وضحاها

ومما قاله علي بن موسى العنسي الغرناطي :

دمشق منزلنا حيث النعيم بدا مكّلاً وهو في الآفاق مختصرُ
القصب راقصة والطير صادحة والزهر مرتفع والماء منحدرُ

وقال أبو الوحش سبع بن خلف الأسدي :

سقى دمشق الله عبقاً محسناً من مستهل ديمة دهاقها
مدينة ليس يضاهي حسنها في سائر الدنيا ولا آفاقها
تود زوراء العراق أنها منها ولا تعزى إلى عراقها

فأرضها مثل السماء بهجة وزهرها كالزهر في إشراقها
نسيم روضها متى ما قد سرى فكأخا الهموم من وثاقها
وقال أبو العباس أحمد المقري صاحب نفع الطيب :

دمشق لا يقاس بها سواها ويمتنع القياس مع النصوص
حلاها راقت الأبصار حسناً على حكم العموم أو الخصوص
بساط زمرد نُثِرَتْ عليه من الياقوت ألوان الفصوص
وقال أبو المطاع ابن حمدان :

نزه الطرف في دمشق ففيها كل ما تشتهي وما تختار
هي في الأرض جنة فتأمل كيف تجري من تحتها الأنهار
وقال :

سقى الله أرض الغوطتين وأهلها فلي بجنوب الغوطتين شجون
وماذقت طعم الماء إلا استخفني إلى بردى والنيربين حين
أما الصنوبري فقال :

صفت دنيا دمشق لقاطنيها فليست ترى بغير دمشق دنيا
تفيض جداول البلور فيها خلال حدائق ينبتن وشيا
وقال :

قد رتع الربيع في ربوعها وسيقت الدنيا إلى أسواقها
لا تسأم العيون والأنوف من رؤيتها يوماً ولا استنشاقها
وقال آخر في جمال دمشق وسحرها :

سقى الله ما تحوي دمشق وحيّاها فما أطيب اللذات فيها وأهناها
نزلنا بها واستوقفنا محاسن يحن إليها كل قلب ويهوّاها

لبسنا بها عيشاً رقيقاً رداؤه
سلام على تلك المعاهد إنها
وقال بعضهم مفضلاً دمشق :

ففي حلب وشامنا
فقلت قولاً منصفاً :
وقال شرف الدين بن محسن :

دمشق بنا شوقٌ إليها مبرحٌ
بلادُ بها الحصباءُ درٌّ وتربها
تسلسل فيها مأوها وهو مطلقٌ
وقال ابن الخياط الشاعر الدمشقي المولود في دمشق سنة خمسين وأربع مئة
للهجرة ، يذكر فيه نهر (ثورا) :

جری النهر من شوق إلى حامل الثرى
فلو كنت يوم البين شاهد عبرتي
فيا نهر ثورا قد أثرت من الهوى
وقال القاضي الفاضل :

يقولون لي ماذا بشامهم
فبلدتهم خير البلاد وأهلها
وقال ابن الصلاح :

لي نحو ربك دائماً يا جلقُ
وقال إبراهيم بن عبد الله الأنصاري متشوقاً إليها :

رعى الله أياماً تمضت بجلق
رحلت وأبراد الشباب قشيرة
لقلبي عليها أنة وتوجعُ
وعدت وأسمال المشيب تُرقعُ

وقال ابن الساعاتي :

فسقتُ جُلُقاَ وإيَّامُ سطرًا^(١) كلَّ يومٍ عيدٍ علينا أعيادًا

وقال فراس السلمي :

يا نسيماً هبَّ مسكاً عبقاً هذه أنفاسُ ربِّنا^(٢) جُلُقاَ

وقال آخر في دمشق وقاسيون :

تحن إلى وادي دمشق جوانحي وإن كان مما قل فيه نصيبي
وإني لأهوى قاسيون لأنني رأيت اسمه شهباً لاسم حبيبي

ويقول شاعر آخر في دمشق :

وإذا نظرت إلى الأماكن تَلَفِها تشقى كما تشقى العباد وتسعدُ

وفي وصف عزة دمشق ومساهمتها في الجهاد وما أضفاه ذلك عليها من رفعة شأن ، يقول سليم الزركلي مادحاً دور دمشق في الوطنية والجهاد :

أدمشق ما أنت الغداة بَشاكل ما أنت بالنادي الخصب العاني
ما أنت بالبلد المضيع حقه ما أنت بالوطن القليل الشأن
رضت الجهاد فما استكان لغاصب ولقد خططت ملاحم الفرسان

قال الشاعر محمد البزم عن بردى وعطائه :

صاف كأخلاق الكرام يحشه كرم النجار لينعش المفؤودا^(٣)
متفرق طوع النسيم مسلسل كخواطر الشعراء رُمن قصيدا
رفدته فيجته العريقة بالندى رفداً كما انبلج الصباح عمودا^(٤)

(١) سطرًا : قرية شمال دمشق مشهورة بالورد .

(٢) الربِّنا : الريح الطيبة .

(٣) المفؤودا : الذي يشكو فؤاده .

(٤) الفيحة : نهر يرافق بردى .

وتفرعت عنه بنوه صواعداً في شامخين مدانياً وبعيداً
شيخٌ تسابقه الخطا أبناءه في السهل جودا والمخارم جوداً^(١)
وكان الشاعر جورج صيدح عاشقاً لدمشق مسقط رأسه ، وقد وصفها بأبيات تنمُّ
عن تعلقه بها ، فقال :

دمشق إن قلت شعراً فيك رده قلب كأن خفوق القلب أوزان
أنا وليدك يا أماه كم ملكت ذكراك نفسي ، وكم ناداك وجدان
منذ افترقنا نعيم العيش فارقني والهَمُّ والغَمُّ أشكال وألوان
دمشق إن أشجبت الأوطان مغترباً إني لأوجع من أشجته أوطان
وفي مناسبة أخرى يقول :

يا مسقط الرأس والأرحام تجمعنا حاشا تغيرني في حبك الغير
أنسى يميني ولا أنساك يا وطناً فيك ابتدا ، ليته فيك انتهى العمر
أما الشاعر المهجري الثاني إيليا أبو ماضي الذي زار دمشق في الأربعينيات ،
فقد كتب فيها قصيدة بعنوان (جِلَّتُ الفِحاء) ، تعجب فيها من هذه المدينة الرائعة
الجمال فقال :

أنا لست في دنيا الخيال ولا الكرى وكأنني فيها لروعة ما أرى
كيف التفت رأيت آية شاعر لبِقْ تعمَّد أن يجيد فينهر
ثم يعدد محاسن دمشق وجمال طبيعتها قائلاً :

ما جلق الفِحاء سوى أنشودة الله غناها فجن لها الورى
خلع الزمان شبابها في أرضها فهو اخضرار في السفوح وفي الذرا
ولكنه يعجز عن تصور إعجاز دمشق فيعتمر قائلاً :

حاولت وصف جمالها فكأنني ولد بأنملهُ يحوش الأبحرا

(١) المخارم : الطرق في الجبال .

أدركت تقصيري وضعفي عندما أبصرت ما صنع الإله وصوِّرا
 إني شهدت الحسن غير مزيف بس الجمال مزيفاً ومزوِّرا
 وأخيراً ، لعل من أجمل ما يمكن أن نختم به هذه الباقية من الأشعار التي
 انتخبناها مما قاله الشعراء في دمشق ، هذه الأبيات اللطيفة :

رُدَّ لي من صبوتي يا بردى	ذكريات زرن في ليا قوام
ليلة ارتاح لنا الحور فلا	غصن إلا شج أو مستهام
وتهاوى الضوء ، إلا نجمة	سهرت تظفي أواماً بأوام
سألتني من دلال قبلة	يُعصر الدهرُ بها كأس غرام
وارتمت ، يكسر من هُذب لها	مُسهب الطول ، حياء واحتشام
وجعت صفافة من حسنهما	وعرا أغصانها الخضر سقام
فحسرت الشعر عن جبهتها	أسأل الحسن : أفني الأرض أقام ؟
وتأثيت أُملي خاطري ،	قبل أن يحجبها ضمُّ الهيام
أو لخوف بي على ثانية	سوف تمضي ! فمني العمر حُطام !
لم تدع لي شقوة أحيأ بها	ورنت يملأ عينيها ابتسام
أومأت لي ، فأمحى كلُّ سنى	مُرهي ، غير فم عذب الملام
وإذا قبلتُنا فرّاً إلى	عالم أبهى ، وسكنى في منام
تقف النجمة عن دورتها	عند ثغرين وينهار الظلام

ولكن من أجمل ما قيل في وصف جمال دمشق وحسن طبيعتها وروعة مناخها
 ما قاله الشيخ عبد الغني النابلسي في قصيدة طويلة له ، نختار منها الأبيات التالية :

إن سأمك الخطب المهول فاقلقا	انزل بأرض الشام واسكن جلقا
تجد المرام بها وكل منك بل	وترى بها عزاً وتفصح منطقا
بلد سمت بين البلاد محاسناً	ونمت بهاء واستزادت رونقا
لا ينبغي حث الركاب لغيرها	هام الفؤاد بحسنها فتعلقا
حسبي (وآويناها) فضلاً لها	قد جاء في القرآن ذاك محققا

هي صفوة الدنيا وشائع فضلها
وزاد السرور بها لكل معرج
إن تعشقوا وطناً فذي أولى لكم
أنس الغريب وسلوة لذوي الهوى
خير الأناس أناسها يرعون أنـ
لكن برائق صفو كاسات لهم
فتكدرت ما بينهم أحوالهم
هي جنة للطائفين معدة
طابت هواء للنفوس وماؤها
وبها ترى الولدان والهور التي
جلّت محاسنها عن التعداد فلـ
يا حسن واديبها وطيب شميمه
وتراسلت أطياره بين الربي
لله أيام الجموع بظله
يقول القاضي الفاضل :

يقولون لي ماذا رأيت بشامهم
فبلدتهم خير البلاد وأهلها
قال ابن نباته :

دمشق في أرجائها مواضع
ربوتها وقصرها والجامع
قال القيراطي :

دمشق بواديبها رياض نواضر
على نفسه فليكن من ضاع عمره

بالقدس والحرمين أضحي ملحقا
لاسيما إن كان من أهل التقى
دون البلاد بأن تُحب وتُشقا
قوم تشتت شملهم وتفرقا
—وواع الوداد ويحفظون الموثقا
مزج الغريب شرابه ولهم سقا
إلا الذي ترك السوى فتروقا
يتمتعون ولا يرون بها شقا
عذب زلال سائغ لمن استقى
وعد الإله بهن في دار البقا
نأت بما يُختار معه ويُتقى
قد فاح عرف الزهر فيه وعبقا
سحراً فهيجت القلوب الشيقا
كادت بأيام الصبا أن تلحقا

فقلت لهم كل المكارم والفضل
بإحسانهم تغني الغريب عن الأهل

يصبو إليها ناظرٌ وسامعٌ
فهي ثلاثة ما لهنّ رابعٌ

بها ينجلي عن قلب ناظرها الهم
وليس له فيها نصيب ولا سهم

قال أحمد المقرئ المغربي :

غمرتني المكارم الغر منهم وتوالت عليّ منها فنون
شرط إحسانهم تحقق عندي ليت شعري الجزاء كيف يكون

يقول ابن الفتح المالكي عن جامع يلبغا :

كم نزهة في يلبغا تبتغي ودارج لم يخل من دارج
يموج في بركته ماؤها تحت منار ليس بالمايع
مئذنة قامت على بابه تشهد للداخل والخارج

يقول القاضي الفاضل :

محاسن الشام جلّت عن أن تُحدّحدّ
كأنها معجزات مقرونة بالتّخدي

قال المقرئ :

الصالحية جنة والصالحون بها أقاموا
فعلى الديار وأهلها مني التحية والسلام

وقال :

انهض إلى الربوة مستمتعاً تجد من اللذات ما يكفي
فالطير قد غنى على عوده في الروض بين الجنك والدفّ

يقول الشيخ جمال الدين بن محمد نباته :

بالجنك من مغنى دمشق حمائم في دف أشجار تشوق بلطفها
فلذا أشار لها الشجي بكأسه غنّت عليه بجنكها وبدفّها

ويقول شمس الدين الخياط :

لربوتنا واد حوى كل بهجة فعيش الورى يحلو لديه ويعذب
ترق لنا الأنهار من تحت جنكه فلا عجب أنا نخوض ونلعب

وقال :

سقى دمشق وأياماً مضت فيها مواطر السحب ساريها وغاديتها
ولا يزال جنين النبت ترضعه حواملُ المزن في أحشا أراضيها
فما نضا حبها في قلبٍ نيربها ولا قضى نجبه ودي لواديتها
ولا تسليت عن سلسال ربوتها ولا نسيت مبيتى جار جاريها

أما ابن عُيْنَه الشاعر الدمشقي الأصيل فقد تحدث عن دمشق بقوله :

ألا ليت شعري هل أبیتن ليلة وظلك يا مقرى^(١) عليّ ظليل

ومن أجمل الشعر القديم الذي قيل في دمشق قول المناذري :

وقانا لفحة الرمضاء واد وقاه مضاعف النبت العميم
نزلنا دوحه فحنا علينا ضوء المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زُلاًلاً ألدُّ من المدامة للنديم
يصدّ الشمس أنى واجهتنا فحجبتها ويأذن للنسيم
تروع حصاه حالية العذاري فتلمس جانب العقد النظيم

وخاطب أحدهم دمشق بقوله :

ولكم أحدثُ عنك من لاقيته وجميع من سمع الحديث يصدق
والأرض في عرض وطول دائماً لم يحو مثلك غربها والمشرق

ووصفها آخر بقوله :

يغذي بها القلب أنفاساً بلا كدر فلن يحلّ الوباء أطراف ثاويها
إن الهواء إذا رقت مناسمه في بلدة لطّف أخلاق ثاويها
فكل صورة أنس في منازلها وكل نزهة نفس في روايها
ولولا أمور وأرزاق مقدرة لم يرتحل عن دمشق حاضر فيها

(١) مقرى : بعض أراضي دمشق .

وقال وجيه الدولة بن حمدان في وصف الغوطتين :

سقى الله أرض الغوطتين وأهلها فلي بجنوب الغوطتين شجون
فما ذكرتها النفس إلا استخفني إلى برد ماء النيربين حنين
وقد كان شكّي للفراق يروعني فكيف يروع اليوم وهو يقين

قال ابن الفراهي محمد شمس الدين دمشقي أثناء وجوده في حلب معبراً عن شوقه إلى دمشق :

عروسُ الكأس يجلوها نديمي علينا في ثياب من نعيم
أدزها وأحي أشباحاً تراها رميماً بين أجداثِ الهموم
وداويها جراحات الليالي فلست على التداوي بالملوم
وأعجبُ كيف تبرز وهي شمسُ مكلَّلةُ الجوانب بالنجوم
إذا طافت همومك حول كأس ترامت حولها شهبُ الرجوم
فحُثَّ اليعملات إلى دمشق سقاها الله هطّال الغيوم
فما رقات دموعي حين غابت جَواسِقُها ولا اندملت كلُومي
وبادرنحو ربوتها ففيها إذا واجهتها بُرءُ السَّقيم
إذا الخطباء في الأغصان قامت تهزّ النائمين عن النعيم
لقد أهدت لها الخضراء بُرداً بدمع النسج مختلف الرقوم

قال محمد الجذامي المعروف (بابن الصائغ) وهو بمصر بتشوق الدمشقي

لدمشق :

لي نحو ربك دائماً يا جَلِّقُ شوقٌ أكادُ به جوى اتمزقُ
وهُمولُ دمع من جوى بأضالع ذا مُفرقٌ عيني وهذا مُحرقُ
اشتاق منك منازل لم أنسها إني وقلبي في ربوعك موثقُ
دمشق لا بُعدت ديارك عن فتى أبداً إليك بكله يتشوقُ
أنفقت في ناديك أيام الصبا حبّاً وذاك أعزُّ شيء يُنفقُ

رحلتُ عنك ولي إليك تَلَفْتُ
ولكم أحدثُ عنكِ مَنْ لاقِيَتْهُ
والأرض في طولٍ وعرضٍ دائماً
والطيرُ يقرأ والنسيمُ مردّدٌ
ومعاطفُ الأغصان غنّتها الصّبا
ولكلّ جمعٍ صدعةٌ وتفرّقٌ
وجميعُ مَنْ سمعَ الحديثَ يُصدّقُ
لم يحو مثلكَ غربُها والمشرقُ
والغُصْنُ يرقصُ والغديرُ يُصفّقُ
طرباً فذا عارٍ وهذا مورقٌ

وقال فضل الله المحبي في التشوق لدمشق :

حديث غرامي في هواك صحيحٌ
وشوقي إلى لقياك شوق حمامةٍ
فتندب أطلالاً لها ومعاهداً
فلا مؤنس في الدار لي غير صوتها
كلانا غريب يشتكي الهجر والنوى
ومهجة صبّ مستهام متيّم
أهيم غراماً حين أذكر جِلْقاً
وقلبي بأقوال الوشاة جريحٌ
لها فوق أفنان الغصون صدوحٌ
وتظّهر أشجاناً بها وتصيحُ
إذا هاج وجدي والدموع تسيحُ
فيكي على ألفٍ له وينوحُ
بها صار من داء الغرام قُروحُ
ودفعني بسفح القاسيون سفوحُ

وللشاعر درويش الطالوي من قصيدة في التشوق إلى دمشق :

حمى دمشق سقاها غير مُفسدها
حتى تظلّ بها الأرجاء باسمّةٍ
وخصّ بالجانب الغربي منزلةً
مغنى الهوى ومغاني اللهو حيث به
ديارُ كل مهاةٍ كم أقولُ لها
بما بعينيك من سحرٍ صلي دَنفاً
الله يعلم أنني بعد فرقتها
ما كنتُ لولا طلابُ المجد أهجرُها
صوبَ الغمام وروى روضها عللا
ويضحك النّور في أكمامها جذلا
لبستُ فيها الشّباب الرّوق مقبلا
مهاً إذا طَلَعَتْ بدرُ السما أفلا
والصبرُ ينحل في جسمي كما نحلا
يهوى الحياة وأما إن صدّدت فلا
فارقتُ شرخَ الصّبا واللهو والغزلا
هجرَ امرئٍ مغرمٍ بالراح كأس طلا

ولا تَخَيَّرْتُ أَرْضَ الرُّومِ لِي سَكْنًا
ولا امْتَطَيْتُ عِناقَ الْخَيْلِ رَامِيَةً
وقوله أيضاً :

على الشَّامِ مَنِي كَلَمًا هَبَّتِ الصَّبَا
بِلادُ كَأَنفَاسِ الشَّمُولِ شِمَالِهَا
سَقَاها وَحَيَّاها الإلهَ مَعاهِداً
فِيها جَبَها زَدَنِي جَوَى كُلِّ لَيْلَةٍ
وله فِي دَمَشقٍ أَيْضاً :

حِمَى الشَّامِ جادَ الْغَيْثُ ما حَلَّ تَرْبَهُ
وَباتَتْ بِأَعلى النُّيرِينَ مَعَ الصَّبَا
على نَهَرٍ حَصباؤُهُ الشَّهَبُ قَدِ جَرى
يَجابُوبُ تَسْجاعَ الحِمامِ خَريرُهُ
ومن شَعَرَ سَليمانَ المَحاسِنِي أَثناءَ غَربَتِهِ عَن دَمَشقٍ :

سَقى اللهُ أَرْضَ الشَّامِ صَيِّبَ رَحْمَةٍ
فَكَمَ لِي بِمَغناها سِوَالُفُ وَقْفَةٍ
وَقَفْتُ على ماضِي المَعاهِدِ أَدْمَعِي
وَمَنِي على مَن حَلَّ موطنَ جِلْقٍ
ويقول عَرقلةُ الكَلْبِي فِي وَصْفِ مَحاسِنِ دَمَشقٍ :

دَمَشقُ حُيِّتَ مَن حَيٍّ وَمَن نادٍ
حَقًّا وَلِلوَرُقِ فِي أَوراقِهِ طَرَبُ
يا غادِياً رَائحاً عَرَجَ على بَرْدِي
وَحَبَّذا جَبَّذا وادِيكَ مَن وادٍ
كَأَنَّ فِي كُلِّ عَودٍ أَلْفَ عَواذٍ
وَخَلَنِي مَن حَدِيثِ الرَّائِحِ الغادِي

من ماء دالية^(١) تنبيك عن عاد
كالصورة قامت تشنى بقدر غير مناد
يشفي لَمَى شفتيها غُلَّة الصادي

كم قد شربتُ به في ظلِّ دالية
في جنب ساقية من كفِّ ساقية
سمراء السمراء واضحة
ومن قوله فيها أيضاً :

والعيشة الرغد التي هي تُعشَقُ
سكرى تغني تارةً وتصفقُ
هيهات يسلوها فؤادٌ شيقُ
إنسانٌ فعلتها الفضيضة جَلَقُ
لَمَّا بكاه العارض المتألقُ
ومن الشقيق جهنمٌ لا تُحرقُ
وشيأ به حدق البرايا تحديقُ

هذا هو الزمنُ البديعُ المونقُ
فعلام تصحو والحمام كأنها
وتلوم في حبِّ الديار جهالةُ
والشام شامةٌ وجنة الدنيا كما
في نيرب ضحكك تغور أقاحه
من أيها لك جنةٌ لا تنقضي
سيما وقد رجمَ الربيع ربوعها
وقال أيضاً :

للطالبين بها الولدان والخورُ
إلا وغناه قمريٌّ وشحرورُ
أنامل الريح لولا أنها زور

أمّا دمشق فجناتٌ مزخرفةُ
ما صاح فيها على أوتاره قمرُ
يا حبذا ودروع الماء تنسجها

وقال ابن أبي أصيبعة يصف شوقه إلى دمشق :

يعود وتدنو الدار بعد تفرقِ
بعدلٍ وأني بالأحبة نلتقي
وكم لي على سكانها من تشوقِ
كما رنحتُ صرف المدام المعتيقِ
لها لهبٌ من دمعي المترققِ

لعلَّ زماناً قد تقضى بجَلَقِ
وإن تسمعَ الأيام من بعد جورها
فكم لي إلى أطلالها من تشوقِ
ترنّحي الذكرى إليها تشوقاً
ومن عجب نارٍ اشتياقي بأضلعي

(١) الدالية : الناعورة .

وكم من حروف البين قلبي قد لقي
لقد كان من كلِّ الحوادث يتقي
وتقضي بأمرٍ كنهه لم يُحقَّق

لقد طال عهدي بالديار وأهلها
ولو كان للمرء اختيارٌ وقدره
ولكنَّها الأقدار تحكم في الوري

وقال ابن الصنوبري في مدح دمشق :

فلست ترى بغير دمشق دنيا
خلال حدائق يبتن وشيا
مناظر في مناظرنا واهيا
ومن أترجة لم تعد ثديا

صفت دنيا دمشق لقاطنيها
تفيض جداول البلور فيها
كللت فواكهها أبهى الـ
فمن تفاحة لم تعد خدأ

وقال البحري :

وقد وفي لك مطربها بما وعدا
مستحسن وزمان يشبه البلدا
ويصبح النبت في صحرائها بددا
أو يانعاً خضرا أو طائراً غردا
أو الربيع دنا من بعد ما بعدا

أما دمشق فقد أبدت محاسنها
إذا أردت ملأت العين من بلد
يُمسي السحاب على أجبالها فرقا
فلست تبصر إلا واكفا خضلا
كأنما القيظ ولَّى بعد حينه

قال عبد الله بن أحمد بن الحسين بن النصار :

فما أطيب اللذات فيها وأهناها
يحن إليها كل قلب ويهواها
ونلنا بها من صفوة اللهو أعلاها
تقضت وما أبقت لنا غير ذكراها
وقل له من بعد قولتي واهـ
إلى دار أحباب لها طاب مغناها
وحرمة أيام الصبا ما أضعناها

سقى الله ما تحتوي دمشق وحيّاها
نزلنا بها واستوقفتنا محاسنها
لبسنا بها عيشاً رقيقاً رداؤه
وكم ليلة نادمت بدر تمامها
فأها على ذاك الزمان وطيه
فيا صاحبي أما حملت رسالة
وكل ذلك الوجد المبرِّح ثابت

فإن كانت الأيام أنست عهدنا فلسنا على طول المدى نتناساها
سلام على تلك المعاهد إنها محط صبايات النفوس ونواها
رعى الله أياماً تقضت بقربها فما كان أحلاها لديها وأمرها

قال محمد بن إبراهيم الدمشقي المعروف بابن الراعي في وصف دمشق :

هذي دمشق الشام دار اللهو فاسند حديثي عن رُبّاهَا وارو
حاكثُ جنان الخلد عند العرض بل قيل عنها جنةٌ في الأرض
بل شامةُ الدنيا وعين الملك وتعرف الدينارَ عند السبك
أنهارُها عدُّ النجوم الزُّهر وليس إلا في رياض تجري
هاكُ استمع مني حديثَ الشام دارِ التصابي والنعيم السامي
قد خصَّها الرحمنُ بالأنهارِ وطيّب الأرواح والأزهار
وخصَّها المولى بذاك الجبلِ وقُلْ أن يخلو مكانٌ من ولي
للشام ليس لغير الشام يا قمر يرفّ طيفك أشجاناً ، ويتدر
للشام ، للشفق الزهبي تلونه يد الألوهة ، والأحلام والغرر
ومقلّة حلوة الأطياف عالقة بالنجم تزخر في أهدابها الصور
عذراء عانقها شوقي وخاصرها في كل رايّة من بيده عُمُرُ
تردّ عن زاهيات الحسن سالفها ويشرق السحر في العينين والهور
والشام في كل حقل من خمائلها يساقطُ اللؤلؤُ المنثور والثمر
أشبالها السمر والدنيا وراءهم تكاد من حدة الأحداث تنفجر

هذه قبسات خاطفة من بعض ما قاله الشعراء القدامى في دمشق ، أما إذا انتقلنا
في العصر الحديث فإننا نجد الشعراء يتبارون في وصف دمشق والتغزل بحسنها كما
تبارى الأقدمون .

ولعل أروع ما قيل فيها قصيدة أمير الشعر والشعراء أحمد شوقي فقد توج عنقها
بقصيدته الخالدة ، التي نقتطف منها هذه الأبيات الخالدات :

قم ناج جَلَّقْ وانشد رسم من بانوا	مشت على الرسم أحداث وأزمان
لولا دمشق لما كانت طليطلة	ولا زهت بيني العباس بغدان
آمنت بالله واستثنيت جنته	دمشق روح وجنات وريحان
قال الرفاق وقد هبَّت خمائلها	الأرض دار لها الفيحاء بستان
جرى وصفق يلقانا بها بردى	كما تلقاك دون الخلد رضوان
دخلتها وحواشيها زمردة	والشمس فوق لجين الماء عقيان
والحور في دَمَرٍ أو حول هامتها	حور كواشف عن ساق وولدان
وربوة الواد في جلباب راقصة	الساق كاسية والنحر عريان
وقد صفا بردى للريح فابتردت	لدى ستور حواشيهن أفنان
خلفت لبنان جنات النعيم وما	نبئتُ أن طريق الخلد لبنان
حتى انحدرت إلى فيحاء وارفة	فيها الندى وبها (طي) و (شيان)

وفعل سعيد عقيل كما فعل بشارة الخوري ونظم في دمشق رائعته (سائليني
يا شام) التي غنتها فيروز ولقيت من الاستحسان حظاً كبيراً .

وتغنى إيليا أبو ماضي بدمشق وتحدث عن بطولاتها وأمجادها فقال :

هي الشام مهنداً وكتابا	والغوطة الخضراء والمحرابا
ليست قباباً ما رأيت إنمّا	عزم تمرد فاستطال قبابا
فالثم بروحك أرضها تلثم عصورا	للعلی سكنت حصی وترابا
واهبط على بردى يصفق ضاحكاً	يستعطف التلعات والأعشابا

أما الشاعر المهاجر في فنزويلا جورج شدياق فقد نظم في دمشق قصيدة جاوزت
أبياتها الأربعين وسماها (كعبة الشرق) نقتطف منها الأبيات الأربعة التالية :

قف بالشام وروّ النفس من بردى وانثر على غوطيتها القلب والكبدا

وانشق عبيراً مصفى من حدائقها ولا تدع نسمة منها تضيع سدى
دمشق أنت على ثغر العلى ألتق منك البلاد تلظى صدرها ألقا

ونظم الشاعر العراقي محمد مهدي الجواهري في السنوات الأخيرة عدداً من
القصائد تغنى فيها بدمشق ، منها :

يا شام يا لمح الكواكب في دجى يا موكب الأعراس في صحراء
يا موئل الذكرى يغطي أرضها وسماءها حشد من الأصدقاء
يا أم أقيال ومدرج أمة وعرين أشبال وكهف رجاء
يا أخت غسان ينادم رهطه يوما بجلق سيد الشعراء
يا بنت مروان يُركز راية حمراء فوق رمالك السُمراء

أما بدوي الجبل الشاعر الكبير الراحل ففي ديوان شعره العديد من القصائد
والأبيات الخالدات في وصف دمشق والتعبير عما يكنه لها من حب وتقديس ، ولعل
من أروع ما قال هذه الأبيات :

قف بالشّام مسائلاً آثارها مرحى لمن أمّ الشّام وزارها
أهوى الشّام طريفها وتليدها فتianها وكهولها وصغارها
أهوى أزهارها ، أحزنٌ لعهدا اشتاق بلبها ، أحب هزارها
قضيت أيامي القصار بظلمها جادت مدامع مقلتي قصّارها

وحين زار الشاعر الجزائري الدكتور صالح الحز دمشق مؤخراً نظم فيها قصيدة
من رائع شعره قال فيها :

دمشق نبع الهوى يا ريّ من وردا يا بسمّة شفتاها ضفتا بردى
الخافق الصبُّ أضسته الخطا فرأى على ضفافك نبع الحب فابتردا
دمشق قبلة لقيّا أنت موعدها دمشق أنت الهوى وفّى بما وعدا

نزار قباني

أما نزار قباني الشاعر الدمشقي فلم يترك ساحة دون أن يتغنى بدمشق ويعطر شفتيه بالحديث عنها . وما أحب أن تفوت هذه المناسبة دون أن أسجل شيئاً من شعره عن دمشق وأقرب شعره إلي في هذا المجال تلك التي يقول فيها :

يا شامة الدينا ووردها	يا من بحسبك أوجعت الأزاميلا
وددت لو زرعوني فيك مئذنة	أو غلقوني على الأبواب قنديلا
يا بلدة السبعة الأنهار يا بلدي	ويا قميصاً بزهر الخوخ مشغولا
ويا حصانا تخلي عن أعتته	وراح يفتح معلوماً ومجهولا
هواك يا بردي كالسيف يسكنني	وما ملكت لأمر الحب تبديلا

فقد عشق الشاعر الكبير نزار قباني دمشق ، وسقاها من روحه ونشر عبيرها في مشرق الأرض ومغربها ، وفيها يقول :

علمينا فقه العروبة يا شام	فأنت البيان والتبيين
كتب الله أن تكوني دمشقاً	بك يبدأ وينتهي التكوين

ويقول :

قمر دمشقي يسافر في دمي	وبلابل وسنابل وقباب
الفل يبدأ في دمشق بياضه	وبعطرها تتطيّب الأطياب
والماء يبدأ من دمشق ، فحيثما	أسندت رأسك ، جدولٌ ينسابُ
والشعرُ عُصفورٌ يمدُّ جناحه	فوق الشام... وشاعرٌ جوابُ
والحبُّ يبدأ من دمشق ، فأهلنا	عبدوا الجمال... وذؤبوه وذابوا
والخيل تبدأ من دمشق مسارها	وتُشدُّ للفتح الكيبر ركابُ
والدَّهر يبدأ من دمشق ، وعندها	تبقى اللغات ، وتحفظُ الأنسابُ
ودمشقُ تعطي للعروبة شكلها	وبأرضها ، تتشكّلُ الأحقابُ

ومن قصائد نزار الجميلة في دمشق ، قصيدته التي كتبها عام ١٩٨٦م والتي قال فيها :

فرشت فوق ثراكِ الطاهر الهدبا فيا دمشق لماذا نبدا العتبا
حييتي أنت فاستلقي كأغنية على ذراعي ولا تستوضحي السبا
أنا قبيلة عشاق بكاملها ومن دموعي سقيت البحر والسحبا
يا شام إن جراحي لا أضفاف لها فامسحي عن جيني الحزن والتعبا
أتيت من رَحَم الأحزان يا وطني أُقْبِلُ الأرضَ والأبوابَ والشُّهبا
حُبِّي هنا... وحيياتي وُلْدُن هنا فمن يُعيد لي العمرَ الَّذي ذهباً ؟
هذه البساتينُ كانت بين أمتعتي لما ارتحلتُ عن الفيحاءِ مغتربا
ويقول الشاعر عمار العساودة :

يا شام كوني مثلما قالوا شذا ورداً وداليةً ورفاً يَمَامِ
شام الهوى أنت الحبيبة دائماً كوني الطبيب وعالجي آلامي

ما من شاعر زار دمشق إلا وجد نفسه منساقاً إلى التغني بمحاسنها وجمالها ، عاجزاً عن إخفاء عشقه لها وولعه بها ، حتى لتراه وهو يرحل عنها يرحل مضطراً ، لتبقى ذكراها في قلبه ماثلة أبداً . ومن خير من عبر عن ولعه بدمشق وعشقه لها الشاعر نزار قباني ، في قصيدته (ترصيع بالذهب على سيف دمشق) التي يقول فيها :

ها هي الشام بعد فرقة دهر أنهر سبعة وحوور عين
آه يا شام كيف أشرح ما بي وأنا فيك دائماً مسكون
يا دمشق التي تفشَّى شذاها تحت جلدي كأنه الزيزفون

وحين زارها الشاعر أحمد شوقي ، قال في وصف أمجادها :

لولا دمشق لما كانت طليطلة ولا زهت بيني العباس بغداداً

قال هشام عبد الرزاق الحمصي يصف الربيع :

الغوطَةُ الخضراءُ عرسٌ دائمٌ	فصلُ الربيع بها أناخ وخيِّما
باكرتها والشمسُ بعدُ خجولةٌ	في خدرها ^(١) والأفق ييدو عندما
فقضيتُ فيها نزهةً أجلو ^(٢) بها	عن قلبي المحزونِ همًّا أسقما
فجمالُها سحرٌ حلالٌ رائعٌ	واللهُ قد وهبَ الجمالَ وأنعما
وشقائقُ النعمانِ بين ربوعها	كالعاشقِ المحمومِ هامٍ ودمدما ^(٣)
والزهرةُ الصفراءُ فيضٌ زاحفٌ	كالجيشِ عادٍ مظفرًا ومُكرِّما
والماءُ ينسابُ انسياباً هادئاً	كالطفلِ يحبو نحو أمِّه هائما ^(٤)
والزهرةُ كالشيخِ الوقورِ مشمراً	نحو الوضوءِ قد انحنى وتعمَّما
والنصنُ في الأشجارِ أورق مزهراً	تلقاه في ترحابه مترنِّما
وكأنه قد مدَّ نحوكَ أذرعاً	متشوقاً مترنِّحاً متبسِّما
مرأى الصبايا الحور ^(٥) تحت ظلاله	كالنحلِ نحو خليةٍ قد حوِّما
يجلو لناظركَ الجمالَ منسَّقاً	قد فصلَ الألوان فيه وعمَّما
والطائرُ الشحورُ غنى فوقه	لحناً شجيّاً مطرباً ومنغِّما
قد قالَ : هيَّا فالربيعُ عطيةٌ	من مبدعِ الأكوانِ من ربِّ السما
عمرُ الزهورِ به قصيرٌ مدبرٌ	طوبى لمن قطفَ السرورِ متمِّما
ويلٌ لمنْ خسرَ الحياةَ يضيعها	في جمعِ مالٍ ليس يدرك مغنما
إن الربيعُ هو الهناءُ وسعدُهُ	تغدو الحياةُ به نعيماً منعما

(١) الخدر : كل ما وارك من بيتٍ ونحوه .

(٢) أجلو : جلا : كشف .

(٣) دمدم : غضب .

(٤) هائماً : شغفاً مُحبّاً .

(٥) الحور : جمع الحوراء ، وهي من النساء : البيضاء ، ولا يُقصد بذلك حورُ عينيها .

أملُ العليل به شفاءً عاجلاً فالنسمَةُ الزَّهراءُ جاءت بلسماً^(١)
صنع الإله فكلُّ خلقٍ متقن من مثله في صنعه قد أحكما ؟
إن الجمال مع الكمال مزيَّة لا يحسنُ التقدير إلا من سما
جوُّ نقي ذاكرٌ ومذكَّر ما أكرمَ التسبيحَ فيه وأعظما !
عذراً لقاضي الحب إنني عاشقٌ عشقُ الطبيعة لا أراه محرماً

ونظم أنور العطار عدداً من قصائده الجياد يصف فيها دمشق ويناجي محاسنها
وفتونها يتعبد في محرابها . ومن شعره الجيد ما قاله في (غوطة دمشق) وهي
المنطقة الشرقية من دمشق ، التي تمتد مسافات شاسعة وتحفل بشتى أنواع الأشجار
المثمرة اليبانة :

أنت يا غوطتي مجال اعتباري يا نعيمي ويا مطاف ادكاري
نهلت من جمالك السمع نفسي وتغذت من وحيه أفكاري
إنني فيك غرسة تتهادى ونشيد قدر رجَّعته القماري
يوشك القلب أن يذوب حيناً كلما شطَّ عن حماك مزاري

أما عدنان مردم بك فهو أحد عشاق دمشق المتيمين أبصر النور فيها وهام بها حباً
كما فعل والده خليل مردم بك قبله . ولم يكتف بوصفها في عدد من قصائده بل
سمى أحد دواوينه (عبير من دمشق) وسمى ديواناً آخر باسم (نفحات شامية) ،
وقد أصر الشاعر في الديوانين وفي غيرهما على التغني بدمشق والتغزل بمحاسنها
فتحدث عن تاريخها ووصفها في الليل وتحدث عن سوق الحميدية وبرك الماء في
بيوتها القديمة ، وقاسيون تحت الثلج وغيرها من مظاهر الفتنة . لنستمع إليه يتحدث
عن دمشق في التاريخ :

يتصرم المجد التليد ويهرم وتليد مجدك شامخ لا يثلُم
شاخ الزمان ولم تشخ لك همة من دونها يعيا الزمان ويسأم

(١) بلسماً : شفاء .

وبنيت للتاريخ صرح حضارة هيهات يغزوه البلى أو يهدم
نقش الحديد عن الفتوح ملاحما في مثلها يحلو إذا انهمر الدم
كذلك أطلق الأستاذ سليم الزركلي على ديوانه اسم (دنيا على الشام) وضمته
عدداً من القصائد الشامية . . كما أن الشاهد الأديب الراحل الدكتور زكي المحاسني
نظم عدة قصائد في تمجيد دمشق وتعداد محاسنها .
أما عمر أبو ريشة فيهتف وهو يتغزل بدمشق قائلاً :

يا عروساً تنام ملء المحاجر شيعي الحلم والطيوف السواحر
طلع الوحي من مفارقك العز وسالت من راحتيه المآثر
والبنون فوق ثغرك اغفوا والبنوات ساهدات سواهر
سكب الحسن روضه فوق برديك فأصبحت فتنة للنواظر
يا بلدي وأنت نهلة ظمآن وشبابة على فم شاعر
بعد هذا ، أحب أن أعترف بأني تعمدت تأجيل الحديث عما قاله الشعراء الأربعة
الكبار الذين كانوا يحملون معاً لقب شاعر الشام . . . عن مدينتهم المفضلة . فأعني
بذلك : خليل مردم بك ، وخير الدين الزركلي ، ومحمد البزم ، وشفيق جبري .
تعمدت ذلك كي يكون الكلام حول ما قالوه عن دمشق خاتمة المطاف .

هؤلاء الأفاذاذ ولدوا جميعاً في دمشق ، باستثناء الزركلي ، وعاشوا تحت
سمائها ورضعوا حبها ، وتغنوا في أشعارهم بالغوطة وبردى وقاسيون وبكل ذرة من
تراب دمشق وكل قطرة من مائها وكل نسمة من هوائها . قال فيها خليل مردم بك
أجمل شعره ، وصف الغوطة وتغنى بها ، وتغزل بقاسيون وبردى ودمر والنيربين ،
وأصرَّ على أن يكون شاعراً دمشقياً قبل أي شيء آخر . ونستمع إليه يقول مخاطباً
دمشق :

أدمشق ما للحسن لا يعدوكِ حتى خصصت به بغير شريك
مهوى القلوب لكل روح راحة ولكل عين قرة وآديك

الحبّ برّح بي وأنتِ بعثتهِ إليك أشكوا الحب أم أشكوك ؟
فكأنما الأشجار فيك عرائس ماست بكل مغنم ومحوك
الغوطتان وأنت مثل جزيرة بحران يلتظمان في شاطئك
لولا حمى البيت الحرام وشطه عند الصلاة وجوههم ولّوك

أما خير الدين الزركلي ، فلم يصف دمشق ، ويتغنى بجمالها ، بقدر ما هاجم
المستعمر الذي اعتدى على حريتها ويقدر ما عبر عن شوقه إليها ، بعد أن أجبرته
الظروف السياسية والحكم الذي أصدره المستعمر بإعدامه ، على مغادرتها والفرار
منها . وهنا يئن الشاعر شوقاً وحنيناً إليها :

العين بعد فراقها الوطناً لاسكنأ ألفت ولا سكنأ

وحين وقعت معركة ميسلون واستشهد وزير دفاع سورية يوسف العظمة في ٢٤
تموز/ ١٩٢٠م في معركة غير متكافئة مع المستعمر ، نسمع خير الدين كالليث الجريح :

الله للحدثان كيف تكيد بردى يفيض وقاسيون يמיד
ما تنفع الحجاج الضعيف وإنما حق القوي معزز معضود
ويقف في مصر في حفل تؤازره الثورة السورية ؛ ليصرخ :

الأهل أهلي والديار ديارى وشعار وادي النيريين شعاري
ما كان من ألم بجلّ ق نازل واري الزناد فزنده بي واري

إنّ حبّ الزركلي لدمشق ، ووطنه العربي الكبير ، حب من نوع آخر ، حب
لا يقف عند الوصف والهيام بالأرض ، بل يتجاوزهما ، إلى خوض العراك والصراع
من أجل التراب والأرض . ويأبى محمد البزم إلا أن يبرهن على حبه لدمشق بقصيدة
بلغت أبياتها أكثر من مئة وثلاثين بيتاً ، قسمها إلى أبواب متعددة ، تحدث فيها عن
ماضيها وجمالها وطلاء قصورها ، وأخلاقها ، وبنى أمية فيها وبرداها وغوطتها
ويقول الشاعر فيها :

أيامها غرر الدهور وعصرها تجري بطاعته العصور عبيدا

ألقيت إليها الأرض مقود أهلها ورمت إلى أبطالها الأقيدا
وعنا لها الفلك المدار فسيّرت خطواته فيما تريد بريدا
ريحانة الدنيا وظل نعيمها من قبل مولد يعرب وثمودا

بقي أن نقول : إن شفيق جبري سلك في التعبير عن حبه لدمشق مسلك نظيره
خير الدين الزركلي ؛ فقد أثر جبري أن يخوض معارك السياسة مع المستعمر وأن
يتحدث عن دمشق المكافحة المقاتلة الثائرة الغضبي أكثر مما يتحدث عن دمشق
الغادة اللعوب ، والحسنة التي تحرك محاسنها وتسرك مفاستها وتفريك بوصفها
والتغزل بها ، لقد أثر جبري أن يتحدث عن دمشق وهي غاضبة ثائرة في وجه
المستعمر الفرنسي .

يا يوم أيار والنيران ملهبة على دمشق تلظيها جلاميد
الطفل في المهد لم تهدأ سريره مرّوع من لهيب النار مكدود

- ويفرح ويصفق ويغني ، يوم تحقق الجلاء واستقلت دمشق فيقول :

أتكذب العين والرايات خافقة أم تكذب الأذن والدنيا أغاريد

- ويفاخر شاعرنا بعروبة دمشق ووطنيتها الأصلية فيقول :

ظل العروبة وارف في جلق متمكن من أرضها وسحابها
عركت عروبتها السنين فأقلقت عبث السنين بجدها وبنابها

ومما كتبه ابن دمشق وأحد عشاقها الذين سحرتهم بجمالها وفتنهم بغوطتها
وحاراتها وآثارها وبياسمينها ودواليها الأستاذ محمد مروان مراد ، كتب قصيدة عن
دمشق بعنوان عروس المدائن وهذا بعض منها :

لماذا تُراكَ تُحبُّ دمشق وتخلّبُ فكرَكَ دوماً رؤاها ؟
لماذا تظّلُ بها مُستهاما كأنّ ليس في الكونِ دنيا سواها ؟
وإما اسمُها رفّ في السمع عفواً توثّبتَ طفلاً يُر حَبّي لِقاها ؟

وَأَنى تَنَقَّلْتَ فِي الأَرْضِ تَهْفُو
تُرَاكُ أَفْتِنْتَ وَمَسَّكَ سِحْرُ
لَمَّاذَا تُحِبُّ دِمَشْقَ وَتَبْقَى
أَيْسَأَلُ مِثْلِي ، وَتَرْجُو جَوَاباً ؟
تَرَانِي وُلِدْتُ عَلَى رَاحَتِهَا
وَفِيهَا تَفْتَحْتُ حُرّاً سَعِيداً
وَفِيهَا أَقَامَ جَدُودِي صُروحاً
دِمَشْقُ أَسْأَلُونِي أَنَا مِنْ دِمَشْقِ
وَلِي فِي دِمَشْقَ حِكَايَاتُ عَشَقِ
هَنَا قَاسِيُونَ تَسَامَقَ تِيهاً
تَدْفَقُ بِالْخَيْرِ لَمْ يَبْقَ كَفٌّ
هَنَا « مَرَجَةٌ » الصَّيْدُ هَبُّوا رَجَالاً
هَنَا كُلُّ حَيٍّ قَصِيدَةُ شِعْرِ
وَهَذِي الْمَآذِنُ تَرْتَجُّ فَجْراً
وَهَذِهِ التَّكْيَةُ ، بَابُ الْمُصَلَّى
و« سَوْقُ الْعَتِيقِ » وَ« حَمَامُ وَرِدِ »
هَنَا الْيَاسَمِينُ الرَّقِيقُ الْمُصَفَّى
وَهَذِي الدَّوَالِي عَنَا قِيدُ قَطْرِ
تَبَارَكْتَ يَا رَبُّ لَمْ يَبْقَ حُسْنُ
دِمَشْقُ . . . دِمَشْقُ أُحِبُّ دِمَشْقَ
أَحْبَبُوا دِمَشْقَ وَلَا تَتْرَكُوهَا
دِمَشْقُ هُوِيَّةُ كُلِّ غَيُورِ

بَحْضِنِ دِمَشْقَ وَدَفِئِ حِمَاها ؟
فَلَسْتَ تَرَى غَيْرَ بَسْمِ سَنَاها ؟
مُحِبّاً وَفِيّاً أُسِيرَ هَوَاها ؟
إِذْنُ فِي فُؤَادِي تَغْلَغُلُ تَرَاها
وَرُوحِي نَدِيٌّ ثَرَاها
وَمِلَّةٌ إِيَّاهِي زَكِيٌّ شَذَاها
تُحَدِّثُ بِالْفَخْرِ عَمَّنْ بَنَاها
وَعَذْبُ أَغَانِيٍّ نَفْحُ جَنَاها
تُجَدِّدُ عُمْرِي بِعَطْرِ نَدَاها
لِيَحْضِنَ أَهْلًا ، هُنَا بَرَدَاها
تَرْجِي عَطَايَاهُ إِلَّا سَقَاها
وَلَبُّوا بِعِزِّ الْأَسْوَدِ نَدَاها
وَدَفِئِ الْبُيُوتِ سِجْلُ بَهَاها
بِاللهِ أَكْبَرُ ضَاءَتْ سَمَاها
و« سَتِي رَقِيَّةٌ » طَابَ ثَرَاها
و« حَارَةُ قَوْلِي » لِيَهْنَأَ مَسَاها
نَجِيٌّ الْعِذَارَى وَسِحْرُ صِبَاها
تُعْرِشُنْ جَذْلِي عَلَى مُشْتَهَاها
وَلَا ثُوبُ حَسَنَاءٍ إِلَّا كَسَاها
وَأَهْلَ دِمَشْقَ وَسِحْرَ بَهَاها
لِمَعُولِ جَهْلٍ يَذُكُّ رُؤَاها
رَعَى اللهُ بِاللُّطْفِ مَنْ قَدْ رَعَاها

وعشقها محمد كرد علي شاعر دمشق وسقاها من روحه ، ونشر عبيرها في
مشرق الأرض ومغربها يقول :

الفل يبدأ من دمشق بياضه وبعطرها تتطيب الأطياب
والحب يبدأ من دمشق فأهلنا عبدوا الجمال وذوبوه وذابوا
فالدهر يبدأ من دمشق وعندها تبقى اللغات وتحفظ الأنساب
ودمشق تعطي للعروبة شكلها وبأرضها تتشكل الأحقاب
قال مصطفى عكرمة :

من روعة الحسنِ حُسْنِ الشامِ يا بردى دعني أبوحُ بما في خاطري احتسداً
وهب لي الشعر من سلسال روعته يا من جعلتَ جمالَ الشام منفرداً
لو دارت الحور كأس الراح أعوزها من مائك العذب إذ سلساله برداً

الشام خيرة خلق الله في الأرض أقام ربك فيها كل ما يُرضي
وخصها بركاتٍ منه دائمةً فكل شوقٍ إلى فيحائها يُفضي
آثرتُ عيشي بها عن كل عامرةٍ كلي بها . . . وأرى في غيرها بعضي

وبعد . . ففي هذا الحديث الذي أوردت ، قليل مما قاله الشعراء أو بعضهم في
القديم والحديث عن دمشق .

وما نظمه الشعراء فيها يبلغ أضعاف أضعاف ما ذكرت ، وهناك عشرات من
الشعراء الفحول المعاصرين والقدامى ، قالوا في وصفها كثيراً من الشعر الرقيق
الساحر .

وعذري في إغفاله ضيق المجال وصعوبة العثور على كل ما قيل عن دمشق .

تسميات دمشق

دمشق^(١) :

في رأي مؤرخي العرب أن هذا الاسم قديم جداً ، وقد ذهبوا في تفسيره وبيان أصل اشتقاقه مذاهب شتى ، فمنهم من رأى أن اسم دمشق يرجع إلى لفظة آرامية هي (مشق) تتقدمها دال النسبة ، وما يعلل ذلك ، أنها كانت عاصمة المملكة الآرامية ، أهم دولة في سورية وأكثرها منعة وقوة . وقد وردت في اللغة الهيروغليفية على هذا النحو تقريباً ، ومعناها الأرض المزهرة أو الحديقة الغناء . وأطلق الآراميون عليها اسم (درمشق) والسيان (درمسوق) وأهل لغة التلمود (درمسقين) . كما يقال أيضاً ، في الإشارة إلى قدمها : إن (هوداً) عليه السلام قد نزل فيها وأسس حائط معبدها ، وهو أول حائط مبني في التاريخ .

وقال ابن الكلبي : سميت دمشق (بدماشق) بن قاني بن مالك بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام ، وقال آخرون سميت بدمشق بن آرم بن سام بن نوح عليه السلام^(٢) . وقال غير هؤلاء : إن (دماشق) هو ابن نمرود بن كنعان ، عدو إبراهيم عليه السلام ، وقيلك إنه هو الذي بناها ، وكان معه إبراهيم ، بعد أن نجى الله تعالى إبراهيم من النار ، وكان دماشق قد أسلم وهاجر مع إبراهيم عليه السلام إلى الشام ،

(١) دمشق : (بكسر الدال وفتح الميم وسكون الشين) مخففة من اسم دمشاق ، مولى سام بن نوح عم الذي قاد فرقة من بني سيده إلى هذه البقعة وابتنى لهم المدينة فدعوها باسمه . مدينة من أقدم مدن العالم ، في الدرجة (٢٦) والدقيقة (٣٠) من الطول الشرقي ، والدرجة (٣٣) والدقيقة (٢٠) من العرض الشمالي . تعلو عن سطح البحر (٢٥٠٠) قدماً إنكليزياً ، أو ٨٠٠ متراً .

(٢) ياقوت الحموي ، معجم البلدان (ص ٤٦٣ / ٤٦٤) .

وفيهما تسمى بـ (جيرون) ، وإلى هذا ذهب الحافظ السهلي ، في كتابه الأعلام .
أما وهب بن منبه ، فقال : إن دمشق بناها اليعازر غلام إبراهيم الخليل ، وكان
حبشياً وهبه له نمرود بن كنعان ، وكان اسم الغلام دمشق بناها على اسمه .

وقيل : إن الإسكندر بعد ما بنى السّدّ ورجع من الشرق يريد الغرب ، سار فلما
بلغ الشام وصعد دُمُرَ أبصر هذا الموضع الذي هو اليوم دمشق ، وكان هذا الوادي
الذي يجري فيه نهر دمشق غيضة أرز ، فلما رآها ذو القرنين تفكّر كيف يبني فيها
مدينته ، وكان له غلام يقال له دمشق ، وكان أمينه على جميع ملكه ، فأمره بحفر
حفرة وإعادة ترابها إليها ، فأعيد التراب ولم تمتلئ الحفرة فقال ، إن بنيت هنا
مدينة لا يكفي أهلها زرعها ، فرحل حتى إذا كان في حوران ورأى تربتها الحمراء
وسعتها ، أمر بحفرها فحفرت ، وأعيد التراب ففضل منه كثير ، فقال لغلامه
دمشق : ارجع إلى ذلك الوادي فاقطع الشجر وابنِ على حافته مدينة وسمها
باسمك ، فهناك يصلح أن تكون مدينة ، فبنى دمشق المدينة وأقام بها حتى مات .

وبعد ، فثمة من رأى أن (دمشق) اسم مشتق من الرومانية أو اللاتينية ، وأن
هؤلاء وأولئك أطلقوا عليها اسم (داماسكوس) التي تعني العطر المضاعف ،
وقصدوا بذلك الإشارة إلى عطر مناخها الجميل وعطر أزاهيرها ورياحينها الفواحة
التي تشتهر بها ، ومنها (الفُلُّ ، الياسمين ، والورد الجوري ، والزنبق) .

كذلك نجد عند المؤلفين العرب محاولات تهدف إلى تفسير اسم (دمشق) ،
وتحديد اسم مؤسسها ، فقد تحدث (ياقوت الحموي) عن (دمشق) التي سميت
بهذا الاسم ؛ لأنهم (دمشقوا في بنائها) أي (أسرعوا) وعند العرب عبارة (ناقة
دمشق) أي (ناقة سريعة) ، واعتبر أن (دار نوح) كانت مكان دمشق ، وأن أول
جدار أوسور شُيّد على الأرض بعد الطوفان هو (سور دمشق) و (حران) .

وتحدث المؤرخ الدمشقي الكبير ابن عساكر (١١٠٥ م - ١١٧٦ م) عن الآراء
المختلفة المتوارثة والمتعلقة باسم دمشق وتفسيره ، واسم بانيها وهويته ، كقوله بأن
(دمشق) بناها (دمشقيش) الذي رافق الإسكندر في حملته ، أو الرأي القائل :

سمعت (أبا بكر بن محمد عبد الباقي بن محمد الفرضي) ببغداد - وكان قد أسر ، وبقي في بلاد الروم مدة من الزمن - أن رجلاً من حكماء الروم قال له : إن دمشق سميت باللغة الرومية ، وأن أصل اسمها (دمسكوس) أي (مسك مضاعف) وذلك لطيبها ، ثم عُرِبَتْ فعرفت باسم (دمشق) وكان العرب الآراميون يسمونها (درمسق) أو (درمسوق) (أي حصن مشق) أو (أرض مسقية) .

كما ردد (ياقوت) آراء مختلفة عن اسم باني دمشق التي سميت باسم (دوماشق بن قاني بن مالك بن أرفخشذ بن سام بن نوح) والرأي الذي ينسب بناء دمشق إلى (أليعازر الدمشقي) مالك بيت إبراهيم وهناك أيضاً من يجعل اسم باني دمشق (جيرون بن سعد بن عاد) . . إلخ وهناك آراء عديدة ومختلفة لا تدعمها الوثائق التاريخية الصحيحة .

جُلَّقُ (١) :

- قيل في الكتب العربية التاريخية : إنها (اسم لكورة الغوطة كلها ، وقيل : قرية من قراها ، وقيل : دمشق نفسها . وقيل : صورة امرأة يجري الماء من فيها بقرية من قراها) . وكما اختلف في اسمها ، فقد اختلف في مكانها ، والمتفق عليه أنها كانت من مقرات أمراء بني جفنة ، وتأتي في أهميتها بالدرجة الثانية بعد الجابية ، وكانت فيها كنائس وحدائق ومياه غزيرة . وقد غَمَضَ اشتقاق كلمة جلق ، فقيل : إنها (يونانية) تحريف كلمة (Jimic) ومعناها (امرأة) ، إذا كان فيها كنيسة بهذا الاسم - ذكرها ابن عساكر وغيرها - ولعلها كنيسة باسم مريم أم المسيح ، وهي غير الكنيسة المريمية الكبرى ، وقرب الكنيسة (باب الجنيق) المسدود في زمن ابن عساكر ، فقيل فيها (جِنَّق) ثم بالإبدال (جلق) . وقيل : إنها (فارسية) من كلمتين (كل) أي زهرة أو وردة ، و (لك) بمعنى مئة ألف ، فيكون معناها (مئة ألف زهرة) إشارة إلى غوطتها ، ثم عدلوا عن ضم أولها إلى الكسر واتبعوا اللام للتخفيف فقالوا (جلق) . وعلى هذا الرأي تكون من تسمية الفرس الذين ملكوها

(١) جَلَّقُ : (بضم الجيم وتشديد اللام المفتوحة) اسم موضع من الشام فعرفت به كلها .

في القرن السادس الميلادي . وكانت شائعة في زمن الشاعر حسان بن ثابت فذكرها في شعره :

لله در عصابة نادمتهم يوما بجلق في الزمان الأول

جاء في (مراصد الاطلاع) جلّ ق : ناحية بسرقسطة بالأندلس يسقي نهرها (٢٠) ميلاً . وقيل : واد في شرقي الأندلس . ثم جاء : (جليقية) ناحية قرب ساحل البحر المحيط من ناحية شمال الأندلس في أقصاه من جهة الغرب) وهذا دليل آخر على حمل الدمشقيين لهذا الاسم معهم إلى الأندلس تحبباً وحنيناً إلى وطنهم الأول . ولم يترك اللغويون هذا الاسم دون أن يتكلفوا في تفسيره فقال (ابن فارس) : وجلق من قولك جَلَقَ رأسه إذا حلقه .

جَلَقَ : موضع في جنوب سورية حشد فيه البيزنطيون جيشهم قبل منازلهم العرب في موقعة (أجنادين) سنة (٦٣٤) .

وهي مبنية على فضاء مستو من الأرض في وسط الغوطة الغناء بين الحدائق والجنان النضرة المحيطة بها من جهاتها الأربع ، يشرف عليها جبل .

جَلَقَ بكسر الجيم واللام وتشديدها ، وقد تفتح (جَلَقَ) ، اسم أطلقه البعض على دمشق . وقد ورد في الصحاح : (جَلَقَ ، بالتشديد وكسر الجيم واللام ، موضع بالشام) ، ويقال : إنه مكان يقع جنوب دمشق استوطنه الغساسنة ، وقد ذكرها حسان بن ثابت الأنصاري بهذا الاسم في قصيدته التي مدح بها آل جفنة الغسانيين حيث يقول :

لله در عصابة نادمتهم يوماً بجلَق في الزمان الأول

ويقول الشاعر أحمد شوقي في بيته المشهور :

قم ناج جَلَقْ وانشد رسم من بانوا مشت على الرسم أحداثٌ وأزمانُ

وقديماً قال عرقله الدمشقي الكلبي :

الشامُ شامة وجنة الدنيا كما إنان مُقلتها الغضيضة جَلَقُ

مِنْ آسِهَا لَكَ جَنَّةٌ لَا تَنْقُضِي وَمِنْ الشَّقِيقِ جَهَنَّمُ لَا تَحْرُقُ
وقال آخر :

أَغْصَنَ الرُّوْضَةِ الْغَنَّا الرُّطِيبُ لَهُ فِي جَلْقِ الْفِيحَاءِ طِيبُ
أَمْ السَّحَرِ الْحَلَالِ أُتِيحَ مِنْهُ إِلَى نَعْمَانِ أَسْلُوبٍ غَرِيبِ
يُؤْرِخُ فِيهِ مَا ذَاقْتَ دَمَشَقَ مِنَ الْأَيَّامِ يَكْرَهُ أَوْ يَطِيبُ
وقال ابن سعيد :

فِي جَلْقِ نَزَلُوا حَيْثُ النَّعِيمِ غَدَا مَطْوَلًا وَهُوَ فِي الْآفَاقِ مَخْتَصِرُ
لِكُلِّ وَادٍ بِهِ مُوسَى يَفْجَرُهُ وَكُلِّ رَوْضٍ عَلَى حَافَاتِهِ الْخَضِرُ
ويقول ابن نور الله المعروف (بالسواري) في وصف دمشق :

لَيْسَ فِي الْأَرْضِ وَالْكِتَابِ الْمَبِينِ بَلَدَةٌ مِثْلُ جِلْقٍ بَيِّقِينَ
دَارَ لَهُوَ تَرَابِهَا الْمَسْكُ لَكَ نَّ حَصَاهَا مِنْ لَوْلُؤٍ مَكْنُونِ
هِيَ لَا شَكَّ جَنَّةُ الْخُلْدِ وَالْأَنْهَاءِ رَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا كُلَّ حِينِ
فَسَقَى اللَّهُ وَادِيَّهَا وَحْيًا سَاكِنِيهَا بِكُلِّ جَوْدٍ هَتُونِ
وَسَقَى النَّيْرِينَ وَالسَّهْمَ ^(١) وَالْ رَبْوَةَ مِنْهَا وَالسَّفْحَ مِنْ قَاسِيُونِ
وَالرِّيَاضَ الَّتِي يُفَرِّجُ مَرَأَى حُسْنَهَا الْكَرْبَ عَنْ فَوَادِ الْحَزِينِ
ذَاتُ نَشْرِ كَأَنَّ فِي طَيِّ بَرْدٍ سَةِ عَيْرًا يَرْقِصُ بَيْنَ الْغُصُونِ
جَيْرُون ^(٢) :

اسم أطلق على مدينة دمشق من باب تسمية الكل بالجزء مجازاً ، والأصل أن

(١) السهم : هو بارض الصالحة ، كما ذكر في (غوطة دمشق) ص (٥٨) وقال البديري في (نزهة الأنام) : هو درب ما بين دور وقصور ومياه تجري بهدير كالبحور وأحياناً يرد بالثنية (السهمين) .

(٢) جَيْرُون : (بفتح الجيم وسكون الباء وضم الراء) اسم أحد الملوك الآراميين وهو جيرون بن عاد بن عوض بن نوح الذي شيد قصراً ضخماً في شرق المدينة فدعي باسمه ، ثم أطلق هذا الاسم على المدينة كلها فعرفت به حيناً من الدهر .

(جيرون) هو اسم الباب الشرقي في سور معبد جوبيتر الخارجي (الجامع الأموي) . وقيل : أنه هو المسجد القديم ذاته . كما قيل : إن جيرون سقيفة مستطيلة على عمد وسقائف حولها مدينة تطيف بها وهي من أيام الجاهلية نسب إليها الباب الشرقي للمسجد فقيل (باب جيرون) ، وهذا البناء بقي إلى عام (٥٥٩هـ - ١١٦٤م) حتى أتت النار عليه . وذكر (المسعودي) أن قطعاً منه استعملت في بناء المسجد . واختلف المؤرخون العرب والفرنجة في باني هذه (السقيفة) .

وفي العهد الأموي عرفت الفتنة التي وقعت بين أنصار الأمويين وأنصار الضحاك بن قيس بيوم جيرون ؛ إذ بدأت الفتنة في المسجد وفي القرن الرابع كان يطلق على ما بين باب جيرون والباب الذي في سور المعبد الداخلي اسم (سوق جيرون) ، ثم أطلق الاسم على باب الجامع الشرقي .

وذكر (ياقوت) أن باباً من أبواب جامع دمشق - وهو الباب الشرقي - كان يسمى في عهده (باب جيرون) ، وفيه فوارة ينزل عليها بأدراج كثيرة . ووصف ابن جبير في القرن السادس باب جيرون ، وأطلق اسم جيرون على المحلة كلها . وذكر أن هذه المحلة احترقت سنة (٥٥٩هـ) بعد رجوع أسد الدين شيركوه إلى دمشق . كما احترقت قبل ذلك . ويستدل من الوصف لها أنها كانت جميلة وفيها حصن رائع ، وأنها كانت محل فسق ولهو وخمر . وقد كسر عبد الغني المقدسي الحافظ شيئاً عظيماً من ملاهيها .

وفي القرن السابع أصبح لباب جيرون شأن . وكان سبباً لمناقشات بين الفقهاء وتأليف رسائل فيه . كان باب جيرون في الأصل باباً كبيراً في الوسط ، على جانبيه فرخان أو بابان صغيران . فحدث أن سد الفرخ الشمالي واتخذ داخله مسجداً . زعم أحدهم أن فيه قبر الست ملكة من نسل علي ، فمنع العوام المرور فيه وجعلوه مسجداً وأحدثوا فيه قبراً كان الباب من عجائب دمشق . وقد احترق في فتنة تمورلنك في القرن التاسع مع المسجد الذي أقيم ، وظل كومة تراب عدة سنين حتى جاء كمشيفا طولو نائب قلعة دمشق بعد سنة (٨٣٠هـ) فعمد شخص من خواصه

إلى هذا المكان وأعاد بناءه مخزناً للأخشاب وغيرها وكانت تقع فيه منكرات ووجد فيه قتيل مرة ، ثم تهدم وزال سقفه فسعى بعضهم لتجديد عمارته ، فأمر الملك الأشرف قايتباي في سنة (٨٩٢هـ) بفتح الباب وأعيد طريقاً للمارة .

وفي القرن العاشر بني في هذا الباب الصغير حائط وجعل مخزن حطب للفرن قبله ، ثم أحدث نائب الشام جان بردي الغزالي - لما أراد الخروج على السلطان سليم بن عثمان - داخل الباب الكبير بوابه بقنطرة حجر ، ولكنه أخذ قبل أن يركب لها باباً .

أعيد بناء باب المسجد في العهد العثماني وما يزال قائماً وما تزال عضادات الباب الكبير قائمتين ، أما البابان الصغيران فالجنوبي مسدود ترى عتبه داخل دكان ، والشمالى كان مختفياً تحت الدور وكشف سنة ١٩٤٦م وظهر على عتبه نص مرسوم قايتباي بفتح الباب ووجدت سنة ١٩٤٨م الأرض الرومانية لباب جيرون الكبير على عمق ٤٣٠ سم .

ولا تزال آثار السور الذي كان يحقق بباب جيرون ظاهرة في الزقاق الذي على يمين الداخل إلى الجامع من هذا الباب - باب النوفرة اليوم - وفي داخل الباب وعلى جانبيه عمودان ضخمان يدلان على عرض السوق في ذلك العهد وكانت الأروقة قائمة على هذه الأعمدة لسير الناس والسوق بينهما للعجلات والحيوانات . وحوله كتابات يونانية على يمين الداخل على بيت الحموي - بجوار البئر الذهبي - فيه كتابة على الجدار الغربي تدل على أن الغرفة بناها مينودورس الابن الأصغر لزينوفوس أمين صندوق الهيكل . وعلى يساره حانوت صغير على اسكفته (عتبة العليا) نقوش بدیعة تدل على أن الأرض قد ارتفعت عن مساحة أرض الشارع القديم إلى أكثر من نصف الباب علواً .

وفي معنى كلمة (جيرون) :

قليل : إن (جيرون) هذا رجل من الجبابرة . وقال المؤرخ الأثري الفرنسي (سوفاجه) : (إن أصل الاسم ما يزال غامضاً) وقال : (دوسو) : إن الكلمة

مشتقة من الجذر (Gyr) أو (Gwr) الآرامي ومعناها (الحرم) أو (الملجأ) الذي يكون من دخله كان آمناً . فيكون معنى (جيرون) باب الحرم . وقيل : إن كلمة (جيرون Jiron) يونانية ومعناها (فناء الدار) أو الهيكل ، ومنه اسم فناء الكنيسة أو سورها عند الفرنجة اليوم .

ولهذا الاسم تفسيران :

الأول : إن جيرون هو اسم أحد أحفاد نوح ، ويقال : إنه هو من بناها . وكان جيرون هذا الذي عرفت به ، من ولد عاد بن إرم ، وهو جيرون بن سعد بن عوض ، وكان بناها على عمد من رخام . وذكر أنه وجد فيها أربع مئة ألف عمود وأربعين ألف عمود من الرخام . ولهذا يرى بعض المفسرين أن إرم ذات العماد التي ورد ذكرها في القرآن الكريم هي دمشق بعينها ، وعلى هذا يكون المقصود بالعماد ، في قوله تعالى ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ هو هذه العمدة التي كان البناء عليها في هذه المدينة العظيمة الخيرات ، الجسيمة البركات ذات البساتين والجنات والرياض والمنتزهات .

الثاني : إن جيرون هو اسم باب شهير من أبواب المدينة التي بناها سليمان ، ولشهرته غلب لقبه عليها . وقيل : إن جيرون وبريد كانا أخوين ، وأنهما ولدا (سعد بن عاد) ، وهما اللذان يعرف باب جيرون وباب البريد الآن بهما .

وقد ورد اسم جيرون في قول وهب بن زمعة :

صاح حيّا الإله أهلاً وداراً عند شرق القناة من جيرون
وقال آخر :

واجرر بجيرون ذبولك واختصص مغنى تأزر بالعلا وتسربلا

هذه هي خلاصة الأقوال التي وردت عن اسم (جيرون) ومما يذكر أن منطقة جيرون كانت ذائعة الشهرة منذ العصر الجاهلي ، فقد ذكرها عدي بن زيد في شعره لما زار دمشق فقال :

رُبَّ دارٍ بأسفل الجزع من دُو مة أشهى إليّ من جيرون

وذكره الشعراء في القرن الأول للهجرة ، ووضع المُغَنِّي (معبد) لحناً في شعر
ورد فيه ذكر جيرون :

القصر ، فالنخل ، فالجماء بينهما أشهى على القلب من أبواب جيرون
الفيحاء^(١) :

وهي الواسعة من الدور والرياح والمدن ، وربما لقبت دمشق بالفيحاء لاتساعها
من جهة ، ولأنها من جهة أخرى ، أعدل المدن هواءً ، وأغزرها ماءً ، وبها
الغوطة ، التي لم يكن بوجه الأرض مثلها ، بها أنهار جارية مخترقة ، وعيون
سارحة متدفقة ، وثمار يانعة ، وأشجار باسقة ، وفواكه مختلفة ، وقصور شاهقة .
ومياه الغوطة كلها تخرج من عين الفيحة وهي عين تخرج من أعلى الجبل وتنصب
إلى أسفل بصوت هائل ودَوِيٍّ عظيم ؛ فإذا انتهى إلى المدينة تفرق على الأنهار وهي
بردى (سمي بذلك لبرودة مائه) ، وثورا ، ويزيد ، وقناة المزة ، وبانياس .

والغوطة - بضم الغين وفتح الطاء - اسم للبساتين والمياه الواقعة شرقي دمشق كما
هو مشهور عند أهلها . وقيل في الصحاح : والغوطة (بالضم) موقع بالشام ، كثير
الماء والشجر وهي غوطة دمشق . وقال في مختصر جوامع الأصول : الغوطة :
اسم البساتين والمياه التي عند دمشق وهي غوطتها . وقد قال فيها الشاعر المهجري
إيليا أبو ماضي ، حين زارها في الأربعينيات من القرن الماضي :

ما جلق الفيحا سوى أنشودة الله غناها فجن لها الورى
خلع الزمان شبابه في أرضها فهو اخضرار في السفوح وفي الذرا
الشام^(٢) :

الشام تذكر وتؤنث وتهمز ، فيقال : شام وشامة وشآم . وأما تسميتها بذلك ،

(١) الفيحاء : الروضة الواسعة .

(٢) الشام : مفتح اسم سام بن نوح سيد دمشق ، ثم إن الشام في اللغة العربية تطلق على
الشمال أيضاً ، فسَمَى العرب هذا الإقليم كله باسم الشام ؛ لوقوعه في شمال الكعبة ، ثم
حصروه بالحاضرة دمشق وحدها .

فقال السهيلي في كتابه : (التعريف والإعلام فيما أُبهم في القرآن من الأسماء والأعلام) : الشام بالسريانية : (الطيب) ، وسميت بذلك لطيبها وخصبها ، وقيل سميت بـ (سام بن نوح) وغيّرت سينها شيناً ، وقيل : سميت بهذا الاسم ؛ لأنها عن شمال الكعبة كما سميت اليمن يمناً ؛ لأنها عن يمينها . وبما أن دمشق هي قاعدة الشام وأكبر مدنها وأجملها وأفضلها ، أطلق عليها ذلك الاسم . وقد قال من زار تدمر وعرف هندسة دمشق القديمة بأن الاثنتين على هندسة واحدة .

وفي الشام ، يقول الشيخ عبد الغني النابلسي ، من قصيدة مطولة له :
إِنْ سَامَكَ الْخَطْبُ الْمَهُولُ فَأَقْلَقَا انزل بأرض الشام واسكن جَلَقَا
دمشق :

تعد (دمشق جدة المدن) تحدثت عنها الكتب المقدسة ، وأقدم النصوص التاريخية الإبلائية والمصرية والبابلية والآشورية والآرامية والعبرية والإغريقية واللاتينية ، ومختلف اللغات الحديثة العالمية .

دَمْشَقُ أو دَمْشَقُ : إن كان اسمك مشتق من الناقة الدَمْشَقُ (السريعة) أو أنهم دَمْشَقُوا في بنائك أو أن اسمك اشتق من اسم بانيك دماشق بن قاني بن مالك بن أرفشخذ بن سام بن نوح أو أن اسمك مشتق من المسك المضاعف (دومسكس بالرومية) أو أن البطل « دمسكوس » ابن « هرمس » جاء من اليونان إلى سورية وأعطاك اسمه أو سمالك الآراميون درمسق أو درسوق (آدم = الأرض . وسمق = الأحمر في السريانية) .

* * *

وصف دمشق عند القدماء والمحدثين

لقد زار دمشق كثير من المؤرخين والجغرافيين ، والرحالة والمهندسين ، والشعراء والفنانين ، والعلماء والدبلوماسيين والكتاب والسائحين . . . وتحدثوا عنها بكل إعجاب وتقدير وحب كبير .

ولو استعرضنا كل ما كتب عنها ، لوجدنا جميع هؤلاء قد اتخذوا من أنفسهم أصدقاء لدمشق التي اعتبروها رفيقة الزمن ودوحة الإنسان وقلب العروبة وعقل الإنسان المفكر ، وموطن الحضارة ومعهد العمارة ، وصوت التاريخ وموطن الإبداع ، ومركز العلم وروضة الفكر ونموذج الوفاء وساحة الفداء ، وواحة الحب وروضة الأخلاق ومعرض الفنون وبلد الترحيب بالضيف والغريب ، وأرض الرفق والعشق ، وينبوع النقا والآثار وسفر الأسرار ، ومدرسة أجمل الأقوال والحكم وأسمى الأمثال والأفكار ، وبلد الصبر والإيمان بالنصر ، ونبض العزم الجديد ورمز أمل الإنسان بالغد السعيد .

وكان كل من زار دمشق يردد صادقاً معجباً :

ألفيتها كما وصفتها الألسن ، ففيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ به الأعين . واعتبرها (أبو الحسن الغرناطي) بمثابة فردوس أرضي ، يجعل السائح الغريب ينسى اغترابه عن وطنه وفي ذلك يقول :

أما دمشق ، فجنة ينسى بها الوطن الغريب
انظر بعينك هل ترى إلا محبباً أو حبيب

قيل لإسحاق بن يحيى الختلي من ولاية دمشق (٢٣٥هـ) : « لم سكنت دمشق

وفلحت أرضها وأكثرت فيها الغروس من أصناف الفاكهة ، وأجريت المياه إلى الضياع وغيرها ؟ قال : لا يُطيق نزولها إلا الملوك . وقيل له : كيف ذلك ؟ قال : ما ظنكم ببلدة يأكل فيها الأطفال ما يأكله في غيرها الكبار ؟ » .

وحق لهذا الوالي أن يقول ذلك ، فإن دمشق معروفة منذ القديم بأنها بلدة رفاهية يكاد الفقير يعيش فيها عيش الغني إلا قليلاً ، ويتغنى أهلها في مآكلهم ومشاربهم ولهوهم .

وصف المقدسي في القرن الرابع مدينة دمشق « بأنها مصر الشام ودار الملك أيام بني أمية ، وثم قصورهم وآثارهم وبنائهم خشب وطين . . . أكثر أسواقها مغطاة ولهم سوق على طول البلد مكشوف حسن . . . لا ترى أحسن من حماماتها ولا أعجب من فواراتها ، ولا أحزم من أهلها ، ومنازلها ضيقة وأزقتها غامة . . تكون نحو نصف فرسخ في مثله في مستوى ، والجامع أحسن شيء للمسلمين اليوم ، ولا يعلم لهم مال مجتمع أكثر منه . . . » .

ووصف ابن جبير في القرن السادس هذه المدينة فقال : « إنها بلد ليس بمفرط الكبر ، وهو مائل للطول ، وسككه ضيقة مظلمة وبنائوه طين وقصب ، طبقات بعضها فوق بعض ، ولذلك كثيراً ما يسرع الحريق إليه ، وهو كله ثلاث طبقات فيه من الخلق ما تجمعه ثلاث مدن ؛ لأنه أكثر بلاد الدنيا خلقاً » .

ووصفها ياقوت في القرن السادس أيضاً قال : « ومن خصائص دمشق التي لم أر في بلد آخر مثلها كثرة الأنهار وجريان الماء في قنواتها ، فقلّ أن تمر بحائط إلا والماء يخرج منه في أنبوب ، إلى حوض يشرب منه ويستقي الوارد والصادر ، وما رأيت بها مسجداً ولا مدرسة ولا خانقاهاً إلا والماء يجري في بركة في صحن هذا المكان ، والمساكن بها عزيزة لكثرة أهلها والساكين بها وضيق بقعتها ، ولها ربض دون السور محيط بأكثر البلد يكون في مقدار البلد نفسه » .

ووصفها شيخ الربوة وهو ابن دمشق أول القرن الثامن فقال : إنها مقسومة ثلاث طبقات : قسم مبثوث العمارة في غوطتها لو جمع لكان مدينة عظيمة ، ما بين جواسق

وقصور وقاعات واصطبلات وطواحين وحمامات وأسواق ومدارس وترب وجوامع ومساجد ومشاهد . والقسم الثاني : تحت الأرض منها مدينة أخرى من متصرفات المياه والقنى والجداول ومسارب ومخازن وقنوات تحت الأرض كلها ، حتى لو حفر الإنسان أينما حفر من أرضها وجد مجاري المياه تحته مشبكة طبقات يمتد ويسر شيئا فوق شيء . والقسم الثالث : سورها وما فيه وحوله من المعمور . وكأنما هي في وصفها طائر أبيض في مرج أخضر ، يترشق ما يصل إليها من الماء أولاً فأولاً . وهذا أصدق وصف ينطبق عليها إلى اليوم .

ووصفها ابن فضل الله العمري الدمشقي في القرن الثامن فقال : « إن غالب بنائها بالحجر ، ودورها أصغر مقادير من دور مصر لكنها أكثر زخرفة منها ، وإن كان الرخام بها أقل دائماً ، فهو أحسن أنواعاً ، وإن عناية أهل دمشق بالمباني كثيرة ، ولهم في بساطتهم منها ما تفوق به وتحسن بأوضاعه ، وأجل حاضرتها ما هو بجانبها » .

وقال ابن بطوطة في هذا القرن أيضاً : « إن أهل دمشق يتنافسون في عمارة المساجد والزوايا والمدارس والمشاهد » .

ووصفها القلقشندي أوائل القرن التاسع فقال :

« إنها مدينة حسنة الترتيب جليلة الأبنية ذات الحواجز ، بنيت من جهاتها الأربع ، وبها الجوامع والمدارس والخوانق والزُبط والزوايا والأسواق المرتبة والديار الجليلة المذهبة السقف المفروشة بالرخام المنوع ، ذات البرك والماء الجاري ، وربما جرى الماء في الدار الواحدة في أماكن منها ، والماء مُحَكَم عليها من جميع جهاتها بإتقان محكم » .

وعرض لوصفها الظاهري في القرن العاشر بقوله :

« إنها مدينة حسنة إلى الغاية تشتمل على سور محكم وقلعة محكمة ، وبها طارمة مشرفة على المدينة فيها تخت المملكة مغطى لا يكشف إلا إذا جلس السلطان عليه ، وبها جوامع حسنة ومدارس وأماكن مباركة وشوارع وأسواق وحمامات

ويساتين وأنهر وعمائر تحير الواصف ، وبها مارستان لم يُرَ في الدنيا مثله قط . وأما جامع بني أمية فهو أحد العجائب الثلاث ، ولقد رأيت في بعض التواريخ أن عجائب الدنيا ثلاث : منارة الإسكندرية وجامع بني أمية وحمام طبرية . أما الميدان الأخضر وما به من القصور الحسنة فعجيبة من العجائب ، وأما مفترجات دمشق فيعجز الواصف عن حصرها .

هذا قليل مما قاله الأقدمون في وصف دمشق ، وما منهم إلا المعجب بما زانتها به يدُ الخلاق ، وما عملته يد الإنسان في أديمها وقد بالغ الشعراء وأكثروا في وصف طبيعتها ، وربما بلغ ما مدحت به مجلداً برأسه ، فمنهم من قال مخاطباً لها :

ولكم أحدث عنك من لاقيته وجميع من سمع الحديث يصدق
والأرض في عرض وطول دائماً لم يحوِ مثلك غربها والمشرق
ومنهم من وصفها بقوله :

يغذى بها القلب أنفاساً بلا كدر فلن يحلّ الربا أطراف ثاويها
إن الهواء إذا رقت مناسمه في بلدة لطفت أخلاط أهليها
فكل صورة أنس في منازلها وكل نزهة نفس في روايها
لولا أمور وأرزاق مقدرة لم يرتحل عن دمشق حاضر فيها

وتحدث عنها الكاتب الفرنسي (موريس باريس ١٨٦٢م - ١٩٢٣م) قائلاً : في دمشق يتلاقى الشرق والغرب ، لا ليتنازدا ويهدما بعضهما ، ولكن ليتحدا ويتفاهما . أجل أليست دمشق عتبة الصحراء ، وينبوع الجنة ، إن حلماً قديماً كالدهر يربض في ظلال حورها البديع على جوانب نهرها الجميل . دمشق هذه الفتية الهرمة ، تبسط للنّاظرين بروائعها عظمتها الخالدة ، وتبدو بأخيلتها أنها موطن الشعر والفن والجمال بل قصر من قصور الروح .

ورأي الكاتب الفرنسي (بيير لوتي) في تاريخ دمشق ملخص تاريخ الإنسانية فقال : إننا ونحن على الجبل ، نمتع أبصارنا برؤية دمشق الخالدة ، ونضارة النعيم

التي لا تفارقها ، كانت العصور الماضية وألاف السنين السريعة تذوب في مخيلتنا كأنها ثوان ووصف (لامارتين ١٧٩٠م ١٨٦٩م) رحلته إلى دمشق قائلاً : بلغت دمشق ، فإذا بي أرى منظرأ مدهشاً لا حدود له ، مدينة محاطة بحصونها الرخامية ما بين أخضر وأسود ، وعلى جانبيها أبراج مربعة لا يحصى عددها ، وقد اعتلى مفرقها تاج من شرفات قصورها ، وغابة مختلفة الأشكال من مآذنها ، وهي مخططة بخطوط براقة من سبعة أنهارها ، وشبكة ألماسية من جداول مياهها ، منبسطة أمامي على مد البصر ، في سهل فسيح من البساتين ورياحين الزهر ، وقد بسطت ذراعيها العظيمنتين من هنا وها هنا ، ولاقتها الغوطة من كل جانب على مسافة عشرة فراسخ ، وهكذا تجلت أمامي صحراء من الجنائن والقصور ، وجداول المياه بحيث تتلاشى أشعة النظر من جنبات هذا المنظر ، فلا تقع على ما هو أجمل منه .

وتحدث (أوجين ملكيور دوفوجويه) قائلاً : من أراد أن يتأثر بمنظر دمشق ، فلينظر إليها من جبل قاسيون ، يراها كأنها بقعة حليب أبيض في واحة خضراء . . . ويميز دمشق ذلك النطاق الأخضر الذي يحرق بها ، ويضغط على الجبل ، أما الجهات الأخرى ، فتفسح لها المجال حتى تترامى على أعقاب البادية .

وأوحت دمشق للكاتبه (مريام هاري) قولها : نشرف على دمشق من مرتفعات الصالحية ، فأول ما نرى منها طولها المفرط ، بحيث يخيل إلينا أنها نجم مذب ، نواته بلدة دمشق القديمة ، وهذا النجم محدب بالقباب ومزروع بالمآذن . ونرى دمشق كغريق في بحر من الخضرة ، وهو شاحب اللون ومتغير بحيث لا تكاد العين تتيينه ، فيحسب المرء نفسه أنه يرى مدينة الأحلام ، أو مدينة ألف ليلة وليلة ، وحينما تميل الشمس للغروب ، ترى الخضرة قد فصلت وتغيرت قليلاً ، ثم تلاشت في الشبكة اللماعة التي تمثلها أنهار المياه . وعند ذلك تبدو دمشق لعينك كأنها حورية شقراء اللون مستلقية بين الأنهار ، رأسها مستند إلى جبل قاسيون ، ورجلاها متجهتان نحو بادية حوران ، يا جنائن دمشق ، يا بساتينها السماوية - أنت التي كنت حلماً للأنبياء ، وفردوساً تلجأ إليها القوافل ، وما زالت إلى اليوم تعزية للنفوس

الطاهرة الملتهبة ورعاً وإيماناً ، كما أن الأوربيين عشاق جمالك إذ رأوك أيتها
البساتين القديمة تعزوا برؤيتك عن رؤية دمشق الجديدة التي شوهرتها حضارة
أوربية .

وتحدث (رينان ١٨٢٣م - ١٨٩٢م) عن دمشق ووطنها قائلاً : إن هذه البقاع
الخصبة لم تعرف منذ أقدم أزمنة التاريخ إلا اسماً واحداً ، ولم توح إلا حلماً
واحداً ، ذلك أنها جنة الله .

لا أحسب أن مدينة في الوطن العربي ، كتب عنها الكتاب والأدباء ، البحوث
والدراسات ، ونظم فيها الشعراء القصائد والأشعار كما كتبوا ونظموا في دمشق .

إنَّ جمال دمشق : غوطتها ، قاسيونها ، هواءها ، ماءها أزهارها الكثيرة ،
طبيعتها الفاتنة . كلّ ذلك وغيره ، جعل منها مهوى القلوب والافئدة ، ومحط
الآمال والأحلام في التغني بجمال دمشق وتاريخها ، والحديث عنها ، نجد عشرات
بل مئات من الكتب التي تعج بها المكتبات وفي التغزل بدمشق ، وأمجادها ، نجد
ألوفاً من القصائد . ما زارها أو أقام بها شاعر ، غلا ونظم فيها بعض شعر ، وتغزل
بغوطتها التي تسحر الأبواب ، وأنهارها السبعة ، التي تأخذ بمجامع القلوب ،
وقاسيونها الذي يطل عليها من الشمال ، فيفتنك ويكشف لك كل الروعة والجمال ،
اللذين تمتاز بهما عاصمة الأمويين .

فعل هذا الشعراء الذين زاروا أو أقاموا في دمشق . . . أما الشعراء الذين أبصروا
النور فيها وعاشوا تحت سمائها ، ونعموا بشمار غوطتها اليانعة ، وتنشقوا هواءها
العليل ، وشربوا ماءها السلسبيل ، فما منهم إلا وقال فيها القصائد والمطولات ،
متغزلاً بحسنها ، وواصفاً جمالها وفتنتها . لقد جمعت دمشق كل جمال الطبيعة ،
وضمت بين حناياها كل السحر والفتنة . كل موقع فيها له جماله ونكهته . الغوطة ،
الربوة ، والشاذروان ، ودمر ، والهامة . القرى المحيطة بها ، أشجارها ،
ثمارها ، أزهارها ، جوها المعتدل ، كل شيء فيها يسحرك ويسرك وينشيك ،
ويأخذ بمجامع قلبك ، ويجعلك أسير هذا الجمال سواء أقمّت فيها وعشت تحت

سمائها ، أو أجبرت الظروف القاسية ، والأيام السود ، على الزواج عنها ، لسبب أو لآخر .

ومن أجل هذا نرى أبناءها الذين يعيشون بعيدين عنها ، يحرقهم الشوق ، ويضنيهم الحنين إليها . منذ قديم الزمان ، والأدباء والشعراء ، يتبارون في وصف دمشق ، وتعداد محاسنها ، والتغزل بترابها ، وكل واحد يجد نفسه في نهاية الشوط مقصراً عن بلوغ الأرب .

وما زالت أمواج المتبارين تتدافع إلى الحلبة كل يوم ، لتقول في وصف الغادة الميادة ، أقصى ما تملك من روائع الوصف والغزل والتمجيد . وهي إذ تفعل ، فإنما تعبر عن بعض ما في النفس من حب وشوق وهيام .

أما أنواع الورد والأزهار ، من ورد جورى ، وياسمين وفل ، ونرجس ، وبنفسج ومنثور ، وسوسن ، وأقحوان ، وغيرها ، مما لا يحصى من أنواع الأزهار الجميلة ، والتي اشتهرت بها دمشق وغطتها وبساتينها وحدائقها . إن هذه الأزهار وحدها ، جديرة بقصائد الشعراء المحلقين ، ومقالات الأدباء المبدعين ، وريشة الفنانين المجيدين .

وتعد دمشق أقدم مدينة في التاريخ ، ولقد ورد ذكرها في القرآن الكريم ، عبر إشارات في آيات عديدة من سور ، الإسراء ، والمؤمنون ، والفجر ، كذلك رويت أحاديث نبوية عديدة عن دمشق .

* * *

أهالي دمشق

قيل قديماً : إن في (دمشق) الشام ست فتن هي : (ماؤها وهواؤها وغوطتها ومسجدها وفاكهتها وحماماتها) ، وقد لا يكون من قبيل المبالغة أن يقال : إنّ فتنها السابعة هي أهلها . فمثلما أنعم الله على هذه المدينة بجمال المنظر ولطافة الهواء ، وعذوبة الماء ، أنعم على أهلها بالدماثة ولطف المعشر والطباع ، وهو ما لا مثيل له في غيرها من البلاد . فعلى الرغم من أنه كلما رق الهواء غلظ الطبع ، كما هو معروف ، لكن يشهد القاصي والداني أن أهالي دمشق يتميزون بسلامة القلوب ظاهراً وباطناً ، وبأنهم محبوبون للخير ، في كل الأحوال ، صادقون ، نصحاء ، مكرمون ، صلحاء ، متواضعون .

ويزيد على كل ذلك أن سكان دمشق الأصليين الذين ولدوا ونشؤوا فيها ، من طبعهم اللطف والركة والسخاء وجودة الطبع وحسن الخلق والبشاشة ، فضلاً عن كونهم رحيمي القلوب ، وفيهم الكثير من الشفقة والرأفة والمودة ، يكرمون ضيفهم ، ولا سيما الغريب . بل إن للغريب عندهم شأناً يقصر عن وصفه القلم واللسان ، على الرغم من أن حال أكثرهم فقراء ، وأهل الثروة منهم قليلون .

ومن اللافت للانتباه ، أن كل من هاجر إلى دمشق من أهالي البلاد الأخرى ، وسكن فيها ، لا بد أن يكتسب من أهلها بعضاً من تلك الطباع والأطوار والأوصاف الحسنة الذكية . ومن اللافت أيضاً ، أن كل من دخل دمشق ، ولو على سبيل السياحة ، يتعلق قلبه بها وبأهلها ، ولا يغادرها إلا وهو مكسور القلب والفؤاد على فراقها ، وربما لهذا تحوّل الكثيرون ممن جاؤوها زائرين إلى مقيمين دائمين فيها . وإذا دقت النظر ، في هذه الظاهرة ، تعرف سرّ تلك المعادلة العجيبة التي تبين لك أن بين كل مئة من سكان دمشق تجد واحداً من أبنائها الأصلاء وتسعة وتسعين من الأغراب المهاجرين إليها .

وإذا كان هذا حال الغرباء الذين يَفِدُون إلى دمشق ، فيتعلقون بها ، ويفضلون استمرار الإقامة فيها بقية حياتهم ، فمن البديهي أن يكون سكانها الأصليون أكثر تعلقاً بها ، وتفضيلاً لسكنائها . وهذا حال أهالي دمشق فعلاً ، على مرّ الدهور ، فإنك تجدهم ، على العموم ، راضين قانعين بما قسم الله لهم من الأرزاق فيها ، كثرت أو قلّت ، ومهما أغري أحدهم بالخروج منها إلى غيرها من البلاد موعوداً بالأرباح والأموال والغنى المفرط ، تراه لا يقبل ، بل يختار البقاء فيها ولو كابد ضيق العيش ، ولا يختار الخروج عنها إلا إذا بلغ درجة الاضطراب الشديد . كيف لا وهي (جنة الدنيا وجنة الله في أرضه) لا محالة ؟ .

ومن الجدير بالذكر ، أن بداية الهجرة إلى دمشق تعود إلى تلك الأيام التي كانت فيها دمشق عاصمة الآراميين ، نظراً لما كان لها حينذاك من مكانة عالية ، بين المدن القديمة . ثم استمرت متمتعة بتلك المكانة التاريخية ، مضافاً إليها ما حظيت به من مكانة سياسية واقتصادية وعلمية متميزة ، بعد الفتح الإسلامي لها ، وتحولها إلى عاصمة للأمويين الذين انطلقت جيوشهم وفتوحاتهم منها ؛ لتمتد دولتهم بين سور الصين شرقاً وضواحي باريس غرباً ، الأمر الذي زاد في تشجيع المسلمين وغيرهم على الهجرة إليها والاستيطان فيها ، وقد أضحت المركز الحيوي الأول في بلاد الشام .

ومما زاد أيضاً في رغبتهم بسكنائها الكثير من أحاديث رسول الله ﷺ المشجعة على الإقامة فيها .

وقد كان للهجرة المستمرة إلى دمشق ، وتنوع الأجناس المهاجرة إليها آثار طيبة على أهلها وعلى المهاجرين إليها معاً ، ثم زاد اختلاط الدمشقيين بأجناس الوافدين إليهم ، واختلاط دمائهم بدماء أولئك الوافدين عبر تزواجهم معهم ، بعد إقامتهم ، زاد في ذكاء الأجيال التالية ومضائها ، وفي توفر الحزم والعزم بين أفرادها ، حسب ما أشار إليه الباحثون ، ومنهم العالم محمد كرد علي الذي حاول إجمال سمات سكان دمشق وخصائصهم فقال :

(ورأينا الدماشقة يَجْدُونَ ويَهْزِلُونَ ، وجدهم جدٌ وهزلهم هزل . ورأيناهم قد

جعلوا لبلدهم طابعاً خاصاً في مرافقها ومصايفها ومساكنها يكاد لا يجتمع مثله في عاصمة من عواصم الشرق القريب . وكان الدمشقيون ، على الأيام ، إذا عانوا التجارة جاؤوا في الصف الأول بين تجار الأقطار العربية المجاورة ، وإذا انقطعوا إلى الزراعة ، قلبوا وعمرؤا وغرسو ، وإذا تولوا الأعمال الإدارية والحربية والدينية كانوا على الأغلب مثلاً صالحاً . ويغلب على التاجر الدمشقي النظام كما يغلب عليه التدقيق والحرص في الغالب) .

ومن الصفات الأخرى التي أوردها محمد كرد علي لسكان دمشق ، أنهم (من أكثر الناس حنيناً إلى أوطانهم إذا اغتربوا ، وإذا اغتنى أحدهم لا يلبث أن يعود إلى مسقط رأسه . كما وُصف الدمشقي بقوة التَّمَثُّلِ إذا دخل بلاد الترك أو الهند أو الفرس أو أرض الإفرنج ، بمعنى أنه يتعلم في الحال لغة البلاد التي ينزلها ، أما من تعلموا لغة من تلك اللغات الغربية في المدارس فإنهم يتكلمون بها ويكتبونها كأهلها ، ولهذا كان من الدمشقيين أدباء بالتركية وأدباء بالفرنسية وأدباء بالإنكليزية .

ومما يُوصف به الدمشقي أيضاً أنه ينطوي على شيء من حب التقليد ويتلقف الأمور الجديدة بصدر رحب . وباشتھاره ، منذ القديم ، بالعطف على الغريب حتى يكاد يفرط أحياناً فيما تقتضيه واجبات الضيافة والمجاملة .

ومن طبع الدمشقي أنه لا يؤخذ بالعنف ، وهو يلين حتى مع خصمه ، ويَهْشُ في وجه من يكره ، كما أنه يحسن معاملة كل إنسان على اختلاف الدين واللسان ويحبُّ أن يعامل على هذه الصورة ^(١) .

وبهذا ، يمكن القول : إن أهل دمشق خيار من خيار ، وجميع ما فيها خيار من خيار ، لذا هي نور جوهر البلدان ، ووردة على جبين الزمان ، في كل عصر وأوان ، على الإطلاق .

(١) من كتاب (دمشق مدينة السحر والشعر) ، للأستاذ محمد كرد علي - رحمه الله - بتصرف .

ذكر بيوتات دمشق وعائلاتهما القديمة

لما كنا قد توخينا في كتابنا هذا الوقوف على تاريخ مدينة دمشق ومعرفة سكانها ، فقد يكون من الضروري الحديث عن بيوتاتها القديمة التي أنجبت رجالاً دخل قسم عظيم منهم في إدارة شؤون البلاد حكاماً ، وأعضاءً ، وعمالاً على اختلاف درجاتهم .

ولما كان التنقيب عن تلك البيوتات وتحري تاريخها في جميع الأدوار والأعصر أمراً غير مستطاع ، فقد كان لا بُدَّ من الاختصار على ذكر بعض البيوتات التي بقيت سلالتها تدل على أسلافها ، عملاً بالمثل القائل : (ما لا يدرك جُلُّه لا يترك كله) .

من الفاطميين السادة :

أسرة بني العجلان	أسرة بني الحكيم
أسرة آل حمزة	أسرة آل حتاحت
أسرة آل المكتبي	أسرة آل المرتضى
أسرة آل الموصلي	أسرة آل الدسوقي
أسرة آل بيازيد	أسرة آل الحجار
أسرة بني المنير	أسرة آل نصري
أسرة آل القوتلي	أسرة آل زين العابدين
أسرة آل الدالاتي	أسرة بني تقي الدين
أسرة بني سيباي	

البكريون من القرشيين :

أسرة آل البكري

ومن العمريين :

أسرة آل العمري

أسرة بني الخطيب

أسرة آل عثمان الباني

أسرة آل الحباب

ومن البيوتات القديمة أيضاً :

أسرة آل اليافي

أسرة بني الحسيني

أسرة بني الكزيري

أسرة آل النوري

أسرة بني السفرجلاني

أسرة بني شورى

أسرة آل الرملي

أسرة آل بدرخان باشا

أسرة آل سعد الدين

أسرة آل العدوي

أسرة آل البخاري

أسرة بني سردست

أسرة بني العطار

أسرة آل البارودي

أسرة آل الزالقي

أسرة المهاني

أسرة آل القدسي

أسرة آل العمادي

أسرة بني قدامة

أسرة بني المكي

أسرة بني الزكي

أسرة آل الصباغ

أسرة بني الساطي

أسرة آل الموره لي

أسرة بني الطالوي

أسرة آل التغلبي

أسرة آل الأيوبي الأنصاري

أسرة آل الأسطواني

أسرة بني المحاسني

أسرة بني المرادي

أسرة بني الغزي	أسرة بني المنيني
أسرة بني البخاري	أسرة بني النقشبندي الكردي
أسرة آل صالح بك (كنج)	أسرة آل العظم
أسرة آل اليوسفي	أسرة آل الركابي
أسرة آل العلمي	أسرة آل العابد
أسرة آل حلاية	أسرة بني الصمادي
أسرة بني النابلسي	أسرة بني المعصراني
أسرة بني الصلاحي	أسرة بني اللوجي
أسرة بني السرميني	أسرة بني الطباع
أسرة بني الشويكي	أسرة بني المالكي
أسرة بني إياس	أسرة بني القنواتي
أسرة بني القضماني	أسرة بني الجابي
أسرة بني الطيبي	أسرة بني الحلبي
أسرة بني الشطي	أسرة بني الداوودي
أسرة بني العاني	أسرة بني الأخنائي
أسرة بني الجولاق	أسرة بني تملو
أسرة بني ضيف الله مراد	أسرة بني الخرسا
أسرة بني الدردري	أسرة بني الاتشي
أسرة بني الشاش	أسرة بني الخرده جي
أسرة آل غريبوزي (السلامي)	أسرة بني الفتال
أسرة آل سكر	أسرة آل متولي
أسرة بني الشملي	أسرة بني العسلي

أسرة بني الإدلي	أسرة بني النحلوي
أسرة بني القوادري	أسرة بني الفرا
أسرة بني الخالدي	أسرة بني الدقر
أسرة بني الكسم	أسرة آل تاج الدين
أسرة بني الحلبوني	أسرة بني عبّود
أسرة بني الهبل	أسرة بني القدسي
أسرة بني الكحالة	أسرة بني مردم بك
أسرة بني الفرفور	أسرة بني الحبال
أسرة بني الشيخ ضبيان	أسرة آل جبري
أسرة آل الجندلي	أسرة بني الكناني
أسرة الجويجاتي	أسرة بني الترزي
أسرة بني الدكدك	أسرة بني أجل يقين
أسرة آل بوظو	أسرة بني الأكرمي
أسرة بني المحملجي	أسرة بني السقطي
أسرة بني شمدين	أسرة بني التكريتي
أسرة آل هاشم العبيجي	أسرة بني الحموي
أسرة بني الدهان	أسرة بني علايا
أسرة آل الكرد علي	أسرة آل الشهبندر
أسرة آل الكرمي	أسرة آل بابيل
أسرة بني الرهونجي	أسرة آل بيضون
أسرة بني القطب	أسرة بني البزرة
أسرة آل شيخ الأرض	أسرة آل يعقوب

أسرة بني الكيال	أسرة آل البعلبكي
أسرة بني سوار العاتكي	أسرة بني الصواف
أسرة آل الخجا	أسرة آل الأفندي
أسرة آل القتلان	أسرة بني قويدر
أسرة آل السروجي القلطقي	أسرة آل الشعار
أسرة بني الحفار	أسرة بني دياب
أسرة بني الدرة	أسرة آل الموقع
أسرة بني جانو	أسرة آل القصاب
أسرة بني أحمد ياسين	أسرة بني النويلاتي
أسرة آل الشوا	أسرة آل فرعون
أسرة بني المنجد	أسرة بني الطرابلسي
أسرة بني التقي	أسرة بني حمودة
أسرة بني الطويل	أسرة بني الشرابي
أسرة بني العجلوني	أسرة بني البقاعي

* * *

عدد سكان دمشق وتوزعهم على أحيائها

ترجع أقدم سجلات السكان لمدينة دمشق في فترة الحكم العثماني إلى بعض البيانات غير الأكيدة ، فقد جاء في دائرة معارف البستاني أن عدد سكانها كان (١٤٣ ألفاً) عام (١٨٧٨ م) ، وورد (١٧٣) ألفاً في أحد السجلات المدنية التي تعود لعام (١٩٢٢ م) ، ثم أخذ عدد السكان يرتفع بصورة كبيرة في زمن الاستقلال ، وتحولت المدينة إلى عاصمة سياسية وإدارية واقتصادية وثقافية للبلاد ، حيث بلغ عدد السكان (١,١٩٦,٠٠٠) عام (١٩٨٤ م) ، ويتنظر أن يبلغ هذا العدد أكثر من (٣,٥) ملايين نسمة عام (٢٠٠٢ م) . ويمكن أن يكون عدد السكان في مدينة دمشق داخل حدودها الإدارية ، زهاء (١,٥) مليون نسمة ، ومع التجمعات السكانية الملاصقة لها التي تشترك معها في حياتها العامة زهاء (ثلاثة ملايين نسمة) .

يتوزع السكان في أحياء سكنية ، يقل فيها تدريجياً التمايز العمراني والاجتماعي ، بعد التطور الثقافي والتقني الذي عاشته البلاد في العصر الحديث ، ولم يعد ذلك القانون الاجتماعي القديم الذي يعترف بالتجمعات على أسس عرقية أو دينية أو عشائرية سائداً ، إذ أخذ المسيحيون مثلاً يخرجون عن حيّهم في المدينة القديمة إلى الأحياء الأخرى ، وبات من المألوف سكن الفئات المختلفة في الدين والثقافة والدخل جنباً إلى جنب .

إن التمايز الظاهر الآن في الأحياء السكنية ناجم عن اختلاف مظاهر الأبنية السكنية ، وتطبيقها لاختلاف الاتجاهات المعمارية التي جرى ، وفقاً لها ، تنفيذ المخطط التنفيذي التنظيمي الجديد لمدينة دمشق ، بالإضافة إلى الأخذ بعين الاعتبار الحاجة الماسة إلى المساكن التي تتطلبها الزيادة الكبيرة في عدد السكان . فنلاحظ

وجود أحياء سكنية يغلب عليها طابع البذخ والترف في مواد البناء وفي الاتساع والمظاهر الخارجية والتزيينات مثل أحياء (أبو رمانة والمالكي والفيلات الغربية والفيلات الشرقية في المزة) ، وأحياء أخرى تغلب عليها الأبنية الطابقية المرتفعة لذوي الدخول المتوسطة مثل الأحياء الجديدة في (التجارة والعدوي وركن الدين الجديد) ، وأحياء أخرى ذات أبنية عالية طابقية بتكلفة أقل بنتها على الغالب جمعيات تعاونية لذوي الدخل المحدود . وقد ظهرت في الآونة الأخيرة مجمعات سكنية على الأطراف بنتها مؤسسات القطاع العام كما في (برزة والزاهرة والمزة) .

وكان بدهياً ، مع هذه الزيادة في عدد السكان ، أن تتسع الأسواق التجارية في دمشق وتزداد ، وهذا ما حدث بالفعل . ومن الملاحظ أن أسواق دمشق التجارية ، وبخاصة القديمة منها ، قد ظفرت باهتمام عدد غير قليل من الدارسين الأجانب والدارسين المحليين ، ولا سيما فيما يتعلق بآماكنها ومظاهرها وتوزيع الفعاليات التجارية المختلفة فيها .

هذا بالنسبة للمواقع السكانية في دمشق الحديثة ، أما بالنسبة للمستقبل ، فيتوقع الدكتور قاسم الريدادي ، مدرس مادة السكان في قسم الجغرافيا بجامعة دمشق ، زيادة كبيرة جداً في عدد سكان دمشق ، وحسب تقديراته يمكن أن يصل عدد سكانها ، عام ٢٠٥٠م إلى ١٥ مليون نسمة .

ويقول د . الريدادي في محاضرة له حول (النمو السكاني في مدينة دمشق بين التخطيط والواقع) : إنَّ عدد سكان دمشق كان في عام ١٨٦٠م بحدود ١٦٠ ألف نسمة ، وبلغ في عام ١٩٦٠م حوالي ٥٣٠ ألف نسمة ، كما ارتفع العدد في عام ٢٠٠٠م إلى ٥ ملايين نسمة ، ومتوقع أن يصل إلى أكثر من تسعة ملايين نسمة عام ٢٠٢٥م .

ويقدر الدكتور الريدادي الحركة اليومية للسكان إلى العاصمة بـ /٨٠٠/ ألف نسمة .

ومن أسباب اكتظاظ دمشق بالسكان ، النمو الطبيعي لهؤلاء السكان ، وهذا له أسبابه وعوامله أيضاً ومنها : العوامل الاجتماعية ، والعوامل الديمغرافية (ارتفاع الخصوبة) ، والعوامل الاقتصادية .

ويعرّف النمو الطبيعي للسكان بأنه حاصل الفرق بين الولادات والوفيات ، إذ كانت

تساوي هذه النسبة عام / ١٩٦٠م (٤٦,٧) بالألف ، بينما في عام ١٩٨١م كانت (٣٦,٣) بالألف ، وسبب الانخفاض يعود لارتفاع سن الزواج ، وارتفاع تكاليف المعيشة ، وزيادة الاهتمام بموضوع تنظيم الأسرة . الخ ، وفي عام / ٢٠٠٠م وصلت النسبة لـ (٣٣) بالألف غير أن هذا الانخفاض لا يطبق على كل مناطق دمشق ، إذ إن ظاهرة التريف والطفح الريفي في بعض مناطق السكن الشعبي ، خاصة في جنوب دمشق ، كبيرة ؛ إذ ليس هناك فرق بينها وبين ريف الحسكة أو درعا .

الخصوبة السكانية :

وترتفع نسبة الخصوبة السكانية ، كما يقول د . الربداوي ، في دمشق وخارج نطاق دمشق ، حيث توجد الأحياء الشعبية . والخصوبة هي مقدار ما تنتجه المرأة بشكل فعلي ، أما الخصوبة الكامنة فيقصد بها مقدرة المرأة الفيزيولوجية على الإنجاب . وهذه النسبة كبيرة عند المرأة السورية ، حيث تؤثر مجموعة عوامل في زيادتها أو في تنظيمها ، الأمر الذي أدى إلى تضخم العاصمة على حساب العديد من المدن الأخرى ، إذ بلغت نسبة سكان دمشق عام (١٩٧٠م) (١٣,٣ ٪) من مجموع سكان سورية ، وبالمقارنة فإن (٥ ٪) من سكان إيطاليا يعيشون في روما ، و (٢٠ ٪) من سكان فرنسا يعيشون في باريس و (٢٨ ٪) من سكان اليونان يعيشون في أثينا .

الهجرة الوافدة :

ويعتبر د . الربداوي أن الهجرة الوافدة إلى دمشق والأحياء الشعبية فيها ، من أهم أسباب الزيادة السكانية ، ويظهر ذلك بشكل واضح خلال ثلاثين سنة بين عامي (١٩٦٠م و ١٩٩٠م) ، حيث تقسم الهجرة الوافدة حسب مصدرها إلى قسمين ، الهجرة الداخلية من محافظات سورية المختلفة إلى دمشق ، وهي التي أثرت بشكل كبير على تضخم السكان فيها ، وتبين أن ما يقارب الـ (٨٥ ٪) من سكان الأحياء الشعبية هم من خارج دمشق . وتعود هجرة السكان إلى دمشق - كما يضيف د . الربداوي - لأسباب اجتماعية ، وتمثل في بهاء المدينة ورونقها وجمالها ، إضافة لوجود الجامعة ومؤسسات التعليم العالي ووجود المشافي ووسائل النقل والمؤسسات الثقافية فيها ، وكلها أسباب جاذبة للسكان .

وهناك قضية التزوح من الجولان بعد اغتصابه من قبل الصهاينة/ ١٩٦٧م/ ونزوح سكانه إلى دمشق ، إذ إنَّ (١٥ ٪) من سكان دمشق هم من محافظة القنيطرة ، ويأتي بعدهم المهاجرون من محافظة السويداء ، ثم إدلب فالحسكة ودير الزور ، ويأتي أقلُّ المهاجرين من محافظتي اللاذقية وطرطوس .

يضيف د . الربدائي الأسباب الاقتصادية ، وتتمثل في توفر مجالات عمل مختلفة في دمشق ، سواء في القطاع التجاري أو الصناعي ، إذ أقيمت المؤسسات والمعامل خاصة ، في أطراف دمشق الجنوبية والشمالية الشرقية ، وهذه كلها عوامل جاذبة للسكان أيضاً . أضف إلى ذلك تدني مستوى المعيشة في الريف السوري ، لا سيما في الماضي . فقبل أكثر من (٤٥) سنة كان سوء المواسم الزراعية وانحباس المطر ، وتوالي سنوات القحط وانجراف التربة الزراعية ، وانتشار البطالة وغيرها ، من العوامل الطاردة للسكان والنابهة لهم إلى دمشق .

الهجرة الخارجية :

كما شكلت الهجرة الخارجية إلى دمشق ، ومنذ القديم ، أحد المصادر الرئيسة للنمو السكاني في العاصمة ، فقدم إليها مهاجرون منذ أوائل القرن الماضي ، إما بسبب الاضطهاد في بلدانهم ، أو لتوفر فرص العمل في الشام ، حيث وصلت إليها أعداد كبيرة من الباكستانيين والمغاربة والأفغان واللبنانيين والمصريين ، وخاصة الذين جاؤوا مع جند إبراهيم باشا ، غير أن أكبر نسبة مهاجرين هم من الأشقاء الفلسطينيين بعد اغتصاب فلسطين منذ عام ١٩٤٨م ، وتالت الهجرات بعد ذلك العام حتى عام (١٩٨٤م) ، ليصل عدد اللاجئين الفلسطينيين (٢٦٣٤٠١) نسمة يقطن (٩٠ ٪) منهم في مخيم اليرموك و (١٠ ٪) منهم يتوزعون في أنحاء شعبية أخرى ، مثل : الحجر الأسود والسيينة والقابون .

الأحياء الشعبية :

تشكل حزام الأحياء الشعبية حول دمشق ، خلال ثلاثين عاماً ، من عام (١٩٦٠م - ١٩٩٠م) ، وذلك يعود للأسباب السابقة ، أضف إليها ، كما يذكر

الربداوي ، خروج السكان من وسط المدينة نحو الأطراف ، وتوسع الوسط التجاري في قلب العاصمة ، مما جعل الحاجة ماسة لبناء المساكن الجديدة في أطراف المدينة ، وقد قابل ذلك فقدان التخطيط والتنظيم العمراني ، كما أزيلت أحياء في وسط المدينة هاجر سكانها نحو الأطراف بشكل عشوائي تراكمي ، خاصة في سفوح قاسيون وفي برزة ومساكن برزة . أما القسم الجنوبي ، فكان أكثر اتساعاً في حزام الأحياء الشعبية ، حيث منطقة بساتين الشاغور ومخيم اليرموك والحجر الأسود ، والقدم والسيينة ومنطقة السيدة زينب وبيلا ، والطبالة ومخيم جرمانا والدويلعة ، وكذلك نجد أطراف كفر سوسة .

أولاً : مساكن الزاهرة والتضامن ، بلغ معدل النمو السكاني فيها عام (١٩٩٠م) (٣٦) بالآلف ، وعدد سكانها عام (٢٠٠٠م) وصل إلى (٤٥٧٢٣) ، ويقدر عام (٢٠٥٠م) بنحو (٥٣١٨١) .

ثانياً : مساكن برزة والقابون : بلغ النمو السكاني السنوي فيها (٣٩) بالآلف ، وعدد سكانها في عام (٢٠٠٠م) وصل إلى (٦٤٦٥٥) نسمة ، وفي عام (٢٠٥٠م) يقدر بنحو (٢١٦٥٩٤) نسمة . والأمثلة المشابهة كثيرة ، ولاسيما أن معدلات النمو السكاني في دمشق تشير إلى أنها حالياً (٣,٤) في الأطراف ، وفي داخل دمشق (٣,٢) .

الكثافة السكانية :

بلغ متوسط الكثافة العامة للسكان في الأحياء الشعبية (٨١,٠٦) ألف نسمة/كم^٢ ، في برزة وعُشُ الوَرُورُ ، أما في القابون فهي (٧٥,٧٥٧) نسمة/كم^٢ ، وفي نهر عيشة ٩٥ ألف نسمة/كم^٢ وهكذا .

ويذكر د . الربداوي احتمالين للتطور المقبل لعدد السكان في دمشق : الأول ، استمرار تزايد السكان بسبب النمو الطبيعي ، وعدم ضبط الخصوبة ، واستمرار تدفق الهجرة الوافدة ، وفي هذه الحالة سيصبح عدد سكان دمشق كما أسلفنا في عام (٢٠٥٠م) (٩,٥٠٨) مليون نسمة . أما الاحتمال الثاني ، فهو تحديد النمو

السكاني ، وحدوث هجرة معاكسة بسبب تطوير الريف وإنعاشه اقتصادياً وثقافياً واجتماعياً ، ما يعني عودة الكثير من المهاجرين إلى بلدانهم ، وبالتالي بقاء نسبة النمو السكاني ضمن حدود المعقول . ويقترح د . الربداوي من أجل ذلك العديد من العوامل ، أبرزها : تخطيط النمو السكاني ، وإحداث مركز البحوث السكانية ، وتنشيط دور جمعية تنظيم الأسرة السورية ، والاستفادة من تجارب الدول الأخرى في هذا المجال ، وتوزيع المؤسسات والوزارات والجامعات والمصانع وغيرها في محافظات القطر عامة ، لمنع الهجرة ، خاصة هجرة الأسر .

ويرى الربداوي أن دمشق تستطيع استيعاب (١٥) مليون نسمة منذ اليوم ، وحتى عام (٢٠٥٠ م) ، إذا ما تم التخطيط لبناء الضواحي خارج الحزام الأخضر والغطوة ، باتجاه الجنوب والجنوب الشرقي ، وإزالة المساكن الشعبية والتعويض عنها ببناء المساكن الطابقية ، وتأمين الخدمات اللازمة لتلك المساكن لتخفيف الضغط عن وسط المدينة . فالיום أزيلت الفواصل بين دمشق وضواحيها وبين دمشق وريفها ، كما أن عدد مناطق السكن الشعبية على أطراف دمشق وداخلها يعيش فيها أكثر من نصف سكان دمشق .



صورة ساحة المرجة عام ١٩١٢م

* * *

إطالة على تاريخ (دمشق) أقدم مدينة مأهولة في العالم

موجز لتاريخ دمشق :

تعد دمشق واحدة من أقدم المدن المعروفة في التاريخ ، وهناك من يُرجع بدء ظهورها إلى زمن هبوط آدم وحواء على الأرض ، ومنهم من يُرجع ظهورها إلى ما بعد طوفان نوح ، وثمة من يرجع ذلك الظهور إلى الألف الثاني قبل الميلاد . وقد أسست فيها مملكة آرامية ، واستولى عليها الآشوريون ، وسيطر عليها الكلدانيون ، قبل أن تخضع للحكم الفارسي ، واحتلها عام (٣٣٢ ق . م) الإسكندر المقدوني ، وخضعت للنفوذ اليوناني في زمن السلوقيين ثم الرومان ، وحصلت على لقب متروبول (أي مدينة رئيسية) ، وأصبحت في القرن الرابع الميلادي من ممتلكات الدولة البيزنطية .

ثم دخلت في نفوذ دولة الفساسنة ، قبل أن يفتحها العرب المسلمون عام (١٤ هـ - ٦٣٥ م) ؛ لتصبح واحدة من أهم المدن الإسلامية ، أثناء حكم الخليفة عمر بن الخطاب ، على يد أبي عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد ، ثم زاد نجمها تألقاً عندما أصبحت عاصمة الدولة الأموية ، لكنها ما لبثت أن فقدت كثيراً من أهميتها وازدهارها بعد قيام الدولة العباسية . ثم تجاذبها الطامعون من الحكام والإقطاعيين في مصر ، فحكمها الطولونيون والإخشيديون ثم الفاطميون ، ودخلت في عام (١٠٨٥ م) تحت حكم السلاجقة قبل أن تؤسس فيها عام (١٠٩٩ م) دولة الأتابكة ، وتعرضت أيام الغزو الفرنجي لأخطار الجيوش الصليبية .

ومنذ عام (١١٥٤ م) بدأت تكبر أهميتها بوصفها عاصمة لدولة قوية يحكمها نور الدين الزنكي ، وفي عام (١١٧٥ م) أصبحت عاصمة الدولة الأيوبية ، وانطلقت منها جيوش العرب المسلمين بقيادة صلاح الدين الأيوبي لتحرير القدس

من الغزاة ، ثم غزاها هولاء المغولي عام (١٢٦٠ م) ، ومن بعده تيمورلنك عام (١٤٠١ م) ؛ لتصبح بعد ذلك ، ضمن نفوذ المماليك ، ثم لتدخل عام (١٥١٦ م) في حكم العثمانيين ، وتصبح إحدى الولايات الرئيسة في الدولة العثمانية ، عدا الفترة ما بين (١٨٣١ م - ١٨٤٠ م) ، أيام حكم إبراهيم باشا بن محمد علي باشا والي مصر الذي يعود إليه إدخال الحياة الأوربية إليها ، بتشجيعه العلاقات التجارية والثقافية مع الغرب .

ومنذ أواخر القرن التاسع عشر شهدت دمشق حركة قومية تسعى للاستقلال ، وتحقق لها ذلك بدخول الثورة العربية لتحريرها من الحكم العثماني ، في أواخر عام (١٩١٨ م) ، وأعلن فيها الحكم العربي في ٨ / ٣ / ١٩٢٠ م ثم ما لبث أن انهار بعد معركة ميسلون في ٢٤ / ٧ / ١٩٢٠ م ، لتدخل دمشق تحت سيطرة الانتداب الفرنسي الذي استمر حتى ١٧ / ٤ / ١٩٤٦ م ، حين تحقق جلاء الجيوش الأجنبية عنها ، لتصبح عاصمة دولة عربية مستقلة هي سورية الحديثة ، وما تزال كذلك حتى الآن .

* * *

نتائج البحوث الآثارية تؤكد قدم ظهور دمشق

دمشق البداية ، والامتداد :

غربي دمشق ، تنتصب كتلة جبلية . ومن شرقيها تبدأ صحراء (هي بادية الشام) ، تتراعى حتى ضفاف نهر الفرات ، فدمشق ، إذأ ، تقع على تخم صحراء ، وما كان أن تستحيل إلى رياض غناء لولا (نهر بردى) الذي وجد لنفسه طريقاً عبر ذلك الخائق الذي حفرتة يد الطبيعة في الكتلة الجبلية .

ولقد ظهرت البيوت في هذه البقعة ، منذ الألف الثالث قبل الميلاد ، حيث ركن الزراع ومارسوا نشاطهم في هذه (الواحة) التي يسقيها نهر بردى الصغير الرقاق . . . ثم ما لبث غنى الواحة أن اجتذب من السكان أعداداً في أول عهدها . قامت دمشق قرية صغيرة على تل في موضع جنوبي النهر ، حيث يتيسر لسكانه تأمين حاجاتهم المنزلية من المياه دون عناء . وفي الجانب الآخر من النهر ، هو الشمالي ، كان ثمة وما يزال ما يشبه (مصطبة) متموجة نوعاً ما ، ترتفع تدريجياً نحو جبل (قاسيون) . سكن الدماشقة الأوائل ذلك التل ، الذي نفترض أنه يقع حيث تقوم قلعة دمشق اليوم وما يليها جنوباً وشرقاً . ثم اتسعت الرقعة المبنية فوق هذا التل ، ممتدة حتى موقع « الباب الشرقي » الباقية آثاره حتى يومنا هذا . وأحيطت (المدينة) في الأعصر التالية ، بأسوار تمنع عنها غزوات المعتدين .

وكذلك وجد أجدادنا العرب دمشق ، يوم أقبلوا فاتحين ، وزادوا عليها رياضاً وضواحي في غرب وفي جنوب . ثم لم يكن بدّ من أن يجتاز السكان النهر على الضفة الأخرى ويبنوا عليها ما بنوا ، وبعدئذ يمضون نحو الجبل ، فيقيمون في سفحه ضاحية ، هي « الصالحية » ، اليوم ، لم تلبث أن اتصلت بالمدينة الأم ، ثم

يستلقون في أحضان الجبل هنا وهناك ، ويتسلقون صدره ، وأنظارهم ترنو إلى . . .
القمة .

فهم ، هذه الأيام ، يمهّدونها طرقاً ومنعطفات ، ويشجرونها ، بقصد أن
يسكنوها مطّلين من هنالك على دمشق القديمة والحديثة جميعاً!

هذا الاتفاق على الأهمية والقدم ، بالإضافة إلى الاختلاف حول الاسم وما نتج
عنه من تعدد التسميات التي يقترن بعضها بحوادث يعود وقوعها إلى فجر التاريخ
البشري ، كل ذلك يقدم شواهد على غنى هذه الواحة الغناء التي جذبت إليها ، منذ
عصور ما قبل التاريخ ، أعداداً كبيرة نسبياً من السكان ، هم الذين أطلقوا عليها هذه
التسميات والصفات المتنوعة التي انتقلت من زمن إلى آخر ، مع اختلافات
وتحويلات وإضافات .

ولعل مما يعزز القناعة السابقة ، أنه يتضح من دراسة النصوص المصرية ،
والكتابات الآشورية القديمة ، أن مدينة دمشق كانت مركزاً اقتصادياً وسياسياً شهيراً
في الشرق القديم ، منذ منتصف الألف الثاني قبل الميلاد تقريباً ، وقد استمر تطورها
حتى أواخر الألف الثاني قبل الميلاد ، حين دخلت حلبة التاريخ ، وأصبحت مدينة
معروفة ومرموقة جداً ، بعدما أصبحت عاصمة لمملكة (آرامية) ذات قوة ومنعة .
وقد تمكن « سوفاجيه » من إعطاء صورة واضحة لهذه المدينة الآرامية في صفاتها
الرئيسة فقال :

« تتألف النواة الأصلية لمدينة دمشق الآرامية من تل يقع في قلب المدينة
القديمة ، يشرف على الأراضي المجاورة ، من ارتفاع يتراوح بين (٥ - ٦) أمتار ،
أما موقع المعبد الكبير الذي بُني في العهد الروماني لعبادة الإله « جوبيتر » الذي
أدمج بالإله « حدد » ، فنستدل على مكانه من منطقة « الحرم » التي تحيط
بالمعبد المقدس عادة ، وتجعله ثابت الموقع والتخطيط » .

وإذا استطاع « سوفاجيه » تحديد موقع المعبد والتل والقصر ، إلا أنه لم يستطع
تقدير مساحة المدينة وتخطيط السور المحصن الذي كان يحيط بها .

وقد استمر تطور المدينة وازدهارها في العهود اللاحقة ، وحدث التطور الثاني في العهد اليوناني - الروماني ، إذ أصبح لها نظام المدن اليونانية في التخطيط والتنظيم وال عمران . لكن كانت المرحلة الثالثة من التطور هي الأهم ، وهي التي تمت في العهد الأموي ، حين أصبحت دمشق عاصمة العالم الإسلامي ، والمدينة الأولى في الشرق كله .

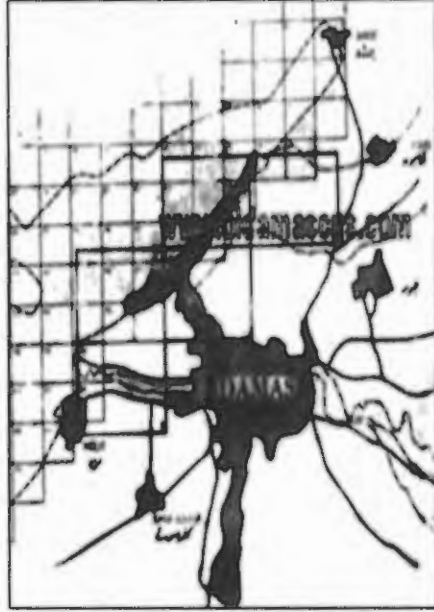
وبدأت منذ ذلك العهد ، تنشأ أحياء سكنية خارج الأسوار ، منشآت في أطراف المدينة وضواحيها ، مراكز سكنية عرفت بمنازل القبائل ، وامتد البناء على ضفاف بردى وسفوح قاسيون ، وقبل ذلك سكن الإنسان دمشق ضمن حدود العصور الحجرية والوسيلة والحديثة . وعثر على آثار الوجود البشري الأول في مواقع تل أسود وتل الرماد في الغوطة الشرقية .

وعلى الرغم من تطور الحياة في دمشق منذ بداية التاريخ إلى الآن ، فما زالت المكتشفات الأثرية تزيد معلوماتنا عن فجر التاريخ ، وتعد دمشق أقدم مدينة ظهرت وازدهرت وما زالت ، حتى اليوم ، في ازدهار مستمر . ولقد أثبتت رُقْم « إيبلا » أن دمشق الحضارة كانت في الألف الثالث قبل الميلاد . ولدى دراسة هذه الرقم ظهر اسم « دامسكي » دمشق مع غيرها من المدن التي ما زالت قائمة مثل حمص وحماة . . لكن ، وحتى الآن ، لا نعرف شيئاً عن دمشق في الألف الثالث قبل الميلاد ، لكنها ، وفي الألف الثاني ، تظهر على ساحة التاريخ لتكشف عن وجود مملكة آرامية من أبرز ملوكها حزائيل مع خصومه .

ولا تزال دمشق الآرامية مخفية تحت الأرض ، وقد استطاع العالم « سوفاجيه » أن يتصور أبعاد هذه المدينة الآرامية التي تقع تحت المدينة الحالية وضمن حدود السور .

ويعتقد أيضاً أن معبد « حدد الآرامي » كان أول معبد يشيد في مكان الجامع الأموي ، ويؤكد ذلك العثور عام ١٩٦٥م على أحجار كبيرة تعود إلى العصر الآرامي ، وعلى تماثال بارز من البازلت يمثل أسداً مجنحاً يعتقد أنه يعود إلى العهد

الآرامي ، وذلك لشبهه بالأسود والأشكال الأخرى التي تزين السرير العاجي الملكي الخاص بالملك حزائيل الآرامي .



خارطة إفرنسية لدمشق في العشرينيات من القرن العشرين
قبل شق شارع العابد الواصل بين ساحة البرلمان وساحة السبع بحرات

وبعد انتصار الإسكندر المقدوني على « دارا الثاني » ملك الفرس ، وامتداد سلطانه على بلاد الشام ومنها دمشق ، بدأ عهد الحضارة الكلاسيكية منذ ٣٣٢ ق . م إلى عام ٦٣٠ م .

ألف عام تقريباً ، ظلت دمشق تعيش تحت السيطرة السياسية الإغريقية السلوقية والرومانية ثم البيزنطية ، وعلى الرغم من قوة تأثير الثقافة الهلنستية ، لم تفقد دمشق وباقي المدن الشامية شخصيتها ، بل كان من رجالها قواد وشيوخ وحكماء لعبوا دوراً في مراكز الإمبراطورية الرومانية أو في الإمبراطورية البيزنطية .

لم تكن دمشق عاصمة في ذلك الوقت ، إلا لمدة محدودة في العهد السلوقي ، ولكنها أصبحت في عهد الإمبراطور ديوقلسيان مركزاً لجيوش الرومان . وفي أيام

الأسرة السورية من عائلة سفيروس ، حصلت على لقب مستعمرة رومانية مما أكسبها بعض الامتيازات .

كانت دمشق إحدى المدن العشر «الديكابوليس» الأكثر أهمية في العالم الروماني ، ومن آثارها الرومانية معبد «جوبيتر» الذي ما زالت آثاره قائمة وواضحة حول الجامع الأموي ، وكذلك بعض أبواب دمشق ، وأجزاء من سورها .

فالمدينة حسب العالم «سوفاجيه» ، محاطة بسور مستطيل طوله ألف وخمسة مئة متر وعرضه (٧٥٠) متراً ، تخترقه أبواب سبعة لكل باب اسم : «باب شرقي - باب الجابية - باب كيسان - الباب الصغير - باب توما - باب الجنين وباب الفرديس» .



خارطة إفرنسية للمدينة القديمة في عشرينيات القرن العشرين
حيث لم يكن شارع العابد قد شق بعد

وفي العهد البيزنطي ، تم تحويل معبد جوبيتر إلى كنيسة القديس يوحنا المعمدان ، كما شيدت كنيسة المصلبة في باب توما ، وكنيسة المقسلاط ، وكنيسة مريم في باب شرقي ، وتعرف اليوم باسم الكنيسة المريمية .

ومن الأديرة دير مرّان في سفح جبل قاسيون ، ودير سمعان ، ودير النساء في منطقة الفراديس .

وفي عهد الغساسنة ، كان في دمشق قصر « البريص » الذي تحدث عنه الشاعر حسان بن ثابت ، وكان العرب ينزلون فيه ضيوفاً على أمراء غسان .

وعندما أصبحت دمشق عاصمة الأمويين ، أصبحت مؤلفة من أحياء وحارات تضم بيوتاً مغلقة ، يتوسطها فناء فيه حوض ماء ذو نافورة ، وفيه أشجار البرتقال وال نارنج وأزهار الياسمين ، وكذلك كانت دمشق في عهد الفاطميين جنة الدنيا ، وكان يقال عنها جنة الله في أرضه .

ومن ينظر اليوم إلى دمشق القديمة من شاهق ، يراها مجموعة من البيوت المتعاطفة بعضها على بعض ، وهي تتزاحم لكي تقترب من بناء ضخّم جليل تعلوه مآذن ناهضة إلى السماء ، هذا البناء هو جامع بني أمية الشهير الذي بناه الوليد بن عبد الملك عام (٧٠٥) م ، يوم كانت دمشق عاصمة لأكبر إمبراطورية في التاريخ ، إمبراطورية يبتدىء سلطانها شرقاً مما يسمى اليوم بتركستان وجزء من الباكستان وبلاد الأفغان والأرمن وبخارى ، حتى بلاد الإسبان والغرب غرباً ، وتضم في ذلك إيران والعراق وسورية ومصر وإفريقية والجزائر . وقد استغرق بناء المسجد الأموي الكبير عشرة أعوام متتالية ، وأنفق على عمارته خراج البلاد لسبع سنين ، ويقال إن تكاليف بنائه بلغت أحد عشر مليوناً ومئتي ألف دينار ذهبي .

دمشق ذات التاريخ العريق والموغل في القدم ، تعد من أقدم مدن العالم ، التي ما تزال مسكونة وعامرة بالبشر حتى اليوم . بل إن اسمها يقترن بالقدم والعراقة أينما ذُكر وكلما ذُكر ، وما هذا بغريب على مدينة يُقال : إنّها الأقدم في التاريخ ، كما يشير العرب ويؤكدون ، في رواياتهم الكثيرة الواردة في كتب مشاهير علمائهم مثل

اليعقوبي والمقدسي وابن جبير والبلاذري وابن بطوطة وغيرهم ، حيث يقرنون اسم دمشق ببداية الخليقة ، ويُرجعون تاريخها إلى مهبط سيدنا آدم عليه السلام الذي كان يقيم في ضاحية من ضواحيها تسمى (بيت أبيات) ، في حين كانت حواء تقيم في قرية ما زالت قائمة حتى الآن ، هي (بيت لهما) أو بيت الآلهة ، أما هابيل فقد أقام في (مقرى) وقابيل في (قنية) . كما يجمع أكثر المتحدثين عن دمشق على أنها كانت موطن إبراهيم الخليل عليه السلام ، بل كان فيها مولده ، وفيها كان والده (آزر) يعمل بنحت الأصنام .

إذن ، وإلى هذا التاريخ الموغل في القدم ، تنتمي دمشق اليوم المزدهرة بمنشآتها الحديثة ومؤسساتها المتقدمة ، إنها نتاج تطور حضاري من أقدم عصور الإنسان في منطقة الشرق القديم ، وبهذا تكون دمشق تلك المدينة الخالدة التي حافظت بيد على صفحات من آثار ماضيها التليد وعراقة تاريخها العربي المجيد ، بينما مدت يدها الأخرى إلى كل حديث وجديد لتأخذ منه ما تسعى به إلى النمو والرقي والازدهار .

ولمحافظتها على أمجادها وماضيها ، على الرغم من تطورها الحضاري الراهن ، فقد ظلت دمشق مقصد الزوار والسياح والعلماء والباحثين الذين يزورونها من شتى أنحاء العالم ، ليس لأنها جديرة بالزيارة فحسب ، بل ليروا فيها وفيما حولها أيضاً ، الآثار التاريخية التي تمثل العصور المتعاقبة ، هذه الآثار التي يمكن العثور عليها في كل زاوية من زوايا دمشق ، وفي كثير من القرى المجاورة لها . إنهم يجدون هذه الآثار في أسوار المدينة وأبوابها ومعابدها وحماماتها ، وفي قرائها ويساتينها ، فكأنهم يطالعون ، وهم يتجولون في كل جزء من أجزائها ، سفراً من أسفار التاريخ ومجلداً ضخماً يحوي تراثاً تاريخياً يندر أن تعرف له مثيلاً ، أي مدينة أخرى في العالم .

ولأن تاريخ دمشق بهذا الاتساع وبهذه الوفرة ، فسنبسط في السطور التالية بعض ما أوجزناه من تاريخ هذه المدينة ، آنفاً ، في بداية هذا الفصل ، منطلقين في حديثنا

هذا عن دمشق ، منذ نشأتها حتى عصرنا الحاضر ، دون الزعم بأن هذا العرض يحيط
بكلّ جوانب تاريخ دمشق العظيمة ، ليقيننا بأن الإحاطة بهذا التاريخ الموغل في
القدم ، تستحيل في صفحات ، وقد لا تتسع لها المجلدات الضخمة .



شارع أبو رمانة

* * *

جنة آدم وحواء

كانت الأرض كتلة من الغازات الملتهبة التي بدأ سطحها يبرد عبر ملايين السنين مكوناً قشرة لها ، تطورت بدورها حتى أصبح سطحها كما هو عليه الآن شكلاً وصلابة . ولعلّ في قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴾ [الحجر: ٢٦] - أي (من طين فخاري أجوف) - ﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُورِ ﴾ [الحجر: ٢٧] - أي (من نار الحر الشديد) - تأكيداً صريحاً على وجود وانقراض نوع من أنواع المخلوقات التي كانت على الأرض قبل الإنسان ، التي يناسب تكوينها ظروف كوكب الأرض وطبيعته ، قبل تطوره من نار مشتعلة إلى أرض يابسة باردة .

أما الإنسان المخلوق من الطين ، فيبدو - والله أعلم - أنه كان موجوداً على الأرض قبلنا ، وأن الدم كان يدخل في تكوينه أيضاً ، بدليل قوله تعالى في الآية [٣٠] من سورة البقرة ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ ، إذ ليس للملائكة علم بالغيب ، وبالتالي ، فهي كانت تتكلم عن أمور حدثت قبل أن يخلق الله أبانا آدم عليه السلام في الأرض . وعندما أركز على كلمة الأرض هنا ؛ فلأن الله تعالى هو الذي أكد ذكرها في ذات الآية المذكورة ، ولم يرد في جميع القرآن الكريم ما يناقض ذلك .

وصفات الجنة التي خلق آدم فيها ليست مجهولة طبعاً ، فقد أخبرنا الله تعالى عنها في الآيتين الكريمتين [١١٩-١٢٠] من سورة طه بقوله مخاطباً آدم عليه السلام ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ نَارًا وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ ﴾ ، أي إنك لن تجوع فيها ولن تعطش ولن تحتاج إلى لباس يكسو عُرْيَكَ أو إلى ما يردُّ عنك الحرّ

الشديد . ويُجمع المفسرون على أن هذه المزايا ، على الرغم من أهميتها العظيمة ، ليست سوى رمز لكفاية الإنسان من كل ما يحاول كسبه أو درأه عن نفسه في هذه الدنيا . ومما وصلنا في ذلك أيضاً ما سجله لنا جدودنا السومريون على بعض الألواح الفخارية ، قبل أكثر من (٥٠٠٠) عام ، وبما ذكروه لنا أكملوا وصف مزايا تلك الجنة الأرضية قائلين :

(في سالف العصور لم يكن في الوجود حيّة (وذلك عكس ما ورد في التوراة المتداولة) ، ولم يكن فيه عقرب ، لم يكن هناك خوف أو فزع ، وجميع الكون والناس في وحدة وألفة ، والذئب لا يفترس الحمل ، وما من أرمد يشتكي ويقول عيني مريضة ، ولا مصدوع يقول في رأسي صداع ، ولا يقول الشيخ أنا طاعن في السن) .

أما هذه المزايا جميعاً التي تمتّع بها آدم وزوجه ، في تلك الجنة ، فقد أبطلها الله تعالى بعد عصيان آدم له ، كما أخبرنا بذلك في الآيتين الكريمتين [٢٤-٢٥] من سورة الأعراف ﴿ قَالَ أَهَيْطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوًّا وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۚ ﴾ قَالَ فِيهَا نَحْيُونَ فِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿ ، وكأنه تعالى يقول فيهما لآدم ومن معه : فلتهبطوا بمنزلتكم ومزاياكم . ويؤكد ذلك قوله تعالى في الآية الكريمة [٣٦] من سورة البقرة : ﴿ فَازْلَهِمُ الشَّيْطَانَ عَنْهَا فَاخْرِجْهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ من منزلة ومزايا رفيعة . وهبطوا إلى الأرض التي جعلها الله تعالى مستقراً ومتاعاً له ولذريته إلى أجل مسمى ، فيها يحيون وفيها يموتون ومنها يُخرجون ، أي أنها أرض الحياة والفناء والبعث ، فأين هي هذه البقعة المعينة التي انتخبها الله تعالى من هذه الأرض الواسعة لتكون مكاناً للحشر يوم القيامة ؟

إنها الشام ، هكذا قال الرسول ﷺ ، وعلى هذا يُجمع العلماء ، ففي حديث صحيح ، في حكم المرفوع ، عن الصحابي أبي ذر الغفاري رضي الله عنه ، رواه الشافعي والطبراني وأخرجه الإمام أحمد وابن ماجه وأورده كثيرون ، منهم الحافظ ابن عساكر في (تاريخ دمشق) ، وعلي بن محمد الربيعي في (فضائل الشام

ودمشق) ، قال رسول الله ﷺ : « الشام أرض المحشر والمنشر » .

إنها مقولة قديمة جداً ، ربما يقدم الشام ذاتها تقول : « الشام جنة الله في أرضه » . ولا شك أن الواقع والشواهد الأثرية والعلمية السابقة واللاحقة ، تجعل من هذه المقولة حقيقة ساطعة وثابتة لا مجال للطعن العقلاني فيها . ومن المعروف للداني والقاصي ، وخاصة منذ مطلع هذا القرن ، أن دمشق هي أقدم مدينة قائمة ومأهولة في العالم قاطبة ، وأنه لم يتمكن أحد بعد من تحديد عمرها ، أو البتّ بمعرفة بانيها ، أو سبر كامل تاريخها وحصر آثارها ، كما وزماناً ، وبحدود ثابتة وقطعية ، حتى الآن . ولكن ، هل خطر ببال أحد أن يتساءل لماذا دمشق بالذات هي المدينة الوحيدة التي لا يزال الله تعالى يحرس وجودها ويحفظه من الزوال والاندثار ، دون سائر المدن في جميع أنحاء كوكب الأرض ، على الرغم من كل ما مر بهذا الكوكب وفيه من أحوال وأمم وخطوب طبيعية وبشرية ، منذ نشوئه قبل (٤٥٠٠) مليون سنة إلى هذا اليوم ؟

لا شك أن الجواب التلقائي عن هذا السؤال ، هو في كون دمشق الشام جنة الله في أرضه ؛ ولأن دمشق الشام هي موضع آثار آدم وزوجه وأوائل ذريته ، وهي الأم الأولى للقرى الزراعية في تاريخ الإنسان ، والمدرسة الأولى للمجتمع وللإستقرار البشري في العالم ، ومهد الشرائع ، وأسبق العبادات ، ومنشأ أولى الحضارات ، وملجأ عباد الله المؤمنين وكنائته إلى يوم القيامة . وكما سنرى بإيجاز ، أن منطقة دمشق ، قد دُعيت أوّل عهدها بـ (الفراديس) ، ثم اشتهر موضع منها هو (الذي قتل قابيل فيه شقيقه هايل) باسم (دم شقيق) ، وأصبح مع مرور الزمن (دمشق) ، إلى أن خصّص (نوح) تلك المنطقة لابنه شام ، أو سام بلغات الأجانب ، فطغى اسمه فيما بعد على جميع مناطق سورية القديمة ، فأصبحت تعرف باسم (بلاد الشام) ، وعليه يكون إطلاق لفظة الشام جائزاً ، سواء على مدينة دمشق أو على سائر بلاد الشام الطبيعية ، من قبيل إطلاق الخاص على العام والخاص معاً .

وكلمة (الفراديس) تشير إلى الجنة ، وهي من الكلمات العربية الأصلية الواردة في القرآن الكريم المنزل بلسان عربي مبين . ومما قاله ياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م في (معجم البلدان) : (الفراديس : موضع بقرب دمشق ، وباب الفراديس ، باب من أبواب دمشق) .

وقد دُعي الباب بهذا الاسم ؛ لأنه كان الباب الرئيسي في سور دمشق القديم الذي يشرف على منطقة الفراديس بأكملها ، حيث يتجه الطريق منه إلى (بيت أبيات) وإلى (بيت لهيا) حيث نزل آدم وحواء ، كما في كتاب (فضائل الشام ودمشق) ، وفي (تاريخ لبنان) ، و (النووي) و (آثار البلاد وأخبار العباد) و (تاريخ دمشق) وغيرها من الكتب . كما يتجه الطريق ذاته إلى (الزبداني) حيث قبر آدم ، كما في كتابي (سبائك الذهب) و (تاريخ لبنان) ، ثم صوب (جبل قاسيون) ، حيث الموضع الذي قتل قابيل فيه أخاه هابيل ، كما ورد في : (تاريخ دمشق) و (فضائل الشام ودمشق) و (الروضة البهية) و (البداية والنهاية) و (آثار البلاد) وغيرها ، ثم يتجه هذا الطريق إلى سهل دمشق ، حيث قبر قابيل بن آدم ، وإلى قرية (بسيمة) حيث قبر هابيل بن آدم ، وإلى قرية شيت بن آدم ، وإلى قرية بكرك نوح حيث نزل نوح بن لامك عليه السلام ، وفيها قبره ، كما ورد في : (سبائك الذهب ، البداية والنهاية ، تاريخ لبنان وغيرها) ، ثم يتفرع هذا الطريق إلى غير ذلك من المواضع الشهيرة التي ما زال الشاميون وغيرهم يتبركون فيها بآثار أبيهم الأول آدم عليه السلام ، وأعلام ذريته ، منذ آلاف السنين) .

وما كان لهذه الآثار أن توجد في أماكنها المذكورة والمشهورة عبر العصور ، لدى أتباع الشرائع كافة ، لو لم تكن هذه الأماكن فعلاً هي بالذات (الموطن الأول لآدم ولأوائل نسله) ، أي جنة آدم التي دعيت بالفردوس أو الفراديس ، ثم بالشام بن نوح التي تضم منطقة دمشق .

أما عن استنتاجات العلماء ، وخلاصة أبحاث الآثاريين منهم التي تؤكد كل ماذكرناه آنفاً ، فهي أكثر بكثير وسأكتفي منها بما قلّ ودلّ .

كتابات الرحالة :

يحق لبعض المدن أن تفاخر بالبقاء والخلود ؛ لأنها أماكن فيها الروح ، ومركز إشعاع عقلي وروحي ، ومن هذه المدن دمشق ، فدمشق حاضرة المدن . دائماً حية وجميلة ، يضاف إلى سحرها الطبيعي ذكرى المؤمنين فلا زال حكمهم حليماً مستعذباً ، وعطراً نادراً فواحاً مجللاً بالغنى والأناقة ، ليس هذا سر خلود (هذه الشامة الخضراء على وجه الأرض) ، فسر خلودها إلهي ، ولا تستطيع أية مدينة مهما علا شأنها أن تضاهي بقاء المدينة التي يخرتها نهر بردى (مجرى الذهب) .

وكانت دمشق من المدن المهمة التي كانت هدفاً للرحالة وطلاب العلم من أهل المغرب والأندلس .

وقد أبدى هؤلاء إعجاباً عظيماً بدمشق وغطتها ومبانيها ودور العلم بها ومساجدها وبيمارستاناتها وعادات أهلها وتقاليدهم وسجلوا ذلك في مدوناتهم ، نذكر منهم الرحالة : أبا الحسن محمد بن أحمد بن جبير المتوفى سنة ٦١٤ هـ/ ١٢١٧ م ، وابن بطوطة المتوفى سنة ٧٧٩ هـ/ ١٣٧٧ م .

ومدينة دمشق ، جنة الأرض ، كما وصفها كثير من الرحالين المغاربة والأندلسيين بهذا الوصف ، نالت حظاً وافراً من الحديث في رحلاتهم ، بل ما من رحلة كُتِبَ له أن يمر بها في طريقه إلى بلاد الحرمين الشريفين ، إذا سلك الطريق البري في ذهابه أو في إيابهِ ، إلا وتوقف فيها مطولاً لأغراض شتى ، إما للجلوس إلى علمائها وفقهائها للتعلم وأخذ الإجازات عنهم في مختلف العلوم الإسلامية والعربية ، وإما للتمتع بجمالها والتبرك بمشاهدها ومساجدها ومغاراتها وكهوفها التي كان وما يزال لها شأن عظيم في تاريخ الأنبياء والمرسلين من عهد آدم عليه الصلاة والسلام إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

وتعد مدينة دمشق من أهم المدن الإسلامية على مر العصور المختلفة ، ويرجع ذلك إلى أنها واحدة من كبريات المدن الإسلامية وحاضرة من أبرز الحواضر في العالم الإسلامي .

ومن نافلة القول أن تلك الأهمية قد جعلت من دمشق ومجتمعها موضع اهتمام العديد من المؤرخين والجغرافيين الذين أفردوا لها العديد من المصنفات التي تناولت تاريخها ومكانتها مثل كتابات ابن عساكر وغيره . بجانب الرحالة المسلمين خلال العصور الوسطى الذي زاروها وتركوا لنا وصفاً دقيقاً لطبيعتها ومظاهر الحياة فيها ، وكان لعلماء دمشق دورٌ واضحٌ وأثرٌ طيب ، لدماثة أخلاق أهلها وطيب مناخها وهناء العيش بها ، وإضافة إلى ذلك كانت دمشق في القرن الثامن للهجرة من العواصم العلمية المرموقة فيها الكثير من الأعلام المسلمين هذا فضلاً عما تتمتع به هذه المدينة من موقع جغرافي واقتصادي واستراتيجي مهم ، وما تتوافر عليه من مزارات ومآثر دينية يتبرك بها المسلمون وغيرهم من مختلف أقطار العالم المعروف آنذاك وقد كان لكل ذلك نتائج واضحة على خريطة دمشق المعمارية والبشرية .

ولما كانت دمشق هي أقدم مدينة في التاريخ ، ولما لها من مذاق خاص ونكهة لا ينكرها أي قارئ في تاريخها أو متبتل في محراب فنها ، أو عاشق لأجواء نسيمها المعبق بشذى الياسمين الشامي فقد استهوطني كثيراً دراسة تاريخ هذه المدينة ولإيماني الشديد وتعلقي بها أنني مهما فعلت فلن أوفيها حقها .

قال فيليب فان نس ماير (عالم بالآثار ومؤرخ ورحالة وأستاذ في بعض جامعات الولايات المتحدة الأمريكية) ، في كتابه (التاريخ العام) :

« ليس من الغريب أن التقليد يجعل الفردوس الجنة القديمة في تلك الأرض (الشام) التي جعلها الله منبت كل شجرة شهية للنظر وجيدة للأكل ، إذ كانت في أقدم العصور الخالية مستقراً لأناس برعوا في الفلاحة والصناعة والتجارة . . . وبينهم ظهرت فنون التمدن لأول عهدها » .

ولأن الشام هي المنطلق الأول الذي انتشر منه الإنسان في باقي أنحاء الأرض ، قال العالم هارولد نلسون ، في مقدمة الكتاب المذكور ، مامعناه باختصار : إن كل الناس لو أتوا إلى بلاد الشام ، لشعروا بأنها وطنهم أكثر مما يشعر الجرمانى أو الفرنسي أو الإنكليزي بأن المدينة التي يقيم فيها هي وطنه .

وقال العالم أندريه بارو (مدير متحف اللوفر في باريس) : « يحق لأي إنسان متمدن في العالم أن ينتسب إلى وطنين ، وطنه الذي يعيش فيه . . . وسورية » . وقد شاطره هذا الرأي معظم علماء العالم ، ومنهم الدكتور فيليب حتي (أستاذ علوم التاريخ بجامعة أمريكا) الذي عقّب قائلاً : (إن تاريخ سورية هو تاريخ العالم بصورة مصغرة) ، ثم نقل عن المؤرخ والباحث ليونارد وولي استنتاجه القائل : (إن أسلاف هذه الشعوب المختلطة كانوا في زمن ما قبل تباينهم يعيشون شعباً واحداً في مكان واحد) ، أي في بلاد الشام .

أما الدكتور جاك كوفان (عالم بالآثار ومنقب ومؤرخ وأستاذ بجامعة فرنسا) فقد أكد في كتابه (الوحدة الحضارية في بلاد الشام) أن أول مدينة في تاريخ البشر وأول حضارة ، وأول عبارة وأول تنظيم اجتماعي ، وأول منازل ، وأول مجتمع زراعي تعاوني في الوجود هو الذي نشأ في (تل أسود) و (تل الرماد) و (تل الغريقة) ، ودعم ذلك بالآثار التي اكتشفها هو وغيره في تلك المواقع . وقد نُشرت أبحاثه ، مع صور تلك الآثار ، بمجلة الحوليات الأثرية التي تصدرها مديرية الآثار والمتاحف العامة بدمشق .

أما المفاجأة المذهلة في هذه الاكتشافات المستمرة منذ نحو عشر سنوات فهي أن جميع هذه المواضع المذكورة تقع ضمن الفراديس ، أي في الشام . . . وهذا يفسّر لنا بعض أسرار عناية الله تعالى الدائمة بهذه المدينة الخالدة .

* * *

دمشق عاصمة الآراميين

لم تنشأ دمشق في العهد الآرامي ، بل لا شك في أنها وجدت قبل هذا العهد ، وعرفت مراحل طويلة في تاريخ نشأتها واستقرار الإنسان القديم فيها ، وقد عثر في بعض التنقيبات الأثرية عام ١٩٦٥م على فخار يرجع إلى عهد البرونز القديم ، أي إلى حوالي منتصف الألف الثالث قبل الميلاد .

وتؤيد الوثائق الفرعونية التي عثر عليها في تل العمارنة وجود دمشق قبل العهد الآرامي ، وقد ورد اسمها (دمشقا) .

والآراميون شعب قديم من تلك الشعوب التي خرجت من الجزيرة العربية على موجات متلاحقة ، باحثة عن المجال الحيوي في بادية الشام وأطراف الهلال الخصيب . ثم كانت تتسرب منها إلى السهول والوديان في سورية وبلاد الرافدين . ولقد تعارف العلماء في الغرب على تسميتهم بالشعوب السامية .

وتظهر دمشق على مسرح الأحداث ، في منطقة الشرق القديم لأول مرة في التاريخ مع بداية العهد الآرامي ، وكانت دمشق عاصمة المملكة الآرامية التي كانت أهم دولة في سورية وأكثرها منعة وقوة ، ثم أخذت مكانتها فيه وازدادت أهمية يوماً بعد يوم بل كانت في غالب أيامها ، زعيمة للدويلات الآرامية في بلاد الشام ، وأقدم ما نعرفه عن تاريخ دمشق السياسي لا يرقى إلى أبعد من ألف عام قبل الميلاد وإذا كانت أخبار دمشق قبل العهد الآرامي ما تزال ضئيلة ، فليس معنى ذلك إنها وجدت فجأة في هذا العهد^(١) .

(١) ولقد عثر في عام ١٩٦٥م في تنقيبات في صحن الجامع الأموي على فخار يرجع إلى عهد البرونز القديم أي إلى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد ، إنه أقدم ما عثر عليه في دمشق حتى الآن .

إذ لا بد أن تكون قد مرت كغيرها من المدن السورية بمرحلة طويلة من النمو والتطور ، ولا بد أنها جذبت الإنسان الأول للإقامة على أرضها التي تتوفر فيها كل أسباب الحياة ؛ من تربة خصبة ومياه غزيرة وإقليم معتدل وموقع ممتاز ، فوجودها إذاً قبل العهد الآرامي كان واقعة تؤيدها الوثائق الفرعونية التي عثر عليها في تل العمارنة ، فلقد ورد اسمها كثيراً في هذه الوثائق في عداد المدن التي فتحها تحوتمس الثالث في القرن الخامس عشر قبل الميلاد .

دمشقا وهو اسم لا يختلف مع ما ورد في التوراة والوثائق الآشورية . غير أن الآراميين أطلقوا عليها اسم « دار ميسيق » التي تعني كما رأى بعض العلماء ، الأرض المسقية ، أو الدار المسقية المعنى الذي يتفق مع الواقع أكثر من أي تفسير آخر من التفسيرات الكثيرة التي اجتهد المؤرخون العرب ومن قبلهم في استخراجها ، ثم حور اليونان والرومان الاسم الآرامي إلى « داماسكس » بينما احتفظ العرب بالتسمية الأولى فأطلقوا عليها اسم دمشق^(١) .

والجدير بالذكر أن الرحالة والمؤرخين حاروا في مصدر اسم « دمشق » . ولعل أقرب تعريف إلى الواقع هو كلمة دمشق مركب مزجي من كلمتين في السريانية هما « ذي » أي ذات و « مِشَق » بكسر الميم والشين ، أي النهر ، ليصبح المعنى « ذات الأنهر » وهو تخريج يرسم واقعها على الطبيعة الأرضية (عبد الله العلايلي - جريدة السفير العدد الصادر في ٢١/٨/١٩٩٢ م) .

ومن أهم ما نعرفه من أخبار دمشق الآرامية نزاعها وحروبها الدائمة مع مملكة إسرائيل ، وكيف أنها أصبحت أكثر منها قوة وغلبة بعد عهد النبي داود وسليمان من بعده ؛ حتى اضطر ملوك إسرائيل مراراً إلى دفع جزية من الذهب والفضة لإرضاء ملوك دمشق ، وكانوا يتقيدون بما يشترطه هؤلاء عليهم من تخفيض لقواتهم العسكرية واستعدادهم الحربي ، وكانت دمشق على علاقات صداقة مع الدولة

(١) عثر عام ١٩٧٦م في حفريات تل مردوخ (إبلا القديمة) على رقيم ذكرت فيه مدينة دمشق .

الآرامية في الشمال ، وكانت في الغالب زعيمة الأحلاف التي ألفتها هذه الدويلات للوقوف أمام الغزو الآشوري . ثم تشبكت دولة دمشق مع الآشوريين في معارك عديدة ، وتسقط أخيراً بأيديهم ، وتحتلها جيوش (تغلات فلازار الثالث) في عام ٧٣٤ ق . م . فتفقد دمشق بهذا الاحتلال استقلالها وتبقى عدة قرون خاضعة للحكم الأجنبي . وتنتقل في القرن السابع من أيدي الآشوريين إلى الكلدانيين ، ثم يحتلها الفرس حوالي عام ٥٣٨ ق . م . ويتخذون منها عاصمة الولاية السورية ومقر القيادة العسكرية الفارسية . ويعتبر عام ٣٣٣ ق . م نقطة تحول في تاريخ دمشق كما سترى .

ضئيلة هي المعلومات المتوافرة لدينا عن أحوال مدينة دمشق وأوصافها ، في العهد الآرامي ، بسبب ضياع معالم المدينة وصعوبة التنقيب عن آثارها . ولكن من المؤكد أنها ثابئة ، الآن في قاع دمشق القديمة ذات الأسوار . وبما أن دمشق الآرامية كانت أصغر مساحة من دمشق ذات الأسوار التالية عليها ، فمن المرجح أن الأولى كانت تشغل الجانب الغربي فقط من لاحقتها ذات الأسوار . وما نستطيع أن نزعمه ، دون كبير حرج ، أن الأزقة ، في دمشق الآرامية ، وأن مساكنها ، كانت تتوزع ، بغير نظام ، ما بين القصر الملكي وبين معبدها الشهير .

فأما القصر الملكي ، فأغلب الظن موقعه في قلب المدينة ، على تل من التلال المشرفة ، التي ضاعت اليوم معالمها بسبب الارتفاع المستمر في مستوى الأرض على مر الزمن . ولقد أفاضت الروايات التاريخية بالحديث عن أهمية القصر ، سواء من ناحية حصانته وصموده أمام هجمات الآشوريين . أو من حيث غناه بمظاهر الأبهة والترف .

وأما المعبد ، الذي كان مكرساً لعبادة إله الآراميين الكبير (حَدَد) (إله المطر والرعد) ، فقد تأكد ، أخيراً ، أنه يقع حيث الجامع الأموي . . . وذلك بعد أن تم العثور ، عام (١٩٤٩ م) ، في أساسات أحد جدران الجامع ، على ذلك الحجر البازلتي الذي يمثل صورة (أبي الهول المجنح) ، وفوق رأسه تاج يرمز لمصر العليا

والسفلى ، مما يدل أيضاً ، على أن الفن الآرامي كان متأثراً بالفن المصري !

وقد اقترنت هذه السطوة السياسية بالازدهار التجاري ، فاتصلت بفينيقيّا وبلاد الجليل ، وصدّرت كثيراً من المحاصيل ، من القمح وغيره ، كما كانت فوق ذلك مركزاً دينياً ، يتمتع معبدها بنفوذ واسع لم يفقده على مر الزمن . أما موقع المعبد الآرامي القديم حيث يعبد الإله السوري الكبير (حَدَد) ، إله المطر والرعد ، فهو يقابل بدون شك موقع المعبد الكبير الذي بني في العهد الروماني لعبادة (جوبيتر) الذي أُدمج بالإله (حدد) . ويُستدل على ذلك من منطقة (الحرم) التي تحيط بالمعبد المقدس عادة ، وتجعله ثابت الموقع والتخطيط . وقد تأكد موضع هذا المعبد الآرامي إثر اكتشاف حجر بازلي عام ١٩٤٩م في الجهة الشرقية من أساسات الجدار الشمالي للجامع الأموي يمثل صورة أبي الهول ، ويعتقد أنه قد وضع ليزين معبد حدد في عصر حزائيل ملك دمشق^(١) .

هذه هي صورة دمشق الآرامية ، ومهما تتصف به هذه المعلومات من غموض ، ومهما تستند إليه من فرضيات ، فإنها كافية لترشدنا إلى معرفة سبب وجود المدينة ، وإلى اتجاه تطورها خلال آلاف السنين السابقة .

وقد ظلت دمشق الآرامية على هذه المكانة ، حتى تغلب عليها الكلدانيون ، قبل أن يحتلها الفرس حوالي عام (٥٨٣ ق . م) . ويعتبر غزو الإسكندر المكدوني لسورية عام (٣٣٣ ق . م) نقطة تحول كبيرة في تاريخ المنطقة عامة وتاريخ دمشق خاصة ، ولهذا ساقف عنده قليلاً ، بشيء من التفصيل .

* * *

(١) بشير زهدي ، مملكة دمشق الآرامية - مجلة الحوليات الأثرية المجلد الثامن والتاسع ص ٩٨ .

تحت حكم اليونان

انتقلت دمشق من يد الفرس إلى قبضة اليونانيين ، بعد موقعة (إيسوس) الفاصلة عام (٣٣٣) ق . م ، وألحقت بإمبراطورية (الإسكندر المكدوني) . فكان على دمشق أن تتخلى عن دورها السياسي لمدينة (أنطاكية) التي تفوقت عليها طوال العهدين اليوناني والروماني معاً .

وبعد وفاة الإسكندر ، وتجزؤ إمبراطوريته المترامية الأطراف ، أصبحت دمشق تابعة لأنطاكية (السلوقيين) تارة ، والإسكندرية (البطالسة) تارة أخرى ، متعرضة في ذلك لحروب واضطرابات حرمتها نعمة الأمن والاستقرار .

ونظراً لإيمان اليونانيين بتفوقهم على سواهم من الشعوب الخاضعة لهم ، ورغبة منهم في رفعها إلى مستواهم الثقافي والحضاري ، فقد أنزلوا في مدن سورية كبيرة مثل دمشق وحلب وحماه ، جاليات يونانية ، قاصدين إلى نشر ثقافتهم في المجتمع الآرمي ، وإلى الإقلال من تأثير هذا المجتمع على القوم الحاكمين .

ومع أن أبناء هذه الجاليات فقدوا بعض خصائصهم القومية ، بسبب هجرهم مواطنهم الأصلية ، وسهولة العيش في الموطن الجديد ، فضلاً عن زواجهم من سوريات ، إلا أنهم ظلوا (يونانيين) بلغتهم ومشاعرهم ، محافظين على ثقافتهم وعقائدهم ، متمتعين بوضعهم السياسي المتميّز ، عاملين على إيجاد وضع خاص بهم يتلاءم ومتطلباتهم الحياتية . . . يتجلى ذلك في أسلوب البناء وفي الأحياء التي أنشئوها ، فأسسوا - شرقي المدينة الآرامية المتجمعة حول (معبد حدد) - مدينة يونانية ، قوامها بيوت متناسقة ، في أحياء مستطيلة الشكل ، ذات مساحات متماثلة ، تخرقها شوارع مستقيمة . . . وفيها تلك الساحة العامة المسماة

(الأغورا) (التي يعلوها حي القيمرية) اليوم حيث تقام السوق ويجتمع المواطنون ، كما يتجلى في ساحة الألعاب الرياضية ، والمسرح .

العهد اليوناني - المكدوني :

ارتبط تاريخ دمشق ، منذ الغزو المكدوني ، بالغرب لفترة تقدر بحوالي عشرة قرون ، وكانت بلاد الشام بعد الإسكندر من نصيب خلفائه السلوقيين الذين أولوا دمشق عناية كبيرة ، بينما كانت عاصمتهم في معظم أيامهم مدينة أنطاكية ، وقد حرمت دمشق ، في تلك الفترة ، من الاستقرار لاستمرار النزاع حولها بين السلوقيين في الشام والبطالسة في مصر .

عرفت دمشق في هذه الفترة من تاريخها ازدهار الحضارة الهلنستية التي تمازجت فيها عناصر الثقافة اليونانية مع حضارة الشرق وثقافته ، وانتشرت بين أبناء دمشق لغة اليونان وثقافتهم وفنونهم .

وخلال أواخر العهد اليوناني/ السلوقي ، ازدهرت في جنوب بلاد الشام دولة عربية هي دولة الأنباط وعاصمتها (البتراء) ، وامتد سلطانها على أراضي الأردن وحواران ، ووصل نفوذ ملكها إلى دمشق مرتين وذلك عام (٨٥ ق . م) في عهد الملك الحارث الثالث ، وفي عام (٣٧ م) في أيام الملك الحارث الرابع . وكانت بلاد الشام بما فيها دمشق قد غدت تابعة لحكم الرومان .

الرومان :

ظلت دمشق في قبضة اليونان مدة نيفت على القرنين ونصف القرن من الزمان ، قبل أن يدخلها فاتحاً القائد الروماني (بومبيه) عام (٦٤) ق . م ومع أن الرومان لم يكونوا يعدون غير الرومانيين سوى غرباء ورعايا ، إلا أن دمشق أتيح لها مع ذلك أن تنفياً في ظلهم أيام سلم تعادل ما عانت من اضطراب في حكم اليونان السابقين عليهم . . . فهيأ لها ذلك أن تنعم بنظام ساد فيه الأمن حتى لقد شمل البدو! وازدهرت التجارة ازدهاراً أتاح لدمشق أن تكون طريقاً للقوافل على امتداد رقعة

الإمبراطورية الرومانية المترامية الأطراف ، بل أن التجار عادوا إلى استخدام الطرق البرية للتجارة عبر دمشق في اتجاه أقاصي أوربة الغربية (بلاد الغال) .

ولم ينكمش السوريون على أنفسهم ، في حكم الرومان الذي استطال سبعة قرون ، بل شاركوا فيه أخذاً وعطاء ، ولئن كان أصاب المدن السورية ، مثل أنطاكية وتدمر ، نمو واتساع فاقا كل ما كان مقدراً ، فقد أسهم السوريون بعامّة في الحياة الرومانية في شتى الميادين الحضارية ، فكان منهم مهندسون عرف التاريخ واحداً منهم هو (أبو لودور الدمشقي) ، الذي بلغت شهرته روما ، في مطلع القرن الثاني الميلادي ، فبنى بعض أوابدها الشهيرة (مثل « فوروم تراجان » في روما ، والجسر العظيم على نهر الدانوب .

والحاكمون بدورهم رفعوا من مكانة دمشق ، حين أصبحت ، في عهد « الإمبراطور هادر يانوس » ، من أمهات المدن ، وحصلت على لقب (ميتروبول) « أي مدينة رئيسية » ، ثم على لقب (مستعمرة رومانية) في عهد (الإمبراطور الإسكندر سيفيروس) (٢٢٢م - ٢٣٥م) المنحدر من أصل سوري ، فأكسبها ذلك امتيازات .

وما كان لهذا الازدهار إلا أن يخلف بصماته في جبين دمشق . فقد أحيطت المدينة بسور ، تم بناؤه على طريق التحصين الروماني ، مستطيلاً مستقيماً الأضلاع (١٥٠٠ متر ، ٧٥٠) عدا الضلع الرابع المشرف على نهر بردى ، والذي يحاذيه تعرجاً ، وقام النهر مقام الخندق . وخص هذا السور بسبعة أبواب . . . فازدادت دمشق به أمناً .

ولما كان سكان المدينة قد تزايد عددهم في ظل الازدهار ، فقد ازدادت الحاجة إلى مزيد من المياه ، التي جُرّت إليها من بردى ، بقناة حمل بعض أقسامها على قناطر ، ما يزال يشاهد بعضها حتى اليوم وتسمى « القنوات » فأصبحت تخترق المدينة ، من يومئذ ، قناتان : أولاهما قناة (بانياس) المجرورة من عهد الآراميين .

. أما المعبد ، الآرامي الذي كان قد تحوّل إلى يوناني ، فقد أعيد بناؤه في أيام الرومان وفقاً لذوق العصر ، وسمي (معبد جوبيتر) فجاء أبدة ، حتى لقد عدّ من أشهر المعابد في العالم القديم ، اتساعاً وفخامة ، وبدا بأبوابه وأسواره أشبه بمدينة حصينة ، وذلك ما جعل العرب ، حين عرفوه ، يطلقون عليه : (حصن دمشق) أحياناً : (والمدينة الداخلة) أحياناً أخرى !

ولقد عني الرومان بذلك الشارع المستقيم . ذي الأقواس الثلاثة الممتد من شرقي المدينة إلى غربها بطول (١٥٠٠) متر ، مخترقاً المساكن المتراكمة في المدينة القديمة ، ووسعوه عرضاً فبلغ (٢٥) متراً ، ورصفوا بالبلاط نصفه ، وتركوا نصفه الآخر للرصيفين المسقوفين ومن ورائهما الحوانيت وقد ظللتها الأروقة على عمد مرفوعة ، كما يتصور الباحث الفرنسي (سوفاجيه) .

ولن يفوتنا بيان أن هذا الشارع المستقيم ، قد ازدان بثلاثة أقواس نصر فخمة ، عثر على أحدها في السنوات الأخيرة ، وكان مطموراً على عمق (٤٥٠) ستمتراً من سطح الأرض الحالية ، وهو يحتفظ بإحدى فتحاته كاملة وببعض أعمدته ، ويعتقد بأن هذا القوس هو ما يسميه ابن عساكر بـ (قنطرة سنان) وقد عمدت مديرية الآثار بدمشق إلى ترميمه ورفعته إلى مستوى الشارع . . . فأنت تراه في مرورك عبر ذلك الشارع المستقيم - الذي لم يعد تام الاستقامة - من باب الجابية غرباً حتى باب الشرقي .

وما زال ماثلاً أيضاً ، بعض تلك الأحياء الرومانية ، ولنا من أسمائها الموروثة دليل : فالحي المعروف اليوم باسم (الديماس) يقابل موقع Demosim (أي دائرة المالية) التي كانت قائمة قرب الساحة العامة ، وكذلك الموضع المسمى (الفرناق) Fornaces فإنه يدل على مكان الفخار و (الفسقار) Foscarion يدل على مكان صنع (الفسقه) وبيعها (وهي شراب فيه ماء وخل ، كان يحتسيه الجنود الرومانيون) ثم المكان المسمى (المقصلاط) ، حيث تلتقي فيه الأسواق المسقوفة Mecella ، وكان أمام مدخلها قوس يعلوه تمثال لرجل مبسوطة ذراعه .

العهد الروماني :

طويت صفحة العهد اليوناني في دمشق عام (٦٤ ق . م) ، عندما دخلتها جيوش الرومان بقيادة (بومبيه) . وقد عرفت دمشق في هذا العهد نشاطاً تجارياً واسعاً ، مستفيدة من كونها محطة رئيسية على طريق القوافل ، ومن اتساع الإمبراطورية الرومانية . وقد أفادها تدفق الأموال عليها في تطورها العمراني ، فأصبحت دمشق في عهد الإمبراطور (هادريان) حاملة لقب متروبول - أي مدينة رئيسية - ثم حملت لقب مستعمرة رومانية في عهد الإمبراطور (سبتيموس سيفيروس) ، ولمع من أبنائها مهندسون ، وصلت شهرة أحدهم (أبولودور الدمشقي) إلى روما . وفي أواخر القرن الرابع الميلادي ، انقسمت الإمبراطورية الرومانية ، فغدت دمشق من أملاك الجزء الشرقي من هذه الإمبراطورية ، وهو الذي عرف باسم الدولة البيزنطية ، وأصبحت دمشق مركزاً عسكرياً مهماً في مواجهة الفرس الساسانيين ، كما غدت من أهم مراكز الدولة العربية التي قامت في بلاد الشام وهي دولة الغساسنة .

وتقع دمشق بيد الفرس عام (٦١٢ م) ، ثم يستعيدها الروم بعد خمسة عشر عاماً على يد هرقل عام (٦٢٧ م) ، ولم تلبث أن عادت إلى حكم العرب بعد أن حررتها جيوش العرب المسلمين عام (٦٣٥ م / ١٤ هـ) .

الأنباط يدخلون دمشق مرتين :

واستكمالاً لهذه (البانوراما) السريعة ، لا بد من الإشارة إلى أن الأنباط العرب ، قد ظهروا على مسرح الأحداث في المنطقة ، فأزعجوا اليونان في حكمهم لسورية ، كما أزعجوا الرومان من بعدهم . ولقد تمكنت هذه القوة الوطنية الجديدة من إقامة دولة عربية في الأردن وحواران (جنوبي دمشق) ، واتخذ الأنباط من (البتراء) (في شمال الأردن) عاصمة لهم ، ونجحوا في مد سلطانهم إلى دمشق وضمّتها إلى دولتهم مرتين : عام (٨٥ ق . م) . في عهد ملكهم الحارث الثالث ، ثم في عام (٣٧) بعد الميلاد أيام الحارث الرابع .

ولن تفوتنا الإشارة أيضاً إلى أن الحاكم الروماني قد أوكل للغساسنة العرب المتنصرين ، مهمة حماية الحدود مع العراق التي كان يحكمها الفرس ، وأن الفرس استطاعوا احتلال سورية عام (٦١٢ م) في ايام (كسرى الثاني) ثم استردّها (هرقل) ملك الروم بعد خمسة عشر عاماً . . . ولكنها لم تلبث في يد الروم أخيراً إلا سنوات معدودات ، ريثما تشرق على دمشق شمس الإسلام .

ومن اللافت أن دمشق ، على الرغم مما نعمت به من أمن وسلام ، وما حظيت به من عمران ومنحت من ألقاب ، فقد ظلت ، حتى نهاية حكم البيزنطيين ، بعيدة عن مركز الصدارة والرئاسة ، فسيادتها السياسية لم تتحقق بعد ، ولا بد من انتظار الفتح العربي الإسلامي ووصول الخليفة معاوية الأول ؛ لتصبح دمشق المدينة الأولى في الشرق .

* * *

فتح دمشق في العصر الإسلامي

أما فيما يتعلق بفترة حصار دمشق فالخلاف حولها كبير ويتراوح ما بين (٧٠) يوماً و (٤) شهور و (٦) أشهر وسنة واحدة ، وأربعة عشر شهراً وسبب ذلك أن المسلمين توجهوا إلى دمشق أولاً فحاصروها ثم غادروها إلى العديد من المناطق حيث قاموا بفتحها ، ثم عادوا بعد ذلك إلى دمشق فمدة هذه الفتوحات والمعارك التي استغرقت هذه المدة أو تلك ، هي التفسير الوحيد لاختلاف الروايات ، وبالنسبة لمركز حصار المدينة كان الدير المعروف باسم دير خالد والذي كان بينه وبين مدينة دمشق أقل من ميل .

أما فيما يخص القائد الذي قام بفتح دمشق فنخلص إلى أن خالد بن الوليد كان قائد وأمير الجيوش في فتح دمشق ولا يوجد أي تضارب في الروايات الإسلامية حول تلك النقطة ، وأما الذين دافعوا عن المدينة فكان كل من كان بداخلها من حاكم وجنود وأشخاص عاديين وعلماء دين . والموضوع الأخير المتعلق بفتح دمشق هل تم عنوة أم صلحاً فالجواب يكمن في الرسالة التي كتبها خالد إلى الخليفة أبي بكر . وتوجز قصة الدخول إلى دمشق بل وتحسم الأمر حيث قال فتحت دمشق عنوة بالسيف من باب شرقي وكان أبو عبيدة على باب الجابية فخدعته الروم فصالحوه على الباب الآخر وأخيراً هناك شروط المعاهدة مع سكان دمشق وما ورد فيها . هذا ولا توجد أي حيرة في موضوع الصلح والأمان الذي أعطى لأهل دمشق سواء أكان كاتب كتاب الصلح خالداً أم أبا عبيدة . المهم في هذه النقطة الأمان الذي أخذه أهل دمشق وفتح المدينة .

وفي المقابل نجد أن المسلمين بعد أن استقرت دعائم دولتهم بالشام ، وجعلوا

من دمشق حاضرة للعالم الإسلامي في العصر الأموي نرى محاولة إسلامية على الصعيد الرسمي بين المسلمين والبيزنطيين (الروم) للتحاور الديني ، وقد جاءت المبادرة من الجانب الإسلامي ، حيث نقرأ عن محاورة دينية بين الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز والإمبراطور البيزنطي (ليو الإيسوري) مؤسس الأسرة الإيسورية الحاكمة في بيزنطة ، وتعد هذه المحاورة دليلاً قاطعاً لا يقبل الشك على أن المسلمين هم الذين أرسوا قواعد الحوار الديني مع الآخر في العصور الوسطى .

وتثبت هذه المحاورة أن دمشق كانت القاعدة التي انطلق منها الحوار مع الآخر ، لا سيما الحوار الديني ، كما تثبت أن العرب دعاة سلام وليس قتال حيث دارت المحاورة على الصعيدين العربي والبيزنطي ، بقدر من الندية والاحترام للآخر ، والقول بأن العرب المسلمين هم أصحاب السبق في هذا المضمار ، انطلاقاً من عقيدتهم السماوية ، وأن أرض الشام كانت نقطة الانطلاق .

ولعبت دمشق دوراً مميزاً ومؤثراً في عصور الدولة العربية الإسلامية المختلفة وخاصة في العصر الأموي عندما تحققت لمعاوية بن أبي سفيان خطته السياسية الرامية إلى تكوين دولة إسلامية على أرض الشام .

وبعد أن استقرت الأمور لمعاوية سنة (٤٠هـ / ٦٥١م) وأصبح هو صاحب السلطان المطلق في كافة أنحاء الدولة الإسلامية اتخذ من دمشق حاضرة لخلافته ومقرّاً لدولته بعد أن كانت حاضرة ولاية الشام وحدها فانتقلت إليها سياسة الملك ، ونقل بيت مال الدولة من الكوفة إلى دمشق .

واستمرت خلافته على مدار أربعين عاماً ويزيد ، وكم كانت رؤيته صائبة وحكيمة في اختيار المكان الذي سيبنى عليه قصره ، حيث رأى أن يكون ملاصقاً للمسجد المعروف بمسجد بني أمية الكبير . . وكان هذا القصر أول قصر إسلامي شيد في بلاد الشام (بدمشق) ، تعلوه قبة خضراء فصار يُعرف بقصر الخضراء .

وقد فتح معاوية أبواب قصره لأهل الشام قاطبة مسلمين ومسيحيين أدباء وشعراء . . وكان القصر ملاذاً لبعض آل البيت : كعبد الله بن عباس ، وعقيل بن أبي طالب ،

ومرجعاً وموثلاً للمكيين والمدنيين وعلى رأسهم عبد الله بن عمر بن الخطاب حفيد علي بن أبي طالب . . إضافة لنصارى أهل الشام من الأطباء والمستشارين ، وتوّج علاقته بهم بزواجه من ميسون النصرانية الكلية التي أنجبت ولي عهده .

واستعان بدهاة عصره ، كعمرو بن العاص ، المغيرة بن شعبة ، وزباد بن أبيه . وعمل على تنظيم الإدارة ، فأصلح النظم الإدارية والاقتصادية وأهمها : نظام البريد ، والشرطة ، وديوان الختم ، والعلاقات الدبلوماسية .

كان انتصار الجيوش العربية الإسلامية على الروم في بلاد الشام وما تبع ذلك من فتح دمشق أكبر الأثر في إحياء الصلات القديمة التي كانت تربط بين العرب والمقيمين في دمشق وبين العرب الفاتحين وساعدت وحدة الجنس واللغة على اندماج الفريقين كما أدى الاتصال الاجتماعي بينهما إلى تكوين مجتمع جديد في دمشق ذي لغات وأديان وتقاليد مختلفة .

كانت اللغة العربية موجودة في دمشق قبل الفتح الإسلامي ، ولما فتح العرب المسلمون دمشق وهاجرت بعض القبائل العربية إليها زادت اللغة العربية انتشاراً ورسوخاً في هذه المدينة العريقة ، واضطر أهلها من غير العرب إلى تعلم اللغة العربية لأنها لغة الحاكمين والحكومة .

وساعد على انتشار اللغة العربية في دمشق أنها لغة الدين الإسلامي كما أن العرب سعوا إلى جعل اللغة العربية لغة دين وأدب وثقافة ، ولم يحارب العرب اللغة اليونانية لغة السواد الأعظم من سكان دمشق بل ساروا في نشر لغتهم سيراً حثيثاً .

وكان من عوامل انتشار اللغة العربية في دمشق تعريب الدواوين من اليونانية إلى العربية في عهد عبد الملك بن مروان ، فأصبحت اللغة العربية لغة التدوين والإدارة والسياسة فضلاً عن كونها لغة الدين والأدب والثقافة .

ارتبطت دمشق بالمسجد الأموي الذي أكسبها شهرة كبيرة . وأنفق في بنائه أموالاً طائلة خاصة في عهد الوليد ويعد مسجد دمشق الأموي آية من آيات الفن العربي .

دمشق تنبض بالإسلام :

فلما انبعث الصوتُ الجديد في صحراء (مكة) ، وتردّدت أصداؤه في الجزيرة العربية ، كان قد آن لبلاد الشام أن ينطق لسانها بالعربية المبينة وأن ينبض قلبها بالإسلام .

كانت دمشق قد عانت كثيراً من ويلات الحروب التي دارت في ساحاتها بين الفرس والبيزنطيين ، وسئمت التنازعات المذهبية التي نشبت بينها وبين القسطنطينية . وها هم القادمون من الجنوب ، الذين لوّحت الشمس جباههم ، يطرقون أبواب دمشق ، فيبذل الحاكمون ، الروم ، أقصى ما يستطيعون من ضروب المقاومة ، ولا يبذل منها الدماشقة إلا قليلاً .

انتصر العرب المسلمون على الروم ، في جولة أولى ، في معركة (اليرموك) الحاسمة . وساروا ، بقيادة (أبي عبيدة بن الجراح) ، إلى دمشق مظفرين فحاصروها أشهراً أربعة ، وقد اعتصم المدافعون بالأسوار المنيعة ، يراودهم أمل في أن يبعث إليهم (هرقل) بجيش من جيوشه ، فيضطر المهاجمون إلى لقائه منصرفين عن دمشق .

وكان (خالد بن الوليد) قد نزل بجيشه على الباب الشرقي ، ونزل (عمرو بن العاص) على باب توما ، وأما (أبو عبيدة) فقد نزل على باب الجابية غرباً ، ونزل كل قائد على باب من أبواب دمشق الأخرى . وأقامت قوة منهم عند قرية (برزة) سفح قاسيون على طريق حمص ، وقوة أخرى على طريق بعلبك ، قطعاً للطريق على قوات الروم إن هي أقبلت عبر إحدى هاتين الجهتين .

وتقول الروايات التاريخية : إنه حدث أن وُلدَ لبطريق الروم على دمشق طفل ، فأقام احتفالاً كبيراً وأولم وليمة لحامية المدينة المحاصرة ، فأقبلوا يأكلون ويشربون وهم مطمئنون إلى حصانة استحكامات المدينة .

فجاءت عيون خالد بن الوليد من وراء الأسوار ينبئونه بالخبر ، فتقدم هو وأشد

من معه ، عابرين الخندق سباحة على قرب منفوخة ، وراحوا يقذفون بسلاالم الجبال إلى أعلى السور ، حتى اشتبك اثنان منها فتسلقهما بعض الجند ، فأثبتوا مزيداً منها بأعلى السور ، وتابع الجند تسلقها في صمت ، وبينهم خالد ، وانحدروا إلى الداخل ، وحامية دمشق في طعامها وشرابها ، فكبروا بصوت واحد ، وتمكنوا من فتح الباب الشرقي ، فتدفق من خلاله من كان خارجه ، وبدأت المعركة في شوارع دمشق .

ولما رأت قيادة الروم ذلك ، أقرّت طلب الصلح على الفور ، وطلبوه من أبي عبيدة الرابض بجيشه تجاه باب العجابية ، فقبله القائد العربي ، وفتحت أبواب دمشق جميعها للمسلمين ، فتدفقوا والتقوا في وسط المدينة . . . ومما تضمنه كتاب الأمان ، الذي كتب لأهل دمشق ، الأمان على الدماء ، والأمان على الأموال ، والأمان على الدين وعلى الكنائس من أن يسكنها المسلمون أو يهدموها وهكذا دخل خالد دمشق عنوة ، ودخلها أبو عبيدة صلحاً ، وكان ذلك يوم (الأحد ١٥ من رجب عام ١٤ للهجرة ، ٣ من أيلول سبتمبر ٦٣٥ ميلادية) واستخلف أبو عبيدة على دمشق يزيد بن أبي سفيان ، ثم مضى ومعه خالد ليفتحا عنوة أو صلحاً سائر مدن الشمال . فكانت المدن ، كما يقول أحد المؤرخين المعاصرين : (تتساقط أمام الفاتحين تساقط أوراق الخريف في هبوب الريح)!

مدينة دمشق . . منذ الفتح الإسلامي حتى نهاية العهد الأموي :

حاصر العرب المسلمون دمشق ، ثم دخلوها في أيلول عام ٦٣٥ م ، دخلها من غربها أبو عبيدة بن الجراح صلحاً ، بينما دخلها من شرقها خالد بن الوليد عنوة ، ولم يصبها على أيدي محرريها الجدد أي خراب أو تدمير ، ولم يحدث فيها قتل أو إراقة دماء بين أبنائها . وأقام الفاتحون مع أبناء المدينة في جو من التسامح والتعاون ندر مثيله في تاريخ الفتوح ، حتى كان المسلمون والمسيحيون يقيمون صلواتهم في معبد واحد كل منهم في جانب من جوانبه .

وفي الواقع ، لم يكن الفاتحون غرباء عن دمشق ؛ لصلاتهم التجارية بأهلها أيام

الجاهلية ، وعلاقاتهم بحكامها من الروم ، ولم يكن تأثير دمشق على الفاتحين المسلمين بقليل ، فدمشق بنظرهم شامة الأرض وجنة الدنيا وإحدى عجائب العالم ، يرون فيها أحد المواقع التي شرفها الله بالأنبياء ، ففيها قتل قابيل هابيل ، وفيها ولد إبراهيم ، وبها لاذ عيسى وأمه لاجئين إلى (ربوة ذات قرار ومعين) ، وفيها ينزل عيسى في منتهى الزمان ليقاتل المسيح الدجال ، ولا شك أن هذا كله يعبر عن إعجاب شعب كان محصوراً منذ القديم بين آفاق الحجاز القاحلة الجرداء .

نقود دمشق

كان لدمشق دور هام بضرب النقود ولكن دمرها البيزنطيون ورجعت إلى وضعها الطبيعي على أيدي العرب ، وكان لها دوراً هاماً بضرب النقود العربية وعليها صورة الخليفة عبد الملك بن مروان وجاء من إنتاجها دراهم معربة سنة (٧٩ هـ) ومجموعة كبيرة من الفلوس المصرية ودنانير ودرهم عباسية كما ضربت فيها النقود الطولونية الذهبية .

ويمكن القول : إن النقود الإسلامية الذهبية والفضية والنحاسية التي ضربت بدمشق على قدر كبير من الأهمية بسبب تنوع طرزها واختلاف معادنها .

ومكانة دمشق كبيرة ومهمة في التاريخ حيث سُكَّت فيها النقود وعلى الرغم من أن الدنانير الذهبية كانت لا تحمل اسم مكان السك إلا أن سكّها كان في العاصمة دمشق وتحت إشراف الخليفة مباشرة .

أما الدراهم العربية الفضية فقد سُكَّت بدمشق منذ سنة (٧٩ هـ) وكانت على نوعين الأول حملت (دمشق) في الطوق الأول وكما يلي :

مركز الوجه : لا إله إلا

الله وحده

لا شريك له

الطوق الأول : دمشق .

الطوق الثاني : بسم الله الرحمن الرحيم ضُربَ هذا الدرهم في سنة تسع وسبعين . أما النوع الثاني لدراهم دمشق في سنة (٧٩ هـ) فكانت كما يلي .

مركز الوجه : مشابه لنصوص الدرهم السابق .

الطوق : بسم الله ضُربَ هذا الدرهم بدمشق سنة تسع وسبعين .

استمر سَكُّ الدراهم الأموية على النمط الثاني حتى نهاية الدولة الأموية سنة (١٣٢ هـ) عدا سنوات الضرب فكانت تتغير كل سنة .

علماً بأن دراهم دمشق قد سُكَّت في كل السنوات أما الفلوس النحاسية فقد ضُربت في دمشق لأول مرة سنة (٨٧ هـ) .

عصر دمشق الذهبي :

وبعدئذ ، منذ عام (٤١ هـ) ، أخذت دمشق تتحول ، بجهود معاوية بن أبي سفيان . من مجرد مركز ولاية إلى عاصمة للدولة العربية الإسلامية التي امتدت من مشارف الصين إلى جنوب فرنسا . وتتحول من ناحية أخرى ، إلى مدينة عربية إسلامية ، عاش فيها الفاتحون مع أهلها جنباً إلى جنب ، وعلى نحو عزّ نظيره من التفاهم والتسامح .

ولقد حل أمراء العرب وكبرائهم في الدور والقصور التي جلا عنها أصحابها من حكام الروم وقوادهم ، كما أن المسلمين أخذوا يتجمعون حول الجامع وبينون البيوت والمحال العامة في الساحة الواسعة المحيطة بالمعبد القديم . وكانت البيوت تقام على الأسلوب التقليدي في البناء المحلي ، (بُنْ مجفف وخشب) ، مما يجردها من القيمة الفنية الخارجية وبنى معاوية داره ، التي عرفت بـ (دار الإمارة) أو (قصر الخضراء) ، نسبة إلى القبة الخضراء التي رفعت فوقها لصق الجدار الجنوبي للجامع . وفي شأن هذه الدار - التي تعد أول بيت عربي بني في دمشق - تشير الروايات التاريخية إلى أنها كانت مؤلفة من جناح خاص بأهل الخليفة ، وآخر يستقبل فيه رجال الدولة ويتناول طعامه ومنه يخرج للصلاة في الجامع عبر باب يصله

به . وقد تحوّلت هذه الدار ، بعد معاوية ، إلى دار للملك ، يسكنها من يتولى الخلافة من بني أمية . ثم إنها تهدّمت في الانقلاب العباسي على حكم الأمويين . ولقد مضى الخلفاء والأمراء وعامة الناس في ابتناء القصور والبيوت ، كما أقيمت الأسواق والفنادق والحمامات والمستشفيات . ومع استتباب الأمن واستقرار الحكم وما فاض على البلاد من الرخاء والازدهار ، كان لا بد من أن يخرج الناس إلى ما وراء الأسوار ، فنشأت في أطراف المدينة وضواحيها ، مراكز سكنية ، عرفت بـ (منازل القبائل) ، وامتد البناء على ضفاف بردى وإلى سفوح قاسيون وكان ثمة ميدانان عامان ، أحدهما في الجنوب ، وهو (ميدان الحصى) . في جانب من حي (الميدان) اليوم ، والآخر في الغرب ويعرف بـ (المرج الأخضر) حيث « مدينة معرض دمشق الدولي في أيامنا هذه » ، وكانت تقام في هذين الميدانين (حفلات السباق للخيول والفروسية) التي أغرم بها الأمويون وعمد الخليفة يزيد بن معاوية إلى شق قناة جديدة في سفح قاسيون ، فرّعها من بردى قبل دخوله دمشق ، لا تزال تحمل اسمه حتى اليوم (قناة يزيد) كان من شأنها أنها زادت من المساحات المزروعة بأن أحييت أراضي جديدة في كل من قريتي (حرستا والقابون) .

لم تتبوأ دمشق مكانة الصدارة من الدولة الأموية ، إلا بعدما بويع معاوية بالخلافة ، فاختر دمشق عاصمة له سنة (٦٥٩ م) ، بعد أن كان والياً عليها . ولم تتوقف مدينة دمشق في هذا العهد عن النمو ، ولم يتوقف سكانها عن الازدياد ، كما أقام فيها كثير من الغرباء ، لتغدو بكل ما في الكلمة من معنى (رأس العالم العربي الإسلامي) ، بعدما أصبحت لها ، في العهد الأموي ، مكانة ممتازة ، كونها عاصمة الدولة العربية الإسلامية الفتية ، إذ تحولت على يد معاوية بن أبي سفيان ، من مركز ولاية إلى عاصمة دولة كبرى ، لم تلبث أن وصل نفوذ حكمها إلى حدود الصين شرقاً وإلى مياه الأطلسي غرباً . ويعتبر العهد الأموي العصر الذهبي لمدينة دمشق ، قامت فيها خلاله قصور الخلفاء ، وامتدت مساحة العمران ، وكان من أهم أبنيتها في هذا العهد ، وما يزال قائماً حتى اليوم ، جامع بني أمية الكبير الذي تم

بناؤه في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك ، ولا يزال يعتبر من أجمل الأبنية العربية الإسلامية في العالم .

وبمناسبة ذكر هذا الصرح الإسلامي ، يقال : إنه في أول الأمر ، ولما كان عدد المسلمين قليلاً ، فقد اكتفوا بمشاركة المسيحيين بمعبدهم القديم (كنيسة القديس يوحنا المعمدان) الذي أصبح يضم كنيسة للنصارى في الجانب الغربي ، ومسجداً للمسلمين في الجانب الشرقي ، وظلت هذه الحال من الجوار بينهما أكثر من نصف قرن ، إلى أن شرع الوليد بن عبد الملك في بناء الجامع الأموي الكبير^(١) .

الجامع الأموي ، أعجوبة ذلك الزمان :

على أن أروع ما شيّده الأمويون في دمشق وأخلده على الزمن ، كان (الجامع الأموي) . ذلك أنه لما اتسعت رقعة الدولة ، وبلغت أوج عزها ، وتزايد سكان دمشق حتى لقد ضاق (الحيز) الذي كانوا قد أنشؤوا فيه جامعهم على طرف من أنقاض المعبد الآرامي ، اتفقوا في عهد الخليفة (الوليد بن عبد الملك) ، مع أولي أمر كنيسة القديس (يوحنا المعمدان) الملاصقة للجامع الأموي ، على ضم أرضها إليه لإنشاء جامع ، بدأ العمل فيه عام (٨٦ هـ - ٧٠٥ م) ، وفق مخطط مبتكر يتلاءم مع شعائر الدين الجديد وأغراض الحياة العامة ، واستغرق العمل فيه عشر سنوات ، فجاء آية من آيات العمارة وأعجوبة من أعاجيب ذلك الزمان ، على نحو ما تمنى الوليد أن يكون جديراً بدمشق ، عاصمة أعظم دولة في ذلك الحين .

تمنى خليفة المسلمين ووفق إلى تحقيق أمنيته ، فقد تفرّد الجامع باتساع رقعته ، وبمآذنه الشاهقة ، وجدرانها المؤزرة بالرخام المجزّع التي أكملت إلى السقف بفسيفساء رصفت على شكل يؤلف كل ما خطر على بال الفنان من زخارف وآيات قرآنية ومناظر للطبيعة ، وأما السقوف فقد صنعت من الخشب المحلى بالنقوش الموشى بالذهب ، وعلقت القناديل والثريات بسلاسل من الذهب الخالص! وفي

(١) عبد القادر الريحاوي ، ص ٣٠ .

الحق ، لقد وضعت ، بإشادة هذا الجامع العظيم ، مبادئ هندسة الجوامع الكبرى التي شيدت بعده في العالمين العربي والإسلامي ، وظل المعماريون (عدة قرون يستمدون منه وينسجون على منواله) .

ولقد نال الحدثان من هذا البنيان ، فأنزلت به الزلازل والحرائق أضراراً ذهبت بجذته وشعثت فسيفساءه ، كان آخر هذه الكوارث حريق عام (١٨٩٣ م) . ولكن قُبِضَ لهذه الآبدة دائماً من يعنى بها ويصلح ما تخرب منها ، ويُجَدَّد ما يحتاج إلى تجديد . ومن حسن الحظ أن الترميمات كلها لم تُغَيِّر من معالمه الأولى أو تدخل تعديلاً على مخططة الأصيل ، كما وقع لكثير من مساجد العالم الأخرى ، بل جعلت منه منارة لفنون العمارة والزخرفة الإسلامية ، ومقصداً لمؤرخي فن العمارة الإسلامي .

هذا ، وقد امتد العهد الأموي حتى عام (٧٥٠ م) - (١٣٢ هـ) ، حين حدث ما أثر على دمشق ، وأدى إلى خسارتها لمكانتها ، وذلك بعد انتهاء عهد بني أمية وابتداء العهد العباسي .

وخيم على دمشق ظلام :

لم يدم عصر دمشق الذهبي إلا نحواً من قرن ، ثم انتهى بامتداد ثورة بني العباس ، المشتعلة شرقي الدولة الإسلامية ، إلى معاقل الأمويين بدمشق ، فدمرو المنتصرون قصور الخلفاء والأمراء فيها ، وانتهكوا حرمة مقابرهم ، وهدموا أسوار دمشق مُجرِّدين بذلك أهلها مما يتحصنون به إذا ما تراءى لهم أن يثوروا على السلطة الجديدة .

وهكذا أصبح من يتحكم بدمشق - التي كانت تدار منها الدولة العربية الإسلامية المترامية الأطراف - (ولاية) يعينون طوراً من الخليفة العباسي في بغداد ، وطوراً من مصر من قبل الطولونيين الذي يدينون بالولاء لبغداد ، وطوراً ثالثاً أو رابعاً من الأخشيديين في مصر أيضاً ، وطوراً خامساً من الفاطميين في المغرب أو القاهرة . لقد أمست دمشق ، في القرنين الرابع والخامس الهجريين (القرنين - ١١ و ١٢ م) ،

أشدّ بؤساً وظلاماً من كل عهد سبق ، فقد ثارت فيها الفتن والثورات واشتدت عليها غزوات البدو ، واحتلها القرامطة مرّات (وقتلوا عامة أهلها ونهبوها) كما أنها احترقت ، خلال ثوراتها على الفاطميين الذين حاولوا دائماً أن يفرضوا عليها التشيع ، وعم الخراب أكثر أحياء المدينة وضواحيها ، واحترق الجامع الأموي عام (٤٥٨ هـ) حريقاً شاملاً ، ووجد الطاعون طريقه إليها عام (٤٦٧ هـ) فأهلك معظم سكانها .

دمشق في عهد العباسيين ومن تلاهم :

في العهد العباسي خسرت دمشق مركزها كعاصمة أولاً ، حين اتخذ العباسيون من مدينة الكوفة في العراق عاصمة لهم ، في البداية ، ودخلت جيوشهم دمشق لتقضي فيها على خصومهم من رجال بني أمية وتمحو آثارهم ، وهكذا غربت شمس دمشق بعد أن استمر إشراقها خلال سنوات العهد الأموي ، وبدأت سحب الظلام تخيم على دمشق ، على مر الأيام ، وسقطت فريسة للثورات والاضطرابات وما يرافق ذلك من فوضى وخراب ودمار .

وحوالي منتصف القرن الثالث للهجرة (٨٦٨ م - ٢٥٤ هـ) ، أصبحت دمشق تابعة للدولة الطولونية في مصر ، الموالية لدولة الخلافة العباسية في بغداد ، ثم عادت دمشق إلى حكم بغداد المباشر بعد زوال الدولة الطولونية عام (٢٩٢ هـ - ٩٠٤ م) . وفي عام (٣٢٣ هـ - ٩٣٤ م) قامت في مصر الدولة الإخشيدية ، واستمرت من خلالها سيادة الخلافة العباسية على مصر والشام ، إلا أن هذه السيادة زالت نهائياً عن مصر والشام بقيام الدولة الفاطمية التي دخلت قواتها إلى هذه المنطقة عام (٣٥٨ هـ - ٩٦٨ م) ، وأصبحت دمشق مرتبطة بالخلافة الفاطمية التي انتقلت عاصمتها من المهدية في تونس إلى القاهرة في مصر .

تعرضت دمشق ، خلال هذه الفترة من تاريخها ، أي خلال عهد الطولونيين والإخشيديين والفاطميين ، لحروب وغزوات نشبت صراعاً على السلطة والنفوذ والسيادة ، وكان من أشدها غزوات القرامطة الذين احتلوها عدة مرات خلال

السنوات (٢٩٣ - ٣٦٠ - ٣٦١ - ٣٦٢ هـ) . وقد أصاب دمشق نتيجة لذلك الكثير من الخراب والنهب والدمار ، وفيما يلي إطلالة على ما آل إليه حالها ، في العهد الفاطمي .

دمشق في العهد الفاطمي :

عرفت دمشق خلال العهد الفاطمي بعض الثورات ضد هذا الحكم ، رداً على الفساد والظلم ، وانتشر الخراب في كثير من أحيائها ، ثم نجح أهل دمشق بطرد الفاطميين منها عام (٣٦٣ هـ - ٩٧٣ م) ، وتم ذلك بمساعدة قائد تركي (الفتكين) الذي تسلم حكم دمشق . واستغل الروم هذه الظروف ، فاجتاحت قواتهم ثغور بلاد الشام الشمالية ، ووصلت إلى حمص وبلبك . ثم نجح الفاطميون بالعودة إلى دمشق ، وسيطروا عليها مدة قرن ، وصلت خلاله دمشق إلى حالة سيئة من التأخر والفوضى ، فتدهورت أوضاعها الاقتصادية والعمرانية ، فضلاً عن أوضاعها السياسية ، فقل عدد سكانها وانتشر فيها الفقر والغلاء .

وقد استمر العهد الفاطمي في دمشق من عام (٣٥٨ هـ - ٩٦٨ م) حتى عام (٤٦٨ هـ - ١٠٧٥ م) .

دمشق الأزقة والحارات :

وبسبب اضطراب جبل الأمن ، والرهق الذي أصاب العباد مما يجبيه الحكام منهم من المال ، فقد وجدت طبقات الشعب العاملة نفسها مسوقة إلى التعاون والتعاقد ؛ دفعاً لما تمارسه السلطة نحوها من قهر وعنت واستبداد ، فتجمعت ، وفقاً لنزعاتها الدينية والعرقية والصناعية خاصة ، وأصبح كل فرد ينتمي إلى عصابة أو نقابة يتكاتف أعضاؤها للدفاع - وبالقوة إذا اقتضى الأمر - عن حرفتهم وعن أموالهم وأرواحهم أيضاً .

وكان من مؤدّى ذلك أن الأسواق ، التي يعمل فيها هؤلاء تجارة أو صناعة ، أصبحت تغلق أبواباً وقد اختص كل سوق بحرفة أو مهنة . . . بل إن المدينة ظهرت

- منذ ذلك الحين - مجموعة من (الحارات) ، يستقل كل منها بحياته الخاصة ، فكأنها « مدينة » مصغرة ، بمسجدها وحمامها وسويتها ، وبشيخها المسؤول عنها وشرطتها المؤلفة من (العسس) وحصونها (أي أبوابها) (وجيشها) المكون من الأحداث وهم (جنود الحرف)! ولم يعد ، في هذه الحارات ، من شوارع أو طرق واسعة ، بل هي (الدروب) - التي تغلق أبوابها مع غروب الشمس - تتفرع عنها (أزقة) ضيقة و(دخلات) مسدودة تفضي إلى المساكن والبيوت . ونفتش عبثاً عن أثر عمراني ذي قيمة فنية يعود إلى تلك الحقبة المظلمة من تاريخ دمشق . إلا أن الفاطميين - الذين ظلوا يتوجسون خيفة من أن يهاجمهم خصومهم العباسيون في بغداد - أعادوا بناء السور الذي كان العباسيون قد هدموه في أول عهدهم ، فبناه الفاطميون ، ولكن على نحو لم يطابق السور الروماني في كثير من المواضع . إلا أنه قامت في دمشق بعض الضواحي ، مثل (العقبية) شمالي بردى و(الشاغور) في الجنوب و(قصر الحجاج) في الجنوب الغربي (دعيت هذه الضاحية كذلك نسبة إلى قصر الحجاج بن عبد الملك أحد أمراء بني أمية) .

السلاجقة وأتابكتهم

٤٦٨-٥٧٠هـ / ١٠٧٥-١١٧٤م

وبدا أنه قُدر لتلك الحقبة المظلمة أن تنجاب أخيراً على أيدي السلاجقة أمراء الجيش من الأتراك ، أولئك الذين خضعت لهم الخلافة العباسية ببغداد في القرن الخامس الهجري ، حتى لقد كان منهم السلطان الذي يشارك الخليفة في الحكم ، ومنهم القواد والجند . واحد من هؤلاء الأمراء ، هو (أتسرن) التركي ، استطاع أن ينتزع دمشق في أيدي الفاطميين ، وأخذ السلاجقة يحكمونها منذ عام (٤٦٩هـ - ١٠٧٦م) إما بأنفسهم أو بواسطة كبير أمراء جيشهم الذي يطلقون عليه بالتركية لقب (أتابك) .

وتعلو ، في هذه الفترة ، مكانة « دولة دمشق » وتشمل حوران وطبرية جنوباً ،

وتمتد شرقاً إلى الرحبة (بلدة « الميادين » السورية اليوم) ، وتقف شمالاً عند حمص ويصبح المذهب السني ، في ظل السلاجقة ، هو المذهب الرسمي في الدولة ويكون على الحكام الجدد ، وهم سنيون ، أن يعملوا جاهدين على نشر دعوة فعالة ضد البدع الطائفية في الدين ، وأن يكبحوا خطر من سموا « الحشاشين » الذي ظهروا كتنظيم سري شعوبي على درجة من القوة .

دمشق في عهد السلاجقة الأتابكة :

عادت السيادة على دمشق إلى خلافة بغداد العباسية ، على أيدي قادة من الأتراك عرفوا باسم السلاجقة ، كان الحكم الفعلي بأيديهم . وكان الأتابكة يعلنون ولاءً اسمياً لخلفاء بغداد ، بينما يحكمون دمشق حكماً مستقلاً من الناحية الفعلية .

تحمل أتابكة دمشق مسؤولية الدفاع ضد الغزاة الصليبيين الذين كانوا قد نجحوا باحتلال الساحل الشامي ومعظم مناطق فلسطين ، وكانت علاقات أتابكة دمشق مع الصليبيين بين حالة حرب وحالة هدنة ، وقد وصلت أعمال القتل والتخريب والدمار على أيدي الصليبيين إلى جوار دمشق وضواحيها في بعض الفترات ، ونجحت دمشق بالصمود ضد هؤلاء الغزاة ، ونجت من الوقوع بأيديهم على الرغم من محاولاتهم التي وصلوا في أولها إلى مسافة بضعة كيلومترات إلى جنوب دمشق .

وتكررت محاولة الصليبيين ، في حملتهم الثانية ، فتعرضت دمشق لحصارهم سنة (٥٤٣هـ - ١١٤٩ م) حيث شارك في حصارها ملك الألمان (كونراد الثالث) وملك فرنسا (فرانسوا السابع) ، وعسكرت قواتهم في منطقة داريا وقرب منطقة المزة ، وعندها هددهم حاكم دمشق (معين الدين أنر) بتسليم المدينة إلى نور الدين بن عماد الدين الذي كان اسمه يخيفهم ، كما كان اسم أبيه من قبل .

الصليبيّون والأيوبيّون

ولكن أهم ما قام به السلاجقة والأتابكة ، هو صدهم زحوف الصليبيّين الذين وصلت جحافلهم إلى المشرق العربي عام (٤٩١هـ - ١٠٩٧م) فاحتلوا (أنطاكية وبيت المقدس) ، ثم لم تمض سوى أعوام حتى كانوا قد استولوا على سواحل الشام ، وظلت المدن الداخلية الكبرى ناجيةً منهم ، مثل (حلب وحماة وحمص ودمشق) .

على أن دمشق ما لبثت أن وجدت نفسها محاصرة من جموع الصليبيّين يقودهم عدد من ملوكهم أنفسهم . فتطلع الدماشقة إلى قائد همام يتولى أمرهم لدفع خطر الوقوع بين أيدي الفرنجة . وكان في تلك الفترة ، على رأس كل من حلب والموصل ، أخوان من ملوك السلاجقة شديدا البأس ، هما : (نور الدين) ملك حلب و (سيف الدين) ملك الموصل ، (أبناء عماد الدين زنكي) ، فرأوا في مَلِكِ حلب الزعيم الذي تهفوا إليه نفوسهم ، لما يتحلّى به من صفات البطولة والعدل وحسن السيرة والإخلاص للدين والوطن ، فكتبوا إليه ليضم دمشق إلى دولته القوية .

وهكذا دخل الملك (العادل نور الدين زنكي) دمشق عام (٥٤٩هـ - ١١٥٤م) ، فكان ذلك إيذاناً ببدء عهد جديد ، ذلك أن هذا الملك ما كان له أن يقنع بغير توحيد (طرفي الكماشة) الشام ومصر ، كي يتاح له أن يطبق بها على الفرنجة الذين استفحل خطرهم في أرض فلسطين ، فتم دخول مصر ، والإجهاز على الخلافة الفاطمية وهي في رمقها الأخير ، وتولى أمر مصر أحد أمراء الدولة الشبان « صلاح الدين بن أيوب » .

ولد صلاح الدين الأيوبي عام (٥٣٢هـ - ١١٣٨م) في مدينة (تكريت) على نهر دجلة ، من أبوين كرديي الأصل . وحين سار إلى مصر بصحبة عمه (شيركوه) - القائد اللامع الذي كان يعمل في خدمة نور الدين - كانت تشغله أمنيّات منها : مواصلة الجهاد ضد الفرنجة .

وبدأت أمنيته تتحقق حين قاد حملاته على الفرنجة في فلسطين ، عام (٥٨٣هـ - ١١٨٧م) ، حيث احتل (طبرية) ، ثم انتصر في معركة (حطين) انتصاراً أفضى إلى أن تستسلم له بيت المقدس التي تمزقت حاميتها في حطين .

ولم يُعَمَّرْ صلاح الدين بعد هذا الانتصار طويلاً ، بل توفي في دمشق عام (٥٨٩هـ - ١١٩٣م) ، ويربض ضريحه اليوم في طرف الجامع الأموي .

وإذا كان التاريخ العربي ما يزال يذكر بالإكبار شجاعة صلاح الدين وقدرته على توحيد الصفوف والتعبئة والجهاد ، فإنه ، وهو الذي عفا عن الألوف من أسرى الفرنجة يوم استرداده بيت المقدس بسماحة مشهودة ، يحظى أيضاً باحترام الغربيين أنفسهم ، ففي أوربة أطنب في ذكره المنشدون في العصور الوسطى ، وحاكاهم في ذلك الروائيون المعاصرون ، وهو لا يزال يعتبر حتى اليوم مثال الفروسية الكاملة ، كما يقول (فيليب حتي) في كتابه (العرب) .

انسحبت القوات الصليبية ، وخرجت دمشق من محنتها رافعة الرأس عزيزة الجانب . وازداد تطلع أبناء دمشق إلى بطل تلك الفترة الذي انتشرت أخبار حسن سيرته وعدله وبطولاته وإخلاصه ، إنه (نور الدين محمود زنكي) الذي دخل دمشق عام (٥٤٩هـ - ١١٥٤م) مصمماً على توحيد المشرق العربي لطرد الغزاة الصليبيين من الوطن العربي .

ونجح البطل نور الدين بمدِّ نفوذه إلى مصر ، بواسطة أحد قادته أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبي ، في إنقاذ مصر من الخطر الصليبي الذي كان يتهدها ، وانتهت محاولة نور الدين بقتل الوزير الخائن (شاور) المتعاون مع الصليبيين على يد قائده أسد الدين ، وذلك عام (٥٦٤هـ - ١١٦٨م) ثم أعقب ذلك وفاة الخليفة الفاطمي العاضد سنة (٥٦٧هـ) ، فانتهت بموته فترة الحكم الفاطمي ، وغدت مصر والشام دولة واحدة ، وارتفعت مكانة دمشق التي غدت المركز الأول للنشاط السياسي والعسكري في المشرق العربي .

الأيوبيون ، عصر ذهبي آخر ٥٧٠-٦٥٨ هـ ، ١١٧٤-١٢٥٩ م

لقد قُبِضَ لدمشق أن تتألق ، في عهد السلاجقة والأتابكة ، حتى أنه عاد إليها عصرها الذهبي الأموي الغابر ، وجعلها ، هؤلاء الحكام ، موقعاً حريياً فضلاً عن جعلهم إياها مركزاً ثقافياً دينياً .

أول أمراء السلاجقة ، (أتسز) قام ببناء القلعة على الزاوية الشمالية الغربية من السور الروماني ، لتكون داراً للإمارة ، وقد ظلت دمشق مفتقرة إلى مثلها منذ زوال (قصر الخضراء الأموي) . وأمست القلعة الملاذ الأخير للمحاصرين - عند الاقتضاء - مثلما هي مقر للسلطان : منزله ودوائره الرسمية كلها ، وهكذا فقد كان فيها سوق خاصة وحمامات ولها مسجدها الجامع . ولم يكن يخرج السلطان للصلاة في الجامع الأموي إلا في العيدين .

وفي هذا العهد قويت النزعة إلى البناء والتعمير ، على الرغم من من انشغال الدولة الأيوبية بالحروب الصليبية ، وما ذلك إلا لتوافر أسباب الأمن والاستقرار ولحماسة أمراء البيت الأيوبي للعمل والدين . فكم من مدرسة بُنيت حتى لقد غدا في دمشق ، في منتصف القرن الثالث عشر ، نحو مئة مدرسة ، تنافس في بنائها أبناء الأسر الحاكمة ، ونزل إلى مضمار التنافس القواد ووجهاء المدينة أيضاً . وبعض هذه المدارس لم يكن يكتفي بالتعليم المجاني ، بل كان يخص كل طالب بمبلغ يكفل له معاشه وهو في فترة الدراسة والتحصيل .

ولعل من أشهر ما بقي لنا من مباني ذلك العهد « البيمارستان النوري » الذي حُوِّلَ أخيراً (١٩٧٩ م) إلى (متحف العلوم والطب) ، وقد كان في زمانه من أشهر المستشفيات التي عُرِفَتْ في القرون الوسطى ، والتي اقتبس منها الفرنجة ، في أثناء الحروب الصليبية ، فكرة إنشاء دور للمعالجة ، مما يحمل على افتراض « أن طريقة التداوي المنظم استمدت حافزها من الشرق الإسلامي » كما يقول أحد الباحثين المعاصرين .

في هذا العصر الذهبي ، اتسعت ضواحي دمشق ، وظهرت مجموعتان كبيرتان من المباني ، أقيمت أولهما غربي المدينة (في المكان الذي يعرف اليوم بـ « شارع النصر » حتى « البرامكة » ، وسميت « الشرف القبلي » وأقيمت المجموعة الأخرى في سفح قاسيون حتى تألفت منها ضاحية سُميت « الصالحية » نسبة إلى (مسجد أبي صالح) الذي نزل فيه ذلك اللاجئين الفلسطينيين الهارب بدينه من الصليبيين ، فابتنى هو وأسرته هذا المسجد حياً جديداً صغيراً على ضفاف قناة يزيد . وفي جانب آخر من سفح قاسيون ، نشأ حي آخر هو (حي الأكراد) المسمى اليوم « ركن الدين » ، وقد نزل فيه الأكراد ، الذين توافدوا بكثرة في عهد الأيوبيين لخوض معركة الشرف ضد الفرنجة ، وتخبروا موضعاً إلى الشرق من الصالحية ليس بذی زرع لأنهم لم يكونوا ملاكاً ولا مزارعين ، بل مجاهدين .

دمشق في العهد الأيوبي :

وبوفاة نور الدين في دمشق انتقل الحكم بعده إلى قائده في مصر صلاح الدين ، وذلك لصغر سن ابنه ، وخطورة الظروف المحيطة ببلاد الشام ومصر ، من وجود الصليبيين وتدفق قواتهم من أوربة . وهذا ما دفع بالعقلاء من أبناء دمشق لاستدعاء صلاح الدين من مصر ، وبايعوه سلطاناً على بلاد الشام . ويأتي السلطان صلاح الدين إلى دمشق ليجعل منها عاصمة ثانية لسلطته ، متنقلاً بينها وبين القاهرة . لكنه ما لبث أن فضل الاستقرار في دمشق لقربها من ميادين عملياته العسكرية ، وبخاصة لقربها من فلسطين التي كان يخطط لتحريرها من الغزاة الصليبيين . وحقق صلاح الدين ما أراد ، فهزم الصليبيين في حطين ، وحرر منهم بيت المقدس ، فكانت هذه الانتصارات ثمرة توحيد بلاد الشام ومصر . وتوفي صلاح الدين في دمشق ، ودفن قرب الجامع الأموي ، وضريحه اليوم أثر من آثار دمشق ومعلم من معالمها التاريخية . وكانت وفاته عام (٥٨٩هـ - ١١٩٣ م) ، وبوفاته ضعفت الدولة الأيوبية ، على الرغم من محاولات أخيه الملك العادل حماية الدولة من التجزئة على أيدي أبناء صلاح الدين .

واستمر الخلاف بين أبناء الملك العادل ، بعد وفاته ، لتصاب دمشق نتيجة ذلك ، بالبلاء والدماء والحصار والحريق ، وينتهي العهد الأيوبي بما يشبه الانقلاب العسكري الذي قام به قادة الجيش في قصورهم من المماليك ، فقتلوا آخر حكام الدولة الأيوبيين في الشام ، واستلموا الحكم منهم ، ليرافق هذا ، مع وصول حملة المغول التي قادها هولاكو عام (٦٥٨هـ - ١٢٥٩ م) ، فسقطت دمشق بأيديهم ، بعد أن سبقتهم أخبار تدميرهم لبغداد ، ومذابحهم في حلب . وصمدت قلعة دمشق شهراً لحصار المغول ، ثم سقطت كغيرها . ومن حسن حظ دمشق وبلاد الشام أن هذه الحملة المغولية هزمت هزيمة نكراء في معركة عين جالوت على أيدي حكام مصر الجدد من قادة المماليك ، وعلى رأسهم السلطان المظفر (قطز) .

(المماليك)

انتهى العهد الأيوبي ، الذي غدا في أواخره ضعيفاً ، في مصر بانقلاب عسكري قام به أمراء الجيش من المماليك الأتراك ، وانتهى بعد عشر سنوات في دمشق على يد (المغول) بقيادة « هولاكو » عام (٦٥٨هـ - ١٢٦٠ م) . ثم نشاء الأقدار أن يكون للمماليك فضل القضاء على المغول في معركة (عين جالوت) بقيادة سلطان مصر المملوكي « المظفر قطز » ، فتحررت دمشق وسائر بلاد الشام من المغول ، وأصبحت دمشق ولاية تابعة لسلطان المماليك بالقاهرة .

رحبت دمشق بالوحدة مع مصر ، التي كان أول مآتيها الخيرة دحر الغزاة من المغول ، وإن ظلت معرضة لغزوات منهم ومن آخرين هم (حكام كيليكيا) من المغول والأرمن . فكان سلاطين المماليك يقدمون من القاهرة للدفاع عن دمشق في مواجهة هؤلاء الغزاة ولتحرير البلاد من جيوب الصليبين المتبقية .

وليس لأحد أن ينكر إنجازات المماليك في هذا المضمار ، لاسيما في عهد سلاطين عظام من أمثال : « الظاهر بيبرس » وعدد من أفراد (أسرة قلاوون) ، حيث نَعِمَتْ دمشق في ظلهم بفترة من الأمن والاستقرار ، وازدهرت النهضة - التي كانت قد أقيمت بذورها أيام نور الدين وصلاح الدين - فتقدمت العلوم والفنون

والصناعات ، ونشطت التجارة حتى أصبح للمنتجات الشامية شهرة عالمية (كالحرائر الدمشقية) ، والنحاس المطعم بالفضة ، وآنية الزجاج الدمشقية المزخرفة بالمينا) تلك التي ورد ذكرها ، فيما بعد ، في لوائح أثاث ملوك فرنسا ، والتي تعدها بعض الكاتدرائيات الغربية من نفائس كنوزها .

وفي الواقع إن ما يؤخذ على عهد المماليك من الفساد واضطراب الأحوال ، لا يشمل إلا القرن الأخير من حكمهم الذي امتد أكثر من قرنين ونصف القرن ، وذلك بعد أن وثبت إلى السلطة فئة أخرى من المماليك (ممن يسمون « المماليك البرجية » أو (الجراكسه) وتسمى الفئة الأولى « المماليك البحرية أو الأتراك » فتولى الأخيرون الحكم منذ عام (٧٨٤هـ - ١٣٨٢م) ، وفي عهدهم احتل (تيمورلنك) دمشق عام (٨٠٣هـ - ١٤٠٠م) فنهب خيراتها وأموالها ، وسبى نساءها ، وقتل أكثر رجالها بعد أن أذاقهم صنوف العذاب ، ثم أضرم فيها النار ، فظلت تأكلها ثلاثة أيام ، حتى أصبحت مجرد خرائب وأطلال ، ولم يبق من الجامع الأموي العظيم إلا جدرانه . ومع ذلك استطاع حكام القاهرة استرداد دمشق ، وأزالوا آثار الكارثة . ثم إنه لم يمض إلا ربع قرن ، حتى كانت دمشق قد عادت سيرتها الأولى ، ولكن الوهن كان قد دب إلى النظام المملوكي .

دمشق في عهد المماليك :

ابتدأ هذا العهد عام (٦٥٨هـ - ١٢٥٩م) ، وفيه ، عادت الوحدة تجمع مصر والشام . ولم يكن انسحاب المغول من دمشق بعد هزيمتهم في عين جالوت آخر وجود لهم يهدد بلاد الشام ، بل استمرت غاراتهم عليها ، وكان آخرها وأشدّها سوءاً على دمشق حملة (تيمورلنك عام ٨٠٣هـ - ١٤٠٠م) ، فقد نال دمشق وسكانها من هؤلاء المغول الدمار والهلاك . وعلى الرغم من ذلك فقد استعادت بسرعة ، بعد انسحابهم ، نشاطها ولقيت عناية كبيرة من سلاطين المماليك الذين اقتضت ظروف قتالهم لبقايا الصليبيين ، إقامتهم في عاصمتهم الثانية دمشق ، فكانت ولاية دمشق من أكبر وأهم ولايات السلطنة المملوكية ، وعرفت باسم (نيابة الشام) ، وكانت

تمتد حدودها إلى الفرات والرستن شرقاً وشمالاً ، وإلى البحر المتوسط غرباً ، وإلى غزة والكرك جنوباً ، وكان يكلف والي دمشق بالإشراف على بقية الولايات وهي : حلب وحماه وطرابلس وصفد والكرك ، ولهذا كان والي دمشق يحمل لقب نائب السلطنة أو نائب الشام .

وقامت على أيدي حكام دمشق من المماليك أعمال عمرانية وجرت إصلاحات واسعة ، منها عدد كبير من المساجد والمدارس ، ونعمت دمشق في عهد بعضهم مثل (الظاهر بيبرس) وأسرة قلاوون والأمير (تنكز) ، بكثير من الاستقرار ، فازدهرت الحركة العلمية والمدارس والفنون والعمران ، كما نشطت الصناعة والتجارة . وتنتهي هذه الفترة من النهضة والنشاط بالكارثة التي حلت في دمشق بغارة تيمورلنك عليها ، وما رافق ذلك من تدمير ونهب وقتل وسبي وإحراق ، فقد عمها الخراب وأكلتها النيران ، فكانت جريمة حملة تيمورلنك لا تعرف الحدود في تدمير أجمل مدن الشرق وأعظمها شهرة وعراقة وحضارة .

دمشق المملوكية :

تزايد سكان دمشق ، في العهد المملوكي (٦٥٨ - ٩٩٢ هـ / ١٢٥٩ - ١٥١٦ م) تزايداً ملحوظاً في ظل الأمن والازدهار الاقتصادي ، واتسعت المدينة اتساعاً منقطع النظير . وظهرت في المدينة ضاحيتان جديدتان : أولاهما « السويقة » في الجنوب الغربي من دمشق على الطريق الذاهبة نحو صور وعكا ومصر ، ونشأت الأخرى في الشمال على طريق الصالحية وبيروت ، قريبة من الجبل ، وسميت « سويقة صاروجا » (نسبة إلى الأمير صارم الدين صاروجا) ، وسكن غالباً الضباط والجنود قربها من القلعة .

وفي بداية هذا العهد ، شَيد السلطان الظاهر بيبرس قصره « الأبلق » في جانب من الميدان الأخضر على ضفة بردى (حيث « التكية السليمانية » اليوم) ، فكان أن عُمرَ (السهل) مما يلي هذا الموضع من الضفة باتجاه المدينة والذي كان يسمى وما يزال « المرجة » .

وأما ضاحية الصالحية ، التي كانت قد ظهرت في العهد الأيوبي كما سبق بيانه ، فقد أُمست في العهد المملوكي (مدينة) قائمة بذاتها في سفح قاسيون يحكمها وال يتبع نائب السلطان الذي يحكم بلاد الشام من مقره في القلعة .

ولقد تألقت دمشق نظافة ، حتى استلقت أنظار الرّحالة . فقد كانت فيها شبكة مجار للمياه المالحة في أفنية عميقة ، ومن فوقها أفنية للمياه العذبة . وكانت مياه البرك والبحيرات تفيض في شبكة المجاري ، وتسوق ما فيها إلى ظاهر المدينة لسقاية البساتين . ولاحظ « ابن بطوطة » تنظيم شوارعها وأزقتها فقال : « وكان لكل زقاق رصيفان في جنبه ، يمر عليهما المترجلون ، ويمر الرّكبان بين ذلك .



المستشفى الوطني سابقاً

أخذت دمشق تستعيد جمالها بال عمران والنشاط الصناعي والتجاري ، لكن ضعف عهد المماليك ، وسوء سلاطين المرحلة الأخيرة من هذا العهد ، أدى إلى فساد وتخلف وفقر ومجاعات وأوبئة وقاتل بين الفئات المتصارعة حول السلطة والحكم ، إلى أن انتهى عهد المماليك على يد الدولة العثمانية .

العهد العثماني

انتهى المماليك في سورية عام (٩٢٢هـ/١٥١٦م) ، على يدي السلطان (سليم العثماني) في معركة (مرج دابق) شمالي حلب ، والحق ، أن الناس وجدوا في تغيير وجه الحاكم متنفساً . وكان مما يدعوهم إلى الترحيب بالحاكم الجديد أنه يحكم دولة فتية عصرية عمادها الإسلام المقرون بالقوة والمنعة ، وأن هذه الدولة وطدت سلطتها ليس في ترقية وحسب ، بل فرضت هيبتها على العالم الغربي بعد أن تم لها فتح (القسطنطينية) ، تلك التي استعصت على العرب حتى وهم في عز قوتهم الأموية . . هذا كما أن قيام دولة إسلامية تتمتع بهذا القدر كله من القوة والمهابة قد أعاد الثقة إلى نفوس المسلمين ، وبخاصة بعد أن أخذ نصارى إسبانيا يُكيّلون لعرب الأندلس الضربات الأخيرة القاضية :

ولئن كانت دمشق ، وبلاد الشام ، قد أمنتَ كلها ، في ظل العثمانيين ، خطر العدوان الخارجي (التتار والمغول ، ومن قبلهم الصليبيين) فقد عانت كثيراً من المتاعب على أيدي بعض المتأخرين من الولاة الذين اهتموا بجباية الضرائب ، وملء خزائنهم أكثر من اهتمامهم بالبناء والإصلاح والتأسي بالقدوة الحسنة .

ومهما يكن من أمر ، فقد تابعت التجارة ازدهارها ، الذي كانت قد حققتة في القرون السابقة ، وزادت عليه زيادة تتناسب وكيان الإمبراطورية العثمانية المترامية الأطراف ، كما يقول الباحث الدكتور (صفوح خير) في سفره القيم (مدينة دمشق دراسة في جغرافية المدن) : حتى أصبح ممكناً لكل فرد من رعية السلطان ، أن يسافر من الدانوب إلى المحيط الهندي ، ومن بلاد العجم إلى المغرب ، دون أن يخرج عن الشرائع نفسها ، ولا عن النظام الإداري الذي اعتاده ، بل دون أن يضطر إلى استعمال لغة جديدة ، ولا يحتاج إلى الأخذ بقطع من النقود غير التي عرفها في بلاده) .

وبالاختصار : أمست دمشق ، كما قال باحث فرنسي هو « دارفيو » الذي زارها

عام (١٦٦٠م) من أكثر المدن تجارة في الدولة العثمانية ، ففيها مصانع أقمشة المخمل المختلفة الأنواع والبروكار ، والأقمشة القطنية ، والحرير . . .) وكانت (ولاية دمشق) تتسع ، في ظل العثمانيين ، حتى لتشمل (تدمر وبيروت وصيدا والقدس وغزة) . . . ثم إنها أصبحت مركز (ولاية سورية) عام ١٨٦٤م .

ومع ضعف السلطة ، في القرن الرابع والأخير من حكم العثمانيين تمكنت جيوش حاكم مصر (محمد علي) من اجتياح بلاد الشام كلها وحكمها تسعة أعوام (١٨٣١ - ١٨٤٠م) .

دمشق في العهد العثماني :

طويت صفحة المماليك في بلاد الشام ، بانتصار السلطان العثماني سليم في معركة مرج دابق عام (٩٩٢هـ - ١٥١٦ م) ، لتبدأ دمشق صفحة جديدة من تاريخها ، أصبحت فيها جزءاً من دولة تركية تختلف عنها بلغتها وثقافتها وعاداتها . وكان قبول أبنائها بالحكم الجديد يعود إلى ما أصابهم من ظلم ، وما رأوه من فساد وسوء أوضاع في آخر عهد المماليك ، فبنوا آمالاً على سلاطين الدولة الجديدة ، مع ما يلزم ذلك من رابطة دينية بينهم وبين الأتراك .

وقد تأثرت دمشق كغيرها من المدن العربية ، بالحكم العثماني ، فضعفت اللغة العربية بعد أن أصبحت اللغة التركية هي اللغة الرسمية للدولة ، وإن كانت دمشق قد شعرت بالاستقرار والاطمئنان ، وهي في ظل دولة قوية تحميها من خطر الغزاة الأجانب - كالصليبيين والمغول - إلا أنها ذقت ويلات كثيرة من عسف الولاة وظلمهم ، ومن جباة الضرائب ، وجند الدولة وقادتهم .

بقيت دمشق على صلة بالعالم الخارجي عن طريق التجارة التي كانت تزدهر لشهرتها ببعض الصناعات كصناعة النسيج الحريري (والبروكار والدامسكو) ، وحفر المعادن والخشب وصناعة ترصيع الخشب بالصدف وصنع الموازيك . وكانت في دمشق جاليات من التجار الفرنسيين والإيطاليين القادمين من البندقية ، كما كانت دمشق محطة أو سوقاً تجارية تلتقي فيها بضائع الشرق والغرب ، ويقصدها

البدو من الجزيرة ، كما يقصدها التجار والسواح الأجانب ، كما كانت محطة رئيسية في مواسم الحج حيث يلتقي فيها الحجاج من أنحاء الدولة العثمانية ، فتنشط أسواقها التجارية ؛ لإقبال آلاف الحجاج على التزود من مصنوعات ومما تستورده من مصنوعات العالم ومنتجاته .

دمشق العثمانية :

خلف العثمانيون مجموعات معمارية عرفوا بها في دمشق ، منها (التكية السليمانية) التي أنشأها السلطان (سليمان القانوني) ، على ضفة بردى ، حيث القصر (الأبلق) ، الذي بناه السلطان بيبرس ، وعديد من الجوامع الشهيرة .

والواقع إنه ليطول بنا الحديث عن الأوابد التي تم بناؤها ، داخل أسوار دمشق وخارجها ، على مدى أربعة قرون من حكم العثمانيين ، وقد نشطت حركة العمران في القرن الأول منه نشاطاً ملحوظاً ثم خمدت ، وعادت لتنشط من جديد في القرن الثامن عشر على يد ولاية عرب من (آل العظم) حكموا دمشق ، وأهم ما بقي لنا من هذه الأسرة ما يسمى اليوم (قصر العظم) الذي أصبح متحفاً للتقاليد الشعبية .

وفي القرن التاسع عشر ، نزح كثير من الأكراد ، من العراق وتركيا خاصة ، إلى دمشق بحكم وظائفهم لدى الدولة ، كما توارد إليها مهاجرون مسلمون من جزيرة « كريت » ومن شمال اليونان (الروملي) ومن ألبانيا (التي أطلق على الأسر المهاجرة منها إلى بلاد الشام اسم (الأرناؤوط) ، ونزلوا جميعاً في سفح قاسيون في البقعة التي حملت - وما تزال - اسم (حي المهاجرين) فامتد العمران صعوداً باتجاه الجبل .

وفي هذا القرن أيضاً أنشئ (سوق الحميدية) الذي ذاع صيته (وبُنيَت) الثكنة الحميدية (وذلك نسبة إلى السلطان عبد الحميد) التي أصبحت فيما بعد نواة للجامعة السورية ، وما تزال فيها (كلية الحقوق) وبعض كليات جامعة دمشق حالياً . . وبني ناظم باشا والي دمشق قصراً له في المهاجرين (هو ما يسمى اليوم بالقصر الجمهوري العتيق) .

وأما أسوار دمشق ، التي فقدت قيمتها كلياً ، فقد تطامنت أمام « غزو » منازل السكن لها ، التي راحت تكتسحها شيئاً فشيئاً ، فيستحيل جزء من السور إلى منزل أو ما شابه ، هذا إذا لم يشأ الباني أن يركب بمنزله ظهر السور أو أطلاله الباقية .

وما خلا عصر المماليك والعثمانيين بعدهم من آثار جميلة ومنها جامع تنكز سنة (٧٤٠هـ) وهو الآن مدرسة دينية ، وكان تنكز ويلبغا وبرزبائي وكافل سيباي وجقماق مولعين بإقامة المصانع التي ازدانت بها دمشق ، فإنّ يلبغا أنشأ جامعاً عظيماً سنة (٨٤٧هـ) ، وأقام برزبائي سنة (٨٥٢هـ) جامعته المعروف بجامع الورد ، وأقام كافل سيباي جامعته الذي سماه العلماء (جمع الجوامع) لأن صاحبه لم يترك مسجداً ولا مدفناً معموراً إلا وأخذ منه الأحجار والرخام والأعمدة ، وهو في باب الجابية ، جعل مدرسة ابتدائية منذ أواخر القرن الماضي . ومن مشهور جوامعهم جامع التوبة في العقية ، وجامع منجك في الميدان ومدرسة الجقمقية ، أمام المدرسة السُميساطية على الباب الشمالي من الجامع الأموي والمدرسة الصابونية أمام تربة باب الصغير . ومن مدارس العثمانيين جامع السنانية من إنشاء سنان باشا ، وجامع الدرويشية من عمّاره درويش باشا ، وجامع مراد باشا في السويقة ، ومدرسة إسماعيل باشا العظم ، ومدرسة عبد الله باشا العظم ، وأهم مصانعهم التكية السليمانية والتكية السليمية وجامع ابن عربي . وفي المعاهد الثلاثة الأخيرة نموذجات مهمة من القاشاني . وللتكية السليمانية نسبة لسليمان القانوني روعة عظيمة ولها مئذنتان جميلتان . وقيل إن هذه المدرسة العظيمة من بناء المعمار سنان التركي المشهور ودفن فيها مؤخراً بعض ملوك بني عثمان ، شغلت الجامعة السورية قسماً منها وبقي القسم الأكبر جامعاً . ومن المآذن العظيمة المئذنة الغربية بالجامع الأموي ، عمرها سلوان بن علي المعمار في عهد المماليك ، ومئذنة جامع كافل سيباي ومئذنة جامع المعلق سنة (١٠٥٨هـ) ، وهذا الجامع من أجمل بناء في دمشق . وأجمل منابر دمشق منبر جامع مراد باشا ومحرابه ، ومحراب جامع التوبة ، ومنبر جامع الشيخ عبد الغني النابلسي وسقفه وشعريته في السفح .

كل هذا من عمل الأفراد ، ومنه ما عمل رجاء الثواب وحب الخير ، ومنه ما أريد به الظهور وحماية أموال الباني بوقفها على ما بنى . وكان عمران المدينة أيام العثمانيين كثيراً ، وتقدس الناس في رقعة ضيقة يجعلون الأزقة ملتوية ليختبئوا وراءها وتكون لهم متاريس ساعة يدور القتال في الشوارع والحارات .

قبل الفتح العظيم ، عرفها العرب باسم « دمشق » وكان سكانها - الآراميون ، قد أطلقوا عليها : « دار ميسق » لفظتان تعنيان : الدار المسقية ، أو الأرض المسقية . وحوّر اليونان والرومان ، الذين احتلوها في حين من الدهر ، اسمها إلى « داماسكس » .

وفي الاكتشاف الذي تم في سورية عام ١٩٧٥م في موقع (تل مردوخ) قرب حلب ، أتيت به معرفة المزيد والمدهش من المعلومات عن « مملكة إيبلا » - تلك التي يعود تاريخها إلى ما قبل ألفي عام قبل الميلاد - ورد في الرقم المكتشفة ذكر دمشق على هذا النحو « ديما شكي » .

فالاسم ، على مرّ التاريخ ، لم يتغير ، كما ترون ، ولن يتغير ، مع أن أهل سورية جروا على أن يطلقوا على دمشق ، في حياتهم اليومية : « الشام » التسمية ذاتها التي عرّف بها العرب البلاد كلها ، والمتممي إلى دمشق هو (شامي) والجمع شوام وذلك من باب إطلاق الكل على الجزء .

لكن دمشق ، على الرغم من ذلك ، كانت تتعرض للأخطار ، خلال العصر العثماني ، جراء نزاع الفرق العسكرية ، حين كان يحدث ما يشبه الحروب الداخلية والفتن بين طوائف الجند والعصبيات المسلحة ، أو خلال تمرد أحد الولاة ، أو أحد المتنفذين ، كحركة تمرد (جان بردي الغزالي) أول ولاية دمشق في العهد العثماني ، وكانت دمشق تقع فريسة للسلب والنهب في مثل هذه الحالات .

ومن أهم أحداث دمشق خلال القرن التاسع عشر ، فتح محمد علي باشا والي مصر ، بلاد الشام على يد ابنه إبراهيم باشا ، وامتدت فترة هذا الحكم من (١٨٣١م - ١٨٤٠م) ، وكانت دمشق مركزاً أو عاصمة لبلاد الشام خلال الحكم المصري

الذي عرف بالتفتح ، فنشطت فيها الحركة العلمية ، وفتحت المدارس وكثر قدوم الأجانب من تجار وسواح ، وفتحت في دمشق بعض القنصليات وكانت أولها القنصلية البريطانية .

وبعد ذلك ، لعبت الدول الأوروبية دوراً كبيراً في فصم عرا الوحدة بين مصر وبلاد الشام والجزيرة العربية ، فتم انسحاب إبراهيم باشا وقواته المصرية من بلاد الشام ، وعادت السيادة العثمانية على دمشق ، ولعبت أصابع تلك الدول الأوروبية دوراً في إحداث فتن طائفية في لبنان ، وكاد لهيبها أن يصل إلى دمشق ، لكن عقلاء هذه المدينة ، وأصحاب النفوذ فيها ومنهم الأمير (عبد القادر الجزائري) ، نجحوا بإطفاء هذه النار ، نار هذه الفتنة عام (١٨٦٠ م) . ومن حسن حظ دمشق أنها حظيت ببعض الولاة المصلحين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر من أمثال : الوالي ناظم باشا الذي تم في عهده جر مياه الشرب من عين الفيحة إلى مدينة دمشق ، ومنهم الوالي مدحت باشا ، وفي عهده جرت بعض الإصلاحات العمرانية في مدينة دمشق ، ولا يزال أحد أسواق دمشق المسقوفة يحمل اسمه وهو (سوق مدحت باشا) . وفي هذه السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر ، والسنوات الأولى من القرن العشرين ازداد الوعي وكثر فتح المدارس الوطنية والأجنبية ، وصدرت بعض الصحف ، وتألقت بعض الجمعيات ، فكانت بدايات يقظة عربية أخذت أجيالها تتطلع إلى حكم لا مركزي في بداية الأمر ، ثم تطور الأمل إلى استقلال كامل وانفصال عن حكم الدولة العثمانية ، بعد أن تسلم الحكم فيها جماعة الاتحاد والترقي الذين اتصفوا بالعصبية والعنصرية ، واتبعوا سياسة التتريك ، فزاد ذلك من قوة الوعي العربي والإصرار على جعل اللغة العربية لغة رسمية للولايات العربية ، وجعل الحكم حكماً لا مركزياً .

وجاءت الحرب العالمية الأولى عام (١٩١٤ م) لتكون منعطفاً كبيراً وحاسماً في تاريخ المنطقة ، وخلالها شهدت ساحة الشهداء في دمشق إعدام عدد من قادة الحركة العربية في (٦ أيار ١٩١٦ م) ، وصدرت من بعض قادة الجمعيات العربية

في دمشق ، وبخاصة جمعية العربية الفتاة ، وجمعية العهد ، مذكرة للتعاون مع دول
الحلفاء بوساطة شريف مكة الحسين بن علي ، لتحقيق الاستقلال للبلاد العربية ،
مقابل قيام العرب بثورة كبرى ضد الدولة العثمانية . وفي (١٠ حزيران ١٩١٦ م)
تفجرت هذه الثورة العربية ، وحرر جنودها بلاد الشام ، ودخلوا دمشق في مطلع
تشرين الأول ١٩١٨ م ، وارتفع العلم العربي - علم الثورة العربية الكبرى فوق مدينة
دمشق .



السرايا القديمة

* * *

صفحات من تاريخ دمشق

١- دمشق في القرن الرابع عشر :

نص من رحلات الرحالة الإنكليزي « جون موندفيل ١٣٢٢م - ١٣٥٦م » : من أراضي الجليل - يعود المسافرون أدراجهم إلى دمشق ، وهي مدينة حسنة وفخمة جداً ، ومليئة بكل أنواع البضائع . تبعد عن البحر ثلاثة أيام ، وعن القدس خمسة أيام . يحمل إليها التجار بضائعهم على الجمال والبغال والخيول والهجن والدواب الأخرى . وتصل إليها البضائع بحراً من الهند وإيران والعراق وأرمينية ، ومن ممالك أخرى عديدة .

يوجد بدمشق عدد كبير من ينابيع المياه ، وتنتشر فيها وحولها البساتين الجميلة المليئة بعموم أصناف الفاكهة ، إنها مدينة لا تقارن من حيث جمال حدائقها للاستجمام وهي مدينة كبيرة مليئة بالسكان ويدور بها سور قوي مزدوج ، وبها العديد من الأطباء .

٢- دمشق في القرن الخامس عشر :

نص من رحلات الرحالة البورغوندي « برتراندون دي لا بروكيير ١٤٣٢م - ١٤٣٣م » :

تعرفت في بيروت على تاجر بندقي يدعى جال برفيزين فنصحني بالسفر إلى دمشق ، مؤكداً لي أنني سأجد هناك تجاراً من البندقية وقطالونية وفلورنسه وجنوه ، وغيرها . . . وتستغرق الرحلة من بيروت إلى دمشق يومين ، والعادة المتبعة عند المسلمين تجاه الأجانب في جميع أنحاء الشام هي أنه لا يسمح لأجنبي بدخول الشام

راكباً ، فلا يجرو أجنبي على دخولها إلا ماشياً . وعلى هذا فقد قام المكارى بإنزالنا أنا والسيد سانسون قبل دخول المدينة . ولم نكد ندخلها حتى هرع إلينا اثنا عشر عربياً التفوا حولنا لمشاهدتنا ، وكنت ألبس قبة ذات إطار عريض لم يعتد أهل البلاد على رؤية مثلها ، فرفع أحدهم عصا كانت بيده وأطاح بها عن رأسي والحق أني هممت أن أضربه بجمع يدي لولا أن المكارى وقف بيننا ودفعني جانباً ، وجاء عمله هذا من حسن حظي ، إذ أن حوالي ثلاثين أو أربعين شخصاً أحاطوا بنا في الحال ، ولا أدري ما الذي كان سيحل بي لو أنني لطمته .

ويبلغ عدد سكان دمشق كما سمعت مئة ألف نسمة ، وهي مدينة غنية ومركز تجاري ، كما أنها ثاني مدينة في السلطنة بعد القاهرة . ويحف بها من الشمال والجنوب سهل واسع . وفي غربيها جبل قامت على سفوحه ضواحيها . ويشق المدينة نهر تتفرع منه مجار عدة ، وتحيط الأسوار بالمدينة دون الضواحي ، وذلك لكبر الضواحي واتساعها . ولم أر أوسع من بساينها ، ولا أفضل من فواكهها ، ولا أوفر من مياهها . ويقال إن مياهها متوفرة إلى درجة تسمح بوجود نافورة في كل بيت .

وسيوف دمشق خير السيوف وأفضل ما يضع في بلاد الشام ، ومن الطريف أن يرى الإنسان طريقة الصانع في صقلها ، ويقومون بهذه العملية قبل سقيها ، يستخدمون لهذا الغرض مقبضاً من الخشب مثبتاً به قطعة من الحديد يجرونها على شفرة النصل ، وبذلك يسوونه كما يسوي مشحج النجار سطح الخشب . ثم يسقون النصل ويلمعونه ، وهذا التلميع بلغ حداً من الإتقان بحيث أن المرء إذا أراد أن يصلح من شأن عمامته اتخذ من نصل سيفه مرآة . وأما سقي السيوف فعلى غاية من الإتقان ، ولم أر سيوفاً أمضى منها قط .

وتصنع في دمشق وما حولها من الديار مرايا من المعدن تكبر الأشياء كالزجاج العاكس للنور ، رأيت بعضها وقد عرضت للشمس فعكست من الحرارة ما كان كافياً لحرق لوح من الخشب على بعد (١٥-١٦) قدماً .

٣- دمشق في القرن السادس عشر :

« نص من مذكرات الرحالة الفرنسي (بيير بولون ١٥٤٦م - ١٥٤٩م) »

« تتميز دمشق بوفرة كبيرة في المياه ، تستمدّها من خريسورواس (نهر الذهب) الذي يتعرّش بالبساتين المخضوضرة من منبعه حتى مصبه ، أما فروعه في المدينة فهي ضيقة ومتعرجة ، وفي المدينة بازار (أي سوق) بديع للغاية وهو مغطى من أعلاه ، أما دور دمشق فتبدو بأجمل ما يكون ، وبنائها بديع ، ولكن ألطف ما فيها مداخلها المسقوفة التي تجلب لها التهوية والانتعاش . ولدمشق أسوار مزدوجة كما هو الحال في القسطنطينية (إستانبول) ، وليست خنادقها المملوءة بالماء ، على عمق كبير ، ومنها تسقى أشجار التوت التي يربى عليها دود القز لإنتاج الحرير ، وعلى كلا السورين ، أبراج كثيرة متقاربة ، إذ إنّ كل برج مصلع ضخّم يقوم بين اثنين آخرين أصغر منه ، وهما مستديران ، وأحدهما أكبر من الآخر . وهناك قلعة صغيرة مصلعة خارج نطاق الأسوار ، غير أنها تبدو كما لو كانت لحماية المدينة فقط ، وذلك لأن الضواحي أكبر من المدينة مرتين ، كما أن الأسواق توجد في هذه الضواحي ، أما المتاجر والبزستانات (أسواق الأقمشة) فهي داخل نطاق الأسوار . وأبواب المدينة مغطاة بصفائح من الحديد ، على عكس أبواب القاهرة المغطاة بالجلد ، وتبدو دكاكين الصناعات اليدوية كتلك التي في القاهرة . والبضائع في الشام عموماً ، وفي دمشق ، تباع مقابل وزنات نقدية تدعى الرطل ، وهو يعادل سبع ليرات كما في مصر تماماً . وفي المدينة دكاكين يصنع فيها الكاغد وهو الورق الدمشقي . . يحلجون القطن فيفصلون عنه البذور ، ولديهم لهذا الغرض صفحة من الحديد طولها قدم واحد وثخنها مقدار إصبعين يضغطون بها القطن فوق السندان ، فتخرج عندئذ البذور المكورة من أمام القطعة الحديدية » .

٤- دمشق في القرن السابع عشر :

نص من مذكرات الرحالة البرتغالي (سيباستيان مانريكا ١٦٢٩م - ١٦٤٣م) :
« بعد مضي سبعة وثلاثين يوماً على مغادرتنا بغداد ، حططنا الرحال في مدينة دمشق

العظيمة ، أو كما يسميها أهلها (الشام) ، عاصمة بلاد الشام قاطبة ، التي يطلق عليها بعض الكتاب ، نظراً لمكانتها الفاتكة ، اسم : (جنة الأرض) ، ولديهم من الأسباب الكثير لإطلاق هذه التسمية ، فبالإضافة إلى مناخها الصحي الرائع العائد إلى هوائها اللطيف النقي ، تنعم بوفرة عظيمة من المياه الرقراقة التي تجري في أنحاء المدينة قادمة من عدة ينابيع ، والمدينة مشيدة في وسط سهل فسيح على سفح جبل قاسيون ، وتبلغ مساحتها فرسخين ، ويحيط بالمدينة سور مزدوج متين . . . وما زال على السور المذكور بوابة يسميها الإخوة المسيحيون (بوابة بولس) وقريباً منها يحددون المكان الذي يقوم عليه منزل حنانيا التقي .

وهذه المدينة محمية أيضاً بقلعة تقوم في وسطها ، وهي مبنية بشكل مربع ، ومسور بجدران صلبة ومحاطة بخندق ، ولها مدخل واحد فقط في واجهتها الشرقية ، يعبر إليه على جسر يمكن رفعه إلى الأعلى عند الضرورة بواسطة سلاسل حديدية .

والمدينة مجملية بحدائق غناء مبهجة ، وكذلك بعدة مبان فخمة ، وأهم ما فيها مسجدها الكبير (أي المعبد الإسلامي) ، والتكية التي يستضاف فيها الحجاج ، وحمامات السوق ، وفيها ساحة فخمة للغاية مربعة الشكل ومحاطة بإيوانات جميلة ذات أقواس ، تمتلئ دائماً بمختلف الأطعمة ، وهذه المآكل تنمو بكميات وافرة في ضواحي هذه المدينة الغنية ، نظراً لخصوبة تربتها وللسقاية الوفرة التي تنالها من المياه العذبة لنهري (أبانا وفرفر) المنسابين فيها ، وهذا ما دعا النعمان الآرامي إلى امتداحها . . وثمة سبب آخر لمكانة هذه المياه عدا عن إخصابها للتربة ، وهو تميزها بخاصة معينة تفيد الصيقلين الحدادين (أتباع فولكان) ، أي صناع السيوف بإنتاج أجود الشفرات وأقساها ، وذلك بتسقيتها في هذه المياه . كذلك فإن حقول هذه البلاد الخصبة تغل زيتوناً طيباً ذا حبات كبيرة ، وبعض أشجار الزيتون هنا تحمل في مواسمها ثماراً أكبر من الزيتون الضخم الذائع الصيت الذي ينمو في منطقة الشرف في إشبيلية . ومما لا يقل عن هذا كله أهمية في زيادة عظمة وغنى مدينة دمشق ،

وجود مصنع عام بها ، كبير ومشهور ، فيه أنوال عديدة تنسج عليها أصناف من الأقمشة الحريرية والمطرزة بخيوط الذهب .

٥- دمشق القرن العشرين :

مع ظهور الحركة القومية وانتقاد المشاعر العربية في الصدور ، منذ مطلع القرن العشرين ، وبلوغ (الإمبراطورية العثمانية » مرحلة الشيخوخة ، أمسى مرفوضاً لدى زعماء العرب ومفكريهم في بلاد الشام أن تحكمهم سلطة غريبة اللسان ، وإن كان يلتقي العرب والترک على دين واحد . فأعلنت الثورة العربية على حكومة الأتراك الاتحاديین عام (١٩١٦ م) ، التي دعا قائدها العام (الشريف حسين) في منشوراته « كل المسلمين الحقيقيين إلى الثورة وإسقاط الحكومة الظالمة الجاحدة التي تديرها الفئة (الطورانية المتغلبة) كما تضمنه أحد هذه المنشورات الوارد نصه في كتاب « الثورة العربية الكبرى » للعماد مصطفى طلاس .

وقد حظيت الثورة ، في البداية ، بتأييد من إنكلترة وفرنسة ، ما لبث أن أسفر عن تواطؤ بينهما لاقتسام البلاد! ودخل الجيش الفرنسي بقيادة (الجنرال غورو) دمشق محتلاً عام (١٩١٩ م) ، وقُدِّرَ لدمشق ، عاصمة سورية الجديدة ، المجزأة (بعد أن اقتطعت من أوصالها : فلسطين ، والأردن ، ثم لبنان) ، أن تعيش تحت الانتداب فترة امتدت سبعة وعشرين عاماً ، تخللتها ثورات موضعية وشاملة ، توجَّتها حوادث (٢٩ أيار « مايو » ١٩٤٥ م) ، التي انتهت برحيل المحتل في العام التالي إلى غير رجعة ، واتخذ من يوم (١٧ نيسان (إبريل) (عيداً للجلاء) يحتفل به السوريون كل عام .

ومع مطلع القرن العشرين أيضاً ، كان على دمشق أن تنهض عمرانياً وتتخذ مظهر المدينة الغربية ، بأبنيتها الحديثة وشوارعها العريضة المستقيمة . وقد بدأ البناء غربي دمشق القديمة ، حيث أقيمت المباني مثل : السراي (وزارة الداخلية اليوم) ومبنى (محطة سكة حديد الحجاز ، والجامعة التي تشغلها رئاسة الجامعة اليوم) .

ونشأت أحياء مثل « الشهداء ، وعرنوس ، والجسر الأبيض) وعمرت البساتين

التي كانت تفصل دمشق عن جبل قاسيون ، فاتصلت دمشق بـ (مدينة الصالحية) ، وأطلق على الطريق ما بينهما (جادة الصالحية) التي هي بالأحرى ، الطريق المؤدية إلى الصالحية ، واتصلت مساكن الصالحية شرقاً بحي الأكراد ، الذي اتصل بدوره بقرية برزة ، تلك التي رابطت فيها قوات الفتح العربي ، كما سلف .

ثم نشأت أحياء (المزرعة) و (الرئيس) شرقي جادة الصالحية ، وقامت غربها أحياء (الحبوبى ، والسبكي ، والشعلان) وما لبث أن شق ذلك الطريق الذي قامت على جانبيه الدارات الأنيقة (شارع الجلاء ، أبو رمانة) ، ويتبعه (شارع المالكي) .

وأما (المهاجرين) ، فقد أثر سكناه ، في بدء اتساعه ، المتقاعدون متوسطو الدخل ، فلما فطن الأثرياء إلى روعة المطل ورقة الأنسام أخذوا يسكنون الجادات الجنوبية فيه ، وبقي للفقراء أن يسكنوا « الجادات العليا » التي يقطع صعودها الأنفاس !

وبعد نشوء أحياء مثل (القصور) في الشمال الشرقي و (المزة) في الجنوب الغربي ، واتّسع حي (الميدان) في الجنوب ، شرع تجمع تعاوني سكني ، في بناء ضاحية على طريق بيروت ، نموذجية ، قوامها خمسة آلاف منزل ، مستوفية مرافقها العامة بما في ذلك السينما والمسرح والمستشفى والملاعب الرياضية ويتوقع المكتتبون فيها أن يسكنوها في مطلع عام (١٩٨١ م) ، إذا صدقت التوقعات .

ويسكن دمشق كما يقول تعداد عام ١٩٧٠ م : (٨٣٦,٦٦٨) نسمة (من أصل سكان سورية الذي بلغ عددهم (٦,٣٠٤,٦٨٥) .

دمشق . . ونور الدين الشهيد :

(تعددت أسماؤه ، ولكنه هو محمود بن زنكي بن أفسنقر ، الملك العادل) .

أتساءل أحياناً : من أين أتى نور الدين الشهيد بكل هذا الحب لبلاد الشام عامة ودمشق خاصة ، ومن أين جاء بذلك الشعور المذهل بالمسؤولية عن أمن هذه البلاد وصحتها وسلامتها وثقافتها ، وكل شيء فيها .

إن شعوره بالمسؤولية لم يتجلَّ في مواجهة الصليبيين ومقاتلتهم وتحقيق تلك الانتصارات المظفرة وحسب ، بل إنه حصن أيضاً قلاع الشام جميعاً وبنى الأسوار على مدنها ، أو جدَّدها كدمشق ، وحمص ، وشيزر ، وحماة ، وبلبك ، وتجمع الروايات - مثلاً - على أنه هو الذي أحدث اثنين من أبواب دمشق الشمالية باب السلامة (السلام) ، وقد سمي بذلك تفاقلاً ؛ لأن القتال غير ممكن من ناحيته ، وقد جدَّد بناءه الملك الصالح أيوب سنة (٦٤١ هـ) . وهناك من يرى أنه أجمل أبواب دمشق قاطبة ، وباب الفرج وكان الناس يتفاءلون خيراً بهذا الباب أيضاً ، وقد جدَّد أيام سيف الدين أبي بكر بن أيوب سنة (٦٨٩ هـ) .

وفيما كان نور الدين يعيد النظر في تحصين دمشق وترميم سورها وإعادة بناء أقسام كبيرة منه ، جدد بناء كثير من أبوابها التي تهدمت في عهود سابقة كالباب الصغير ، والباب الجنوبي الأصغر من باب الجابية ، وكان هناك ثلاثة أبواب ، الأكبر في الوسط ، وعن جانبيه بابان أصغر متساويان ، وموقعه إلى الغرب من دمشق ، وقد سُدَّ اثنان منهما قبل ولاية نور الدين ، ولا يزال الأصغر الجنوبي الذي رَمَّمه نور الدين قائماً حتى الآن .

وجدد نور الدين الباب الشرقي أيضاً سنة (٥٥٩ هـ - ١١٦٤ م) ، وهو نفسه حصَّن قلعة دمشق ، وهناك من يذهب إلى القول : بل هو الذي بناها أصلاً في الزاوية الشمالية الغربية ، وجعل أحد فرعي نهر بردى بعد ساحة الشهداء (المرجة) وهو المدعو : العقرباني يمر لصق هذه القلعة ، ليكون مانعاً مائئاً ، وخلال ذلك حصَّن سور المدينة الجانبية بعدد من الأبراج المستديرة ، وما زال أحدها معروفاً باسم برج نور الدين قرب باب الجابية ، وعليه كتابة مملوكية تؤرخ ترميمه لاحقاً .

بلى كان نور الدين مفرطاً بالبناء والتشييد ، وما أظن دمشق عرفت في تاريخها القديم من يمانله في هذا الأمر ، حتى إنَّ (هارتمان) يذهب إلى أن دمشق أصبحت في زمانه مدينة المدارس ، وذلك لكثرة ما أنشأ فيها من المدارس . هذه مثلاً دار

الحديث النورية التي غدت سكناً لطالبي العلم في دمشق ، وكانت أول دار من نوعها في التاريخ ، وتلك هي المدرسة العادلة التي بدأ نور الدين بنائها ثم أتمها الملك المعظم عيسى ، وظلت سنوات طويلة حتى وقت قريب مقرّ مجمع اللغة العربية في دمشق . وهناك من المدارس النورية ، العمرية - المجاهدية الجوانية وكانت في سوق الحرير .

ومن أعظم الإنجازات التي أقامها هذا الرجل كان اليمارستان النوري ، وقد كان مشفى للمرضى وكلية للطب في الآن ذاته ، وقد ظل عاملاً زهاء ثمانية قرون حتى أقيم المشفى الوطني بدمشق . وقد أوقف نور الدين زنكي كتباً كثيرة في الطب على اليمارستان الذي أنشأه بدمشق ، ولا يزال بناؤه قائماً إلى اليوم .

وأيام نور الدين ، ظهر حي العقبة شمال سور دمشق ، وكان في الأصل باشورة أي سويقة أو سوقاً صغيرة ، أمام باب الفراديس (العمارة) .

وحتى قضايا النظافة العامة فإنها لم تغب عن ذهن هذا القائد العسكري العظيم الذي هزم الصليبيين هزيمة نكراء في معركة (ملاذكرد) ، فبنى الحمام الشهير في سوق البزورية وهو المعروف باسمه ، وقد جُدد وأُخلي من شاغليه في السنوات القليلة الماضية ، وإذا كان هذا الحمام من آيات الفن المعماري ، فإنه تفرد وتميز بنظام مدهش لحزن المياه وتوزيعها في أقسامه المختلفة .

والمؤسف أن الزمان قد عفى على كثير من المعالم التي أود الحديث عنها ، مثلاً (دار العدل) التي لم يبق من آثارها شيء على الإطلاق ، ولكن حسب الأوصاف التي تركها لنا المؤرخون ، فإننا نستطيع أن نتصور موضعها تصوراً فحسب . وكان مبناها قائماً في دمشق ، وراء سوق الحميدية على يمين المدخل إلى سوق الحميدية ، أي في جزء من حي الحريقة تشغله الآن دكاكين ومحلات تجارية .

ولبناء (دار العدل) قصة جميلة يرويها المؤرخ محمد أحمد دهمان في كتابه (في رحاب دمشق) فيقول : إنَّ نور الدين هو الذي بناها وأطلق عليها هذا الاسم (دار العدل) ، وسبب ذلك أنه لما ملك دمشق ، وأقام فيها مع أمرائه ، وفيهم

شيركوه ، تعدى بعض الأمراء على جيرانهم ، فكثرت الشكاوى إلى القاضي كمال الدين الشهرزوري ، فأنصف بعضهم من بعض ، ولم يقدر على الإنصاف من جماعة شيركوه ، وهو عم صلاح الدين الأيوبي ومدربه ؛ لأنه كان أكبر أمراء الدولة ، فبلغ ذلك نور الدين فأمر ببناء دار العدل . فلما سمع شيركوه بذلك قال لنوابه : والله ما بنى نور الدين هذه الدار إلا لسبيين وإلا ؛ فمن يمتنع عن القاضي كمال الدين ؟ والله لئن أحضرت إلى دار العدل بسبب أحد منكم لأصلبته ، فامضوا إلى كل من بينكم وبينه شيء ، فافصلوا معه الحال وأرضوه ، ولو أتى على جميع ما في يدي ، وهكذا كان .

ومن آيات عشق نور الدين لدمشق ، أن هذه المدينة التي جاءها متأخراً ، أغمض عينيه فيها على آخر المشاهد ، وهو بناؤه (طارقة) أو تجديد بنائها . وفي قاموس (أقرب الموارد) للشرتوني أن (طارقة) تعني بيتاً من خشب كالقبة ، وهو لفظ معرب ، ويحتمل أن يكون (طارقة) في الأصل مسجداً عرف باسم (الديلمي) ، إلا أن الأستاذ دهمان لا يعلم من هو هذا الديلمي الذي ينسب إليه هذا المسجد ، ولكن يبدو أن نور الدين وسعها حين جدّدها حتى جعل منها مبنى صار يوصف بأنه قصر الفقراء ، فقال فيه تاج الدين الكندي أستاذ الملوك الأيوبيين :

إن نور الدين لما أن رأى في البساتين قصور الأغنياء
عمر الربوة قصراً شاهقاً نزهة مطلقة للفقراء

وكان شاعر آخر هو الأمير مجير الدين بن محمد بن تميم قد قال :

يا حسن طارقة في الجو شاهقة ما إن تمل بها العينان من نظر
نزة لحاظك في طاقاتها لثرى أصناف ما خلق الرحمن للبشر
ترى محاسن واد يحتوي نزهاً لذيذة السمع والأبصار والفكر
في ربوة قد سمت حتى تخال لها سراً تحدثه للأنجم الزهر
ما بين روض وأنهار مسلسلته تجري وتحمل أنواعاً من الثمر

وفي الواقع فإن أكثر من مؤرخ عربي وصف هذا القصر ، منهم أبو البقاء عبد الله البدرى الذي زار دمشق أواخر القرن الهجري التاسع ، ووضع كتاباً عنوانه (نزهة الأنام في محاسن الشام) تحدث فيه عن طارقة أو قصر نور الدين فقال : إنه قاعة متخّنة بألواح من الخشب ، سقفها نهر يزيد وأساسها من تحتها نهر ثورا ومنظرها من الغايات التي لا تدرك .

وقال ابن طولون : هو قصر مرتفع على سن جبل ، فيه قاعة وطيقان على هيئة الإيوان ، ينظر الجالس هناك من مسافة يوم لو لم يكن حائل به ، والحائل هو جبل قاسيون الذي ينهض كالجدار في وجه المشهد ، وأما الطيقان فجمع كلمة (طاق) وهي من الأبنية ما جعل كالقوس من قنطرة ونافذة ، فارسية معربة كما يقول الشرتوني .

وأما الدرج أو السلم الذي يفضي إلى هذا القصر والذي كان يضم مسجداً أيضاً ، فقد كان فوق (صخرة المنشار) المشهورة في الربوة - غرب دمشق - إلا أن طول العهد ذهب بأكثر درجاته ، وحتى زمن قريب كان الشبان المغامرون يصعدون إلى صخرة المنشار هذه ، ثم ينحدرون عنها ، ويذكر الأستاذ دهمان أنه صعد هذا الدرج ونزل منه مراراً أيام فتوته .

بيمارستان نور الدين زنكي :

يعتبر البيمارستان النوري من أشهر المباني التاريخية والأثرية في دمشق ، وهو أحد ثلاثة بيمارستانات شيدت فيها ، الأول بني قبله ، وكان يعرف بالبيمارستان الدقاقي ، ثم سمي بالعتيق بعد بناء بيمارستان النوري ، وظل حافلاً يؤدي وظيفته إلى ما بعد القرن الثامن الهجري ، وجرى تجديده وإحيائه في عام (٧٦٤هـ - ١٣٦٢ م) ، أما البيمارستان الثالث فهو البيمارستان القيمري ، الذي بني في منطقة الصالحية قبيل عام (٦٥٤هـ - ١٢٥٦ م) .

يقع البيمارستان النوري إلى الجهة الشرقية من سوق الحميدية المشهور

بدمشق ، ويبعد عن القلعة نحو خمسمئة متر تقريباً ، أنشأه السلطان العادل نور الدين محمود زنكي سنة (٥٤٩هـ - ١١٥٤م) ، ولذلك قصة طريفة مفادها أن السلطان نور الدين ، خلال حروبه الطويلة مع الإفرنج ، أسر أحد ملوكهم ، وعند استشارة مجلس أعيانه بمصيره أشاروا عليه أن يطلق سراحه مقابل فدية مالية تنفق في بناء بيمارستان ، ليكون مشفى يقدم الدواء والعلاج لكل مصاب . وبالفعل فقد راقب له الفكرة ، فأطلق سراح عدوه ، وأخذ الفدية ، واستقدم خيرة المهندسين والعمال العرب والسوريين لبناء هذا البيمارستان .

* * *

طبيعة دمشق ومناخها ومنتزهاتها

الحمد لله الذي جعل الشام شامة الدنيا وبهجتها وبارك حولها وقدس أرضها ، وأسكن فيها أصفياه من الأنبياء ، واجتبي إليها خيرته من الأولياء ، وزينها بأهل البيت الكرام ، وطرزها بالصالحين والأبدال ، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد ﷺ الذي قال : (البركة في الشام) .

وبعد ، فماذا أقول في دمشق ؟

دمشق ، وهل توصف دمشق ؟ هل تصور الجنة لمن لم يرها ؟ من يصفها وهي دنيا من أحلام الحب وأمجاد البطولة ، وروائع الخلود ، من يكتب عنها (وهي من جنات الخلد الباقية) بقلم من أقلام الأرض فان .

دمشق التي يحضنها الجبل الأشم الرابض بين الصخر والشجر ، المرتفع عن الأرض ارتفاع البطولة والعبقرية ، الخاضع أمام السماء خضوع الإيمان الصادق .

دمشق التي تعانقها الغوطة ، الأم الرؤوم الساهرة أبداً ، تصغي إلى مناجاة السواقي الهائمة في مرابع الفتنة ، وقهقهة الجداول المتعشة من رحيق بردى ، الراكضة دائماً نحو مطلع الشمس ، (يجري بردى من الغرب إلى الشرق) يخوض الليل إليها ليسبقها في طلوعها .

دمشق التي تحرسها (الربوة) ذات (الشاذروان) وهي خاشعة في محرابها الصخري تسبح الله وتحمده على أنه أعطاها نصف الجمال ، حين قسم في بقاع الأرض كلها النصف الثاني .

وما الربوة إلا حلم ممتع غامض يغمر قلب رائيه بأجمل العواطف التي عرفها قلب بشري .

الربوة لحن من ألحان السماء ألقته مرة واحدة في أذن الأرض ، الربوة هي الربوة لمن يعرفها وكفى .

دمشق أقدم مدن الأرض ، وأكبرها سناً ، وأرسخها في الحضارة قدماً ، كانت مدينة عامرة ، قبل أن تولد بغداد والقاهرة وبائرس ولندن ، وقبل أن تنشأ الأهرامات وينحت في الصخر أبو الهول ، وبقيت مدينة عامرة بعدما مات أترابها واندثرت منهن الآثار . فيها تراكم تراث الأعصر ، وإلى أهلها اليوم انتقلت مزايا كل من سكنها من سالف الدهر ، ففي نفوسهم من السجايا مثل ما في أرضها من آثار التمدن وبقايا الماضي ، طبقات بعضها فوق بعض . فالحضارة تجري في عروقهم مع الدماء ، وهم ورثتها وحاملو رايثها وهي فيهم طبع وسجية ، ولقد تكون في غيرهم طبعاً وتكلفاً ، فأى مدينة جمع الله لها من جمال الفتوة وجلال الشيوخوخة كالذي جمع لدمشق .

وبعد . . فأى مزاياك يا دمشق أذكر وفيك الدين وأنت الدنيا ، وعندك الجمال وعندك الجلال ، وأنت ديار المجد وأنت ديار الوجد جمعت عظمة الماضي وروعة الحاضر . لا ليس هذا الكتيب (صورة كاملة لدمشق) ولكنه خطوط فيها ملامح من دمشق .

هذه المدينة كثيرة المياه والبساتين ، وموقعها في سهل خصيب في غوطة دمشق ، تعدُّ من أفضل جنات الدنيا ، وإلى شمالها جبل قاسيون يزيدها بهاء ونضارة ، فتصبح كجنة تجري من تحتها الأنهار ، فيها كل أنواع الفواكه والبقول ، وكل ما تشتهي نفس الإنسان من مأكول ومشروب ومشموم ، ونزهة وانسراح ، ونظراً إلى ذلك وإلى ما انطبع عليه أهلها من حسن السجايا ولطف الطباع ، حسبت جنة في الأرض ، وفضلت بأشياء كثيرة على ما سواها من البلدان ، وقد شهد لها بذلك أهل الذوق والآداب في كل عصر وآن ، كما قال محمد بن إياس في كتابه بدائع الزهور ، وقاله العلامة الدكتور (فان ديك) في المرأة الوضعية ، ناقلاً عن أبي الفداء قوله : إنّ مُتَنَزِّهَاتِ الأرض أربعة : سغد سمرقند ، وشعب بوان ، ونهر الأبله ، وغوطة دمشق .

أما سغد سمرقند فهو نهر تحفُّ به أشجار مثمرة بالفواكه والأزهار ، وهي مشتبكة بعضها ببعض ، ممتدة مقدار اثني عشر فرسخاً . وأما شعب بوان ، فهو من

نواحي نيسابور ، فهو مقدار فرسخين ، وفيه أنهار متدفقة وأشجار مثمرة طيبة ، وأما نهر الأبله فهو من أعمال البصرة ، وهو على أربعة فراسخ منها ، وعلى جوانبه الأشجار الطيبة الثمار ، وأما غوطة دمشق فهي أفضل الجميع ، ومقدارها ثلاثون ميلاً ، وعرضها خمسة عشر ميلاً ، وهي مشبكة الأشجار كأنها بستان واحد لا تكاد الشمس تقع على أرض فيها ، وثمارها طيبة لم تكن في غيرها .

وقال ابن بطوطة : دمشق هي التي تفضل جميع البلاد حسناً ، وتتقدمها جمالاً ، وكل وصف وإن طال فهو قاصر عن محاسنها .

كل هذا الذي ذكر آنفاً ، جعل دمشق ، على الدوام ، بها الأنس والانشراح من الله تعالى حتى ولو طرأ على الإنسان الأسباب المحزنة . فهذا الانشراح الأنسي لما حبا الله دمشق من المناخ المعتدل اللطيف ، بالإضافة إلى ماؤها العذب العليل الذي يصقل النفوس فتصبح على غاية من اللطف والمسايرة والمجاملة والصفاء . وإن جودة ماء دمشق وعذوبته ، جعلاه لا يوجد للذته مثل ، ولا لطعمه شبيه في أمصار العالم وبلدانه ، فهو ماء سلسيل لذة للشاربين ، وإن رقة الهواء ولطفه ونشاطه مما اعترف به وتنسمه كل زائر وقاصد ومنتزه لمدينة دمشق ، التي أصبحت مزاراً وقبلة لكل من زارها ، ليمضي فيها عطلته كل سنة مع أهله وأصحابه بالسرور والانشراح .

وعلى الرغم من أنه من عادة سكان دمشق الجمع بين أنواع الخضار والفواكه على مائدة واحدة ، فتراهم يأكلون من جميع أنواعها في وقت واحد ، ومع ذلك لا يحصل لهم أي تأثير سلبي أو مرض على أجسامهم ، بل يزدادون نشاطاً وصحة وعافية بتناولها ، وما سبب ذلك إلا جودة المياه النقية الصافية الطاهرة والهواء النظيف .

ومن كتب حكماء اليونان : إن في دمشق الشام بركة ماء بناها بعض حواري السيد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ، وأنهم كانوا يغسلون بها كل مريض بأي مرض ، وكانوا يسقونه منها فيعافيه الله تعالى من مرضه ، وهي موجودة إلى الآن تجاه زقاق الحصرية بجادة سوق مدحت باشا الجديد ، وتسمى (بركة المنجدين) .

وقال الدكتور الحكيم (فنديك) : إن ماء دمشق يمنع عن الأجسام مرض

الجذام ، ومن أتى دمشق وبه هذا المرض فمجرد شربه من مائها ، يتوقف سريان مرضه للموضع الذي دخلها به ، فلا يزيد ولا ينقص .

ومن جاء دمشق قاصداً أهلها ، خاصة أو عامة ، بقصد إضرارهم وإهانتهم فمتى شرب من مائها تنقلب نيته بالخير عوضاً عن الشر ، وإذا سافر أحد أهالي دمشق إلى بلد آخر ، واجتمع بأحد أهلها ، ولو كان لا يعرفه ، فبمجرد لقائهما يحصل لهما الأُنس ويصبحان كالأخوة والأشقاء حتى يعودا إليها ويفترقان عنها . وكما قيل في دمشق إنه لا يختفي فيها دم ، ولا يكتُم فيها سر ، ولو طالَت عليه المدة فلا بد من ظهوره ، ولا يؤثر فيها سحر .

الحياة الدمشقية :

لعب الانتماء إلى الأسرة الواحدة وحمل اسمها دوراً كبيراً في زيادة الروابط بين أفراد الأسرة ، حيث تَمَسَّكَ أفرادُ الأسرة بتقاليد معينة حافظوا عليها . ويسمى البيت الذي يضم أفراد جميع العائلة بالبيت الكبير ، وهو القاعدة الأساسية لأعمال العائلة حيث ينزل الابن مع الأب في عمله ويتعلم الحرفة لذلك يبقى أفراد العائلة بذات الحرفة فتتمتد معهم الكنية حتى تلتصق بالشخص وإن لم يزاوِل فيما بعد الحرفة ذاتها مثال ذلك آل السكر في الميدان سواءً أكانوا تجاراً أم مزارعين .

هذا الاندماج بين أفراد الأسرة الواحدة رافقه اندماج بين أفراد المحلة ، كان الأهالي يعيشون في المحلة متآلفين يبعدون عنهم كل ما قد يسيء إلى المحلة ، وكان لكل محلة باب يغلق في ساعة معينة بعد العشاء ، ويفتح عند الصباح ويقف عنده حارس المحلة ، وكان لبعض المحلات بوابتان ، كما هي الحال في زقاق العدّاس .

الأسرة الدمشقية :

شملت كلمة الأسرة جميع أفراد الأسرة ، من ذكور وإناث ويتفرع منها الأسرة الزوجية التي تشمل الزوج والزوجة والأبناء ، وكانت الأسرة الكبيرة تقطن غالباً في دارٍ واحدة وتضم الدار عدداً من الغرف وتسمى كل دارٍ بيتاً ، وتضم الأب والأم والأبناء والبنات والكنات والأحفاد ، فيسمى بيت فلان ليدل على الأسرة التي

تقطنها ، وكان الابن يسكن مع زوجته في غرفة من هذه الدار أما الأبناء العزّاب فكانت تخصص لهم غرفة كبيرة واحدة وكذلك البنات . وعند ترايد عدد الأولاد ينتقل الابن الزوج إلى بيت مجاور عن طريق الشراء أو الاستئجار بحسب قدرته المالية ، وإن لم يجد مسكناً بقرب دار العائلة يضطر للانتقال إلى حي جديد وتدل الوثائق أن توسع بعض العائلات أدى إلى شرائها زقاقاً كاملاً كان يطلق اسمها عليها^(١) كما يظهر من خلال استعراض حدود الدار أن الأقرباء يسكنون بجانب بعضهم . حيث كان التماسك الداخلي سمة أساسية للأسرة الواسعة في دمشق ، ويتمثل هذا في رضى كل فرد منها بما أوكل إليه من مهمات أو أعمال .

وقد حرصت الأسرة الدمشقية على الحفاظ على ألقابها التفخيمية تمييزاً لنفسها عن غيرها ، وبخاصة الأسر الدمشقية التي تنتسب إلى آل البيت .

وتمركزت السلطة ضمن الأسرة الدمشقية بيد كبيرها أي الأب أو الجد ، فيما يتعلق بالأمور الاقتصادية وبتّ الأمور الاجتماعية والمنزلية ، فهو رب الأسرة الذي يشرف عليها ويدير ملكيتها وأعمالها ويوزع العمل على أفراد الأسرة ، ويتحمل احتياجاتها المادية والمعاشية . أما جانب الإشراف على أمور الأسرة الداخلية فكان من اختصاص كبيرة الأسرة الأم أو الجدة أو العمة ، وكانت سيطرتها تمتد أحياناً إلى البيت المجاور الذي يسكنه زوجها مع ضررتها وأولاده منها ، حيث كانت الأفضلية بين الزوجات ، في حال وجود زوجة ثانية ، للزوجة الأولى التي تدعى (الكبيرة) وتحظى باحترام بقية النسوة ، ولكن مع ذلك كانت تحدث أحياناً مشاكل بين الضراير ، الأمر الذي أدى إلى وضع كل زوجة في دار أو تقسيم الدار بينهما .

وكان الأب يتمتع باحترام كبير من أفراد الأسرة جميعهم ، وله هبة حتى على زوجات أبنائه ، وشاعت عادة تقبيل يده كل صباح دلالة على ما يكنه كل فرد من احترام وخضوع ، وتمتعت الأسرة الدمشقية بالحياة المشتركة ، فالجميع يأكل معاً وتطبخ النسوة في مطبخ واحد ، وكبيرة الأسرة هي التي توزع العمل في المنزل .

(١) مثل زقاق مراد النقشبندي في محلة ساروجا وزقاق الصمادي وزقاق تاج الدين .

وقد اهتم المجتمع الدمشقي بالعبارة بالفتيات ، وكثيراً ما كان الأب لا يفرق في التعامل بين الذكر والأنثى .

كما كان الزوج يرفع مصالح زوجته ، وكثيراً ما كانت توكله الزوجة في متابعة أمورها .

من هنا تظهر الوثائق أنه كان للمرأة دورٌ في هذه الأسرة على خلاف ما ذكره الكثيرون من أن المرأة كانت سلبية تابعة حيث أن أخلاقيات المجتمع الدمشقي كانت تمنع اختلاط المرأة مع الرجل الأجنبي عنها ، وإن عدم وجودها في الحوانيت والحرف لا يعني أبداً أن المرأة كانت هامشية في القرن الثامن عشر ، فقد عرفت المرأة كيف تدافع عن حقوقها ، وكانت على دراية تامة بهذه الحقوق وتبين لنا وثائق كثيرة وقوف المرأة في المحكمة تطالب بهذه الحقوق . كما تبين وقوف المرأة مع الرجل في أمور كثيرة ، فهي متضامنة متكافلة معه بسداد الديون ، وتشارك معه في وظيفة النظر على الوقف ، وتسافر معه في أداء فريضة الحج .

وقد بينت إحدى الوثائق أن بعض النسوة كن يتعاطين شرب الدخان ، وهذا يدل على أن المرأة مارست حريتها وإن كانت هذه الحرية منغلقة على مجتمعها الصغير .

وتبين الوثائق الشرعية المحفوظة في مركز الوثائق التاريخية في دمشق ، أن المرأة لم تكن منزوية في مجمع دمشق ومنغلقة على نفسها ضمن المنزل ولا تشارك الرجل أي نشاط اقتصادي أو حتى اجتماعي ، بل تبين أن المرأة امتلكت الكثير من الأراضي والدور والحوانيت ، ولم تقتصر ملكية المرأة للأراضي والدور في باطن دمشق بل تعدتها إلى ظاهرها حيث امتلكت المرأة في القرى حق بيع وشراء البيوت والأراضي أو غيرها .

كما تعاملت المرأة في التجارة وذلك من خلال سعيها لاكتلاك الحوانيت وسعت المرأة أيضاً للعمل في التجارة من خلال استئجارها الحوانيت أو من خلال العمل داخل المنزل مثل كبكة الحرير مقابل مبلغ معين لمصلحة أحد تجار السوق أو في مجال غزل القطن في البيوت .

أما عمل المرأة فقد اقتصر على وظائف خاصة بعمل النساء مثل الداية والغسالة والأسطة والبلانة واللطامة والماشطة والنقاشة بالإضافة إلى التطريز وعمل الصوف وهذه الأعمال التي مارستها المرأة تدل على دورها الإيجابي في المجتمع الدمشقي على الرغم من أن ما كتب عن تلك الفترة لم يبرز اسم المرأة في مجال العلم .

ملاحظة :

الداية : امرأة تعمل في توليد النساء .

الغسالة : امرأة تعمل في بيوت الأغنياء ، لأجل غسيل وتنظيف الثياب .

الأسطة : امرأة تغسل رأس النساء في الحمام .

البلانة : امرأة تعمل في الحمام تخرج الأوساخ من أبدان النساء بالكيس والصابون .

اللطامة : أي الندابة عند موت أحد الأغنياء .

الماشطة : ترافق العروس تسرح شعرها وتلبسها ثيابها .

النقاشة : تنقش أيدي وأرجل النساء بالحنة قبل الزفاف .

* * *

أنهارها

بردى

نهر يخرج من قرب الزبداني ، وآخر يخرج من صدع جبل الفيحة من نهاية أسفله ، وقد عُقد على مخرج الماء منه عقد قديم يظهر أنه روماني ، ثم ترفده منابع في مجرى النهر ، ويسمى هذا الماء بنهر بردى .

بَرْدَى . . يا أبا النُّهُور جميعاً

يا حصاناً يسابقُ الأيَّاما

كُنْ بتاريخنا الحزين نبياً

يتلقَّى من ربِّه الإلهاما

الملايينُ بايَعَتَكَ أميراً

عريباً . . فَصَلَّ فيها إماماً

نهر بردى نهر دمشق العظيم ، واسمه هو نفس الاسم الآرامي القديم أعيد بواسطة العرب بعد أن سماه اليونانيون (مجرى الذهب) (خريسورُّواس) chrysorroas ، وقيل أنه هو نهر (أبانا) الذي ورد ذكره في التوراة (الإصحاح الخامس عشر من سفر الملوك الثاني ، وقيل أن (أبانا) كلمة آرامية معناها (الصخر المفتت) بالنسبة إلى طبيعة الصخر الذي ينبع منه . وسماه المصريون القدماء (روت) ، وسماه (أسطفان البيزنطي) منذ القرن الخامس للميلاد (بردينس Baradanis) . وقيل : إن العرب سموه (بردى) لبرودة مائه .

رسم القدماء اسم بردى بالألف (بردا) ويكتب اليوم بالألف المقصورة (بردى) .

ورد ذكره في شعر حسان بن ثابت

يسقون من ورد البريس عليهم بردى يصفق بالرحيق السلسل
وذكره جرير بقوله :

لا وِرْدَ للقوم أن لم يغرفوا بردى إذا تجوَّب عن أعناقها السَدَف
أصل نبعه على ارتفاع (١١٠٠ م) عن سطح البحر من قرية اسمها (قَنَوا) وقد
دثرت هذه القرية ومكانها الآن مزرعة تسمى (حوش مجد) ويحتمل أن يكون النبع
الأصلي هذا (عين حور) التي هي الآن أكبر عين تغذي نهر بردى .

بعد أن تتجمع مياه النهر في بحيرة واسعة يسير نحو دمشق بوادي يسمى باسمه
وكان يسمى قديماً (وادي الذهب ووادي البنفسج) ماراً بمنطقة (التكية) ، حيث
كان يوجد مشروع توليد القوة الكهربائية ويتابع سيره ماراً بقرية (سوق وادي بردى)
وهي قرية قديمة عرفت في الماضي السحيق باسم (أبيلا) ، ويواصل النهر سيره إلى
قرية الفيحة فيتلاقى مع مياه نبعها العظيم ، ويتابع سيره نحو دمشق ماراً بمنتزه العين
الخضراء ، فقرية بسيمة ، فالأشرفية ، فالجديدة ، فالهامة حيث ينفصل عنه نهر
يزيد وتبعد الهامة عن دمشق (٨ كم) ويسير الباقي منه إلى منتزهات دمر ،
والشاذروان والربوة ، فينفصل عنه ستة أنهار ثورا ، وقناة القنوات وقناة المزة ،
وبانياس ، والديراني ويزيد ولكل من هذه الفروع نصيب من مياه بردى يحدده العرف
منذ أقدم العصور أيام الآراميين كان عدد أنهار دمشق اثنان فكان بردى قد أردف أولاً
بقناة اسمها (البانا) أي (بانياس) اليوم ، ثم أحدث نهر في كف الجبل هو
(ثورا) . ثم أحدث الرومان نهر (القنوات) وأحدث الأمويون (يزيد) .

وفي القرن الثالث الميلادي تم شق (المزاري والديراني) وينساب ما تبقى من
مياه بردى - إلى دمشق فيشطرها قسمين ، وعند وصوله إلى ما بعد التكية السليمانية
بقليل يختفي تحت الأرض ، إلى ساحة الشهداء ، حيث ينفصل منه نهر (المجدول
العقرباني) ، وبعد طريق السروجية يعود بردى إلى الظهور متابعاً سيره إلى منطقة
باب توما ، فالغوطة وينفصل عنه أثناء سيره في الغوطة عدة أنهر صغيرة هي :

الداعيانى - أو نهر داعية ، المليحي الزبديني ، نهر حزرما ، الشيلاني ، الزابون ، وما يتبقى من بردى يتابع سيره - في أيام وفرة المياه إلى بحيرة العتبية حيث ينصب فيها . وهناك أنهر أخرى كانت تنفصل عن بردى اندثرت ولم يبق سوى ذكرها في الكتب ، منها : نهر الغور الكبير - لا تزال آثاره ظاهرة مقابل مدخل معمل الإسمنت بدمر . وكان يجري في جهات المعظمية ، ونهر قنية ، ونهر الملك وكان ينفصل عن بردى بالقرب من جسر غبطة السلطان ويسقي قسماً من أراضي المحمدية .

طول بردى من منبعه إلى مصبه (٨٤ كم) ولا يزيد عمقه عن (٢ . ٥ م) ويقدر مجموع تصاريفه في السنوات العادية (٣٠٠) مليون متر مكعب في السنة ، و (٥٠٠) مليون في السنوات الممطرة .

ساعدت الثلوج بردى على أن يكون نهراً دائماً وهي التي تتجمع على الجبال الشاهقة الواقعة على مقربة من مجراه ، فتذوب وتنصب فيه . روي أن ماء بردى قل في ولاية سليمان بن عبد الملك حتى لم يبق في النهر إلا شيء يسير ، فشكوا ذلك إلى سليمان فأرسل عبيد بن أسلم مولاه ومعه جماعة لكرائتها ، فلما باشروا العمل إذا هم بباب من حديد مشبك يخرج الماء من كوى موجودة فيه يسمعون داخلها صوت ماء كثير ، ويسمعون صوت اضطراب السمك فيها . فكتبوا إلى سليمان بذلك فأمرهم أن لا يحركوا شيئاً وأن يكروا قدامه ففعلوا ما أمرهم ، ولم يزل كذلك إلى ولاية هشام فلم يكن فيه أكثر من ذلك ، فشكى إليه أهل بردى قلة الماء فأمر القاسم بن زيادة أن يميز لهم الماء فمازه وقسمه بين الأنهر الأخرى . وروي أن نهر بردى جف ماؤه في سنة (١٠٢٩ هـ) في عهد الوالي على دمشق (سليمان باشا كلوين) فعمد الناس إلى الشرب من مياه الآبار .

كتب الكثيرون من العرب والإفرنج عن بردى ، فمن العرب ابن عساكر في تاريخه الكبير (ج ٢) والقلقشندي في (صبح الأعشى ج ٤) وياقوت الحموي في (معجم البلدان ج ٢) وابن طولون في (القلائد الجوهريّة) وابن خلدون في (البرق المتألق) ، وابن عبد الهادي في (غدق الأفكار في ذكر الأنهار) وتحدث

عنه القرماني في (أخبار الدول) فقال : (بردى وهو نهر دمشق مخرجه من مكانين ، أحدهما بأرض الزبداني بموضع يعرف بعيون التوت ، والثاني من عين الفيحة وهي عين تخرج من تحت جبل وتنصب إلى أسفل بصوت هائل ودوي عظيم ، فإذا قرب الماء إلى المدينة تفرق إلى سبعة أنهار وهي بردى ، وثورا ، ويزيد ، وقناة المزة ، وبانياس ، وقنوات عقربا .

ويقول ياقوت الحموي : ومن خصائص دمشق التي لم أر في بلدة كمثلها كثرة الأنهار وجريان الماء في قنواتها فقل أن تمر بحائط إلا والماء يخرج من أنبوب إلى حوض يشرب ويستقي منه الوارد والصادر ، ولا رأيت بها مسجداً ولا مدرسة ولا خانقاً إلا والماء يجري في بركة ضمن هذا المكان لأن الماء محكم عليها من جميع نواحيها هذه المياه تجري في الأرض ، وتحت الأرض مدينة أخرى من متصرفات المياه والجداول وأينما حفر الإنسان من أرضها وجد الماء .

هذه المياه العذبة النмир ، كانت السبب في وصف دمشق بجنان الخلد التي تجري من تحتها الأنهار ، فأنتى نظرت ترَ الخضرة وأنتى اشممت تسعد بريح الورد والزهر والياسمين ، مدينة الزهور ومعرض دائم جل خالقه دون تكلف .

وخير من كتب عن (بردى) من الأجانب : تريس وتومان الفرنسيان وكانت الطريق الرومانية التي شقها (مارك أوريليوس ولوسيوس فيروس) محفورة في الصخر على ارتفاع ثلاثين متراً فوق نهر بردى .

ويمتاز أهل دمشق بحبهم الشديد للأعياد والمناسبات ، فمهما كانت المناسبة يحيلونها إلى نزاهات للمتعة ، وتغلق أسواق دمشق لقضاء هذه المتعة . وكانوا ينتظرون الأعياد الإسلامية وغير الإسلامية للقيام بنزهات إلى البساتين التي تحيط بدمشق ، وقد كانت الربوة تعد من أجمل منتزهات دمشق ، وكذلك منتزهات المزة وبرزة والحواكير وبساتين المرجة التي كانت كثيفة في تلك المدّة على ضفاف بردى . ولم تكن التزهات وقفاً على الأغنياء ، بل كان الفقراء ومتوسطو الحال يتسابقون للقيام بهذه التزهات التي كانت تمتد من الصباح إلى ما بعد المغرب وكان

يقوم بها الخاص والعام وأصحاب المناصب . ومن البساتين المحيطة في دمشق آنذاك :

بستان الأسية شرقي الميطور^(١) وبستان الارناؤوط في دمر وبستان الأصفر قبلي الجسر الأبيض وبستان الباسطي وبستان الباشا في منطقة الخطيب وبستان البرج وبستان بيرام وبستان الجوز وبستان ست الشام في منطقة الجبة . وبستان السنوسكي وبستان الشريشات ، وبستان عين الكرش ، وبستان القصر في موقع قصر الضيافة الآن ، وبستان القماحية في الغوطة وبستان كيوان^(٢) قرب الربوة وبستان الوادي في القزازين ، وغيرها كثير من البساتين .

كما تميز الشارع الدمشقي بكثرة الاحتفالات الدينية التي تقيمها الصوفية في الطرقات ، وكذلك احتفالات الأعراس التي يجول شبابها في حارات دمشق مصحوبة بالاهازيج والغناء ، واحتفالات ختم القرآن للأطفال ، واحتفالات قافلة الحج ، أو الاحتفالات التي يقيمها الحرفيون عند ترفيع الحرفي إلى مرتبة أعلى من التي هو فيها . ومن العادات الدمشقية أن يقام حفل ختان للطفل ترافقه إقامة للولائم ، ويحضر والمطربون ، ويتم تقديم الهدايا لأهل الطفل ، وهي ما تسمى بالنقوط .

وفي المناسبات الرسمية يتم إطلاق المدافع من قلعة دمشق وعند إعلان بدء الصوم بشهر رمضان أو أيام العيد وكان لكل طائفة بدمشق عاداتها وتقاليدها وطقوسها الخاصة بها ، وخاصة في الأعياد ، سواء أعياد المسلمين أم أعياد أهل الذمة .

فيحتفل المسلمون بشهر رمضان وعيد الفطر بمظهر يتناسب مع هذه المناسبات في نفوس أهالي دمشق ، ولقد كان مجتمع دمشق مجتمعاً دينياً يعمل على الالتفاف

(١) الميطور : بستان في شرقي ركن الدين حتى مساكن برزة اليوم ومعنى الاسم : ماء الجبل .

(٢) كيوان : من كبار جند الشام عاصر الأمير فخر الدين المعني اشترى بساتين الربوة فنسبت إليه قتل عام ١٠٣٣ هـ .

حول الشيوخ وزيارة المساجد والأماكن المقدسة ، والقيام بالأعياد وما يواكبها من احتفالات وزيارات للأقارب والولائم . كما وجدت مناسبات كثيرة احتفل بها مجتمع دمشق ، وكان لكل مناسبة مراسم خاصة حيث تقام الاحتفالات والزينات والعروضات ويمكن أن تمتد لسبعة أيام .

وقد اعتاد الأهالي في دمشق على الاستيقاظ قبيل أذان الفجر ، وذلك سعيًا وراء الرزق أما الخاصة المترفون فيستيقظون مع شروق الشمس أو بعد قليلًا ، فيتناولون وجبة الإفطار ثم يسعون إلى أعمالهم ، وكان أصحاب الحرف والتجار يتناولون وجبة الغداء في أعمالهم وحوانيتهم أو في غرف خاصة من الخانات التجارية ، وكانت وجبة العشاء هي الوجبة الأساسية ويتم تناولها عند السادسة مساءً في بيوتهم ، وبعدها يقضون سهراتهم إما في بيوتهم أو في زيارة الأقرباء والأصدقاء والبعض إلى القهوة للتسلية وتدوم السهرة عادة حتى العاشرة مساءً ، وقلة منهم من يبقى خارج داره بعد هذه الساعة وكان عدد كبير من الدمشقيين يقضون أوقات فراغهم بطرق مختلفة وغالبها يذهب إلى المقاهي للسمر أو اللعب أو سماع الموسيقى التي دخلت مقاهي دمشق في تلك الفترة .

ويقول البديري عن ذلك : (في هذه الأيام ، ١١٦٠هـ / ١٧٤٧م ، ورد على دمشق الشام ثلاثة من مدينة حلب ولهم مهارة في ضرب الآلات بأحسن النفحات فصاروا يشتغلون في قهاوي الشام ويسمعهم الخاص والعام)^(١) .

فيلتقي فيها فئات مختلفة من العامة . وقد انتشرت المقاهي في جميع محلات دمشق . ومن المقاهي التي ورد اسمها في الوثائق الشرعية مقهى باب جيرون المعروفة بمقهى النوفرة وهي مقابل حمام الذهبية ومقهى الجاويش في القيصرية ومقهى باب السلام ومقهى المناخلية جانب جامع سنان ومقهى خانة في محلة خان السلطان ، ومقهى السوقية ، ومقهى ساروجا ، ومقهى باب مصلى .

ويتألف المقهى من داخل وقنا وسقف وبركة ومساطب مستديرة وأوجاق معدة

(١) البديري : حوادث دمشق اليومية ص ٩٥ .

لطبخ القهوة ومنافع شرعية . وكان الأهالي يرتادون المقاهي للاستماع إلى الحكواتي والقصص التي يرويها ، ويتفاعلون مع قصص الحكواتي ، وأحياناً تحدث المشاجرات لانقسام الموجودين بين طرفي أبطال القصة .

ومن الحكواتية الذين اشتهروا في تلك الفترة ، سليمان بن الحشيش الذي يقول عنه البديري : (كان فريد عصره وكان يحكي سيرة الظاهر وعنترة وسيف ، ونوادر غريبة في التركي والعربي ومع ذلك فهو أُمي لا يقرأ ولا يكتب) . وأحمد شاكر الحكواتي الذي توفي عام (١١٩٣هـ / ١٧٧٩م) . وكان ارتياد المقاهي لا يقتصر على فترة المساء فقط ، بل وجد عدد من الأماكن حيث توضع الكراسي في الأسواق بجانب دكان صغير يقوم بطبخ القهوة فيها ويتم ذلك خلال ساعات النهار ، وكان أكثر روادها أبناء الريف القادمون إلى دمشق للتبضع فيجلسون بغية الراحة بعد عناء التسوق وفي بعض الأماكن كانت تسبب الضرر للمارين .

كذلك أولع الدمشقيون بالغناء والموسيقى لقتل الفراغ كولعهم بالسيران والنزهة في بساتين دمشق ، كما وجد في دمشق من يقوم بالعباب الخفة والبهلوانية في أسواقها ومقاهيها وساحاتها . ففي عام (١١٦٣هـ / ١٧٤٩م) جاء أشخاص لهم موهبة بالعباب الخفة وتجمع عليهم الكثير من أبناء دمشق واستطاع الكثير من أبناء دمشق أن يمارس هذه الألعاب بسرعة ويدل ذلك على ذكاء أبناء هذه المدينة وتميز الشباب الدمشقي بإطلاق اللحي ، وقلة هم من يحلق لحيته ، حيث كان يتم تمييزه بجملة حليق اللحية .

ولكثرة تعلق الناس بالشيخو وحب مصاحبتهم ساد الاعتقاد بمقدرة الصالحين في قبورهم بدفع البلاء وشفاء المرضى وقضاء الحاجات فتهافتوا لزيارتهم وتقديم النذور لهم ، وهذا الأمر استمر مع مرور الزمن عند بعض الفئات الاجتماعية وقد اتصف الدمشقي بإكرام الضيف والجود والسخاء ، وهم مفطورون على المروءة وعمل الخير ، ويتصفون بالتعاضد والتعاون مما ينبعث عنه العدل والإحسان بين أفراد مجتمع مدينة دمشق .

متنزهات دمشق

أحيطت مدينة دمشق بجنائن وبساتين مغروسة بالأشجار ذات الثمار المتنوعة ، تشق من أنهرها جداول وأقنية للمياه الغزيرة ، وجميع هذه البساتين هي أيضاً متنفسات ينتزه فيها أهالي دمشق ، ولها عندهم خصوصية يلتقي فيها الناس باجتماعات عامة ، وبنزهات عائلية رائعة ولطيفة ، فتتمّ من خلالها الحلقات العلمية ، وحلقات الذكر والمدائح النبوية ، وحلقات الطرب ، وتوشح هذه الحلقات بدخان وهبّال ورائحة المقاتلي والمشاي والالعب الرياضية والفروسية المختلفة ، ومن أجمل تلك المتنزهات وأعظمها على الإطلاق (وادي الربوة) ، ثم المرجة الخضراء ، وقبلهما غوطة دمشق الشهيرة التي يقال : إنّ اسمها الأصلي هو جنة آدم ، أو الفرديس ، ولم يعرف اسم غوطة دمشق إلا في العهد الإسلامي ، وأول ما ذكر فيه اسم الغوطة كان في كتاب خالد بن الوليد لـ (بني شجعة) أن لهم قصم غربيها وسقيتها ، وجلد عامر الأرض شرقيها ، وأن لأهل الغوطة ما غربيها .

وقد قيل في عهد عبد الملك بن مروان :

أجار الله والخليفة في الغوطة دار بها بنو الحكيم
المانعو الجار أن يضام جار وعافيههم بمهتضم

متنزه الطويلة :

هو مرجة خضراء تقع غربي الميدانين التحتاني والفوقاني على الطريق المسمى (صف الجوز) ، والموصل من باب محلة الشويكة خارج سور جدران البلد إلى قرية (الكثيب الأحمر) ، المعروفة اليوم بقرية (القدم الشريف) . والسبب في

تسميتها بذلك وجود الحجر المؤثرة به قدم نبينا الحبيب محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على ما قيل في جامعها الشريف .

متنزه ساحة بوابة الميدان الفوقاني :

هو في العَرَصَة الواقعة خارج باب مصر ، المار ذكره ، وهذه العَرَصَة أكثر أرضها صخري ، وبها محافر التراب الأحمر الذي تطين به أسطحة الدور والبيوت وجدرانها ، وعلى الطرف الشرقي الشمالي من هذه العَرَصَة تقع المقبرة المعروفة بمقبرة السيد تقي الدين الحصني ، وجددت في غربي هذه التربة المحطة المخصصة بالسكة الحديدية الإفريقية التي بين دمشق وبيروت غرباً وحوران جنوباً ، وكان بها قديماً مخفر عسكري سلطاني تركي ، وبني إلى جانب هذا المخفر محطة مؤقتة تخص طريق السكة الحجازية وتلغرافها ، وهذه العَرَصَة تمتد قبلة إلى منزل ركب الحاج حولها عند ذهابه وإيابه ، وخلاف الأوقات ، يصلي فيها أهالي القرية المذكورة وبعض المارين والمسافرين . وبالعَرَصَة المذكورة توجد عدة سواقي مياه تتغذى من نهر قناية الصوف ، والمعروفة بنهر الديراني لسقاية الأراضي الواقعة بأطراف هذه العَرَصَة بشكل دائم .



صورة متنزه الصوفانية

متنزه ساحة السّخانة :

يقع في العرصة الكبيرة شرقي جدران بيوت الميدانين على طولهما ، أما عرض الساحة المذكورة غرباً لشرق ، فيتألف من جدران البيوت إلى جدران البساتين الفاصل بينهما نهر ماء . ويجتمع في طرف هذه الساحة عصر كل يوم من أيام فصل الصيف ، أرباب الإبل وتجارها ، ويصبح المكان سوقاً لبيع الجمال والأبقار والأغنام والخيول وغيرها من الحيوانات وشرائها ، ويدوم هذا السوق إلى لغروب .

متنزه الصوفانية :

فيه جنائن متلاصقة يجمع بينها نهر بردى وجسره المعروف بجسر الصوفانية الواقع شرقي قبر سيدي الشيخ أرسلان الدمشقي ، قدس الله تعالى روحه ، لشماله الشرقي . وترتيب تلك الجنائن على أبعد ما يكون ، وقد اتخذها النصاري متنزهاً لهم لقربها من حيهم ومحلّتهم .

متنزه باب شرقي :

كان تلاً ترايباً هُدم قريباً ، ويستدل مما عُثر عليه ، بعد هدمه ، على أنه كان في محلة معامل نارية كمعامل (الفخار والقيشاني) ، كما شوهد آثار ذلك أثناء الحفر في التل .

وفي سنة (١٣٠٠هـ - ١٨٨٢م) حصل الدكتور وردي شان بك المسيحي الطبيب بالمشفى العسكري على ترخيص قام بموجبه بتسوية ذلك التل ومهده وجعله بستاناً ، وغرس فيه أنواع أشجار الفاكهة الدمشقية والأجنبية ، ثم أنشأ بضمّنه داراً لسكنه ، فأضحى المحل المذكور على غاية من الحسن والأنس بعد وحشته ، وصار حوله متنزه للنصاري أيضاً ، لقربه من محلّتهم داخل الباب الشرقي .

متنزه الزينية وبرج الروس :

يقع شرقي محلة العمارة البرانية للشمال ، وهو طريق واسع يوصل من باب سوق مسجد الأقصاب إلى عموم قرى الغوطة ومنها إلى حمص وحماء وحلب وخلافها .

وعلى طرفي هذا الطريق الجنائن والبساتين الواقعة بأرض محلة (العنابة) وبهذا الطريق (عين ماء الزينية) المشهورة الجودة ، وجميع هذه الجنائن والبساتين معدة كمتنزة لأهالي دمشق المقيمين قرب هذا الموقع ويؤمونه صباحاً ومساءً لما بها من بديع الترتيب والمقاصف التي لا توجد في غيرها مثلها . وقد أنشئ في بعض هذه الجنائن من جهة الطريق الشمالية للغرب ، بيوت وأسواق ومحال تجارية ومساجد ومستشفيات ، وكذلك على جهته الشرقية ، والبناء قائم على قدم وساق بازدياد يومي .

متنزه مرجة الدحداح :

هذه المرجة ، وما بجانيها من الجنائن ، كانت معدة لتنزه أشراف وذوات المدينة ليلاً ونهاراً ، نظراً لقرب هذا المتنزه وانتظامه البديع ، فأما مرجة الدحداح فجميعها قد أصبح مقبرة اليوم ، رغبة في مجاورة ضريح الصحابي الجليل (أبي الدحداح) ، وضريح الصحابي عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما ، وخلافهما من الأولياء والصالحين ، ولم يبق من أرض المرجة شيء خال ، أما قناة المياه فلا تزال جارية بأطرافها .

متنزه جنائن المزابل :

يقع ضمن محلة تسمى (محلة المزابل) من موقع العمارة ، وكذلك هي جنائن واقعة على طرفي نهر بردى ، وهي معدة للقاصدين وفيها ما بالجنائن المتقدم ذكرها من الانتظام وحسن الترتيب والمقاصف الجميلة والرائعة والبديعة .

وإن جميع أصحاب هذه الجنائن ومستأجريها لم تكن لهم صنعة أو حرفة يتعيشون منها سوى موردتهم من القاصدين ، وتزداد العطاءات لهم كل بحسب ما يقدمه من وسائل الراحة والخدمة للزائرين من الأهالي ، على حسب درجاتهم وإمكاناتهم ، وإن هذه المتنزهات بعضها تستقبل زائريها صيفاً وشتاءً ، فبالصيف تكون في الهواء الطلق وتحت العرائش والأشجار ، وفي الشتاء تكون جلساتهم في أبنية مسقوفة مدفأة ذات واجهات زجاجية حيث شرب الأراكيل ولعب النرد وطاوله

الزهر وورق الشدة والضيافة وسواها من الألعاب المسلية التي لا تخلو من الجميعات اللطيفة على الدوام ليلاً ونهاراً .

متنزه باب السلام :

وأما متنزه باب السلام ، فكذلك به جنائن على جانبي نهر بردى ، كجنائن مرج الدحداح ، وهي معدة للقاصدين له من أبناء تلك المحلة وغيرهم من الضائفين .

متنزه ماء عين كرش :

يقع شمالي سوق ساروجا على الطريق العام المتجه إلى المهاجرين من الأكراد في ثمن الصالحية ، وعلى الطريق المذكور جنائن ويساتين من ألطف المتنزهات البديعة وأجملها ، وهي أيضاً معدة للقاصدين وعلى الدوام لا تخلو من المتزهين .

متنزه جبل قاسيون :

من متنزهات الصالحية ، به من الأنس والانشراح والمناظر البديعة الرائعة التي لا يوجد مثلها على وجه الأرض ، وقد تجدد بسفح هذا الجبل ، لجهة الشرق ، إعمار محلة المهاجرين والأكراد وهي بازدياد حيث امتدت شرقاً حتى كادت تصل إلى قرية برزة . كما تجدد أيضاً غربي سفح جبل قاسيون ، قرب مطلة وادي الربوة ، محلة للمهاجرين الأتراك ، أصبحت بمقدار مساحة دمشق القديمة ، وقد تطرزت بأجمل الأبنية وأرفعها أناقاة وترتياً .

متنزه مصطبة غليوم العاهل الألماني :

لما قدم ملك ألمانيا إلى دمشق ، أنشئ له متنزه بأعلى السفح ضمن مصطبة تشرف على مدينة دمشق وغوطتها وضياعها ، بأبدع منظر ، ونصبت له على المصطبة خيمة عظيمة من الحرير ، وهذه المصطبة باقية إلى يومنا هذا ، ويقصدها الناس من كل جهة ، ولا تخلو من ازدحام الناس ، وخاصة في فصل الصيف نهاراً وليلاً .

متنزه جنائن الآس وحب الآس :

وهو أيضاً بسفح جبل قاسيون من جهة الغرب ، ويشق نهر يزيد هذه الجنائن التي لا يوجد نظير لترتيبها بأقطار المعمورة . وتعلو هذه الجنائن حواكير الصبارة واللوز والخرنوب والأراصيا والرمان وغير ذلك ، فالقاصدون لهذه الجنائن في موسم نضوج (ثمر حب الآس أو الحبلاس) يقسمون نزهتهم إلى ثلاثة أوقات : باكراً ، في حواكير الصبارة ، ومن الضحى للاصفرار ، في مقاصف جنائن الحبلاس والرمان على حافتي النهر ، ومساءً بعد اصفرار الشمس ، يصعدون إلى الجبل ، جبل قاسيون ، بعضهم إلى المصطبة المتقدم ذكرها ، والبعض الآخر إلى مراكز أخرى مطلة على مدينة دمشق وبساتينها وجنائنها الرائعة البديعة ، التي تكاد تشبه البساط السندسي بألوان أزهارها ونباتاتها وأشجارها ، على مد البصر والنظر قبله شرقاً وغرباً .

المتنزهات الخاصة بدمشق :

وهذه لا تحصى ، ويضيق المجال عن ذكرها بوجه العموم ، حيث إن البيوت الدمشقية جميعها في مدينة دمشق القديمة والجديدة ، محاطة من خارجها ، وفي داخلها بجنائن ، وبساتين مطوقة لها ، تمتد إلى قراها وضيعها ، وهي متنزهات لعامة أهلها ، وتتفوق على المتنزهات الخاصة والعامة بمساحاتها وروعيتها .

متنزه المرج الأخضر :

مرجة دمشق الخضراء الواقعة في مبدأ ساحة دمشق ، وتنتهي في مبدأ وادي (اختناق الربوة) التي أوقفها المرحوم الملك العادل السلطان نور الدين محمود بن زنكي ، الشهيد الأتابكي ، أحد ملوك الشام والحجاز والثغور والموصل والجزيرتين الفراتية وابن عمر وديار بكر ، أوقفها متنزهاً للفقراء والحيوانات العطيلة . وهذه المرجة طولها شرقاً بغرب من حدود باب تكية المغفور له السلطان الغازي سليمان الخان القانوني بن السلطان سليم خان ثاني الملوك والسلاطين العثمانيين والأتراك على بلاد الشام والحجاز ومصر والثغور ، وذلك إلى المحل المعروف (بصدر الباز) .

وهذه هي آخر المرجة الغراء ، وأول حدائق الوادي الماضي ذكره ، وقبلة بشمال من حدود (مقبرة الصوفية) الفاصل بينهما نهر بانياس ، وللطريق الموصل إلى (الثكنة والمستشفى العسكري) الجديدين ، إلى حدود بستان الشرف الأعلى الذي يعلو المرجة المذكورة لجهة الشمال ، ويشق منتصف هذه المرجة نهر بردى ، ويعلو لجهة القبلة جنوباً نهر بانياس ، ويرافق نهر بردى المذكور ضمن هذه المرجة على الجهة الشمالية الطريق الممتدة إلى مدينة بيروت ، وعلى شمال الطريق المذكورة عين ماء عظيمة تسمى (ماء القصارين) تخرج من منبعها المخصوص الواقع غربي المرجة لشمال ، ولم تزل ترافق الطريق آنف الذكر إلى المحل المعروف (بالبحصة) ، لتدخل في نهر بردى ، وهناك نهر عقربة ، وقد تجدد الإعمار قبلي المرجة المذكورة ، وغربي مقبرة الصوفية ، الثكنة والمستشفى العسكري السلطاني البديعان اللذان صرف على تعميرهما على ما قيل ، مبلغ يزيد على سبعة ملايين قرش .

وفي شرقي قبة الصوفية ، بملاصقة بستان الأعجام ، المستشفى والمارستان السلطاني البديع المخصوص للفقراء والأغراب ، الذي أنشأه الوزير الخطير والي سورية العادل العفيف ناظم باشا رحمه الله تعالى ، وقد بلغ ما صرف في إعمارهما ما يزيد على ثمانمئة ألف درهم ، وقد بني بمدخل هذا المستشفى بركة ماء على أجمل طراز ، تبرع بنفقتها رئيس المجلس الطبي العسكري الفريق عثمان باشا من ماله صدقة لكريمته المرحومة فاطمة خانوم ، وقد أضيف جانب من مقبرة الصوفية إلى هذا المشفى ، ودرست منه قبور كثيرة ، خلا قبور العلماء أصحاب الشهرة ، وجعل مكانها حديقة من أبدع الحدائق في المدينة ، وغرست بأنواع الأشجار اللطيفة والزهور والرياحين ، حتى أضحت نزهة وبهجة لتلك المحلة ، وخصصت متنزهاً للمرضى ، وبني على جانب المرجة المذكورة شمالاً مخزن للبارود العسكري وللأدوات والمهمات النارية الحربية السلطانية العثمانية التركية .

ويحيط بهذا المخزن بستان ذو أشجار مثمرة من جميع أنواع الفواكه ، وقد أصبحت هذه المرجة المتنزه الدائم لأهالي دمشق . وبالمرجة المذكورة (ثلاث

طواحين) ، اثنتان منهما مثبتتان على ماء نهر بانياس ، والثالثة مثبتة على قناة ماء خاصة ينحدر ماؤها من نهر ثورا ، يشق بساتين الصالحية إلى بستان الشرف الواقع شرقي مخزن البارود (الجبخانه) ومنه إلى الطاحون . وبني على نهر بردى ، بالمرجة المذكورة ، ثلاثة جسور أحدها تجاه محطة العجلات ، وهو أعظمها مصنوع من الحديد المحكم . والجسر الثاني ، أنشئ مقابل باب تكية السليمانية الشمالي . والجسر الثالث ، يقع في منتصف عَرْصَةِ المَرَجَةِ . ثم بمدة وجود الوزير الأعظم الصدر الأسبق المرحوم جواد باشا مشير فيلق دمشق وتوابعها ، أمر ببناء قصر مرتفع على ظهر نهر بانياس ، شمالي مقبرة الصوفية ، للقرب ، يفصل بينهما الطريق الموصل من باب المشير إلى الثكنة العسكرية المار ذكره .

وتم بناء هذا القصر على موجب الخريطة بالمخطط الذي نظمه الوزير المذكور على طراز (قفص طير القنابر) ، فكان بناؤه على أبداع ما يكون بالشكل والموقع ، وجعله محل قراءة للضباط . ولما تجدد طريق السكة الحديدية من دمشق إلى بيروت ، وجعلت محطاتها العظمى خارج باب مصر ، الواقع بالطرف القبلي من ثمن الميدان الفوقاني ، ونظراً لبعدها عن القاصدين من الركاب والتجار ، ابتاعت الشركة بستاناً قبلي مقبرة الصوفية المذكورة ، يفصل بينهما الطريق العام الموصل من باب السيد (ذي الخمار) الواقع غربي محلة القنوات البراني ، إلى قرية المزة ، ويمتد البستان المذكور لاتجاه بعض أبنية الثكنة العسكرية القبلية ، يفصل بينهما الطريق العام المذكور ، فقطعت أشجار هذا البستان وصار محطة صغيرة للركاب المتجهين إلى بيروت وحووران ، بمحلة البرامكة . وفي سنة (١٣١٠هـ / ١٨٩٢م) ، تجددت السكة الحديدية من دمشق إلى حلب ، وازدادت أبنية المحطة المذكورة ، وأنشئ بها مخزن كبير لحفظ البضائع المراد شحنها .

متنزه دمر :

مبتدأ هذا الوادي من أول مدخل مدينة دمشق ، وينتهي بحدود ضاحية قرية دمر ، وقد تطرز هذا الوادي اليوم على جهته الشرقية ، بالقرب من قرية دمر بقصور

شاهقات لبعض ذوات أهالي دمشق . وتشتمل على منازل ودور بقاعات واسعات وغرف عاليات ، يحيط بها رياض مغروسة بمحاسن الرياحين والزهور ، على أبداع تنسيق وترتيب وأجمل انتظام ، ويتوسط حدائقها وجنائنها برك ماء ببحرات مستديرة مبنية من الرخام الأبيض الفاقع المشرب بالعروق الحمراء والزرقاء ، ويشق هذه البرك كؤوس من رخام مثبتة على أعمدة رقيقة يفور منها الماء الزلال بنوافير ترتفع في الهواء على شكل رذاذ بزخّ وبخّ ورخّ ، ثم تعود لتنسكب في ماء تلك البحرات والبرك تصحبها أصوات خرير ، بأنغام السيكاه المطربة . وإن المار بهذا الوادي البديع يتلذذ فيه بحواسه الخمس (النظر والشم والسمع والذوق وانتعاش النفس والروح بالسعادة والسرور ، بما لا مزيد عليه ، ويعتبر هذا الموقع من أجمل المتنزهات لمدينة دمشق وأعظمها) .

ربوة دمشق :

ومن محاسن الشام محلة (الرّوبة)^(١) ، قال بعض المفسرين : الرّوبة أحدثها بنو كنعان وابتدؤوها . وهي المذكورة في قوله تعالى ﴿ وَءَاوَيْنَهُمَا إِلَى رُبُوعٍ ذَاتِ قُرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ ، [المؤمنون : ٥٠] ، يعني مريم وعيسى عليهما السلام ، وإنما قيل لها ربوة ؛ لأنها مرتفعة مشرفة على غوطتها ومياها . وكل راب مرتفع على ما حوله يقال له ربوة ومنه تربية الصبي ، لترفعه في النفس والجسم ، والمعين الماء الذي يخرج من الأرض .

وقال ابن مطرف في ترتيبه : الرّوبة فيها ثمان لغات : رُوبة ، ورِوبة ، ورِبوبة ، ورُباوة ، ورِباوة ، ورِباوة ، ورايبة ، ورُيبة ، والجمع رُبي .

والرّوبة مغارة لطيفة بسفح الجبل الغربي ، وبه صفة محراب يقال إنه مهد عيسى عليه السلام يُزار ويُنذر له . وبها جامع وخطبة ومدارس وعدة مساجد^(٢) ، وبها

(١) مازال المحلّة معروفة إلى عصرنا ، متّزهاً يعجّ بالمطاعم والمقاهي ورائحة الشواء .

(٢) لم يبق في عصرنا أي شيء من ذلك ، إنما هناك كتابة أثرية نادرة على متن الصخرة المعروفة بـ (المنشار) ، تؤرخ بناء مسجد هناك عام ٤٤٤ هـ أيام الخليفة المستنصر الفاطمي .

قاعات وأطباق ، وفيها عين ماء يقال لها (الملمم) ومرابط للدواب وبها سويتان قاطع بينهما نهر (بردى) ، وبها صيادو السمك يصطادون^(١) ، والقلايون على جبل النهر يقلونه ، ويُذبح فيها كل يوم خمسة عشر رأساً من الغنم خلاف ما يجيئها من اللحم من المدينة ، وبها عشرة شراحيه ليس لهم شغل غير الطبخ والغرف في الزبادي والصحون وكل ما تشتهي الأنفس فيها . وبها فرنان وثلاثة حوانيت برسم عمل الخبز التنوري ، وأما الفواكه فلا قيمة لها فإني اشتريت الرطل بربع درهم ، وكذلك الرطل الدمشقي من المشمش مثله والتفاح كذلك .

وبها حمام ليس على وجه الأرض نظيره لكثرة مائه ونظافته ، وله شبابيك تطل على النهر وهو مبني ما بين الأنهر من فوقه ومن تحته . وبها طارمة المسجد الديلمي الذي جدده نور الدين الشهيد وله أوقاف على قرّاء ووعاظ وقرّاء البخاري وغير ذلك كالمؤذن والفراش والبواب والوقاد . وفيه يقول تاج الدين الكندي :

إن نور الدين لما أن رأى في البساتين قصور الأغنياء
عمر الربوة قصرأ شاهقاً نزهة مطلقة للفقراء

وهي التي قال عنها الرحالة ابن بطوطة : هي أجمل مناظر الدنيا ومنتزهاتها ، وبها القصور المشيدة ، والمباني المشرفة ، والبساتين البديعة . عدّها المتقدمون من قاسيون أنها وادٍ وليست بجبل ؛ لأن الحد الطبيعي لهذا الجبل من الجنوب هو نهر بردى ، وهي أول منفسح الوادي الغربي الآخذ إلى دمشق ، وفيها يخرج بردى من سجنه الضيق بين شقي الجبل المزة وقاسيون ، وهو مضيق الربوة ، وينقسم فيها إلى عدة أنهار هي (يزيد وثورا) من الشرق والشمال ، وقناة (الداراني) ، ثم قناة المزة ، ثم القنوات ، وبانياس . وبأسفل الوادي يسيل ما بقي من المياه في بردى .

يقول البدرى : سميت بالربوة ؛ لأنها مرتفعة مشرفة على غوطتها ومياهها ، وهي معروفة ، تقع غرب دمشق ، كان لها شأن في الأيام الخالية ، وصفها البدرى

(١) أي كان في نهر بردى عند الربوة سمك ، وكانت مياهه عذبة شروبة . أما اليوم فحتى الضفادع تأنف من العيش في بردى لقذارته ونَتْنِهِ .

في القرن التاسع الهجري ، كما وصفها ابن طولون في القرن العاشر الهجري ، فكان الوصفان متشابهين إلا قليلاً : عمران ممتد الرواق ونضرة وغضارة وطبيعة ساحرة ومياه متدفقة ، ثم خرب ما فيها ودثرت قصورها وتهدمت مساجدها . مكانها في المضيق الذي يشكل آخر وادي بردى وأول المتسع الذي تبدأ به أرض الغوطة الغربية . سميت بالربوة والحقيقة أنها واد تسيل فيه الأنهار المتفرعة من بردى .

قال محمد شمس الدين الخياط يصف الربوة :

لرَبوتنا وادٍ حوى كلَّ بهجةٍ فعيشُ الورى يحلو لديه وَيَعْدُبُ
ترق لنا الأنهار من تحتِ جُنكِه فلا عجب أنا نخوض ونلعبُ

وقال ابن تميم يصف الربوة :

وربوةٍ قد سمت حتى تخالُّ لها سرًّا تحدثهُ للأنجم الزهر
ما بين روضٍ وأنهارٍ مسلسلةٍ تجري وتحمل أنواعاً من الثمرِ

وقال الشاعر جابر خير بك متشوقاً لدمشق :

يا ساري النجم بلغ غوطة الشام حبي إليها وأشواقِي ونهيامي
وأمسح جبينك بالأطياب عاطره وانقل شذاها لهذا المدنف الظامي
هناك بين روايبها وغطوتها ودعت أجمل أعوامي وأيامي
نهر الأنباط : كان في ميدان الحصى [حي الميدان التحتاني اليوم] ، شرقي جامع منجك^(١) .

نهر بانياس : يتفرع عن نهر بردى بأول الربوة الشرقيّة ، من سادس مقسم ، قبالة مقهى (أبو شفيق) ، ويجري شمال الشرف القبلي حتى يدخل قلعة دمشق فينقسم إلى قسمين : قسم يتجه شرقاً ، وقسم يتجه جنوباً .

نهر بردى : نهر دمشق الرئيسي ، ينبع من نبع بردى في الزبداني ثم يرفده نبع الفيحة في قرية الفيحة ويسير نحو دمشق ، فإذا صار قربها انقسم إلى سبعة أنهر ،

(١) مفاكهة الخلآن لابن طولون ٢١٢/١ .

ففي الشمال يتفرّع عنه نهرا (ثورا ويزيد) ، وفي الجنوب يتفرّع عنه أنهار (القنوات وبناس [بانياس] والمزّي والداراني) ، ويظل هو السابع الرئيس ، ثم يدخل دمشق ، ويخرج منها نحو الشرق فيروي الغوطة الشرقية ويصب في بحيرة (العتية) .

نهر التومة السفلى : مجهول الموقع ^(١) .

نهر التومة العليا : مجهول الموقع ^(٢) .

نهر ثورا : أحد فروع نهر بردى ، ينفصل عنه في منطقة الشادروان الغربي ، من رابع مقسم ، قبالة قصر خالد العظم ، ويتجه شرقاً على سفح قاسيون فيسقي أحياء الصالحية وبساتينها وسوق صاروجا والعقبة والعمارة ومسجد الأقطاب والزينية والقصاع ، ثم يدخل الغوطة فيسقي قرى كثيرة وينتهي في عذراء .

وخلافاً لما توهمته المؤرخون فإن اسمه (ثورا) من السريانية ويعني (شباك صيد السمك) . وكانت تسميته القديمة (نهر سقط) ^(٣) .

قال ابن الخياط في نهر ثورا :

جری النهر من شوق إلى حامل الثرى	وأجريتُ دمعاً شاقّة المنزلُ القفرُ
فلو كنتَ يوم البين شاهد عبّرتي	وعبرته لم تدر أيهما النهرُ
فيا نهر (ثورا) قد أثرت من الهوى	دفيماً أخبّته الجوانح والصدر
فكم نبى ضمّه قسيون	وكم وليّ عنده مدفون

وقال عن متزهات دمشق :

والنيربُ الأعلى محلُّ الأنس كذلك الأدنى حياة النفس

(١) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ١٤٧/٢ ، ١٥١ ، غوطة دمشق لكرد علي ، ٨٧ .

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر ١٤٧/٢ ، ١٥١ ، غوطة دمشق لكرد علي ، ٨٧ .

(٣) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ١٤٧/٢ ، ١٥١ ، القلائد الجوهريّة لابن طولون ٣٦٦/١ ،

معالم وأعلام لقدامة ٣١٥ ، معالم دمشق التاريخية للإيش والشهابي ٥١٨ ، نهر يزيّد

لأحمد الفضل عيد ٣١ .

ونزهة الدنيا أراضي سطرا^(١) لم تلق إلا روضة أو نهرا
وفيها قوله أيضاً :

وتمتدى الأفراح (وادي الربوة)
تجري به الأنهار كالكواكب
قد ساقها حكيمها المهندس
وكلهم قد جاوروا الرياضا
فقسّموا من بعضها أقساماً
وعن أنهار دمشق يقول :

أولها أصل النهور (بردا)
وعند (ثوراها) يثور الوجد
كذا (يزيد) أطيب الأنهار
كم شوقٍ محرورٍ لديه بردا
غذاؤه القيصوم ثم الرّند
إذ جريه في داخل الأحجار

نهر جسر البطّ : كان أحد فروع نهر ثورا ، تحت جسر البطّ [بلغه اليوم قرب
رأس شارع أبي رمانة ، عند حديقة أبي العلاء أو قريها]^(٢) .

نهر حرستا : كان فرعاً من فروع نهر يزيد ، بينه وبين مسجد حرستا . ويعرف
أيضاً بنهر الحرستاني^(٣) .

نهر حزرما : نسبة إلى قرية حزرما في الغوطة الشرقيّة ، يسقي أراضي حوش
الصالحية^(٤) .

(١) سطرا : قرية كانت بالقرب من العناب اليوم والعناية : مجموعة بساتين من دون جسر ثورا
الأخذ إلى طريق دوماً ويحتوي على دور وقصور وهي لصقّ (لييت لها) وتعرف اليوم
(بجنائن الورد) .

(٢) القلائد الجوهريّة لابن طولان ٣٦٩/١ ، المروج السندسيّة لابن كنان ٢٩ .

(٣) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ١٤٦/٢ ، ١٥ ، غوطة دمشق لكردي علي ٨٦ وح ٢ .

(٤) خطط دمشق للمنجد ٣٨ .

نهر الخندق : مجهول الموقع^(١) .

نهر الداراني : فرع من فروع نهر بردى ، ينفصل عنه من ثالث مقسم بأول وادي دمر ، قبالة جامع الوزان [الكويتي] ، وقيل (قرب الشادروان شرقي الربوة) ، ويسقي أراضي داريا وكفرسوسة والقدم ، وبعض بساتين الميدان والمزة ، وبعض بساتين الشاغور . ويُعرف أيضاً بنهر داريا ، ونهر الديراني^(٢) .

نهر الشيخ أرسلان : ينقسم نهر بردى في محلة الفرايين [بين باب توما وباب السلام خارج السور] إلى قسمين يشكلان بينهما جزيرة ، فيذهب أحدهما باتجاه جامع أرسلان عند الصوفانية فيسمى به^(٣) .

نهر طاحون الوز : كان من فروع نهر ثورا في حيّ الشهداء ، انظر أيضاً طاحون الوز^(٤) .

نهر العقرباني : فرع من فروع نهر بردى ، ينفصل عنه في ساحة المرجة يجري نحو الشرق فيكون خندقاً لقلعة دمشق من شمالها ، ويتابع سيره إلى محلة بين السورين ثم يماشي سور المدينة من خارجه ويصل إلى باب السلامة [باب السلام] ومنه إلى الصوفانية [الصفوانية] ثم مسجد خالد بن الوليد في مقبرة باب توما [مقبرة الشيخ أرسلان اليوم] فأراضي جرمانا وعقربا وبيت سحم . سمي بالعقرباني نسبة إلى قرية عقربا في الغوطة ، وكلمة « عقربا » سريانية شرقية تعني : العقرب ، ويُعرف أيضاً بقناة العقرباني ، وكان في السابق يُسمى : نهر المجدول^(٥) .

(١) الدرة المضية لابن صصرى ٨٠ ، ٨١ .

(٢) الروضة البهية لعربي كاتبي ٢١ ، غوطة دمشق لكرد علي ٨٧ تابع ح ٢ ، خطط دمشق للمنجد ٣٢ .

(٣) نزهة الأنام للبدرى ٣٧ ، منادمة الأطلال لبدران ٣٩٩ .

(٤) القلائد الجوهريّة لابن طولون ١/٣٦٩ ، المروج السندمية لابن كنان ٢٩ .

(٥) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ٢/٨١ ، ٨٢ ، ٨٧ ، ١٤٧ ، ١٥١ ، الأعلام الخطيرة لابن شدّاد ١٣٦ ، ١٣٧ ، الدارس للنعمي (الفهارس) ، غوطة دمشق لكرد علي ٨٧ ، وتابع ح ٢ ، غوطة دمشق لصفوح خير ٢٠٠ ، معالم دمشق التاريخية للإيش والشهابي ٥٢٠ .

نهر الغور الكبير : مجهول الموقع^(١) .

نهر قُلَيْط : من فروع نهر بانياس ، ويعتبر الأستاذ كرد علي أنه هو نفسه نهر بانياس بعد خروجه من المدينة إلى بساتين الشاغور وقرب الباب الشرقي ، أسمته العامة (قليط) ؛ لأنه يحمل الأقدار والنفايات ، ويضرب في أيامنا المثل بقذارته ، وكان يُعرف قديماً (بنهر قلو ط) وهي تسمية مشتقة من الجذر السامي المشترك (قلط) أي أزال وصرف ، وبنهر قليط ، وبنهر الأبيض^(٢) .

نهر المليحي : ينفصل عن نهر بردى بالقرب من طاحون الأحد عشرية [خارج الباب الشرقي] ، ويسقي أراضي المليحة وإليها نسبة تسميته ، وأراضي بلاط وخيارة ودير بحدل^(٣) .

نهر يزيد : يتفرّع عن نهر بردى عند أول مقسم ، شرقي بلدة الهامة ، ويسير إلى دمر ، ومنها في خرق صخري بجناح جبل قاسيون إلى صالحية دمشق فيسقيها وبرزة والقابون وينتهي في قرية حرستا . ووهم المؤرخون بأن الخليفة الأموي يزيد بن معاوية هو الذي شقّه ، والحقيقة أنه شُق في العهد الآرامي ، ووسّعه يزيد بعد ذلك فعُرف به . ويُعرف أيضاً بنهر القابون^(٤) .

النيطون : محلة كبيرة كانت عند الطرف الشمالي الشرقي لدمشق ، داخل السور ، داخل الباب الشرقي وباب توما ، حول كنيسة حنانيا ، وفي المصادر التاريخية القديمة : هي المحلة الواقعة قرب مربعة قنطرة بني مدلج وسوق الأحد في

(١) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ١٥١/٢ .

(٢) الدارس للنعمي ٢١٩/٢ ، ٢٥٧ .

(٣) خطط دمشق للمنجد ٣٧ .

(٤) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ٢٩٦/٢ ، الأعلام الخطيرة لابن شدّاد (الفهارس) ، القلائد الجوهريّة لابن طولون ١/٣٦٦ ، غوطة دمشق لكرد علي ٨٧ ، وتابع ح ٢ ، خطط دمشق للمنجد ٢٤ ، معالم دمشق التاريخية للإيش والشهابي ٥٢٥ ، نهر يزيد لأحمد الفضل عيد ٣١ .

الجهة الشرقية من جيرون وبالقرب من الأساكفية العتيق ، وبقرها كنيسة المصلبة .
تنسب تسميتها إلى النبطيين الذين كانوا يسكنونها^(١) .

النيرب : قرية كبيرة ومنتزه كان غربي دمشق ، بينها وبين الربوة ، وكانت قديماً تتألف من بساتين واسعة ملحقة بمحلة الصالحية ، في سفح جبل قاسيون الغربي ، وتنقسم إلى قسمين : النيرب الأعلى ، والنيرب الأدنى ، أما النيرب الأعلى فيقع بين نهري ثورا ويزيد ، ويمتد من الجسر الأبيض حتى بساتين (الدواسة) غرباً . أما النيرب الأدنى فيمتد بين نهري ثورا وبردى جنوباً ، ومن هنا أطلقت تسمية (النيربين) على هذه القرية التي كانت تضم تسعة مساجد . أما كلمة النيرب فمن الآرامية (نربا) وتعني : الوادي .

وفيها يقول بدر الدين بن لؤلؤ الذهبي يصف النيربين :

رعى الله (وادي النيربين) فإنني	قطعتُ به يوماً لذيذاً من العمر
درى أنني قد جتته متنزهاً	فمدّ لأقدامي ثياباً من الزهر
وأوحى إلى الأغصان قربي فأرسلت	هدايا مع الأرياح طيبة النشر
وأخدمني الماء القراح وحيشما	سنحتُ رأيت الماء في خدمتي يجري
وأجاد الوداعي بقوله :	

ويومٌ لنا بالنَّيربين رقيقةٌ	حواشيه خال من رقيب يشينه
وقفنا وسلمنا على الدوح بُكرةً	فردت علينا بالرؤوس غصونه
وأجاد سيف الدين المُشدّ ، وأبدع :	
وصباً صَبَتْ من (قاسيون) فسكنت	بهبوبها وصبّ الفؤاد البالي
خاضت مياه (النيربين) عشيّة	وأنتك وهي بليلة الأذيال

(١) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ٤٧٨/١ ، ٢٢٥/٢ ، الأعلام الخطيرة لابن شدّاد ٢٧٥ ، ثمار المقاصد لابن عبد الهادي ٧٦ وح ٤ ، خارطة دمشق القديمة للمنجد (المجمع العلمي العربي) .

الشام منبتهم

الأخطل الصغير

بيضاً وحُمراً من ندى وِصْفاحِ
عصماءُ تسطعُ بالشَّذا الفَوَّاحِ
لُونانٍ مِنْ أَرْجٍ وَمِنْ تَصْداحِ
نَمَتْ عَلَى عُنُقَيْنِ مِنْ تَفَّاحِ
فَتَخَوَّفَا طَرَفَ الضُّحَى اللَّمَّاحِ
شَعْرِيَّةً ، وَهوى الشَّامِ سَلاحِي
وَلَثِمْتُ بِدَرْكِ ، وَالضِّيَاءِ وَشاحِي
شَكوى الهوى وَصِبابَةَ الْمُلتاحِ
فِي فَتِيَّةِ شَمِّ الْأُنُوفِ صَباحِ
تَنْزَلَ عَلَى عَرَبٍ هُنَاكَ فَصاحِ
هَادٍ ، وَكَمْ مِنْ بَلْبَلٍ صَدَّاحِ
لَا بَنَ الْوَلِيدِ وَتِلْكَ لِلْجَرَّاحِ
وَسَقَى الْمَكَارِمَ فَضْلَةَ الْأَقْداحِ
عَرِيَّةُ الْإِمْسَاءِ وَالْإِصْباحِ
قَطَعْتَ بِهِ يَوْماً لَذِيذاً مِنَ الْعُمُرِ
فَمَدَّ لِأَقْدَامِي ثِيَاباً مِنَ الزَّهْرِ
هَدَايَا مَعَ الْأَرْيَاحِ طَيِّبَةَ النَّشْرِ
يَفِيضُ بِسَائِرِ الثَّمَرَاتِ فَيُضَا
فَقُلْتُ لَهُ نَعَمْ وَنَبِيْعُ أَيْضَا

بَرَدِي ، نَظَمْتُ لَنَا الزَّمَانَ قِصَائِدَا
فِي كُلِّ رَايِيَّةٍ وَكُلِّ حَنِيَّةٍ
وَعَلَى الضُّفَافِ ، إِذَا تَمَوَّجَتِ الضُّحَى
وَالْغُصْنُ ، فِي حَضَنِ الرِّيَّاضِ ، وَسَادَةُ
مُتَلَاذِمِينَ ، تَوَجَّسَا إِثْمَ الْهَوَى ،
كَمْ وَقْفَةٍ لِي فِي ذِرَاكَ وَجُولَةٍ
فَدَيْتُ لَيْلَكَ ، وَالْكَوَكِبُ فِي يَدِي
لَيْلُ حَرِيرِي النَّسِيجِ ، كَأَنَّهُ
بَاكَرْتُهَا وَالزَّهْرُ يَشْرُقُ بِالْندَى
أَهْلُ النَّدَى وَالْبَاسِ ، إِنْ تَنْزَلَ بِهِمْ
الشَّامُ مِنْبَتُهُمْ ، وَكَمْ مِنْ كَوَكِبِ
نَسَلْتُهُمْ أَمْضَى السِّیُوفِ ، فَهَذِهِ
وَطَنُ أَعَارَ الْخُلْدِ بَعْضَ فَتُونِهِ
وَالشَّمْسُ ، فَوْقَ سَهُولِهِ وَنَجْوَدِهِ
رَعَى اللَّهُ وَادِي (النَّيْرَبِينَ) فَإِنِّي
دَرَى أَنَّنِي قَدْ جُبَّتْهُ مَتَنَزَّهًا
وَأَوْصَى إِلَى الْأَغْصَانِ قَرِيبِي فَأَرْسَلَتْ
يَقُولُ وَقَدْ رَأَى ثَوْرًا خَلِيلِي
أَيَكْفِيكُمْ فَلَا تَشْرُونَ شَيْئًا

قال أحمد بن علي المعروف بالصفوي يصف وادي دمشق :

وادي دمشق ولم تسمع به أذنُ
منك الجوارِيُّ وَالْوِلْدَانُ قَدْ سَكَنُوا

والله ما رأت العينان مثلك يا
لأنت كالجنة الفردوس إذ هبطتُ

ويناجي بردى :

بردى والورود في ضفتيه مصفيات لشعره والخرامى
هات حدث عن الشأم وحدث وأطل في الحديث عنها الكلاما
ما عرفت الغرام لولا رباها من ربا جلق عرفت الغراما
أعطني من ربوع جلق يوماً يا خليلي وخذ من العمر عاما
يبدو من هذا الوصف أن نهر بردى كان صافياً تترأى فيه المشاعل ، وتحوم
حوله الطيور ، وتسبح فيه السمك ، وهذا ما جعل متذوقي الجمال وبخاصة الشعراء
يحنون إليه ويشتاقون لرؤيته ، قال الشاعر العوض الوكيل :

إلى بردى جئنا وفي النفس لهفة إليه وفي الأحلام فرط حنين
نسير على شطّهِ نسترجع الذي مضى من ليالي المجد منذ قرون
ونسمع من أطيّاره فوق دوحها فنونا من الأنغام بعد فنون
ومن قاسيون نشهد الحسن كله على منظر لم يشتهه بقرين



نهر بردى



التكية السليمانية ١٩١٠م

هكذا كان نهر بردى يستهوي الشعراء بنظافته وصفاء مائه وسمكه وتغريد أطياره، وكان يسمى نهر الذهب اعترافاً بفضلته وخيره على دمشق وغوطة دمشق فما بالناس نهمله ونغض الطرف عن اتساخه! إنها مسؤولية المجتمع، فلو وجهت كل امرأة أفراد أسرتها بالألا يلقوا الأوساخ في النهر والطرق لما شوه جمال دمشق وماء بردى بهذه الفضلات .

ماذا جرى يا دمشق الشام في بردى؟	وكيف يؤذي جنان الخلد إنسان؟
أين النظافة تبدي الماء مبتسما	كالدري يسكبه في القاع فنان
أين العبير يغذي الروح يؤنسها	والجو يثمله مسك وريحان؟!
وهل تبدل بالماء النقي قذى	حتى علا النهر أوساخ وأدران؟!
شُلْتُ أنامل من يلقي به قدراً	هل يخدش الحسن إنسان ووجدان؟
لا نام قلب يغض الطرف عن بردى	إن عكر الماء في الفيحاء شيطان

ألقيت هذه الأبيات كمداخلة شعرية في الندوة التي أقامتها نقابة المهندسين فرع محافظة دمشق عن تلوث نهر بردى وغوطة دمشق تشرين الأول (١٩٨٦ م) .

الجريان مع بردى

يَبْزَغُ الْمَاءُ مِنَ الظُّلْمَةِ
مَأْخُوداً بِبِرْكَانِ النَّهَارِ

قَافِزاً مِنْ رَحِمِ الْأَرْضِ إِلَى أَحْضَانِهَا
طِفْلاً خِرَافِئاً
جَهِيرَ الصَّوْتِ
ثَرثاراً ضَحْوكاً
جَامِعاً فِي جَوْقَةٍ وَاحِدَةٍ
صَبْرَ الْمُسْتَنِينَ وَتَعْجِيلَ الصَّغَارِ

تَارِكاً فَوْقَ التَّرَابِ الْفَظَّ
إِعْلَاناً عَنِ التَّغْيِيرِ
فِي الْعَشْبِ الَّذِي يَتْبَعُهُ
أَنْتَى عَلَى الْبِيدَاءِ سَارِ

بَرْدَى . . .

يَقْرَعُ أَجْرَاساً مِنَ الصَّخْرِ
وَيَنْجُو مِنْ كَهُوفِ الْجَبَلِ الرَّاسِخِ
نَحْوَ السَّهْلِ
نَحْوَ الْإِخْضَارِ

هكذا سَمَّتُهُ شمسُ البرِّ
والكهَّانُ في الدير الذي يعطش في الصيفِ
وقُطَّاعُ الطَّرِيقِ

بردى الأَجْمَلُ
والأَوْفَى من الأصحابِ
والأَكْرَمُ والأَرْقُ

نذَرَتْهُ الأَرْضُ للناسِ
فلا يُدركه البحرُ
ولا يشربُهُ إِلَّا الأَحَقُّ
بردى يُولَدُ
إذْ تُولَدُ للصَّحراءِ والماءِ دَمَشَقُ

افتح الآن ذراعَيْكَ إذْ
يا أَيُّهَا الماءُ المَعْسَلُ

واحتَضِنِ « دُمَّر » في جَرِيكَ
و« الهامَة » و« الربوة »
وانفِذْ من سرير الحبِّ أقوى
ومن التفكير أنقى
ومن التجميلِ أَجْمَلُ

اقترب منها
فإن صرتَ على الصدرِ حريراً
وعلى الخدينِ مُخْمَلٌ

خَفَّفِ الوطاءَ
وصَفِّقْ وتمهَّلْ

كي ترش العاشق المأخوذَ بالبغتهِ
والحسن الذي أشرقَ خلفَ الكُمِّ
عن فلٍّ وزنبقٍ

يقفزُ الأطفالُ في الصيفِ عُراةً
نحو بحرٍ يتدفَّقُ

فإذا مرَّ رجالُ الأمنِ
لم يمنعْهُمُ القانونُ من أن يضحكوا
للرِيشةِ اجتاحتْ
وللوجهِ الحكوميّ تمزُّقُ

بردى . . .

لعبتنا الأحلى
وما في الجسدِ الطفليّ عريانَ

وما في ذكرياتِ النورِ والماءِ
من الدغدغةِ الأولى
ومن فطرةِ روحٍ تتألَّقُ
ويدخلُ النهرُ من البوابةِ الكبرى
فيحتالُ على نافذةٍ في الطابقِ الأرضيِّ
كي ينسلَّ منها زائراً
يلعبُ بعضَ الوقتِ في البحرةِ
أو تعبانَ يُرخي بدنًا تحت عيونِ الشمسِ
في أرضِ الديارِ

ماسحاً وجهَ المصلِّين وأيديهم
ومر شوشاً رذاذاً مرحاً
بين الصبايا يتخابثنَ
ويسبقنَ الصغارُ

نافذاً من عُرفِ النومِ
إلى الجيرانِ
يُفشي لهمُ سرّاً
ويروي قصّةً
من قصصِ الحبِّ التي يحبُّها الدهليزُ
والسطحُ وعينُ المشربةِ
طالعاً في ساحةِ الحيِّ

نديماً ساقياً
حتى إذا غابَ عن الأعين
ظلَّ الصوتُ يهدي منعشاً
تحت رنينِ الخطوِ
في مجرى السرايِبِ الخفيةِ

فإذا صادفهُ الجامعُ
لم يبخلْ على بركته في الصحنِ
أن تغدو لمنْ ينوي الوضوءَ المطهرةَ
ولمن أدَّى الصلاةَ المغفرةَ
ها هو الآنَ عريسُ الأرضِ في الغوطةِ
فالمشمسُ والدراقُ والخوخُ
وكلُّ الأخضرِ الموعودِ بالخصبِ فراشُ

فمن النهرِ ولوجُ
ومن التُّربِ ارتعاشُ
وصياحُ الحبِّ موسيقى العصافيرِ
وتصفيقُ الرياحينِ
وصوتُ الماءِ مبجوحاً
فإنْ شدَّ فقذفُ
وإذا ارتاح قليلاً فرشاشُ

ها هنا السرُّ
فإن كانت دمشقُ
مبدأ التاريخِ
والأعجوبة الأولى
لنهرٍ خارقٍ
في مهمه الصحراءِ يطفو

فأنا الآن على الأطلال أبكيها
وأسترجعُ تاريخي ونهري
وأرى ما جفَّ
في صورةٍ نبعٍ لا يجفُّ
يا لذاك الحبِّ
لم يبقَ من الحبِّ
سوى القرعِ على الأبوابِ
والمسحِ على الجدرانِ
في بيتِ الحبيبةِ

وأنا أرفضُ
إلا أن أنادي : بردي !
وأرى في بردي
معجزتي أو لوثتي
بحرَ الخصوبةِ . . .

وقال ابن عنين في الوادين : وادي بردى حيث نهر بردى من منبعه إلى مصبه .
وأرض الوادي بالغوطة :

فسقى دمشق وواديها والحمى
حتى ترى وجه الرياض بعارض
وأعاد أياماً مضين حميدة
تلك المنازل لا أعقة عالج
أرض إذا مرّت بها ريح الصبا
وقال أيضاً في وادي النيرين :

في روضة بالنيرين أريضة
أنى اتجهت رأيت ماء سائحا
فكأنما أطيّارها وغصونها
وكانما الجوزاء ألفت زهرها
ويمرّ مُعتلّ النسيم بروضها
وقال أيضاً :

دمشق فبي شوق إليها مبرّح
ديارٌ بها الحصباء دُرٌّ وتربها
فيا حبذا الروض الذي دون (عزّتا)
ويا حبذا الوادي إذا ما تدفقت
وقال أيضاً :

لولا اذكّارك (تل راهط) والحمى
أنى اتجهت رأيت روضاً محدقا
ماسح جفئك بالدموع ولا همى
بشفا غدير كالمجرة والسما

وقال أيضاً :

أضاءَ لنا من جانب الغورِ لامعٌ
فذكرني إيماضهُ كُلُّما خفا
وأيام دوح الغوطتين وظلّها
وروضاً إذا ما الريح فيه تنسّمت
وقال أيضاً :

أذكرتني وادي دمشق وظلُّهُ الضـ
ووصفت لي زمنَ الربيع وقد بدا
وتجاوبَ الأطيّار فيه فمطربٌ
يغني النديمَ عن القيان غناؤُها
وقال الشيخ شعبان الآثاري في أنهارها ومنتزهاتها :

شوقي (يزيد) وقلبُ الصَّبِّ ما بردا
ومدمعي (قنوات) والعدولُ حكي
على مغنية (بالجنك) جاوبها
فالبدرُ (جبهتُها) والرّدْفُ (ربوتها)
وقال الصلاح الصفدي :

انهض إلى الرّبوة مُستمتعاً
فالطيّرُ قد غنّى على عودِهِ
وقال الشرفُ القوّاس :

سرّ بي إلى الوادي وقف مُتنزّها
لو لم يكن هو جنّةً
فالجنكُ غنّت فوقهُ الأطيّارُ
ما كان تجري تحتها الأنهارُ

أرجوزة ابن خُداويردي في متنزّهات دمشق وأنهارها وأوديتها وعيونها

الحمد لله مفيض النعم مكوّن الأكوان بالإتقان بلا مثال سابق قد صوّرا ففيه أكبر شاهد التوحيد فكم بقاع خصّها بالشرف وبلدة حوت رياضاً وزهراً وبلدة من عاصفات الحرّ وقرية ريت من الأمطار مشيئة قد شاءها الرحمن	مولٍ لمن شاء صنوف الكرم صنع حكيم مبدع متقان هذا الوجود فكن بذاً معتبراً ولقوة الإيمان كالتشيد وأختها قضى لها بالسخف ووروداً يانعات ونهر ظمأى وسقى أرضها من بئر تسقى بماء الديمة المدرار بكفّه الإعطاء والحرمان
---	---

* * *

هذي دمشق الشام دار اللهو حاكت جنان الخلد عند العرض بل شامة الدنيا وعين الملك أنهارها عدّ النجوم الزهر وكل روض في مثال الجنة فإن ترم تفصيل ذا قم واستمع بعد التحيات الغزار الجمّة وآله الأنجاد ثم الصحب هاك استمع مني حديث الشام قد خصّها الرحمن بالأنهار	فاسند حديثي عن رباها وارو بل قيل عنها جنة في الأرض ويُعرف الدنيا عند السبك وليس إلّا في رياض تجري واقٍ لأخوان الصفا كالجنة أخا الذكاء سهل القريض الممتنع تُهدى لخير الخلق مُهدي الأمة وكلهم في فضله كالسحب دار التصابي والنعيم السامي وطيّب الأرواح والأزهار
--	---

وخصّها المولى بذاك الجبل
فكم نبي ضمّه قسيون
وكم صحابي بها استشهدا
وديرمرّان على قسيون
وتحت تلك الرياض الغضّه
غنّت بها الأطيّار في الأفنان
كذا الحواكير التي ينساب
كم أنّ دولاّب عليه وشكى
وقطر الدموع في الحياض
وقرية النخل مكان الصلحا
بالصالحية سمّيت يا صاح
تحفّها القصور والجواسق
تظّلّها الأدواح كالأعلام
وكل طير آخذ في مغنى
وموكب الأزهار في المكافحة
فلو ترى الريحان بين الآس
كذلك المنشور والسوسان
وحلقه المحبوب بين الزهر
وفاق عرف الطيب عرف الديك
للياسمين الغض عطر ذاكي
وعنده النسرين ثم الفاغية
كذاك زهر الأرغوان الباهي
شقائى النعمان في الأزهار
وسنبّل في اللون كالفيروزج

وقلّ أن يخلو مكان من ولي
وكم ولي عنده مدفون
وفي خبايا أرضها قد أهدا
كأنه في ملك أفريدون
وبينها الأمواه مثل الفضّه
فمالت الأغصان كالنشوان
فيها يزيد السلسل المطياب
وشاقه عهد الرياض فبكى
وباح بالأسرار للرياض
فكم بها قصد نزيل نجحا
بل متدى اللذات والأفراح
كأنها بين الربى سُرّادق
تزورها الأرواح للسلام
وكل حزب منهم في معنى
ونافحات الطيب منها نافحة
وأصفر الخيري كالنيراس
وعنده خشخاشه ألوان
حاكت سنا الياقوت فوق النحر
له مقام سبق كالتمليك
يحكي ضياء الزهر في الأفلاك
قد أشبها في الطيب نفح الغالية
وثم عنبر بوي زهر زاهي
كجلنار فاح في الأسحار
وزنبق يزهو بوجه أبلج

باتت تناجينا بعين سهرا
وفعله في الروض فعل القرقف
زهر القرنفل عطره كالنند
كذا البهار قطعة من صفر
وطاب لي فيه الثنا والوصف
لدى زهور سميت باللعلع
بالليلك انعم ياله من زهر
وعرفه الذاكى كذا اللينوفر
يحكي عبير المسك في الأسحار
فلا تقل دارين لا والشحر
ولم أقل في وصف شيء حتى

ونرجس بالطلّ عين سكرى
وغاية الآمال زهر المضعف
وأطيب الأزهار بعد الورد
زهر الأقاحي حقّة من تبر
وعند زهر البان لذّ القصف
وكم منادي الشوق فينا لعلع
كذلك اللسان زاكي العطر
إن البنفسج فضله لا يُنكر
وزهر آريون في الأزهار
وعند مرزنجوش طاب الشر
ومبهم الأسما زهور شتى

ذكر متنزهاتها :

تراها جنّات بلا محظور
كذلك الأدنى حياة النفس
لم تلق إلا روضة أو نهرا
ومجمع الأزهار والأنهار
وحليها الزهر ونقش الطلّ
وفوقها شحرورها يغرّد
طير التصابي في رباها غنى
هبّت رياح الشيح والحوذان
وسرحة الوادي مكان الشط
والمرجة الخضراء والسلسل
معاهد للهور والولدان

وانظر إلى السهمين والميطور
فوالنيرب الأعلى محل الأنس
فونزهة الدنيا أراضى سطرا
فوفي نصيب جحفل الأطيّار
تمشي بها الأمواه مشي الصلّ
وفرشها الياقوت والزمرد
فكم بها روض وكم من مغنى
وفي رياض السفح واللّوان
والجبهة الغرا محل البسط
واذكر رياض القصر والخلخال
مسارح الآرام والغزلان

لما غدت في حسنها مغبوبة
وكل نهر منهم سيحان
وما حوى الخابور والميدان
وحيث ما يمّت تلق روضه
ومرتع الأطيّار والغزلان
وإدّ جباه ربّه بالحظوة
لكنها تمشي على المراتب
وخطّها فهو الرئيس الأكيس
وبرّه عليهما قد فاضا
وخصّصوها للقري سهام

محاسن الدنيا رياض الغوطة
تشقّها الأنهار والخلجان
وأين منها الشعب يابوان
ومجمع الأمواه جسر الغيضة
ملتقّة الأغضان بالأغصان
ومتدى الأفراح وادي الربوة
تجري به الأنهار كالكوكب
قد ساقها حكيمها المهندس
وكلهم قد جاور الرياضا
فقسموا من بعضها أقساما

تفصيل أنهارها :

كم شرق محرور لديه بردا
غذاؤه القيصوم ثم الرند
إذ جريه في داخل الأحجار
إذ خصّصوه أهلها للشرب
نهر زها في حسنة ياناس
يمشي كمشي الواله الحيران
مقامه فيها مقام العزة
اسمع فدتك النفس ما أقول
يشق جوف الأرض تحت المرجة
وقد زهت أكنافها بالغرف
حتى يرى قد شق صدر الباز
كأنه سابور في الأيوان

أولها أصل النهور بردى
وعند ثوراهها يثور الوجد
كذا يزيد أطيب الأنهار
يا طيب ماء القنوات العذب
وصنوه في فعله باناس
يتلوه نهر اسمه الداراني
وجدول يسمى قناة المزة
هذي النهور السبعة الأصول
أما أبو الأنهار زاهي البهجة
المرجة الخضراء ذات الشرف
يمرّ مثل السهم كالمجتاز
وقد جرى في ذلك الميدان

تضمّه قناطر من جلمد
هناك يلقي جدولاً قد غلبا
وبعده من للتصابي داعيه
ثم المنحني جدول كبير
كذلك نهر اسمه الزبديني
وثم نهر اسمه الوسطاني
يا مجمع الأجباب يا درمينا
ويا حياة النفس نهر الماصية
ولست أنسى الجدول بالاني
يمشي رويداً صنوه الزابون
كذا خليج اسمه الشيداني
وبيت نايم نهرها قد عظما
وجدول يسعى إلى الغريفة
وآخر يسقي رياض المتبن
وللبلاية خصّوا جدولاً
وما بقي يجري إلى العباده

الذي ينقسم من نهري المنحني والداعباني :

الجامعي نهر بها قد عُرفا
وجدول يسمى بنهر البيره
وجدول المزاز ثم الشقّ
وراق ماء الجدول السلطاني
وفاقه في الحسن نهر الزلف
وجدول يسعى إلى الخياره
وراق حسناً ماؤه فوق الصفا
ياحسن روضات به معموره
غنت عليهم صادحات الورق
كم سار من روض إلى بستان
قد أتحت أدواحه بالطرف
وجريه في رونق الإمارة

ولا تدع يا صاح نهر الشُّبعا
كذا كلياً جدول معروف
إلى كفر بطنا خليج يجري
و جدول يجري إلى حموريا
ونهر سقبا في صفا اللجين
والأفتريس القرية المصطاف
الزهر والأدواح في بيت سوا
هذا الذي قد قسموا من بردى

الذي ينقسم من الداراني :

أما الذي قسمته يا دارا
نهر العرا والذيب والشارك
والحجر الدائر شعب خامسه
فقسموه عندهم يا صاح
نهر الكريمي ثم نهر الغربي

الذي ينقسم من قنوات :

وقسمت قنوات يا مسرور
و جدول الأشعاب نهر طامي

الذي ينقسم من تورا :

ونهر تورا قسموه فاسمع
أولها الأنصار نهر طافح
ونهر بشر جدول سلسال
وغالب نهر سليم القلب

كذا البلاطي جدول كالأفعى
وعين ترما نهرها موصوف
ونهر جسرين كذوب القطر
سقياً لأوقات مضت فيه ليا
كأنه الاسفنت في الدُّتَيْن
يجري إليها جدول خطاف
لها خليج كالجُباب إذا التوى
فاسمع وكن لقولنا معتمدا

يا من تَخَيَّرت الفيافي دارا
كذلك نهر الملقون الذاكِي
و جدول قد خصّ بالكفارسه
يا من سناه في ضيا المصباح
أبو عيار جدول كالقضب

نهر القُصير حظه التصغير
يخدّ وجه الأرض كالصمصام

نظماً حلا في الدهن ثم المسمَعِ
يجري ونشر الزهر منه فائح
والماء فيه قرقف جريال
وماؤه عذب لذيد الشرب

وصنوه السرداب نهر معتبر
كذا الفراديس الذكي العاطر
ونهر باب الثلث عذب المشرب
حديث عطر الروض يروى عنه

الذي ينقسم من يزيد :

ونهر مهدي فرقة فضيّه
وكلها تجري على الدوام
نالتها جلّنا فكانت أهلا

ومن يزيد جدول الشجرية
فهذه الأصول بالأقسام
مواهب الله العلي الأعلى

ذكر أوديتها :

اللاتي لأمراض القلب أدوية
بالطيب يحكي جونة العطار
في حلل الدياج والأطالس
تحفه الأزهار والأمواه
واد ترى للأنس فيه مددا
إذ قصرت عما حواه الألسن
الربوة الغنا محل الأنس
كلاهما في حسنه غمدان
دع عنك في أوصافه المجادله
أنهاره في وسطه غدران
كم ذا يغني طيره للدوح
فأين وادي آش أين الزهرا
يفاخر المريخ في شرفيه
أوقاته من أطيب الأوقات

ولنشرع الآن بذكر الأودية
إذ كلها في دوحه المعطار
تخاله يختال كالعرائس
وكلهم في حسنه تياه
أولهم يا صاح وادي بردي
تجري عليه بالدموع الأعين
ثانيهم وادي حياة النفس
وادي المكرم عنده كيوان
بالقرب منهم وادي الجنادله
وادي السفرجل منظر فتان
وادي الحصى صديق الروح
واذكر محل الشطح وادي الشقرا
يظله الشرفان من طرفيه
وادي الصفيرا موسم اللذات

فيه بقاع الفضل حتى أرزه
 كلاهما عن حسنه قد أعربا
 يضوع نشرأ من عبير الزهر
 أطيّاره تشدو على العيدان
 قد غصّ بالأمواه والأدواح
 على غناء الطير فاح العطر
 وادي التصابي والهنا بسّيما
 كم ذا شددنا نحوه من رحل
 وعرجا بي نحو وادي الفيجا
 وادّ سمي يا صاح بالعراد
 وليس مرأى العين مثل المخبر
 إذ بينهم بالحسن نال العليا

وأشرف الوديان وادي برزه
 لحرنة وادي ووادي معربا
 ووادي التل الرفيع القدر
 وادي منين أنضر الوديان
 وادي الدريج الطيّب الأرواح
 ووادي حلبون سقاه القطر
 ونزهة الدنيا بديع السّيما
 ووادي الخضرا محل الرحل
 يا صاحباي نار شوقي هيجا
 وأطربا سمعي بذكر الوادي
 ونهره الطامي البهيّ المنظر
 وواديّ الشرقي عروس الدنيا

ذكر الأعين :

وقاها ربّ الشام شرّ الأعين
 تفوق بالمشور نثر الصاحب
 ماء كذوّب الدر حاز الفخرا
 وماؤها في غاية اللطافة
 بين الرّبيّ والتين والزيتون
 يا من سميت عندهم مرجانه
 ماء قراح لؤلؤي الفرش
 عين تراها بالصفاء برّاقه
 من لي بأوقات لديك سلفت
 تأوي إليه زمر الملاهي

ونتبع الذكرى بذكر الأعين
 أشهرها في الحسن عين الصاحب
 وفي صفا الرواق عين الخضرا
 كذلك عين اسمها سيفه
 وأجلّ صدا قلبي بعين منين
 يا عين ذاك الروض يا فتّانه
 ولا تسل عن لطف عين الكرّش
 وكم جمعنا الشمل في الوّراقه
 يا عين يا من بالزينية عُرّفت
 وعند عين الشرش روض زاهي

قد سميت يا صاح بالرقية
 كم للتصابي بعث غايات النهي
 ضياء مرآة بروض القصف
 قد أحرزت محاسن الأوصاف
 إذ سقيها الرياض سقي النهر
 والبعض منها للقرى معونه
 ولا تروم العدّ والاستقصا
 قد خُصّ بالحرمان من أضعاف
 وغير ذكر الشام عندي طيش
 ومهبط القرآن والتبيين
 وخصّه بالسعي والتعريف
 وفيه للغفران نعم المطمح
 حامي حمى الإسلام ماحي الشرك
 في أن فيها من رياض الجنّة
 وخيركم بعدي خدين الصدق
 وثالث الخلفاء ذو النورين
 وبالرضا والعفو أرجو ختمي

وأنعم بعين اللذة الفضية
 وعين قرقور سقي عهد بها
 وعين أقلايا حكّت بالرصف
 عين حروش كالزلال الصافي
 فهذه العيون ذات القدر
 فالبعض منها قارب المدينه
 وما سواها صاح ليست تُحصى
 فانهضْ وشمّر للتصابي باعا
 فهذه الدنيا وهذا العيش
 إلا مناط العزّ والتمكين
 وإدّ جباه الله بالتشريف
 وعنده الأوزار حقاً تطرح
 وبلدة المختار عين الملك
 قد صحت الأقوال عند السنّه
 ونالت العليا بخير الخلق
 وصنوه الفاروق محيي الدين
 هو اطل الرضوان فيها تهمي

قال عبد الرحمن الشهير بالبهلول النحلاوي يصف وادي جلق :

بنيرب جلّتي دار النعيم
 سقاه مضاعف الغيث العميم
 حنوّ المرضعات على الفطيم
 ونحنُ لديه في ظلّ كريم
 فلم نرها كأصحاب الرقيم

وقانا لفحة الرّمضاء وإدّ
 به كم ضمناً مصطفى أنس
 نزلنا دوحه فحنا علينا
 لنا ابتسمت رُياه وقد جانا
 يصُدّ الشمس أنى واجهتنا

تُحَفُّ مَعَ الصَّبَا فِينَا صَبَاحاً فَيَحْجُبُهَا وَيَأْذِنُ لِلنَّسِيمِ
وَأَرْشَفْنَا عَلَى ظَمَأٍ زُلَالاً يُشْفِئُ سَنَاةً عَنْ بُرْءِ السَّقِيمِ

قال عبد اللطيف ابن المنقار يحيي دمشق وهو بعيد عنها ويصف منتزهاتها :

سَقَى دَارَ سَعْدَى مِنْ دَمَشْقٍ غَمَامَ وَحَيَّ بَقَاعَ الْغَوَاطِثِ سَلَامَ
وَجَادَ هَضَابَ الصَّالِحِيَّةِ صَيْبَ لَهُ فِي رِيَاضِ النَّيِّرِينَ رَكَامَ
وَهَلْ رِبْوَةُ الْأَنْسِ الَّتِي شَاعَ ذِكْرُهَا تَجُولُ بِهَا الْأَنْهَارُ وَهِيَ حَمَامَ
وَهَلْ شَرَفُ الْأَعْلَى مُطْلُوقُ قَصْرِهِ عَلَى الْمَرْجَةِ الْخَضِرَاءِ فِيهِ كَرَامَ
وَهَلْ قَاسِيُونَ قَلْبَهُ مَتَفَطِرٌ وَفِيهِ الرِّجَالُ الْأَرْبَعُونَ صِيَامَ
أَلَا لَيْتَ شَعْرِي هَلْ أَعُودُ لَجَلِّقِ وَهَلْ لِي بِوَادِي النَّيِّرِينَ مَقَامَ
سَلَامٌ عَلَى تِلْكَ الْمَغَانِي وَأَهْلِهَا وَإِنْ رِيَشٌ لِي مِنْ نَأْيِهِنَّ سَهَامَ
لَقَدْ جُمِعَتْ فِيهَا مَحَاسِنُ أَصْبَحَتْ لِدَرَجٍ فَخَارِ الشَّامِ وَهِيَ خَتَامَ
بِلَادُهَا الْحَصْبَاءُ دُرٌّ وَقُرْبُهَا عَبِيرٌ وَأَنْفَاسُ الشَّمَالِ مَدَامَ
لَقَدْ كَدْتُ أَقْضِي مِنْ بَعَادِي تَشَوُّقاً إِلَيْهَا وَجَسْمِي قَدْ عَرَاهُ سَقَامَ

* * *

وردة دمشق

خلقت دمشق لتكون مدينة الزهور والورود ولتكون ربوة من ربي الجنان ، يجري فيها بردى منذ قديم الزمن ، والورود تضيء على الحياة لوناً من البهجة والجمال .
إنها تحيل عبوس الحياة إلى ابتسام ، وكآبتها إلى حبور ، وخريفها إلى ربيع دائم .
إنها ذات مفعول سحري ، تراها تخلق من التشاؤم تفاؤلاً ، ومن التجهم غبطة ،
تنزع اليأس من الصدور لتزرع مكانه الأمل ، والفرج ، وحب الحياة .

الوردة الجورية الدمشقية تمثل الزهرة الوطنية الفلولكورية السورية وكل ما قيل
عن الورود وكل ما سيقال لا يفي وردة دمشق حقها ، ولقد جمعت دمشق مع جمال
طبيعتها وسحر حناياها ورقة طباع أهلها ، أجمل أنواع الورود والأزهار واشتهرت
بها من ورد جورى بلدى ، وياسمين منوع ، وفُلاً ، ونرجس ، وبنفسج ، ومنتور
وغير ذلك من أجمل ما خلق الله من ورود ورياحين وأزهار .

وصدقاً مهما شاهدت من أزاهير من مختلف أنحاء العالم مجتمعة . ومهما
شممت من روائح عطرية للورود والزهور من كل الدنيا لم ترَ أجمل الورد الجورى
البلدى ولا تجذبك أي رائحة إلا رائحته العطرة ، ولا تنشده لجمال ورده مهما كانت
إلا للوردة الجورية الدمشقية . وتبقى الوردة الدمشقية الملهم الأول لكل نوازع
اللطف والمحبة ورده جمالية عطرية ، طيبة ، لها قيمة فنية تاريخية .

منظرها جميل ، رائحتها نفوذه وأخاذه تمتاز بالنعومة والعذوبة ، يوحي مظهرها
التعبيري بالأمل ، والثقة بالنفس ، والشعور بالامتنان ، والخلود إلى السكينة ،
وتزيد عمق الاسترسال في التفكير . وترمز إلى الحب الصادق والشعور النبيل
والعمل على إسعاد الآخرين ومحبتهم .

ويكاد لا يخلو بيت دمشقي من أنواعها ، إنها زينة المنازل ، وأنس المجالس ،
وبهجة الأفراح الصديق يهديها إلى صديقه العاشق يشم في شذاها رائحة محبوبته .

والناس ، كل الناس ، يتغزلون بجمالها ، ويتهادونها في المناسبات ، يعبرون
بها عن حبهم وولائهم ، وينثرون ، حين تقديمها- في الأفراح والأتراح - عواطفهم
بين أصدقائهم وأهلبيهم . ولكم انطق الشعراء الورد .

وكم ألقوا على لسانه ، ومن وحيه روائع القصائد ، وأبكار المعاني . وكم أفتق
العشاق في استعمال الورد ، إشارة ورمزاً ، لما يريدون أن يتبادلوه من رسائل
وإشارات وألغاز .

قالوا : إن الورد الأبيض دليل الحب الطاهر النقي ، الخالي من الغش
والخداع . يتردد بين محورين اثنين متقاربين البراءة والعفاف ؛ لذلك هو دائماً لون
العروس وقالوا : إن الأصفر دليل اليأس والحزن والألم والغيرة والتملك .

وقالوا : إن الورد الأحمر دليل الحب المشتعل ، الثائر ، الجياش ، ولذلك
يقدم بعيد الحب بين الأحباب وما أكثر ما قالوا ، والورد لا علم له ، ولا خبر لديه
بكل ما زعموا وقالوا .

وقيل : قامت حروب الزهر ما بين الرياض السندسية وأتت بأجمعها لتغدو
روضة الورد الجنية لكنها انكسرت ؛ لأن الورد شوكتة قوية .

وقيل عن عظيم : لو كان لي الخيار بأن أختار لما كنت غير بائع للأزهار فإن
فاتني الريح لم يفتني العطر .

ولابن سينا الطبيب المشهور قول مأثور : من كان له رغيقان فليجعل أحدهما في
شم الورد لأن الخبز غذاء الأبدان والورد غذاء الأرواح .

ويكفي أهل دمشق أنهم يعيشون في جنة الورد ، ويستنشقون شذاه ، بين أجمل
مناظر الدنيا وأزكى روائعها .

ولا بد لنا أن نذكر بأن الوردة هي من بين معطيات الطبيعة كلها وحدها التي تمتع

النظر وتحى النفوس وتسعد القلب ، ووحدها الوردة الدمشقية شأنها مع العين كما شأنها مع الأنف ؛ فهي لغة ودلالة وهي أعظم هبات الله والطف ما ابتكرت الطبيعة من مخترعات ، وألوان الزهور أحلى وأبهى من قوس قزح فهي توظف أحاسيس الجمال .

والطريف في الأمر- كما تقول إحدى المجلات الفرنسية الكبرى - أن الورد لم يكن معروفاً في أوربة وفي القرون الوسطى حمل الصليبيون معهم من الشرق ، ومن مدينة دمشق بالذات - كما تقول المجلة الفرنسية - الزنبق والسوسن وغيرهما من الأزهار ونقلوها إلى الغرب ، فغrst في فرنسا ، وسهر عليها عمال الحدائق والبساتين برعايتهم واهتمامهم ، إلى أن كبرت وأورقت وتضاعف عددها ، وصارت تهدي إلى الملوك والعظماء وسمي السوسن بوردة دمشق .

وعلماء الطب ، يعنون عناية خاصة ، بدراسة أسرار الورد ، ومواد تركيبه ، كي يضيفوا إلى عقاقيرهم ، علاجاً يشفي المرضى ويعيد الصحة إلى من فقدوها .

وللورد في دمشق قصة لا تخلو من طرافة :

إنهم يستخرجون من وردة دمشق العطر وماء الورد ، وأول من اكتشف أهمية هذه الوردة ، في التقطير والتعطير ، الطبيب العربي ابن سينا ، وذلك في مطلع القرن الحادي عشر .

غير أن وردة دمشق عرفت قبل هذا التاريخ ، وقبل ابن سينا نفسه ، ويزعم كاتب فرنسي . أن سورية أخذت اسمها من وردة دمشق ، وشهرة الغوطة في دمشق بزراعتها ، جعلت سورية تحمل اسم « سوريستون » أي أرض الأزهار .

وببالغ بعضهم فيزعم أن الملائكة هم أول من زرعوا الورد ولما كانت دمشق أقدم مدينة في التاريخ ولما كانت غوطة دمشق أقدم مكان مزروع في التاريخ فمعنى ذلك أن آدم وحواء نزلا في جبل قاسيون ، المطل على دمشق . ولا شك أن الملائكة غrst أزهارها في الغوطة ، وأن وردة دمشق قادمة من الجنة .

ويقال : إن اكتشاف الورد الجوري كان من ملايين السنين في منطقة الشام وتعد دمشق من أكثر المدن حباً وعناية بالورود والزهور وخاصة الورد الجوري والياسمين البلدي ، ومن محاسن الورد بدمشق الورد النسريني وهو نوار أبيض يعرش الكروم له أغصان برؤوسها الورد كل غصن فيه مئة وردة وأكثر ، وبعضهم يسميه (نفنوفة) .

منذ أقدم العصور ، لم يذكر التاريخ أن فاتحاً أو زائراً ، دخل دمشق ، دون أن يهتم بوردها ، ويحمل معه بعض بذورها أو شتولها .

وردة دمشق كانت موجودة بين أزهار حدائق بابل ، كما كانت موجودة بين حدائق الفراعنة .

وعندما استولى العباسيون على الخلافة ، ونقلوا عاصمتهم إلى بغداد ، حملوا وردة دمشق معهم .

وحين ذهب عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس ، واستتب له الحكم فيها أمر بالحصول على غراس من وردة دمشق ، وزرعها في الأندلس ، انتقلت إلى هناك وانتشرت فيها ، وبلغ من إعجاب الخليفة المتوكل بهذه الوردة ، أنه خص قصره بها ، ومنع عامة الشعب من زراعتها ؛ لأنه - كما قال « ملك الملوك » وهذه ملكة الورود ، ولذلك يستحق كل منا الآخر . ومن الأندلس ، انتقلت وردة دمشق إلى أوربة ، وانتشرت فيها .

وعندما استرد صلاح الدين الأيوبي القدس من الصليبيين جلب خمسمئة جمل ، محملة كلها بماء الورد المستخرج من وردة دمشق لتطهير القدس من رجس الغزاة .

ومن بين القادة ، الذين جاؤوا مع الحملات الصليبية ، الكونت تيبو الرابع من مدينة بروفنس الفرنسية . وكان مولعاً بالورود ، ومن أجل هذا ، توجه إلى الغوطة ، وبحث عن وردة دمشق ومنها حمل معه كمية من بذورها ، وعاد بها إلى فرنسا .

واختفى الاهتمام بالوردة الدمشقية الفاتنة حيناً ، ولكن رائحتها الزكية ، أخذت تفوح في أوربة ، واستطاعت وردة دمشق ، أن تتجاوز بحر المانش ، لتدخل القصر الملكي البريطاني . ووقفت الأسرة المالكة البريطانية مشدوهة ، أمام هذه الوردة المعجزة ، ودعت إلى اجتماع ملكي ، اتخذ فيه قرار ، باعتبار هذه الوردة من الشعارات الأساسية للعائلة المالكة واهتم العلماء الأورييون بوردة دمشق ، وحلّلوها وقطروها ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يجدوا لها اسماً . فقالوا « تبقى وردة دمشق ، ودخل اسمها القواميس والمعاجم ، والمختبرات « روزا داماسينا » . ودار دولاب الزمن .

أعلن الجنرال ديغول ، بعد حرب حزيران ١٩٦٧م وقوفه إلى جانب العرب ، وقرر وزير الترية الفرنسي ، أن يرد الأمانة إلى دمشق ، فأرسل أصيصاً ، زرعت فيه الوردة مع شابين فرنسيين في سيارة ، وانطلقا بها من مدينة بروفنس الفرنسية ، إلى دمشق . وسلكا بها الطريق نفسه ، الذي سلكته الحملة الصليبية ، التي شارك بها الكونت تيبوا الرابع ، وصل الشaban إلى دمشق ، وقدموا الوردة إلى المتحف الوطني ، فزرعت في مدخل المتحف .

وبعد ، فإن حديث الورد شيق ممتع ، لأنه حديث يتصل بالذوق الرفيع ، والجمال الأصيل ، ويكاد أن يكون من أوائل وسائل الإلهام ، إلى أرباب الفكر ، والقلم والفن .

فلنحرص على أن ندخل الورود إلى مجتمعا ، ومنازلنا ، وأماكن عملنا ، ولنجعلها رسولنا إلى القلوب ، وهديتنا إلى الأصدقاء والأحباب فوردة دمشق الحمراء ذات رائحة عطرية قوية تبهج النفس وتفرح القلب .
نعم هي رمز الحب .

فالوردة ترافقنا من المهد إلى اللحد فمنذ ساعة دخولنا إلى الدنيا ونفتح أعيننا على الوردة وهي التي سنغمض أعيننا عليها أيضاً .

دمشق! منك تنبعث روائح الورود المقطوفة مدخرة بعد قطافها وموتها شذى

عبيرها أجادت يَدُكَ تزيين حداثتك بالأزاهير المتموجة ففي شذى ورودك الفؤاحة
يا دمشق

أستنشق روائح الشرق

شامة الدنيا دمشق

يا قارورة العطر

دمشقنا ، يا عشقنا

يا دمشق يا مدينة الشعر ، والسحر ، والعطر .

جتُّكمُ . . .

من تاريخ الوردة الدمشقية

التي تختصرُ تاريخَ العطر . . .

جتُّكمُ

من أزهار النَّارَنْجِ

والأضاليا . . .

والنَّزْجِسِ . . .

والشابَّ الظَّريفِ

قال محمد الخزرجي الدمشقي يصف الورد :

انظرُ إلى الورد ما أحلى شمائله سبحان خالقه من يابس الحطبِ
كأنه وجنةُ المحبوب نقطها كفُّ المحبِّ بدينار من الذهبِ

* * *

أول طائرة تهبط في دمشق

لم يصدق الدمشقيون في أول الأمر أن جسماً من الحديد يمكنه الطيران في السماء واعتبروا هذه المقولة كفراً من عمل الشيطان ، حتى حل ربيع الأول من عام (١٣٣٢ هـ الموافق كانون الثاني ١٩١٤ م) حين هبطت أول طائرة عثمانية فوق أرض المرج الأخضر (الملعب البلدي) . ويروي الأستاذ شفيق الإمام أنه عندما أخبر جده بالحدث ، هزّ رأسه بعد أن كان رافضاً وقال : وعلم الإنسان ما لم يعلم .

كانت الطائرة ألمانية الصنع يعود بناؤها للأعوام (١٩١٠ م - ١٩١٣ م) ويبلغ طولها (٧) أمتار وكذلك طول أجنحتها ، وهي مزودة بمحرك واحد لا تتجاوز قوته (٢٠٠) حصان بخاري ، أما حجرة الطيار ومعاونه فكانت بدون غطاء أو ساتر ، وقد بدأت رحلة هذه الطائرة من الأستانة (إسطنبول) إلى دمشق ، وكان من المفروض أن تكمل طريقها باتجاه فلسطين فالقاهرة محطتها الأخيرة على عشر مراحل ، بقيادة الطيار اليوزباشي العثماني (فتحي بك) ومعاونه راصد طيارة الملازم الأول المدفعي ومرافق نظارة الحربية العثمانية (صادق بك) ، إلا أنها سقطت بالقرب من (طبريا) في فلسطين ، ونقل جثمان الطيار ومعاونه حيث دفنا في حديقة ضريح صلاح الدين الأيوبي بالقرب من الجامع الأموي بدمشق .

* * *

جغرافية دمشق^(١)

الموقع :

تقع دمشق على ارتفاع يتراوح بين (٦٧٥ - ٩٠٠) متر عن سطح البحر ، وكانت مدينة دمشق القديمة محدودة المساحة ، يقع معظمها داخل أسوارها قبل أن تتسع قليلاً في القرن الماضي ، نحو الشمال الغربي في أحياء سوق ساروجا والعقبة ، ونحو الجنوب باتجاه حوران في أحياء الشاغور البراني والميدان . وكانت معظم أبنيتها تشغل الجانب الجنوبي من نهر بردى الذي عوضها ، وما زال ، عن الجفاف الذي فرضه عليها مناخها الصحراوي ، إذ (يبلغ معدل أمطارها السنوي زهاء ٢١٥ مم) .

ويعتقد أن نشوء المدينة يعود إلى الألف الثالثة قبل الميلاد على محور التجارة الرئيسي في غربي آسية ، ومفترق طرق حربية هامة وسط عوالم حضارية مشرقية وغربية متميزة ، في الحجاز وبلاد الرافدين وحوض النيل وفارس والهند والأناضول .

قلب دمشق العريقة ، دائرة يتوسطها المسجد الأموي ، حيث يتبين الزائر الحجارة الكنعانية ، وبقايا أعمدة معبد جوبيتر ، والآغورا ، وهناك يكون هذا القلب ، وسط أسواق دمشق المشهورة وأحيائها المعروفة ، في المدينة العربية التي لا تقدر الخط المستقيم ، ولا ترفع الجدران العملاقة ، ولا تصغر الإنسان أمام عظمة المعابد وأحجارها ، وهناك يكتشف الزائر وراء جدران الطين ، في البيوت

(١) تمت كتابة هذا الفصل بالاعتماد على المصادر والمراجع التالية : ١ - لسان العرب ٤٠٨/٥ . ٢ - غوطة دمشق ١٠١ . ٣ - الريف السوري ١٥٦/٢ . ٤ - غوطة دمشق ٤٦ . ٥ - تاريخ المزة وآثارها ٥٠ . ٦ - ديوان ابن عنين ١٢/٤ .

الجميلة ، أن النقوش والزخارف قريبة من الإنسان ، وسط حياته اليومية ، مختلطة بالظلال والعرائش والمياه .

تقع العيون مباشرة على آثار مهمة بعد المسجد الأموي المشهور بقيمته المعمارية والتاريخية ، إذ ينتبه الزائر إلى العادلية والظاهرية ، الأثرين اللذين يرتبطان بالأسرتين الظاهرية والأيوبيّة التي جمعت فيها الكتب الباقية من المدرسة الضيائية في الصالحية ، والعادلية التي اعتبرها كبار العلماء والكتاب ، وأعضاء المجلس العلمي .

في تلك الدائرة نفسها ، ضريحاً بطلين من عصر النور العربي : ضريح نور الدين الشهيد ، (موحد الإمارات العربية ، وحامي دمشق من الصليبيين ، ومؤسس المدرسة النورية ، والبيمارستان النوري) ، وضريح صلاح الدين الأيوبي الذي أكمل تحرير الأرض من الغزو الصليبي ، وعرفت أسرته بنشر المدارس العلمية التي كانت معاهد القرون الوسطى التي استقدمت طلاب الدراسة من أنحاء العالم الإسلامي الممتد حتى آسية الوسطى .

ويوجد خان أسعد باشا ، ذو القيمة المعمارية العالية ، وقد جمع فيه أسعد باشا أهم كنوز دمشق ، وبناء من أحجار بيوتها القديمة . وأنت وسط أسواق تتبين واجهات الخانات الأخرى ، وتستمتع بجمالها ، إذا وجدت زاوية مناسبة تأملها منها . وقد تكتشف إذا انتبهت ، آثار البحرات على الأرض وتطريزات من الرخام النفيس ، وكتابات في الحجر من زمن السلجوقيين .

يترك لك سوق البزورية نكهة خاصة بما يخزنه من تقاليد دمشق في الذوق ، وبما تجده في خبرة بائعيه ومفرداتهم من تراث دمشقي . تعبق في ذلك السوق رائحة العطور والتوابل والأعشاب ، وتزينه علب الحلوى الدمشقية وملبس العرائش والشموع .

وفي تلك الأسواق ، وعند الخانات ، تتذكر بداية المسرح السوري ، أيام أبي خليل القباني ، فهناك كانت أول عروضه ، وتتذكر المقاومة الوطنية السورية ،

فهناك مرّ حسن الخراط الذي كان حارساً ليلياً في الشاغور ، قبل أن يلتحق بالثورة السورية ، ويحاصر قصر العظم مضطراً الجنرال سراي إلى الهرب منه في ملابس امرأة .

وإذا مشيت من المسجد الأموي شرقاً وسط الحارات ، متعرجاً مستمتعاً بالظل في الصيف وبالبوابات والنوافذ الشرقية ، وببقايا زخرفة هنا أو هناك ، زائراً أحياناً بعض البيوت التي تكتنز النقوش الدمشقية ، وزخرفة العمارة العربية ، مبهوراً بأرض الدار وما فيها من الحجارة المرصوفة السوداء والبيضاء ، ومن الرخام أو البحرات ، كبيت المجلد ، تكتشف أنك وصلت إلى باب السلام في يسر وسرعة ، وتكتشف بذلك عبقرية تصميم الطرق في المدينة العربية .

وبعد أن تزور طاحونة قديمة قرب باب السلام ، يرافقتك سور دمشق في طريق لا مثيل له حتى باب توما ، فإلى يمينك السور ، وإلى يسارك بيوت تتصل بجسور ضيقة فوق النهر خلفها بساتين .

وقد تستبقيك القلعة التي ارتبطت بتاريخ دمشق وأحداثها حتى عصرها الحديث ، القلعة التي أقام فيها نور الدين الشهيد ورمم أسوارها ، ومات فيها ، ودفن فيها صلاح الدين حتى تم نقله إلى ضريحه المعروف بالقرب من الجامع الأموي ، والتي كان آخر ما اقتحمه تيمورلنك من دمشق .

فإذا اتجهت جنوباً بعد زيارتها ، رأيت حي القنوات وحاته ذات القناطر المنخفضة ، وواجهاته المطرزة أحياناً ، وتصادف فيه بوابة كبيرة هي المدخل إلى بيت أبي الشامات الذي استقبل فيه الملك فيصل أيام الحكومة العربية الأولى ، وتمر بواجهة بيت فخري البارودي المتميزة في الحي ، وهناك كان مقر أول مكتب إعلامي عربي ضد الصهيونية والاحتلال ، وإلى هناك كانت تتجه المظاهرات أيام الاحتلال الفرنسي ، وكانت مضافة الوطنيين العرب .

خلال زيارتك أحياء دمشق خارج السور : سوق ساروجة ، والميدان ، والصالحية ، والقنوات ، والعقبة ، والعمارة ، والشاغور ، تتبين أن كل حي منها

يتميز عن الآخر ، داخل وحدة طراز المدينة العربية ، وترى فيها آثاراً تاريخية قيمة وبيوتاً جميلة وأضرحة قديمة .



صورة الصالحية

فالصالحية التي ارتبط بناؤها بهجرة أهل القدس إلى دمشق أيام الغزو الصليبي ، وأنشأت كثيراً من تربها ومدارسها النساء الأيوبيات ، مدينة من القرون الوسطى ذات مخطط خاص دون سور ، كانت فيها أكبر مكتبات العالم وكنوز المخطوطات ، وعانت من الغزو المغولي والتتري ، ولا تزال تحفظ مخططها القديم نفسه ، والمحور الممتد من تربة أمة اللطيف إلى مدرسة الصاحبة ، وهي غنية بالأضرحة والتراب وبعضها آية في الفن والجمال .

والميدان مشروع سكني عربي قديم ، فيه كنوز معمارية نادرة ، فيه بيوت NSFها الفرنسيون أيام الاحتلال وأعيد بناؤها على الطراز العربي مع تحسينات مريحة ومعاصرة ، وتتقدم الحي مخازن الحبوب القديمة .

وفي باب توما ، والحارات المتفرعة من المحور الرئيسي طراز خاص أيضاً ، وقد يستهويك أن تزور هناك الكنائس التاريخية أو باحة تبدو من الباب المفتوح .

محطة الحجاز :

تذكرك بالزمن الذي أنشئت فيه سكة الحديد فوصلت المدن العربية بخط مواصلات سهل مأمون ، والمحطة بناء جميل يحترم الطراز العربي ويفيد منه في زخرفته الداخلية ، وغير بعيد منها التكية السلিমانية يشاهد الداخل إلى دمشق من (الغرب) وإلى جوار المتحف الوطني ، مجموعة عمرانية فخمة ، تقوم على ضفاف نهر بدرى ، تتميز بقبابها الكثيرة المنتظمة كالعقد حول قبة رئيسية كبيرة يحف بها مئذنتان ممشوقتان ، ترتفعان في السماء . وقد امتزج في هذه البقعة من دمشق جمال العمارة بجمال الطبيعة الحية ، فغدت أجمل بقاع دمشق وأكثرها جاذبية ، وتشتمل هذه المجموعة على تكية ومدرسة متجاورتين ، بنيتا في عهد السلطان سلیمان القانوني ابن السلطان سليم الأول فاتح البلاد العربية ، وفق فن العمارة العثمانية . بُدئ بإعمار التكية سنة (٩٦٢هـ / ١٥٥٤م) أيام (خضر أو خضري باشا) وانتهى في عام (٩٦٧هـ / ١٥٥٩م) وتشتمل التكية على جامع يتألف من قاعة مربعة ، تعلوها قبة كبيرة وأمامها رواق على أعمدة مسقوف بقباب صغيرة ، وعلى جانبيه ترتفع مئذنتان اسطوانيتان تنتهيان بمخروط من الرصاص ، وأمام الجامع باحة سماوية تحيط بها الحدائق وتتوسطها بحرة مستطيلة . ويقابل الجامع من الجهة الشمالية مجموعة من الأبنية تحتوي على مطبخ ومستودعات وقاعات للطعام ، وعلى الجانبين الشرقي والغربي مجموعة من الغرف الصغيرة ، يتقدمها رواق على أعمدة مسقوف بسلسلة من القباب الصغيرة . ويحيط بالجميع سور التكية ، وهو مزود بثلاثة أبواب .

أما المدرسة فقد بنيت في عام (٩٧٤هـ / ١٥٦٦م) أيام الوالي الوزير والمشير لالا مصطفى باشا وفق مخطط شبيه بمخطط التكية ، بل هي صورة مصغرة عنها . وزودت المجموعة بسوق لخدمة الحجاج تحول اليوم مع المدرسة إلى سوق سياحي للصناعات التقليدية .

وبالرغم من طابع البساطة المسيطر على هذه المجموعة المعمارية فإن المتأمل

لها يحسُّ بانسراح ومتعة ، مبعثهما ما تتحلى به من أناقة وانسجام في الخطوط ، ومن تناوب ألوان مداميك جامعها وحجارة قناطرها ، وما في ألواح الخزف الملون (القاشاني) ، فوق سواكف أبواب قاعاتها ، من بريق وجاذبية ، وتكاد العناية بالزخرفة تنحصر في جامعها الذي يحتوي على عناصر زخرفية عديدة ، نشاهدها في مقرنصاته الرائعة ، وفي نوافذ الجص المطعمة بالزجاج الملون ، الموزعة في أطراف القبة ، إلى غير ذلك من أنواع الزينة والزخرفة .

وكان المدخل الرئيسي للتكية من الباب الشمالي المطل على نهر بردى وأمامه جسر يمتد حتى شارع بيروت ، ومن الطبيعي أن بناء هذا الجسر تم في نفس الحقبة الزمنية التي بنيت بها التكية قبل بناء المدرسة والسوق ، وكان المهندس المشرف على البناء إيراني الأصل واسمه (ملّا آغا) يساعده عديد من مراقبي البناء الأتراك وفي عام (١٣٢٥هـ / ١٩٠٧م) شيد جسر شمالي التكية الواصل بين شارع بيروت وشارع الدكتور رضا سعيد وسمي هذا الجسر (بجسر الحرية) نسبة للانقلاب العثماني الذي قام به حزب الاتحاد والترقي على السلطان عبد الحميد الثاني ، غير أن الناس كان لهم تسمياتهم الخاصة ، فمنهم من كان يسميه (جسر الخازوق) وهي كلمة علمية تستعمل في الهندسة المدنية للدلالة على الوتد وقد استمدوها من القضيب المعدني الذي يعلو الجائر الشبكي الوسطي للجسر ، كما أشاعوا أنه كان واسطة الإعدام في العهد العثماني وهذا غير معقول إلا إذا أنزل المحكوم فوقه من طائرة هيليكوبتر أو رفع إليه (بالونش) .

والتكية بنيت مكان القصر الأبلق الذي هدمه تيمورلنك بعد أن انتقل منه إلى بيت أمير دمشق في سوق ساروجة ، الأمير الذي قاوم تيمورلنك حتى أسر وقتل ، ومكان البيت قرب المحور الرئيسي تقريباً .

وفي محيط التكية السليمانية توجد حديقة الأمة التي عرفت الاجتماعات الوطنية أيام الاحتلال الفرنسي وتطل عليها التربة الفروخشاهية ، ومدرسة جودت الهاشمي التي بنيت في الثلاثينيات ، وتضم حديقة المنشية التي يقابلها ضريح الشهيد

المجهول . ولا ينسى الزائر المدرسة الشامية البرانية التي أسستها ست الشام ، وفيها قبرها وقبر زوجها وقبر ابنها ، وترى في باحتها بركة مستطيلة وبقايا سور المدرسة القديم ، ونقوش التربة آية في الجمال .

وقرب السراي ، الذي يرتبط بتاريخ سورية الحديث وبأحداثها ، ساحة الشهداء التي أعدم فيها رجال النهضة (شهداء أيار) وأخذت منهم اسمها ، ويطل عليها بناء المنزل الذي وقف فيه جمال باشا السفاح يتفرج على مشهد الإعدام ، وفيها أعلن في الثامن من آذار سنة (١٩٢٠م) استقلال سورية بحدودها الطبيعية ورفض الوطن القومي الصهيوني ، رداً على معاهدة سايكس بيكو . وفي ذلك المكان أيضاً ، لحق أهل دمشق بلفور يوم زار دمشق ، فهرب منها في الليل^(١) .

وفي جامع تنكز الذي يطل على الساحة ، أسست الدولة العربية مدرسة حرية ، وفي الساحة كان المحتلون الفرنسيون يعرضون أبطال المقاومة السورية بعد الإعدام ، كانت ساحة الشهداء قديماً مرجاً من العشب (مرجة الحشيش) تصل حتى الملعب البلدي ، وفيها كان نور الدين الشهيد وصلاح الدين يلعبان الكرة (البولو) .

هكذا تمتزج الأحداث التاريخية بالأمكنة ، بمواطن الإعلان ، بالآثار المعمارية ، وتجد عراقة دمشق التي لا تنكشف للزائر في مرة واحدة ، ولكنها وبهي تنكشف له رويداً رويداً ، تشعره بأنه يصادف كنزاً من الكنوز ، ويقرأ الحضارة والأحداث معاً ، وذلك ما يميز دمشق من المدن الحجرية الميتة التي تبهرك بأعمدتها الشاهقة ، وتنتشر أمامك كراحة اليد ، فالحياة تطل علينا أبداً في ثنيات دمشق ، وتلتقي الأنماط في حضن العمارة العربية التي تطبع دمشق القديمة وأحياءها العربية خارج السور وداخله .

(١) تمت كتابة هذا الفصل بالاعتماد على المصادر والمراجع التالية : ١- ولادة دمشق في العهد العثماني : د . المنجد ص ٩٥ - ٢- منتخبات التواريخ لدمشق : الحصني ص ٢٨١ - ٣- مذكرات فخري البارودي ج ١ ص ٧٢

التاريخ العمراني لدمشق القديمة

ازدهرت دمشق عمرانياً منذ العهد الهلنستي ، حيث شُيِّد فيها حيان جديدان انب المدينة العربية الآرامية ، وأحيطت في عصر الرومان بسور دفاعي بني بالحجارة الضخمة ، ضم دمشق الآرامية والأحياء الجديدة ، وفيه سبعة أبواب لا يزال معظمها قائماً حتى الآن .

يخترق المدينة تلك ، شارع رئيسي عريض هو (شارع مدحت باشا) الذي يمتد بين باب الجابية في جهة الغرب إلى الباب الشرقي في جهة الشرق ، بطول (١٥٠٠ متر) ، وكان هناك شارع آخر رئيسي يجتاز المدينة من الشمال إلى الجنوب ويتقاطع مع الشارع السابق ، في مكان شيد فيه (قوس تترابيل) قرب الكنيسة المريمية .

ولا تزال آثار مدخل معبد جوبيتر ماثلة إلى الآن ، وهو من أشهر الأوابد التي خلفها العصر الروماني ، وقد بني على أنقاض المعبد الآرامي القديم لرب المطر الإله حَدَدُ ، ثم تحول هذا المعبد في العهد البيزنطي إلى كنيسة للقديس يوحنا (النبي يحيى) .

وبسبب قيامها بدور كبير في الصراع مع الصليبيين ، بعد أن أصبحت مركزاً للمقاومة وتحرير الأراضي المحتلة، استعادت مدينة دمشق الكثير من مجدها الحضاري، وخصوصاً في الزاوية الشمالية الغربية من السور ، إذ غدت هذه القلعة مقام السلطان ، وفيها ردهة العرش ، ودوائر الإدارة المدنية والعسكرية ، وبرج الحمام الزاجل ، وثكنات الحرس ، ومخازن السلاح ، وبيت المال ، والسجن ، ودار سك النقود ، وفيها أيضاً الجامع ، حتى إن الأمير كان لا يخرج منها إلا لصلاة العيدين .

وقد أدخلت على القلعة ملحقات جديدة في البناء ، وتم تجديد بعض أقسامها في زمن الأتابكة ونور الدين الزنكي والأيوبيين ، ويعود إلى الملك العادل فضل بنائها الحالي . وفي زمن الدولة الزنكية أعاد نور الدين بناء السور ورمم أبوابه وحصنه بالأبراج العديدة المستديرة (برج نور الدين قرب باب الجابية) لأسباب دفاعية ، وفتح فيه بوابات جديدة ، كما بنى دار العدل على مقربة من القلعة ، والمدرسة النورية التي فيها ضريحه وبيمارستانه الشهير بالبيمارستان النوري الذي يعد من أشهر المستشفيات آنذاك ، والذي أضحى الآن (متحف الطب والعلوم عند العرب) . ومع ازدهار الحياة الاقتصادية ، وازدياد عدد السكان ، اتسعت المدينة وظهرت فيها أحياء جديدة كالصالحية والأكراد والسويقة وساروجة والميدان .

وفي الزمن المملوكي ، خاصة (قبل كارثة تيمورلنك) ، بلغت النهضة العمرانية في المدينة أوجها ، والحركة العلمية ذروتها ، كما تدل على ذلك كثرة المدارس والجوامع التي تعود لهذه الفترة . وقد أحصي في آخر الزمن المملوكي ، في الصالحية فقط من مدينة دمشق ، زهاء خمسمئة مسجد ونحو مئة مدرسة وعشرين حماماً .

وعلى الرغم من الركود الذي أصاب البلاد زمن العثمانيين ، وانتقال العاصمة إلى خارج الوطن العربي ، فقد حظيت دمشق مع ذلك بعناية خاصة من بعض السلاطين والولاة ، فشيدت فيها منشآت عمرانية عديدة مثل : تكية السلطان سليم (التكية السليمانية) ، وتكية الشيخ محيي الدين بن عربي ، وبعض المساجد التي اشتهرت بأسماء بُنائتها مثل : جامع السنانية ، والدرويشية ، وقصر الوالي أسعد باشا العظم (متحف التقاليد الشعبية) حالياً .

ونشأت فيها أسواق وأحياء جديدة مثل : سوق الحميدية والمهاجرين ، بينما أهملت القلعة لعدم وجود أخطار خارجية تهدد المدينة ، كما جُرَّت مياه الشرب من عين الفيحة قرب دمشق ، في عهد الوالي ناظم باشا عام (١٩٠٨ م) .

الانتساع العمراني :

أخذ الانتساع العمراني في دمشق يتحول إلى اتجاهات جديدة أخرى في أواخر القرن التاسع عشر ، مع تنفيذ أعمال عمرانية عامة كبيرة متأثرة بالحضارة الأوروبية ، جعلها تستبدل بالأزقة شوارع عريضة . وأخذت تظهر أبنية عامة ضخمة خارج السور في أواخر العهد العثماني ، (بنيت في عهد الوالي التركي ناظم باشا) ، مثل السرايا القديمة على جانب نهر بردى ، والثكنة الحميدية ، والقصر الجمهوري القديم ، والمستشفى البلدي .

وفي زمن الوالي إسماعيل باشا في عام (١٩١٠ م) ، بنيت دار المعلمين بجانب التكية السليمانية . وقد سيرت حافلات الترام مع بداية عام (١٩١٠ م) ، بعد أن أنيرت المدينة بالكهرباء ، وشقت شوارع جديدة خارج السور ، مثل شارع (جمال باشا) شارع النصر الآن ، الممتد من محطة الحجار وحتى سوق الحميدية . واتسعت بعض الأحياء اتساعاً كبيراً ، وشهدت نشاطاً معمارياً متقدماً بنشوء أحياء جديدة في الأطراف ، مثل حي باب توما والقصاع لتأمين منازل خاصة لسكن الأوربيين (المبعوثين والتجار) ، وحي القنوات بالميدان لمساييرة النشاط الاقتصادي الذي يخدم قوافل الحجيج المتجهة إلى الحجاز ، وحي سوق ساروجة لسكن القادة العثمانيين ، وكان يسمى (إستانبول الصغرى) ، وكذلك فقد اتسع حي الصالحية وبدأ البناء في حي المهاجرين والأكراد ، مع ظهور المخطط التنظيمي الأول لمدينة دمشق للمعماريين الفرنسيين دانجيه وايكوشار عام (١٩٣٦ م) الذي اهتم بصورة خاصة بتخطيط شوارع رئيسية تصل بين ساحات ذات أشكال دائرية .

وجرت تعديلات كثيرة على المخطط الأول دون أن يتغير المخطط جذرياً ، وأضيفت مقاسم أرضية جديدة لأبنية سكنية تتألف من طابقين أو ثلاثة طوابق وأضيفت إلى المدينة ضاحية المزة ، وبقيت الأجزاء الجديدة في المدينة ملحقة بالمدينة القديمة تعتمد على الأسواق القديمة المعروفة مثل سوق الحميدية وسوق مدحت باشا والبزورية والحريقة والدرويشية والميدان .

ثم كلف إيكوشار (١٩٦٣م) بوضع مخطط تنظيمي جديد لمدينة دمشق ، فأنجز مخططاً للمدينة يأخذ بعين الاعتبار حاجتها حتى عام (١٩٨٤م) ، وشجع هذا المخطط اتساع المدينة باتجاه الجبال المحيطة بدمشق ، ولاحظ ضرورة المحافظة على غوطة دمشق ، إلا أنه في الوقت نفسه ، اقترح أن يوجه العمران الذي بدأ فعلاً في منطقتين اثنتين واسعتين في الغوطة ، أي باتجاه برزة وشرقيها ، وباتجاه منطقة المزة وجنوبها الغربي .

وقد وقع إيكوشار الفرنسي ببضعة أخطاء جعلت مخطظه المقترح يسيء إلى المدينة كثيراً ؛ لأنه لم يجنب الغوطة الدمار الذي لحقها بسبب الاتساع الأفقي نحو أجزاء واسعة من الغوطة ، وبخاصة إنشاء المحلق الشرقي وطريق المطار ، ما أدى إلى نشاط البناء غير النظامي حولها .

وهناك دراسة مماثلة قام بها المهندس بنشوبا ، إذ اقترح تعديلات توفر إنشاء بعض الشوارع ومواقف السيارات دون الاهتمام جذرياً لمشكلة إعداد الدراسات التفصيلية ، ووضع مخططات كاملة لها . وقد جرت تعديلات كثيرة على مخطط إيكوشار إلا أنها كانت لا تجنب الغوطة إقدام البنائين على إتلافها ، على الرغم من بعض القرارات التي كانت تبغي إنقاذاً ما يمكن إنقاذه من المساحات الخضراء ، وبذلك اتصلت مدينة دمشق بالقرى المحيطة بها وأخذت الغوطة تنحسر تدريجياً .

ولكن لا بد أيضاً من ذكر مشروعين اثنين هامين أديا ، بشكل أو بآخر ، إلى تأخير تدمير الغوطة ، وهما مشروع إنشاء مدينة دمشق الجديدة الذي نفذ في منطقة المزة ، وخاصة الجزء الذي يتجه نحو جبال المزة دون الجزء الذي ضم مساحات واسعة من الغوطة الغربية ، ثم المشروع الثاني الذي لم ينفذ كاملاً وهو مشروع جبل قاسيون الذي يشتمل ، بالإضافة إلى تشجير جبل قاسيون ، على إنشاء مدينة جديدة في الجبل ، على مساحة قدرها (٢٦ كم ٢) تقريباً ، لتخفيف الضغط عن مدينة دمشق الحالية .

أخيراً ، لا بد من الإشارة إلى أنه ، وفي غمرة الطفرة الكبيرة في البناء ،

والنشاط الشديد في إنشاء الأحياء السكنية الجديدة في الأطراف وخارج المخطط التنظيمي ، وفي عملية الهدم والبناء في المدينة ، ولا سيما في الأجزاء القليلة منها ، تسرب الخلل ، وغابت عن الأذهان قضايا معمارية جوهرية معنوية ذات أصول فكرية وتاريخية .

مدينة دمشق القديمة :

يمكن أن تحدد المدينة القديمة بمساحة بيضوية الشكل ، قطرها الطويل شارع مدحت باشا أو طريق الباب الشرقي ، طوله (١٦٠٠ م) ، وقطرها الصغير يبلغ طوله (١٠٠٠ م) ، ويمتد من باب الفراديس إلى الباب الصغير ، و(كلا القطرين كانا يمثلان ، حسب تخطيط المدن الإغريقية والرومانية ، المحورين الرئيسيين المستقيمين اللذين ينتهيان بساحة عند تقاطعهما ، تسمى (الفوروم عند الرومان والآغورا عند الإغريق) .

وأهمية مدينة دمشق القديمة الآن ، معروفة في العالم كمدينة للآثار الشرقية الإسلامية في بلاد الشام ، وكشاهد على نمط معين من العمران هو نتاج البيئة شبه الجافة ، في موقع واحة عمرت منذ زمن قديم ، وخلفت للإنسان المعاصر شواهد لا تزال قائمة ، وضعت فيها هندسة شعبية ، مارسها بناء توارثوا معرفة فنية عالية الثمن في تنظيم البيئة ضمن شروط الموقع والمكان والظروف الاجتماعية والاقتصادية .

يمكن تلمس مظاهر البناء الدمشقي القديم ومخططاته في مدينة دمشق القديمة ، بادية بعض الأحيان أو مخفية على الغالب ، تحت عناصر العمران الإسلامي ومظاهره ، والميزات التي تفرق فيها المدينة الإسلامية في منطقة جنوب غرب آسية عن المدن في المجتمعات غير الإسلامية واضحة ، في تكتل الأبنية وازدحامها حول الأزقة والدروب والدخلات المسدودة ، وهذه مظاهر كانت تتفق مع طبيعة الحياة الإسلامية التي كانت تغلق الدور نحو الخارج وتفتحها نحو الداخل ، حرصاً على حجب الحياة الأسرية عن الغرباء .



نموذج للبيت الشامي

في دمشق ، بقايا لسورها القديم ، وزاده قوة نور الدين الشهيد لدفع الخطر الصليبي ، فأصبح شكله بيضوياً تقريباً ، ولم يبق من آثار السور الذي يعود إلى العصر الروماني إلا الجزء القائم بين بابي السلام وباب توما ، وبين الباب الشرقي والزاوية الجنوبية الشرقية ، وظل السور القديم بين بابي الفرج والسلام قائماً ، وقد أحيط بسور آخر في عهد نور الدين فأصبح يطلق على المنطقة (بين السورين) .

ولم يبق من أبواب المدينة القديمة إلا الباب الشرقي ، وقد جرى ترميمه منذ سنوات قليلة ، أما جميع الأبواب الأخرى ، فقد أعيد إنشاؤها وتجديدها في عهد نور الدين وصلاح الدين ، ثم في عهد أخيه الملك العادل ، كما أنشأ نور الدين باب النصر (وكان موضعه عند مدخل سوق الحميدية) . وتمت في ذلك العهد ، وفي العهد المملوكي ، عدة أعمال لتجديد الأبواب الأخرى وترميمها ، وهي باب الفرايس في (العمارة) ، والباب الصغير (في الشاغور) ، وباب الجابية ، وباب كيسان (نافذة القديس بولس) ، والباب الشرقي ، وباب توما .

كما تتوزع في مدينة دمشق القديمة داخل السور خانات كثيرة واسعة قامت في الماضي بدور مهم كمراكز للتجارة وتوزيع السلع . وكان الخان يحتل في المحاور التجارية موقعاً مميزاً رئيسياً ينفذ إلى داخله من السوق ، عبر مدخل واسع يفتح ويغلق باب كبير يسمح بدخول السوائم والعربات إلى باحته الداخلية الواسعة (مكشوفة أو مسقوفة بعقود حجرية) . وتصطف حول باحته في الطابق الأرضي ، وفي الطابق العلوي ، حجرات كثيرة تجري فيها العمليات التجارية .

ومن أبرز هذه الخانات (خان أسعد باشا العظم) الذي يعود تاريخ بنائه إلى عام (١١٦٦ هـ - ١٧٥٣ م) ، و خان جقمق ، و خان الزيت و خان الرز .

وتنفرد الأسواق الرئيسية في الشوارع الرئيسة خارج السور ، بالمقارنة مع أبنية أسواق مدينة دمشق القديمة داخل السور ، بظاهرة وجود محال تجارية واسعة (بايكة) ذات مظاهر خاصة ، كانت تقوم ، إلى حد كبير ، بوظيفة اقتصادية مماثلة لما تقوم به الخانات في مدينة دمشق القديمة داخل السور ، وتتوزع هذه المحال الواسعة (البوايك) ، بصورة خاصة ، في حي الميدان في الطوابق الرئيسة المتجهة إلى القدم ، وفي الأسواق الرئيسة ، وتتميز باتساع المساحة التي تشغلها وكبر أبوابها .

وقد ابتعدت هذه المحال الكبيرة عن وظيفتها الأساسية القديمة كمستودعات للحبوب والعلف ، وتحولت إلى مستودعات للبضائع الاستهلاكية المختلفة وتجارة الجملة ، بالإضافة إلى تجارة المفرق .

تتصف هذه المحال بأبوابها الواسعة المصنوعة من الخشب ، التي تعلوها أقواس نصف دائرية ، خشبية أو حديدية ، تسمح للضوء والهواء بالدخول إلى الداخل ، وهذه الأبواب تخفي خلفها قاعة متطاولة واسعة تتوزع فيها حجرات مفتوحة مختلفة المساحات تخدم الغاية التي بنيت من أجلها .

والساحات القديمة ترى أمام الجوامع أو منافذ الطرقات ، أو حيث تقوم مناهل المياه العامة والحمامات والخانات والأسواق ، وما عدا ذلك تتوزع في المدينة

القديمة أزقة متعرجة ودخلات وطرق مسدودة ، تضيق وتوسع وتصطف عليها منازل في غير انتظام ، تتقدم أو تتأخر في أحياء ذات تنظيم اجتماعي قائم على القرابة والتعاون ، جُعلت وحداتها في تكوين تسهل فيه إدارة الحي وحمايته في الأوقات العادية ، وفي أوقات الشدة .

ولدمشق القديمة شهرة بحماماتها العامة الجميلة التي لا يزال بعضها قائماً حتى الآن ، بينما تهدم عدد كبير منها ، وتحول البعض الآخر إلى منشآت ذات خدمات عامة مختلفة . والحمامات الموجودة الآن ذات القيمة الأثرية هي : (حمام الجوزة) في حي سوق ساروجة ، من القرن السادس الهجري ، (حمام الورد) في حي سوق ساروجة أيضاً من القرن السادس الهجري ، (حمام القرمانى) في سوق العتيق ، (حمام العمري) في منطقة العقيبة ، جادة ساروجة ، (حمام الخانجي) قرب سوق الهال ، (حمام أمونة) في العمارة ، (حمام الملك الظاهر) في باب البريد قرب المكتبة الظاهرية ، (حمام السلسلة) في الكلاسة قرب الجامع الأموي ، (حمام القيمرية) ، (حمام البكري) في باب توما ، (حمام أرسلان) في باب توما ، (حمام نور الدين) في البزورية من القرن الرابع عشر ، (حمام الحدادين) في الدرويشية ، (حمام الجديد) في باب السريجة ، (حمام عز الدين) في باب السريجة ، (حمام السروجي) في الشاغور من القرن الثامن الهجري ، (حمام شيخ حسن) ، (حمام الرفاعي) في الميدان من القرن العاشر الهجري ، (حمام الدرب) في الميدان ، (حمام التيروزي) في باب السريجة من القرن التاسع عشر الميلادي ، (حمام المقدم) في حيّ الشيخ محيي الدين .

ودمشق غنية بمدارسها القديمة أيضاً ، وقد ذكر النعيمي في تاريخ المدارس عدداً كبيراً منها ، نورد بعضه على سبيل المثال :

البيمارستان النوري (البيمارستان كلمة فارسية تعني المشفى) ، وقد أنشأه نور الدين الشهيد عام (٥٤٩ هـ - ١١٥٤ م) ، ويقع وسط المدينة القديمة ، بناؤه بسيط يدل على حالة التقشف المفروضة على عهد نور الدين ، بسبب الحروب الصليبية ،

لكنه مع هذا بناء هام من حيث الفكرة في إنشائه كمشفى ومن حيث أسلوبه ، إذ يتميز ببوابته الكبرى ذات المقرنصات الجميلة ، وقبته ذات الرقبات المتتالية المزينة بالمقرنصات من الداخل والخارج ، وفيه أووين جُمِلت جدرانها بالرخام المجزّع ، وزخارف جصية . وكانت البيمارستانات (المشافي) في عصور ازدهار الدولة العربية تُعد من مدارس الطب ، حيث يتعلّم الطلابُ على الأطباء المشايخ .

وقد أوقف نورُ الدين زنكي كتباً كثيرة في الطب على البيمارستان الذي أنشأه بدمشق ولا يزال قائماً إلى اليوم ، فكان الطلاب يقرؤون على يدي أبي المجد الباهليّ ، ولا يزال معهم في اشتغال ومباحثة مقدار ثلاث ساعات كل يوم^(١) .

كما أن أرض دمشق غنية بما تضمه من أضرحة تعود إلى عدد كبير من الصحابة الكرام وآل البيت والأمراء والحكام ، فمن الصحابة : بلال الحبشي مؤذن الرسول ﷺ ، وأبو الدرداء ومعاوية وصهيب الرومي وشرجيل بن حسنة وخولة بنت الأزور وضرار بن الأزور ، ومن السلاطين والأمراء نور الدين وصلاح الدين والملك العادل والظاهر بيبرس .

أما قلب المدينة التجاري التقليدي فيشغل موقعاً متوسطاً من المدينة القديمة ، حيث تتجمع المحال التجارية في سوق واحدة لتجارة معينة أو حرفة خاصة . ومع امتداد المدينة غرباً ، تحرك هذا القلب التجاري نحو الغرب والشمال الغربي مسaireً الاتجاه الغالب لامتداد العمران في المدينة ، حيث يمكن اعتبار المنطقة التجارية الحديثة امتداداً طبيعياً للمنطقة التجارية القديمة وتكملة لها .

وقد كانت متاجر المدينة القديمة توجه اهتماماً نحو البضائع ذات الطابع الإقليمي والريفي ، بينما تهتم متاجر الشوارع الحديثة بمتطلبات الحياة العصرية . وفي الواقع يصعب اليوم رسم خط فاصل بين هذين النمطين من التجارة التي تبدأ من العطارة الشرقية حيث تفوح روائحها من خانات القرون السابقة ، حتى الآلات الإلكترونية التي تعرض في واجهات المحال الكبيرة في الشوارع الحديثة .

(١) المرجع : طبقات الأطباء .

وهكذا ظلت المنطقة التجارية القديمة تسد حاجة سكان المدينة حتى وقت قريب ، إلا أن اتساع المدينة ، ولا سيما بعد الاستقلال تطلب توسيعاً لهذه المنطقة التجارية ، وبالتالي خلق مراكز تجارية في الأحياء الجديدة البعيدة نسبياً عن القلب لتأمين حاجاتها .

جبل قاسيون :

كلنا يعلم أن لجبل قاسيون أثره الكبير في نشأة دمشق وتطورها العمراني . وكان له أثره في نفوس السكان في كل زمان ، وموضع اهتمام أهل العلم والأدب حيكت حوله الأساطير ، ونظمت القصائد ، حتى ملأت شهرته الآفاق ، داخل البلاد وخارجها .

ومن محاسن دمشق ومكوناتها الطبيعية والجغرافية ، أنها تمتلك ثالوثاً مقدساً حظيت به دون غيرها من المدن ، يتكون من جبلها قاسيون ونهرها بردى ، وغوطتها . وإننا في الحقيقة لا يمكننا أن نتصور دمشق دون هذا الثالوث .

قاسيون هو الجبل الأشم الذي تقوم مدينة دمشق عند أقدامه ، يتصل من جهة الغرب بسلسلة جبال لبنان ، ومن الشمال ومن الشرق بسلسلة جبال القلمون الممتدة إلى مدينة حمص . وهو يرتفع عن سطح البحر (١٢٠٠ متر) ، وعن دمشق قرابة (٦٠٠ متر) .

وقد اختلف في معنى قاسيون ، فقليل لأنه قسا على الكفار فلم يقدرُوا أن يأخذوا منه الأصنام ، وقيل لأنه قسا فلم تنبت فيه الأشجار .

عرفه سبط ابن الجوزي فقال : (قاسيون جبل شمالي دمشق ترتاح النفس إلى المقام به ، ومن سكنه لا يطيب له سكنى غيره غالباً) . وفي (القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحية) لمحمد ابن طولون الصالح المتوفى عام (٩٥٣ هـ) يقول : (سكن أهل المدينة دمشق هذا الجبل قبل أن يسكنوا دمشق ، عاشوا فيه أجيالاً طويلة من الزمن ، حتى إذا تكاثروا وتناسلوا وارتقت معارفهم وتجاربهم هبطوا إلى السهل المنبسط أسفله ، فبنوا مدينتهم دمشق ، ولكن مدينتهم الأولى هي قاسيون ، ففيه نشؤوا أولاً ، وإليه رجعوا اليوم) .

عملت مياه دمشق على استقلال هذا الجبل وجعله جبل مدينة دمشق خاصة .
وقامت مياه بردى مع مياه عين الفيحة ، تساعدهما في أيام الشتاء مياه السيول
والأمطار ، على فصله عن جبل المزة المتصل بجبال الشيخ وهوران ، وأخذت تؤثر
في جسمه الصلب ألوفاً من السنين حتى فتحت خليجاً تنساب فيه وتمر منه .

وجاء الإنسان بعد ذلك فأخذ في توسيع هذا الخليج ورصف ضفته حتى أصبح
طريقاً مذكلاً تسير فيه السيارات والقطارات ، فاتصلت دمشق ببيروت ، وبحار المياه
ببحار الرمال .

وعملت مياه قرية منين على فصل هذا الجبل من جهة الشرق عن سلسلة جبال
القلمون ، ففتحت لها ممراً فيه كمياه بردى ، وبذلك أصبح هذا الجبل خاصاً بمدينة
دمشق ، عُرف بها وعرفت به ، ويعرفه ياقوت الحموي بقوله : (قاسيون ، الجبل
المشرف على دمشق) .

ولقاسيون شأن كبير في تكوين مدينة دمشق وتعيين موضعها الحاضر ، فقد
تكونت دمشق في منتهى الوادي الذي في غربها ، حيث يخرج بردى من سجنه الضيق
بين ضفتي الوادي ، فيتنفس الصعداء في السهل الفسيح أمامه ، ويسيل منبسطاً على
الأرض ، فيشكل البطائح والجزر من الرمل والحصى التي تجرفها السيول كل عام
أيام الشتاء .

في شمال الواحة الخصبة التي عرفت بعد ذلك بالغوطة ، تجمع قسم من الإنسان
القديم حول هذه المياه . وهذا الإنسان كان محتاجاً إلى أن يحمي نفسه وماشيته ،
ومحتاجاً إلى بيت يأوي إليه ويعتصم به ، فكان أقرب موضع يصلح لذلك هو جبل
قاسيون ، حيث تسيل المياه تحت أقدامه ، ويبدو سفحه قليل الانحدار ، فيسهل
تسلقه والاعتصام به ، ويراقب المعتصم به كل شاردة وواردة في السهل المنبسط
أمامه شرقاً وغرباً وجنوباً ؛ لذلك سكن هذا الجبل والتجأ إلى ما فيه من كهوف
ومغاور ، وما أسطورة مغارة الدم في هذا الجبل إلا حلقة من سلسلة تاريخه
القديم .

ولقاسيون الذي يحتضن دمشق شأن مقدس عند أهلها ، لكثرة ما فيه من الأماكن المقدسة والأثرية (سنأتي على ذكرها لاحقاً) ، وهذا يرجع إلى تقاليد قديمة وعنعات متطاولة في القدم ، باعتباره المسكن الأول لأهل دمشق .

وقد عثرت في تاريخ دمشق لابن عساكر على قصيدة في مدح جبل قاسيون وقديسته ، لم يحظ بمثلها جبل غيره ، حتى جبل عرفات . اقتطف منها هذه الأبيات :

يا صاح كم في قاسيون وسفحه	من مشهد يستوجب التعظيما
فالربوة العليا يُفَضِّلُها الذي	أضحى بتفسير الكتاب عليما
والنيرب المشهور يُعرف فضله	من زاره أو ذاق فيه نعيما
ومغارة الدَّمِ فضلها متواترٌ	ما زالت أسمع - هديت - عظيما
ولكهف جبريل الأمين فضيلةٌ	مذكورة وقعت إليّ قديما
ومغارة الجوع الشريفة تحته	كم عابد فيها أبناً مقيما
ومقام برزة ليس يُنكر فضله	أعني مقام أبيك إبراهيم
ولكَم مكان فيه ليس بمسجدٍ	أضحى على المتعبدين كريما
رُئي النبي مصليا في سفحه	صلوا عليه وسلموا تسليما
وبه قبور الأنبياء الكرام فمن	زارهم فقد ابتغى تكريما
وبه قبور الأنبياء فمن مضى	ليزورهم فقد ابتغى التكريما
فأدم زيارته وواظب قصده	لتنال أجراً في الجنان جسيما

وقد أخذ العرب أساطير كثيرة من سكان دمشق القدماء فصبغوها بالصبغة الدينية ثم رووها في كتبهم فأصبحت جزءاً منها ، وهكذا صارت دمشق رابع الأماكن المقدسة بعد مكة والمدينة وبيت المقدس . وما دام قاسيون جزءاً من أجزاء دمشق لا ينفصل عنها ، بل هو أعظم مظهر من مظاهرها ، فقد كان من اللازم أن يكون له أعظم قسط من أقساط الأساطير والقدسية ، وإن موقعه الممتاز بإشرافه على الغوطة الفسيحة الأرجاء ، ومرور نهري يزيد وثورا في سفحه اللذين يزيدانه جمالاً وروعة

ونضارة ، كان أكبر عامل في إغراء الشعراء والأدباء على مدح دمشق وما حولها من الحداثق والمناظر الجميلة .

وأحيط قاسيون بالأساطير والأماكن المقدسة ، ففي سفحه الأدنى (بيت أبيات) حيث كان يسكن أبو البشر سيدنا آدم عليه السلام ، ويعتقد أنها قرب التربة البدرية ، وفي أعلاه قتل قابيل أخاه هاويل ففتح الجبل فاه لفضاعة هذا العمل يريد أن يتلع القاتل ، وأخذ الجبل ييكي وتسيل دموعه حزناً على هاويل ، وبقي لون الدم على الصخرة التي قتل عليها هاويل ظاهراً بادياً ، وفي كهف جبريل ، جاءت الملائكة إلى آدم تعزيه بابنه هاويل .

المعالم التاريخية في قاسيون

لم تعرف سفوح قاسيون قديماً من المباني التاريخية سوى بعض الأديرة ، والقصور الموزعة بين الأحراش والبساتين والمقابر .

أما القمم فقد شُيدت عليها قبتان شهيرتان فقط ، هما قبة السيار وقبة النصر .

تشاهد قبة السيار اليوم جاثمة على القمة الغربية التي تعلو موقع الربوة ، يمر بحذائها الطريق الجبلي المؤدي إلى دمر . ولا يُعرف على وجه الدقة تاريخ بنائها . فهي تنتسب كما ذكر ابن طولون للأمير سيار الشجاعى ، أحد أمراء المماليك . لكن طراز عمارتها ينسبها إلى العهد الأيوبي .

أما القبة الثانية ، فكانت تدعى قبة النصر ، سميت كذلك كذكرى لانتصار نائب السلطنة المملوكي الأمير برقوق ، على الأمير سوار الثائر على الدولة ، أيام السلطان قاتيباي ، عام (٨٧٥هـ / ١٤٧١م) .

وقد تهدمت إثر الزلزال الشهير الذي أصاب دمشق في عام (١٧٥٩م) ، ثم زالت آثارها منذ سنوات قليلة .

ولقاسيون شهرة خاصة ومكانة دينية ، بسبب احتوائه على المواقع المقدسة ، الموزعة في أنحائه ، كالأديرة والمزارات والمشاهد . فهناك أديرة ، ذكرت

المصادر منها ، دير مرّان ، الذي كانت آثاره زائلة عند الفتح الإسلامي ، لكن اسمه ظل يشتهر كضاحية هامة ، وهناك دير الرهبان الذي حل محله دير الحنابلة ، الذي أقامه المقادسة المهاجرون الذين ينتمون لمذهب ابن حنبل . وكان على السفح ، عند محلة جسر النحاس ، ديران ، عُرف الأول بدير النساء ، والثاني بدير صليبا ، ذكرهما العمري في القرن الثامن وقال : لا أثر لهما اليوم .

وهناك مهد عيسى في موقع الربوة التي اهتم بها المسلمون شعباً وحكاماً ، وأقاموا عندها المساجد ، اعتقاداً بأنها الربوة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ وَآوَيْنَهُمَا إِلَى رَيْبَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ [المؤمنون : ٥٠] ، والمقصود بذلك السيدة مريم وطفلها عيسى عليه السلام . وتميز المكان بمغارة وصفها الرحالة ابن جبير بأنها مغارة صغيرة ، بإزائها مصلّى الخضر .

وهناك في السفح الشرقي مغارة الدم التي تعرف اليوم بمقام الأربعين ، وهو مكان مشهور ، كان يزوره الكثيرون ، ولا سيما الحجاج . ويتناقل الناس عنه معلومات وأساطير ، ويشيرون إلى صخرة ذات لون أحمر ، دلالة على آثار الدم ، باعتباره المكان الذي قتل فيه قابيل أخاه هابيل .

وكان أهل دمشق يعتقدون أن الدعاء فيه مستجاب ، ولا سيما دعاء الاستسقاء . ويقال في تفسير مقام الأربعين : إن مسجداً أقيم على المغارة يضم أربعين محراباً ، بناه الوالي العثماني أحمد باشا الحافظ عام (١٠٠٨ هـ - ١٥٩٩ م) وبالقرب من مغارة الدم توجد مغارة الجوع التي يذكرها الشعراء كمأوى للمضربين عن الطعام من الأنبياء والمتعبدين ، ويذكرون أن أربعين نبياً ماتوا هناك من الجوع (عليهم الصلاة والسلام) من ذلك ما ورد في شعر عبد الغني النابلسي عن هاتين المغارتين :

ومغارة الدم والمحاريب التي للأربعين من الرجال ومن رقى
ومغارة الجوع التي قالوا بها كم نبيّ مات جوعاً والتقّى

وبالقرب من هاتين المغارتين يوجد كهف جبريل ، حدثنا عنه العمري وهو من القرن الثامن الهجري ، في كتابه مسالك الأبصار ، أن أبا الفرج ابن المعلم بنى عند

الكهف مسجداً في عام (٣٧٠ هـ) ، وسماه كهف جبريل لأنه رآه في المنام يطلب إليه أن يبني مسجداً عند الكهف .

ويعتقد الناس بأنه الكهف الذي ورد ذكره في سورة الكهف ويشيرون إلى صخرة عند الباب على أنها الكلب المذكور في هذه السورة : ﴿ وَكَلَبُهُمْ بِسِطِّ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾ [الكهف : ١٨] ، ولا أرى أن لهذه المعتقدات أساساً من الصحة ، لكنها تركت أثرها في أذهان الناس وتصرفاتهم ، وتداولوها جيلاً بعد جيل ، وغدت من أسباب شهرة قاسيون . ونجد اليوم موقع الكهف قد تحول إلى حي سكني وأنشئ فيه مسجد حديث مكان المسجد القديم الذي تقدم ذكره . وهناك أخيراً مسجد إبراهيم الكائن في قرية برزة الواقعة في الجانب الشرقي من قاسيون .

تحدث عنه ابن عساكر ، فقال : إنه المكان الذي رأى فيه إبراهيم الكوكب ، مشيراً إلى الآية الكريمة : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى الْكُوكَبَ قَالَ هَذَا رَبِّي ﴾ [الأنعام : ٧٦] .

استمرت مواقع قاسيون هذه مزارات مشهورة طوال قرون ، يؤمها أهل دمشق والزوار والحجاج ، ولا سيما الأتراك منهم ، للتبرك والدعاء . وعُني بها الأمراء والحكام وأغرم بها الشعراء .

ويروي ابن جبير : أن في قاسيون ألف نبي وسبعين ألف شهيد . قال العلامة عبد الغني النابلسي المتوفي عام (١٧٣٣ م) :

جبل كثير الخير كلّمه الإله فجال في ذاك اللسان وأنطقا
كم من ولي قد توسّد سفحه بل من نبي حل فيه محققا

يقول البدرى في محاسنه عن الشام وما يخص الصالحية : ومن محاسن الشام (جبل قاسيون) فإن الصالحية في سفحه وتحت ذراه ، وهو جبل مبارك به آثار الأنبياء والصحابة والأولياء وبه (الكهف) ويقال إنه كهف أصحاب القصة ، وبه مغارة الدم يقال : إن كل ليلة جمعة يرى بها قطرة دم وبه محاريب الأربعين محل تعبدهم .

وفي جبل قاسيون (ينبت من عند الله من الأزهار والأشجار ما لا ينبت في غيره وسقيه بالأمطار) ومن أزهاره : القرنفل والخزام والشيخ وفي جبل قاسيون

(السماق) والزعرور والزيزفون والصنوبر وفي سفحه حواكير كالحدائق تفصل بينه وبين جبل الربوة . وزرع الحكماء الرياحين والأزهار في سفح جبل قاسيون ليقبها البرد وإذا مر النسيم بها فإنه يحمل منها طيب الريح ما استطاع ويسري به إلى من تحتها من أهل المدينة والسكان .

ومن محاسن الشام (الورد) وهو ستة أنواع بدمشق وفي سفح قاسيون أفضله (الجوري) ولقاسيون سفحان يفصل بينهما نهر يزيد ، فما كان على ضفته الشمالية فهو السفح الأعلى هو واسع فسيح خال من الماء يزرع به الحنطة والشعير وتسقى بماء المطر وبه دير مَرَّان المشهور ، أما السفح الأدنى فهو ما كان على ضفة يزيد الجنوبية وهو سفح مزدهر ناضر عملت به يد الإنسان فنسقته ونظمته وغرست به أنواع الأشجار المثمرة والبقول والأزهار والرياحين والفضل بذلك لنهر يزيد ولنشاط مزارعيه الذين يخدمونه ويسمدون أرضه بقمامات دمشق وأرضه لا تستريح من الزرع أكثر من أسبوع أو أسبوعين ، فالزرع دائم صيفاً وشتاءً ربيعاً وخريفاً ، وإذا كانت الأرض الخصبة تؤتي أكلها مرتين في العام فسفح قاسيون يؤتي أكله بضع مرات في السنة ، وهو الذي يمون دمشق طوال السنة بأنواع الخضروات والبقول ، وكان السفح الأدنى عامراً أهلاً بالسكان لسهولة العيش به فالمياه الجارية من كل جهة والأشجار والثمار متوفرة محتاجة إلى من يعمل فيها ويحرسها ، بينما كان السفح الأعلى خالياً من السكان وكان في قاسيون وسفوحه سبعة محلات أهلة بالسكان سنستعرضها بالترتيب وهي :

١- محلة دير مَرَّان :

هي محلة عامرة أهلة بالسكان محله اليوم السفح أسفل قبة السيار وتطل على الربوة ، عرفت بهذا الاسم لوجود دير مَرَّان الذي ذكره أبو الفرج الأصفهاني في الأغاني ووصفه بأنه على تلة مشرفة تحتها مروج ومياه حسنة ، ونزل به هارون الرشيد والمأمون لحصانته وجمال موقعه وطيب هوائه .
وقال فيه الشاعر :

يا صباحاً بدير مَرَّان راقا هجت منا القلوب والأحداقا

٢- محلة الربوة :

قال عنها ابن بطوطة : هي من أجمل مناظر الدنيا ومنتزهاتها وبها القصور المشيدة والمباني الشريفة والبساتين البديعة . فيها صخرة عليها كتابة من العصر الفاطمي أيام الإمام المستنصر بالله الذي حكم بين عامي (٤٢٧هـ - ٤٨٧هـ) بنى نور الدين محمود بن زنكي فيها قاعة سقفها نهر يزيد وأساسها نهر ثورا ، وجعلها للفقراء الذين لا قصور لهم وعرفت لاحقاً بمسجد الديلمي أو قصر نور الدين .

وذكر البدرى أنه بالربوة سوقان بها صيادوا السمك يصطادون والقلأيون على جبل النهر يقلون وكان يذبح يومياً خمسة عشر رأساً من الغنم ، وكان بها عشرة شراحيه ليس لهم شغل إلا الطبخ ، وبها فرنان وثلاث حوانيت لعمل الخبز التنوري وبها حَمَام ليس له نظير على وجه الأرض لكثرة مائه ونظافته وبها سبعة مقاصف يزورها الناس ليطلعوا عليها يوماً واحداً فيمكثوا فيها شهراً لجمالها وروعها . وقال ابن طولون : بها جامع بخطبة وأربعة مساجد ومدرسة ، وبها صومعتان مُبَيَّضَتان تحت كل من منها ضريح عرف بالعاشق والمعشوق وشمالها برج يعرف بالعدول .

فكانت الربوة مصيفاً فيها كل أسباب الراحة من طعام وشراب وأدوات نوم وأماكن عبادة ومعاهد علم وحكواتية وأماكن للأغنياء وأماكن مجانية للفقراء .

٣- محلة النيرب :

محلة كانت عامرة بالسكان تلي الربوة من جهة دمشق ، والنيرب كلمة سريانية معناها الوادي وهما نيربان : النيرب الأعلى بين يزيد وثورا ، والنيرب الأسفل بين ثورا وبردى .

قال فيه وجيه الدولة بن حمدان :

سقى الله أرض الغوطتين وأهلها	فلي بجنوب الغوطتين شجون
فما ذكرتها النفس إلا استخفني	إلى برد ماء النيربين حين
وقد كان شُكِّي للفراق يروعني	فكيف يكون اليوم وهو يقين

ووصفها ياقوت الحموي : قرية مشهورة بدمشق على نصف فرسخ في وسط البساتين أنزه مكان رأيته .

وصفها البدرى فقال : أعظم المحلات وأخضرها وأنضرها ، حسنة الأثمار كثيرة الأزهار وبها سويقة وَحَمَّام يقال له حَمَّام الزمرد وجامع بخطبة وهي مسكن الرؤساء والأعيان وبها دار قاضي القضاة .

وصفها ابن جبير الأندلسي وابن بطوطة المغربي فقالا : قرية كبيرة غطتها البساتين فلا يظهر منها إلا ما سما بناؤه ، وبها جامع لم ير أحسن منه مفروش سطحه كله بفصوص الرخام الملون . قال فيه ابن لؤلؤ الذهبي :

رعى الله وادي النيريين فلأنني قطعت به يوماً لذيقاً من العمر
درى أنني قد جبته مُتَزِهاً فحد لأقدامي ثياباً من الزهر

٤- محلة أرزة :

محلها اليوم حي الشهداء في طريق الصالحية ، أدركها ابن طولون فوصفها : بقرية بها بيوت وجامعها له مئذنة بصومعة عند قبور الشهداء وتسمى مئذنة عبد الحق .

٥- محلة بيت أبيات :

قرية في سفح قاسيون موقعها اليوم طاحون الأشنان أسفل حي الأكراد سكنها جماعة من العلماء والمحدثين ويقال أنها مسكن آدم أبو البشر وحين إنشاء المدرسة العمرية في الصالحية عام (٥٥٤هـ) في سفح قاسيون دعت محلة بيت أبيات بالصالحية القديمة .

٦- محلة مُقَرى :

كانت بين نهري يزيد وثورا أسفل حي الأكراد تبعد عن طاحون الأشنان على الغرب سكنها كثير من العلماء والمحدثين وصفها شاعر الشام ابن عنين فقال :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة وظلك يسا مُقَرى علي ظليل
دمشق فلي شوق إليها مبرح وإن لج واشٍ أو ألح عذول

بلادُ بها الحصباءُ دُرٌّ وتُرْبُها عيبر وأنفاسُ الشمالِ شُمول
تسلسل فيها ماؤها وهو مطلق وصحَّ نسيم الروض وهو عليل
وبقي منها إلى يومنا طاحون يدعوها سكان البساتين طاحون مُقرى .

٧- محلة الميطور :

قرية في سفح قاسيون تحت حي الأكراد شرقي قرية مُقرى بها مزرعة لسليمان بن عبد الملك وهو أول من غرس بها وزرع بها الفستق والبندق والتين وغيرها وهي اليوم أسفل الركنية (المدرسة الركنية حالياً الجامع في ساحة شمدين) .
بها المدرسة الميطورية بنتها الست فاطمة خاتون سنة (٦٥٩ هـ) والمدرسة العلمية بناها الأمير علم الدين سنجر عام (٦٢٨ هـ) والمدرسة الأمدية .

قال الشاعر الدمشقي عرقلة بن جابر في الميطور :

وكم بين أكناف الثغور مُتَيَّمٌ كئيبٌ غزته أعينٌ وثغورٌ
وكم ليلة بالماطرِون قطعها ويومٌ إلي الميطور وهو مطيرٌ
ومن قول سعيد عقل :

جبلٌ هو بين الله والأرض كلام

كما يرى : « أنا حسبي أنني من جبلٍ هو بين الله والأرض كلام »

هو جبل في جبل . . . وكله شعر :

يا سفينَ المجدِ ، ردي ما انطوى
يُسَلِّسُ الدَّهْرَ قِياداً للذي
جَدَّدِي ما وسعَ الهَدْمُ فما
وَأَلْفِي المَرَّ بسطحي المُنَى
الحضاراتُ هُنَا منبَتُها
ظَمِيءَ الشرقِ ، فيا شامُ اسْكُبي
أَهْلِكَ التاريخُ من فضلتهم
واقحمي الأمواجَ حين البحرُ طام
يتحدَّاه سُهَاماً بسهام
بسوى الهَدْمِ لبانينَ اعتصام
ليس يُرضي النَّسْرَ ما يُرضي الهَوام
شُدَّتِ الدُّنْيَا على هذي الأكام
واملائي الكأسَ له حتى الجَمَامِ!
ذَكَرُهُم في عُرْوَةِ الدَّهْرِ وسام

أُمُويُّونَ فَإِنْ ضِيقَتْ بِهِمْ
أَيُّ رَأْيٍ أَنْتَ مَا نَشَأْتَهُ
خَلَبَ الدُّنْيَا بِمَا افْتَنَ اهْتَغْيَ :
تَمَّتِ الْمَجْدُ وَنَاغَى حُلْمَهُ
وَهُوَ حُلْمٌ لَوْ دَرَوْا أَيْنَ انْتَهَى
يَا طَرِيقاً مِنْ دِمَشْقَ لَمْ يَزَلْ
يَتَنَ تَحْمِيكَ تَجَلَّى لِلنَّهْيِ
شَامُ ، يَا دَارَةَ نَيْسَانَ ، سَقَتْ
عِشْتُ يَغْنَى بِكَ شَوْقِي كُلَّمَا
فَكَأَنِّي شَارِبٌ لَيْسَ يَعْصِي
وَتَوَاسِينِي ، إِذَا حَمَلَتْهَا
لَكَ قَالَ الْحُسْنُ مَذْهَبٌ بِهِ ،
مَنْ أَنَا ؟ أَغْنِيَهُ لَمْ تَكْتَمَلْ :
وَأَفَاحِي نَمَتْ فِي « دُمَيْرِ »
فَإِذَا عَادَتْ حَيَاةَ طَفَقَتْ ،
أَنَا حَسْبِي أَنَّنِي مِنْ جَبَلٍ
قَمَمٌ كَالشَّمْسِ فِي قِسْمَتِهَا

قال الشاعر شمس الدين النواجي :

أَلَا إِنَّ وَادِي الشَّامِ أَصْبَحَ آيَةً
وَإِنْ شَرَفَتْ بِالنَّيْلِ مِصْرَ فَلَمْ تَزَلْ

أَلْحَقُوا الدُّنْيَا بِيَسْتَانَ هَشَامُ
تَوَامَ السَّيْفِ لِفَضْلِ وَاحْتِكَامِ !
كَبَرَ الْمَرْمِيُّ يَوْمَ الْحَقِّ رَامُ
فَوْقَ كَفِّكَ إِذْ الْمَجْدُ غُلَامُ
لَأَتُكِ الْأَرْضَ حَجاً لِمَقَامِ
لَفْتَةُ الدُّنْيَا وَإِجْلَالُ الْعِظَامِ
مَطْلَعُ الْحَقِّ وَتَعْلِيمُ السَّلَامِ
مَرْجَكِ الْخَيْرَاتِ فِي الْغَيْثِ السَّجَامِ !
زُرْتُ ، وَالزُّورَةُ شَوْقٌ مُسْتَدَامُ
خَوْفَةُ الْقَائِلِ : خُذْ آخِرَ جَامِ !
مَنْكِ شَيْئَانِ مَشْرِقِيَّاتِ السَّنَامِ
ذَاتَ صَبْحٍ ، وَنَضًا عَنْهُ اللَّثَامُ :
رُصِدَتْ إِلَّا إِذَا كُنْتَ الْخِتَامُ ،
أَوَّلَ الدَّهْرِ وَمَاتَتْ فِي الْفِطَامِ ،
مَنْ حَنِينٍ ، تَجِدُ الدُّنْيَا شَامُ
هُوَ بَيْنَ اللَّهِ وَالْأَرْضِ كَلَامُ
تَلَدُ النُّورِ وَتُعْطِيهِ الْأَنَامُ

محاسنه ما بين أهل النهي تتلى
دمشق لها بالغبطة الشرف الأعلى^(١)

(١) الشرف الأعلى : منتزه في غربي دمشق يعلو عن قرارة الوادي .

وليس في الغوطة مكان أفضل من مكان ، ولا منظر أجمل من منظر ، فكل من
مجالسها ومنازلها جميلٌ يأخذ بمجامع القلوب كما قال فيها أحد الشعراء :

أننى اتجهت رأيت ماء سابحا متدفقاً أو يانعا متهدلا
وكانما أطيارها وغصونها نغم القيان على عرائس تجتلى
وكانما الجوزاء ألفت زهرها فيها وأرسلت المجرة جدولا
ويمر معتل النسيم بروضها فتخال عطاراً يحرق مندلا

الجدّ قاسيون

لأول درسٍ تعلّمه في ذراها الكهوفُ
لأول خوفٍ لذيدٍ
يعودُ مع الذكرياتِ التي تسلّقُ
مثلي الصخورَ
ويُبهِجُها ما يُخيفُ
لذاك الشموخِ المنيعِ
إذا ما انحنى
كي يمدّ ذراعيه تحت دمشقَ ليحضنها
ويحرّض أنهارها
ويردّ التحيّة ليل نهارَ
ويحرسها
أو يبوّئ حين تلوح الزحوفُ
لأول بيتٍ على السّفحِ

كنتُ أطلُّ على الشام منه
فيسندني جبلٌ ليس مثل الجبالِ
ثقيلٌ . . . خفيفٌ
لأشهى مذاقٍ من الخبزِ
في حُضْنِهِ
فكأنَّ من الفرنِ
يخرجُ ذاك الرغيفُ
لها ما أُدْنِدُنُ في خلوتي
حيث ترقصُ بين يدي الحروفُ
فيا جدنا قاسيونَ
إذا ما قفزنا إلى ظهرك الآنَ
هل تنحني
ثم تنهض تعلو بنا
وتنادي على الرِّيتِ
كالباثعين من الريفِ
أيَّامَ كُنَّا صغاراً
ولم يكُ يمنعنا حرسٌ عن ذراكِ
ولا يتهدَّدُ قصرٌ منيفُ
أم أنك لم يبقَ متكأً فوق ظهركِ
للمتخنين استكانوا
وللمتعبين تراخوا
وللمدَّعين استزادوا ولم يشبعوا

أَمْ يَعُودُ الزَّمَانُ الظَّرِيفُ
يَهْبُ النِّسِيمُ
وَحَلْمٌ قَدِيمُ
وَيَرْفَعُ غَرْسٌ ذَوَابَاتِ شَعْرِ خَفِيفٍ عَلَى رَأْسِهِ
مُشْرَعًا غَابَةً تَنْهِيًا
حَتَّى كَأَنَّ الطُّيُوفَ السَّحِيقَةَ
مِنْ خُضْرَةٍ وَنَضَارٍ تَطُوفُ
صَنَعْنَاكَ نَحْنُ
وَأَنْتَ صَنَعْتَ
فَلَا بَيْتُ
لَا حَارَةً فِي الْمَدِينَةِ
إِلَّا وَهِيئُهُ وَجْهَكَ فِيهَا
وَهَذَا الرِّدَاءُ الْجَدِيدُ عَلَيْكَ
النَّضِيرُ ، النَّظِيفُ
نَسِجُ الْأَيَادِي الَّتِي تَطْلُبُ الْمُسْتَحِيلَ
وَقَدْ يُسَلِّسُ الْمُسْتَحِيلُ
لِمَنْ يَنْسَجُونَ خِيوطَهُمْ مِنْ مَشَاتِلِ وَجْدَانِهِمْ
إِنَّ لَوْنَ جَبِينِكَ لَا يَسْتَجِيبُ
وَهَذَا الشُّحُوبُ الرِّصَاصِيُّ فِي قَسَمَاتِكَ
يَدْعُو إِلَى الْيَأْسِ
لَكِنَّ ضَوْءًا عَمِيقًا غَرِيبًا يَشْعُ
وَيَنْبِي بَأَنَّ الْمَلَائِينَ جَائِمَةٌ فَوْقَ ظَهْرِكَ
ثَوْبٌ شَفِيفٌ

وَأَنْ بَذُوراً لِّغَابَاتٍ عَرْكٌ

لَمَّا تَزَلْ تَتَقَلَّبُ فَوْقَ فَرَاشٍ مِنَ الْخَضْبِ

تُنْتَشُ حِينَ تَدُورُ الْفُصُولُ

وَيَرْحَلُ بَعْدَ انْتِظَارٍ طَوِيلٍ

خَرِيفُ

مَهِيئاً تُطَلُّ مَسَاءً

وَفِي اللَّيْلِ تَدْعُو إِلَى سَمَرٍ

فَإِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ وَاجْهَتُهُ

وَابْتَسَمَتْ لَهَا وَهِيَ تَبْزَغُ

فَابْتَسَمَتْ

فَارْزَدَهِی لِلضَّحَى فَيْكَ

وَجْهٌ حَمِيمٌ لَطِيفُ

تَطَاوَلُ

وَحَلَقُ

حِينَ تَحْنُ إِلَيْنَا

فَنَحْنُ هُنَا تَحْتُ

مِثْلَ الْجَذُورِ

فَأَقْبِلْ

أَوْ افْتَحْ ذِرَاعَيْكَ

نَحْنُ الضُّيُوفُ الْقَدَامَى

وَأَنْتَ الْمَضِيفُ

الصالحية :

واشتهر قاسيون اليوم بالصالحية ، أو جبل الصالحية ، ويرجع تاريخ هذه التسمية إلى عام (٥٥٤هـ) لنزول بني قدامة المقداسة بها واشتعارهم بالصالحين .

ومع امتداد العمران في دمشق وتوسعها ، اتصلت بقرية الصالحية التي تقع على سفح قاسيون ، وهي قرية اشتهرت بوردها وشجرها ، وقد ذكر بعض المؤرخين أنه كان في جبل الصالحية نخل قطعه تيمورلنك ، يقال إن عددها اثنا عشر ألف نخلة . وفيما يتعلق ببناء الصالحية يقول الشيخ محمد أحمد دهمان ، في مقدمته لكتاب سبط بن الجوزي آنف الذكر : (بعد أن استقبلت دمشق السلطان محمود بن زنكي الشهير بنور الدين الشهيد ، كان ذلك طليعة ومقدمة لدولة قوية تشمل البلاد الشامية والمصرية ، فكان أن رجعت دمشق تؤسس خارج سورها أرباطاً وأحياء جديدة مكان الأحياء المندثرة ، فتأسس حي العقبية مكان حي الأوزاع ورجعت (بيت لها) و (مقرى) و (النيرب) و (الربوة) ثم تأسست (الصالحية) التي يحق لنا أن نسميها دمشق الجديدة) .

في سنة (٥٥١هـ) وصلت أول قافلة من لاجئي فلسطين إلى دمشق ، هرباً من الصليبيين ، يرأسها كبير قرية جماعيل الشيخ أحمد بن قدامة المقدسي . ثم تابعت الهجرة بعد ذلك ، فكان المهاجرون يُعَدُّون بالمئات ، وكان نزولهم وهم عدد غير قليل ، بمسجد موقعه غير صحي قرب الشيخ رسلان حالياً ، فسبب تفشي الأمراض بينهم وموت عدد كبير منهم ، فتطلبوا لهم مكاناً فسيحاً صحياً ، فوقع اختيارهم على سفح جبل قاسيون على مقربة من نهر يزيد (الحنابلة) ، ثم شرعوا في بناء أول مدرسة في هذا الجبل وهي المعروفة (بالعمرية) ، وتتابع البناء حولها ، وقد عَضَدَ هذه الحركة السلطان نور الدين ثم الملوك الأيوبيون وخواتينهم ، فبنوا عدة مدارس ومساجد جعلت تلك الأرض القاحلة مزدهرة بالعمران ، فاخرة بالقصور والأشجار والأزهار ، ودعيت بالصالحية ، نسبة لأولئك الفلسطينيين الذين عُرفوا ، لعلمهم وتقواهم ، بالصالحين .

والصالحية أجمل قسم من أقسام مدينة دمشق وأجود ناحية من نواحيها ، اتخذت أجمل شكل من أشكال المدينة ، واعتبرته محافظة مدينة دمشق في طليعة أقسام البلدة ، وقد أدرك سكان دمشق قيمة هذه المنطقة فأخذوا يتسللون إليها أفراداً وجماعات حتى أصبحت سيدة مدينة دمشق بناءً وتنظيماً وقيمة .

وفي هذه المنطقة الممتازة ، وقبل ثمانمئة عام مضت ، قامت فيها حضارة رائعة كتبها التاريخ بإكبار وإعجاب ، إذ أنشئ في هذه الناحية عشرات من المعاهد والمدارس أخرجت فحولاً من العلماء والأدباء والفقهاء والمحدثين ، فكان للصالحية ذكر وأي ذكر ، فهناك المدارس العظيمة والمكتبات الفخمة والأبنية الرائعة والعلماء الكبار :

الصالحية جنة والصالحون بها أقاموا
فعلى الديار وأهلها مني التحية والسلام

يقول الشيخ أبو عمر باني المدرسة العمريّة وابن الشيخ أحمد بن قدامة : (هاجر أبي بي وبأخي موفق الدين وأهلينا إلى دمشق سنة إحدى وخمسين وخمسمئة فنزلنا بمسجد أبي صالح ظاهر الباب الشرقي ، فأقمنا به نحو سنتين ثم انتقلنا إلى الجبل فقال الناس : الصالحية الصالحية ينسبوننا إلى مسجد أبي صالح لأننا صالحون) . وقد قال المؤرخون : إن هذا كان تواضعاً وتورية من الشيخ أبي عمر ، لأن الصالحية سميت بهم لصلاحهم .

ولم يمض على نزول بني قدامة الصالحين في سفح جبل قاسيون ثلاثون عاماً حتى أصبح هذا السفح مدينة عظيمة تعج بالسكان ، وتكتظ بالمباني الفخمة الرائعة من مدارس وجوامع ومعاهد حتى غدت مدينة العلم والمدارس والقباب والمآذن . فالرحالة ابن بطوطة يقول عنها : (هي مدينة عظيمة لها سوق لا نظير له ولحسنه وفيها مسجد جامع ومارستان ، وأهل الصالحية كلهم على مذهب الإمام أحمد بن حنبل) .

ويقول القلقشندي : (مدينة الصالحية ، مدينة ممتدة في سفح الجبل تشرف

على دمشق وضواحيها ، ذات بيوت ومدارس وربط وأسواق وبيوت جبلية ، ولكل من دمشق والصالحية ، البساتين الأنيقة بتسلسل جداولها وبغنى دوحاتها والجواسق العليّة ، والبرك العميقة ، والبحيرات الممتدة ، تتقابل بها الأواوين والمجالس ، وتحف بها الغراس والنصوب المطرزة بالسرو الملف ، والحدود الممشوق القد ، والرياحين المتأرجحة الطيب ، والفواكه الجنيّة ، والثمار الشهية ، والأشياء البديعة ، التي تغني شهرتها عن الوصف ويقوم الإيجاز فيها مقام الإطناب) .



صورة شارع الصالحية القديم

هذا ما قاله الرحالة ابن بطوطة والعلامة القلقشندي ، وتقع المدرسة العمرية في سفح جبل قاسيون بالصالحية على نهر يزيد الذي يمر في طرفها القبلي ، ويطلّ الجالس فيها على مدينة دمشق ولا تزال هذه المدرسة موجودة إلى الآن ، وموقعها بين مسجدي الشيخ محيي الدين والشيخ عبد الغني النابلسي ، والشرح عنها يطول لما لها من فضل وخصائص لم تتوفر لمدرسة مثلها أبداً .

وكان لها مكتبة تعد من أهم مكتبات دمشق وغيرها من مكتبات البلاد الإسلامية ، فقد اجتمع فيها أهم الكتب الإسلامية ، وكان مما فيها من أوراق بخطوط الأئمة الأربعة أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل ، وكان فيها تورا وإنجيل قديمان بالخط العبري والسرياني الأسطرنجيلي على ورق غزال ، ولا تزال بعض هذه الأوراق منهما محفوظة في دار الكتب الظاهرية بدمشق .

وفي الصالحية مدارس عديدة وزوايا منها ، على سبيل الذكر وليس على سبيل الحصر : الزاوية الداودية ، المدرسة الضيائية إلخ . . لكنها أهملت ، فيما بعد ، حتى آل معظمها إلى الخراب ، وإليك ما يقول البدري من أهل القرن التاسع الهجري ، يصف حال الصالحية ودور العلم فيها :

(ومن محاسن الشام الصالحية فهي مشحونة بالزوايا والترب والمدارس حتى إنَّ بها قصبة دون ميل ، تمشي فيها بين ترب ومدارس ببناء جميل ، استولى عليها المباشرون والنظار فأزالوا منها العين ولم يبق سوى الآثار ، فكم من مدرسة اندرست بعد الصلاة والتراويح ، وأمسّت في ظلمة بعد تلك المصابيح ، وهي تقول : أصبحت حاصلاً ، بعدما كان إيواني بالقراء عامراً أهلاً ، وهذه تقول : أضحيت مربوطاً للبهائم بعدما كنت معبداً للقائم والصائم ، وهذه تقول : اتخذوني مسكناً . وهذه تقول : جعلوني متبناً ، وتلك تقول هدموني وأخذوا سقفي وكشفوني ، وهذه تقول : خربوا جداري وباعوا الباب وجعلوني مأوى للكلاب ، والأوقاف تستغيث إلى المولى المغيث ، فيقال لهم : اسمعوا كلام الرحمن في محكم القرآن ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿ فيا شوقاه لحسن (الجركسية) وحلاوة (الركنية) ، ويالهدفاه على (جامع الأفرم) و (الناصرية) . تغيرت تلك المعاهد ، وغلقت أبواب تلك المساجد والمعابد (إنّ الله وإنا إليه راجعون) ، إن هذا البلاء لجسيم ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . وبالصالحية نهران ، فيها يجريان (ثورا) و (يزيد) ، وكم عليهما من غرفة وقصر مشيد) .

Damas - Vue générale prise de Salhié.
Damascus - General view taken from Salhié.



دمشق من أعلى غربي الصالحية صورة فوتوغرافية من أواخر القرن التاسع عشر

هذه صور ونماذج عن تاريخ الصالحية ، وتاريخها أكبر من أن نحيط به ، لكن مع ذلك ، لا بد من الإشارة إلى أن الصالحية قد ارتبطت ، بصورة جذرية ، مع التطورات التاريخية الكبيرة الأهمية ، المتصلة بتطوير دمشق وتاريخ سورية . ففي عام (٥٤٩هـ / ١١٥٤م) احتل القائد والحاكم نور الدين زنكي دمشق ، المدينة العاصمة ، وترأس بالإضافة إلى ذلك حركة ثورية ضد الصليبيين .

وقد شهدت سورية تبعاً لذلك ازدهاراً سياسياً وثقافياً ، تمثل في دمشق بامتداد الأبنية السكنية إلى خارج أسوارها في القرن التالي ، وبعمران سفوح جبل قاسيون التي تبعد عن حدود دمشق بمقدار الكيلومترين ، وقد كان الماء متوفراً بسبب قناتين اصطناعيتين سيقنا إليه من بردى ، الأولى تعود إلى زمن الآراميين وتسمى نهر ثورا ، والثانية ترتفع مسافة (٣٠٠ متر) على الجبل وهي نهر يزيد ، الذي سمي باسم الخليفة الأموي يزيد بن معاوية عام (٦٠ / ٦٨٠ م) (٦٤ / ٦٨٣ م) الذي أنشأه ثم

أحدثت مستوطنة سكنية على الضفة الشمالية لهذا النهر ، وامتدت كأنها مدينة مستقلة على طول (٢ كم) وقد كان لها جوامعها وأسواقها وحماماتها ، فبدت كأنها مدينة مستقلة بذاتها ، ولهذا السبب عرّف القلقشندي المستوطنة الواقعة على جبل قاسيون في كتابه باسم (مدينة الصالحية) .



صور صالحية - حواكير

عهد الزنكيين (٥٤٩هـ / ١١٥٤م) (٥٧١هـ / ١١٧٦م) :

بعد استلام نور الدين زنكي الحكم أتت إلى دمشق مجموعة من الفلسطينيين المهاجرين من القدس المحتلة من قبل الصليبيين ، وقد سكنوا المسجد الحنبلي المنسوب إلى أبي صالح الواقع خارج باب شرقي في سنة (٥٥١هـ / ١١٥٦م - ١١٥٧) ، وفي شجار مع أهل دمشق ربح فيه المذهب الشافعي المنافس ، وبدعم من نور الدين محمود (١١٥٤م - ١١٥٩م) ، رحل هؤلاء الفلسطينيون إلى جبل قاسيون ، حيث استوطنوا قرب نهر يزيد ، ولم يبق من هذه الفترة سوى أساسات المدرسة العمرية .

السهم :

ومن محاسن الشام (السهم)^(١) ، وهو متصل بأرض الصالحية ، وهو درب ما بين دور وقصور وفاكهة وزهور ومياه تجري بهدير كالبحور . وفيه يقول القيراطي :

دمشق بواديها رياضٌ نواضرٌ بها ينجلي عن قلب ناظرها الهمُّ
على نفسه فليبك من ضاع عمره وليس له فيها نصيبٌ ولا سهمٌ
ومن لطائفه قوله فيه وفي السَّهم :
بقاع دمشق للأمير بشائر فقف بمغاني جنكها مترنماً
بقاعٌ إذا قوس الرباب بسهمه رماها غدت بالوشي بُرداً مُسَهَّماً^(٢)

العهد الأيوبي : (٥٧١-٦٥٨ هـ / ١١٧٦-١٢٦٠ م)

في عقود قليلة ، كان عدد المستوطنين قد ازداد لدرجة أن أقدم مؤسس الصالحية أبو عمر المقدسي (٥٩٩ هـ / ١٢٠٢-١٢٠٣ م) ، على بناء جامع على أرض المصلى ، وامتدت المستوطنة وعمرت على طول نهر يزيد على مسافة (١٤٠٠ م) ، بالإضافة إلى ذلك توسع في الشرق حي آخر على ضفة نهر ثورا الواقع عند الشارع المؤدي إلى دمشق بمبادرة من الأمير شبل الدولة كافور الحسامي ، المتوفى سنة (٦٢٣ هـ / ١٢٢٦ م) الذي كان مملوكاً سابقاً ، أما التجمع السكني عند رأس الجسر الثاني على نهر ثورا في الجسر الأبيض ، فقد أنشئ له أربعة معاهد أثرية هي : المدرسة المادانية ، حمام عبد الباسط ، المدرسة الأسعروية ، الخانقاه الباسطية ، الخانقاه الغزية . وقد شهدت الصالحية توسعاً جديداً بمساندة الأشرف موسى (٦٢٦ هـ - ١٢٢٩ م) ، (٦٣٤ هـ / ١٢٣٦ م) الذي بنى داراً للحديث ملحقة بترية .

(١) كان هناك سهمان : السهم الأدنى موقعه في عصرنا طريق الجبة على كنف نهر ثورا شرقي محلة الجسر الأبيض ، والسهم الأعلى بمحلة طريق الشيخ محيي الدين بأعلى الجبة .
(٢) نزهة الأنام : ٣١٧-٣١٨ .

ونستطيع أن نلاحظ التنظيم السليم للتوسع العمراني الفجائي الذي شهدته الصالحية ، في منتصف القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي ، بتشجيع الملوك الأيوبيين الفعال ، وعلى مثال الملوك الأيوبيين فقد اختار موظفو الحكومة والضباط أن يكون ضريحهم عند جبل قاسيون ، ومن هنا اتخذت المستوطنة صفة (مقبرة) في دمشق .

تبع هذا تأسيس جديد لمعاهد كثيرة للأمرء ، وقد كانت ذات صبغة تعليمية ، وهو ما جذب إلى الصالحية نخبة من المثقفين الذين طبعوها بطابع ديني غالباً .
أما ضريح المتصوف محيي الدين عربي القوي النفوذ والمتوفى سنة (٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م) فقد تطور ليصبح مزاراً للزائرين .

إن الخطى الحثيثة واللافتة للنظر التي شهدتها الضاحية الريفية جعلت منها بلدة مستقلة بذاتها في نهاية الحقبة الأيوبية ، فأعلى مراحل رقيها يتجلى بصورة خاصة بالمشفى الذي أسسه الأمير أبو الحسن القومري قرب قرية محيي الدين العربي ، هذا المشفى الفخم الذي تطلّب جهوداً كبيرة ، وكان يحتذى بالمشفى الذي أنشأه نور الدين محمود الزنكي شكلاً وفعالية ، وهو بنفس الوقت يبرهن على الاستقلالية التي كانت تؤكدها الصالحية يوماً بعد يوم .

يحكى عن ابن الصائغ الحنفي أنه لما قدم من القاهرة إلى دمشق المحروسة نزل في (الجسر الأبيض) ، عند الأمير مجير الدين بن تميم ، ونهر ثورا يمرّ بداره المأنوسة ، فأجلسه على جانب النهر لأجل برد الهواء ، فرأى شمس الدين بن الصائغ ما يمر من الفواكه على وجه الماء ، وصار يتناول ويأكل ما استطاب ، ويضع قدامه منه ما أعجبه ، ثم التفت لابن تميم وقال له : أنت يغنيك هذا النهر عن شراء الفاكهة ثم أنشده في الحال ارتجالاً :

يقول وقد رأى ثورا خليلي يفيض بسائر الثمرات فيضاً
أيكفيكم فلا تشرون شيئاً فقلت له نعم ونيع أيضاً

فقال ابن الصائغ : وهذه الفاكهة أليس يرميها في النهر أرباب الغيطان ، قال له

ابن تميم : إنما هذه من اشتباك الأشجار وانحنائها عليه ، فيلقبها النسيم عندما تشمل الأغصان ، وأما البساتنة فإنهم يضعون مجموعة من الفواكه على أبواب البساتين كالزكاة لمن يمر بها من الفقراء والمساكين ، فيأخذ ما يحتاج إليه .
وأخبرت في القديم أن بعض الفقراء يضع مكتله على رأسه ويسرح في طرق البساتين ، فيعود وقد امتلأ مكتله مما يسقط من الأثمار من غير أن يتناول بيده شيئاً .
وفي البساتين من يزرع أشجاراً للفقراء ، وغالباً ما يزرع من ذلك على الطرقات ليقرب تناولها .

وغالب أهل الصالحية يزرعون بها دون سكان المدينة بالبلح والأترج والكباد لحسن نموه عندهم ، ونضارته التي هي في ازدياد .

عهد المماليك : (٦٥٨-٩٩٢هـ / ١٢٦٠-١٥١٦م)

في نهاية حقبة الأيوبيين كانت الصالحية عبارة عن مستوطنة مستقلة بنفسها ولكن تطورها كان يواجه صعوبات كبيرة ، فهي لم تكن محمية بسور أو بوابات فقد كانت تعتمد على الضفة الشمالية والجنوبية لنهر يزيد ، هذا الشعب العمراني جعل إمكانية الدفاع الفعلي عنها صعباً ، والأخطار الدائمة التي كانت تتعرض لها الصالحية جعلت حركة تطورها تتباطأ بوضوح في العهد المملوكي ، ولكننا على الرغم من ذلك نستدل على امتداد جديد نحو الغرب من خلال ضريح السلطان المملوكي السابق العادل (كتبغا) ، هذا الحي الجديد الذي استقرت فيه صناعة القاشاني .
وفي هذه الفترة أخذت طبقة جديدة من الأغنياء (مشجعي الفنون) على عاتقها عملية توسيع الصالحية ، وخصوصاً من قبل التجار ، وهذا دليل واضح على أن الصالحية كانت مركزاً تجارياً حيوياً .

عهد العثمانيين بدءاً من (٩٢٢-١٣٣٦هـ / ١٥١٦-١٩١٨م)

استرجعت خلالها المنطقة أهميتها ، وعندما ضمت دمشق إلى الإمبراطورية العثمانية أمر السلطان بإنشاء قبة لتربة المتصوف محيي الدين بن العربي ، وإنشاء جامع قربها ، وبعد ذلك أسس زاوية للدراويش ومستشفى مقابل الجامع . وهذه

الأوابد مضافاً إليها المستشفى الذي أنشأه أبو الحسن القيمري أوصلت الصالحية إلى أعلى درجات رقيها .

وتبعاً لأقوال ابن كنان ، فقد ترك السكان المنطقة في عام (١٠٠٠هـ / ١٥٩١م) ما أدى بالصالحية إلى الانحطاط ، ولكن رصف الشارع المؤدي من سوق ساروجة إلى منطقة الصالحية يدل على أنها بقايا منطقة سكنية .

وبشكل عام ، شهدت الصالحية دماراً كبيراً سببته الهزة الأرضية سنة (١١٧٣هـ / ١٧٥٩م) ، فأصيب الكثير من المباني بالأذى وتركت على حالها بدون ترميم . وفيما يلي إطلالة على أهم الأبنية في هذه البقعة من دمشق :

الأبنية التاريخية : أدت الدراسة المكثفة لأبنية الصالحية إلى اتخاذ (١٤٥) مبنى يعود إنشاؤها للعصور الوسطى ، منها (٩٨) مبنى لا يزال قائماً .

الأبنية الأيوبية : إن الأبنية الرئيسة للعصر الذهبي للصالحية هي وبدون استثناء تلك التي ذكرت في الدراسات الأولى عن الصالحية كجامع الجمعة ، والمدرسة العمرية ، والمدارس العشر وفيها : الجركسية ، الركنية ، الصليبية ، الرمنية ، القاهرية ، الحافظية ، وكذلك مشفى أبي الحسن القيمري الذي يعتبر قمة من العمارة الإسلامية ، أما كيفية وصول الماء إلى هذه المنطقة ، فهو عبر الناعورة الموجودة على نهر يزيد والمؤدية إلى مشفى أبي الحسن القيمري .

الأبنية المملوكية : نذكر منها على سبيل المثال (الخوارزمية) ، ومن الأبنية الهامة في هذه الفترة : الجامع الجديد ، ولكن في العهد المملوكي توسع الكثير من مساجد الجمعة .

الأبنية العثمانية : جامع الجمعة الذي يقع قرب ضريح المتصوف محيي الدين بن عربي .

التحول في البناء الحديث : رُدَّت الحياة ثانية إلى الصالحية في أوائل هذا القرن حيث امتد التوسع العمراني لمدينة دمشق ليشمل الصالحية ، وذلك بسبب موقعها الجيد حيث إنَّها تطل على المدينة ، وكذلك بسبب مناخها اللطيف .

يعود تغيير الشخصية التاريخية لمدينة العصور الوسطى الواقعة على جبل قاسيون إلى البناء الحديث الذي غيّر ببطء وعلى مرور الزمن شكل المدينة ، كما أدى بناء الطرق المؤدية لمركز المدينة إلى ضياع عدد كبير من المباني ذات الأهمية التاريخية .

امتد التغيير ليشمل طريقة توصيل المياه العذبة ، فإن النهرين اللّذين كانا يعتبران شريان حياة الصالحية ، وسبباً لوجود هذه المنطقة على سفح الجبل ، تحولاً إلى قناة لتجميع المياه القذرة ، كذلك ألغى البناء دور مزارع الفواكه والخضار الموجودة ما بين النهرين وحتى مركز المدينة ، التي كانت منتجاتها لا تمتد الصالحية فحسب بل تتعداها إلى دمشق .

ونستطيع القول : إنّ تسعة عشر مبنى فقط لا تزال تحافظ على الدور التقليدي الذي أقيمت من أجله .

هناك ملاحظة يجب أخذها بعين الاعتبار ، فمن أجل تغطية التزايد السكاني في المنطقة أقيمت أبنية مرتفعة مؤلفة من طوابق متعددة ، بشقق مقامة من الخشب والإسمنت ، وذلك في مكان البيوت القديمة خصوصاً تلك المواقع السكنية الكبيرة قرب نهر يزيد .

لقد رمم في منطقة الصالحية وحدها عشرون موقعاً قديماً ، أو لا تزال حالياً قيد الترميم ، وغاية هذه التدابير ، المحافظة على الشخصية التقليدية لمدينة العصور الوسطى الواقعة على جبل قاسيون .

المهاجرين :

ويلي حي الصالحية حي المهاجرين ، وهو يتسلق الجبل بأبنيته حتى يكاد يبلغ قمته . وسمي بهذا الاسم عندما أنزلت السلطة العثمانية ، في أواخر القرن التاسع عشر ، في سفح جبل قاسيون في الطرف الغربي من الصالحية ، من هاجر من مسلمي أقریطش (كريت) .

وقد أعيد السكن في القسم الغربي من الصالحية في نهاية القرن التاسع عشر بعد

هجرتها لفترة طويلة ، فعندما زار قيصر غليوم الأول دمشق عام (١٨٩٨ م) بهدف زيارة المصاطب المعدة على جبل قاسيون ، لاحظ وجود الجركس القادمين من هضبة قالن منذ فترة قصيرة ، الذين أقاموا قرية من بيوت طينية على شكل مربعات ، ظهرت الصورة الحقيقية لهذه المنطقة السكنية بشوارعها المتدرجة ومنازلها المستوحاة من أوربة ، كذلك بناء القصور الرائعة كالتي أقامها ناظم باشا مما رفع شأن المنطقة الاجتماعي ، وحافظ على وجود الأثرياء في المنطقة ، ويتأسس منطقة المهاجرين ، أصبح للشوارع المؤدية للجسر الأبيض وباتجاه دمشق دور جديد ، فعلى جانبي الشارع المسمى بجادات الصالحية ، أقيمت بيوت سكنية ، وعدد كبير من الحوانيت فوق ما كان سابقاً جنائن ، لفي الحاجة الشرائية لهذه المنطقة السكنية القائمة على الجبل ، وبإنشاء الشارع عام (١٩٠٤ م) الواصل للجامع وضريح الشيخ محيي الدين بن عربي رُبط بين الصالحية وبين مركز المدينة .

ونتيجة للتزايد السكاني في بداية هذا القرن ضمت كثير من المنشآت الدينية القديمة المخربة إلى البيوت السكنية ، أو استعملت ذاتها كبيوت للسكن ، لذلك فقد استمر نموذج البناء السائد في العصور الوسطى قائماً ، وهي بذلك مثال نادر عن المدينة المقامة في عهد الإسلام ، وتختلف بذلك عن مدينة دمشق ، وعن أكثر المدن التاريخية السورية ، حيث لم ترث قدمها ، بل بنته وطورته بنفسها .

حي المهاجرين :

لم تكن في حي المهاجرين مساكن قبل عام (١٨٩٥ م) وهو يُنسب إلى المهاجرين إليه في العهد العثماني القادمين من جزيرة كريت . وغيرهم ولما قام والي دمشق ناظم باشا خلال فترة حكمه (١٨٩٥-١٩١١ م) بجر مياه عين الفيحة النظيفة العذبة لأول مرة إلى دمشق عبر خزاناتها في منطقة العفيف وأُنيرت دمشق بالكهرباء في نيسان (١٩٠٧ م) ووصل خط الترام الكهربائي إلى المهاجرين في عام (١٩١٣ م) نشط الإقبال السكاني فيه ثم ازداد تطوراً وتوسعاً بدءاً من العشرينات ويذكر أنه عندما زار الإمبراطور الألماني غليوم دمشق عام (١٨٩٨ م) أقيم له حفل

تكريمي في المهاجرين جادة المصطبة ، في كل من غربي المهاجرين ، وقد أعرب
الإمبراطور عن إعجابه الشديد بالمشهد البانورامي لدمشق ببساتينها وأنهارها
وآثارها ، وخص بالسكن في المهاجرين لركة النسما وفتنة المنظر .

هذا الحي الذي يبدو رابضاً شامخاً على السفوح الوسطى والدنيا لجبل قاسيون
بجاداته المتعالية مُطلّاً على مسرح التاريخ دمشق الشام ، ممتداً من شمال العفیف
وتخوم الصالحية شرقاً إلى ساحة أرض الوالي أو الجريد (مجمع الخيل) أو ساحة
خورشيد المسماة اليوم ساحة ذي قار ، ثم قبة السيار فوق جبل الجنك ومنحدرات
المنشار ومسبح التوته النهري ووادي الربوة غرباً لم يكن في تلك الساحة وجوارها
في بدء الثلاثينات من أبنية إلا مقهيان متقابلان فوق تلة صخرية يؤمهما المتزهون
القادمون من أحياء الشام العاصمة بواسطة الترام الكهربائي المريح .

شارع ناظم باشا :

وهي تسميته إلى الآن . ويعد الجادة الأولى للمهاجرين ، وهو يلي منطقة
العفیف شرقاً وتحديدأ مقابل لمطلع الفواخير ، وينتهي غرباً بعيد القصر الذي أمر
ببنائه ناظم باشا والي دمشق . وقام بهندسته خورشيد وهبة المصري في أواخر القرن
(١٩) ، واتخذة الملك فيصل مقرأ له عام (١٩٢٠ م) ومن بعده رؤساء الجمهورية
حتى وقت قريب وهو قائم إلى اليوم ، ويُعرف هذا الشارع أيضاً بشارع السكة ؛ لأن
حافلات الترام الكهربائي المحبة لنظافتها وسلامتها ونقاء أجوائها وانتظام حركتها
ذهاباً وإياباً والمظهر اللائق لموظفيها ، كانت تسكله منذ وصولها إلى الحي عام
(١٩١٣ م) وحتى توقفها نهائياً في مطلع أذار (١٩٦٣ م) ، وفي هذا الشارع
مسجدان أقدمهما مسجد نافذ أفندي وجدده عادل الصفدي عام (١٩٩١ م) والثاني
جامع المرباط وشيد في عام (١٩٣٠ م) بوصية من مراد المرباط وجُدّد فيما بعد .

وكان من أقدم من سكن هذا الشارع مصطفى باشا العابد الذي بنى قصره المشرف
على ساحة خورشيد عام (١٩٠٧ م) . واتخذة محمد علي العابد أول رئيس للجمهورية
السورية عام (١٩٣٢ م) مقرأ ، ثم هُدم عام (١٩٧٤ م) لأسباب تنظيمية .

تنعطف عن شارع ناظم باشا في جنوبه الشرقي طريق ترابيه محدودة تتاخم بساتين كثيفة تسمى الحواكير كما يشاهد في وسط ومنتهى هذه الطريق مدفنان أثريان ، ومسجد يسمى اليوم مسجد الأفرم ، وكان يعرف في الثلاثينات بجامع البخاري ويضم عدداً محدوداً من التلامذة ثم جرى تجديده عام (١٩٥٨ م) وتنسب تسميته إلى بانيه الأفرم جمال أقوش المملوكي ، أما المساكن فمحدودة أبرزها البناء القديم للسيد فارس الخوري (الرئيس الأسبق لمجلس الوزراء وممثل سورية الأول عند انبثاق هيئة الأمم) والمجاور بموقعه الآن لقصر الروضة الجمهوري .

نتقل إلى الجادات المتدرجة في العلو وجميعها باستثناء شارع ناظم باشا (كانت ترابية غير معبدة) .

طلعة شوري :

وهي المطلع الرئيسي لجميع الجادات ولا تزال ، وتنسب إلى إحدى قدامى الأسر الدمشقية التي انتقلت إليها وهي عائلة شوري .

الطلعات الأخرى :

تسبق طلعة شوري شرقاً (طلعة) الفواخير الضيقة ، وكان فيها مهرة صناع القطع الفخارية الدمشقية ، وقد انقرضت من هذا الحي .

أما « الطلعات » التي تلي طلعة شوري غرباً فلا تزال على تسميتها القديمة : (الباشكاتب - الشمسية - المصطبة - الشطا - المرابط) .

الجادة الثانية :

وكانت تعرف باسم جبار أغا وتسمى اليوم شارع ابن عباد وهذه الجادة تعتر باحتضانها منذ مطلع القرن العشرين منزل وزير الدفاع الخالد شهيد ميسلون البطل (يوسف العظمة) . وقد أصبح منزله اليوم متحفاً تخليداً لذكراه الخالدة .

الجادة الثالثة :

وكانت تسمى جادة الشمسية نسبة إلى شكل الشمسية التي تغطي صحن جامع الشمسية فيها وتسمى اليوم شارع ابن العميد ، وت فوق هذه الجادة مثيلاتها بسعة

عرضها وظاهرة التجديد المبكر لعددٍ من مساكنها ، وأحدثت في مطلع العشرينات في هذه الجادة أول مدرسة ابتدائية رسمية كبيرة عرفت باسم الشمسية لمواجهتها لجامع الشمسية بينما كانت تسميتها (أنموذج المهاجرين) ثم أطلق عليها اسم (مدرسة طارق بن زياد) وكانت المدرسة الوحيدة في حي المهاجرين وحتى في حي الصالحية قبل أن تنشأ في هذا الحي مدرسة أخرى . وكان امتداد المدرسة بين الجادتين الثالثة والرابعة ، وأعيد بناؤها فيما بعد وقسمت اليوم إلى مدرستين (طارق بن زياد والشهيد أحمد الصباغ) .

يقع مقابل هذه المدرسة جامع الشمسية من العهد العثماني الذي تم الحفاظ على هيكله الأصلي إلا أنه بمرور الزمن انمحت الكتابة التركية على شمسيتها الخشبية . وفي عام (١٩٩٠ م) قام بشير أبو الفرج الموقع بتحسين بنائه وإقامة سدة فيه ، ثم شيد مسجداً كبيراً وجهزه مكان جامع الحرش الصغير في أقصى شرق المهاجرين وسمي جامع البشير .

الجادة الرابعة :

وتسمى اليوم شارع الفرزدق ، وكان يعرف بدؤها الشرقي وساحتها هناك منذ العشرينات باسم جادة (أبو خالد السقا) نظراً لما اكتسبه هذا السقا من شهرة بتزويد الكثير من مساكن المهاجرين بالماء ، قبل أن تصلها تمديدات الفيحة بالماء المستقى من سبل خزانات ناظم باشا لينقل ضمن القرب الجلدية الكبيرة المحمولة على البغال .

تميزت هذه الجادة عن مثيلاتها بمهرجان المولد النبوي الشريف وكان يقام في ساحتها سنوياً حيث تزدان بأغصان الأشجار والسجاد والأعلام وتزدحم المنصات بالمدعوين وبعضهم من قادة البلاد الوطنيين وتكون مناسبة لإلقاء كلمات تطالب بالاستقلال والحرية وجلاء الأجنبي ، وينتهي الاحتفال بألعاب السيف والترس والدبكات والأنشيد .

وكان في هذه الجادة مسجد بناه (عارف الجراح) في العهد العثماني ويعرف قديماً بهذا الاسم وعند توسيعه وإعادة بنائه قبل سنوات سمي جامع أبي عبيدة الجراح .

الجادة الخامسة :

وتسمى اليوم شارع الأصمعي وكانت تعرف قديماً بجادة الشيخ ظبيان نسبة إلى عالم جليل كان يقطنها ، واشتهر فيها فرن أبي محجوب بخبز حلويات العيد حيث يأتي إليه من يرغب من السكان بأطباق المعمول والتوينات والعجوة ؛ إذ لم يكن الشراء الجاهز للحلويات شائعاً في مطلع الثلاثينيات .

الجادة السادسة :

ولا تزال تعرف حتى اليوم باسم جادة السلمية نسبة إلى تربة السلامية التي أقيمت في العهد المملوكي ، وكان في شرقها الجنوبي بناء كبير لآل العمادي وفي الطرف الغربي منزل الشيخ صلاح الزعيم شقيق رئيس الجمهورية الأسبق حسني الزعيم ، وعلى امتداد هذه الجادة وفي أطرافها بيوت الأتراك والشراكسة وغيرهما .

قبة السيار والنصر :

وفي نهاية حي المهاجرين ، وفي الطريق القديم الذي كان يصل دمشق ببيروت ، يوجد هناك قبة تدعى (قبة السيار) تطل على الربوة ، وتنسب القبة إلى الأمير سيار الشجاع الذي بناها ، ولا تزال قائمة حتى الآن في الطريق إلى جبل قاسيون .

أما قبة النصر ، فتعد من القباب الشهيرة التي يسأل عنها دائماً في قمة جبل قاسيون ، بقيت عامرة إلى سنة ثلاث وسبعين ومئة وألف ميلادية ، ثم سقطت بسبب الزلزال العظيم الذي حصل في هذه السنة ، وبقي لها بقية ترى من بعد ، على هيئة كرسى ، ويسمىها الناس كرسى الدابة ، وقد كانت شامخة واقفة بجدرانها الثلاثة دون الرابع فدكها الفرنسيون الفيشيون في أيار (١٩٤١م) ، حينما كانوا يدافعون عن مراكزهم في دمشق ضد الجيش الإنكليزي الزاحف من فلسطين لئلا يتخذها هدفاً .

وإليك سبب عمارتها وتسميتها بقبة النصر :

في منتصف القرن الثامن الهجري قامت إمارة تركمانية شمال حلب عرفت بإمارة ديلقادر ، وبعض المؤرخين يسمونها بإمارة ذي الغار ، وكانت تحتوي على بلاد البيسان

ومرعى ، وعيتاب وقلطبة وإعزاز ، وبهنس ودارزة وغيرها ، وكان نائب دمشق (برقوق) ، في عهد السلطان قايتباي ، أحد سلاطين دولة الشراكسة في مصر والشام ، هو الذي بنى في أعلى قاسيون هذه القبة وسماها قبة النصر ، لأنه انتصر على الأمير (سوار بك الغادري) ، ونجح بإلقاء القبض عليه وإعدامه ، وذلك سنة سبع وسبعين وثمانمئة ، وكانت تسمى سابقاً قبة النصر على السوار ، وقيل إنه وجد موضعها ذهباً كثيراً مدفوناً ، والآن قد زالت جميع معالمها كما تقدم ولكنها لا تزال في ذاكرة الناس .

الأكراد :

لم تبدأ الحركة العامة لتطوير المناطق السكنية إلا في القرن التاسع عشر ، وهذا التطور لحق الربع الشرقي من الصالحية أيضاً ، حيث استقر الأكراد شرقي الجامع ، وتوسعت منطقتهم أكثر من نحو الشرق ، وسميت بحارة الأكراد ، وأنشأ هؤلاء الأكراد مساكن فخمة جداً في الحي الشرقي وذلك على مثال القصور الدمشقية .



صورة طريق الصالحية

مغائر قاسيون :

ويحوي جبل قاسيون على العديد من المغائر منها الطبيعية ، ومنها ما شقها الإنسان ، ويقال بوجود نفق عظيم أثري في قاسيون شقه التدمريون أهالي مدينة تدمر ، لجر مياه الشرب إلى تدمر من نبع الفيحة ، إبان حكم زنوبيا لتدمر ، وإن أشهر المغائر الطبيعية مغارة الجوعية ومغارة الدم .

مغارة الجوعية :

تقع هذه المغارة في أعلى مقبرة الخميسيات ، وأسفل كهف النبي ذي الكفل الذي بني عليه مسجد الآن ، ويذكرون أن سبب تسميتها بالمغارة الجوعية لجوء أربعين نبياً إليها خوفاً من الكفار ، ولم يكن معهم إلا رغيف واحد ، فلم يزل واحد منهم يؤثر رفيقه عليه حتى ماتوا جميعاً من الجوع ، وفي الأزمنة الأخيرة في (القرن الماضي) ، كانت ملجأً للأشقياء واللصوص ، حتى وجد فيها شخص مقتول ، فاهتم لذلك أهل الصالحية ، وقام الشيخ محمد التكريتي المتوفى عام (١٣١٢هـ) ، فسد بابها وبقي مسدوداً إلى الآن ، وقد بني على بابها الآن مقام فيه عدد من قبور الصالحين .

مغارة الأربعين :

سميت بالأربعين لأن فوقها مسجداً فيه أربعون محراباً ، وهي تقوم في محل نزه جداً ومرتفع ، حتى يكاد الإنسان يبلغ قمة الجبل ، وفي زاويتها الشرقية الشمالية بارتفاع نحو متر ، فتحة تمثل فماً كبيراً يظهر فيه اللسان والأضراس والأسنان وسقف الفم بتفاصيل متقنة ، وأمامها على الأرض صخرة عليها خط أحمر يمثل لون الدم ، وفي سقف المغارة شق صغير ينقط منه الماء ، والأسطورة تقول إن قابيل قتل هابيل ، فبكى الجبل لهول هذه الجريمة ، وبقيت دموعه تتقاطر ، وفتح فاه يريد أن يبتلع القاتل . وتأخذ الزائر الرهبة حينما ينظر إلى هذا التمثيل الدقيق ، ومن البراعة في هذا التمثيل اختيار هذا المكان من الجبل الذي لون حجره أحمر فتظهر الحمرة على صفحة الصخرة .

قال العلامة ابن الوردي في كتابه المسمى بفريدة العجائب : (جبل قاسيون مشرف على دمشق فيه آثار الأنبياء وهو معظم من بين الجبال ، وفيه مغارات وكهوف ومعابد للصالحين ، وفيه مغار يعرف بمغارة الدم يقال : إنَّ قابيل قتل أخاه هابيل هناك ، وهناك حجر يزعمون أنه الحجر الذي فلق به هامته وفيه مغارة الجوع ، يقول : إنَّ أربعين نبياً ماتوا بها من الجوع) .

وروى الوليد بن مسلم أنه سمع ابن عياش يقول : كان أهل دمشق إذا احتبس عنهم المطر أو غلا السعر ، أو جار عليهم سلطان ، أو عرضت لأحدهم حاجة صعدوا موضع دم ابن آدم المقتول ، فيسألون الله فيعطيهما ما سألوا . هذا وذكر في الفضائل البهية ، أن الأبدال تجتمع في الليالي الفاضلة في المستغاث فيصلون هناك ، ويسألون الله تعالى ويدعونه .

وفي كتاب (الفضائل) للحافظ ابن سرور : إن المواضع التي يجاب فيها الدعاء بدمشق كثيرة منها : مغارة الدم في جبل قاسيون لأنها كانت مأوى الأنبياء ومُصلّاهم . ومستغاثهم ، والمغارة التي في جبل النيرب كانت مأوى عيسى بن مريم وأمه الصالحة ، ومسجد إبراهيم عليه السلام الذي في برزة ، ومسجد القدم الذي يلي رأس ميدان الحصى ، يقال هناك قبر موسى كليم الله .

وأما مسجد إبراهيم عليه السلام الذي ببرزة ، فقد ذكره البصروي عن الزهري أنه قال من صلى فيه أربع ركعات خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، زاد صاحب كتاب الإشارات وإن دعا استجيب له ، وفي رواية : يسأل الله ما يشاء فلا يردّه خائباً .

ولقد سميت برزة لبروز سيدنا إبراهيم عليه السلام على أعدائه في هذا الموضع ، بسفح الجبل فإنه روي أنه عليه السلام قاتل أعداءه في هذا الموضع بسفح جبل قاسيون ، فظفر بهم وبرز عليهم ، وكان متعبده ومقامه فيه ، ونسب ذلك إليه ، وهو مكان شريف ، لم يزل يُزار وتلتمس بركاته ، والدعاء فيه مستجاب مُجَرَّب كما أفصحنا به غير مرّة .

جبل الربوة :

قال ابن الوردي في خريدة العجائب والقزويني في آثار البلاد : جبل الربوة على فرسخ من دمشق ، ذكر بعض المفسرين أنها المراد بقوله تعالى ﴿وَأَوَّيْنَهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ فَذَاتَ قِرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون : ٥٠] وهو جبل عال ، وفي هذا الجبل كهف صغير زعموا أن عيسى بن مريم ولد فيه ، وعلى رأس هذا الجبل ، وأعني جبل الربوة ، قبة عظيمة الشأن مرتفعة في الجو ، محكمة البنيان تسمى (قبة السيّار) وعليها من الحسن ما يدهش الأبصار ، وهي مشرفة على مدينة دمشق وما حولها من البساتين ، والنسائم تهب فيها وتحمل إليها عرف الرياحين وقد هدم بعض أركانها توالي الزمان واعتراها بعض النقصان .

المزة :

كانت في السابق قرية إلى الجنوب الغربي القريب من مدينة دمشق ، ثم تحوّلت إلى ضاحية ، بعدها صارت من أحياء المدينة إثر امتداد العمران إليها . وكانت تُعرف « بمزة كلب » ، نسبة إلى قبائل بني كلب اليمانية التي سكنتها ، وهم أصهار الأمويين وأنصارهم ، وعرفت أيضاً بدمشق الجديدة ، وتسمية المزة يونانية الأصل بمعنى : الربوة أو التلّ .

تعريف : المزة (بكسر الميم وتشديد الزاي) والمِرْزُ : القدر والفضل ، وشيء مِرٌّ ومزيز يعني فاضل (ومززه بذلك الأمر) فضّله . اشتهرت المزة قديماً بفضلها الغامر فيما تقدمه لنازلها من ثمارها وطيب هوائها .

سكانها :

يعود سكان المزة بأصولهم إلى اليمن ، وكان نزول اليمانية فيها أيام معاوية ، فقد وفد الأعور الكلبي الشاعر على معاوية ، فقال له : (اختر لك منزلاً ، فاختار المزة فأقطعه فيها وعشيرته أرضاً) .

موقعها :

يحدها من الشمال أراضي دمر والعاصمة ، ومن الشرق كفرسوسة ومن الجنوب داريا والمعضمية ، ومن الغرب دمر والمعضمية ، وهي أجمل قرى الغوطة موقعاً وهواء وقرباً إلى دمشق ، وتكاد تعد ضاحية دمشق بل جزءاً منها ، وكثير من الأطباء يصفون هواءها الجاف المنعش للمصابين بالأمراض الصدرية .

منتجات المزة :

عُرِفَت المزة بكثرة فاكهتها وثمارها ، ومن ذلك : المشمش ، والجوز ، والتين ، والتفاح ، والرمان ، والتوت ، والزيتون ، وتنتج من الخضار الكوسا ، والباذنجان ، والبندورة ، والفاصولياء ، والحبوب بأنواعها ، والحليب .

وعرفت المزة بأزهارها وعطرها الذي يوزع على كثير من بقاع الأرض (ويحمل الورد المستخرج من المزة إلى سائر البلاد الجنوبية كالحجاز ، وما وراء ذلك ، وكذلك يحمل زهر الورد المزي إلى الهند والسند والصين وإلى ما وراء ذلك ، ويسمى هناك الزهر . وعرفت المزة بصناعة الحبال من النوع الجيد الذي يُصدَّر للأسواق الخارجية ، إلا أن هذه الصناعات انقرضت لمنافسة الصناعات الأوربية لها وذلك لقلة كلفتها .

المزة في التاريخ :

ذكرتها كتب التاريخ ، من ذلك أن مؤرخ الشام شمس الدين محمد بن علي بن طولون عام (٨٨٠ - ٩٥٣ هـ) أفرد مؤلفاً خاصاً عن المزة أسماه (المَعَزَةُ فيما قيل في المِزَّة) ، نشر عام (١٩٨٣ م) ، وللحافظ ابن عساكر كتاب (من نزل المِزَّة وحدث بها) ، وذكرها المسعودي والنعمي ، كما أتى الشعراء على ذكرها كالشاعر ابن قيس الرقيات ، وعبد المنعم الجيلاني الأندلسي ، ومن شعره :

وصخرة المِزَّة الغراء ناطحة	قرن الغزالة في مبدا تجليها
يغذى بها القلب أنفاساً بلا كدر	فلن يحل الوباء أطراف ثاويها
إن الهواء إذا رقت مناسمه	في بلدةٍ لطفت أخلاق أهليها

آثار المزة :

- ١ - قبر الصحابي الجليل دحية الكلبي .
- ٢ - قبر الشاعر ابن عنين (محمد بن نصر بن الحسين) .
- ٣ - مسجد العنابة - مسجد أمين الدولة الوزير - مسجد بني عمير - مسجد بني ظنه - مسجد العامود - مسجد المرج - مسجد البسطامي - مسجد زيد بن أسامة - مسجد الزاوية - مسجد مغارة حمص - مسجد صفى الدين الخادم .
- ٤ - حمام المسعودي .
- ٥ - قبة المسجف العقلاني .
- ٦ - التربة الرحبية وجذرها .
- ٧ - شواهد قبور قديمة من القرن السابع الهجري .

أعلام المزة :

انتسب إلى المزة كثير من العلماء كان أشهرهم :

- ١- الشيخ زين الدين بن عمر بن الحسن بن أميلة الحلبي المزي ، ولد سنة (٦٨٠ هـ) ، قال عنه ابن طولون : (وكان شيخاً صالحاً خيراً ، قوي البنية ، حافظاً لكتاب الله ، كثير التلاوة ، ملازماً وظيفه الأذان بجامع المزة ، وحديث الكثير نحواً من خمسين سنة ، تفرد بالسماع عن أكثر مشايخه ، وسمع عليه الطلبة ، سمع منه الحافظ زين الدين العراقي ، ونور الدين الهيثمي ، وسراج الدين بن الملحق وغيرهم ، وكانت وفاته سنة (٧٧٨ هـ) .
- ٢- يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف القضاعي ، ثم الكلبي الدمشقي الشافعي ، (الإمام العلامة الحبر حافظ الوقت ، محدث الشام جمال الدين أبو الحجاج ولد سنة (٦٥٤ هـ) بظاهر حلب ، ونشأ بالمزة ، وحفظ القرآن وتفقه ، وسمع المسند لأحمد بن حنبل ، وسمع معجم الطبراني الكبير ، ونسخ بخطه المליح المتقن كثيراً لنفسه ولغيره ، ونظر في اللغة ومهر فيها ، وفي التصريف ، وقرأ

العربية ، وأما معرفة الرجال ، فهو حامل لوائها والقائم بأعبائها لم تر العيون مثله ، عمل كتاب تهذيب الكمال في مئتي جزء وخمسين جزءاً ، وعمل كتاب الأطراف في بضعة وثمانين جزءاً ، وولي المشيخة بأماكن منها : دار الحديث الأشرفية ، وكان ثقة حجة كثير العلم ، حسن الأخلاق ، كثير السكوت ، قليل الكلام جداً ، ترافق هو والشيخ تقي الدين بن تيمية كثيراً في سماع الحديث ، وكان يقرر طريقة السلف : السنة ، ولزم وقتاً صحبة العفيف التلمساني ، فلما تبين له انحلاله واتحاده تبرم منه وحط عليه ، توفي سنة (٧٤٣هـ) ودفن بمقابر الصوفية على طريق المزة .

٣- الشيخ محمد بن علي الإسكندريّ المزي سمع من أبي زرعة بن العراقي وأبي الخير بن الجزرلاري ، وأبي الفضل بن حجر ، وأجازت له عائشة بنت عبد الهادي ، والزين المراغي ، وجمع كتاباً محتويّاً على عدة فنون سماه كشف البيان عن صفات الحيوان في أربعين جزءاً توفي سنة (٩٠٦هـ) .

٤- الشيخ الأديب الشاعر عبد الرحمن بن أبي القاسم بن غنائم بن يوسف الكناني العسقلاني ، الشاعر المنعوت بالبدر ، المعروف بالمسجف ، كان أديباً ظريفاً خليعاً ، وأكثر شعره في الهجاء ، ومن شعره :

يا رب كيف بلوتني بعصاة ما فيهم فضل ولا إفضال
غطى الثراء على عيوبهم وكم من سوء غطى عليها المال
هم في الرخاء إذا ظفرت بنعمة آل وهم عند الشدائد آل

كان مولده سنة (٥٨٣هـ) وتوفي فجأة سنة (٦٣٥هـ) وهناك قبة معروفة به بنيت عليه .

٥- الفلكي الحاسب محمد بن أحمد عبد الرحيم الموقت ، المعروف بالإمام شمس الدين ، أبو عبد الله المزي موقت الجامع الأموي ، برع في وضع الإسطرلاب والأرباع ولم ير أحسن من إسطرلابه ، وله نظم ، وله رسائل في الإسطرلاب ، ورسالة سماها (كشف الريب في العمل بالجيب) . ومن مؤلفاته (نظم اللؤلؤ المهدب في العمل بالربع المحب) (رسالة في العمل بالآلة المجنحة)

و(المختصر في العمل برقع الدائرة) و(الروضات الزاهرة في العمل برقع المقنطرات) . توفي سنة (٧٥٠هـ) .

المزة الحديثة :

لم تعد المزة قرية منعزلة عن دمشق ، بل أصبحت أحد أحيائها ، ولم تعد المزة القديمة سوى بيوت قليلة ، أما أشجار المزة وأزهارها فقد حل مكانها غابات من الإسمنت المسلح تتلقى أشعة الشمس لتحولها إلى حرارة لاهبة تكوي بها دمشق ، بعد أن كانت تحول أشعة الشمس إلى نسيم عليل يصل دمشق برداً وسلاماً ينعش الأفتدة بالنسائم النقية .

وأبنية المزة الحديثة فاخرة ورائعة تكاد تكون أفضل مما في دمشق ، وفيها مدارس كثيرة لجميع المراحل التعليمية ، من الروضة حتى الجامعة ، وهناك كثير من المساجد والأبنية الحكومية والحدائق والملاعب الحديثة ، وفيها أكبر مستشفيات سورية كمستشفى المواساة ، ومستشفى الأطفال ، ومشفى الأسد الجامعي ، وهو من أكبر مستشفيات القطر العربي السوري وأفضلها ، والمعالجة في هذه المستشفيات مجانية ولكل أبناء الشعب .

* * *

ساحات دمشق

ساحة آخر الخط :

تسمية شائعة على ألسنة الناس للساحة التي تقع آخر طريق المهاجرين من جهة الغرب ، أطلقت نسبة لآخر محطة للترام قبل إلغائه كانت في هذا الموقع ، وتُعرف الساحة أيضاً باسم ساحة خورشيد نسبة لقصر بناه خورشيد المصري [وهو القصر الجمهوري القديم القائم حالياً قربها] ، وتُعرف اليوم رسمياً باسم ساحة ذي قار [نسبة لمعركة ذي قار التي جرت في الجاهلية بالعراق بين العرب والفرس ، وتوحدت فيها قبائل العرب ، فكانت أول انتصار لهم على العجم سنة ٦١٠م]^(١) .

ساحة الأمويين :

في شارع شكري القوتلي [شارع بيروت] ، غربي دمشق ، وتؤلف عقدة مواصلات رئيسية ، وتمّ تنظيمها في العهد الوطني ، وسميت بذلك تيمناً بالازدهار الذي شهدته دمشق عندما كانت عاصمة للعالم الإسلامي في العهد الأموي ، وقد نُظمت هذه الساحة في السجلات الرسمية بمحافظة دمشق على مرحلتين :

مرحلة آ : ضمن تنظيم غربي أبي رقانة : تاريخ التوزيع ٢٣/٥/١٩٨١ م ، التسجيل في الطابو ١٧/٩/١٩٨١ م .

مرحلة ب : تنظيم الساحة تاريخ التسجيل ٢٣/١/١٩٧٠ م^(٢) .

(١) دمشق تاريخ وصور للشهابي ط ٢ ، ٣٩٩ المنجد في الأعلام ٢٥٧ .

(٢) سجلات محافظة دمشق ، مدينة دمشق لصفوح خير ٢٠٦ ، معالم دمشق التاريخية للإيش والشهابي ٢٦٣ ، خرائط دمشق السياحية .

ساحة الأولياء :

ساحة تاريخية قديمة لا تزال في محلة الفواخير ، عند الطرف الشرقي لمنطقة المهاجرين فوق نهر يزيد ، قرب جادة السكة ، لصيق المدرسة الأرموية الدارسة ، سميت بذلك لأنها كانت تضمّ قبوراً يعتقد الناس بأنها قبور لأولياء صالحين^(١) .

ساحة باب توما :

ساحة تحيط بباب توما الأثري ، نُظمت في بدايات الاحتلال الفرنسي لدمشق ، وأكمل التنظيم في الثلاثينيات المهندس الفرنسي (إيكوشار)^(٢) .

ساحة باب المصلّى :

في حيّ الميدان التحتاني ، تفصل بينه وبين حي الميدان الوسطاني ، وتُعرف أيضاً بدوّار باب المصلّى ، واسمها الرسمي اليوم ساحة اليرموك^(٣) .

ساحة الجريد :

كانت إلى الغرب من محلة الحواكير ، تحت ساحة آخر الخطّ [أسفل قصر تشرين وعلى امتداد مستشفى الشامي اليوم] ، وكانت تقام فيها سباقات الخيل ومباريات (الجريد بين الفرسان ، فيحمل الواحد منهم جريداً في يده [وهي خيزرانة قصيرة ، والكلمة من اللغة الكرديّة وتعني : السباق] ، ثم يعدو بفرسه ويلحقه فارس آخر ، فإذا مسّه بها غلبه ، وكانت لهذه اللعبة أصول متبعة ، وهي من ألعاب الفروسية الآتية من آسية الوسطى ، وفي عام (١٩١٨ م) نصب الإنكليز خيامهم في هذه الساحة بعد دخولهم دمشق مع القوات العربية والأمير فيصل بن الحسين ، وبقوا فيها ٣ - ٤ أشهر كانوا يتسلون بلعبة الفوتبول [كرة القدم] درست^(٤) .

(١) القلائد الجهرية لابن طولون ٢٨٦/١ وح ١ ، مخطط الصالحية لدهمان .

(٢) دمشق تاريخ وصور للشهابي ، ط ٢ ، ٣٣٤ .

(٣) خرائط دمشق السياحية .

(٤) ذكريات لعلي الطنطاوي ٢٧٠/٣ ، حديث دمشقي لنجاة قصاب حسن ٥٠/١ ، دمشق تاريخ

وصور للشهابي ط ٢ ، ٣٩٩ ، معالم دمشق التاريخية للإيش والشهابي ٢٦٤ .

ساحة الجسر الأبيض :

في الصالحية ، بين طلعة العفيف والطللياني ، وكانت محلة الجسر الأبيض في العهد المملوكي من أنزه البقع في دمشق ، وصفها البدري في القرن التاسع للهجرة ، سميت بذلك لوجود جسر فيها كان مبنياً بحجارة بيضاء فوق نهر (ثورا)^(١) .

محطة الحجاز :

تشغل محطة الحجاز (المحضر رقم (٦٨٤) من المنطقة العقارية قنوات جادة) قلب مدينة دمشق النابض بكل صنوف الحضارة والتراث وتتميز بطرازها المعماري الإسلامي الهام ، حيث كان لافتتاح الخط الحديدي (دمشق الحجاز) أهمية كبيرة من الناحية السياسية والدينية والحضارية للدولة العثمانية وربط أمصارها وسهولة نقل الحجاج إلى أرض الحجاز في عهد السلطان عبد الحميد الثاني (١٢٩٣-١٣٢٧هـ / ١٨٧٦-١٩٠٩م) كان هذا الخط يمتد بطول (١٣٢٠ كم) من دمشق حتى المدينة المنورة وقد استغرق العمل في هذا المشروع العملاق ثماني سنوات متتالية حيث احتفل ببدء المشروع في (١٣١٨هـ / ١٩٠٠م) وقد وصل أول قطار إلى المدينة المنورة في (١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م) هذا وتعد من أجمل وأنجح المحطات على خط الحديدي الحجازي بعد محطة المدينة المنورة ، كما تقع في أجمل وأهم مناطق مدينة دمشق ، وأكثر ما يميز هذه المحطة واجهاتها الرائعة التي استخدم فيها عدة أنواع من الحجارة التي أخرجت بتناغمها عناصر متناظرة ، ويتوسط واجهتها الرئيسة المدخل الرئيسي المهيّب الذي يفتح على البهو الداخلي الكبير المرتفع الذي يطل عليه من الداخل رواق بمستوى الطابق الأول ويغطي كامل البهو سقف جملوني ، ويحفظ البهو وسقفه بزخارف بديعة نباتية وهندسية .

ساحة الحجاز :

عند تقاطع شارع النصر بشارع سعد الله الجابري ، وكانت الأرض التي أقيمت عليها هذه الساحة ملكاً لآل (الملاً) الذين قدموا من المغرب العربي ، كما كانت

(١) دمشق تاريخ وصور للشهابي ط ٢ ، ٣٨٠ ، معالم دمشق التاريخية للإيش والشهابي ١٢٢ .

جزءاً من (بستان الأعجام) أو (بستان الغربا) ، ومن أهم الآثار النفيسة في العهد التركي الأخير سكة حديد الحجاز وطولها (١٣٠٣) كيلو متر كانت تمتد من دمشق إلى المدينة المنورة ، عمرت بإعانات العالم الإسلامي ، ومحطتها من أجمل الآثار الحديثة هندسة .

وتعد ساحة الحجاز من أشهر وأقدم الساحات الدمشقية ، وتقع في الطرف الغربي لشارع النصر الذي تم افتتاحه سنة (١٩١٤ م) وقبيل ذلك بقليل تم بناء محطة الخط الحديدي الحجازي في قلب مدينة دمشق وتم بناؤه عام (١٩٠٨ م) على مساحة (٩٢٥) متراً مربعاً ويتألف من طابقين متساويين في المساحة يتم الوصول إلى الطابق الأول عن طريق أدراج يكون الدخول إليها من خارج المبنى وعلى جانبيه ويتألف الطابق الأرضي من جناحين بينهما بهو كبير مفتوح إلى فراغ الطابق الأول وظيفته استقبال واستيعاب حركة المسافرين وقطع التذاكر والانتظار .

يقسم الجناح اليميني إلى عدة غرف تستخدم لانتظار ركاب الدرجات الأولى والثانية والثالثة أما الجناح اليساري فيستخدم في القسم المطل منه على البهو لموظفي قطع التذاكر وخدمة الأمتعة وفي الجزء الخلفي منه للإداريين ورئيس المحطة .

أما الطابق الأول فيقسم أيضاً إلى جناحين يفصل بينهما الفراغ المفتوح من الطابق إلا أنهما يتصلان بواسطة شرفة متحلقة حول فراغ البهو ومطلّة عليه ، وهذان الجناحان كانا يستخدمان كسكن ، تزين سطوح البهو الرئيسي والمفتوح على طابقين مساحات كبيرة من الزخارف العربية ، أما من الخارج فقد زينت الواجهات بمجموعات من العناصر المعمارية التي تؤكد أهمية هذا المبنى الذي كان جزءاً من المشروع الضخم الذي بدأه السلطان العثماني عبد الحميد الثاني بإشراف أمين سره أحمد عزت باشا العابد ، وكان المشروع يهدف إلى ربط المدينة المنورة بالعاصمة العثمانية (إستانبول) مروراً بمدينة دمشق ، ولكن اندلاع الحرب العالمية الأولى حال دون إتمام ذلك المشروع .

ويعد بناء محطة الحجاز من الأبنية التاريخية الجميلة التي تزخر بها دمشق وقد

قام بهندستها مهندسان ألماني وأسباني ، وجاء بناؤها على طراز جمع بين النموذج الإسلامي والأوربي ، وفيه الكثير من التفاصيل المعمارية الرائعة .
وفيها اليوم نصب تذكاري تخليداً لاستشهاد الطبيب مسلم البارودي الذي استشهد وهو يقوم بواجبه أثناء القصف الفرنسي لمدينة دمشق في (٢٩ أيار ١٩٤٥ م) وأيضاً يوجد سبيل ماء يتوسط الساحة ولوحة تذكارية .

ساحة السبع بحرات :

أمام مصرف سورية المركزي ، تتوسط أحياء المزرعة والشهداء وساروجا ، نُظمت أيام الاحتلال الفرنسي لدمشق سنة (١٩٢٥ م) ، وسميت حينئذ بساحة « الكابتن ديكاربان تري » قائد الهجّانة (حرس البادية) الذي لقي مصرعه أثناء حراسته لقافلة سيارات بغداد في (١٢ أيلول ١٩٢٥ م) ، وكانت عبارة عن قبة إسلامية الطراز تحيطها سبع بحرات ، وبعد جلاء الفرنسيين (١٩٤٦ م) أطلق عليها اسم (ساحة ١٧ نيسان) ، وصار اسمها بعد اشتراك القوات المغربية في حرب تشرين التحريرية (١٩٧٣ م) (ساحة التجريدة المغربية) ، ثم أعيدت إليها سنة (١٩٩٨ م) التسمية القديمة الشائعة (ساحة السبع بحرات)^(١) .

ساحة السخّانة :

لا تزال في حيّ الميدان الفوقاني ، تنسب للقادمين من قرية « السخنة » في بادية الشام ، بين تدمر والقريتين ، الذين سكنوا في هذه المحلة في القرن التاسع عشر^(٢) .

ساحة سوق الخيل :

جنوب سوق ساروجا ، شرقي ساحة المرجة ، وكان اسم موضعها والمناطق المجاورة لها (تحت القلعة) ، وتخصّصت بتجارة الخيول وتمويل قطعات الخيالة بها في العهد السلجوقي والأيوبي والمملوكي والعثماني ، كما كانت مركزاً لتجمع

(١) دمشق تحت القنابل لأليس بولو ٩١ ، عشائر الشام لذكريا ط ٢ ، ٣٨٩ ، ٤١٤ ، دمشق

تاريخ وصور للشهابي ط ٢ ، ٣٥٥ ، معالم دمشق التاريخية للإيش والشهابي ٢٧٦ .

(٢) ذيل ثمار المقاصد لطلّس ٢٢٢ ، ٢٣٤ ، معالم دمشق التاريخية للإيش والشهابي ٢٧٦ .

العاملين في مستلزمات الجيش ومهماته بدءاً بالخياطين وصنّاع الأسلحة وانتهاءً بالمطاعم والفنادق . واستمرّ تطوّر هذه الساحة والسوق تجارياً ليحل محلهم باعة الخضار والفواكه والعطارة كبدائل عن باعة الخيل ، ولا تزال إلى اليوم مركزاً لبيع الخضروات والفاكهة ، وقد أطلق شاغلوها عليها اسم (سوق علي باشا) إحياء لذكرى هذا السوق الذي كان بينها وبين ساحة المرجة^(١) .

ساحة شُمدين :

برأس شارع ركن الدين ، عند المدرسة الركنيّة ، سميت بذلك نسبة إلى سعيد باشا شُمدين أحد الأعيان بدمشق في عصره ، وأمير الحجّ الشامي^(٢) .

ساحة العباسيين :

في الجهة الشرقية لدمشق ، بنهاية شارع حلب ، ضمن تنظيم الزبلطاني ، أنشئت هذه الساحة في العهد الوطني لتكون مواصلات رئيسية ، وأطلقت تسميتها أسوة بساحة الأمويين ، ولو أن دمشق لم تكن عاصمة للدولة في العهد العباسي ، وقد نظّمت هذه الساحة في السجّلات الرسمية بمحافظة دمشق على النحو التالي :

تاريخ التوزيع ٣/٣/١٩٦٥ م قبل مخطّط إيكوشار .

تاريخ التسجيل في الطابو ٨/٤/١٩٦٥ م^(٣) .

ساحة المرجة :

ساحة المرجة أو ساحة الشهداء تقع في وسط دمشق القديمة وكانت تعد مركز المدينة وكان يوجد في ساحة المرجة في دمشق ساعة كبيرة موضوعة في الجهة الغربية منها ، كانت الساعة ثلاثية الوجوه ، وجه يتطلع نحو مقر البلدية الذي هدم وقامت مكانه بناية ضخمة ، ووجه ثان يواجه النصب التذكاري لتخليد الخط الحديدي الحجازي ، القائم على عمود رخامي ضخّم ، والذي يتوج رأسه بقصر

(١) دمشق تاريخ وصور للشهابي ط ٢ ، ٧٢ .

(٢) معالم دمشق التاريخية للإيش والشهابي ٢٦٧ .

(٣) مدينة دمشق لصفوح خير ٢١٧ ، معالم مدينة دمشق التاريخية للإيش والشهابي ٢٦٨ .

مصغر ، ووجه ثالث يتطلع جهة الشمال ، وكان نهر بردى غير مغطى في القسم الممتد من ساحة فكتوريا إلى ساحة المرجة ، وكانت البحصّة منطقة سكنية متصلة بجوزة الحدبا التي كانت ممراً من مركز المدينة إلى أحد أهم أحياء دمشق السكنية وهو سوق ساروجا .

وأذكر أنه كان في جوزة الحدبا فندق كبير ، كان يسمى « دامسكو بالاس » كان ينزل فيه كبار زوار المدينة ، ومن الفنادق الكبرى فندق « الأوريان بالاس » الذي ما زال قائماً إلى اليوم في مكانه مقابل محطة الحجاز وكان فندق « ويندسور بالاس » في منطقة البحصّة من الفنادق الهامة ، وكانت منطقة سوق الخيل التي هي امتداد ساحة المرجة إلى الشمال منطقة مملوءة بالحيوية ، وكانت تباع فيها الطيور والدجاج والخرفان ويشوى اللحم في الطريق ، وكان فيها عدد من الفنادق أهمها « فندق الخديوية » .

أتى تنظيم الشوارع التي كانت تصب في ساحة المرجة ، على جزء من شارع رامى ، أو نزلة رامى ، كما كان يسمى ، ومن بين ما شمله القصّ سينما سنترال التي كانت تتوسط شارع رامى . ومن أبهج ما كان في ساحة المرجة سوق علي باشا الضيقة التي كانت تحتل خاصرة الشارع الشمالي الذي كان الترام يمر به ذاهباً إلى باب توما والقصاع وقرية دوما^(١) ، وكانت سوق علي باشا درة أسواق دمشق ، ليس في الدنيا فاكهة لم تكن موجودة فيها ، وكانت روائح الفاكهة تتركز أنوف المارين بها أو قربها ، وكان فوقها مجال وفندق ، وفي فمها كان المقهى المسمى باسمها ، وكان يحفل بالناس من محتسي القهوة والشاي ومدخني النرجيل ، وكنا نعبر من المرجة إلى سوق العتيق أو سوق الخيل أو العكس .

وكانت هذه السوق المغطاة ملجأً لنا من القипظ أو المطر ، وكانت لضيقها تعج بالناس ، وبالأغراب خاصة ، وكانت محكمة الجنایات تحتل جزءاً من ساحة المرجة ، من جهتها الشرقية ، وكانت هذه تجاور جامع يلبغا ، وكانت منطقة البحصّة تقابل المحكمة والجامع ، وكانت تعج بالمنازل .

(١) أصبحت الآن مدينة بكل معنى الكلمة .

وفي المناطق التي تلتف حول ساحة المرجة كان ثمة حمامات شهيرة ، منها حمام « الأرمني » بلهجة أهل دمشق الذي كان قريباً من فم سوق العتيق . وحمام الرأس الذي في فم سوق السروجية والزرابلية ، وكان هذا ملجأ الأغراب يدخلونه ، أو يجبرون على دخوله في حملات النظافة التي كان رجال الشرطة يقومون بها بين الحين والآخر في دمشق ، وخاصة في المواسم التي كانت الأوبئة تنتشر فيها . وكانت سوق الزرابلية عرضانية تمتد ما بين شارع السنجقدار وشارع الملك فيصل الذي كان ترامواي القصاع يمر به ، وكانت مختصة ببيع الزرايل ، أي ما كان يلبسه العامة في أقدامهم ، أما سوق السروجية فكانت مختصة ببيع السروج وما يتصل بها من أشغال جلدية مما كان يستعمله الفارس والفرس .

ومن المعالم المتصلة بساحة المرجة بناية العابد الحجرية الفخمة التي تطل عليها من جهة الجنوب ، وكانت تسمى « المنزل » وكانت وما تزال ممتدة من منتصف نزلة رامي حتى المرجة ، وكانت حافلة بمكاتب المحامين بخاصة ، وفيها دائرة نفوس دمشق التي سميت فيما بعد مديرية الأحوال المدنية ، وكان في وسط ساحة المرجة حديقة في وسطها بركة ، وكانت السيارات القديمة « الفورد »^(١) وعربات الخيل المسماة بلهجة أهل دمشق (العربيات) تتحلق الحديقة ، ويأتي طالبها إليها مجتازاً أي جانب من جوانب الساحة دونما حرج .

وخلال أكثر من نصف قرن كبرت الحديقة وصغرت أكثر من مرة ، لكنها بقيت حديقة ، ينتصب فيها نصب الخط الحديدي الحجازي المشار إليه .

وكانت تراموايات كلها تسافر سفراتها وتعود إلى المرجة ، أي أنها كانت تنطلق منها وتعود إليها ، وكان في المرجة عدة مواقف لها ، موقف قرب ساحة المرجة ، يقف فيه ترامواي المهاجرين وترامواي الشيخ محي الدين . وموقف قرب نزلة رامي وتقف فيه تراموايات جميع الخطوط وبخاصة ترامواي خط الميدان ، وموقف ثالث قرب محكمة الجنايات ، وموقف رابع لتراموايات القصاع ودوما ، عند الانعطافة إلى

(١) الفورد أبو دعة ، هكذا كان العامة الدمشقيون يسمونها .

سوق التبن ، أي مقابل سوق علي باشا ، وكانت أرض ساحة المرجة مفروشة بالإسفلت في زماننا ، لكنها كانت غاصة بقضبان سكة الترامواي الدائرية المتشابكة المتداخلة وكانت الأرض تحتها مرصوفة بالأحجار السوداء .

ويتوقف زوار المدينة ملياً في وسط المدينة حيث موقع ساحة المرجة أو ما يسمى المرج الأخضر وسميت الساحة بأسماء مختلفة ، يلفت النظر في هذه الساحة القصر المشيد في جهتها الجنوبية الشرقية والمعروف بقصر العابد نسبة إلى بانيه عزت باشا العابد ، كان الموقع يشغل قصراً بناه الوالي كنج يوسف باشا ليضاهي به قصر الوالي أسعد باشا العظم ، تكون إطلالته على المرج الأخضر المزدان بأزهار دمشق ومقابلاً لجامع يلغا المملوكي .

تم بناء القصر عام (١٨٠٧ م) وأقام فيها بانيه وجعله داراً للحكومة في عهد الوالي حسين ناظم باشا اشترى عزت باشا العابد هذا القصر من بانيه كنج باشا وبموافقة الوالي ناظم باشا وعمد إلى هدمه ليجعله فندقاً ممتازاً من الطراز الأول في ذلك العصر يقصده السواح الأجانب وانتهى بناؤه عام (١٩١٠ م) غير أن الحرب العالمية الأولى أوقفت المشروع فاحتلته القوات العثمانية وأصبح منزلاً لعسكرها ويعرف الآن ببناء العابد نسبة إلى بانيه .

مبنى العابد واحد من المعالم الأثرية الجميلة الباقية ، يتطلع إلى عناية المهتمين ليبقى شاهداً على مرحلة من تاريخ مدينة دمشق والأحداث التي شهدتها حتى التحرر والاستقلال .

فتحت في دمشق طرق حديثة تصل المدينة القديمة بالأحياء الحديثة وعهد إلى شركه بلجيكية بإضاءة دمشق ، والقيام بتسيير (حافلات الترام) من ساحة المرجة إلى الميدان ، ومن المرجة إلى الجسر الأبيض ، ثم توسع عملها ، فوصلت هذه الحافلات إلى المهاجرين والشيخ محي الدين والقصاع (باب توما) بل وضاحية دوما وذلك قبل أن تحل الحافلات نهائياً محلها ، والجدير بالذكر أن ساحة المرجة كانت نقطة انطلاق حافلات الترام إلى مختلف أحياء دمشق مما كان يساعد المواطن على تغيير حافلة الترام ومواصلة تنقله بواسطة حافلة خط آخر توصله إلى المكان الذي يقصده .

وقد زينت ساحة المرجة بنصب برونزي تذكاري رائع صممه ونفذه فنانون إيطاليون ، وأقيم بمناسبة الاحتفال بتمديد خطوط هاتف دمشق المدينة عام (١٩١١م) ، وكان رئيس المقاولين سعد الدين الدمشقية وكانت قد ظهرت أهمية شارع ممتد من محطة الحجاز إلى سوق الحميدية عرف باسم شارع (النصر) نسبة إلى أحد أبواب دمشق (باب النصر) الذي كان قرب مدخل سوق الحميدية وكان هذا الشارع يعرف باسم شارع جمال باشا وظهر سوق (علي باشا الموره لي) في ساحة المرجة كمعرض دائم لأجمل الفواكه الدمشقية والبضائع الجميلة ، ويعود فضل بناء (سوق الخجا) إلى الوالي (ناظم باشا) .

ويوجد أيضاً دار البلدية وإلى شمالها الصيدلية التابعة للبلدية (تهدم المبنى وحل محله أحد المباني البرجية) ومبنى البريد والهاتف أيضاً في ساحة المرجة ، وهي مركز المدينة ، بين شارع النصر وحيّ البحصّة ، وكانت هذه البقعة في العهد المملوكي متنزّهاً غنيّاً بالأشجار والخضرة حيث ينقسم بردى إلى فرعين يشكلان بينهما جزيرة ، وفي عام (١٨٠٧م) أنشأ فيها والي دمشق العثماني (كنج يوسف باشا) مبنى هاماً عرف باسم سرايا الحكم [في نفس الموضع الذي شيدت فيه بناية العابد فيما بعد] .

وفي عام (١٨٦٦م) قام الوالي محمد راشد باشا بتغطية نهر بردى في تلك الساحة ، ثم شيد فيها الوالي مدحت باشا عام (١٨٧٨م) مبنى البريد والبرق ، ومبنى العدلية ، ثم أقام فيها الوالي حسين ناظم باشا بناء البلدية عام (١٨٩٥م) . وفي هذه الساحة أعدم السفاح جمال باشا شهداء القومية العربية في (٦ أيار ١٩١٦م) ، كما عرض الفرنسيون فيها جثث الفلاحين الأبرياء الذين قتلوهم ظلماً خلال الثورة السورية الكبرى (١٩٢٥ - ١٩٢٧م) . وقد عُرفت الساحة بأسماء مختلفة : بين النهرين ، الجزيرة ، ساحة الشهداء نسبة لشهداء ٦ أيار ، أمّا تسميتها الشائعة على ألسنة الناس فهي ساحة المرجة نسبة للمرجة الخضراء الياضنة التي كانت تمتد منها إلى شرق التكية السليمانية الحالية^(١) .

(١) دمشق تاريخ وصور للشهابي ط ٢ ، ٣١ ، معالم دمشق التاريخية للإيش والشهابي ٢٦٩ .



صورة خريطة دمشق القديمة



صورة سور دمشق بين باب السلامة وباب توما

سور دمشق وقلعتها^(١)

سور مدينة دمشق تاريخ وحضارة :

السيد بول شيفتن باحث من الولايات المتحدة الأمريكية ، (ولاية كاليفورنيا) ، كلية التاريخ ، قَدِمَ إلى دمشق من أجل الإعداد لرسالته عن سور دمشق ، وشارك في الندوة الآثارية لمدينة دمشق القديمة . وعن سور دمشق قال :

« من خلال دراستي لواقع السور وأساسه الظاهرة ، تبين لي أن السور كان غير منتظم منذ العهد الروماني ، فقد كان يتبع تضاريس الأرض من ارتفاع وانخفاض ، لقد توثقت من ذلك بما تبقى من آثار هذا السور ، بعضه ظاهر للعيان وبعضه مختف تحت سطح الأرض في العهود التالية للعهد الروماني .

جُدّد السور ولكن تجديده كان فوق أساسه الأولى ، لذلك اختلفت مواد البناء ، ومن ثم نرى أن القسم السفلي في بعض الأقسام مكون من الحجارة الضخمة وفوقها رصت حجارة صغيرة من عهود قريبة أي إنّ (سوفاجيه) أخطأ باعتقاده أن بناء السور بعيد عن أساسه الأولى » .

وأضاف : (عرفت قديماً أبواب دمشق بأسماء غير أسمائها اليوم ، وأعتقد أنها كانت تسمى بأسماء الكواكب السيارة ، باب جوبيتر ، باب فينوس ، باب عطارد ، بعد الفتح الإسلامي تبدلت الأسماء ومن بينها باب كيسان الذي جدّد وقد أخذ الباب اسمه من اسم مجدّده .

سألته : هل تعتقد أن باب كيسان كان مكان هذه الكنيسة بالضبط ؟ قال :

(١) كتبت هذه المادة اعتماداً على المصادر والمراجع التالية : ١ - عبد القادر ريحاوي : قلعة دمشق . ٢ - ولتسنجر - وايتسنجر : الآثار الإسلامية في دمشق ت : قاسم طوير . ٣ - درافيو : وقف دمشق ت : أحمد إيش .

لا أدري بالضبط ربما يكون مكانها هنا أو ربما أبعد قليلاً ولكن أجزم أنه في هذه المنطقة ، للأسف الذين بنوا الكنيسة لم يتركوا لنا أية صورة أو وصف عن الوضعية التي كانت عليها المنطقة قبل البناء ، وبذلك ضاعت معالم كان من الممكن أن تعطينا استنتاجات ربما لم ينتبه لها الباني ، لذلك يجب أن تؤخذ مجموعة كبيرة من الصور قبل الترميم ورسم المخططات لكل حجر حتى لا يفقد الأثر أي حجر .

قلت له : أذكر أن الأستاذ خالد معاذ كان قد كلمني عن هذا الباب فقد ساهم في ترميمه ، وأنه نادم على شيء ما ، لم أتبيّنه له ، فهو لم يكن راضياً عن طريقة تنفيذ الترميم . قال شيفتن : الكنيسة لم ترمم فهي حديثة البناء بنيت بحجارة قديمة والترميم غير البناء ، كذا سور دمشق الآن يعاد بناؤه لا ترميمه وهذا خطأ طبعاً .

وفي هذه الأثناء ، كنا قد تجولنا حول الكنيسة ووصلنا إلى قسم من السور يقع إلى جانب الكنيسة ، عدد من الأحجار الضخمة هي قسم من السور ، جانب منها كان مستقيماً شاقولياً .

قال : انظرْ إلى ترتيب هذه الحجارة ، رصف الأحجار هنا يوحي كأن باباً كان هنا ، لا ندرى بالضبط هل هو قديم أو باب محدث ، ربما يكون باب دمشق القديم الحقيقي ، أما من الجهة الأخرى فقد ارتفع فيها مستوى الأرض حتى بلغ عدة أمتار وهي عبارة عن بستان .

سرنا باتجاه باب الحديد ، وعلى مسافة خطوات من المكان الأول وقف وأخذ يحقق في الأرض ، أزال بعض التراب وقال : هنا كان يوجد أحد أبراج سور دمشق ، هذه هي أسس هذا البرج ، نظرت فوجدت أحجاراً ضخمة رصت إلى جانبيها على شكل مستطيل سطحها على مستوى الأرض الترابية ، ثم أشار إلى مجموعة من الأحجار وقال : هناك كان برج آخر ثم قاس بين البرج الأول والثاني فإذا هي تزيد قليلاً عن الثلاثين متراً ، أما البرج فضلعه يقارب الخمسة أمتار ، لاحظت أنه رباعي الشكل بينما شكل ما رقمته مديرية الآثار دائري الشكل .

بعد ذلك سرنا إلى مسافة تقارب المسافة السابقة وقال : هنا يوجد برج ثالث ،

ثم قاس المسافة فإذا هي اثنان وثلاثون متراً ، أما مكان البرج الرابع فلم يتحدد . بعد مسافة أخرى ، قال : أعتقد أن هذا الارتفاع ، وأشار نحو مدخل مرآب لسيارات الإطفاء أقامته مدينة دمشق ، أعتقد أنه هنا أسس برج آخر من أبراج سور دمشق . بعد ذلك يضيع أثر السور ، بدءاً من معهد فلسطين ، فشارع الأمين ، ثم عدد الأبنية الحديثة حتى مدخل الشاغور .

دخلنا إلى منشرة خشب فرحب به الجميع بالاسم ، قال لي : هذه المنشرة تخفي قسماً من السور ، دخلنا فشهدنا حجارة ضخمة ما كنت أعلم بوجودها قلت له كم عمر هذه الحجارة ومن أين أتوا بها ؟ قال : عمرها أكثر من ألفي سنة ولا شك أنها مقتلعة من جبل قاسيون ، فسور دمشق مبني بحجارة جبل قاسيون ، ثم أخرج ورقة وقلماً وسجل ورسم الأحجار .

ثم انتقلنا بعدها إلى مخرطة تجاور السور ، ومن خلال نافذة المخرطة شاهدنا قسماً آخر من السور ، وهناك لفت نظرنا حجر ضخيم برزت على سطحه أشكال وكأنها نحت بارز لحيوان .

أراد شيفتن أن يريني قسماً مهماً من السور يقع داخل مستودع للزجاج ، ولكن للأسف لم نجد صاحب المستودع فتابعنا طريقنا ، لكن السيد شيفتن أوقفني وقال : سأريك عجباً . أخذ بيدي ودخل مكاناً لم أتبينه في السابق فإذا هو إسطنبول كبير للدواب أخذ قسماً كبيراً من سور دمشق .

كان المكان مظلماً فلم نتبينه إلا بعد فترة ، فإذا بقسم كبير من السور يحتفظ بأحجاره كاملة وكان من أفضل أماكن السور .

دخلنا قسماً آخر من السور ، كان قد زاره شيفتن سابقاً لكنه لم يتمكن من مشاهدته لكونه مستودعاً للتبن ، كان التبن قد أظهر قسماً آخر من السور ولكن ليس بشكل كامل . قلعة دمشق :

عند الزاوية الشمالية الغربية لسور دمشق وقد أحيطت بخندق عميق يملأ بالماء حين الخطر وتبلغ أبعادها ٢٣٠ × ١٥٠ م ، بدأ بناؤها بعد سنة واحدة من دخول الأمير

« أئسز بن أوق الخوارزمي التركماني » إلى دمشق في العهد السلجوقي سنة ٤٦٩هـ/١٠٧٦م بعد أن انتزعها من أيدي الفاطميين ، وأكمل البناء في عهد الأمير السلجوقي « تتش » ، وكان أول من أقام فيها ، ثم قام الملك العادل « أبو بكر محمد » في العهد الأيوبي بهدم هذه القلعة السلجوقية سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٢م وأنشأ في موضعها قلعة أكثر تطوراً ، واستمرّ فيها البناء حتى وفاته سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م . ثم تعرّضت هذه القلعة إلى كثير من الكوارث كالزلازل والعمليات الحربية في زمن الأيوبيين والمغول والتتار . ثم أعاد ترميمها الظاهر بيبرس .

لها أربعة أبواب وأربعة عشر برجاً يحده نهر العقرباني الجانب الشمالي للقلعة ويعتقد أنه كانت القناة التي كانت تؤلف خندق الحماية أما نهر بانياس فقد صمم الجدار عند زاوية البرج في الجانب الشمالي للمواجه بحيث يسمح بدخوله للقلعة والأبراج تتألف من ٣ طوابق مجهزة لمرامي النبال والقذائف الحجرية والمواد المشتعلة ، ويتوضع جامع الصحابي الجليل أبي الدرداء رضي الله عنه في منتصف الواجهة الشمالية للقلعة تقريباً .



صورة قلعة دمشق

إن أكثر ما يميز قلعة دمشق كونها مبنية في مستوى أرض المدينة لعدم وجود مرتفع فيها ، وقد لاحظ القدماء هذه الناحية فوصفوا القلعة بالمرجلة ، وهو تعبير يطلق على الفارس إذا نزل عن فرسه ووقف على رجله ، أي ترجل . وقد عوض مهندسو القلعة حرمانها من المرتفع الطبيعي بإعطائها مميزات بديلة لا نجدها في القلاع الأخرى المحصنة بالمرتفعات ، وتتجلى هذه الميزات في ضخامة البناء وقوته بشكل عام وفي ارتفاع الأبراج ، وسماكة الجدران ، وضخامة الحجارة وطريقة نحتها ، ووفرة المرامي والرواشن ، وشيدت داخلها الدور والحمامات والمساجد والمدارس ومع ذلك فإن قلعة دمشق ظلت بعيدة عن دائرة الاهتمام والمعرفة على الرغم من وقوعها في قلب المدينة ، بسبب الدور الذي أدته خلال الستين سنة الماضية كسجن وثكنة للشرطة مع ما استتبع ذلك من انعدام إمكانية استثمارها ثقافياً وسياحياً ، إضافة إلى الأسواق التي أحاطتها من كل جانب حتى حجبها عن العالم ، فكانت القلعة الوحيدة المخبأة في العالم .

تحت القلعة :

منطقة في دمشق كانت تسمى بهذا الاسم في القرون الوسطى الإسلامية ، وهي تضم أسواقاً وأماكن ، كسوق علي باشا ، وسوق الخيل ، وسوق التبن ، وخان البطيخ ، وخان الباشا ، والمحairية ، والخيمية ، وبين الحواصل ، وطريق دومة إلى العمارة .

ويظهر من كلام المؤرخين في تحديد موقع (تحت القلعة) أنه كان يطلق على المكان الفسيح الواقع بين مصلبة العمارة شرقاً ، والمرجة غرباً والقلعة والنهر جنوباً ، وسوق ساروجا شمالاً .

وقد بالغوا في وصف قدم هذا المكان وعمرانه حتى قال (ياقوت) في معجمه « أن شيوخ دمشق يزعمون أن دار شداد بن عاد واقعة في سوق التبن ، يفتح بابها شمالاً إلى الطريق ، وأنه كانت تزرع لشداد الرياحين والورد وغير ذلك فوق الأعمدة بين القنطرتين : قنطرة دار البطيخ ، وقنطرة سوق التبن .

وقد بقي موقع (تحت القلعة) حافظاً شهرته التاريخية هذه مدة خمسة أو ستة قرون .

فأول ما عرف من تاريخه الصحيح القرن الرابع للجهرة فإن (دار البطيخ) كانت موجودة في ذلك القرن ، وبقي (تحت القلعة) عامراً إلى القرن التاسع وربما بعده . ومن محاسن الشام (تحت القلعة) فإنها منهل للغريب ومرتع للقريب وأما ساحة تحت القلعة فإنك لا تستطيع أن ترى أرضها لكثرة ما بها من المتعيشين والوظائفية ، ويتخللهم أرباب الحلق والغلانية والمضحكون وأصحاب الملاعب والحكوية والمسامرون وكل ما يتلذذ به السمع ويسر العين وتشتهيه النفس صباحاً ومساءً على هذا لا يفترون لكن المساء أكثر اجتماعاً .

تاريخ القلعة :

تعد قلعة دمشق من أهم معالم مدينة دمشق وأوسعها مساحة ولا يساويها في هذه الأهمية إلا الجامع الأموي .

بنيت القلعة في الزاوية الشمالية الغربية من المدينة القديمة ضمن السور ، ويحيط بها خندق عرضه عشرون متراً ، وقد غطت وقت بنائها ثلث مساحة المدينة تقريباً .

القلعة السلجوقية :

بُدىء بنائها عام (٤٦٩هـ / ١٠٧٩م) في عهد الأمير أئسز بن أوق الخوارزمي التركماني بعد دخوله دمشق واستيلائه عليها من الفاطميين بعام واحد ، وأكمل البناء زمن الأمير السلجوقي الذي كان أول من أقام فيها .

أبواب القلعة وأسوارها :

للقلعة أربعة أبواب :

باب الحديد : وهو أشهرها ، وكان أحد أبواب سور المدينة من الناحية الشمالية الغربية ، وله جسر فوق نهر بردى .

باب الخندق الشرقي : وهو الباب الرئيسي المفتوح على المدينة ، ويقع عند سوق العسرونية الذي هدم في عام (١٩٨٤ م) لكشف هذا الباب وما خفي من سور القلعة وأبراجها ، وكان له جسر متحرك من الخشب يمكن رفعه عند اللزوم .

وهناك باب سري لدخول السلاطين والولاة والأمراء وخروجهم ، وهو باب السر الغربي الذي يقع عند جادة السنجقدار .

أما سور القلعة السلجوقية فقد كان على شكل مستطيل يتوسط أضلاعه أبواب وفي زواياه الأربع أبراج مربعة كالبرج الباقي في الزاوية الشمالية الشرقية داخل القلعة الحالية ، وكانت هذه الأبراج أصغر حجماً من الأبراج الأيوبية ، ولم تكن صالحة للسكن على عكس الأيوبية بل بنيت دور للسكن داخل القلعة .

أهم المباني في القلعة السلجوقية :

١- دار رضوان : وتقع مقابل باب القلعة الشمالي ، بناها تش بن ألب أرسلان لابنه رضوان ، الذي عاش في دمشق ، وأصبح ملكاً على حلب بعد وفاة أبيه سنة (٤٨٨ هـ) ، وقد جددتها صلاح الدين الأيوبي .

٢- دار المسرة : أنشأها شمس الملوك إسماعيل عام (٥٢٧ هـ / ١١٣٢ م) ، ويذكر ابن شداد أن الذي بناها هو نور الدين زنكي ، وربما يقصد أنه جددتها ورممها .

٣- بيت نور الدين : وقد بناه من الخشب بجانب داره سنة حدوث الزلزال على دمشق ليأمن على نفسه في حال تجدد الزلزال وصار بيت فيه ، حتى توفي .

٤- مسجد نور الدين : وسمي جامع السلطان ، وكانت تقام فيه صلاة الجمعة ، وبنيت فيه منارة وبركة ماء ، وكان على بابه سبيل ماء ، كما كان هناك مساجد أخرى أصغر .

٥- حمام شمس الملوك : ويقع شمالي القلعة وبنى سنة (٥٢٨ هـ / ١١٣٣ م) .

٦- طاحونة القلعة : وتعرف قديماً بطاحونة الثقفين .

١ - القلعة السلجوقية :

ساد الاعتقاد بعض الوقت عند المؤرخين الغربيين ، أن للقلعة أصولاً رومانية أو بيزنطية ، ومرد هذا الاعتقاد وجود بعض القطع الحجرية الرومانية المنحوتة ضمن بناء القلعة ، وكذلك تشابه موقع القلعة بالنسبة للمدينة من موقع قلعة تدمر بالنسبة لمدينتها ، إلا أن هذا الرأي سرعان ما انحسر أمام الآراء الأكثر حداثة التي رَدَّت موقع القلعة ؛ لانعدام وجود مرتفع في مدينة دمشق تقام عليه ، وللاستفادة من أسوار المدينة في إكمال مخططها الدفاعي .

أما ما يتعلق بوجود أحجار رومانية فقد لاحظ الباحثون أن هذه الأحجار لم تستخدم في مواقعها الأصلية ، مما دعا بعضهم إلى العدول عن آرائهم السابقة ومنهم (سوفاجيه) الذي اعتبر أن (كل ما هنالك حجارة أعيد استخدامها) معرباً بوضوح ، عن شكه برواية (وايسنجر) حول حصن بناء الإمبراطور (ديوكليسيان) في القرن الثالث الميلادي .

أما الدكتور عبد القادر ربحاوي ، فيؤكد أن أول حصن عرفته دمشق كان القلعة السلجوقية ، ويرى أن نظرية الحصن الروماني ضعيفة ولا تدعمها الأدلة الكافية من الناحيتين التاريخية والمعمارية .

فكتب التاريخ وأخبار الفتوحات قبل قيام القلعة السلجوقية لا تورد أي ذكر لقلعة أو حصن في مدينة دمشق ، وهذه الملاحظة يمكن إبداءها أيضاً عند كل عملية فتح للمدينة جرت قبل بناء القلعة السلجوقية .

والنصوص التاريخية التي تناولت قصور الحكام ، وخطط المدينة تحدثت عن إحداث قلعة ولم تحدث عن تجديد قلعة ، كذلك أشارت إلى بعض المنشآت التي كانت تقوم في المكان الذي تقوم عليه القلعة الآن ، ويبدو مما توفر من كتابات تاريخية أن السلاجقة هم أول من قام ببناء القلعة حيث باشر الملك (اتسز بن أوق) الخوارزمي عملية البناء في عام (١٠٧٦ م) ثم أكمل البناء الملك (تنش) الذي انتزع منه الملك بعد عامين من مباشرته البناء .

وتختلف الآراء حول مخطط القلعة السلجوقية ، إذ ترى بعضها أن المخطط كان مربع الشكل إلا أن الرأي الأكثر إقناعاً يرى أن مخطط القلعة كان مستطيلاً لا مربعاً ، وأبعاده (١٢٠×٢٢٠) متراً . وقد استمرت القلعة بشكل مخططها الأول حتى عام (١٢٠٢ م) حيث قام الملك العادل بهدمها وبناء قلعة جديدة مكانها .

عاصرت القلعة السلجوقية فترة زمنية امتدت نحو مئة وثلاثين عاماً شملت عهد الأتابكة جميعاً ، وعهد نور الدين وصلاح الدين ، وجزءاً من حكم أخيه الملك العادل .

وقد كان انتقال الحكم من الأتابكة (السلجوقيين) إلى الأيوبيين واحداً من النتائج المباشرة للنضال ضد الغزو الصليبي في مرحلة هامة من مراحل الحروب الصليبية .

ومع أن دمشق لم تشهد طيلة الحروب الصليبية سوى محاولة حصار واحدة في (تموز ١١٨٤ م) لم تستمر أكثر من بضعة أيام ، فإن الملك العادل الذي كان يستعد للحرب مع جيوش الصليبيين ، رأى أن القلعة القديمة لم تعد تلبي الحاجات المطلوبة منها ، ولم تعد تتفق مع التطور الذي حدث في فن العمارة والتحصين العسكري ، هذا إضافة إلى ما أصابها من تدهم خلال زلزال عامي (٥٩٧ هـ) و (٥٩٨ هـ) .

٢ - القلعة الأيوبية :

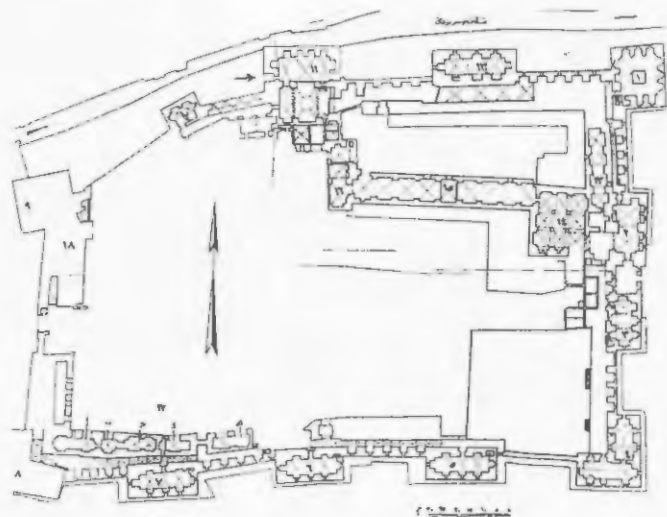
وفقاً لما تورده النصوص التاريخية التي وصلتنا فإن العادل قد بدأ بهدم القلعة القديمة وإشادة قلعة أخرى مكانها عام (١٢٠٢ م) ، ويرى (كينك) أن (التحصينات في القلعة الجديدة قد أقيمت متقدمة قليلاً عن الخط الدفاعي في القلعة ، ذلك أن السلطان العادل كان يحرص على إحاطة القلعة القديمة بخط دفاعي جديد يحل محل القلعة القديمة قبل أن تهدم ، وبذلك يتجنب حالة البقاء بأبراج نصف مبنية فيما لو أقدم على هدم القلعة ، وإن فكرة إحاطة التحصينات السابقة بتحصينات جديدة عرفت أيضاً في مشاريع العادل الأخرى ، في القاهرة مثلاً حيث جرى توسيع خمسة أبراج مستديرة من عهد صلاح الدين وكذلك في عجلون والصبية .

وقد استمرت عملية بناء القلعة خمسة عشر عاماً ، وشارك فيها الأمراء الأيوبيون

الذين اختص كل منهم بجانب من سور القلعة أو برج من أبراجها وكذلك سكان دمشق .
ويقول ابن شداد : ولما ملك العادل دمشق ، هدم قلعتها ، ووزع بناءها على
أمرائه ، وجعلها اثني عشر برجاً ، كل برج منها في قدر القلعة وحفر لها خندقاً ،
وأجرى إليه الماء .

ومع أن نص ابن شداد السابق يشير بوضوح إلى عدد أبراج القلعة فإن هذا
الموضوع ظل مجال آراء مختلفة ، وخاصة أن النص لم يحدد مواقع هذه الأبراج
بالنسبة لسور القلعة ، وهو ما سنعود إليه عند الحديث عن أعمال الترميم .

إلا أن المتفق عليه بكل الأحوال أن قلعة العادل أو القلعة الأيوبية كانت تمثل تطوراً
هاماً بالنسبة للقلعة السلجوقية سواء من حيث القوة أو ضخامة الأبراج ومناعتها أو
المساحة ، وحافظت على الشكل المستطيل الذي تراوحت أبعاده بين (٢٢٥) إلى
(٢٦٠) متراً طولاً و (١٢٠) إلى (١٦٥) متراً عرضاً أي إن مساحتها التقريبية بلغت
نحو (٣٣١٧٦ م^٢) ، وقد بقيت في مكانها بعض المنشآت التي كانت قائمة سابقاً
داخل القلعة ، كما أضيف إليها قصر يعتقد أنه كان من الجهة الغربية ، من الجدار
الجنوبي لها ، وكان مؤلفاً من طابقين وعدد من القاعات الصغيرة .



صورة لمخطط القلعة

مخطط القلعة :

كان يحيط بالقلعة خندق عميق يملأ بالماء أثناء الحصار من فرع بردى المجاور وكان هناك ما يماثل هذا الخندق في القلعة السلجوقية ، ولا نعلم على وجه التحديد ، متى رُدم هذا الخندق ، إلا أن صورة ملتقطة أواخر القرن الماضي تشير إلى وجوده .

ولكل زاوية من زوايا القلعة برج ، وهناك برجان في الواجهة الشرقية يضم أحدهما المدخل الشرقي للقلعة ، وثلاثة أبراج من كل من الواجهتين الشمالية والجنوبية ، ويصطلح على تسمية الأبراج نسبة لمواقعها .

وكذلك ترقيمها بدءاً من برج الزاوية الشمالية الشرقية باتجاه الجنوب ، ويصل بين الأبراج جدران سميكة يطلق عليها اسم البدنات مفرداً (بدنة) ، وتأخذ كل بدنة رقمي البرجين المجاورين لها ، وتتألف من طابقين وتنتهي في أعلاها بستائر مزودة بشرفات ذات مرامٍ صغيرة .

وخلف الأبراج والبدنات هناك ممر مسقوف يطوف بجهات القلعة الأربع ويؤمن الاتصال فيما بينها ، ويعرف باسم الممر الدفاعي .

وإضافة إلى باب القلعة الذي يفتح على المدينة (الشرقي) هناك باب في الجهة الشمالية إلا أنه تهدم مع البرج الذي يحويه ، وأدخلت عليه ترميمات ، وزالت آثار الباب الأيوبي ، أما البابان الغربي والجنوبي فقد ضاعت معالمهما .

وقد بنيت بالحجارة الكلسية المتوفرة مقالعها في ضواحي دمشق واستخدمت معها حجارة سوداء من البازلت بشكل محدود جداً ، وكانت حجارة الإنشاءات الأصلية التي تمت في العهد الأيوبي ذات وجه بارز مقطوع قطعاً غير منتظم يحيط به إطار صقيل ، ويتراوح البروز ما بين (١٥-٢٠ سم) ونجد نسبة ضئيلة من حجارة البناء التي نحتت وجوهاً بشكل منتظم ، وقد استخدم هذا النوع من الحجارة بشكل خاص في الرواشن التي تتوج أبراج القلعة جميعاً .

والرواشن : هي شرفات حجرية مغلقة تبرز عن جدار القلعة وأبراجها ، وتحوي في أسفلها فتحات يصب فيها الزيت المغلي على رؤوس المهاجمين إضافة إلى مرام ذات شق ضيق ترمى من خلالها النبال دون أن يتمكن العدو المحاصر من إصابة الرامي .

وفي العهود التي تلت العهد الأيوبي تغيرت طريقة النحت ، وبذلك تميزت الأقسام المُجدَّدة والمرقَّمة عن الأقسام الأصلية فلم تستعمل الحجارة البارزة النحت من كلا النوعين اللذين مر ذكرهما ، وقد أعيد استعمال أحجار القلعة المتساقطة ، ونحتت الحجارة الجديدة بشكل مختلف فهي مستوية الوجوه ليس لها إطار منحوت ، وبينما ظلت مقاييس الحجارة كبيرة وشبيهة بمقاييس الحجارة الأيوبية ، صُغِّر حجم الحجارة في أعمال التجديد التي جرت في أواخر العهد المملوكي ، وفي العهد العثماني قلَّت العناية بنحتها ، واستخدم العثمانيون أحياناً حجارة غشيمة (غير منحوتة) في أعمال الترميم .

وكان يحيط بالقلعة خندق يملأ بالماء حين الحصار ، وقد جرت العادة أن يعمد المحاصرون إلى قطع المياه عن القلعة وخندقتها فتعمل حامية القلعة على سد منافذ الخندق حينئذ ، لئلا تتسرب منه المياه ، أما في داخل القلعة فكان الاعتماد على مياه نهر بانياس النظيفة التي تدخل القلعة من جهتها الغربية في قناة تحت الأرض فتوزع في حماماتها ودورها ومساجدها وبركها عبر شبكة شديدة التنظيم ، كما جاء في رواية القلقشندي : (يدخل نهر بانياس إلى القلعة ثم ينقسم إلى قسمين قسم للجامع وقسم للقلعة) .

فإذا قطع المحاصرون مياه بانياس لجأ أهل القلعة إلى الاستعانة بالآبار التي أكدت المصادر التاريخية وجودها داخل القلعة كما ذكر (أبو البقاء) وبالقلعة آبار ومجار للماء ومصارف ، بحيث إذا وقع الحصار عليهم وقطع عنهم الماء تقوم الآبار مقامه .

دورها السياسي والاجتماعي والعسكري :

لعبت القلعة السلجوقية والأيوبية أدواراً سياسية وعسكرية متفاوتة في العهود التي عاصرتها ، فالقلعة السلجوقية كانت مقرّاً للسلطانين نور الدين ، صلاح الدين ، وظلت أيضاً مقرّاً للملك العادل بعض الوقت ، وهو ما جعلها تستقطب كل نشاط سياسي وعسكري واجتماعي في حقبة شهدت أشد المعارك في الحروب الصليبية .

ولكن القلعة السلجوقية لم تلعب دوراً حروبياً هاماً ، فهي لم تشهد حصاراً بالمعنى الصحيح ، ولم تطوق من قبل العدو ، ولم تقصف بالمنجنيقات بل شهدت حصارات سريعة منها حصار نور الدين وحصار صلاح الدين إلى أن سلمه إياها نائبها الطواشي ربحان ، وحصارها أيام الملك العادل من قبل أولاد أخيه وقد خرج إليهم ولم يعتصم بداخلها .

واستمرت القلعة الأيوبية بالقيام بالدور السياسي الذي أدته القلعة السلجوقية ، فغدت مقر السلاطين من بني أيوب وملوكهم ، وتجري فيها استعراضات للجيش ، أما دورها الحربي في تلك الفترة فقد كان محصوراً في الصراعات بين الأمراء الأيوبيين .

وخلال العهد المملوكي وجهت عناية كبيرة للقلعة ، ورُمّم وأُصلح ما لحق بها من ضرر نتيجة غزو التتار ، واستمرت أعمال البناء والترميم وإشادة المباني العامة فيها طيلة هذا العهد .

ومع أن دمشق لم تعدّ العاصمة في العهد المملوكي إلا أنها حافظت على مكانتها المميزة عاصمةً ثانية للسلطنة ، وكان طبيعياً أن يكون لقلعتها شأن خاص ، وفي الواقع فإن قلعة دمشق وصلت أوج مجدها في هذه الفترة فهي قلعة السلطان ، ورمز سلطته في حضوره وغيباه ، وكان للسلطان نائب خاص بالقلعة مستقل عن نائب السلطة في دمشق ، وكان هذا الأخير يقيم في دار السعادة خارج القلعة ، وتقف سلطنته عند أسوارها .

وكانت القلعة مستقلة في الأحوال العادية ولها كيائها الخاص ، وكان نواب

دمشق في الأحوال الطبيعية يحترمون هذا الاستقلال ، ولا يفهم من عبارة الاستقلال أن القلعة كانت تعيش في عزلة عن أحداث المدينة . بل نراها تساهم في حياتها وللقائمين عليها صلات مع نواب السلطنة وديةً أحياناً وعدوانية أحياناً أخرى ، وكان نائب القلعة يتولى نيابة دمشق عند عزل النائب أو عصيانه ، ولم يكن لنائبها مثل هذا الدور الكبير في العهدين السلجوقي والأيوبي ؛ لأن السلطان نفسه كان يقيم في القلعة .

وروى ابن كثير عن أيام الأشرف موسى بن العادل أن القلعة كانت لا تغلق في ليالي رمضان كلها ، وصحون الحلاوات خارجة منها إلى الجامع والخوانق والربط والصالحية وإلى الصالحين والفقراء والرؤساء .



صورة لقلعة دمشق

أما الدور الحربي للقلعة والذي قامت به في العهد المملوكي فكان في تصديها للغزو الخارجي مرتين نجحت في الأولى وأخفقت في الثانية .
فقد حوصرت القلعة ثانية من قبل التتار عام (١٢٩٩ م) عقب انكسار المماليك

بقيادة السلطان الناصر مع الطاغية (قازان) قرب سلمية ، وهروب المماليك إلى مصر ، والتحاق نائب دمشق (سيف الدين قجق) بالتتار ، ورفض نائب القلعة أراجوش الاستسلام وقبول الأمان الذي حصل عليه علماء دمشق من جيش (قازان) وعمد إلى تحصين القلعة ، ثم مهاجمة المنجنوقات التي أقامها التتار في صحن الجامع الأموي وتدميرها ، وأسر بعض جنودهم ، ثم نادى بقدوم (العساكر المصرية) وهو ما أدى إلى انسحاب التتار ، وعندها وضع نائب القلعة يده على المدينة ، وأغلق أبوابها ، ونظم المقاومة فيها .

أما المرة الثانية فكانت أثناء غزوة تيمورلنك ، وقد صمدت القلعة في وجه الحصار تسعة وعشرين يوماً حتى يئست حاميتها ، وقيل : إنهم دون الأربعين رجلاً ، من وصول النجدة إليها فاستسلمت .

ولما احتل العثمانيون دمشق عام (١٥٦١ م) لم يكن للقلعة دور يذكر ، فقد استسلمت المدينة إثر معركة مرج دابق ، وكذلك فعلت القلعة ، وقد فقدت القلعة دورها السياسي في العهد العثماني ، فلم تعد مقرأً للسلطان ، وتحولت إلى ثكنة للجند ، وتحول وضع نائبها من نائب للسلطان مستقل عن الوالي كل الاستقلال في العهد المملوكي إلى موظف صغير يخرج في موكب الباشا يستقبل الوالي الجديد أو يودّع الوالي القديم .

أما دورها الحربي فقد اقتصر في تلك الفترة على المساهمة في الصراعات الداخلية الناجمة عن الصراع بين السلطنة والوالي دمشق ، أو بين هذا الأخير والثائرين على الدولة ، وأهم مواجهة تعرضت لها القلعة كانت أثناء حملة (أبو الذهب) عام (١٧٧١ م) والذي أطلق المدافع عليها إلا أنه انسحب دون أن يتمكن من أخذها .

ولم تلعب القلعة أي دور عند احتلال إبراهيم باشا لدمشق فقد قام آغا القلعة بتسليمه مفاتيحها دون مقاومة .

وفي سنة (١٨٣١ م) قامت ثورة في دمشق على الوالي سليمان باشا وأحرق الثائرون مقر الوالي ، فالتجأ إلى القلعة حيث حاصره أهالي المدينة أربعين يوماً إلى

أن استسلم لهم بعد أن قاموا بتدمير برج الزاوية الجنوبية الغربية باستخدام المتفجرات وعقب الاحتلال الفرنسي تحولت القلعة إلى سجن وظلت كذلك إلى أن تم إخلاؤها مع مطلع عام (١٩٨٥ م) .

بعث القلعة :

لقد تعرضت قلعة دمشق خلال تاريخها الطويل ، كما أشرنا فيما سبق ، إلى عدة أحداث طبيعية وبشرية أدت إلى تغيير كثير من معالمها ، وساهمت عمليات الترميم العديدة في هذا التغيير ، وخاصة تلك التي كانت تنفذ بغير إتقان ، إلا أنه في الفترة التي تحولت فيها القلعة إلى سجن ، وقبلها الفترة التي استخدمها العثمانيون ثكنة أصاب القلعة كثير من الضرر بسبب متطلبات استخدامها تلك ، فأحدثت فيها عدة مبانٍ أدت إلى تشويه منظرها العام ، وبشكل خاص الأبنية البيتونية .

كما أن قسماً كبيراً من المرامي حُطِّمت وتحولت إلى نوافذ ، والبرج رقم (٨) أو برج الزاوية الجنوبية الغربية وهو أقدم المنشآت الأيوبية في القلعة كما يشير إلى ذلك النص التاريخي التالي الذي يحدد فيه أبو شامة تاريخ بدء بناء القلعة .

ثم دخلت سنة تسع وستين وخمسمئة هجرية (١٢٠٢ م) وفيها شرع بعمارة سور قلعة دمشق وابتدئ ببرج الزاوية الغربي القبلي المجاور لباب النصر ، ولقد رأينا فيما سبق كيف أن هذا البرج قد نسف أثناء ثورة دمشق على الوالي سليمان باشا عام (١٨٣١ م) وقد أعيد بناؤه فيما بعد كما أن البرج نفسه كان قد سقط عام (١٤٦٠ م) عقب الرمي على نائب السلطنة بدمشق كما يذكر ابن طولون ، ثم عُمِّرَ جديداً .

وروى ابن كثير وابن تغري بردي أيضاً تجديده أيام الظاهر بيبرس ، وفي صورة منشورة في كتاب (ابونهايم) الصادر سنة (١٨٩٩ م) يبدو البرج موجوداً حينئذ ، إلا أنه حين استلام القلعة كان أكثره قد تهدم ولم يبق منه سوى الأجزاء السفلى من جداريّته الجنوبي والغربي إلى مستوى الطابق الأرضي ، وحتى هذان كانا ضائعين في المباني الحديثة لسوق الحميدية وسوق الخجا الذي تمت إزالته قبل زمن قليل للكشف عن جدران القلعة .

ولم يكن تمَّ حتى الآن تحديد تاريخ انهيار هذا البرج ، أو الأسباب التي أدت إلى ذلك ، علماً أن أقدم خريطة متوفرة للقلعة تعود إلى عام (١٩١٧ م) تشير إلى أن البرج كان متهدماً ، وإن كان من المعتقد أن ذلك كان نتيجة التصدعات المتتالية التي أصابته سواء بفعل العوامل الطبيعية أو الحرية وعدم ترميمه بشكل سليم ، وربما لضعف التربة تحته ، كل هذا يتطلب عمل أسبار يدوية لمعرفة قدرة تحمل الأساسات ، وبالتالي إلى القيام بدراسة وتدعيم لأساسات البرج ، كما يتطلب الأمر أيضاً إزالة مخالفات المحلات الشاغلة لجداريه الجنوبي والشرقي والكشف عن معالمه .

وبالطبع فإن عمليات الترميم ترافقها عمليات سبر لتحديد مخطط القلعة بشكل دقيق ، وتأكيد الآراء المختلفة حوله أو نفيها ، ولأجل ضرورات العمل الأثري عموماً .

تجديد الواجهة الغربية :

أعطيت الواجهة الغربية للقلعة اهتماماً خاصاً لكونها الواجهة الأساسية المكشوفة حالياً ، ولأنها أكثر الواجهات تهدماً ، وتقرر إعادة تشييد البرج رقم (٨) كاملاً ، ليكون نموذجاً دقيقاً عن أبراج القلعة بشكل عام ، والبرج رقم (٩) أي برج الزاوية الشمالية الغربية هو برج ذو قاعدة مربعة طول ضلعه (٢٠) متراً ، وتبدو عليه آثار الترميم في أكثر أقسامه ، وقد تعرض للقصف في حملة (أبو الذهب) كما أصابته بعض الأضرار خلال زلزال عام (١٧٥٩ م) الذي تسبب أيضاً في تخريب قاعة في أعلاه تسمى (الطارقة) وتدعى بديوان الظاهر ، ذكر أنه كان يستعرض منها جيوشه في المرج المقابل للقلعة .

البرج الغربي الأوسط :

اختلف المؤرخون والعلماء عند تناولهم تاريخ القلعة ومخططها حول أعداد أبراجها ففي رأي (سوفاجيه) و (كينك) أن عدد أبراج القلعة ثلاثة عشر برجاً ، وهي مقولة أيدها (واتسنجر) و (لتسنجر) وأضاف أيضاً موقع هذا البرج على الخريطة الملحقة ببحثهما ، وأوردوا رواية الرحالة الفرنسي (رينو) الذي زار دمشق

عام (١٦٦٠م) وتحدثت عن أربعة عشر برجاً للقلعة خمسة في كل من الضلعين الكبيرين واثنين في كل من الضلعين الصغيرين .

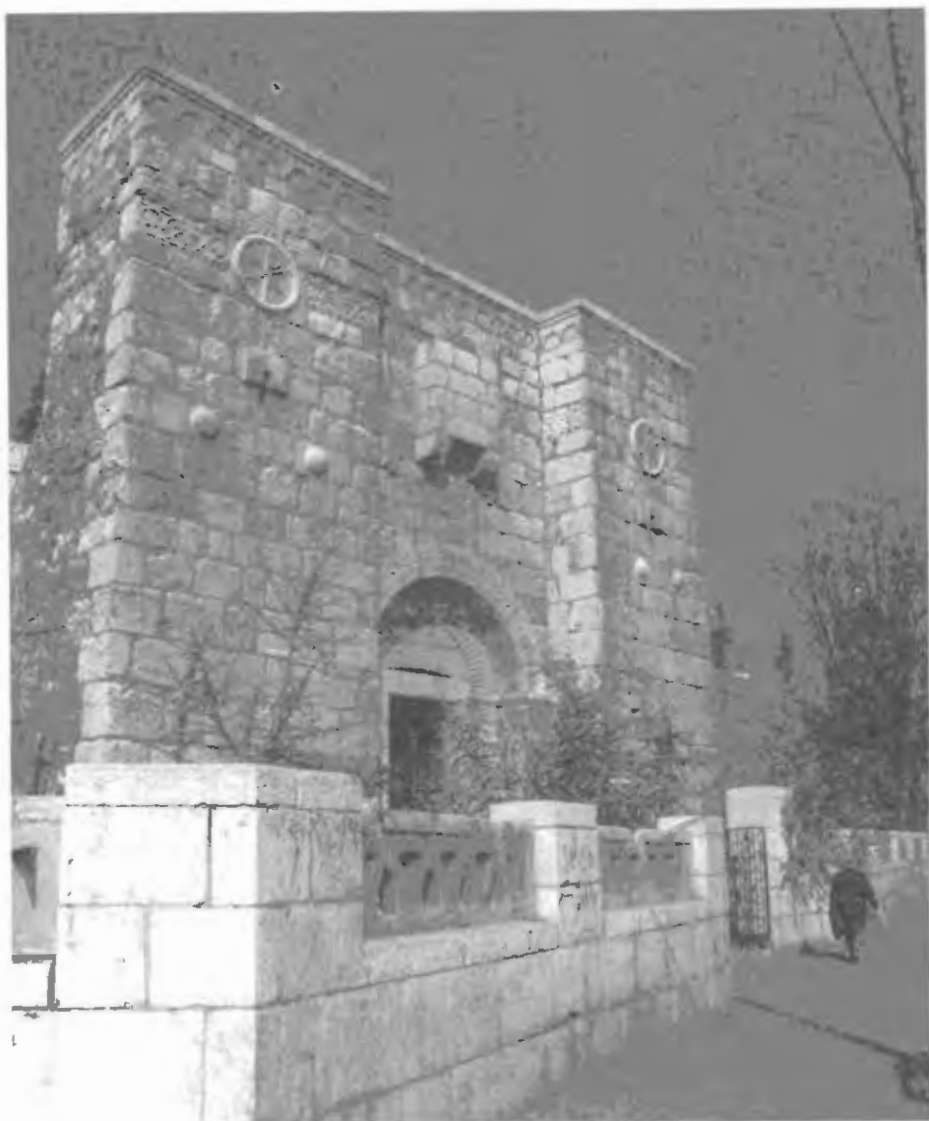
وفي كتابه وصف دمشق يذكر الرحالة الفرنسي الفارس دارفيو الذي زار دمشق في القرن السابع عشر أن القلعة أربعة عشر برجاً مربعاً ، خمسة على الجانبين الطويلين لها ، واثنان على كل من الجانبين القصيرين .

مستقبل القلعة :

وبعد أن تحدثنا عن ماضي القلعة وحاضرها بقي أن نسأل ماذا خطط لمستقبلها ؟ والجواب : إن القلعة ستضم عدداً من الفعاليات الثقافية والسياحية ، منها المتحف الحربي الذي سينقل إليها من موقعه الحالي في التكية السليمانية ؛ نظراً للدور العسكري الهام للقلعة ؛ ولأنها تشكل المكان الطبيعي لمثل هذا المتحف .

كما ستقام فيها عروض للصوت والضوء تحدث عن تاريخها ، وستضم بين جدرانها بعض المعارض والمطاعم والمنشآت السياحية الصغيرة ، كل هذا بهدف استثمار القلعة لصالح النشاط الثقافي والسياحي بعد الانتهاء من عمليات الترميم الجارية الآن .





باب کیسان

أبواب دمشق

كان اليونان والكلدانيون الذين كانوا يعمرّون دمشق يعبدون الكواكب السبعة المتميزة ، فكانت أبواب دمشق سبعة ، وهي القمر الذي في سماء الدنيا وعطارد في السماء الثانية والزهرة في الثالثة والشمس في الرابعة والمريخ في الخامسة والمشتري في السادسة وزحل في السابعة ، وكانوا قد صوروا على كل باب من أبواب دمشق هيكلاً للكوكب من هذه الكواكب السبعة وكانت أبواب دمشق سبعة وضعوها قصداً لذلك ، وكان لهم عند كل باب عيد في السنة وهؤلاء هم الذين وضعوا الأرصاد وتكلموا على حركات الكواكب واتصالاتها ومقارنتها وبنو دمشق واختاروا لها هذه البقعة .

وليس غريباً أن يعد المؤرخون دمشق أقدم مدينة مأهولة في العالم ؛ إذ إن كل شبر فيها يدل على قدم تاريخ بنائها بعد أن كشفت الحفريات في منطقة باب شرقي على أن أرض المدينة القديمة والتي كان الرومان قد خططوها على شكل مربع في العام (٣٣٣) قبل الميلاد تنخفض عن المستوى الحالي لأرضها بأكثر من عشرة أمتار ، وعلى الرغم من مرور آلاف السنين على تأسيس دمشق ؛ إلا أن الحياة لم تغب عن أرضها وظلت للناس مكان السكن المفضل عندهم .

وكلما غزاها قوم أو ضربها زلزال أعاد السكان بناء مدينتهم التي تحولت مع كل ما تزخر به حالياً من بيوت وقصور ومدارس وجوامع وكنائس إلى متحف ضخم يزوره مئات الآلاف من السياح سنوياً وقال الفاضل حسن بن المزلق المعروف بالتقي البدري في كتابه (نزهة الأنام في محاسن الشام) : كانت صور الكواكب على هذه الأبواب ؛ فزحل على باب كيسان ، والشمس على الباب الشرقي ، والزهرة على

باب توما ، والقمر على باب الجنيق ، وعطارد على باب الفراديس ، وعلى باب الجابية المشتري ، وعلى باب الصغير المريخ (هذا كلامه) .

فكانوا يصورون كل كوكب بصورة شيء يحيل ذلك الكوكب بدلالته عليه :

زحل : في صورة شيخ في يمينه رأس رجل ، وفي يساره يده ، وهو راكب على ذئب يحرك له بعصاه . وتارة يصورونه راكباً على فرس ، وفي رأسه مغفر ، وفي يساره ترس ، وفي يمينه سيف .

المشتري : في صورته كهل ، في يمينه سيف مُصَلَّتٌ ، وفي يساره قوس ، وهو راكب على فرس ، وفي عنقه سبحة . ويصورونه أيضاً بصورة رجل جالس على كرسي ، عليه أثواب ملونة ، وفي يساره خيزرانة .

المريخ : بصورة شاب راكب على أسدين ، وفي يمينه سيف مُصَلَّتٌ ، وفي يساره طبرزين . ويصورونه أيضاً بصورة شاب أشقر ، راكب على فرس أشقر ، في رأسه مغفر ، وفي يساره رمح فيه علامة ، وفي يمينه رأس رجل ولباسه أحمر .

الشمس : بصورة رجل ، في يمينه عصا مُتَكَيِّء عليها ، وهو راكب على وردتون يحمل على أربعة ثيران ، وفي يساره خرز ، ويصورونها أيضاً بصورة رجل جالس ، وجهه كالطوق ، ومعه تمثال أربعة أفراس .

الزهرة : بصورة امرأة ، عندها عود تضرب به ، أو بصورة امرأة جالسة مرسلّة شعرها ، وذوائبها في يدها اليسرى ، وفي يمينها مرآة تنظر فيها ، ولباسها أصفر وأخضر ، وعليها الطوق والسوار والخلخال .

عطارد : بصورة شاب راكب على طاووس ، وفي يمينه حية ، وفي يساره لوح يقرأ فيه ، ويصورونه أيضاً بصورة رجل جالس على كرسي ، وفي يده كتاب وعلى رأسه تاج أو شيء من الملبوس ، وعليه ثياب ملونة .

القمر : بصورة رجل في يمينه حربه ، وعقد عقد في يساره ثلاثين كأنه يحسب ثلاثمئة ، وفي رأسه تاج ، وهو راكب على ودتون يحمل على أربعة أفراس .

هذا ما كان عليه أصحاب فن أحكام النجوم ، ويمكن أن تكون الصور التي كانت على الأبواب من هذا القبيل ، وضعوها لغاية لهم اقتضتها صناعة فن النجوم ، والله أعلم .

هذه المنطقة التي تعرف بحوضه دمشق عرفت الاستيطان البشري منذ عصور ما قبل التاريخ (العصر الحجري الحديث ، النيوليتيك) ، وها نحن أمام مجموعة من التلال الأثرية التي تعود لتلك الفترة وهي : تل الرماد ، وتل أسود ، وتل الخزامى ، وتل الغريقة ، وتل الصالحية ، وجميعها متناثرة حول مدينة دمشق ، وهي تدل دلالة واضحة على أن الإنسان العاقل اختار سكنى هذه البقعة منذ عصور سحيقة ، على أن أقدم الوثائق المكتوبة عن دمشق ترجع إلى النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد .

نشأت دمشق مدينة بسيطة تعتمد النظام القبلي ، ثم غدت عاصمة لمملكة آرامية تعد إحدى أقوى الممالك الآرامية في المنطقة ، لكن لم تجر حفريات عن هذه العاصمة ، لذا فنحن لا نعرف عنها وعن تحصيناتها شيئاً ، ويُرجَّح الأثريون أن موقعها في جنوب المدينة (تل السماكة) ، وتذكر الروايات بأن فيها معبداً شهيراً هو معبد الإله حَدَدْ ، وقصراً ملكياً حصيناً .

تتالت العصور على دمشق ، ابتداءً من الآشوري ، ثم البابلي ، والفارسي ، ولكننا لا نلمس مظاهر عمرانية واضحة ومنسقة ، قبل العصر اليوناني الهلنستي ، حيث بدأ نظام تخطيط وتنظيم هندسي ، ظهرت من خلاله أحياء جديدة تقوم هندستها على أساس تقسيم السطح إلى مربعات ، وتقوم إلى جانب الأحياء الآرامية القديمة . ثم خَلَفَ الرومان اليونانَ ، وظهرت دمشق كإحدى المدن الداخلية الهامة التي تحتوي على ساحة عامة (أغوارا) ، وملعباً ومسرحاً ومعبداً وثنياً للإله جوبيتر ، اعتبر من أشهر أوابد العالم القديم من حيث ضخامته وعظمة بنائه ، فهو مزود بأبواب وأسوار حصينة ، أطلق العرب عليها اسم حصن دمشق ، واعتبروا أسوار المعبد الخارجية أسوار المدينة اليونانية القديمة ، وسمي بابه الغربي باب

البريد ، ومكانه أول سوق الحميدية من جهة باب البريد غرب الجامع الأموي .
ويذكر بأن هذا الباب بقي إلى زمن الملك العادل أبي بكر ، فلما جدد القلعة وأقام
أبراجها الكبيرة المستطيلة أخذ من حجارة هذا الباب وأعمدته .

أما الباب المقابل لباب البريد فيدعى (باب جيرون) : وهو الباب الشرقي
للمعبد ويدعى الآن باب النوفرة ، وسمي بعد القرن الخامس الهجري بباب
اللبادين ، ويقع شرقي الباب الشرقي للجامع الأموي ، وينزل منه إلى الفوارة
(النوفرة) بدرج .

هذا بالنسبة للمعبد الروماني ، أما شوارع المدينة فقد كانت متعامدة ومنظمة ،
ويحيط بها سور مبني بحجارة ضخمة ، ولهذا السور أبواب وأبراج ، وشكله شبه
مستطيل ؛ لأن أضلاعه ليست مستقيمة تماماً ، وهذا مألوف ؛ لأن السور عادة يتبع
تضاريس الأرض وما توفره من معطيات دفاعية طبيعية ، لذا فإننا نجد سور دمشق في
الجانب الشمالي استمر محاذياً لفرع العقرباني ، وهو يحصر مساحة تساوي (١٠٥)
هكتارات ، ويبلغ طول ضلعه تقريباً (١٥٠٠ متر) وعرضه (٧٥٠ متراً) ، ومزود
بسبعة أبواب ، وهكذا اتصلت المدينة بالعالم الخارجي بشبكة من الطرق المرصوفة
تخرج من هذه الأبواب إلى مختلف الاتجاهات ، وتتوزع على الشكل التالي :

ثلاثة منها في الجهة الشمالية وهي على التوالي : (باب توما ، باب الجنيق ،
باب الفراديس) ، واثنان في الجهة الجنوبية هما : (باب كيسان ، وباب
الصغير) ، وواحد في الشرق هو (الباب الشرقي) ، والسابع في الغرب ، ويدعى
(باب الجابية) .

الباب الشرقي :

استمد اسمه من موقعه شرق المدينة ، ويقابله من الجهة الغربية باب الجابية ،
وهذان البابان يحصران بينهما الشارع المستقيم الرئيس الذي يحوي أقواس نصر ،
ومنها ما ظهر في (محلة الخراب) . ويطلق على جزء من هذا السوق في الجهة
الغربية اسم (سوق مدحت باشا) .

ويتألف الباب الشرقي من ثلاث فتحات بشكل أقواس ، أكبرها أوسطها ، وخلفه الشارع ، أما الفتحتان الجانبيتان مخصصتان للمشاة وهما منخفضتان ، فخلفهما الرواقان اللذان يقعان على جانبي الشارع ، تحملهما الأعمدة الكورنثية الجميلة ، وعليه نزل خالد بن الوليد في سنة (١٤هـ - ٦٣٥ م) ، ومنه دخل إلى دمشق عنوة ، كما دخل منه عبد الله بن علي القائد العباسي حين فتح دمشق عام (١٣٢هـ - ٧٤٩ م) . وفي عهود الانحطاط ، سُدَّ الباب الأوسط والباب الغربي ، وبقي الباب الشرقي الصغير مفتوحاً إلى وقتنا الحاضر ، حيث قامت المديرية العامة للآثار والمتاحف بإعادته لوضعه الأصلي .



صورة باب شرقي

باب الجابية :

يقع غربي المدينة ، ويقع عنده قبر سيدة تدعى جابية يقول أهل المنطقة إنها زوجة الملك سيف بن ذي يزن ، في حين تقول رواية أخرى : إن المنطقة كانت مجمعة لجباة الحبوب ويقابل الباب الشرقي ويمثله في تصميمه وهندسته ، فهو عبارة عن ثلاثة أقواس أيضاً ، أوسطها أكبرها ، وتنسب تسميته إلى قرية الجابية ؛

ذلك لأن الخارج إلى هذه القرية كان يخرج منه . وقد نزل عليه أبو عبيدة بن الجراح ، ودخل منه إلى دمشق صلحاً . وخلال تتابع العصور سُدَّ معظمه ، وبقي فيه فتحة واحدة ، وهي التي تقابل الآن سوق الدراع . وتقول اللوحة المعلقة على هذا الباب ، إنه أنشئ في عهد السلطان نور الدين زنكي سنة (٥٦٠هـ / ١٦١٤م) وكان هذا الباب ثلاثة أبواب الأوسط منها كبير ، ومن جانبيه بابان صغيران ، على مثال ما كان الباب الشرقي . وكان من الثلاثة أبواب ثلاثة أسواق معقدة من باب الجابية إلى الباب الشرقي ، كان الأوسط من الأسواق للناس . وأحد السوقين لمن يشرق بدابته ، والآخر لمن يغرب بدابته ، حتى أنه كان لا يلتقي فيها راكبان . فَسُدَّ الباب الكبيرُ والشمالِيُّ منهما ، وبقي القِبْلِيُّ إلى الآن .

باب كيسان :

يقع في الجهة الجنوبية من المدينة عند ساحة البيطرة . في العصر البيزنطي ، أقيمت عليه كنيسة تسمى كنيسة القديس بولس ، وأصبح هذا الباب مدخلاً للكنيسة منذ عام (١٩٣٩م) ، وتذكر المصادر بأنها بنيت في نفس المكان الذي تم فيه إنزال القديس بولس بسلة من فوق السور ، وتمكن من النجاة والوصول إلى أوربة لنشر الديانة المسيحية . وسبب تسميته باب كيسان هو نزول كيسان مولى معاوية عند هذا الباب أثناء الفتح الإسلامي .

باب الجنيق (باب السلامة) (باب السلام) :

وهو يلي باب توما إلى الغرب ، وينسب إلى الجنيق وهو اسم رومي ، ويعتبر واحداً من الأبواب الشمالية للسور . وبعد التحري عن موقعه ، وجد بأن السور بعد باب توما استمر محاذياً تماماً للعقرباني ، ولا أثر لباب وقوس على السور أو جسر على النهر يؤدي إلى الباب ؛ لذا فإنني أرى أن موقع هذا الباب هو نفس موقع باب السلام أو باب السلامة أو قريباً جداً منه ، وقد أغلق فترة طويلة تعرّض خلالها للهدم حتى عهد نور الدين محمود ، حيث أقامه وفتحه وبنى فوقه مثذنة على غرار المآذن التي أقامها فوق الأبواب الأخرى .

وفي العصر الأيوبي ، تم تجديده في عهد الملك الصالح أيوب عام (٦٤١هـ - ١٢٤٣م) ، وتذكر المصادر بأن تسميته باب السلامة جاءت من صعوبة دخول المحاربين منه ، وذلك لكثرة الأشجار والأنهار من جهة ، وكان يدخل منه للسلام على الخلفاء الأمويين ، ويسمى أيضاً باب الشريف أو باب الشرف الأعلى .

باب الفراديس (باب العمارة) :

من الأبواب الشمالية للسور ، ويقال بأن تسميته بالفراديس كانت في العصر الروماني لكثرة البساتين والمياه التي تحيط به ، أما اسمه باب العمارة فيعود إلى القرن الثامن الهجري ؛ لأن الناس كانوا إذا أرادوا التحدث عن هذه المنطقة قالوا : (عند عمارة الأخنائي) ، فغلب هذا الاسم على الباب والمنطقة التي تليه ، وقد جُدد في عهد نور الدين محمود ، وفي عهد الملك الصالح إسماعيل . ولا يميز هذا الباب سوى بوابة حديدية يمكن إغلاقها عند الحاجة وسبب تعدد أسماء هذا الباب الذي يعرف أيضاً باسم (باب الإسلام) هو وجود أربعة أبواب أخرى شيدت في المكان نفسه .

باب الصغير :

يقع أيضاً في الجهة الجنوبية من المدينة ، في محلة الشاغور الآن ، وسمي كذلك ؛ لأنه أصغر الأبواب السبعة ، وكان يسمى أيضاً الباب القبلي . نزل عليه يزيد بن أبي سفيان عند فتح دمشق ، ورُمّم في عهد نور الدين محمود وأقام عليه مئذنة . وخلفه سوق صغيرة ومسجد رُمّم في العصر الأيوبي ، كما رُمّم حديثاً بالإضافة إلى المسجد المسمى جامع الباشورة . وقد دخل من هذا الباب تيمورلنك سنة (٨٠٣هـ - ١٤٠٠م) . وعلى مقربة منه تربة تسمى باسمه ، وتضم قبور عدد من الصحابة والخلفاء الأمويين .

وكم حُوصِرَتْ دمشق ، وكم قرعت أبوابها ، قبل أن يحل عام (١٤هـ - ٩٣٥م) الذي رأت فيه نفسها أمام الكتاب العربية التي تعلن عن حدث إنساني عظيم ، فهي تحمل الدين الجديد ، وتبشر بانتهاء النفوذ الغربي الدخيل الذي استمر قروناً طويلة ، وهاهم صحابة رسول الله (ينزلون على هذه الأبواب ، منهم من دخل

صلحاً ، ومنهم من دخل عنوةً ، وفتحت دمشق أبوابها لهم ، وتمتعت بعد هذا الفتح بفترة من الازدهار والتقدم والرخاء ، ولا سيما في العصر الأموي ، حين غدت عاصمة لأكبر دولة عربية عرفها التاريخ ، تمتد شرقاً حتى حدود الصين ، وغرباً حتى جنوب فرنسا . ولكن بعد هذه الفترة تعرضت لكثير من الكوارث والحروب والغزوات والفتن الداخلية والاضطرابات ، وذلك منذ العصر العباسي .

ثم هاهي المنطقة تتعرض للهجمات الصليبية المتتالية من الغرب ، والاجتياح المغولي من الشرق ، إلا أنه تخلل تاريخها هذا عهود من الازدهار في العصور السلجوقية والأيوبيية والمملوكية ، ومن أهم هذه العهود عهد نور الدين محمود بن زنكي ، الملقب بالشهيد ، وعهد الناصر صلاح الدين الأيوبي ، والعاقل أبي بكر ؛ إذ نجد دمشق في هذه العهود تحظى بقدر كبير من الازدهار والنشاط في جميع المجالات . فقد تم ترميم الأبواب والأسوار والأبراج وإقامتها وتجديدها ، وظهرت قلعة دمشق في الزاوية الشمالية الغربية من السور .

وإننا نلاحظ من خلال استعراض جدران السور والقلعة وسوائف الأبواب عدداً من النقوش الكتابية التوثيقية التي تشير إلى أمر بعمارة أو ترميم أو تجديد لهذا السور أو ذاك البرج أو الباب ، وعدد هذه النصوص (٢١) نصاً ، أغلبها يعود إلى العصر الأيوبي والمملوكي .

وجميع هذه المنشآت العمرانية أقيمت بما يتناسب مع أنواع الأسلحة المتطورة التي ظهرت آنذاك ، وطرق الدفاع الجديدة ، وهنا لا بد أن نذكر عهد نور الدين ، وما أحدثه من منجزات دفاعية تتعلق بالأبواب خاصة :

- ١- إقامة سويقة عند كل باب ، لكي يُمَوَّن أهل المنطقة أيام الحصار .
- ٢- تزويد كل باب بمسجد خاص بالحي ، وعلى الباب مثذنة يمكن الاستفادة منها في عملية المراقبة .
- ٣- سد باب كيسان ، وإقامة باب السلامة وفتحه .
- ٤- فتح أبواب جديدة مثل :

آ- باب الفرج :

ويسمى أيضاً باب المناخ ، ويقع في الجهة الشمالية من دمشق بين العسرونية والمناخية ، أنشأه السلطان نور الدين زنكي أثناء تجديد القلعة وسمي بهذا الاسم لما وجد به الناس من الفرج . وهو باب مزدوج ، الداخلي منه حذاء السور ، وبين الباب الداخلي والباب الخارجي باشورة (سوقة) ، بالإضافة إلى مهمتها الاقتصادية ، تقوم بعملية تضليل للعدو الداخل إلى المدينة . وقد جُدد الباب الداخلي في العصر الأيوبي في عهد السلطان صلاح الدين عام (٦٤٩هـ - ١٢٥١م) . وباب الفرج كان باب عظيم في أول السوق المعروف الآن بسوق الأروام ، فلما بني السوق على الهيئة الموجوة الآن ، هدم فلم يبق له أثر .



صورة باب الفراديس (العمارة)



صورة باب الفرج المناخية

ب- باب النصر :

وكان موقعه عند بداية سوق الحميدية ، وقد هُدمَ في العصر العثماني عام (١٢٨٠هـ - ١٨٦٣م) أيام الوالي محمد رشدي باشا .

أما غالبية الفترات ، فقد عانت المدينة من ظلم كثير من الحكام الذين كانوا ينتدبون لحكمها ، وكثيراً ما كانوا من غير العرب ، فظهر اتجاه انغزالي لأحياء دمشق ، ولا سيما تلك الأحياء التي بدأت تظهر خارج السور ، حتى أصبحنا نرى في كل حي مرافقه الخاصة به مثل : الحمّام ، والفرن ، والمسجد الصغير ، والمدرسة ، والسوق . وبهذا نشأ نوع من الاستقلال ، والاكتفاء الذاتي ، وحدث مع الزمن تكتُّلٌ جماعي قام على أساس الأحياء ، فصار لكل زقاق تنظيم خاص به لتوفير الحماية لسكانه ، وتحصنت الحارات وراء الأبواب ، وأصبح بعض الأحياء لكل زقاق باب ، ومن هذه الأبواب (باب سريجة) ، و (باب زقاق البرغل) الواقع داخل السوق بالقرب من باب الجابية ، و (باب مصلى) الذي كان يقع عند تقاطع شوارع ابن عساكر - المجتهد - الميدان - الزاهرة ، وكأنه الآن ساحة باب مصلى ، وهناك عند حدود دمشق الجنوبية (بوابة الله) أو (باب الله) أو (باب مصر) ، ومكانه غير بعيد من مسجد القدم ، وهو في نهاية طريق الميدان ، وسُمِّيَ كذلك لاجتماع الحج الشامي في ذلك المكان ، وخروجه منه قاصداً بيت الله الحرام .

ويضاف إلى هذه الأبواب :

بوابة الصالحية ، والمنطقة لا تزال تحمل نفس الاسم وهي في مدخل حي الصالحية ، وكانت هذه البوابة تفصل بين جادة الصالحية ، وجادة سوق ساروجة .

وأخيراً لا بد من القول : إنَّ السور والأبواب كانت سابقاً يرتبط وجودها ووضعها من فتح وإغلاق ، بأمن الدولة ومصلحة الناس ، فكم خرج منها الشبان والرجال للقاء العدو ، وكم تراحم الأطفال والشيخوخ وراء الأبواب في هرج ودعاء . أما عندما لم تعد هذه الأبواب والسور وسيلة دفاعية ناجحة ، فقد لحق بها الإهمال والخراب ، ونقص الكثير من أجزائها ، واستمر ذلك الوضع منذ عام (١٨٣٠م)

حتى فترة قريبة ، إلى أن جاء العهد الحالي حيث اهتمت الدولة بشتى المجالات ، ومنها مدينة دمشق القديمة ، فقام المهندسون والورشات المختصة بترميم أوابدنا الأثرية التي تحكي بطولات الماضي ، فها هم يعلون جدران السور ، ويرمّمون الأبواب والقلعة والأبراج ، وهاهي الأحجار القديمة/ الحديثة الضخمة تتحدث عن صمودنا الطويل في وجه الاستعمار ، وتبعث في جيلنا الحالي أملاً ضخماً بالمستقبل .

باب الجابية ، وذكرى يوم من حضارتنا العربية :

أما اليوم التاريخي العظيم ، فهو اليوم الذي دخل فيه موسى بن نصير باب الجابية إلى دمشق ، في موكب فخم يقل نظيره ، وكانت خيل البريد إذا قوقعت تم لجمها عند باب الجامع الذي سمي (باب البريد) ، حيث كنت ترى الناس يتراخضون زرافاتٍ ووحداناً يسألون عن الأخبار ويتخاطفون الرسائل والمكاتيب .

وهذا موسى بن نصير قد أقبل عليكم يا أهل الشام يجر الدنيا وراءه جراً . ودخل موسى بن نصير باب الجابية وهو يسير الهوينى ، رفقاً بمن معه من الأسرى ، وفيهم الأطفال الصغار والملوك المترفون والنساء المنعمات ، وكان وصوله إلى دمشق يوم الجمعة ، أوائل شهر جمادى الأولى من سنة (٩٦ هـ) وهو يوافق منتصف كانون الثاني من سنة (٧١٤ م) .

هَبَّ أهل دمشق من مراقدهم مبكرين يحتفلون بقدوم فاتحهم العظيم موسى الشامي/ الفلسطيني ، أحد موالى بني أمية ، (أبوه من جبل الخليل بفلسطين ، وقد ولد ابنه موسى في قرية كفر مري في الخليل ، وقد نشأ فطناً عاقلاً . وكان جسيماً ضخماً الجثة) .

وبقي موسى سائراً حتى بلغ الدار الخضراء ، أو القبة الخضراء ، وهي اسم لقصور خلفاء بني أمية ، تقع في قبلي الجامع (حيث حارة النقاشات اليوم) . أما الغنائم فكانت محملة على مئة وست وثلاثين عربة ، عدا الإبل والبغال التي تحمل الجواهر وقضبان الذهب المنقوش باللؤلؤ والياقوت والزّمرّد .

باب ابن إسماعيل :

باب صغير كان عند حارة الحاطب في الشّماعين قبلي مئذنة الشمم ، وكان يفتح عند الحاجة إليه ، ويسمّيه ابن عساكر : (باب حارة الحاطب)^(١) .



صورة باب الجابية

باب البريد (١) :

الباب الغربي لمعبد جوبيتر الذي تشاهد أعمدته في سوق المسكية ، وكان موضعه في آخر سوق الحميدية من جهة الشرق حيث محلّة باب البريد اليوم ، بين العمودين العظيمين الباقيين عن اليمين واليسار ، وبقي الباب موجوداً حتى فكّه الملك العادل أبو بكر محمّد الأيوبي عند عمارته لقلعة دمشق عام ٥٩٩هـ / ١٢٠٢م . وكان غربي معبد جوبيتر قصر منيف جداً تحمله هذه الأعمدة . أمّا تسميته بباب البريد فيقول ابن عساكر ومن نقل عنه من المؤرّخين : إنها منسوبة

(١) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ١٨٧/٢ ، الأعلام الخطيرة لابن شدّاد ٣٧ ، ثمار المقاصد لابن عبد الهادي ٦٧ وح ٥ .

إلى (بريد بن سعد بن لقمان بن عاد) شقيق جيرون الذي نسبت إليه تسمية الباب الشرقي للمعبد المذكور ، وقيل غير ذلك ، وكلُّها أساطير متناقلة ، والصواب أن الاسم من الآرامية : بریت أو بریتا Berit أو Berita بمعنى : الساحة والعَرَصَة والشارع ، وبالسريانية بریتا بنفس المعنى^(١) .

باب البريد (٢) :

محلة كانت تشمل سوق المسكية ، والنهية الشرقية لسوق الحميدية ، وسوق الحرير وسوق باب البريد اليوم ، وتشكل هذه الأسواق تقاطعاً عرف قديماً باسم (مرتبة باب البريد) وما زالت هذه المنطقة إلى اليوم تحمل اسم (باب البريد) . وفي سنة ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م [من العهد الأيوبي] دخل دمشق نائبها الأمير جمال الدين بن يغمور وأمر بتخريب الدكاكين المحدثّة في وسط باب البريد ، وأمر أن لا يبقى فيه دكان سوى ما في جانبيه ، إلى جانب الحائطين القبلي والشمالي ، وما في الوسط هدم . وكان الملك العادل هدم ذلك ثم أعيد ، حتى هدمه ابن يغمور . وفي [بداية العهد المملوكي] سنة (٦٦٣هـ / ١٢٦٤م) شرع في تبليط باب البريد من باب الجامع [الأموي] إلى القناة التي عند الدرج ، وعُمل في الصف القبلي منها بركة وشاذروان وفي سنة ٧٢٩هـ / ١٣٢٩م وسّعت الطرقات والأسواق كباب البريد ، وفي هذه المحلة دار العقيقي [التي شيّدت مكانها المدرسة الظاهرية] . ولا وجود للباب اليوم^(٢) .

باب البريد (٣) :

باب الجامع الأموي الغربي الذي يفتح في سوق المسكية .

-
- (١) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ١/ ١١ ، البداية والنهاية لابن كثير ٩/ ١٦٣ ، القلائد الجوهريّة لابن طولون ١٠٥ وح ١ ، معجم البلدان لياقوت الحموي ١/ ٣٠٦ ، خلاصة الأثر للمحتي ٤/ ٣٥٦ ، أبواب دمشق للشهابي ٢٣٩ ، معالم دمشق التاريخية للإيش والشهابي ٣٤ .
- (٢) القلائد الجوهريّة لابن طولون ١/ ٢١٣ ، البداية والنهاية لابن كثير ١١/ ٣٣٢ ، ١٣/ ٢٨٤ ، ١٤/ ١٦٥ .

باب توما :

وينسب إلى أحد عظماء الروم ، واسمه توما الذي أعطى اسمه للحي المجاور . وفي العصر البيزنطي كان عليه كنيسة عظيمة ، ويذكر بأن عمرو بن العاص نزل على هذا الباب يوم فتح دمشق ، وقد حولت الكنيسة إلى مسجد في العصور الإسلامية . وفي العهد الحالي ، رُمِّمَ وجُدِّدَ وأصبح موقعه ضمن ساحة جميلة تعرف بساحة باب توما . ويبلغ ارتفاعه حوالي ستة أمتار ورمَّه نائب السلطان تكرر خان وتعود تسميته إلى توما الروماني سنة (٦٢٥هـ - ١٢٢٧م) .

١- ويقع في الجهة الشمالية من دمشق وهو باب روماني ارتفاعه (٤٣٨سم) وعرضه (٣٢٢سم) كانت عليه كنيسة ثم حولت إلى مسجد والذي أزيل هو المأذنة لتوسيع الطريق في الثلاثينيات من هذا القرن . وقد دخل من هذا الباب عمرو بن العاص يوم فتح دمشق (مجلة تاريخ العرب عدد ٢٧ ص ٩٥ كانون الثاني ١٩٨١م) . من أبواب دمشق في الطرف الشمالي للسور ، اختطه اليونان ونسبوه لكوكب الزهرة ، ثم جاء الرومان ، ومن بعدهم البيزنطيون الذين خصَّوه للقديس توما الرسول أحد تلامذة السيد المسيح ، وقد جُدِّدَ الباب في العهد الأيوبي أيام الملك الناصر داود بن عيسى سنة (٦٢٥هـ / ١٢٢٧م) ، ثم المملوكي أيام نائب الشام تنكز الذي أمر بإصلاحه فرفع بابه عشرة أذرع وجُدِّدت حجارته وحديدته في أسرع وقت ، وذكر المؤرخون العرب أن الباب منسوب لعظيم من عظماء الرومان واسمه (توما) ، فقد اختلط عليهم الأمر ؛ لأنهم عندما فُتحت دمشق سنة (١٤هـ) أيام الإمبراطور البيزنطي (هرقل) كان صهره زوج ابنته واسمه توما بطريقاً (والياً) على سورية التي كانت قاعدتها دمشق ، فظنوا بأن التسمية منسوبة إليه . كما ذهب ابن عساكر وياقوت الحموي إلى القول بأن التسمية منسوبة لقرية درست تسمَّى (توماء) ، والصواب أن اسمها منسوب للباب^(١) .

(١) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ١/١٥ ، ٢/١٨٥ ، البداية والنهاية لابن كثير ١٠/٤٨ ، ١٤/١٩٠ ، معجم البلدان لياقوت الحموي ٢/٥٩ ، أبواب دمشق للشهابي ٢٣٩ ، معالم دمشق التاريخية للإيش والشهابي ٣٧ .

٢- باب الحديد :

وهو باب خاص بالقلعة تم بناؤه في عهد ابن قلاوون . وكان يُفتح لمن يولى نيابة القضاء في دمشق حيث كان النائب يُصلي عند هذا الباب ركعتين ويركب في موكب يسير وراءه وجوه المدينة وأرباب الوظائف ، لينتقل بعد ذلك إلى دار العدل التي أنشأها نور الدين زنكي (المصدر السابق ص ٩٦) .

٣- باب السلام :

ويقع في الجهة الشمالية من دمشق ارتفاعه (٤١٤ سم) وعرضه (٢٩٨ سم) وكان يُدعى باب السلامة ؛ لأن القتال من جانبه غير ممكن بسبب إحاطته بالأشجار والأنهار ، كما سمي أيضاً بباب الشريف ؛ لأن نور الدين زنكي أحدثه في جدّه الملك الصالح أيوب بن الملك الكامل عام (٦٤١ هـ) المصدر السابق ص ٩٥ .

٤- البوابة أو بوابة الله :

وتقع جنوب الميداني الفوقاني وأطلق عليها هذا الاسم لأنها تؤدي إلى بيت الله الحرام (حسن أغا العبد ص ١٥- تحقيق يوسف نعيه) وأما حي الجورة فيقع بين باب توما والعمارة .

باب الجابية :

من أبواب دمشق الرومانية في الطرف الغربي للمدينة ، وهو مكرّس لكوكب المشتري الذي يمثل الإله (جوبيتر) ، وكانت له ثلاثة بوابات ، الوسطى كبيرة ، وعلى طرفيها بوابتان أصغر ، ومن هذا الباب دخل أبو عبيدة بن الجراح صلحاً عند فتح دمشق سنة (١٤ هـ) . وقد جدّد أيام نور الدين الشهيد وعمل له باشورة سنة (٥٦٠ هـ) ، ثم أيام الملك الناصر داود الأيوبي . واليوم لم يبق من الأبواب الثلاثة سوى الباب الجنوبي . أمّا حول تسميته فقد نسبته المؤرخون العرب إلى قرية (الجابية) .

باب كيسان :

من أبواب دمشق الأصلية في الطرف الجنوبي الشرقي للسور ، بناء الرومان ويحتل في نفس موضع الباب اليوناني القديم ، المنسوب إلى كوكب زحل الذي يمثل إله الزمن والزراعة (كرونوس) ، ثم دمج الرومان هذا الإله بإلههم (ساتورن) . ثم قام نور الدين الشهيد بسده ، وأعاد المماليك فتحه سنة (٧٦٥ هـ) أيام نائب السلطنة (منكلي بغا) .

وفي عام (١٩٣٩ م) صار الباب مدخلاً لكنيسة القديس (بولص) . أما اسمه فنسبه ابن عساكر إلى (كيسان مولى معاوية بن أبي سفيان) وكنيته : أبو حريز ، ثم يذكر عن لسان هشام بن محمد الكلبي بأنه (كيسان بن بشر العبدي) وكل هذا وهم ؛ لأن التسمية سريانية (قيصون) بمعنى : أقصى ، طرفي ، نهائي^(١) .

- باب السر :

باب قلعة دمشق الغربي الحالي ، سمي باب السر ؛ لأن أهل القلعة كانوا يدخلون ويخرجون منه دون أن يدري بهم سكان المدينة داخل السور . (الدرّة المضية لابن صصري ١٦١ - إعلام الوري لابن طولون ٧٤) .

- باب السلام :

من أبواب دمشق المحدثّة في الجهة الشمالية من السور ، بين باب توما وباب الفراديس ، بناء السلطان نور الدين محمود بن زنكي في القرن السادس للهجرة ، ويُعتبر من أجمل أبواب المدينة ، جدّه في العهد الأيوبي الملك الصالح أيوب سنة (٦٤١ هـ) . وأصل تسميته باب السلامة ، سمي بذلك تفاعلاً ؛ لأنه لا يتهدّد القتال على البلد من ناحيته لما دونه من الأنهار والأشجار . ومن أسمائه الأخرى : باب

(١) ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ، الفهارس ، تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ١٥/١ ، ٥٠٩ ، ١٨٥/٢ ، الأعلام الخطيرة لابن شدّاد ، الفهارس ، معالم دمشق التاريخية للإيش والشهابي ٥٩ .

الشریف ، وباب الفراديس الصغير . (تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ١٨٦/٢ ، الأعلام ، الخطيرة لابن شدّاد ، الفهارس البداية والنهاية لابن كثير ٢٧٩/١٤ الدارس للنعمي ، الفهارس معالم دمشق التاريخية للإيش والشهابي ٤٩ ، أبواب دمشق للشهابي ٢٠٧) .

- باب المارستان النوري :

هو باب البيمارستان النوري في حي الحريق اليوم .

- باب المحاملين :

لعل التسمية هي المحاملين الواردة في ذيل تاريخ دمشق ، عند جسر المصلّى ؟
(ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي أحسن التقاسيم للمقدسي ١٤٤) .

- باب المزابل :

كان خارج باب الفراديس . (مفاكهة الخلّان لابن طولون ٦٢/٢) .

- باب مصر :

تسمية مجازية للنهاية الجنوبية لحي الميدان فوقاني ، سمّي بذلك لأن المتوجّه إلى مصر يخرج من هناك .

أسماءه الأخرى : باب الله وعاميتها باب طلّله ، وبوابة الله ، تيمناً لانطلاق الحجيج من هذا الموضع لأداء فريضة الحج . (لطف السمر للغزي ٢٧ ح ، ٣٨ ح ، ٣٢٥ ، ٣٦١ ح) .

- باب المصلّى :

من أحياء الميدان التحتاني ، بين حي السوقية وساحة باب المصلّى . تنسب التسمية لجامع المصلّى أو مصلّى العيدين .

أحاديث ونصوص ورد فيها ذكر بعض أبواب دمشق :

عن وهب بن منبه قال : دمشق بناها غلام إبراهيم الخليل عليه السلام ، وكان حبشياً وهبه له نمرود بن كنعان حين خرج إبراهيم من النار ، وكان اسم الغلام دمشق

فسمّاها على اسمه ، وذلك بعد الفرق . وكان إبراهيم عليه السلام جعله على كل شيء وسكنها الروم بعد ذلك .

قال أبو الحسن الرازي : وجدت في الكتاب الذي سماه أبو عبيدة محمد بن المثنى كتاب فضائل الرّسّ ، وحكاه عن عمر المعروف بعمر كسرى ، أن بيوار راسب الملك الكيرواني بنى مدينة بابل ومدينة صور ومدينة دمشق . وبلغني من وجه آخر عن بعضهم أن الذي بنى مدينة دمشق بناها على الكواكب السبعة ، وأن المشتري بيته دمشق ، وجعل لها أبواباً سبعة ، وصوّر على كل باب أحد الكواكب السبعة ، وصوّر على الباب الذي يقال له اليوم باب كيسان (زحل) ، فخربت الصّور كلها التي كانت على الأبواب ، إلا باب كيسان فإن صورة زحل باقية عليه حتى الساعة .

قال أبو القاسم تمام بن محمد الرازي : قرأت في كتاب عتيق بأن باب كيسان لزحل ، وباب شرقي للشمس ، وباب توما للزهرة ، وباب الصغير للمشتري ، وباب الجايية للمريخ ، وباب الفراديس لعطارد ، وباب الفراديس الآخر للقمر .

وكان لدمشق ثمانية أبواب من جهاتها الأربع وقد قال بعضهم :

دمشقُ في أوصافها جنّة خلّد راضية
أما ترى أبوابها قد جعلت ثمانية

والأبواب هي :

١ - باب توما .

٢ - باب السلام .

٣ - باب العمارة .

٤ - باب البوابجية وهو باب الفرّج .

٥ - باب السرايا .

٦ - باب الجايية .

٧ - باب الصغير .

٨ - الباب الشرقي أو باب كيسان .

قل ما تشاء عن جُلُق
فَالْخَيْرُ وَالْيَمْنُ بِهَا
وانسب لها ولا حرجُ
وبابها باب الفرجُ
وقد قيل :

عَرَجُ رِكَابِكَ عَنْ دِمَشْقَ فَإِنَّهَا
مَا بَيْنَ جَانِبَيْهَا وَبَابُ بَرِيدِهَا
بلد تَذِلُّ لَهَا الْأَسْوَدُ وَتَخْضَعُ
قَمَرِ يَغِيبُ وَأَلْفُ بَدْرِ يَطْلُعُ
وقال ابن سعيد :

فِي جُلُقٍ نَزَلُوا حَيْثُ النِّعَمُ غَدَا
فَالْقَضِيبُ رَاقِصَةٌ وَالطَّيْرُ صَادِحَةٌ
مَطْوَلًا وَهُوَ فِي الْأَفَاقِ مُخْتَصِرُ
وَالنَّسْرُ مَرْتَفِعٌ وَالْمَاءُ مُنْحَدِرُ
لِكُلِّ وَادٍ بِهِ مُوسَى تَفْجَرُهُ
وَكُلِّ لَاوِضٍ عَلَى حَافَاتِهِ الْخَضِرُ



صورة مدخل القنوات

الأثمان

كان في ربض^(١) المدينة خارج سورها ساحات فسيحة وعمارات وقرى عديدة كساحة القمح خارج باب الجابية التي أنشأ عليها سنان باشا^(٢) جامعته المشهور ، وعمارة الدحداح خارج باب الفراديس ، وقرية العقبة مما يلي العمارة ، ثم قرية القنوات التي أنشأ فيها الأمير شادي بك مسجده المعروف بالشابكلية ، ثم قرية الصالحية على سفح قاسيون وغيرها .

ومع مرور الأيام اتسعت تلك القرى والعمارات واتصل بعضها ببعض وتآلفت منها أحياء حديثة تزيد مساحتها على فضاء المدينة القديمة فجعلت المدينة كلها تتألف من ثمانية أثمان هي :

- ١- ثمن القنوات - في الغرب الجنوبي .
- ٢- ثمن سوق ساروجة - في الشمال الغربي .
- ٣- ثمن العمارة - في الشرق الشمالي .
- ٤- ثمن القيمرية - في الشرق .
- ٥- ثمن الشاغور - في الشرق الجنوبي .
- ٦- ثمن الميدان التحتاني - في الجنوب .
- ٧- ثمن الميدان الفوقاني - في الجنوب .
- ٨- ثمن الصالحية - في الشمال .

(١) الربض ما قام حول المدينة من بيوت ومساكن .

(٢) سنان باشا : تولى الصدارة العظمى (رئاسة الوزراء) في الدولة العثمانية خمس مرات ، وهو من أصل ألباني ، كان والياً في حلب ومصر وحارب المجر وفتح اليمن وأضافها لى رقعة الدولة العثمانية فلقب بفتح اليمن . أما لقبه الآخر قوجه - ومعناه : الكبير - فقد أضيف إلى اسمه أيضاً لأنه عاش حتى التسعين من العمر . كان والياً للشام في سنة (١٥٨٦ م) . طغت على أعماله وخدماته للدولة صفاته السيئة الأخرى من فساد وغرور وظلم .

وسنصف كل ثمن على حدة في الأبواب الآتية إن شاء الله .

١- ثمن القنوات :

يبتدىء ثمن القنوات^(١) من محطة بيروت في البرامكة التي هي جزء من مقابر الصوفية^(٢) القديمة ثم محطة الحجاز ، فباب ذي مخمر ، فشارع جمال باشا الذي

(١) القنوات : جمع قناة وهي مجرى الماء المخصص لسقي المدينة منذ إنشائها ، ولما كان مستواه أوطأ من بعض الأحياء ، فلا يبلغها كلها ، شادله الرومانيون تلك القنوات الضخمة ، وأجروه فوقها لكي يعم جميع الأحياء من باب الجابية إلى الباب الشرقي . قد تفرعت منه عدة فروع ، فاشتهر بصيغة الجمع .

(٢) مقابر الصوفية : كانت هذه المقابر غربي قلعة دمشق بين نهري بانياس والقنوات ، وهي تمتد من القلعة إلى حدود قرية المزة عند تقارب النهرين في أرض الشقراء . ومع مرور الأيام تخللتها بنايات وأقيمت عليها أحياء مختلفة كقرية القنوات ، ودار السعادة ، وحكر السماق الذي شاد فيه الأمير تنكز جامعها الباقي إلى هذا اليوم ، وهو الأمير سيف الدين تنكز الحسامي الناصري المتوفى عام (٧٤٠هـ) ، ثم جامع ابنه الأمير سيدي خليل الذي ولي إمارة دمشق عقيب رحيل التيمور عنها سنة (٨٠٣هـ) ، ثم أدركه الأجل فدفن في هذه المقبرة تجاه باب القلعة الغربي . وفي غضون إمارته شاد جامعها الذي دام إلى زماننا ، وفي هذه السنة - (١٣٥٢هـ) - هدمته مديرية الأوقاف ، وأنشأت محله دائرة لنفسها ، وقد غرست أمام قبره شجرة من السرو عاشت خمسة عصور ، وأزيلت قبل بضع سنوات حينما توسع طريق السنجدار ، ثم قصر الملك الظاهر المعروف بالأبلىق ، وقصر منجك باشا وهو محمد باشا بن منجك بن أبي بكر بن الأمير منجك الكبير اليوسفي نائب الشام المتوفى عام (١٠٣٢هـ) ، ثم زاوية المولوية وغيرها . واتصلت بنايات المدينة بقرية المزة التي اتسعت اتساعاً عظيماً بحيث أن قبر الشيخ عبد الرحمن وهو أبو القاسم عبد الرحمن بن غانم الكناني العسقلاني المعروف بالمسجف المتوفى سنة (٦٣٥هـ) الذي هو اليوم في منتصف الطريق بين قريتي المزة وكفر سوسة كان في متوسط بلدة المزة ، وكان حي الروبة معموراً وغاصاً بالسكان ، وهو همزة الوصل بين المزة والصالحية ، ثم أحدثت بين البنايات حداثق كثيرة وانحصرت المقبرة بعد عصور بين القصر الأبلىق الثكنة الحميدية اليوم وقصر الأعجام المستشفى الوطني . وأطلق على هذه المقبرة اسم البرامكة بسبب ما يروى من أنه دفن بها من كان في الشام من آل برمك أيام الرشيد العباسي . ولبثت بعض قبور الأكابر مبعثرة هنا وهناك كقبر المؤرخ ابن عساكر وهو الحافظ الكبير أبو القاسم فخر الدين حسين بن هبة الله بن عساكر الذي توفي سنة (٥٧١هـ) ودفن على الطريق في شمال بستان الأعجام - =

دعوه شارع النصر ، ثم أطلق عليه اسم شارع الحجاز ، فشارع خالد بن الوليد وشارع القنوات ، فَتَحَتَ القناطر ، فالشابكلية ، فالدرويشية ، فباب الجابية ، فالسكرية ، فالسَّنَابِيَّة ، فسوق الغنم ، فشارع حسان ، فقصر الحجاج ، فالقصاصين ، فالتنورية ، فباب السريجة .

وفي هذا الثمن التكية المولوية التي أصبحت مدرسة عسكرية في هذا اليوم ، وجامع درويش باشا ، ومسجد المغربية والشابكلية وهما من القاعات السبع المشهورة في دمشق^(١) ، ثم جامع عيسى باشا^(٢) ، وجامع حسان ، وعز الدين ، والحيواطي ، ومسجد زيد بن ثابت ، والنيروزي ، ثم جامع العداس ، وزاوية الهنود ، ثم أربع مدارس عصرية ابتدائية للحكومة ، اثنتان منها للبنات ، وهما مدرستا قبر عاتكة^(٣)

= الذي كان جزءاً من المقبرة - وقد دام قبره إلى أن أنشئ المستشفى الوطني فأدمج فيه سنة (١٣١٢هـ) . ثم ضريح الإمام ابن تيمية وهو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام المعروف بابن تيمية الحراني الحنبلي المتوفى عام (٧٢٨هـ) ، والعلامة ابن الصلاح الحنبلي المتوفى سنة (٨٣٤هـ) ، ثم قبر الشيخ قطب الدين الخضيري وهو محمد بن محمد ابن عبد الله بن خضير الشافعي المصري المتوفى سنة (٨٩٤هـ) وهذا القبر باق إلى يومنا هذا وراء مستودع الكهرباء على مفرق كفر سوسة . ولبت البرامكة مقبرة إلى وقت قريب ، فلما احتلها الإفرنسيون جعلوها مستودعاً للدبابات ومركزاً للتلفراف اللاسلكي ، وشيدت عليها المدرسة الطبية ، فاندثرت القبور ولم يبق لها من أثر .

(١) القاعات السبع : في الشام سبعة مساجد مشيدة على طراز القاعات ، لها برك وأحواض وجلسة ونفقة وتعرف بالقاعات السبع وهي : المغيرة ، والشابكلية في القنوات والنيروزي في باب السريجة ، والخانقية في الميدان ، والجقمقجية في العمارة ، والدغمشية في سوق الخيل ، والخضيرية في الشاغور ، وأجملها شكلاً وبناء هي الجقمقجية .

(٢) جامع عيسى باشا : كان في باب السنراي باتصال دائرة المشيرية الباقية إلى اليوم ، وأزيل حينما أنشئ شارع جمال باشا . وفي أيام حكومة صبحي بك بركات حاولت دائرة الأوقاف تجديده وصيانة أساسه فلم يرق ذلك للحكومة ، بإيعاز من السلطة الإفرنسية ، فأوقفت البناء وأنشأت محله مقهى ، ثم استحال المقهى إلى بنك إفرنسي تحرسه جنود السنغال بينادقها ورشاشاتها من الأهلين الذين يروم أن يعاملهم ويربح منهم .

(٣) عاتكة بنت يزيد بن معاوية زوجة الخليفة عبد الملك بن مروان ، وقد اشتهرت بأنها كانت ترفع خمارها أمام اثني عشر خليفة وكلهم محرم لها . وكان لها قصر خارج باب الجابية وفيه مات زوجها عبد الملك .

والمغربية ، واثنان للبنين وهما مدرسة قبر عاتكة وباب الجابية .

وفي القنوات محطة البرامكة لسكة حديد بيروت وتمديداتها ، ومحطة الحجاز التي أنشئت على الطراز العربي البديع وهي مبدأ خط السكة الحديدية الحجازية الآتي بيانها ، ثم ثكنة الحميدية التي أنشئت لإقامة ستة عشر فوجاً (طابوراً من الجنود) بمعداتهما ومن خلفها الاصطبلات والمستودعات ومستشفيات الخيل ودار البيطرة وما يتبعها .

ثم مقابر الصوفية المندرسية ، ومقبرة ذي مخمر ، والمستشفى الوطني ، ومعهد الطب ، ومرآب السيارات العسكرية ، ثم دائرة المشيرية التي كانت قديماً مقرّ الحكام ونواب السلطنة ، وتدعى دارة السعادة .

وفي القنوات حمام السرايا^(١) وحمام الملكة ، وحمام الحدادين ، والقناطر ، والسنانية ، والجديد ، وعز الدين ، والتيروزي ، وحمام الذهب ، ثم معمل للنشا في السنانية ، ثم خان السنانية ، وخان الجين ، وخان الزالق ، وخان الدغلي ، وخان السلطان ، وخان البيطار ، وخانات متعددة للحياكة والنسيج ، وحواصل مستودعات الأخشاب وأتونات لحرق الكلس ، وشيّ الآجر ، وصنع الأحجار الرملية ، وخانات متعددة لربط الدواب وإيواء الفلاحين .

حي القنوات : هو أحد أحياء دمشق الشهيرة ، وقد تم بناؤه خارج السور من جهة الغرب قبل قرنين وأصبح حياً يقطنه المتنفذون العثمانيون والأستقراطيون

(١) حمامات دمشق واسعة البناء عالية الجدران ساطعة النور غزيرة المياه مفروشة بالمرمر وغيره من الأحجار البديعة القيّمة ، وهي تفضل حمامات بلاد الشرق كلها ، على أن هذه الحمامات البديعة التي هي زينة المدينة والمساعدة على حفظ الصحة وقضاء الفروض الدينية قد طرأت عليها عوامل الإهمال ، وكادت تندرس وتتلاشى من يوم إلى يوم لرغبة الناس عنها لأسباب عديدة من جملتها إنشاء حمامات خاصة في الدور الحديثة وغير ذلك ، مما جعل الحمام الذي يحتاج إلى ترميم أو تعطلت مجاريه يهمله أصحابه ؛ لأن أجرته أصبحت لا تقوم بنفقاته ، وهكذا تعطل إلى اليوم زهاء عشرين حماماً من أصل ستين حماماً كانت موجودة ومعمرة في دمشق في أوائل هذا القرن .

وأغنياء التجار ، وسمي بالقنوات لكثرة قناطر نهر قنوات الذي يجري فيه ويمتد من باب المدينة الغربي وباب العجاية إلى مقبرة باب الصغير وحتى محلتى الشويكة وقبر عاتكة (مجلة العمران عدد خاص عن دمشق (١٩٦٧ م) .

يا طيّبَ ماء (القنوات) العذب إذ خصصوه أهلها للشرب
ويقول عن أودية دمشق :

ولنشرع الآن بذكر الأودية	اللاتي لأمراض القلوب أدوية
إذ كلهم في دوحةٍ معطارٍ	بالطيب يحكي جونه العطار
تخاله يختال كالعرائس	في حلل الدياج والأطالس
وكلهم في حسنه تّياه	تحفّاه الأزهار والأمواه
أولهم يا صاح (وادي بردى)	وإِ ترى للأُنس فيه مددا
تجري عليه بالدموع (الأعين)	إذ قصرّت عما حواه الألسن
(وادي الخضرا) محط الرحل	كم ذا شدّنا نحوه من رحل
يا صاحبيّ نار شوقي هيجا	وعرّجا بي نحو (وادي الفيجا)
وأطر بأسمعي بذكر الوادي	وإِ سما يا صاح بالعُود
ونهره الطامي البهّي المنظر	وليس مرأى العين مثل المخبر
وادي (التل) الرفيع القدر	يضوع بشراً من عبير الزهر
وادي (منين) أنصّر الوديان	أطيّاره تشدوا على العيدان

٢- ثمن سوق ساروجة :

سوق ساروجة^(١) مدخل المدينة من غربها على طريق العجلات والسيارات ،
يبتدىء من المرج الأخضر ، فشارع الربوة ، فشارع معهد الحقوق ، فشارع

(١) ساروجة - كما تلفظها العامة - والأصل : صاروجة بمعنى شقيّر ، تنسب إلى الأمير صاروج المظفري المتوفى عام (٧٤٣ هـ) ، وكان قبره تحت قبة في وسط الشارع أمام حارة المفتي فاذيل لتوسيع الطريق .

الحكومة ، وشارع القصر الأموي ، وهذه الشوارع كلها على ضفتي بردى ، ثم شارع الطاغوسية ، وشارع سليمان شفيق باشا الذي ذكرناه في باب الطرق ، وشارع البحصنة الذي هو مبدأ البقعة التي كانت قديماً معروفة باسم تحت القلعة^(١) ، ثم ساحة البلدية التي أطلق عليها اسم المرجة ، ثم شارع السنجقدار ، وشارع رامي ، وسوق علي باشا ، وسوق الخيل ، وسوق التبن ، والسوق العتيق ، وخان البطيخ ، وسوق باب الآغا ، وسوق خان الباشا ، وسوق الهال ، والزرايلية ، والسروجية ، والمحارية ، وسوق البحرة المدورة^(٢) ، ثم الجوزة الحدباء . ومن بوابة الصالحية يبتدىء الشارع السلطاني ، فشارع الشيخ المجاهد ، فالعقبة ، فالمناخ . يتألف هذا

- (١) تحت القلعة : في العصور الوسطى كان يقال للبقعة الواقعة في شمال قلعة دمشق تحت القلعة وموقعها بين القنطرتين أي بين المرجة والعمارة . وكانت تشمل إذ ذاك دار البطيخ وسوق الخيل وسوق التبن ومقابر العونية ، وتطل عليها الأحياء والدور والقصور ، وفي يومنا هذا تتألف منها شوارع : البحصنة ، والمرجة ، والسنجقدار ، والناصرى ، وسوق علي باشا ، وسوق الخيل ، وسوق العتيق ، وسوق التبن ، وخان البطيخ ، وباب الآغا ، والبحرة المدورة ، وخان الباشا ، والزرايلية ، والسروجية ، والمحارية ، والأبارين ، والنحاسين ، والبوابجية ، والمناخلية ، وبين الحواصل . قال أبو البقاء البدرى في كتابه المسمى نزهة الأنام في محاسن الشام : إن تحت القلعة مرتع القرب ومنهم الغريب ، وهي ساحة سماوية تحف بها الدور وتعلوها القصور ، وقد احتوت على كل ما يروق الإنسان وتشتهي الشفة واللسان ، وفيها دار البطيخ ، حيث تباع جميع الفواكه ، وهناك العين الشهيرة ببرودة مائها (عين علي) وعذوبته وخفته ، وفيها سوق القماش ، منه ما يباع بالذراع ، ومنه ما يباع مخيطة ، وجانب منها للرجال ، وجانب للنساء ، ثم سوق الفراء والعبي ، وسوق السقاطين والنحاسين والسكاكينية والقريبة ، وسوق الخيل وسوق الغنم ، وسوق القشاشين ، والمحارية ، والمنجدين ، والخياطين ، والنقلية باعة النقول ، ثم دار الخضر ، وسوق المناخلية ، والزجاجين ، والوظائفية (الموظفين) ويتخلله أرباب الحلقات واللفافات والمضحكون وأصحاب الآلايب والحكواتية والمسايرون ، والناس في المساء يكونون أكثر اجتماعاً في هذا المكان ، ويسمرون فيه إلى ما بعد منتصف الليل .
- (٢) البحرة المدورة : كانت هنالك - أيام لم تكن فيها عجلات ولا سيارات تجد في وسط الطرق الأربعة المصلبة بين سوق التبن وسوق الباشا والزرايلية والسوق العتيق - بحرة مستديرة الشكل ، تعرف بالبحرة المدورة ، يستقي منها الواردون ويسقون دوابهم ، ثم أزيلت لتوسيع الطريق .

الثلث من أحياء وأزقة البحصّة ، والأحمدية ، والشرابي ، ورامي ، والسنجقدار ،
والنوفرة ، والسمانة ، وزقاق باب الآغا ، والعناتبة ، والعين ، والبرج ،
والصوفية ، والبقارة ، والبحرة السوداء ، والمعمشة ، والديمجية ، والست
زيتونة ، والشماعين ، والعقبة والداقور ، وتحت المئذنة ، وبين القريتين ، وزقاق
الكلبة ، وزقاق النهر ، والمناخ .

وفي هذا الثلث مدرسة الصنائع ، ومدرسة نموذج البحصّة ، ومدرسة الجوزة
الحدياء للبنين ، ومدرسة النوفرة للبنات ، والميتم لتعليم البنات اليتامى ، ثم
الجامعة العلمية .

وفيه التكيّتان السليمية والسليمانية على المرج الأخضر ، ثم جامع يلغا ،
ومسجد فضل الله البصري ، ومسجد الدغمشية ، والطاغوسية ، وجامع
السنجقدار ، وسيدي خليل ، والناعوة ، ومسجد الزرابلية ، والسروجية ، والدلبة
ثم جامع بيرسباي المعروف بجامع الورد ، وجامع ست الشام^(١) وجامع التوبة
ومسجد محمد باشا العظم ، ومسجد رستم الحاجب والنحاسين ، ثم مقام السيدة
حفيظة ، وعلى ضفة المرجة الشمالية في جهة الشرف الأعلى مستودع الذخائر
الحربية جبخانه وثكنة صغيرة للمحافظة ثم حديقة الأمة يقابلها معهد الحقوق الذي
كان مدرسة للمعلمين .

ثم نزل فكتوريا ، ونزل الشرق ، والقصر الأموي ، ونزل خوام وهو أعظم نزل
دمشق في الوقت الحاضر ، ثم دائرة الحكومة والبلدية العدلية والبريد والبرق ودائرة
الشرطة التي أنشئت لإدارة الأملاك السلطانية ، ثم صيدلية الإسعاف العام والمختبر
الكيمائي ، فالنصب الذي أقيم لذكر مدّ الأسلاك البرقية إلى المدينة المنورة^(٢) ، ثم
النزل المدعو قصر الشام دامسكوس بالاس ، فإدارة حصر الدخان الريجي ، فدار

(١) جامع ست الشام : أنشأته ست الشام شفيقة بنت نجم الدين أيوب ، أخت السلطان صلاح الدين .

(٢) خربت تلك الأسلاك خلال الثورة العربية ولم يبق منها أثر .

المعاينة الخاصة للنساء ، فدائرة الأوقاف ودائرة الصحة ، فبنية العابد وهي أكبر بنايات المدينة اليوم ، فمسرح الزهرة ، والتزل الملوكي ، ونزل الصفاء ، ثم مطبعة فتي العرب ، ودائرة المصالح العقارية ، ودائرة قيادة الدرك ، ثم حمام الناصري وحمام السروجية ، والقرماني ، وحمام الورد ، والجوزة ، والعمرى ، والخانجي ، وحمام رامي ، ثم خان البطيخ ، وخان الباشا ، وخان الدبس ، وخان العيطة ، وخان الشماع ، وعدة خانات لربط الدواب ، ومعامل لصنع الأحجار الرملية ، وأتونات لحرق الكلس ، وصنع الآجر ، وحواصل للأخشاب وغيرها .

٣- ثمن العمارة :

ثمن العمارة^(١) قلب المدينة ومجمع أهم بيوتها التجارية ، يتدلى من سوق الحميدية ، أكبر أسواق دمشق ، فسوق النسوان ، فالعصرونية ، فسوق الخندق ، وسوق القدسى ، فباب البريد ، والمسكية ، فسوق خان الكرك ، فخان الجمرى ، وسوق القيشاني ، والقلبجية ، والنورية ، فسوق الحرير ، والقوافين ، وسوق السلاح ، وبين البحرتين ، فالبزورية ، ثم البوابجية ، والمناخلية ، وبين الحواصل ومسجد الأقباص ، وشارع عاصم ، وبرج الروس ، والقصاع ، والزينية التي تدعى أرض العناية .

وأحياءؤها أولها زقاق المحكمة ، والنحلاوي والسليمانية ، وزقاق البوص ، وزقاق العجة ، فباب البريد ، والبحرة الدفاقة ، وبين السورين ، وزقاق الضيق ، والسبعة طوالع ، والكلاسة ، والملك الظاهر ، والعمرى ، والنقيب ، والنارنجة ، وزقاق أمونة ، وزقاق المزابل ، والعداس ، والقزازين ، والسكاكري ، والمؤذن ، والنشاء .

في ثمن العمارة أيضاً الجامع الأموي ، وقلعة دمشق ، وسنصفها على حدة .

وفيه أيضاً الجامع المعلق ، وجامع السادات ، وجامع الجوزة ، ومسجد الأقباص ، ومسجد القوافين ، ومسجد السيدة رقية ، ومسجد العداس ، وفي

(١) العمارة : بكسر العين ما شيد من البناء ، وبفتحها : القبيلة العظمى .

شمال الجامع الأموي المدرسة الشميساطية ، والمدرسة الأخنائية والمدرسة الجقمقجية ، ومدرسة الكلاسة حيث مرقد صلاح الدين الأيوبي رحمه الله ، ثم المدرسة العزيزية والمدرسة الظاهرية حيث مرقد الملك الظاهر بيبرس وولده ، وهي المتخذة مكتبة عامة في يومنا هذا ، وتجاهها المدرسة العادلية الكبرى التي جعلت متحفاً للعاديات ، ثم المدرسة المرادية والقلبججية ، والنورية الكبرى التي تضم ضريح السلطان نور الدين محمود بن زنكي ، طاب ثراه ، ثم المدرسة النورية الصغرى في العسرونية ، والمدرسة العادلية الصغرى ، ومدرسة العسرونية ، ودار الحديث الأشرفية ، ومدرسة النحلاوي ، والريحانية والسليمانية والعبلية ، ومسجد بين البحرتين ، والمدرسة الأمينية ، والكاملية ، ومدرستان ابتدائيتان للحكومة ، وهما مدرسة الملك الظاهر ، والعمارة للبنين ، وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ، وضرار بن الأزور وأخته خولة بنت الأزور ، وشرحيل بن حسنة (رضي الله عنهم) .

ثم المحكمة الشرعية الكبرى ، ومحكمتا البزورية والعونية^(١) وباب الفراديس ، وباب الفرج ، ومقبرة الدحداح ، والذهبية .

ثم خان أسعد باشا ذو الباب العديم النظير في هندسته وزخرفته ، وخان العامود ، وخان الصواف ، وخان العمرانية ، وخان التتن ، وخان السفرجلاني ، وخان الحرير ، وخان الجمرك ، وخان المرباط ، وخان الزعفرنجية ، وخان الجواد ، وخان شيخ قطنا ، وخان المرادية ، وخان الصعب .

ثم حمام البزورية وحمام القيشاني ، وحمام السلسلة ، وحمام العقيق ، وحمام البوابجية ، والساكرة ، وحمام السلطان والعيلاني والعمرى وحمام أمونة .

(١) المحاكم الشرعية : كانت في الشام سبع محاكم شرعية للفصل في أمور الناس وقضاء حاجاتهم ، الأولى وهي الكبرى الباقية إلى اليوم في مدخل زقاق النحلاوي بين سوق الخياطين والنورية . والثانية محكمة القسم في غرفة خاصة من المحكمة . والثالثة في آخر سوق البزورية من الشمال ، والرابعة المحكمة العونية تجاه حارة المزابل في العمارة ، والخامسة في السنانية وراء جامع سنان باشا ، والسادسة في باب المصلى على شارع الميدان ، والسابعة في سوق الشراكسة بالصالحية .

ثم قاعتان لصنع النشاء ، ومصبغتان ، ثم المطبعة الحديثة ، والبنك السوري واللبناني ، والبنك الفرنسي السوري ، وبنك روما ، وبنك مصر ، وسوق الأوراق النقدية ، وأكبر المحلات التجارية . ثم المستشفى الإفرنجي على اسم القديس لويس ، والمستشفى الإنكليزي ، والقصاع .

٤ - ثمن القيمرية :

القيمرية^(١) في شرقي المدينة بين العمارة والشاغور ، تتألف من أربعة أقسام رئيسية هي القيمرية ، ومثذنة الشحم ، وحيّ المسيحيين ، وحارة الموسويين^(٢) .



صورة القيمرية

-
- (١) القيمر : طائفة من الأكراد جاءت فرقة منهم إلى الشام أيام صلاح الدين الأيوبي وخدمت في جيشه ، ومنها الأمير ناصر الدين الحسين بن علي القيمري المتوفى سنة (٦٦٥ هـ) ، وإليه ينسب هذا الحيّ لأنه أول من بنى فيه .
- (٢) كانت التسمية الرسمية لليهود في الدولة العثمانية (ولا تزال في تركيا اليوم) وهي : الموسويون .

فالقيمية تبتدئ من باب النوفرة ، فسوق القباقيبة ، وسوق الصاغة ، فزقاق
المصبغة الخضراء ، والنقاشات ، والحمزاوي ، وزقاق الصوف ، وزقاق القازي ،
والنقطة التاريخية ، والبدرائية ، وسوق القاضي ، وقناة الحطب ، وقناة أبي بكر ،
وزقاق الشطي ، والسيدة رابعة^(١) ، فزقاق الشاويش ، فزقاق المتن ، فالشيخ
عبد الله ، وزقاق المصبغة ، فالكردي ، فباب السلام ، وفي هذا القسم قصر بني
العظم الذي اشتراه الإفرنسيون وجعلوه داراً للآثار العربية ورفعوا عليه علمهم .

ومئذنة الشحم لها شارعها ، وشارع الخراب ، وفيها زقاق التبن وسوق
الصقالين ، وتلة السماكة ، وزقاق السلمي ، والناصري ، والبحيرة ، والأسعدية ،
وزقاق الملكة ، والمليحي ، والغمارات ، وتحت القناطر ، والقساطلية ، وزقاق
معاوية ، والشرفاء .

وحيّ المسيحيين أوله طالع الفضة أو طالع القبة ثم زقاق الكنيسة ، وساحة
الدوامنة ، وأسفل التلة ، ثم شارع السلطاني ، والمسك ، والمسبك ، وحرارة
الزيتون ، وزقاق حنانيا ، والباب الشرقي ، والفضية ، وزقاق جعفر ، والآسية ،
والمجدلية . ثم شارع باب توما ، والصفوائية ، والشيخ رسلان ، والقصاع .

وحيّ الموسويين يمتد من أمام طالع الفضة ، وفيه سوق الجمعة ، وزقاق
الأحمر ، وزقاق الكساتيب ، وتلة الحجارة ، وينتهي عند باب القروانة في
الشاغور .

ومن المعابد الإسلامية في القيمرية المدرسة البادرائية - التي كانت قديماً داراً
للبطيركية - ومدرسة فتحي ، والمدرسة العتيقة (المعروفة بمدرسة القطاط)
والمدرسة السعيدية ، ثم جامع المادنة ، وجامع الخراب ، وجامع المسك ،
والجامع الأحمر ، وجامع السقيفة ، ومقام السيدة رابعة^(٢) ، ومقام سيدي

(١) وهي أم الخير رابعة بنت إسماعيل العدوية مولاة آل عتيك البصرية المتوفاة سنة (١٣٥ هـ) .

(٢) هنالك سيدتان صالحتان باسم رابعة بنت إسماعيل : الأولى رابعة بنت إسماعيل العدوية ،
أم الخير ، مولاة آل عتيك البصرية . وعلى الرغم من أن معظم المؤرخين ذكروا أنها توفيت =

أبي قصب الخزرجي ، ومقام الشيخ صالح ، ومقام الشيخ رسلان بن يعقوب الجعفري المتوفي سنة (٦٦٩ هـ) ، ثم مسجد خالد بن الوليد (رضي الله عنه) .

ومن المعابد المسيحية الكنيسة المريمية الكبرى - وهي من بناء أرقاديوس قيصر الرومان - مقرّ البطريك الأنطاكي لطائفة الروم الأرثوذكس ، طولها سبعون ذراعاً وعرضها أربعون . ثم كنيسة المار يوحنا الدمشقي للروم الأرثوذكس أيضاً ، وكنيسة السيدة في حارة زيتون ، وهي مقرّ بطريك الملكيين الكاثوليك ، ثم كنيسة مار موسى الحبشي للروم الكاثوليك ، وكنيسة القديس جورجوس للسريان اليعقوبيين الأرثوذكس ، وكنيسة القديس غريغوريوس للأرمن الكاثوليك ، وكنيسة مار سركيس للأرمن القدماء ، وكنستان للطائفة الإنجيلية البروتستانت ، ودير العازرية ، واليسوعية وهو قسمان : قسم للراهبات ، وفيه مدرسة للبنات ، وقسم للربان وفيه مدرسة للبنين ، ودير الفرنسيسكان ودير مار أنطونيوس للموارنة .

وللموسويين كنائس متعددة أشهرها كنيس سوق الجمعة ، ولهم مواسمهم .

وفي القيمرية الثكنة العثمانية ومدرسة التجهيز والمعلمين التي اشتهرت باسم مكتب عنبر ، وهو اسم صاحبها قبل أن تدخل ملك الحكومة ، ومدرستان ابتدائيتان وهما مدرسة الحبال ومدرسة الكوافي ، ثم مدرسة القيمرية للبنات ، ومدارس متعددة لسائر الطوائف أهمها مدرستا التجهيز للروم الأرثوذكس والكاثوليك .

وفي هذا الثمن حمام النوفرة المعروف بحمام الذهبية أيضاً ، وحمام أسامة ، وحمام القاري ، وحمام الخراب ، وحمام المسك ، وحمام البكري ، وحمام الشيخ رسلان .

= في القدس سنة (١٣٥ هـ) ، فالأرجح أنها توفيت في البصرة سنة (١٨٥ هـ) . أما الثانية ، فهي رابعة بنت إسماعيل السورية [ويكتب بعض المؤرخين اسمها راعة - ومنهم اليافي في روض الريحان ص ١٤٠ ، وابن الجوزي في صفة الصفوة ص ١٤٢] وكانت سيدة متزوجة ، عاشت وماتت في سورية (١٣٥ هـ) ، قبل سميتها الشهيرة بنحو خمسين عاماً ، وقد اشتبه الاسمان على المؤرخين . ولعل اسم رابعة الذي يشير إليه المؤلف يعود إلى السيدة الثانية ، انظر : Margaret Smith, Rabi'a The Mystic Her Fellow-Saints in Islam, :

Cambridge University Press Cambridge, 1928, pp 45 & 1400

ثم خان النحاس ، وخانات متعددة لسكن المكارين ، ومعامل للنسيج والحيامة ومعامل النعسان ذي الأشغال البديعة بين خشبية ونحاسية ، ثم معمل الزجاج والدباغة الفنية ، وعدة دباغات قديمة ، ومصبغتا القيمرية والخراب . ثم الباب الشرقي ، وباب توما وباب السلام ، ومقبرة الشيخ رسلان للمسلمين ، ومقابر المسيحيين والموسويين .

٥ - ثمن الشاغور^(١) :

الشاغور بين القنوات والقيمرية يتدّى من باب الجابية فسوق المرادية ، وسوق مدحت باشا ، وسوق جقمق ، والخياطين ، والمنجدين ، وسوق القطن ، والحبال ، وسوق الصوف ، والخريزاتية ، والدقاقين ، والباشورة ، والسروجي ، والقراونة .

يتألف الشاغور من أزقة البرغل والعامود ، وعدر ، والمبلط ، والمرستان ، وزقاق هو زقاق الخضيرية ، والباغوشية ، والصمادية ، وزقاق طاحون السجن ، وزقاق حمام ركاب ، والشماعيين ، والدقاقين ، وزقاق القوتلي ، وحارة الزط ، والقراونة ، والمرقي ، والنحاتة ، وزقاق الشيخ ، وزقاق النونو ، والتربة ، والبستان ، وتحت المئذنة ، وبين الترتين ، وزقاق المعصرة .

وفيه جامع شركس ، والقلعي ، وهشام ، ومسجد الخريزاتية ، والمدرسة الأحمدية ، والخياطين ، والخضيرية ، والباغوشية ، والصمادية ، والباشورة ، وجامع الشماعيين ، والسروجي ، والمزار ، وجامع الجراح ، وجامع مسعود .

ثم مقبرة الباب الصغير وفيها قبور آل البيت الكريم ، الإمام زين العابدين^(٢) ، والسيدات خديجة ، ورقية ، وأم كلثوم ، وأم حبيب ، وزينب الكبرى ، وسكينة ، والصحابي الجليل بلال بن رباح الحبشي (رضي الله عنهم) .

(١) الشاغور : من الشغور ، هو خلّو البلد من حافظ يمنعه ، والظاهر أنه كان قديماً خالياً من السكان ، فأطلق عليه هذا الاسم .

(٢) وقيل : إنه مدفون في المدينة المنورة .

وفي هذا الثمن حمام القاضي ، وحمام المرستان ، وحمام الخياطين ، وحمام الباشا ، وحمام ستي عدار ، وحمام ركاب ، وحمام الصيفي ، وحمام السروجي .

ثم البيمارستان النوري الذي اتخذ مدرسة للبنات ، وخان الزيت ، وخان الدكة ، وخان سليمان باشا المعروف بخان الحماسة ، وخان الصنوبر ، وخان الجوخية ، وخان الدقيق ، وخانات متعددة لربط الدواب وسكنى الفلاحين ، ومعامل للنسيج والحياكة ، وحواصل للأخشاب ، وأتونات للكلس والآجر وصنع الحجر الرملي ، ثم مصبغتان ، وثلاث قاعات للنشاء ، وثلاث مصابن ، ومعمل للزجاج القديم الذي يؤمن حاجات البلدة من الزجاج البسيط .

٦- ثمن الميدان التحتاني :

ويمتد الميدان^(١) التحتاني من السويقة ، فشارع الميدان المستطيل ، فخان المغاربة ، فالقبيبات ، فزقاق الأربعين ، فزقاق الأورفه لي ، فزقاق الغنم ، والنقشبندي ، والقبة الحمراء ، وأبي مائلة ، والتيامنة ، وباب المصلّى ، وزقاق القملة ، والنشاء ، والموصلي ، والتنورية ، والقرشي ، والجوهرة ، وزقاق العسكري ، والمحمص ، وزقاق البصل .

وفيه مسجد التاريخ ، وجامع صريب ، وجامع الزاوية ، وجامع الغواص ، والرفاعي ، وجامع بشارة ، وجامع منجك والكريمي ، ومدرسة الخانكية ، ومدرستان أميريتان للبنين والبنات .

(١) الميدان لغة هو المكان المعدّ لسباق الخيل ، وفي دمشق أطلق على الساحات الغربية والجنوبية الواقعة خارج السور ، وقيل للأولى الميدان الأخضر أو الأزرق ، وقد بقيت اليوم منها قطعة المرجة على جانبي طريق العجلات بين صدر الباز والتكية السليمية ، والثانية ميدان الحصى وهو الذي تألف من ثمني الميدان التحتاني والميدان الفوقاني في جنوب المدينة وكان الناس فيما مضى يتسابقون على الجياد في هذين الميدانين . قال الشاعر المغربي القديم من زجل :

هذه الشقراء والأخضر والميدا ن اركبوا وانزلوا
وميدان الحصى كان إلى زمن قريب فسيح الأرجاء كثير الأنحاء ثم غمرته النباتات مع الأيام .

وفيه حمام الزين ، وحمام السويقة ، وحمام سنقر ، وحمام الناصري .
ثم كنيسة للروم الأرثوذكس باسم القديس حنانيا ، وكنيسة للروم الكاثوليك ،
ومدرسة لكلتا الطائفتين .

وفي الميدان تباع الحبوب بأنواعها في حوانيت فسيحة تسمى بوايك (جمع
بايكة) وفيه أهراء كبيرة لخزن الحبوب وكثير من الخانات والأحواض (جمع
حوض) لربط الدواب ، والجمال وإيواء الفلاحين ، وثمّ مصانع متعددة لأعمال
مختلفة ومعامل للنسيج والحياكة وقاعات للنشاء .

٧ - ثمن الميدان الفوقاني :

الميدان الفوقاني في منتهى المدينة من جهة القبلة ، يمتدّ من سوق الجزماتية إلى
بؤابة الله (باب مصر) وفيه سوق الجزماتية ، والقاعة ، وساحة عصفور ، وساحة
بحصيص ، والراقية ، وزقاق الطالع ، وزقاق البرج ، وزقاق الماء ، وأبي حبل ،
والمشاركة ، والحارس ، والجمالة ، والغلاينية ، والنصاري ، وزقاق قيصر .

وفيه جامع الدقاق ، وزاوية الشيخ سعد الدين الجبائي ، ومسجد العسالي ، ثم
الحمام الجديد ، وحمام الدرب ، وحمام التوتة ، وحمام منجك ، وحمام
الرفاعي .

ثم معمل السكة الحديدية الحجازية ، ومحطة سكة حديد بيروت وتمديداتها ،
وثكنة المتطوعة ، والثكنة العزيزية .

٨ - ثمن الصالحية :

ثمن الصالحية^(١) من أوسع الأثمان دائرة وأبهاها منظراً ، يبتدىء من بؤابة
الصالحية آخر حيّ سوق ساروجة أمام المستشفى العسكري على الطريق الحديث
القديم الذي هو في شكله وطراز بنائه لا يشبه الحديث ولا القديم ، جدران من

(١) الصالحية : حيّ قديم على سفح قاسيون عرف بهذا الاسم منذ أيام الملك الصالح نجم الدين
أيوب حيث ابنتى فيه قصراً ، وكان قبلاً يعرف بسفح قاسيون فقط .

تراب ، وسقوف من المساطيح^(١) تؤلف دوراً اكتظت بعضها ببعض ، فلا هندسة ولا نظام ولا هواء ولا ماء ، وكل ما فيها باب ونافذتان تسخران من بانيها وتستغيثان بساكنيها ، وبعد أن كانت طوابقها السفلى من ذات البناء حولوها إلى حوانيت ، وجعلوها على شفا جرف هار .

تمتد هذه الطريق إلى الجسر الأبيض ، وهي ثلاثة أقسام : الشهداء ، وعرنوس ، والجسر . تتألف من أزقة شرف ، والجارية ، والعيطة ، والبنفسج ، والسبيل ، والتكريتي ، والشهداء ، وبنديق ، والمعصراني ، ودك الباب ، والحلواني ، وعرنوس ، وأوزبك ، والرئيس ، والحيات ، والقذّاح ، والحللات ، والمؤيد .

ومن الجسر تتفرع الطريق إلى أربعة فروع : الأول ، وهو الأيمن ، شارع الشيخ الأكبر المتصل بحيّ الأكراد ، والثاني شارع المقدم الموصل إلى سوق الشركسية^(٢) ، والثالث شارع أبي تقالة النافذ إلى حيّ المهاجرين ، والرابع ، وهو الأيسر ، طريق الدواسة المدعو اليوم شارع نوري باشا ، أول بان فيه .

وشارع الشيخ الأكبر يبتدىء من الجسر فوق أبي جرش ، فزقاق الشيخ عبد الغني ، فزقاق الشعارة ، والترياق ، والزباني ، والحنبلة ، والمسكي ، والنحاس ، والشيخ ، والحللات ، والميسات ، وينتهي عند جامع سعيد باشا في آخر حيّ الأكراد .

(١) المساطيح : جمع مسطیجة بمعنى الأعواد ، وهي القنطرة . مولدتان ومعروفتان منذ القديم ، ومهما يكن من أمرهما فليس فيهما شيء من سوء الأدب كالمادة التي جعلها ابن منير الطرابلسي المتوفى عام (٤١٨ هـ) موضوعاً لقصيدته الرائية الشهيرة في مدح الشريف الرضي وهو محمد بن الحسين بن موسى العلوي المتوفى سنة (٤١٦ هـ) ، سامحهما الله .

(٢) شارع الشركسية ، شاده الأمير أبو المنصور فخر الدين جهاركس بن عبد الله الناصري الصلاحى من أمراء الدولة الصالحية المتوفى بدمشق سنة (٦٥٨ هـ) . وجهاركس معناها (أربعة رجال) ، دعي بذلك لقوّته وبسالته ، والأصل شركسي ، وهو اسم القبيلة التي أنجبته .

وشارع المقدم فيه زقاق الرباط ، والشراباتي ، وعبد ربه ، وسنبل ،
والنواير .

وشارع أبي تقالة يؤدي إلى سفح الجبل الذي كان أجرد خالياً من الزرع
والضرع ؛ لوقوعه تحت أشعة الشمس المحرقة صيفاً وشتاء ، وليس فيه ماء لترطيب
حرارته^(١) .

وكانت عليه مقبرة قديمة درست مع الأيام فخصصته الحكومة لسكنى مهاجري
الأتراك الذين هاجروا من بلاد الروم عقب حرب (١٢٩٣هـ / ١٨٧٦م) ، وملكهم
ما يحتاجون إليه من أرضه ، فأقام كل منهم سكناً لعائلته . ثم أنشأ الوالي ناظم باشا
لنفسه داراً في آخر الحي ، وجرّ إليه ماء الفيحة ونور الكهرباء ، وجعل حافلات
تروح وتغدو إليه في الليل والنهار ، وأخذ الأطباء يوصون مرضاهم بسكنى الجبل
لجفاف أرضه واعتدال هوائه .

ولما زار الإمبراطور غليوم قيصر الألمان مدينة دمشق نصب له سرادق فخم على
سفح الجبل وفوقه دكة مصطبة مطلة على الغوطة الغناء ، فراقت له ولمن زاره تلك
المناظر البديعة ، واجتمعت كل هذه الدعايات وأشرقت في نفوس القوم ، فأسرعوا

(١) من غرائب المصادفات أن بهاء الدين بك مكتوبجي الولاية السورية أيام الوالي حمدي باشا
عام (١٣٠٠هـ) لاحظ الاستفادة من هذا السفح الذي كان مهملاً لا يملكه أحد فاشتره من
الحكومة لنفسه بخمسين ريالاً مجيدياً ، أي نحو عشرة دنانير فقط . وهي قيمة الجبل بحسب
أسعار الأرض والأماك في ذلك الوقت ، وأخذ به سند تمليك (طابو) بحدوده من قرب دار
سعد الدين باشا إلى قبة السيار ، وهي مسافة خمسة كيلومترات تقريباً ، وبعد مدة توفي
الوالي واضطر بهاء بك للعودة إلى العاصمة ، وكان له صحبة مع أولاد المرحوم مؤيد باشا
العظم ، فعرضه عليهم بمئة دينار ليستعين بها على نفقة السفر وكان تكليفه للمرحومين
عبد الله بك ، وشفيق بك اللذين استجابا لطلبه خجلاً منه ، وعرضاً لثالث الصفقة على أخيهما
المرحوم عبد القادر بك ، فتركاها لأن الجبل قاحل لا يصلح للزرع ، فأقاما مقامه الشيخ
عبد الرحمن المراكشي ، فقدموا منها إلى الحكومة ما يكفي المهاجرين ليتدنوا بعمارة الجبل
وسكنها ، واحتفظا بالباقي ، فباعا منه ما شاء الله ، وما زال بعضه في أيدي ورثتهما إلى
الآن .

لشراء حصص أولئك المهاجرين الذين أخذوا بالرحيل عائدين إلى بلادهم ، وكانت قيم تلك الحصص تختلف بحسب اختلاف الوقت وحالته الاقتصادية ، فقد بيعت القصبة أولاً بدينار واحد ، ثم تصاعدت تدريجياً حتى بلغت الأربعين ديناراً في الشارع الأول ، أما الآن ، فقد هبطت تلك الأسعار هبوطاً عظيماً بسبب الأزمة الاقتصادية العامة .

يتألف سفح الجبل من سبعة شوارع مبنية على السطح المائل ، الواحد فوق الآخر ويسمى الشارع الأول شارع ناظم باشا أو شارع الترام ، والثاني شارع جبار آغا ، والثالث شارع الشمعة ، والرابع شارع الشيخ ظيان ، والخامس شارع المكتوبجي ، ثم شارعان آخران ، وكلها تمتد من الشرق إلى الغرب ، وتنتهي اليوم عند قهوة أكليل بك .

وهذه الشوارع تتخللها أزقة مسماة غالباً باسم من بنى فيها أول بناية كزقاق المهندسين ، وزقاق الباشكاتب ، وزقاق الأفرم ، وزقاق الخاتون الراغبية ، والشمسية ، والدرج ، والمصطبة ، والفرن ، والوادي ، وغيرها .

وفي ذلك الحي ثلاثة جوامع : الأول جامع الشمسية الذي شاده السلطان عبد الحميد خان الثاني ، وجامع نافذ بك ، ثم جامع الأفرم القديم ، وفيه مدرسة ابتدائية للبنات وأخرى للبنين ، ومدارس أهلية متعددة ، ومعمل لنسج الحرير للخواجة إبراهيم المزهر .

ومن المهاجرين إلى جهة الشرق يمتد شارع السكة ثم شارع المدارس الدوارسي ثم سوق الشركسية الذي يتصل بسوق أبي جرش المار ذكره . وهذه الشوارع تتألف من أزقة الفواخير ، والخيزران ، والأولياء ، والسقا ، والماوردي ، والمختار ، وبئر التوبة ، وزقاق المحكمة ، وعروذك ، والرباط ، والمعاصر ، والشيخ قاسم ، والشيخ قيمر ، وزقاق جبران ، وزقاق الأسد .

أما الجوامع الباقية في الصالحية هي : جامع الماردانية على الجسر الأبيض ، وجامع الدلامية ، والركنية ، والجامع الجديد ، وجامع أبي تقالة ، وجامع

الفاخورة ، والأتابكية ، والجامع الصغير ، ثم جامع الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي ، وجامع التكريتي ، وجامع الحنابلة^(١) ، وجامع الشيخ عبد الغني ، والعريّة ، والعاجية ، وأبي النور ، وشمدين آغا ، وجامع جسر النحاس ، والقبارة والزينية ، ثم جامع سعيد باشا .

ومن الجسر إلى بوابة الصالحية مدخل سوق ساروجة يوجد عدا جامع الجسر ، جامع دك الباب ، وجامع النشواني ، وجامع الشعلان ، ثم جامع الشهداء القديم . وعلى الطريق نزل بغداد ، والمستشفى العسكري ، ومخفره ، والحقل الزراعي ، ومحل سينما جناق القلعة الذي اتخذ مجلساً للنواب ودائرة النافعة ، ودار المعلمات ، ومدرسة عرنوس للبنين ، ومدرسة الشهداء للبنات . وفي الصالحية أربع مدارس حكومية أخرى ، وهي مدرستا الجديد والصالحية للبنات ، والعيّيف ، والأكراد للبنين ، ومن الزيارات والمقامات المباركة مقام نبي الله ذي الكفل عليه السلام ، ومقام رجال الكهف ، ومقام الشيخ الأكبر ، والشيخ عبد الغني النابلسي ، ورجال الأربعين ، ومقام الشيخ خالد النقشبندي ، ثم قبور حرملة بن وائل ، وجابر بن مسعود من شهداء الفتح الإسلامي .

ولغير المسلمين كنيسة للسريان الكاثوليك في زقاق الفواخير ، وكنيسة لإخوان المحبة (فرير) باسم القديس أنطونيوس في زقاق الجارية أو شارع البرلمان ، ودير للفرنسيسكان يحوي مدرسة للبنات باسم القديسة جاندارك ، ثم كنيسة الطليان ومدرستهم ومستشفاهم في زقاق الرئيس على الشارع .

وفيه أيضاً مدرسة الترجمة ، ودار البريد الإفرنسي ، ودور البعثة الإفرنسية ، وخزينة الجيش الإفرنسي ، ودائرة الميرة الإفرنسية ، ودائرة الدرك الإفرنسي ، والمدرسة العلمانية الإفرنسية للبنين والبنات ، والمدرسة الأميركية للبنات ، ثم دور قناصل عدة .

(١) جامع الحنابلة أنشأته على سفح قاصيون ربعة خاتون بنت أيوب أخت السلطان صلاح الدين المتوفاة سنة (٦٤٣هـ) .

وفي الصالحية حمام الجسر وحمام العفيف ، وحمام المقدم ، وحمام الحاجب ، وكلها في الأحياء القديمة ، أما الأحياء الحديثة فليس فيها حمام عام ، لأن أغلب دورها لها حمامات خاصة تغني عن الحمامات العامة كما أسلفنا .

جادة الدرويشية :

بين السنجقدار وساحة باب الجابية ، وعُرفت في السابق باسم : الأخصاصية أو الأخصاصيين نسبة لباعة الأخصاص وهي الأقفاص^(١) .

جادة السكة :

كانت قديماً الطريق الواصل بين غربي المدرسة الجهاركسية في جادة المدارس في الصالحية وبين رأس جادة العفيف ، ثم تدعى بعد ذلك بخان السبيل . ثم صارت هذه التسمية تُطلق على ألسنة الناس على طريق المهاجرين [شارع ناظم باشا] ، بين رأس جادة العفيف وساحة خورشيد أو ساحة آخر الخط [ساحة ذي قار اليوم] . وكلمة السكة كانت في السابق تعني : الطريق المؤدية إلى ، ثم صارت تعني (سكة الحافلات الكهربائية أي الترام) . وتعرف جادة السكة أيضاً باسم : حارة السكة ، وطريق السكة^(٢) .

جادة السنانية :

السوق المغطى بين باب الجابية وسوق الغنم من خارج السور ، تنسب تسميتها للمجموعة العمرانية التي أمر بإقامتها في العهد العثماني سنة (٩٩٨ هـ) والي دمشق سنان باشا ، تألفت من جامع [جامع السنانية اليوم] ومكتب وسبيل^(٣) .

(١) (دمشق تاريخ وصور للشهابي) ٢٦٧ .

(٢) (القلائد الجوهريّة لابن طولون ١/٣٥٧ ح ٢ ، ٢٨٦ ح ١ ؛ معالم دمشق التاريخيّة للإيش والشهابي ٢٨٨) .

(٣) (مناداة الأطلال لبدران ٣٧٩ ؛ دمشق تاريخ وصور للشهابي ٣٠٠٢ ؛ معالم دمشق التاريخيّة للإيش والشهابي ٢٩٤) .

جادة السنجقدار :

تمتدّ بين ساحة المرجة ومدخل سوق الحميدية ، تنسب لجامع السنجقدار المشهور بها ، سميت بذلك نسبة للسَّنَجَق ، والكلمة تركية مؤلفة من (سَنَجَق دار) وتعني : حامل الراية ، وهي العَلَم أو البيرق الذي كان يُحمل في احتفال محمل الحج ، والذي كان يودع في هذا الجامع يوماً وليلة ، وقد نسجت العامة حول هذا التقليد أسطورة فقالوا إن المدفون في الجامع هو الصحابيّ العباس بن مرداس حامل لواء الرسول ، ومن هنا أطلق لقب (السنجقدار) أي حامل لواء الرسول .

وللعامة - كما هي العادة - تفسير شعبي للاسم « السنجقدار » أنهم كانوا يدورون بالسنجق في الجامع حول ضريح الصحابي المذكور فيقال إذاً : « السنجق دار » . لكن الحقيقة التاريخية تثبت أن المدفون في الجامع هو بانيه نائب السلطنة المملوكية آرغون شاه الناصري المتوفى سنة (٧٥٠هـ) . وقد نظمت جادة السنجقدار نحو سنة (١٩١٦م) ، ثم تعرّضت إلى حريق كبير سنة (١٩٢٨م) وامتدّت النار من سينما (الناصري) عند زاوية جادة .

الحريقة :

الحريقة منطقة واسعة في دمشق محصورة بين الدرويشية غرباً وسوق الطويل (مدحت باشا) جنوباً ، وسوق الحميدية شمالاً والبزورية شرقاً ، وهي الآن شوارع واسعة متقاطعة ، ومن أهم المناطق التجارية في المدينة ، وكانت في القديم حياً واسعاً يسمى (سيدي عمود) فيه أوسع الدور وأحفلها بالتحف والزخارف ، وهي مساكن الأغنياء وأبناء الأسر الكبيرة المترفة ، وقد أحرق الفرنسيون هذا الحي في ثورة (١٩٢٥-١٩٢٨م) انتقاماً من المدينة التي كانت تستر على دخول الثوار إليها من جهة الشرق والشمال لمهاجمة مراكز الفرنسيين في قصر العظم وغيره ، وأطلق الناس على هذه المنطقة اسم (الحريقة) على الرغم من أنها عُمُرت كلها ووُضِعَت أسماء عديدة لساحاتها وشوارعها ولكن بقي الاسم الغالب عليها (الحريقة) . ومما يذكر أن هذه المنطقة كانت في الماضي السحيق من أهم أحياء دمشق ، داخل السور

وكانت تسمى حجر الذهب ، وقد أظهرت بعض الحفريات فيها آثار قصور قديمة على عمق ثلاثة أمتار ، كما عثر فيها على نقود ذهبية وفضية وتحف .

بين السورين :

زقاق في دمشق القديمة بين بابي الفرج والفراديس (بابي المناخلية والعمارة) وكان يسمى (حي الخضيرية) وكان اسم (بين السورين) يطلق على حي في باب الجابية .

وبين النهرين :

كان يطلق على الجزيرة في ساحة المرجة (ساحة الشهداء) بدمشق قبل أن يغطي نهر بردى فيها ، فهو ينقسم قسمين يشكلان جزيرة تدعى (بين النهرين) ، وجرت تغطية النهر في ساحة المرجة قبل حوالي ثمانين سنة ، وصفت حالة (بين النهرين) كما كانت قديماً أنها كانت مشتملة على دور وقصور وسوقة فيها حانوت طباخ وصاجاني وقطفاني ، وفقاعي وحواضري ، وفاكهاني وأمثالها ، وعدة مقاعد للجلية ، وحمام وقنطرة يتوصل منها إلى جزيرة لطيفة ، من رأسها ينقسم نهر بردى فيصير نهرين ، والمقسم منه هو (نهر الشيخ أرسلان) ، وبها مقصفاً للبطالين فيما بين المقسمين ، وكان في قبالتها زاوية يقال لها (زاوية الشاب التائب) يقام بها يومي السبت والثلاثاء أوقات للوعظ ، ويتوصل منها إلى زقاق الفرائين المشتمل على قاعات وأطباق وغرف مطلة على نهر بردى .

* * *

الحارات والدروب والأزقة

وقبل أن نخرج من الحديث عن جغرافية دمشق القديمة وتطورها ، إلى الحديث عن أهم معالمها الأثرية ، قد يكون من المفيد إيراد الثبت التالي الذي يتضمن ذكر أهم حارات دمشق القديمة ودروبها وأزقتها :

- | | |
|----------------------|--------------------|
| ١- الإخصاصية | ٢- أرزة |
| ٣- أرزونه | ٤- الأوزاع |
| ٥- باب توما | ٦- باب الجابية |
| ٧- باب السريجة | ٨- باب السلام |
| ٩- باب شرقي | ١٠- باب الصغير |
| ١١- باب الفراديس | ١٢- باب الفرج |
| ١٣- باب كيسان | ١٤- باب النصر |
| ١٥- برج الروس | ١٦- بيت أبيات |
| ١٧- بيت لهيا | ١٨- بيت النهرين |
| ١٩- حارة الإفتريس | ٢٠- حارة الأندر |
| ٢١- حارة البادرائية | ٢٢- حارة البغيل |
| ٢٣- حارة بلاطة | ٢٤- حارة البلاطنسي |
| ٢٥- حارة بير الأكراد | ٢٦- حارة الجنيق |
| ٢٧- حارة الحاطب | ٢٨- حارة الحمالين |
| ٢٩- حارة الحلوانيين | ٣٠- حارة الخضراء |

- ٣١- حارة الزنجيلي (الجزيرة)
٣٣- حارة السلاوية
٣٥- حارة السمرة
٣٧- حارة الشركس
٣٩- حارة العنابة
٤١- حارة عين اللؤلؤة
٤٣- حارة الغرباء
٤٥- حارة القصر
٤٧- حارة القيشاني
٤٩- حارة الكنيسة
٥١- حارة مسجد البيع
٥٣- حارة المغاربة
٥٥- حارة الملاح
٥٧- حارة الهنود الشبلية
٥٩- حارة حجر الذهب
٦١- حارة حض الثقفين
٦٣- حارة حكر الفهادين
٦٥- الخلخال
٦٧- دار البطيخ العتيقة
٦٩- دار الذهب
٧١- دار الطعم
٧٣- دار العقيقي
- ٣٢- حارة السعادة
٣٤- حارة السليماني
٣٦- حارة الشبلية
٣٨- حارة الشعيرية
٤٠- حارة عين
٤٢- حارة العزاوية
٤٤- حارة القبان
٤٦- حارة القط
٤٨- حارة الكشك
٥٠- حارة المخاضة
٥٢- حارة مسجد الراس
٥٤- حارة المغاني
٥٦- حارة النيطون
٥٨- حارة الحجاجية
٦٠- حارة الحريمين
٦٢- حارة حكر الآسية
٦٤- خط المواطنين
٦٦- دار البطيخ
٦٨- دار الخيل
٧٠- دار السعادة
٧٢- دار الطعم العتيقة
٧٤- دار الفلوس

- ٧٥- درب البياعة
٧٧- درب كشك
٧٩- درب حمام القاضي
٨١- درب الريحان
٨٣- درب القرب
٨٥- درب الكنيسة المصلبة
٨٧- درب الهاشميين
٨٩- الدهيناتين
٩١- رجة الخاطب
٩٣- زقاق ابن مفلح
٩٥- زقاق الزطي
٩٧- زقاق المعاصي
٩٩- زقاق الزلاقة
١٠١- زقاق السهم الأعلى
١٠٣- زقاق السويقة
١٠٥- زقاق الشرف الأعلى
١٠٧- زقاق عقبة الصوف
١٠٩- زقاق العقبة
١١١- زقاق العونية
١١٣- زقاق القبيبات
١١٥- زقاق القصاعين
١١٧- زقاق قناة البريدي
- ٧٦- درب البغيل
٧٨- درب الحجر
٨٠- درب الخزاعين
٨٢- درب الشعارين
٨٤- درب العجم
٨٦- درب كيسان
٨٨- الدهشة
٩٠- دير حران
٩٢- رجة خالد
٩٤- زقاق الإقميم
٩٦- زقاق القرعوني
٩٨- زقاق الوزير
١٠٠- زقاق السهم الأدنى
١٠٢- زقاق سوق ساروجة
١٠٤- زقاق الشرف الأدنى
١٠٦- زقاق السلاحة
١٠٨- زقاق عقبة الكتان
١١٠- زقاق العنبرانية
١١٢- زقاق القباقيب العتيقة
١١٤- زقاق القراونة
١١٦- زقاق القعاطلة
١١٨- زقاق قناة العوني

- | | |
|----------------------------|-----------------------------|
| ١١٩- محلة السبعة | ١٢٠- مسجد الزبان |
| ١٢١- المطرزين | ١٢٢- مقري |
| ١٢٣- المنيع | ١٢٤- ميدان ابن أتابك |
| ١٢٥- ميدان الحصى | ١٢٦- ميدان الشرف الأعلى |
| ١٢٧- ميدان المرجة | ١٢٨- الميطور |
| ١٢٩- النحاسين | ١٣٠- النشابين |
| ١٣١- النطايعين | ١٣٢- الوراقه الشرقيه |
| ١٣٣- الوراقه الغربيه | ١٣٤- حارة السبع طوالع |
| ١٣٥- حارة ناصيف باشا العظم | ١٣٦- زقاق عبد الهادي |
| ١٣٧- جادة الخضيرية | ١٣٨- جادة عبد الرزاق العرند |
- أخيراً ، لا بد من الإشارة إلى أن ذكر حارات دمشق وأزقتها القديمة ، لا بد أن يستدعي إلى الذاكرة سبل الماء التي كانت في تلك الحارات والأزقة ، وهو ما سأعرض له تالياً .

* * *

السبل في دمشق

السبل : مصدر لشرب الماء في الأزقة والدروب ، وغالباً ما يُشيد من قبل متبرّع ، وتعلوه عادة كتابات قرآنية وتاريخية عن روح من أقامه تبرّكاً وتقرباً إلى الله تعالى وفعل الخير ، وفي دمشق عدد كبير من السبلان القديمة والجديدة اليوم . وفي العهد العثماني بين السنوات (١٨٩٥ - ١٩١١ م) وزّع والي دمشق حسين ناظم باشا (٢٥٠) سبيلاً للشرب في أنحاء مدينة دمشق كانت تُعرف على ألسنة الناس باسم (الكباش) أو (الفيجة)^(١) .

دأب الإنسان منذ فجر التاريخ على إقامة تجمعاته السكانية عند ينابيع المياه أو بالقرب منها ، فأقام المدن وأنشأ الحواضر الخالدة التي ما زال بعضها قائماً يواكب الزمن ، وكانت مدينة دمشق القديمة إحدى تلك التجمعات ، هذه المدينة التي تتميز بالموقع الممتاز والمناخ المعتدل ، وبالأنهار التي تجري فيها محولة الأرض الجديدة التي تحيط بها إلى غوطة غناء ، حتى أصبحت المدينة كالزمردة الخضراء وسط بحر من الرمال .

وقد اهتم قاطنو دمشق ، منذ القديم ، بعملية جر المياه إليها لإرواء سكانها ، ففي العصر الروماني جرت مياه الشرب إلى المدينة بواسطة قناة ما زال بعض أقسامها قائماً حتى اليوم في أحد أحيائها الذي يدعى (قنوات) ، وكانت بعض مياه هذا النهر هي التي تسير في القناة الرومانية القديمة ، ويذكر أن نهر قنوات هو أحد الأنهار التي تروي دمشق وغوطتها .

وقد اتبع نظام فريد لإرواء المدينة حيث أقيمت خزانات على جانب ذلك النهر

(١) دمشق تاريخ وصور للشهابي ط ١ ، ١٥٩ .

الذي يخترق المدينة ، وتسمى هذه الخزانات بالطوالع ، وهي عبارة عن خزانات تقام على جانب النهر لتأخذ قسطاً معيناً من مياهه لإيصالها إلى حارات دمشق وبيوتها .

ولتوفير المياه للمارة في الطرقات من أهل المدينة ، أو من الوافدين عليها لقضاء حاجاتهم وإنجاز أعمالهم ، فقد وضع الولاة والأثرياء في أماكن عديدة من أحيائها ، وفي واجهات المساجد والتكايا والمدارس ، حنفيات أوصلت إليها المياه وتعرف هذه الحنفيات بالسبل (جمع سبيل) .

وفي بداية القرن العشرين قامت (مؤسسة مياه عين الفيحة) ، عند تأسيسها ، بجر المياه إلى المدينة ، فأحدثت (سبلاً) جديدة في الأحياء والطرقات والأسواق على شكل كبّاس ، ثم ألغى هذا النظام واستبدل بالصنبور . كما قام بعض الأهالي بتخصيص أماكن معينة في الطرقات وفي مداخل الشوارع والبيوت ، وأوصلوا إليها المياه على نفقتهم الخاصة ابتغاء الأجر والثواب من الله تعالى ، في ظاهرة من موروثة الماضي تدل على غيرة محبة .

وقد كان لهذه السبل أهمية كبيرة في حياة المدينة ، إلا أن التطور العمراني قضى على بعضها ، ونظام الري الحديث والسقاية فيها أدّى إلى تعطيل معظمها ، وقد بقي في مدينة دمشق مما بني منها في العهود الأيوبية والمملوكية والعثمانية ما يقرب من (مئة سبيل) ، هذا عدا السبل التي أقيمت حديثاً بعد العهد العثماني ، وسوف نقتصر في هذا الكتاب على إيراد مثال واحد على السبل التي بنيت في كل من العهدين الأيوبي والمملوكي ، وسنذكر ثلاثة أمثلة على السبل التي بنيت في العهد العثماني ، ويجدر بنا أن نذكر كذلك أن هناك سبلاً موجودة في دمشق لا يعرف العهد الذي بنيت فيه ، لعدم وجود كتابة تدل على تاريخ بنائها .

كما أن ياقوت الحموي صاحب معجم البلدان الذي عاش في القرن العاشر الهجري ، جعل هذا الأمر من خصائص دمشق فقال : « ومن خصائص دمشق التي لم أر بلدة مثلها كثرة الأنهار وجريان الماء في قنواتها ، فقلّ أن تمر بحائط إلا والماء

يخرج من أنبوب إلى حوض ليشرب منه الوارد والصادر ، ولا رأيت بها مسجداً ولا خانقاه ولا مدرسة إلا والماء يجري في بركة ضمن هذا المكان ، وكأن الماء محكم عليها من جميع نواحيها » .

ودمشق التي اشتهرت بحضاراتها المتعاقبة ، ومعالمها الرئيسة ، ومبانيها الهامة ، وقد حبا الله أهلها الذوق الرفيع في معاشهم ولباسهم ومساكنهم ، وابتكرت دمشق أنظمة للري لم يعرف التاريخ مثيلاً لها في أي حضارة خلت ، وامتازت حاراتها وأزقتها بكثرة السبل التي كانت المياه تفيض منها .

لقد لفتت كثافة تلك السبل أنظار الرحالة واهتمام المؤرخين في كل العهود فأشاروا إليها في مؤلفاتهم ، وميزوا مدينة دمشق بهذه المشيدات التي لم تعرفها معظم المدن والعواصم العربية والإسلامية وقد حرص أهالي دمشق عليها وعلى نظافتها كل الحرص ، مما دفعهم للقيام متطوعين وبشكل دوري لتعزيلها وتنظيفها وتخليصها من الشوائب والعوالق التي تسقط فيها من وقت لآخر .

وفي مطلع القرن العشرين ، حيث قامت مؤسسة مياه عين الفيحة في بداية تأسيسها بجر المياه مباشرة من نبع الفيحة إلى أحياء المدينة ، وأحدثت سبلاً في الأحياء والطرق والأسواق على شكل مضخة ماء تعمل بطريقة الكبس وأطلق عليها اسم (الكبّاس) ، وبقي قسم منها يستخدم حتى العقد السابع من القرن العشرين ، ثم ألغي ذاك النظام واستبدل بالصنبور ، والكبّاس في اللهجة الدمشقية هو سبيل ماء (الفيحة) الذي وزع منه الوالي حسين ناظم باشا (٢٥٠) جهازاً لسقاية الناس من مياه عين الفيحة النظيفة في مدينة دمشق .

لقد كان الهدف من إشادة السبل في مدينة دمشق ظاهرة إنسانية تهدف إلى إرواء عابر السبيل مياه الشرب العذبة النقية في كل طريق وكل حارة ، فلم يكن زائر دمشق يعرف الظمأ وهو يصادف الفوهات السخية تنتظره عند كل منعطف .

أولاً - العهد الأيوبي من (٥٨٢ - ٦٤٨ هـ) (١١٢٨ - ١٢٤٥ م) :

وقد بقي من سبله خمسة سبل فقط :

سبيل زقاق الموصلية^(١) : يوجد هذا السبيل على جدار بيت (سليم الموصلية) سابقاً في حي الموصلية في منطقة الميدان ، ويمتاز هذا السبيل بجمال بنائه المشيد من الحجر ، والذي تزين جدرانه كتابة إسلامية تشير إلى إنشاء مسجد في هذا المكان تحول إلى بيت فيما بعد ، كما تشير إلى بناء السبيل المذكور ، وفيما يلي نص تلك الكتابة :

بسم الله الرحمن الرحيم

- حسبي الله - أنشأ هذا المسجد المبارك والسبيل المنار العبد الفقير إلى الله أجير محمد بن إسلام بن إسماعيل بن رشيد عفا الله عنهم والفراغ منه في شهر شعبان المعظم سنة سبع وثلاثين وست مئة ، وكانت وفاته يوم الخميس أول ذي الحجة تاريخه (كلمة مفقودة) سنة عفا الله عنه .

ثانياً - العهد المملوكي : من (٦٤٨ - ٩٢٢ هـ / ١٢٥٠ - ١٣٩٠ م) :
وبقي من سبله أحد عشر سبيلاً :

سبيل البريدي : يقع هذا السبيل في محلة البريدية بمنطقة السويقة ، وهو مسجل لدى المديرية العامة للآثار والمتاحف في عداد المباني الأثرية تحت رقم (ا ح) وبموجب القرار (٥١٩ / أ لعام ١٩٤٨ م) .

يمتاز سبيل البريدي بجمال بنائه المشيد من الحجر ، ويرجع تاريخ بنائه إلى العهد المملوكي ، وتشير الكتابات المنقوشة على جداره إلى أن منشئه هو : علاء الدين البريدي عام (٧٠٠ هـ) . وهذا نص الكتابة الموجودة عليه :

بسم الله الرحمن الرحيم

أنشأ هذه القناة المباركة العبد الفقير إلى الله تعالى علاء الدين البريدي رحمه الله

(١) ملاحظة : هذا السبيل غير صالح للاستعمال حالياً .

تعالى ورحم جميع المسلمين ورحم الله من سَبَل ورحم من شرب

لا إله إلا الله محمد رسول الله

سنة ٧٠٠ هـ .

وأيضاً سبيل الخزنة : من العهد المملوكي أنشأه الأمير سيف الدين جركس حاجب الحجاب سنة (٨٠٧ هـ - ١٤٠٤ م) ، يقع على الجانب الشمالي لسوق القطن قريباً من باب العجاية ومواجه لجامع الأمير جركس ، يعلوه قوس حجري منحوت مدبب ، وفي كل زاوية منه صدفه محززه يعلوها تاج حجري صغير مقرنص يحمل قوساً محزراً ، وفوق السبيل لوحة جدارية كتابية مملوكية ، وجدرانه مبنية من الحجر الأبلق .

ثالثاً - العهد العثماني : من (٩١٨ - ١٣٤٢ هـ) :

وبقي من سبله سبع وأربعون سبيلاً :

سبيل (أبي الشامات) :

يقع هذا السبيل في الواجهة المقابلة لزاوية (أبي الشامات) في منطقة القنوات ، حي البلطجية ، وهذه المنطقة مسجلة في عداد المواقع الأثرية ، والسبيل المذكور يعود بناؤه إلى العصر العثماني المتأخر عام (١٣١٤ هـ) . ولسبيل أبي الشامات إطار رخامي جميل تعلوه لوحة منقوش عليها ما يلي :

حدث عن الساقى القدير وهات	صافى الشراب بألطف الكاسات
فلمثله هذا السبيل وقصده	قد شيداه مظهر الخيرات
هذا أمير السالكين وعمدة	التحقيق محمود أبو الشامات
واذخل لبيت الله ذا طهر به	والثوب طهر جاء في الآيات
باشا رفيق شمع العصر التي	ضأت بأحمد سيد السادات
فجزاهم يوم الجزاء شراهم	أرخ به من كوثر الجنات

سبيل جامع العريشة (جامع السادات الصغير)^(١) :

يوجد السبيل المذكور على الواجهة الغربية لجامع العريشة الواقع في منطقة باب
توما ، وعلى الطريق العام ما بين باب توما - القشلة - ويمتاز هذا السبيل بجمال بنائه
المزخرف بزخارف نباتية مكتوبة ضمن إطار حجري نقش عليها الكتابة التالية :

الله

أجرى لنا ماءً فراتاً	سائغاً يروي العطاشا
أميرنا المنصور من قد	زاده الخير انتعاشا
أروى ظمنا مسجدا	بيت الإله ففيه عاشا
تاريخه بيت سما	أوج العلا وزها انتعاشا
انهل هنيئاً داعياً	للنصر لإبراهيم باشا

سنة (١٢٣٠ هـ)

سبيل جامع الشيخ يعقوب :

يقع هذا السبيل في حي الميدان حقله ، على الواجهة الغربية لجامع الشيخ
يعقوب ، وهو من الحجر ، وله قوس مرتفعة تقوم فوقها مئذنة جميلة من الحجر
الأبيض والأسود ، تزين جداره لوحة حجرية مربعة الشكل عليها كتابة تشير إلى باني
السبيل ، تعلوها زهرة نافرة من الحجر ، وهذا نص الكتابة الموجودة على اللوحة
الحجرية :

بسم الله الرحمن الرحيم

أجرى لهذا السبيل من طه سبيل المصطفى

هو طالب المدعو مزال عقيل الشرفا

فاشرب هنيئاً إنه من شربه فيها الشفا

سنة (١٢٢٨ هـ)

(١) هذا السبيل غير صالح للاستعمال حالياً .

سبيل النرجس :

بُني سنة (١٢١٦هـ/ ١٨٠١م) ويقع على يمين المدخل الشرقي لمكتب عنبر بمنطقة الخراب ، واجهته من الحجر الأبلق ، ويعلوه قوس حجري منحوت بزخارف هندسية نباتية ، وداخله قوس حجري منحوت بزخارف هندسية مستند على تيجان منحوتة بزخارف نباتية . وتعلو السبيل لوحة كتابية زخرفية تحوي أبياتاً شعرية تبين سنة البناء .

سبيل السادات - الحمادي :

أنشأه الأمير المنصور احتفاءً بإبراهيم باشا وإرواءً لمرتادي جامع السادات الحمادي (١٢٣٠هـ/ ١٨١٤م) يقع على الواجهة الغربية لجامع السادات الحمادي وعن يمين مدخله ، في شارع باب توما .

بُني من الحجر الصقيل ، ويعلوه قوس حجري أندلسي منحوت بزخرفة نباتية بدیعة ، وفي داخله أبيات شعرية منحوتة .

وهناك مجموعة أخرى من السبل المجهولة التاريخ أو المُنْشِئ تجاوزت في تعدادها الستين سبيلاً ، وعلى هذا فإن السبل المتبقية في دمشق والتي أحصيناها جميعاً تقارب مئة وثلاثين سبيلاً . اندثر عدد منها أثناء توثيقنا لها ، فنسف بعضها وتحول الآخر إلى محلات أو دكاكين والقسم الأعظم منها معطل وغير مستخدم ومنها سبيل القلعي وسبيل المدرسة الأمانية وسبيل الحمزاوي وسبيل الیمارستان النوري وهذه بعض أسماء بعض السبل .

سبيل عين التينة - سبيل البحرة الدفاقة - سبيل الیمارستان النوري - سبيل سوق الحرير - سبيل المدرسة الأمانية - سبيل البزورية - سبيل خان أسعد باشا العظم - سبيل مقام السلطان نور الدين الشهيد - سبيل القلعي - سبيل الزاوية الصمادية - سبيل جامع الطغطفاية - سبيل جادة بحرة الأسعدية - سبيل مسجد اللطاعين - سبيل المدرسة العمرية - سبيل الحمزاوي - سبيل مسجد الكُتَّاب - سبيل جادة حمام سامي - سبيل مقام رابعة الدمشقية - سبيل المدرسة الفتحية .

دواليب دمشق

قلت : وجميع هذه المحاسن بالحواكير ، غير أن الماء لا يصل إليها إلا بجهد كبير لعلوها (عن نهر يزيد) فصنعوا لها الدولاب ودوروه بكل بهيم شديد ، وفيه يقول ابن لؤلؤ الذهبي :

حـاكَـوْرة دولا بهـا إلى الغصون قد شكا
من حين ضاع زهرها دار عليه وبكى

ودار في دولابه الصلاح الصفدي حيث قال :

أبدى لنا الدولاب قولاً معجباً لما رأنا قادمين إليه
إني من العجب العجيب كما ترى قلبي معك وأنا أدور عليه

والأصل فيه قول ابن تميم فيه :

تأمل إلى الدولاب والنهر إذ جرى ودمعهما بين الرياض غزير
وضاع النسيم الرطب والروض منهما فأصبح ذا يجري وذاك يدور



أهم المعالم الأثرية في دمشق

دمشق أقدم مدن العالم المأهولة ، يجد الزائر إلى ذلك الدلالات ، لكن دمشق كالجميلة الصعبة ، لا تظهر إلا لمن يسعى إليها في جد ، وهي كاللوحه التي لا يتذوق سحرها إلا من صقلته الخبرة بالفنون ، وعرف الاستماع إلى أصواتها . تقاطعت في دمشق طرقات التاريخ ، فجمعت كنوز الحضارة ، لكنها ابتليت كذلك بالغزاة الذين أحرقوها وسلبوها كنوزها ، فأخفت بالنقاب ما بقي منها لديها ، وأكدت فيها ذلك سمة العمارة العربية التي تخبيء الجناح داخل البيت ، وتصون فيه الفنون ، ولا تتبجح بالغنى ، ولا تعرض إلا الآثار التاريخية ، مركز الحياة العامة والثقافية والروحية ، لذلك لا يتبين الزائر خطوط دمشق الرقيقة إلا بعد جهد ، وحيث يساعده أهل الأحياء ويطمئنون إليه .

يلاحظ أنه على الرغم من غنى القطر العربي السوري بالعديد من المباني التاريخية العائدة للعصور الإسلامية التي بدأت مع الفتح العربي الإسلامي لدمشق سنة (١٤هـ / ٦٣٥م) فإن أغلب هذه المباني والعمائر الإسلامية بكل أنواعها وتعدد وظائفها سواء كانت عمائر دينية (جوامع ، مساجد ، مدارس ، خوانق ، أربطة ، زوايا ، تكايا . . .) أو عمائر عسكرية (قلاع ، أبراج ، أسوار ، بوابات) أو عمائر مدنية سواء منها أنواع العمائر التجارية (الأسواق ، الخانات ، الفنادق ، القيساريات . .) أو العمائر السكنية (قصور ، منازل ، بيوت . . .) أو عمائر الرعاية الاجتماعية (البيمارستانات ، الحمامات ، والأسبله ، والإسطبيلات . . .) تعاني من الأهمال والتعدي الذي صار على الرغم من الجهود التي بذلت من أهم الصفات الملتصقة بهذه العمائر وربما يعود ذلك لأسباب كثيرة من أهمها أن جلّ هذه الآثار الإسلامية ما زالت منتشرة في أماكنها داخل المدن القديمة التي لم تلبث في

العصر الحديث أن جُبَّت داخل التطور العمراني الحديث لهذه المدن ، هذا التطور الذي بدأ يلتهم الأحياء القديمة ويبدل ملامحها وروحها التراثية الأصلية إلى قوالب جامدة من الحديد والإسمنت ، وذلك في عملية إبادة للأحياء والشرائح المعمارية القديمة سواء منها الواقع داخل الأسوار بحجة الضرورات العمرانية والتطويرية ، أو خارج الأسوار بحجة حداثة هذه الأحياء علماً أن هذا خلط غير مبرر ، فمثلاً لقد مضى على نشوء حي سوق ساروجا سبعة قرون وهو في الواقع أحدث أحياء دمشق .

تكية دمشق السليمانية :

مجموعة عمرانية فخمة على ضفة بردى تلفت الأنظار بقبابها العديدة ومئذنتيها الممشوقتين وحدائقها وأشجارها الباسقة ، شيدت هذه المنشأة العثمانية على أنقاض القصر الأبلق قصر الظاهر بيبرس وحلت محله وذلك في عهد السلطان سليمان القانوني ، وتتألف من تكية كبيرة في الجانب الغربي ومدرسة مستقلة عنها في الجانب الشرقي وسوق يمتد أمام المدرسة من شمالها ، بديء ببناء التكية عام (١٤٤٥ م) فأكتمل بناؤها في عام (١٤٥٠ م) .

التكية السليمانية نسبة لسليمان القانوني ولها روعة عظيمة ولها مئذنتان جميلتان قيل أن المدرسة العظيمة من بناء المعمار سنان التركي المشهور ودفن فيها مؤخراً بعض ملوك بني عثمان ، شغلت الجامعة السورية قسماً منه وبقي القسم الأكبر جامعاً ومن المآذن العظيمة المئذنة الغربية بالجامع الأموي عَمَرها سلوان بن علي المعمار في عهد المماليك . وفي نهاية بحث البيت الدمشقي القديم نورد وصفاً لقصر أسعد باشا العظم ، ويعرف ببيت العظم ، وهو مركز المعهد الفرنسي بدمشق .

قصر العظم :

شيده والي دمشق العثماني أسعد باشا العظم سنة (١٦٦٣ هـ / ١٧٥٠ م) ويقع في قلب المدينة القديمة إلى الجنوب من الجامع الأموي ، بينه وبين سوق البزورية الشهير . يروي المؤرخون المعاصرون بأن الوالي أسعد باشا أنفق على بناء القصر الأموال الطائلة ، وحشد له الصناعات وأرباب الحرف ، وانتقى له مواد البناء من

أخشاب وعمد ورخام وقاشاني وفساقي ، من مختلف الدور والمباني القديمة في دمشق ، وشيد البناء ليكون دار سكن لأسعد باشا .

ويمثل هذا القصر المسكن العربي الدمشقي ، المتميز بالبساطة والتكشف في المظهر الخارجي ، مع البذخ في الزخرفة والتجميل في الداخل .

يتألف القصر من عدة أجنحة ، الجناح الرئيسي فيه هو جناح الأسرة ، أو « الحرملك » بالعرف التركي ، ثم الجناح الخاص بالضيوف « السملك » ، وفي ركن من أركان القصر جناح ثالث صغير مخصص للخدم والمطبخ ، وهناك في الحرملك حمام خاص يعتبر صورة مصغرة عن الحمامات العامة الموجودة في المدينة ، بهندسته وتنظيمه .

وتأتي شهرة هذا البناء السياحية من غناه بأنواع الزخرفة العربية والجو الشرقي الأصيل المتجلي فيه ، يحس كل من زاره بالجاذبية والراحة والهدوء ، فلقد تمازجت فيه العناصر المعمارية والفنون الزخرفية تمازجاً منسجماً موفقاً ، وتمثلت فيه حصيلة ما أبدعته الحضارات التي عرفتها مدينة دمشق ، زد على ذلك امتزاج هذه العناصر بالخضرة والمياه ، التي تضيفها على القصر البحرات والفساقي العديدة ، وأشجار السرو الباسقة وشجيرات الليمون والنارنج والكباد ، وعرائش الورد والياسمين .

إذا وقف الزائر في باحة القصر ، حار أين يقلب ناظره ، فواجهات القصر وجدرانه مزخرفة من أعلاها إلى أسفلها ، وبأشرطة منقوشة ، وأحجار مرصعة بالقسيفساء ، ونوافذ مختلفة الأشكال ، متعددة الزخرفة ، وحول الباحة وحدات معمارية متنوعة . فهنا إيوان واسع يفتح على الباحة بقوس بالغ الارتفاع ، وهناك رواق من خمس أقواس ، تحملها الأعمدة الرشيقة ، وتبدو الجدران والواجهات متفاوتة في حجمها وارتفاعاتها ، لتحول دون الرتابة والملل ، من غير إهمال للانسجام والتناسق .

وتتضم هذه المجموعات قاعات أرضية للضيوف وحاجات النهار ، فوقها غرف علوية للنوم تطل نوافذها وشبابيكها على باحات القصر وحدائقه ، وتزخر سقوف القاعات وجدرانها بالأخشاب المزخرفة بالرسوم والدهانات الملونة والمقرنصات

والدلايات ، وتكاد لا تخلو عتبات قاعاته من فستقية جميلة على حصيره من الرخام الملون ، وفي الجدار (سلسبيل) تسيل عليه مياه رقاقة ، يعد قطعه فنية في صفته وتأليف رخامه ، لهذا كله لا نبالغ إن قلنا إن من يدخل هذا القصر لا يمل المقام فيه والاستمتاع بتأمل محاسنه .

أخذ أسعد باشا العظم دار معاوية - رضي الله عنه - وأخذ ما حولها من الخانات والدور والدكاكين ، وهدمها وشرع في عمارة داره السرايا المشهورة التي هي قبلي الجامع الأموي . قل أن يوجد معلّم متقن أو نجار أو دهان كذلك ، إلا والجميع مشغولون بها ، وجلب لها البلاط من غالب بيوت المدينة ، أينما وجد بلاط أو رخام أو غير ذلك ، مثل العواميد والفساقي ، كان يرسل فيقلعهم ويرسل القليل من ثمنهم ، وكان في قرب تربة البرامكة قصر يقال له الزهرابية ، قيل هو من عمارة الملك الظاهر ، وهو على ظهر بانياس مطل على المرجة ، أمر بهدمه حالاً ، ونقل حجارته إلى داره ، وفي وادي كيوان ، كانت طاحونة قديمة يقال لها طاحونة الرهبان ، قد تهدمت ولم يبق منها سوى رسوم أسفلها ، وأنها مركبة على بانياس ، أمر حضرة الباشا حالاً بقطع نهر بانياس ، وأن يخرجوا جميع ما فيها من أعمدة وأحجار وينقلوها إلى الدار .



صورة قصر العظم

لا يزال قائماً في سوق البزورية ، عند الطرف الشمالي ، شيدّه والي دمشق العثماني أسعد باشا سنة (١١٦٣هـ / ١٧٤٩م) ، وزاره عدد من الشخصيات الرسمية منهم (غليوم الثاني) إمبراطور ألمانيا^(١) .

ونقل من بصرى أحجاراً وأعمدة غلاظاً جيء بها محملة على عربات تجر بالبقر ، وهدم سوق الزنوظية الذي فوق حارة العمارة ، وكان له أقبية معقودة ، فأمر بفكه ونقله إلى داره المشار إليها ، ونقل إليها أيضاً أعمدة من جامع يلبغا ، وأنه مهما سمع ببلاط بديع وأعمدة أو أحجار من أي محل كان يأتي بها شراء أو غير شراء .

ووزير الشام مشغول في عمارة داره ، ولم يلتفت إلى رعاياه وأنصاره ، ويقول اثتوني بحجارة المرمر والرخام ، وتفتنوا بالبناء والنقوش والتحلية بالذهب والفضة .

(سنة ١١٦٤هـ) ، وبعد مجيء أسعد باشا من الحج الشريف ، وجد داره قد تمت عمارتها ، فلما دخلها زاد فرحاً وابتهاجاً وسروراً ، غير أن أهل الشام في أكرار من غلاء الأسعار وبخل التجار وفساد الأحرار .

وتأتي شهرة هذا البناء السياحية من غناه بأنواع الزخرفة العربية ، والجو الشرقي الأصيل المتجلي فيه ، يحس كل من زاره بالجاذبية والراحة والهدوء ، فقد تمازجت فيه العناصر المعمارية والفنون الزخرفية تمازجاً منسجماً موفقاً ، وتمثلت فيه حصيلة ما أبدعته الحضارات التي عرفتها مدينة دمشق ، زد على ذلك امتزاج هذه العناصر بالخضرة والمياه ، التي تضيفها على القصر البحرات والفساقي العديدة ، وأشجار السرو الباسقة ، وشجيرات الليمون والنارنج والكباد والعرائش والورود والياسمين .

إذا وقف الزائر في باحة القصر ، حار أين يقلب ناظريه ، فواجهات القصر

(١) دمشق تاريخ وصور للشهابي ، ط ٢ ، ٢٨٢ .

وجدرانه مزخرفة من أعلاها إلى أسفلها بمداميك ملونة بالتناوب وأحجار مرصعة بالفسيفساء .

قصر شمس الملوك :

كان من قصور العهد السلجوقي في السّمانين ؟ مجهول الموقع ، يُنسب إلى شمس الملوك محمود بن تاج الملوك بوري وأمه الخاتون زمرد بنت جاولي وأخت الملك دُقاق . دُرس^(١) .

قصر شمعايا :

كان في دمر ، يطلّ على طريق بيروت ، شيده شمعايا أفندي كمتنزه ، ولم يبق منه اليوم سوى الأطلال البادية للعين إلى يسار الداخل لدمر من المدخل القديم الأول المعروف بمدخل جامع الوزان^(٢) .

قصر الظاهري :

انظر القصر الأبلق .

قصر العابد :

شيّده في ساحة المرجة عزت باشا العابد ، ثاني أمناء السلطان عبد الحميد في العهد العثماني ، بعد أن اشترى دار الحكومة القديمة التي بناها في هذا الموقع الوالي كنج باشا سنة (١٢٢٢هـ / ١٨٠٧م) ، وتمت الصفقة بموافقة الوالي حسين ناظم باشا ، ثم هدم عزت باشا المبنى القديم وأقام مكانه قصره ليكون فندقاً ، وتمّ البناء سنة (١٩١٠م) ، غير أن ظروف الحرب العالمية الأولى لم تمكنه من ذلك ، فاحتلته القوات التركية وصيرته منزلاً للعساكر ، لذلك عُرف أيضاً بالمنزل ، وببناية العابد^(٣) .

(١) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ٢/ ٨٩ ، الأعلام الخطيرة لابن شدّاد ١٥٠ ، ثمار المقاصد لابن عبد الهادي ١٢٣ ، تاريخ ابن قاضي شعبة ، مج ١ ، ٣/ ٣٥٣ ، الدارس للنعمي ٢/ ٣٥٤ .

(٢) بحث ميداني للمؤلف .

(٣) دمشق تاريخ وصور للشهابي ، ط ٢ ، ٦٠ .

قصر عاتكة (محلة) :

انظر حي قبر عاتكة^(١) .

قصر عثمان باشا :

برأس جادة العفيف ، إلى يسار الصاعد فيها ، شيده (عثمان باشا) كما ذكر لي
الفيلسوف المرحوم عزمي الموره لي الذي عاش في هذا القصر رداً من طفولته ، أو
(عثمان نوري باشا) والي دمشق في العهد العثماني المتأخر ، تولّى مرتين ، الأولى سنة
(١٣٠٧هـ / ١٨٨٩ - ١٨٩٠ م) ، والثانية (١٣١٠هـ / ١٨٩٢ م) ، ومن هذا المنطلق
يمكننا القول بأن قصر عثمان باشا أو نوري باشا وهما اسمان لشخص واحد ، هذا القصر
أقيم بين الستين المذكورتين . ولما دخلت القوات العربية دمشق سنة (١٩١٨ م) ، صار
مقر إقامة الأمير فيصل بن الحسين ، واستمرّ على هذا الحال حتى الاحتلال الفرنسي سنة
(١٩٢٠ م) حين أصبح مركزاً للمفوض السامي الفرنسي وصار يُعرف (بالمفوضية) .
وبعد الجلاء سنة (١٩٤٦ م) شغلته (السفارة الفرنسية) وما تزال فيه إلى اليوم^(٢) .

قصر العمادي :

كان من قصور الصالحية بنواحي السكة . دُرِس^(٣) .

قصر القباقبي :

كان من قصور الصالحية أيام إبراهيم باشا المصري . دُرِس^(٤) .

قصر القلعة :

كان في قلعة دمشق . دُرِس^(٥) .

(١) ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ٧ ، مفاكهة الخلّان لابن طولون ١/٢٩٦ .

(٢) دمشق تاريخ وصور للشهابي ، ط ٢ ، ٣٨٦ ، ولاية دمشق في العهد العثماني للمنجد ٩٤ ،
تاريخ المسرح السوري للمالح ٥٩ .

(٣) المروج السندسية لابن كنان ٣٦ .

(٤) مذكرات تاريخية لمؤلف مجهول ، تحقيق سبانو ٥٩ .

(٥) مفاكهة الخلّان لابن طولون ١/٢٣٠ .

قصر الكركي :

كان من قصور الصالحية ، خرب وزال^(١) .

قصر مصطفى باشا العابد :

كان في آخر المهاجرين ، يطلّ على ساحة آخر الخطّ ، شيّده مصطفى باشا العابد سنة (١٩٠٧ م) ، وبعد وفاته سنة (١٩٢٩ م) قام ورثته بإهدائه إلى « محمد علي العابد » أول رئيس للجمهورية السورية سنة (١٩٣٢ م) فصار قصراً للجمهورية ، حتى استأجرت الدولة قصر خورشيد المجاور له سنة (١٩٤٣ م) ، فقامت المفوضيّة العراقية باستئجاره ، وفي سنة (١٩٧٤ م) هدم هذا القصر عند تنظيم المنطقة .

قصر ناظم باشا :

في آخر طريق المهاجرين ، قرب ساحة آخر الخط ، إلى يسار الصاعد إليها ، شيّده والي دمشق العثماني (حسين ناظم باشا) خلال ولايته الأولى بين السنوات (١٣١٣ هـ / ١٨٩٥ - ١٣٢٥ هـ / ١٩٠٧ م) ، وقام بهندسته (خورشيد المصري) ، وعند انتهاء ولايته في السنة المذكورة اشتراه مهندس خورشيد فعُرف منذ ذلك الوقت بقصر خورشيد ، وفي بداية الحرب العالمية الأولى سنة (١٩١٤ م) استأجرت الحكومة العثمانية القصر وجعلته مقرّاً رسمياً لجمال باشا قائد الجيش الرابع ، ولما تولى جمال باشا المرسيني الملقّب بالصغير بدلاً عن جمال باشا قيادة الجيش سنة (١٩١٨ م) صيرّه مستشفى عسكريّاً حتى خروج الأتراك في نفس السنة ، وفي سنة (١٩٢٠ م) تمّ فيه تتويج الأمير فيصل بن الحسين ملكاً على سورية (قبل حفل التتويج الذي أقيم في مبنى البلدية بالمرجة) ، وأصبح منذ ذلك التاريخ مقر إقامة للملك (وكان قبل ذلك يقيم في قصر عثمان باشا . انظر قصر عثمان باشا) . ثم صار مقرّاً لحكومة « حقي العظم » في (١٢ / ٥ / ١٩٢٠ م) ، عند بدايات الاحتلال الفرنسي ، واستمر به الحال حتى (٢٤ / ٨ / ١٩٢٢ م) حين أعيد إلى مالكه الأصلي

(١) المروج السندسية لابن كنان ٣٦ .

بالميراث « الدكتور حمدي الإدليبي » فأقام فيه إلى أن استأجرته المفوضية العراقية سنة (١٩٣٩م) ، وفي سنة (١٩٤٣م) تولى شكري القوتلي رئاسة الجمهورية السورية فقامت الدولة بالاتفاق مع المفوضية المذكورة بتبادل مقراتهما إذ كانت الدولة تشغل قصر « مصطفى باشا العابد » القريب من قصر خورشيد إلى جهة الغرب ، فتبادل الطرفان القصرين ، ولا يزال قصر خورشيد إلى اليوم يستعمل للمراسم الجمهورية^(١) .

خان أسعد باشا :

عرفت دمشق بنشاطها التجاري منذ أقدم العصور ، الأمر الذي أدى إلى إنشاء نُزُلٍ للمسافرين فيها ، كان يطلق عليها اسم (قيساريات) أو خانات ، و(القيسارية) ذات أصل يوناني ، وتعني البناء الملكي ؛ لأنه أملاك دولة فهي ذات صفة ملكية ، أما الخان فكلمة فارسية ، وتعني البيت أو القصر ، والخانات بمنزلة الفندق اليوم ، كانت تعد لإقامة القوافل التجارية القادمة من أنحاء العالم وتبادل أعمال البيع والشراء .

وكرثت هذه الخانات خاصة في العهد العثماني في القرن (١٠هـ) إلى القرن (١٤هـ) ، بسبب تزايد النشاط التجاري ، وانتظام قوافل الحج بشكل ملحوظ ، وأشهر هذه الخانات خان أسعد باشا الذي يعتبر واحداً من روائع الفن المعماري في العهد العثماني .

موقع الخان :

يقع خان أسعد باشا ضمن المدينة القديمة في منتصف سوق البزورية الشهير ، وهي منطقة تكثر فيها الأسواق والخانات وتستقطب النشاط التجاري والسياحي فيها بسبب وجود الجامع الأموي ، وقصر العظم ، وحمام نور الدين الملاصق لهذا الخان من جهته الشمالية .

(١) دمشق تاريخ وصور للشهابي ، ط ٢ ، ٣٩٨ ، لقاء مع الكاتبة الكبيرة السيدة ألفت عمر باشا الإدليبي .

تاريخ بنائه :

بنى هذا الخان والي دمشق في العهد العثماني ، أسعد باشا بن إسماعيل باشا العظم الذي حكم دمشق بين عامي (١١٥٦هـ - ١٧٤٣م / ١١٧٠هـ - ١٧٥٦م) وقد بدأ ببنائه في عام (١١٦٥هـ - ١٧٥١م) وانتهى في عام (١١٦٧هـ - ١٧٥٣م) ، وقد أרך ذلك البديري الحلاق الذي عاصر الباشا في يومياته (حوادث دمشق اليومية) حيث يقول : (وشرع أسعد باشا في عمارة القيسارية التي في البزورية ، وقد عز نظيرها في الدنيا ، وذلك بعدما هدم قيساريتين ودوراً ودكاكين ، وجعلها قيسارية واحدة بهذه الصفة التي لا نظير لها ، وتمت في المحرم من عام (١١٦٧هـ - تشرين الأول ١٧٥٣م) ، واستغرق بناؤها سنة وشهرين) .

بعد ستة أعوام من بنائه ، سقطت ثلاث قباب من خان أسعد باشا ، بسبب الزلزال الشهير الذي أصاب مدينة دمشق في ذلك الوقت ، حيث يقول الغزي في أخبار هذا الزلزال : (وسقط من الخان البديع الذي بناه الوزير أسعد باشا والي الشام ونائبها ثلاث قباب هائلة) .

ولخان أسعد باشا شهرة فائقة منذ بنائه وإلى اليوم ، حيث كان الرحالة والسياح يؤمنونه للتفرج عليه ، ومنهم الشاعر الفرنسي لامارتين الذي زاره عام (١٨٣٣م) ، وكتب عنه ووصفه بأنه من أجمل خانات الشرق ، وقبته الضخمة (ربما يقصد بها القبة الوسطى) ، تذكر بقبة القديس بولس بروما . وبقي هذا الخان يؤدي وظيفته التجارية حتى استملاكه عام (١٩٧٠م) من قبل مديرية الآثار والمتاحف ، حيث كان تجار الجملة يحتلون غرف طابقه الأرضي ويجعلون منها مكاتب لتجارتهم ، بينما أكداس البضائع تملأ أروقه وغرفه في الطابق العلوي .

وصفه :

يحتل الخان رقعة مساحية قدرها (٢٥٠٠ م^٢) ، شكله شبه مربع ويتألف من طابقين يحيطان بالصحن ، ومدخل مسقوف ، واجهته الرئيسة تحتل جانباً من سوق البزورية ، وتحتوي على بوابة حجرية فخمة ، وتتألف من إيوان معقود بالمقرنصات

الجميلة والدلايات ، وتنتهي بأعلاها بصدفة ، على جانبي هذا الإيوان مقعدان حجريان ، يحيط بالصحن من كل جهاته غرف ومخازن موزعة على طابقين ، الطابق الأرضي وله واجهة حجرية ، فتحت فيها أبواب المخازن وشبابيكها الموجودة على مستويين أرضي وعلوي .



صورة خان أسعد باشا

يضم هذا الطابق ثلاثة وعشرين مخزناً ، معظمها مصمم على شكل أجنحة ، أما الطابق العلوي فيؤدي إليه درجان متقابلان ، في دهليز المدخل ، وهو يتألف من رواق مطل على الصحن ، يطوف بجهات الخان الأربع ، ويليه من الداخل غرف صغيرة لمبيت الغرباء والمسافرين ، عددها أكثر من أربعين غرفة ، أما صحن الخان فيؤلف باحة مربعة طول ضلعها (٢٧ م) ، مبلطة بالحجر الأسود تتوسطها بركة ماء كثيرة الأضلاع ، والصحن مغطى بسقف يتألف من تسع قباب كبيرة ، قطر كل منها (٨ أمتار) موزعة على ثلاثة صفوف محمولة على عقود حجرية ، عددها (٢٤) ، تستند هذه القباب إلى عضائد مربعة الشكل وسط الباحة ، وتستند من جهة أخرى إلى جدران الخان الداخلية المحيطة بالصحن .

مزايا الخان :

يمتاز خان أسعد باشا بسعته وبفنون صنعته الحجرية التي نفذت بإتقان ، وقبابه التسع التي تغطي الصحن ، وهو ينفرد بهذه المزية بين جميع الخانات ، بضخامتها وضخامة العقود الحجرية الحاملة للقباب ، إضافة إلى فخامة بوابته الرئيسة البديعة المزينة بالمقرنصات والدلايات الجميلة ، ولعل أهم ما يميز المبنى حجارتة المؤلفة من اللونين الأسود والأبيض ، والمستعملين بالبناء ، مداميك الجدران والأقواس في سائر أنحاء الخان ، كما نلاحظ جمال ودقة النسب المحققة في أطول أروقتة ودهاليزه ، وارتفاع واجهاته والانسجام في توزيع الضوء والظل في أرجائه ، وما يضيفي ذلك من جمال له سحره الخاص على حجارتة السوداء والبيضاء .

مكتب عنبر :

صرح حضاري هام ، ومركز تعليمي رائد ، كان له الأثر العظيم في نفوس الأساتذة والطلاب ، إنه قصر الثقافة العربية ، مكتب عنبر .

لو حاولنا أن نفتح صفحة من صفحات التاريخ نتحدث عن هذا الصرح العظيم ، لقرأنا تاريخاً حافلاً ، من حيث كونه في البداية ، منزلاً شُيّد على الطراز العربي ومُلىء بأنواع كثيرة من الزخارف .

بناه ثري دمشقي اسمه (يوسف عنبر) عام (١٨٧٦م) ، وأنفق على إنشائه (٤٢ ألف ليرة) ، أي حوالي (١٣ مليون ليرة سورية) ، في وقت عرف الرخص في مواد البناء والأجور .

ثم وقعت هذه الدار في ملك الحكومة العثمانية لدين لها على صاحبها ، فجاءت افتتاحيته كمكتب في عام (١٣٠٥م) ، ومن هنا جاءت تسميته مكتب عنبر (أي مكان الكتابة) ، وهو الاصطلاح الذي أطلقه العثمانيون على المدارس الابتدائية والسلطانية في تلك الفترة ، وكان بذلك أقدم مدرسة في سورية .

وأول مدرسة عالية حديثة بدمشق أطلق عليها اسم مكتب إعدادية ملكية ومدة الدراسة فيها سبع سنوات بعد المرحلة الابتدائية ، ووجد فيها قسمان : نهاري

(مجاني) وليلي . وضمت أكثر من (٦٠٠) طالب من أهالي المدينة ، وكانت لغة التدريس فيها « التركية » ولكن بعد الإطاحة بالسلطان (عبد الحميد) سمح بجعل اللغة العربية لغة ثانية يتعلمها الطلاب وكان من خيرة من علّم فيه الشيوخ : محمد سعيد البرهاني ، وعطاء الله الكسم ، ومحمد هاشم الخطيب وغيرهم .

ومما نقرؤه أيضاً : عن هذا الصرح الهام الدور الذي لعبه في إثارة الروح العربية ، وفي القتال ضد الأتراك الذين حاولوا طمس الهوية العربية ، عن طريق إحلال اللغة التركية محل اللغة العربية ، حيث هبّ الشعور الوطني لدى الشبان العرب ، وتمثل ذلك بحادثين هما : تمثيل مسرحية طارق بن زياد ، والثورة ضد مدير المكتب التركي (مصطفى ثابت) ، وهذا إن عبّر عن شيء فإنه يعبر عن اتقاد شعلة الحرية في نفوس الشبان العرب .

لقد عاش مكتب عنبر من أواخر القرن الذي مضى إلى أوائل الحرب الثانية ، وهو يضم جمهرة المتعلمين في هذا البلد . كان هو الثانوية الرسمية المفردة في دمشق بل كان الثانوية (الوحيدة) الكاملة في سورية ، فكان يأتي إليه الطلاب من كل مكان ليكملوا دارستهم فيه . لذلك اختاروا لتدريس كل علم فيه أكابر علمائه ، ولم يكن مكتب عنبر في الحقيقة مدرسة ، بل كان يومئذ مجمع الشباب المثقف ولب البلد ، ومصدر كل حركة وطنية لقد كان مكتب عنبر مثابة العلم ، وكان موئل الوطنية ، وكان مصدر الحركات الشعبية ، ومبعث النضال وكان من مدرسيه : الشيخ عبد الرحمن سلام والأستاذ سليم الجندي والأستاذ عبد القادر المبارك ، الأستاذ جودة الهاشمي وشريف بك رمو ومصطفى تمر ، والأستاذ سليم عناية والدكتور جودة الكيال ، والدكتور يحيى الشماع والأستاذ حسن يحيى الصبان والدكتور كامل نصري ، والأستاذ عبد الرحمن السفرجلاني والأستاذ عبد الوهاب أبو السعود ، والأستاذ مصطفى الصواف والأستاذ عبد الحميد عبد ربه ، وكان في المكتب معيدان : الأول عاصم بك البخاري والثاني عزة أفندي الرفاعي .

وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وبعد أن نَعَمَتِ البلاد بالاستقلال ، كان

مكتب عنبر أول مؤسسة تعربت بشكل كامل ، ولما ظهرت بوادر ميلسون انقلب هذا المكتب بين ليلة وضحاها ، إلى ثكنة عسكرية ، بعد ذلك أصبح مدرسة للفنون النسوية ، حتى عام (١٩٨٠م) ، حيث أعيد ترميمه بعد انهيار أجزاء منه ، وتم اتخاذه مقراً للجنة حماية المدينة القديمة ، وسمي قصر الثقافة العربية .

كان ذلك من الناحية التاريخية ، أما إذا أردنا أن نلمس الجوانب المعمارية في هذا البناء ، فنجد أنه بناء مستطيل الشكل ، يمتد (بطول يقرب من مئة متر باتجاه شرقي غربي ، وبعرض يبلغ حوالي خمسين متراً باتجاه جنوبي شمالي) .

له بابان : الأول رئيسي كبير يتجه غرباً ، مطل على شارع (المتكنة) ، والثاني فرعي يتجه شرقاً مطل على شارع (المتكنة) أيضاً ، وكلا الشارعين يشبه زقاقاً لا يزيد عرضه عن ثلاثة أمتار .



صورة مكتب عنبر

فالبناء مستطيل إذاً ، مقسّم إلى أربعة أقسام متصل بعضها بالآخر ، بأبواب صغيرة أو كبيرة ، يتألف كل قسم من باحة (أرض ديار) ، تتوسطها بركة ماء تحيط بها حدائق ، وتطل عليها من الأطراف الأربعة حوالي أربعين غرفة تتوزع على طابقين ، كانت الحدائق مزروعة في الأصل بأشجار الحمضيات والزينة ، أما الآن فقد خلت من الأشجار الكبيرة وزرعت بالورود والأزهار .

وهذا منظر توضح فيه أقسام المكتب ، ووظائف الفراغات فيه وتوزيعها في الطابقين .

ولو حاولنا أن نصف هذا المكتب بإيجاز ، منذ دخولنا بابه الرئيسي الغربي ، لطالعتنا فسحة صغيرة مسقوفة تحيط بها أربع غرف ، ثم باحة سماوية ، هي أوسع باحات المكتب الأربع وأبسطها زخارف ، أما الباحة التالية فيطل عليها من الجنوب إيوان واسع عال ، ومن الشمال قاعة واسعة ، خلف البهو يطل على الباحة بخمسة عقود ، ارتقت خمسة أعمدة رشيقة جداً من المرمر الأبيض .

أما الجدران فقد زينت كلها بزخارف عرضها حوالي نصف متر ، ومكانها منتصف كل جدار فوق النوافذ المحلاة بالحديد المزين ، بزخارف جميلة في رسومها وألوانها ، كذلك أطل على الباحة الثالثة إيوانان أحدهما يتجه غرباً والآخر شرقاً .

وجدران الغرف فيه مزينة بزخارف مرمرية نافرة ومحفورة ، ورسوم جدارية كثيرة ، وسقوفها مزينة بما يتفق مع روح البناء العامة من جهة ، ومع الطراز السائد في كل غرفة من جهة أخرى .

أما القسم الرابع ، الذي يعتقد أنه كان قسم الخدم ، تتوسط باحته الصغيرة بركة ماء ، تحيط به غرف صغيرة ، وفيه باب المكتب الشرقي الذي نخرج منه إلى شارع المتكئة .

تتمثل في طراز البناء وزخارفه ، روح العصر المكلفة بالزينة المفرطة ، والمزج بين ما عرف عن الفن الأوربي والرقش العربي المتعدد الجوانب والأنواع .

أما مساحة المكتب الحالية فهي (٤٠٥٩ . ٤٠) م^٢ ، وهي المساحة بعد الإفراز ، بينما كان المكتب سابقاً يضم أقساماً أخرى فصلت عنه حالياً ، كبيوت مجاورة ، بأرقام عقارات جديدة .

وهذا ما تبين من خلال هذين المخططين اللذين يوضحان الحدود الأصلية والحديثة لمكتب عنبر ، علماً بأن الصفات المعمارية والفنية التي تميز هذه الدار ، موجودة في القسم الحالي لمكتب عنبر .

وأخيراً ، يعتبر هذا المكتب مثلاً للبيت الدمشقي الجميل ، ذي الشاعرية ، بفنائه الداخلية ، وبألوانه التي تشع بالبهجة والراحة ، مع توافق كونه مركزاً نضالياً ، حيث تخرج منه الأدباء والسياسيون والمناضلون الذين لعبوا دوراً هاماً وإيجابياً في الحياة المعاصرة .

حمام النوفرة :

هناك مثل دمشقي يقول : (نعيم الدنيا الحمام) .

وقد كان للحمام في دمشق أهمية خاصة في الحياة الاجتماعية ، وكانت له طقوس وعادات خاصة به ، ففي الأعراس تدعو أم العروس أقاربها وأقارب العريس إلى الحمام ، وتأخذ الحمام حماية (أي على حسابها) ، حيث يذهب الجميع إلى الحمام ويطعمون فيه السميط وهو طعام خاص لكافة المستحبات فيه ، حتى إذا كان العصر ، خرجت العروس وحولها الجميع بالزغاريد إلى دار أبيها أولاً . كما كان الحمام عبارة عن ناد رياضي للشباب ، ويقصده البعض للاستشفاء .

والحمامات في سورية معروفة منذ القدم ، وهناك بعض الحمامات يعود تاريخها إلى العهد الروماني . وفي العهد الإسلامي ازداد الاهتمام بالحمامات فكثر ، وتفنن الدمشقيون في بنائها حتى جعلوها آية فنية ، فرصعوا جدرانها بالقاشاني ، وأرضها بالرخام ، وعقدوا على أطراف قبائها وقرنها عقود الجص النافرة ذات الرسوم والتزيينات المختلفة .



صورة النوفرة

وأول من تكلم عن هذه الحمامات الحافظ ابن عساكر عام (٥٧١ هـ) في تاريخه الكبير ، حيث أفرد لها جانباً من بحثه عن التعريف بغنى الماء الذي بدمشق ، فذكر سبعة وخمسين حماماً سوى حمامات القرى ، وكان من أبرز ما ذكره منها حمام نور الدين بالزورية .

ثم جاء من بعده ابن شداد عام (٦٨٤ هـ) ، فزاد على ما ذكره ابن عساكر منها ، حتى بلغت لديه خمسة وثمانين حماماً ، ثم أضاف إليها الحمامات التي بخارج سور المدينة ، فبلغ مجموع ما ذكره مئة وسبعة عشر حماماً ، ذكر منها حماماً اسمه (حمام درب العجم) الكبير ، داخل باب جيرون ، وهو النوفرة اليوم ، كما ذكر حمام النوفرة يوسف عبد الهادي عام (٩٠٩ هـ) . وبذلك نجد أن حمام النوفرة لا يقل أهمية عن حمام نور الدين ، كما كان لحمام النوفرة أهمية كبيرة لموقعه عند أحد أبواب مسجد دمشق الكبير .

أقسامه :

البراني وهو صحن رباعي الشكل ، فيه مساطب ضيقة أمام الجدران ، علق عليها بعض رسوم ألعاب السيف والترس ، كما علق السجاد والمرايا ، والسقف مُستوٍ . ويتوسط البراني بحرة من الحجر الوردي ، وفي جانب منه يوجد تخت للمعلم . وفي هذا الحمام وسطاني أول ، يضم مراحيض ومسطبة ، ووسطاني ثانٍ فيه مقصورة النوره ، ويمر من وسطه (بيت النار) .

أما الحرارة (الجواني) ففيه إيوانان وأربعة أجران ، بكل إيوان جرنان ، وفيه أيضاً ثلاث مقصورات واحدة بجرنين ، واثنان بكل منها جرن ، إحداهما مقصورة الشيخ ، وفيها جرن الشيخ ، وتنسب إلى سيدنا يحيى ، وقد كان لسيدنا يحيى بشكير - منشفة خاصة - وقبَاب يترك أمام الجرن ليلة الاثنين والجمعة ، كما كانوا يوقدون له الشموع والسرَج ، إلا أن الاهتمام فيه انعدم .

وبلاط هذا الحمام بصورة عامة من الحجر الأسود والوردي ، مع بقايا الرخام ورقع من البلاط العادي .

زقاق الحمرائي :

الزقاق المقصود هو جزء من حي (الحمرائي) الذي بين قصر العظم والجامع الأموي ، وقد اقتربنا منه بعد خروجنا من البزورية وواجهنا القصر ، ثم انحرفنا يساراً ، ولكي تراه يجب أن أنبئك لمدخل الزقاق ، فقد تمر به دون أن تلاحظه ، ذلك أنه يبدو مجرد فجوة بين بنائين ، ولكن ما إن توغل فيها حتى تدخل عالماً آخر مختلفاً تماماً عن العالم الصاخب الذي تركته قبل قليل في الأسواق القريبة ، هكذا بغتة تنسحب الضوضاء ، وتسود السكينة ، ويغرق العابر في الظلال الرطبة التي تميز هذا الزقاق الحميم .

وفي هذا الزقاق يدهشك أن تكتشف أنه مؤلف من أربعة وسبعين عقاراً مع أن الأبواب التي تواجهك أقل من هذا العدد ، فاليوت هنا متراكبة متداخلة ، والأبواب موزعة ، وفي البيت الواحد أحياناً ، كما في بيت (الأسطواني) ، تقطن عشر

عائلات ، لك أن تتصور حين يفتح لك الباب أي عالم عائلي خارق سوف يستقبلك بأطفاله ، ونسائه اللواتي يسرقن النظر من وراء النوافذ وشقوق الأبواب ، ورجاله الذين يرحبون بك دون كلفة ، فترضى أن تستريح في الليوان لتشرب كأساً من الماء البارد ، وكوباً من الشاي أو فنجاناً من القهوة ، ثم حين تعزم على الخروج لا تستطيع أن تفلت من دعوة الغداء ، إلا بصعوبة ، وقد تمر على (أبو أسامة) ، فيدهشك بثقافته التاريخية والشعبية ، ويسحرك بحديثه عن النضال ، نضال أهل الزقاق والحي ضد الاستملاك أو الهدم ، أو باختصار ضد غزو تجار البناء وسماسترته الذين لا يرحمون تاريخاً ولا عهداً ، وكيف استطاع الأهالي ، بتأييد من الكتّاب والفنانين ، وبعض نواب الشعب والمسؤولين الغيورين ، كيف استطاعوا أن ينقذوا بيوتهم من الدمار ، ولا بأس أن تصغي له إلى النهاية يشكو من التقصير في ترميم المنازل المتصدعة ، دون أن ينسى بالطبع شكره لجميع من أسهم في إنقاذ الحي .

ثمة أخطار ما تزال تهدد الحي

نعم ولكنها أخطار تتباعد ، وتخف بالتأكيد ، بعد أن تبنت أمانة العاصمة نفسها أمر هذه المناطق العربية حفاظاً عليها من الزوال .



صورة زقاق الحمراوي

ها هنا دمشق القديمة العريقة بكل ما فيها من عادات وتقاليـد أصيلة وأسلوب في الحياة ، وجلال في المنظر ، وهدوء في النفس .

يقال : إن اسم الحي والزقاق نسبة إلى عائلة كان اسمها (الحميرية) ، وإن سعد الدين الحميري ، والاسم عربي كما هو واضح من اللقب ، هو مؤسس أكبر البيوت وأولها ، وإن اسم الحي مشتق من اسمه ، ولكن ، كائناً ما كان السبب في التسمية ، فإن زقاق الحمراءي نسيج عمراني حميم ، متميز جدير أن يزوره الإنسان المتعب كي يشعر بالراحة والطمأنينة .

بلى ، ثمة تصدعات في الجدران هنا وهناك ، وثمة انهيار حصل في بيت (لطيفة الأسطواني) ، ولكن الشكل الخارجي للزقاق ، بعد الترميم الأخير الذي قامت به محافظة دمشق ، قد أعاد الكثير من البهاء الخارجي ، ولم يبق إلا أن يدخلوا في العمق كي يوزعوا هذا البهاء على الناس الطيبين الأوفياء لمدينتهم وتاريخهم ، وهم في غرف النوم والليوان أو الدهليز أو حول البركة .

زقاق الحمراءي ، تاريخ حافل ما يزال يعج بالحكايا والقصص والأساطير ، ولكن دونما ضوضاء مزعجة ، وليس عليك سوى أن تمر به هادئاً وترمي السلام .

حي سوق ساروجا :

يحتوي هذا الحي على معالم أثرية يرتقي تاريخها إلى القرنين الهجريين الخامس والسادس ، وهو من الأحياء الأولى التي أنشئت في دمشق خارج أسوار المدينة القديمة .

بدأ العمران في سوق ساروجا قبل أن يطلق عليه هذا الاسم بزمان طويل ، وذلك عندما أنشأ أبو علي المزدقاني وزير تاج الملوك بوري بن طغتكين السلجوقي قصراً له ومسجداً في هذه المنطقة التي كانت بساتين كثيفة ، وقد توفي المزدقاني عام (٥٢٣هـ) ، ولا تزال معالم المسجد قائمة في الحي ، وهو من المساجد السلجوقية القليلة في دمشق .

وبعد ذلك توالى الإنشاءات في عصر الأيوبيين حيث أنشأ القائد نجم الدين أيوب ، والد السلطان صلاح الدين الأيوبي ، تربة له في الحي عرفت باسم التربة النجمية ، كما أنشئت عدة مدارس وترب في ذلك العصر .



صورة حمّام الخانجي في سوق ساروجا

وفي عصر المماليك ، شيد الحاجب برسباي الجامع الذي اشتهر فيما بعد باسم (جامع الورد) ، وهو قائم ومعروف حتى الآن ، وفيما بعد قام الأمير (صاروجا) وأنشأ (سوق ساروجا) التي عرفت باسمه وهي عبارة عن صفين من الدكاكين ، ثم حُرفت فيما بعد إلى (سوق ساروجا) وأطلقت على الحي بكامله . وقد دفن الأمير المذكور في تربة داخل الحي لا تزال موجودة ، وأصبح الحي سكناً للقادة المماليك ، واشتهرت بعض الحارات بأسمائهم مثل حارة الشالق وهو واحد منهم وقد حُرّف الاسم فيما بعد إلى حارة الشالة .

وفي العهد العثماني سكن الضباط العثمانيون في الحي أيضاً ، (وقد اشتهرت حارة قولي وهذا الاسم تحريف للكلمة قبو قولي التي كانت تُطلق على إحدى الوظائف العثمانية العسكرية) .

ونظراً لما عرف به هذا الحي من جمال وأناقة ونظافة في العهد العثماني ، أطلق عليه لقب (كوجك إستانبول) أي (إستانبول الصغيرة) ، وقد وضع البحاثة الأثري معاذ في نطاق دراسته لأحياء دمشق القديمة إضبارة كاملة باسم - المنطقة العقارية السادسة - سوق ساروجا ، تتضمن جميع المعلومات التاريخية عن هذا الحي منذ نشوئه ، وتاريخ الأبنية التي يحتويها ، فضلاً عن الخرائط والصور والبطاقات التي تتعلق به ، أسوة بسائر أحياء دمشق .

وأما اسم حارة الورد ، فإن منشأ وجودها يسمى حكر الورد أو مزرعة الورد في الحي ، وقد اشتراها في زمن الأيوبيين أحد أمراء بادية الشام المسمى ابن صبح ، وأنشأ فيها داراً وحماماً ومسجداً ، والحمام والمسجد قائمان حتى الآن .

أخيراً ، ولصعوبة تقديم تعريف بكل واحد من المباني الأثرية الكثيرة التي تحتويها مدينة دمشق القديمة ، سأكتفي فيما يلي بتقديم قائمة بأسماء (١٤٥) مبنى تاريخياً في الصالحية ، بعضها ما يزال قائماً والبعض الآخر مذكور ضمن الدراسات فقط وطريقة التعداد هي من الشرق إلى الغرب .

قائمة المباني الأثرية :

النقشبندي :

مع ضريح الشيخ خالد النقشبندي وخانقاه . مغارة آدم : وتسمى مغارة الدم ، مغارة الأربعين ، قبة النصر : أقامها الحاكم المملوكي برقوق الزهيري القوشج (١٤٧٢ - ٧٣) (٨٧٧) كبناء نصر ، وقد بقي البناء قائماً حتى منتصف القرن التاسع عشر ، وغدا خرابة بعد عام (١٩١٧ م) ، ثم أزيل كلية بعد عام (١٩٤٧ م) .

كهف جبريل : أو مغارة جبريل التي تعد من أقدم مساجد جبل قاسيون . قبر النبي طالوت : يعتقد أن ضريح الأعمدة قد هدم بعد عام (١٩٤٧ م) . بيت الراشي ، ضريح مجهول ، المدرسة الركنية ، بيت شمدين آغا ، التربة الإيدكينية ، التربة الكرمانية ، ضريح مجهول ، الزينية : قمة ضريح مجهول ، مغارة الشياح ، صفة الدعاء : مقبرة مؤلفة من عدة أضرحة قديمة بدون كتابات ، قبر الشيخ يوسف

القمني ، قبر أبي سباع ، بئر مسجد قيس ، ضريح مجهول ، التربة القراجية ،
التربة الجاموسية ، المدرسة صاحبية ، للأميرة ربيعة خاتون ابنة مؤسس الأسرة
الأيوبية نجم الدين أيوب ، يستعمل حالياً كمدرسة ، التربة السامية ، ضريح ،
مسجد الكيلانية ، تربة ابنة سلامة الرقي ، ضريح مجهول ، بيت الأجلقين ، ضريح
مجهول ، التربة الزاهرية ، جامع عبد الغني النابلسي ، مسجد بظنه ، مسجد
الطشدار ، التربة الدوباجية ، التربة الكيلانية ، المدرسة الأضيئية ، التربة
الجنجية ، تربة الست ياسمين ، تربة الست إكسار ، ضريح مجهول ، قبة ابن نجد ،
تربة غيرلو ، الزاوية الداودية ، تربة إينبك ، التربة الصارمية ، الكتابات القديمة ،
ضريح مجهول ، ضريح مجهول ، التربة النظيفية .

وهناك الجامع المظفري ، أول جامع جمعة في الصالحية ، التربة المعتمدية ،
المدرسة العمرية ، مسجد عز الدين ، حمام الحاجب ، المدرسة الحاجبية ،
المدرسة القاهرية ، دار الحديث والخانقاه الكلانسية ، مسجد سراقا ، ضريح
مجهول ، كتابات قديمة ، بوابة قديمة ، ضريح أيوبي مجهول ، ضريح مملوكي
مجهول ، ضريح أيوبي مجهول ، فناء ضريح ، بيت البرجاع ، التكية السليمية ،
فرن التكية السليمية ، واجهة مجهولة ، واجهة مجهولة ، الجامع السليمي ،
المستشفى القيمري ، الناعورة ، التربة القيمرية ، التربة الحريرية ، واجهة
مجهولة ، تربة مثقال الجمدار ، الضريح المقبب ، واجهة مجهولة ، الجامع
الجديد ، التربة الخاتونية ، تربة العيني ، ضريح مجهول ، المدرسة الشركسية ،
التربة العمادية ، زاوية التغالبة ، المدرسة والتربة الدومانية ، تربة السبكين ، التربة
الخوارزمية ، مقام ذي الكفل ، مسجد طوطه ، تربة عين الملك ، التربة السعدية ،
واجهة مجهولة ، حمام العرايس ، المدرسة الأتابكية ، التربة المصعبية ، التربة
التكريتية ، دار الحديث الأشرفية ، المدرسة المرشدية ، التربة القزناتية ، ضريح
مجهول ، ضريح مقبب مجهول ، تربة أولاد الزاهر ، زاوية عاردوك ، ضريح
مجهول ، خان السيل ، التربة الكجكرية ، تربة أمة اللطيف ، ضريح مجهول ، قبة
ريحان ، ساحة الأولية ، المدرسة المعظمية والعزيزية ، التربة الصوابية ، ضريح

مجهول ، جامع الأخرم ، تربة الست رابية ، دار الحديث الناصرية ، تربة كتبجا ،
الزاوية القوامية ، ضريح مجهول ، ضريح مجهول ، قبة الخضر ، الخانقاه العزية ،
قبة سيار ، الخانقاه الباسطية ، المدرسة الأسعدية ، حمام عبد الباسط ، المدرسة
المردانية ، المدرسة الدولامية ، حمام العفيف : لم يبق له أثر حالياً ، مسجد
العفيف ، حمام المقدم ، المدرسة النظامية ، الخانقاه الشبلية ، التربة العفيفية ،
المدرسة الشبلية ، جسر كحيل ، المدرسة البدرية ، التربة الحافظية ، التربة
القميرية ، مسجد الشهداء ، خانقاه السفارية ، الربوة : وهي التي تقع على الصخور
ما بين نهر ثورا ونهر بردى وتحمل نقوشاً تعود إلى عام (٤٤٤ هـ - ١٠٥٢ - ٥٣ م)
ليحيى بن محمد في عهد الخليفة الفاطمي المستنصر ، الذي عمل على تنشيط دور
النهرين ، وترميم الأماكن الدينية المجاورة ، أزيل بعض من الكتابات الموجودة
على الصخور من جراء بناء السكة الحديدية .

ناعورة الشيخ محيي الدين :

حظيت هذه الناعورة باهتمام الأوساط العلمية ، وقصدها الكثير من علماء
الغرب لدراساتها والاطلاع عليها ، وعندما دخل السلطان سليم الأول دمشق ، وأراد
التقرب إلى الشعب والتحبب إليه ، قصد قبر العلامة العربي الشيخ محيي الدين ابن
العربي ، في قرية الصالحية من سفح قاسيون ، وكانت تفصلها عن دمشق بساتين
ورياض كثيرة ، وأمر ببناء جامع .

ثم بنى تكية مقابل الجامع لإطعام الفقراء وزوار المقام . بعد إتمام بناء التكية
والجامع بسنوات ، كلف المهندس العربي تقي الدين بتصميم ناعورة وبنائها على نهر
يزيد للسقاية والوضوء والخدمات الأخرى ، فقام المهندس العربي تقي الدين
محمد بن معروف الراصد الشامي والمهندس والرياضي والفلكي عام (١٥٢٥ -
١٥٨٥ م) ببناء الناعورة وتصميم دولا ب ضخمة للناعورة ، يدور بقوة دفع مياه نهر
يزيد ، فيدير بدورانه مسنناً ضخماً من الخشب صنع بطريقة فنية وقياسات علمية
صحيحة ، ويدير هذا دولا باً آخر في قمة البرج ربطت به سلسلة حديدية علقت بها

دلاء تملأ بماء النهر ، وتفرغ في حوض في قمة البرج حيث تسيل عبر قناة رفعت على أقواس حجرية مرتفعة إلى خزان للماء ، صنع خصيصاً لاستقبال الماء وخزنه ، ومن ثم توزيعه على كل من التكية والجامع والبيمارستان القيمري ، كما مدت قناة صغيرة إلى بحرة الجامع حيث تشكل نافورة ماء تتوسطها ، وفتح على طول جدار الخزان صناديق ماء للوضوء ، ولا تزال آثارها ظاهرة للعيان .

صانع الناعورة :

هو المهندس تقي الدين بن معروف الراصد الشامي المهندس والرياضي الفلكي ولد بدمشق سنة (١٥٢٥م) وتوفي عام (١٥٨٥م) . تولى القضاء في نابلس ، من أعماله تصميم آلة لتدوير السيخ الذي يوضع فيه اللحم على النار ، فيدور من تلقاء نفسه ، كما ساهم في إنشاء مرصد إستانبول وعمل به .

له عدة مؤلفات منها : (الطرق السنية في الآلات الرومانية) ، وأهمية هذا الكتاب تأتي في أنه يكمل حلقة مفقودة في تاريخ التكنولوجيا العربية ، وفي تاريخ الهندسة الميكانيكية بشكل خاص . وقد انتهى تقي الدين من تحرير كتابه عام (١٥٥٢م) أي قبل نشر كتاب أغزبكوبلا الذي ظهر عام (١٥٥٦م) .

كما أن تقي الدين قد سبق راميلي عام (١٥٨٨م) بفترة طويلة ، وبذلك يكون تقي الدين - حسبما نعلم حتى الآن - قد وصف أنواعاً من الآلات الميكانيكية الهامة قبل أن يرد وصف ما يماثلها في المراجع الغربية المعروفة حتى الآن ، كما سبق المهندس تقي الدين ويلكنز عام (١٦٤٨م) الذي ينسب إليه مؤرخو التكنولوجيا أنه أول من وصف آلة تدوير السيخ بواسطة العنف البخارية ، بوصفها في حدود المئة عام . كما كان من أوائل المهندسين الذين وضعوا المضخة الحلزونية ، ففي الغرب يعود أقدم وصف لهذه المنشأة إلى كاروان عام (١٥٥٠م) وإلى راميلي عام (١٥٨٨م) ، أما تقي الدين فقد انتهى من مخطوطه عام (١٥٥٢-١٥٥٠م) .

وبعد ، فلعل البيمارستانات تعد من أهم المعالم الأثرية في دمشق ، ولذلك ، سألقي عليها حزمة الضوء التالية .



صورة ناعورة الشيخ محيي الدين

* * *

البيمارستانات

ما هي البيمارستانات ؟ :

تعد البيمارستانات من مفاخر العمارة العربية الإسلامية ، وكلمة بيمارستان فارسية الأصل مؤلفة من (بيمارو) ومعناها مريض ، و (ستان) ومعناها دار ، فهي إذاً دار المرضى ، ثم اختصرت في الاستعمال فصارت (مارستان) .

وكانت البيمارستانات بمنزلة مستشفيات ومدارس للطب ، وتشير المصادر التاريخية المتوفرة إلى أن الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك كان أول من بنى البيمارستان في دمشق سنة (٧٠٧م) ، وجعل فيه الأطباء وأجرى عليه الأرزاق ، وأمر بحبس المجذومين فيه لئلا يخرجوا ، وأجرى الأرزاق عليهم وعلى العميان أيضاً .

البيمارستان النوري :

وفي عهد الدولة الأيوبية ، أصبحت دمشق مدرسة للطب ، وشهدت عصرها الذهبي في عهد الملك العادل نور الدين محمود زنكي الذي أنشأ بيمارستانه المعروف باسمه أنشأه في دمشق في سنة (٥٤٩هـ) (١١٥٤م) في وسط المدينة القديمة - جنوبي سوق الحميدية - فكان أشهر بيمارستان في العالم الإسلامي قاطبة ، خصص البيمارستان لمداواة الفقراء مجاناً وتقديم الأدوية والأغذية لهم .

رمم هذا البيمارستان في سنة (١٢٨٣هـ) وظل محتفظاً بشكله الأصلي ، ويظن أن الجبهة التي تعلو بابه كانت لإحدى الأبنية الرومانية القديمة ، وأحدثت المقرنصات التي فوقها في عهد نور الدين ، وباحة البيمارستان مستطيلة الشكل وعلى كل طرف من أطرافها إيوان ، وفي الجهتين الجنوبية والشمالية إيوانان

أخران ، وفي الإيوان الجنوبي محراب مزين بنقوش جميلة منحوتة على لوحات من المرمم الأبيض ، وكان بحق أول جامعة طبية وأعظمها في ذلك العصر ، وفي الشرق كله .

ولقد جُدد بناء اليمارستان النوري بعد مئة عام ، ووسعه الطبيب بدر الدين بن قاضي بعلبك الذي كان رئيساً للأطباء والجراحين عام (٦٣٧ هـ - ١٢٣٧ م) فأضاف إليه دوراً كانت حوله ؛ ليتسع لعدد أكبر من المرضى ، وقد أشارت بعض الكتابات التاريخية المنقوشة فيه إلى أنه قد تم ترميم بعض أجزائه في العصر المملوكي أيام السلاطين ، الظاهر بيبرس ، وقلاوون وابنه الناصر محمد في أواخر القرن السابع الهجري .

وبقي هذا اليمارستان يقدم رسالته حتى أواخر القرن التاسع عشر الميلادي ، حيث بني المشفى الوطني المعروف باسم مشفى الغرباء أو مشفى الجامعة ، قرب التكية السلیمانية الشهيرة ، فانتقلت الأهمية إلى هناك وتحول اليمارستان النوري إلى مدرسة للفنون النسوية والتجارة ، حتى اهتمت به مديرية الآثار والمتاحف في سورية ، وأعيد ترميمه في أواسط السبعينيات من هذا القرن ، وحول إلى متحف الطب والعلوم عند العرب ، وهو يضم في قاعاته مجموعات هامة من الآثار الطبية والعلمية والصيدلانية التي تبين أهمية العلوم ودور العرب في تطورها وابتكارها .

لقد اجتذب اليمارستان النوري في القرن الثاني عشر الميلادي ، والقرون التي تليه أمهر أطباء العصر في العالمين العربي والإسلامي ، وقد ترجم لنا الطبيب الشهير ابن أبي أصيبعة في كتابه الفريد (عيون الأنباء في طبقات الأطباء الذين خدموا في اليمارستان النوري الكبير) ومن أشهرهم (أبو علي أبو المجد بن أبي الحكم عبيد الله بن المظفر) ، الذي عقد عليه السلطان نور الدين إدارة اليمارستان والإشراف عليه .

ويذكر أن (أبا الحكم) كان من الحكماء المشهورين في صناعة الطب وعلم الهندسة والفلك ، كان يدور على المرضى في اليمارستان يتفقد أحوالهم كل يوم ،

وبعد الفراغ من ذلك يذهب إلى القلعة يتفقد المرضى من أعيان الدولة ، ثم يرجع إلى البيمارستان ويجلس في الإيوان الكبير وجميعه مفروش ، وكان السلطان نور الدين قد وقف جملة كبيرة من الكتب الطبية ، وضعت في خزانيتين في صدر الإيوان الكبير ، فيحضر جماعة الأطباء والتلاميذ يقعدون بين يدي أبي الحكم ، فيجري المباحث الطبية ، ويقرأ التلاميذ ، وهو لا يزال معهم ، في اشتغال ومباحثة ونظر في الكتب مقدار ثلاث ساعات ثم يركب إلى داره .

وهناك مهذب الدين علي بن عيسى الذي أتى إلى دمشق من بغداد وذهب إلى مصر ثم رجع إلى دمشق ، وخدم السلطان نور الدين في البيمارستان ، ثم صلاح الدين الأيوبي ، والطبيب ابن المطران ، الذي يصفه ابن أبي أصيبعة بأنه أمير أهل زمانه في علم صناعة الطب وعملها ، وهناك كذلك رضي الدين الرحبي ، الذي كان أكبر أطباء البيمارستان سناً وأعظمهم قدراً وأشهرهم ذكراً ، وشمس الدين اللبودي وابن الحاجب ، ومهذب الدين بن حامد الدخوار ، وبدر الدين بن قاضي بعلبك ، وابن النفيس علاء الدين بن الحزم القرشي الدمشقي ، مكتشف الدورة الدموية الصغرى وصاحب التصانيف والمؤلفات الطبية والعلمية والفقهية والفلسفية الشهيرة .

العلاج بالموسيقى :

يعتبر بناء البيمارستان النوري من الأبنية الأثرية المتكاملة التي تقدم نموذجاً يمثل فن العمارة السلجوقية من حيث مخططة وطراز عمارته ، وعناصره المعمارية والزخرفية ، وقد بقي القسم الرئيسي منه على وضعه الأصلي حتى الآن .

زاره الرحالة العربي الشهير ابن جبير في القرن الثاني عشر الميلادي فوصف أساليب المعالجة فيه فقال : (الأطباء ييكرون إليه في كل يوم ويتفقدون المرضى ، ويأمرون بإعداد ما يصلحهم من الأدوية والأغذية حسبما يليق بكل إنسان منهم ، وللمجانين المعتقلين أيضاً ضرب من العلاج) .

وفي موضع آخر من رحلته قال : (إن الأطباء قد اهتموا إلى المعالجة بواسطة

الموسيقى في اليمارستان ، للترويح عن المرضى وتسليتهم عن آلامهم ، فقد كانوا يجلبون القصاصيين والمطربين إلى القاعات ، وكانوا يجعلون لمن يخرج من اليمارستان عند برئه ، كسوة وخمس قطع من الذهب كإعانة حتى تنتهي فترة نقوهه) .

كما وصف ابن شاهين الظاهري في كتابه (النجوم الزاهرة) بيمارستان نور الدين ، فقال : (كان يمثل القصور الملكية بترفه ووسائل الراحة المتوفرة فيه ، وأنواع الطعام الفاخرة التي تقدم للمرضى والمصابين ، كما أن العلاج كان مجاناً للأغنياء والفقراء على حد سواء ، دون أن يكلف المرضى درهماً واحداً ، بل كانوا يمنحون لدى خروجهم من المشفى ثياباً ونقوداً تكفيهم للعيش دونما اضطرارٍ للعمل) .

وهناك حادثة طريفة رواها ابن شاهين الظاهري ، كان أطباء دمشق يتندرون بها ، وهي قصة أحد الظرفاء من الذين يملكون شهية طيبة للطعام كان بالقرب من بيمارستان نور الدين ، فبلغت أنفه رائحة الدجاج المشوي ودغدغت حاسة الشم لديه ، وعلى الفور قرر أن يمارض وأخذ يئن ويتوجع ، فأدخل المشفى وحين فحصه الطبيب لم يجد لديه أية علة ولكنه فطن إلى حيلته ، فلم يكشف من أمره شيئاً ، بل أمر بنقله إلى جناح المرضى الداخليين ، ووصف له وجبتين في النهار مما لذ وطاب ، وبعد أن أمضى ثلاثة أيام على هذه الحمية قال له الطبيب : لقد انقضت الأيام الثلاثة للضيافة العربية فامض مرتاح الضمير ، يرداك الله .

وأوردت المستشرقة زيغريد هونكه في محاضرتها التي ألقته في فناء اليمارستان مثلاً عن الروح الإنسانية للطب الذي كان يمارس في هذا المستشفى فقالت : في القرون الوسطى ، وحتى ما قبل القرن الثامن عشر ، كان المرضى المختلون عقلياً في الغرب هم الضحايا البائسة للدعوى القائلة (بالعقاب الإلهي للخطيئة) ، وكان شفاء الاضطرابات النفسية والعقلية خاضعاً لمهام الكاهن في استخراج العفريت الذي يسيطر على المريض ، وبالتالي فإن ذلك يعني أنهم في حال عجزهم عن استخراج هذا العفريت الذي ركب هذا المريض ، يلجؤون إلى تكبيله وسجنه وحجزه مدى الحياة في ملاجئ للمعتوهين ، حيث تعمل في أجسادهم سياط

الحراس الشداد الغلاظ!! بينما كان المعتوه في بیمارستان دمشق يحظى بعلاج خاص في عيادات متخصصة شديدة المراقبة ، أو في أقسام الأمراض العصبية التي كانت المعالجات فيها دقيقة وحكيمة ، تجري من قبل متخصصين ، وبوسائل أقرب ما تكون إلى وسائلنا العصرية كالخضوع للمنوم الصحي واستخدام الموسيقى .

إذن لم يكن بیمارستان النوري مجرد بیمارستان لمعالجة المرضى فقط ، بل كان مشفى تعليمياً بكل ما تعني هذه الكلمة من معنى في عصرنا الحاضر .

زخارف المبنى :

يتألف مبنى بیمارستان من باحة سماوية أطوالها (۱۵×۲۰) متراً ، تتوسطها بحرة ماء مستطيلة الشكل أطوالها (۵,۸×۷) متراً وهي مبنية من الحجر المنحوت ، لزواياها من الداخل حنايا نصف أسطوانية كعنصر زخرفي شاع استعماله في العهدين السلجوقي والأيوبي ، ويحيط بالبحرة الأشجار المثمرة والورود والأزهار الجميلة .

يحيط بالباحة أبنية يتوسطها في كل جهة إيوان ، وعلى جانبيه غرفتان ، وهذه الغرف بعضها مربع ، والبعض الآخر مستطيل وكلها مسقوفة بال عقود المتقاطعة . المبنى خال من الواجهات المتقنة باستثناء الباب ، وهو مفتوح في الواجهة الغربية ، له مصراعان من الخشب مصفحان بالنحاس ومزخرفان بالمسامير النحاسية الموزعة على أشكال هندسية ، وللباب ساكف مؤلف من حجر واحد ، منقول من بناء قديم يعود تاريخه إلى العهد الروماني ، وتعلو الباب واجهة من الزخارف الجصية الجميلة تعود إلى زمن السلطان نور الدين زنكي ، وتتألف من صف من المحارب ذات الأقواس المجصصة ، من تسعة مداмик من المقرنصات التي تعتمد على شكل الورقة المجوفة ، وهذا النوع من التشكيل جديد في سورية أتى به السلاجقة ، كما أن تجويف البوابة فن جديد أيضاً حيث نشاهد الأقواس المؤلفة من سبعة فصوص .

يلي الباب غرفة مربعة الشكل أبعادها (۵×۵) أمتار تقوم مقام الدهليز ، تعد من أجمل غرف المبنى عناية وزخرفة ، وكان يطلق عليها بلغة ذلك العصر (الدركاة) ، وهي تقع بين البابين الداخلي والخارجي ، مزودة بإيوانين صغيرين في جانبيها

الشمالي والجنوبي ، مسقوفين بعقد مزين بزخارف تشابه زخارف الباب ، وعلى الجدران أشرطة كتابية وزخارف تشير إلى أعمال الإصلاح التي تمت في العهد المملوكي ، ويعلو القاعة قبة عالية تغطيها المقرنصات من الداخل والخارج ، وهذه المقرنصات الخارجية تجعلها من النماذج الفريدة في سورية .

وما زال اليمارستان على حاله حتى اليوم ، وإن كانت مديرية الآثار العربية السورية قد حولته إلى متحف للطب والعلوم عند العرب .

اليمارستان القيمري :

بُني هذا اليمارستان في منطقة الصالحية ويقع إلى الغرب من مسجد الشيخ محيي الدين بن عربي ، خاصاً بها ، لأنها كانت أشبه بمدينة مستقلة عن دمشق ، أنشأه الأمير سيف الدين يوسف القيمري المتوفى عام (٦٥٤هـ - ١٢٥٦م) وهو أحد الأمراء الأيوبيين المشهورين ، وذلك في أيام حكم الملك الصالح نجم الدين أيوب ، كما تشير إلى ذلك الكتابة المسطرة فوق اليمارستان .

اليمارستان القيمري ، يشتمل على ساحة مربعة تحيط بها أربعة إيوانات ، والمدخل يتوسط الواجهة الشمالية الشرقية ، تعلوه عتبة نقشت عليها ثلاثة سطور بخط نسخي يتضمن الأمر بإنشاء اليمارستان ، وقد غطيت سقيفة المدخل بنصف طاقية من المقرنصات الأيوية ، وفي أسفلها سطران من الكتابة النسخية تشتمل على أوقاف اليمارستان ، كما توجد كتابات الوقف على أرضية بعض المقرنصات .

قبابه مبنية بسويرتين ، وكتابات منقوشة ومقرنصات بديعة ، أما قبة إيوانه الجنوبي فهي مغطاة بالزخارف المنقوشة على الجص الملون وبكتابة جميلة بالخط النسخي ، تمتد على واجهاته الثلاث ، وتتألف من صيغة التوحيد ، مكررة بحروف حمراء على صفحة خضراء . وقد وصفه الشيخ جمال الدين بن عبد الهادي بقوله هو من أحسن الدنيا وليس في الدنيا بيمارستان أحسن منه ولا أشرح منه .

وقد حدد نص الوقفية المؤرخة (٦٥٢هـ - ١٢٥٤م) الوجوه التي تصرف فيها أوقاف اليمارستان وهي وظيفة الطبيب المشرف على شؤون اليمارستان ، والكحال

ومن يقوم بخدمة النساء المرضى ، والمعمار المشرف على عمارته ، وما يزيد
يصرف على فكاك الأسرى ، هذا ويستعمل البيمارستان القيمري حالياً مستوصفاً
تابعاً لوزارة الأوقاف ، ويؤدي مهمة إنسانية حيث يعالج فيه المرضى الفقراء مجاناً .

وفي إطار الحديث عن أهم المعالم الأثرية في دمشق ، لا بد من وقفة مطولة عند
ما يمكن اعتباره من أبرز هذه المعالم وأهمها على الإطلاق ، ليس لكثرة رموزه
ومنشآته فحسب ، بل لكثرة ما في بنائه من فنون زخرفية وتزيينية ، ولكثرة تقديس
الناس له ، وأقصد بذلك المساجد ودور العلم ، وفي مقدمتها صرح دمشق الأكثر
بروزاً وشهرة ، وهو (الجامع الأموي الكبير) .

البيمارستان الصغير :

كان تحت المئذنة الغربية من جامع دمشق (مكان المراحض الآن) خربه
أبو الفضائل الأحنائي وبنى مكانه داراً ، ثم ملكه من بعده أخوه البرهان الأحنائي
وتنسب عماره بنائه الأول إلى معاوية وابنه .



صورة لجامع

المساجد ودور القرآن والحديث في دمشق

دمشق الشام هي أفضل بقاع الأرض بوعد الحرمين الشريفين : مكة المكرمة والمدينة المنورة ، وبعد أولى القبلتين : بيت المقدس ، وهي خير البقاع أيضاً ؛ لما فيها من الجوامع والمساجد التي لا يوجد مثلها في سائر البلدان والتي ، مع كثرتها ، تجدها غاصة في الأوقات الخمس ، بالمصلين ليلاً ونهاراً . ولا يخلو جامع ولا مسجد من فرشته بالسجاد العجمي الثمين فضلاً عن الحصر ، وهذا لم يُرَ ولم يسمع عنه ، بخلاف مدن أمة الإسلام .

ومن ألقى نظرة عجلى على بعض المساجد الأثرية يقرأ خطوطاً جميلة ، ويسقط على نقوش بديعة من صنع أهل الفن من الدمشقيين . ففي جامع التبروزي والدرويشية والسنانية والمرادية وجامع أفوش النجيبى في السويقة نماذج من القاشاني البديع ، وفي جامع التبان بالمناخلية عمودان من القاشاني على طول متر وله منبر مهم ، وفي مدفن الصحابي بلال الحبشي تابوت صنع سنة (٦٢٥ هـ) وفيه قاشاني مع صنع كوتاهية . وفي جامع تنكرز قبران في حجرة واحدة ولها محراب من الفسيفساء ونافدتان جميلتان .

ويكثر القاشاني في الجوامع التي بنيت في عهد العثمانيين ، وفي جامع الشامية معرشات بديعة وخطوط ، وتابوت السيدة سُكينة في مقبرة باب الصغير عُمِل سنة (٥٦٠ هـ) ، ونقش بخطوط كوفية داخل حروف ونقوش وحروف أخرى بالكوفية .

وفيما يلي قائمة بأسماء : الجوامع والمساجد القديمة في دمشق :

- | | |
|-------------------|---------------------|
| ١- الجامع الأموي | ٢- جامع أبي الدرداء |
| ٣- جامع أبي النور | ٤- جامع الأحمر |

- ٥- جامع الأحمدية
- ٦- جامع أراق السلحدار
- ٧- جامع الإسعاف الخيري
- ٨- جامع الأفرم
- ٩- جامع باب مصلى
- ١٠- جامع الباشورة
- ١١- جامع البصروي
- ١٢- جامع الشيخ بدر الدين الحسني
- ١٣- جامع بعيرة
- ١٤- جامع التعديل
- ١٥- جامع تنكرز
- ١٦- جامع التكية السليمانية
- ١٧- جامع المولوية
- ١٨- جامع تنبك
- ١٩- جامع التوبة
- ٢٠- جامع التبروزي
- ٢١- جامع الجبل
- ٢٢- جامع الجديد بالصالحية
- ٢٣- جامع الجراح
- ٢٤- جامع الجوزة
- ٢٥- جامع حسان
- ٢٦- جامع الحلبوني
- ٢٧- جامع الحيوطية
- ٢٨- جامع درويش باشا
- ٢٩- جامع الدقاق
- ٣٠- جامع الشيخ رسلان
- ٣١- جامع الرفاعي
- ٣٢- جامع زيد بن ثابت
- ٣٣- جامع السروجي
- ٣٤- جامع السقيفة
- ٣٥- جامع السنانية
- ٣٦- جامع السنجقدار
- ٣٧- جامع السيدة رقية
- ٣٨- جامع شمدين آغا
- ٣٩- جامع الشمسية
- ٤٠- جامع الشنواني
- ٤١- جامع الشهرزوري
- ٤٢- جامع الطاووسية
- ٤٣- جامع عبد الرحمن
- ٤٤- جامع الشيخ عبد الغني النابلسي
- ٤٥- جامع العسالي
- ٤٦- جامع عصفور

- ٤٧- جامع العفيف
٤٩- جامع العناني
٥١- جامع القاري
٥٣- جامع القدم
٥٥- جامع لالا مصطفى باشا
٥٧- جامع محيي الدين بن عربي
٥٩- جامع نور الدين محمود بن زنكي
٦١- جامع المعلق
٦٣- جامع منجك بالميدان
٦٥- جامع النقشبندي
٦٧- جامع الورد
٦٩- جامع يلغا
٧١- جامع الحنابلة
٧٣- جامع الملاح
٧٥- جامع المزاز
٧٧- جامع قرية المزة
٧٩- جامع ابن العنبري
٨١- جامع الحلّاج
٨٣- جامع التايّية
٨٥- جامع السرايا
٨٧- جامع الشهداء
٨٩- جامع نوري الشعلان
٤٨- جامع العمري
٥٠- جامع غبريال
٥٢- جامع القاعة
٥٤- جامع القلعي
٥٦- جامع مئذنة الشحم
٥٨- جامع المرباط
٦٠- مسجد الأقصاب
٦٢- جامع المناخلية
٦٤- جامع نافذ أفندي
٦٦- جامع ابن هشام
٦٨- جامع الياغوشية
٧٠- جامع الدلامية
٧٢- جامع الكريمي أو الدقاق
٧٤- جامع خليخان
٧٦- جامع داريا
٧٨- جامع النيرب
٨٠- جامع الحاجب
٨٢- جامع المرجاني
٨٤- جامع النحاس
٨٦- جامع دك الباب
٨٨- جامع الآغا
٩٠- جامع سيياي

- ٩١- جامع العداس
 ٩٣- جامع الصوفاء
 ٩٥- جامع السوق
 ٩٧- جامع جوبان
 ٩٩- جامع الكنجليه
 ١٠١- جامع المزار
 ١٠٣- جامع اللطاعين
 ١٠٥- الجامع الصغير
 ١٠٧- جامع الذهبية
 ١٠٩- جامع السلطان
 ١١١- جامع الشيخ صهيب
 ١١٣- جامع باب السلام
 ١١٥- جامع السكة (الشيخ أبو ثقاله)
 ١١٧- جامع الجليله
 ١١٩- مسجد زيزون
 ١٢١- جامع كريم الدين
 ١٢٣- مسجد العقبيه
 ١٢٥- مسجد الحجر
 ١٢٧- مسجد جلبان المعروف
 ١٢٩- جامع هشام بن عمار
 ١٣١- جامع الزنجاري
 ١٣٣- جامع البريدي
 ٩٢- جامع العنابة
 ٩٤- جامع الصابونية
 ٩٦- جامع النارج
 ٩٨- جامع بشاره
 ١٠٠- جامع التينبيه
 ١٠٢- جامع القراونه
 ١٠٤- جامع المزابل
 ١٠٦- جامع النحاسين
 ١٠٨- جامع السروجيه
 ١١٠- جامع الجسر
 ١١٢- جامع حسن آل سعد الدين
 ١١٤- جامع السلطان أحمد الغازي
 ١١٦- جامع البزوري
 ١١٨- مسجد التوابين
 ١٢٠- مسجد قبة اليبضا
 ١٢٢- جامع الشادبكية
 ١٢٤- مسجد النخلة
 ١٢٦- مسجد اليمن
 ١٢٨- مسجد الدويدار
 ١٣٠- جامع مراد باشا
 ١٣٢- جامع صهيب الرومي
 ١٣٤- جامع بلوزة

- ١٣٥- جامع المردانية
 ١٣٦- جامع الطشتدار
 ١٣٧- جامع عاصم
 ١٣٨- جامع المؤيد
 ١٣٩- جامع سنان باشا بالأخصاصية
 ١٤٠- جامع سنان أغا
 ١٤١- جامع فتحي
 ١٤٢- جامع فتحي
 ١٤٣- جامع المرادية
 ١٤٤- جامع مازي
 ١٤٥- جامع حمّان أغا
 ١٤٦- جامع الطواشي
 ١٤٧- جامع نور الدين الشهيد
 ١٤٨- جامع عبد الرحمن
 ١٤٩- جامع الدغمشية
 ١٥٠- جامع الشبكية
 ١٥١- جامع شكر
 ١٥٢- جامع المزة الكبير
 ١٥٣- جامع المسلوت
 ١٥٤- جامع ومقام أبو هريرة
 ١٥٥- جامع شمسي باشا
 ١٥٦- جامع القلبقية
 ١٥٧- جامع دار الحديث
 ١٥٨- جامع الخندق
 ١٥٩- جامع مدرسة العظم
 ١٦٠- جامع الخياطين
 ١٦١- جامع ومقام معاوية الصغير
 ١٦٢- جامع تحت القناطر
 ١٦٣- جامع المدرسية الفتحية
 ١٦٤- جامع الزاوية
 ١٦٥- جامع الشيخ فرح
 ١٦٦- جامع وحمّام البكري
 ١٦٧- جامع العمادي
 ١٦٨- جامع البيانية
 ١٦٩- جامع خالد بن الوليد
 ١٧٠- جامع العريشة
 ١٧١- جامع المليجي
 ١٧٢- جامع الطفطاصية
 ١٧٣- جامع الأمير جركس
 ١٧٤- جامع ومقام معاذ بن جبل
 ١٧٥- جامع باب الفرج
 ١٧٦- جامع السادات المجاهدين
 ١٧٧- مسجد ومقام الأمير سيف الدين دودار
 ١٧٨- جامع الحمزاوي

- ١٧٩- جامع الحبال
١٨١- مسجد الخراب
١٨٣- مسجد الحبوبي
١٨٥- مسجد النبهان
١٨٧- جامع السادات المنجدين
١٨٩- جامع البزورية
١٩١- جامع أبي أيوب الأنصاري
١٩٣- جامع الأتراك
١٩٥- جامع الأشمر
١٩٧- جامع الأكرم
١٩٩- جامع أويس القرني
٢٠١- جامع بدر في الزاهرة
٢٠٣- جامع البشير
٢٠٥- جامع التقوى
٢٠٧- جامع الثناء
٢٠٩- جامع الحسن في الميدان
٢١١- جامع الحسين
٢١٣- جامع الحرش
٢١٥- جامع الحمزة والعباس
٢١٧- جامع الخجا
٢١٩- جامع الخير
٢٢١- جامع الروضة
١٨٠- جامع المدرسة
١٨٢- جامع البكري
١٨٤- مسجد الخريزاتية
١٨٦- جامع الإمام عبد الله بن ذكوان
١٨٨- جامع الغواص
١٩٠- جامع إبراهيم الخليل
١٩٢- جامع أبي ذر الغفاري
١٩٤- جامع أسامة بن زيد
١٩٦- جامع الإصلاح
١٩٨- جامع أنس بن مالك
٢٠٠- جامع الإيمان
٢٠٢- جامع بدر في المالكي
٢٠٤- جامع بلال
٢٠٦- جامع الثريا
٢٠٨- جامع ابن حجر
٢١٠- جامع الحسن في أبي رمانة
٢١٢- جامع الحسين
٢١٤- جامع الحمد
٢١٦- جامع الحمزة
٢١٨- جامع الخياط
٢٢٠- جامع الرضوان
٢٢٢- جامع الزاوية بالمزة

- ٢٢٣- جامع الزهراء بالمزة
٢٢٤- جامع زيد بن الخطاب
٢٢٥- جامع سعد بن أبي وقاص
٢٢٦- جامع سعد بن معاذ
٢٢٧- جامع سعد بن زيد
٢٢٨- جامع سفيان الثوري
٢٢٩- جامع الإمام الشافعي
٢٣٠- جامع صلاح الدين بالمخيم
٢٣١- جامع صلاح الدين في ركن الدين
٢٣٢- جامع الصلاح
٢٣٣- جامع طارق بن زياد
٢٣٤- جامع عبد الرحمن بن عوف
٢٣٥- جامع عبد الله بن رواحة
٢٣٦- جامع عبد الله بن الزبير
٢٣٧- جامع عبد الحكيم
٢٣٨- جامع عبد القادر الحسيني
٢٣٩- جامع عبد الكريم الرفاعي
٢٤٠- جامع عثمان بن عفان
٢٤١- جامع علي بن أبي طالب
٢٤٢- جامع علي الدقر
٢٤٣- جامع عمر بن الخطاب
٢٤٤- جامع عمر بن عبد العزيز
٢٤٥- جامع عمار بن ياسر
٢٤٦- جامع الفتح
٢٤٧- جامع الفخر الرازي
٢٤٨- جامع الفردوس
٢٤٩- جامع فلسطين
٢٥٠- جامع القصور
٢٥١- جامع القيصري
٢٥٢- جامع كفرسوسة
٢٥٣- جامع الكوثر
٢٥٤- جامع الكويتي
٢٥٥- جامع كيوان
٢٥٦- جامع محمد الخطيب
٢٥٧- جامع المحمدي
٢٥٨- جامع المصطفى
٢٥٩- جامع مصعب بن عمير
٢٥٩- جامع المنصور
٢٦٠- جامع المهدي بالمزة
٢٦١- جامع الهدى
٢٦٢- جامع الشنواني
٢٦٣- جامع غزوة بدر
٢٦٤- جامع الخير بالمهاجرين
٢٦٥- جامع الهدى بالشاغور

- ٢٦٧- جامع الفاروق
٢٦٩- جامع لقمان الحكيم
٢٧١- جامع أبي عبيدة
٢٧٣- جامع الناعورة
٢٧٥- جامع كتخدا
٢٧٧- جامع النوفرة
٢٧٩- جامع الشيخ عبد الله
٢٨١- جامع سوق العتيق
٢٨٣- جامع الدلبة
٢٨٥- جامع نطه عمرية العمارة
٢٨٧- جامع البدرائية (العمارة)
٢٨٩- جامع النطاعين
٢٩١- جامع القطاط
٢٩٣- جامع المرادية
٢٩٥- جامع البخارين
٢٩٧- جامع سيدي بي باب شرقي
٢٩٩- جامع محيا السواري
٣٠١- جامع عز الدين
٣٠٣- جامع نور الحي
٣٠٥- جامع العجلوني
٣٠٧- قنوات تعديل
٣٠٩- جامع دركل
- ٢٦٨- جامع الكوثر
٢٧٠- جامع الصديق أو الحريقة
٢٧٢- جامع عيس باشا التروشية
٢٧٤- جامع الخضيرية
٢٧٦- جامع الأرمانى
٢٧٨- جامع داور أغا
٢٨٠- جامع جتر فيل
٢٨٢- جامع الحلوانية بين الحواصل
٢٨٤- جامع شارع الملك فيصل
٢٨٦- جامع العادلةية (العسرونية)
٢٨٨- جامع قحف الدنياري
٢٩٠- جامع الحفيناى
٢٩٢- جامع السيدة رابعة
٢٩٤- جامع الشيخ مسعود
٢٩٦- جامع القربي
٢٩٨- جامع برونز باشا باب توما
٣٠٠- جامع سلخدية
٣٠٢- جامع المعصرة
٣٠٤- جامع الفاخورة
٣٠٦- جامع الطالوية
٣٠٨- جامع الحصني شريبيشات
٣١٠- جامع أبي جبر

- ٣١١- جامع مسلخ
٣١٣- جامع دوكر
٣١٥- جامع الشيخ حماد
٣١٧- جامع الساحة
٣١٩- جامع الشيخ يعقوب
٣٢١- جامع أبو الصفا
٣٢٣- جامع الموصلي
٣٢٥- جامع رجال الزوايا ميدان قويق
٣٢٧- جامع الزيتونة
٣٢٩- جامع سيدي ركاب سويقة
٣٣١- جامع بظنا
٣٣٣- جامع الجديد
٣٣٥- مسجد وائلة بن الأسقع
٣٣٧- مسجد القلعة
٣٣٩- جامع باب توما (الثقفي)
٣٤٠- جامع نور الدين الشهيد
- ٣١٢- جامع أظم
٣١٤- جامع أكراد
٣١٦- جامع الوزه ميدان حقله
٣١٨- جامع الخضر
٣٢٠- جامع الخانكية
٣٢٢- جامع القرشي
٣٢٤- جامع الشيخ منصور
٣٢٦- جامع الغواص
٣٢٨- جامع افريدون العجمي
٣٣٠- جامع الشيخ الأكبر
٣٣٢- جامع يوسف آغا الأكراد
٣٣٤- جامع المنارة البيضاء
٣٣٦- مسجد الحسودية
٣٣٨- مسجد القصب
- وبالإضافة إلى الجوامع والمساجد هناك عدد كبير من دور القرآن الكريم ،
والحديث الشريف ، أورد فيما يلي قائمة بها :

دور القرآن الكريم :

- ١- دار القرآن الإسعردية
٣- دار القرآن التفتازانية
٥- دار القرآن الجزرية
٧- دار القرآن الدلامية
٩- دار القرآن السنجارية
- ٢- دار القرآن الأفريدونية
٤- دار القرآن والحديث التنكزية
٦- دار القرآن الخيضرية
٨- دار القرآن الرشائية
١٠- دار القرآن الصابونية

١٢- دار القرآن الصوفية الهروية

١١- دار القرآن والحديث الصبائية

١٤- دار القرآن المعبدية

١٣- دار القرآن العنبرية

١٦- دار القرآن الوجيهية

١٥- دار القرآن الهلالية

دور الحديث الشريف :

٢- دار الحديث الأشرفية الجوانية

١- دار الحديث الأشرفية البرانية

٤- دار الحديث الحمصية

٣- دار الحديث البهائية

٦- دار الحديث السامرية

٥- دار الحديث الداوادية

٨- دار الحديث الشقيشقية

٧- دار الحديث السكرية

١٠- دار الحديث الفاضلية

٩- دار الحديث العروية

١٢- دار الحديث القوصية

١١- دار الحديث القلانسية

١٤- دار الحديث الناصرية

١٣- دار الحديث الكروسية

١٦- دار الحديث النفسية

١٥- دار الحديث النظامية

١٧- دار الحديث النورية الكبرى .

ونظراً لأن الجامع الأموي يعدّ من أبرز جوامع دمشق وأكبرها ، ومن أشهر معالمها الأثرية ، فسيتم التركيز عليه في الصفحات التالية :

جامع المرباط :

لا يزال في حي المهاجرين ، بشارع ناظم باشا ، جادة المرباط ، شيده علي أفندي المرباط بوصية « مراد المرباط » سنة (١٩٣٠ م) بينما يذكره العلبي سنة (١٩٣٩ م)^(١) . وأجريت فيه عدة عمليات ترميم كان آخرها سنة (١٩٩٠ م) وكان من خطبائه الشيخ محمد عربي اليعقوبي رحمه الله .

(١) ذيل ثمار المقاصد لطلّس ٢٥٠ ، خطط دمشق للعلبي ٣٥١ ، مآذن دمشق للشهابي ٥٤٣ ، معالم دمشق التاريخية للإيش والشهابي ٤٨٢ .

جامع مراد باشا :

لا يزال في حي السوق ، انظر جامع النقشبندی . ويعرف أيضاً باسم : جامع المرادية ، ومسجد السوق المحروقة^(١) .

جامع المرادية :

كان في المدرسة المرادية الجوانية بسوق المرادية الدراس ، بباب البريد ، شيده في العهد العثماني الشيخ مراد بن علي البخاري النقشبندی سنة (١١٠٨ هـ) ، وهو نفسه الذي شيّد جامع المرادية (رقم ٢) في المدرسة المرادية البرانية بسوق ساروجا . انظر المدرسة المرادية الجوانية .

لا يزال في حي سوق ساروجا ، بحارة الورد ، شيده في العهد العثماني الشيخ مراد بن علي البخاري النقشبندی سنة (١١٠٨ هـ) . انظر أيضاً المدرسة المرادية البرانية^(٢) .

جامع المرجاني :

كان بضواحي المزة ، شيده في العهد المملوكي الشيخ بهاء الدين محمد بن أحمد بن المرجاني سنة (٦٦٩ هـ)^(٣) .

جامع لالا مصطفى باشا :

لا يزال في شارع بغداد ، بين ساحة السبع بحرات ، وشارع الثورة . قبالة معهد اللايك ، شيده في هذا الموقع أحفاد الوالي العثماني الوزير لالا مصطفى باشا من آل مردم بك سنة (١٩٣٦ م) ، بديلاً عن الجامع القديم المقام في المعهد العثماني سنة (٩٧١ هـ) الذي كان يحمل نفس الاسم ضمن حديقة سامي باشا مردم بك عند

(١) ذيل ثمار المقاصد لطلّس ٢٥١ ، النقوش الكتابية في أوابد دمشق للشهابي ، ٢٣٦ .

(٢) منادمة الأطلال لبدران ٢٦٤ ، ذيل المقاصد لطلّس ٢٥١ .

(٣) الدارس للنعمي ٤٤٢/٢ ، مختصر تنبيه الطالب للعلموي ٢٣٤ ، خطط الشام للعليبي ٣٨٠ ، مآذن دمشق للشهابي ٥٣٣ .

سوق خان الباشا ، والذي هُدم عند إنشاء سوق الهال [القديم] أيام الانتداب الفرنسي . والجدير بالذكر أن لقب (لالا) تركي يعني (مربى أولاد السلطان)^(١) .

جامع مئذنة الشحم :

لا يزال في محلة مئذنة الشحم التي كانت تُعرف في القرن التاسع الهجري باسم (قبة الشحم) ، قبالة سوق البزورية ، وذكر ابن طولون هذه المحلة باسم (عقبة الصوف) ، والجامع صغير منفصل عن المئذنة وبينهما الطريق ، ولا يعرف بالضبط متى أُقيم ، وقد طغت شهرة مئذنته عليه ، شيدها في العهد المملوكي (علي الكسار) سنة (٧٧٠هـ) . ويُعرف الجامع أيضاً باسم : جامع الحبالين [لوقوعه قرب سوق الحبالين] ، وجامع الحبوبي ، وجامع الريحان [لوقوعه عند مدخل درب الريحان] ، وجامع السوق [لوقوعه قبالة سوق البزورية المشهور] ، ومسجد مئذنة الشحم ، ومسجد السوق^(٢) . ولم يبق من مئذنته سوى قسمها الأسفل .

جامع مازي :

لا يزال بالقيبات من حي الميدان الفوقاني ، قرب بوابة الله [ساحة الأشمر] ، لم يذكره فاتسنكر الذي مسح المنطقة ميدانياً عام (١٩١٧م) ، لكنه ورد عند طلس سنة (١٩٤٢م) ، وهذا يعني أنه أُقيم بين التاريخين . أما نسبة تسميته فلم أتوصل إليها^(٣) .

جامع العُصالي :

لا يزال في منطقة القدم جنوبي دمشق ، وهو من جوامع العهد العثماني ، شيده الوزير أحمد باشا كوجك سنة (١٠٤٦هـ) ، وجعل فيه تكية وسيلاً للناس ، ونسبه

(١) ذيل ثمار المقاصد لطلس ٢٤٩ ، خطط دمشق للعلبي ٣٤٧ ، مآذن دمشق للشهابي ٢٤٣ ، معالم دمشق التاريخية للإيش والشهابي ٤٧١ .

(٢) الآثار الإسلامية في مدينة دمشق لفاتسنكر ١٦٩ ، ذيل ثمار المقاصد لطلس ٢٤٩ ، خطط دمشق للعلبي ٣٤٨ ، مآذن دمشق للشهابي ، معالم دمشق التاريخية للإيش والشهابي ٧٤٧ .

(٣) ذيل ثمار المقاصد لطلس ٢٥٠ ، مآذن دمشق للشهابي ٢٠٩ ، في رحاب دمشق لدهمان ١٥٣ ، مآذن دمشق للشهابي ٥٢٧ .

للعابد الزاهد الشيخ أحمد بن علي الحريري العسالي شيخ الطريقة الخلوتية الصوفية بدمشق ، المتوفى سنة (١٠٤٨ هـ) والمدفون في هذا الجامع . ويعرف أيضاً بمقام العسالي^(١) .

جامع عصفور :

لا يزال في حي الميدان الفوقاني ، شرقي الطريق ، بساحة عصفور . وكان في موضعه مسجدٌ قديمٌ يعرف بمسجد (نائل ؟) . وهو مجدّد سنة (١٩٤٣ م)^(٢) .

جامع العفيف :

لا يزال برأس جادة العفيف الآخذة من الجسر الأبيض إلى المهاجرين ، وهو جامع قديم ذكره ابن عبد الهادي بقوله : « مسجد مستجدّ جدّده العفيف بن أبي الفوارس عامل الجامع » ، وورد ذكره عند النعمي وسمّاه : « مسجد العفيف بن أبي الفوارس » . وهذا يعني أن المسجد كان موجوداً في العهد المملوكي . ويبدأ ظهور اسم (جامع العفيف لا مسجد العفيف) في العهد العثماني عندما يذكره الغزيّ عرضاً في سياق ترجمته لبديع بن الضياء سنة (٩٤٢ هـ) . وفي سنة (١٩٥٠ م) قامت مديرية الأوقاف بهدمه وبناء جامع حديث في موضعه . وفي داخل الجامع ضريح ينسب للشيخ العفيف^(٣) .

جامع يلغا :

لما له من مكانة في تاريخ دمشق وكونه يعتبر من أشهر جوامع دمشق ، فهو أحد الجوامع الكبرى فيها لذا رأيت أن أخصص له بحث كامل عن تاريخه أسوة بالجامع الأموي الكبير ، فهو أحد المساجد التاريخية فيها أي أن عمره أكثر من ست مئة وسبعين سنة ، ويعد أثراً تاريخياً ومعلم من معالم دمشق التاريخية وتميز بنطاق

(١) منادمة الأطلال لبدران ٣٨٤ ، ذيل ثمار المقاصد لطلس ٢٣٩ .

(٢) ذيل ثمار المقاصد لطلس ٢٤٠ ، مآذن دمشق للشهابي ٢٠٧ .

(٣) ثمار المقاصد للنعمي ٣٦٩/٢ ، الكواكب السائرة للغزي ١٢٦/٢ ، مخطط الصالحية لدهمان ، ذيل ثمار المقاصد لطلس ٢٤٠ ، خطط دمشق للعلي ٣٤٢ ، مآذن دمشق للشهابي ٢٢١ ، مشيدات دمشق ذات الأضرحة للشهابي ٥٧٥ .

الكتابات الجميلة التي تزين جدران الحرم ، وقد تحدث كثير من الشعراء عن أهمية عمارة (جامع يلبغا) وسعته ، حتى إنهم اعتبروه من روائع العمارة ولا مثيل له وفي ذلك أنشد (ابن حبيب الحلبي) قائلاً :

يمم دمشق ، وصل إلى غربها وألمح معاني حسن جامع يلبغا
من قال - من حسد - رأيت نظيره بين الجوامع في البلاد فقد لغا
جامع يلبغا أحد الجوامع التي أخذت تشيد خارج أسوار مدينة دمشق من العهد الأيوبي ولقد شيّد على نسق الجامع الأموي في خطوطه العامة .

بني جامع يلبغا على ضفة نهر بردى من الجهة الشمالية الغربية من المدينة القديمة في منطقة عرفت وقتئذ بالميدان الأخضر والمرج ، وكان إلى الشرق منه المنطقة المشهورة بسوق الخيل وتحت القلعة . أما اليوم فإنه يحتل بقعة تطل من الجنوب على ساحة المرجة المشهورة ومن الشرق على السوق العتيق وجوزة الحدبة ومن الشمال والغرب محلة البحصّة ، وقد أخذت تتغير معالم المنطقة في السنوات الأخيرة من الناحية العمرانية فغطي نهر بردى وزالت معالمه وهدمت الأحياء القديمة وشقت طرقات حديثه وبدأت تظهر في المنطقة ناطحات السحاب . وقرر المسؤولون في وزاره الأوقاف الأفادة من مساحة الجامع الكبيرة (٤٥٠٠ م) ٢ واستثمارها في إقامة بناء حديث ، وتقرر لذلك وللأسف هدم الجامع ، وبدىء بهدم أجزاء منه في عام (١٩٦٨ م) ثم هدمته سنة (١٩٧٥ م) لإقامة بناء حديث على أرضه ، ونقلت بعض آثاره إلى متحف دمشق كما يذكر الأستاذ الريحاوي في كتابه (العمارة العربية الإسلامية) ولم يتم البناء الحديث حتى عام (٢٠٠٦ م) .

تاريخ الجامع :

شرع في بناء جامع يلبغا في عام (١٣٤٦٧٤٧ م) بناء على رغبة من نائب السلطنة في دمشق الأمير سيف الدين يلبغا اليحياوي ^(١) .

(١) حكم دمشق بين عامي (٧٤٦ و ٧٤٨) (١٣٤٥ ، ١٣٤٧) انظر ترجمته في أعلام الوري لأبن طولون ص ١٩ .

واكتمل بناؤه في عام (١٣٥٦/٧٥٧ م) أي بعد عشر سنوات . تبلغ مساحته (٤٧٢٠ م^٢) بما فيها الصحن والحرم . جمعت الحجارة لبنائه من أرجاء المدينة . وأعيد ترميمه سنة (١٣٥٠ هـ) . ثم هدم نهائياً سنة (١٣٩٠ هـ) وبني مكانه مسجد حديث .

يقول ابن كثير في وصف حفلة الافتتاح : وفي يوم الجمعة خامس شهر رمضان خطب بالجامع الذي أنشأه سيف الدين يلغا الناصري غربي سوق الخيل وفتح في هذا اليوم وجاء في غاية الحسن والبهاء وخطب الشيخ ناصر الدين ابن الربوة الحنفي ، فلبس يومئذ الخلعة السوداء من دار السعادة^(١) وجاؤوا بين يديه بالسناجق السود ، والمؤذنون يكبرون على العادة وحضر كثير من الأمراء والعامة والخاصة وبعض القضاة وكان يوماً مشهوداً .

ولقد كان يوم اكتماله في غاية الحسن وموضع الإعجاب ، حتى قال فيه الشاعر (درويش الطالوي) يذكر جامع يلغا بمرجة دمشق :

أَلِمُّ بِسَاحَةِ (يَلْبَغَا) مَهْمَا انْبَرَتْ	مِنْكَ الِهُمُومُ وَمُلُّ إِلَى شِبَاكِهِ
وَاسْتَجَلِ رَوْضاً مِنْ سَمَاءِ زُمَرْدٍ	طَلَعَتْ نَجُومُ الزَّهْرِ مِنْ أَفْلَاكِهِ
يَنْسَابُ فِيهِ كَالْمَجْرَّةِ جَدُولٌ	حَصْبَاؤُهُ كَالدَّرِّ فِي اسْلَاكِهِ
حَاكَتْ لَهُ الْأَنْوَاءُ مِنْ حُلُلِ الْبَهَا	وَشَيْئاً يَحَارُ الطَّرْفُ فِي إِدْرَاكِهِ
وَرَسَا النَّسِيمُ بِسَاحَتِهِ كَمَا رَسَتْ	طَيْرٌ تَدِيمُ الشَّجُو فَوْقَ أَرَاكِهِ

وقد تعرض الجامع خلال حياته إلى الهدم أكثر من مرة فرمم وأدخلت عليه تعديلات غيرت الكثير من معالمه الأولى ونلخص فيما يلي أهم الأحداث التي مرت عليه :

١- جددت عمارة الجامع ولاسيما فيه الحرم وأروقة الصحن في عام (٨٠١ هـ / ١٣٩٨ م) كما أشارات إلى ذلك الكتابة التاريخية المنقوشة على مئذنة الجامع .

(١) وهي قصر نائب السلطنة وكانت تقع جنوبي القلعة حيث يوجد اليوم سوق الحميدية ، انظر البحث عن قصور الحكام في دمشق ، مجلة الحوليات الأثرية ، المجلد ٢٢ لعام ١٩٧٢ ص ٤٨-٧٠ .

٢- إقامة قوس حجري كبير فوق المحراب والمنبر في عام (٨٠٩هـ/١٤٠٩م) أرخت ذلك كتابة منقوشة على حجارة القوس .

٣- ترميم الجامع بشكل عام في أيام نائب السلطنة في دمشق نوروز الحافظي في مطلع القرن التاسع الهجري أرخت ذلك كتابة في جدار الحرم الجنوبي .

٤- هدمت قبة الجامع في زلزال عام (١٧٥٩م) الشهير .

يقول كمال الدين الغزي في وصف الزلزال :

(وسقط جميع جامع يلغا مع قبة الهائلة ومنارته مع أن بناءه كان في غاية الرصانة والمتانة)^(١) .

وصف الجامع وهندسته :

الواقع أننا لم نعثر فيما تحريناه من المصادر على وصف كامل للجامع ، كما لم نجد دراسة وافية له بين الأبحاث والدراسات الحديثة .

وأقدم من تحدث عن الجامع من القدماء أبو البقاء البدري الدمشقي في نزهة الأنام في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري أي بعيد من بناء الجامع . قال :

وهو من أحسن الجوامع ترتيباً ومتزهاً ، بصحنه بركة ماء مربعة داخلها فسقية مستديرة بها نوفرة يصعد عنها الماء قامة ، ومن فوقها مكعب عليه عريشة عنب ملون يصل الماء إلى قطوفها الدانية ، وبجانبها حوضان فيهما من أنواع الفواكه وأجناس الرياحين ، وله شبابيك تطل على جهاته الثلاث الأولى على تحت القلعة من جهة الشرق والجهة الثانية تطل على بين النهرين وهي الغربية . والجهة القبلية تنظر إلى نهر بردى وما هناك من الأشجار والأزهار . وهناك شجرة حور يحتاط بها أربعة رجال فلا ينظر الواحد لمن يقابله لعظم ساقها .

(١) التذكرة الكمالية للغزي المتوفي سنة (١٢١٤هـ) . نص منشور في مجلة المقتبس (المجلد السادس) أعاد نشره في مجلة المشرق الجزء الثاني ، نيسان حزيران (١٩٤٨م) الأستاذ (أحمد دهمان) .

وللجامع ثلاثة أبواب الأول الشرقي وهو في صدر تحت القلعة ويسمى باب الحلق ، والثاني شماله يخرج إلى الميضاة ويسمى باب الفرج ، والثالث غربيه ينحدر منه درج إلى أول الوادي ويسمى باب المنزه . ونلاحظ بأن وصف أبي البقاء مقتضب ويتناول الصحن والمحيط الخارجي للجامع وأسماء أبوابه ولم يتعرض إلى الوصف المعماري .

ووصف سوفاجه الجامع بأنه على شاكلة الجامع الأموي وأنه كان له قبة فوق المحراب .

ولنبداً الآن بوصف الجامع وهندسته وتحليل عناصره المعمارية والزخرفية ومحاولة تأريخها .

المخطط العام :

سور مستطيل أطواله (٧٢ ، ٦٢) متراً . مؤلف من حرم في الجنوب وصحن محاط بأروقة داخلية ومزود بثلاث أبواب مفتوحة على جهاته الثلاث الشمالية والشرقية والغربية . البابان الشرقي والغربي متقابلان على محور واحد ، وملاصقان للحرم . أما الباب الشمالي فيتوسط الواجهة الشمالية وإلى جانبه تقوم المئذنة . ويتوسط الصحن بركة ماء .

١- الحرم أو قبلة الجامع :

يحتل الحرم الجناح الجنوبي من الجامع وتبلغ أطواله مع جدرانه الخارجية (٧٤ ، ١٥ ، ٥) متراً ، حدثت فيه تعديلات وأعمال تجديد جعلت من الصعب التعرف على وضعه الأصيل ، ويتألف قبل أن يهدم من رواقين موازيين للقبلة يفصلهما صف من الأعمدة والعضائد فوقها قناطر تحمل السقف ، وهذا السقف حديث يتألف من جسور خشبية عادية . ويقطع سقف الرواق الجنوبي فوق المحراب جملون مرتفع عن بقية السقف لإدخال مزيد من النور .

ويحتوي صف الأعمدة على ثلاثة أعمدة متتالية في الجانب الشرقي من الحرم ، ومثلها في الجانب الغربي ، يليها في وسط الحرم عضادة مستطيلة في كل طرف ،

ثم عضادتين صغيرتين تحتضنان عمودين جميلين مقصصين من الحجر الأصفر لهما تاجان مقرنصان وفوقهما قوس جميل من الحجر المنحوت المقولب باطنه على شكل قناتين بينهما قسم ناتئ وقد جعل هذا القوس مقابل المحراب والمنبر . ثم ينتهي صف الأعمدة عند الجدارين الشرقي والغربي بعضادة مستطيلة أقيمت في وجه الأيوان ، بشكل يلفت الانتباه لأنها تشوه الأيون وهو أصيل ، الأمر الذي يجعلنا نشك في أصالة صف الأعمدة الذي يتوسط الحرم ويقسمه إلى رواقين .

أما القناطر المحمولة على العمدة والعضائد فهي غير متساوية الفتحة نظراً لاختلاف المسافة بين العضائد والأعمدة ، وهي تتراوح بين (٥ × ٤,٥) أمتار باستثناء القنطرة الوسطى الكائنة أمام المحراب ، فإن فتحتها تبلغ (٦) أمتار .

المحراب :

فهو أثمن شيء في الجامع من الناحية الفنية ، صنع في منتصف القرن الثامن ، زينت طاسته بزخارف جصية متنوعة وعروق نباتية ملتفة ضمن أشكال زخرفية متناسقة مع شريط من الكتابة بالخط الكوفي المذوق بين إطارين من الزخارف النباتية ، أما حنية المحراب فقد كسيت بالرخام ، وفي الأعلى سلسلة من المحاريب التزيينية ذات قوس ثلاثي الفصوص له واجهة بارزة منقوشة بالزخارف الملتفة محمولة على سويريتين من النوع المقنى (مؤلف من قنوات شاقولية) أما داخل المحراب فيتألف من لوح من الرخام مع تناوب في ألوان هذه الألواح من محراب لآخر ، أسود وسماقي وقد نقش على هذه الألواح زخرفة جميلة ويلي هذه السلسلة من المحاريب وحتى أسفل المحراب قضبان شاقولية من الرخام الأبيض والأسود بالتناوب ، هذا وقد زينت واجهة المحراب بقوس مؤلف من حجارة ملونة أبيض وأسود وسماقي بالتناوب ، يحمله عمودان من الرخام لهما تاجان جميلان من الطراز الكورانتي المتطور .

وجعلت في زوايا الواجهة حول القوس قطع من الفسيفساء الرخامية (المشقف) وأحيط المحراب من الأعلى والجانبين بشريط من المشربيات الملونة أيضاً (أسود وأبيض وسماقي) .

جدار الحرم الجنوبي :

فيتألف من أيوان في الوسط قليل العمق يضم المنبر والمحراب و يليه من كل جانب شباك كان بينهما محراب ثانوي ، والشبايك الأربعة مسقوفة بنصف قبة مزينة بالمقرنصات الجميلة ، أما إيوان المحراب المذكور فيحدث تراجع جدار الحرم بمقدار (١,٣٧) متراً ويعلوه قوس من الحجر لونت حجارته بالأصباغ ، وقد أقيم هذا القوس في عام (٨٠٩هـ / ١٤٠٦م) أي بعد نصف قرن من بناء الجامع ، ولعل سبب بنائه كان من أجل دعم القبة ذلك لأنه محمول على عضادتي القبة الجنوبيتين ، وقد أرخت بناءه كتابة موزعة على جانبيه مؤلفة من سطرين في كل جانب .

الجانب الغربي :

- ١- أنشأ هذا القوس المبارك الجنب الكريم العالي المخدومي .
- ٢- السيفي أتاك الأينالي دوا دار المقر الأشرف الكريم العالي المخدومي .

الجانب الشرقي :

- ١- السيفي نوروز الحافظي كافل الممالك الشريفة الشامية أعزه الله .
 - ٢- تعالى أنصاره وذلك في شهر ذي الحجة الحرام سنة تسع وثمان مئة .
- وفي واجهة القوس نقش اسم المعمار الذي بنى القوس ضمن العبارة التالية :
- عمل العالم محمد الصوري . . . بن العطار .

وهناك شريط عريض من الكتابات والزخارف الجصية منقوش على جدار الحرم الجنوبي يبدأ من الغرب إلى الشرق فوق مستوى الشبايك . وهذا الشريط مشوه قليلاً ولكنه ثمين جداً من الناحية الفنية وقد أضيف في أسفله وفوق أجزاء منه ، في عهد لاحق شريط آخر من الكتابة أما الشريط الأول : فأصيل من عهد بناء الجامع ويبلغ عرضه (١,٣٠ متراً) وهو مقسم إلى عدة حقول موزعة من الأعلى إلى الأسفل كما يلي :

حقل زخارف عرضه (٠,١٤) متراً يليه حقل عرضه (٠,٠٨) متراً يتألف من

عبارة (الحمد لله) مكررة ومكتوبة بخط كوفي . ثم حقل ثالث من الزخارف عرضه (٣٠ , ٠ متراً) . يتألف من نموذج زخرفي متكرر ، مما يدل على أن النقوش مصنوعة بطريقة القالب ويليه حقل زخارف عرضه (٣٠ , ٠ متراً) . والحقل الخامس هو الحقل الرئيسي وعرضه (٤٨ , ٠ متراً) ويحتوي على آيات قرآنية مكتوبة بأحرف كوفية كبيرة وجميلة على أرضية من الزخارف النباتية . وتتوزع الكتابة ضمن إطارات تفصل بينها حليات مستديرة ويلي حقل الكتابة هذا حقلان صغيران من الزخارف النباتية الناعمة . عرض كل منها (١٠ , ٠ متراً) يؤلفان إطاراً سفلياً لشريط النقوش الجصية .

ويتفرع عن هذا الشريط في الأعلى إطارات جميلة دائرية تطوق الطاقات المفتوحة في جدار القبلة ، وهي ست طاقات ثلاث على كل جانب من جوانب المحراب مصنوعة من الزجاج الملون المعشق بالجص لكل منها زخرفة خاصة ، وقد تجدد بعضها وتكسر البعض الآخر مؤخراً .

أم الشريط المحدث : فعرضه (٦٠ , ٠ متراً) ويتألف من آية قرآنية مكتوبة بخط نسخي بلون أصفر على أرضية زرقاء ، والأحرف بارزة منفذة بالطين الأحمر على أرضية من الكلسة . وقد أحدثت أيضاً في عهد الأمير نوروز نائب السلطنة في الشام المار ذكره أي في مطلع القرن التاسع الهجري بدليل الكتابة التاريخية التي تأتي في آخر الشريط ، والتاريخ مفقود من النص بسبب تشوه القسم الأخير منها ، إلا أننا نرجح أن يكون في حدود سنة (٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ م) أي في الوقت الذي أنشئ فيه قوس أيوان المحراب المار ذكره .

وفيما يلي نص الكتابة التاريخية : « جدد هذا المسجد المبارك في أيام مولانا ملك الأمراء كافل الممالك الشامية نوروز أعزه الله بنظارة المقر السيفي إينال دوادار المشار إليه أعزه الله ونصره » ويحسن أن نشيره هنا إلى وجود كتابة أخرى منقوشة على ألواح خشبية موجودة على جانبي جدار الحرم القبلي ضمن الإيوانين المجاورين له ، موزعه على شكل إفريز يحيط بجدران الإيوان .

وهي ليست من عصر الجامع بل أقدم منه ومؤرخه في عام (٦٦٢هـ / ١٢٦٣م)
ومما لا شك فيه أنها منقولة من جامع آخر عند بناء جامع يلبغا أو بعد ذلك . وهي
مكتوبة بخط نسخي أيوبي جميل .

إفريز الأيوان الغربي :

١- الجدار الشمالي : صلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى .

٢- الجدار الغربي : أله وأزواجه الطيبين الطاهرين بتاريخ رجب الفرد سنة اثنين
وستين وستمئة .

٣- الجدار الشرقي : بسم الله الرحمن الرحيم إنما يعمر مساجد الله من آمن
بالله .

إفريز الإيوان الشرقي : سطر واحد يحيط بجدران الأيوان الثلاثة مؤلف من آيات
قرآنية .

١- الجدار الجنوبي : (وإذا دعوا) إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم
معرضون .

٢- الجدار الشرقي : وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين الحمد لله رب
العالمين .

٣- الجدار الشمالي : والعاقبة للمتقين الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا
لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل .

جدار الحرم الشمالي :

أشرنا إلى أن الجدار الحالي غير أصيل وإلى الشكل الذي افترضناه لوضعه
الأصيل ، ولا نستطيع أن نؤرخ زمن ترميمه أو تجديده والمرجح أن يكون ذلك بعد
زلزال عام (١٧٥٩م) ، لأن هندسته خالية من الجمال والإتقان المعماري وهو
يتألف من مجموعة من الأبواب الواسعة المفتوحة على الصحن بقناطر ذات أقواس
حجرية غير متقنة أيضاً ومكلسة .

وعدد هذه الأبواب ثلاثة عشر ، ثلاثة أمام أيوان المحراب وخمسة في كل من
الجهتين الشرقية والغربية .

٢- الصحن والأروقة :

يحتل الصحن الجانب الشمالي من الجامع تحيط به أروقة لا نعلم كيف كان
وضعها لأنها متهدمة منذ زمن طويل ، وقد شاهدنا من بقاياها عموداً من الغرانيت في
الجانب الشرقي جعلنا نؤيد بوجوده ما افترضناه من أنها كانت شبيهة بأروقة صحن
الجامع الأموي أي أنها مؤلفة من قناطر محمولة على عمد وعضائد بمعدل عمودين
متتاليين بين عضادتين ، وهكذا .

وقد وصف أبو البقاء كما رأينا هذه الأروقة بأنها مفتوحة إلى الخارج بشبايك ،
وقد بقي منها إلى جانب الباب الشرقي ثلاثة وهي متقاربة من بعضها ، كما هو الحال
بالنسبة لشبايك جداري الحرم الشرقي والغربي (كل ثلاثة أمتار شباك) .

أما بركة الصحن التي صنعها أبو البقاء فهي مستطيلة الشكل اطوالها : (١١ ، ٧)
متراً ، وفي وسطها فسقية مؤلفة من كأس واسع قطره (١ ، ٢٧) متراً من الرخام مع
تجاويف بداخله تجعله يشبه الصدفة .

٣- الأبواب :

نعتقد بأن أبواب الجامع ثلاثة على الرغم من اختلاف هندستها وشكلها أصيلة من
عهد الجامع الأول .

ويعتبر الباب الشرقي هو الباب الرئيسي للجامع وهو أجمل هذه الأبواب . مبني
بالحجارة ذات المداميك المتناوبة الألوان (أصفر وأسود) ونقشت على بابه كتابة
في عهد متأخر تجعل تاريخ بنائه سنة (٦٦٢ هـ) وهذا خطأ ، وقد أخذ هذا التاريخ
من الكتابة المنقوشة على إفريز الخشب الكائن في إيوان الحرم الغربي . ويعلو
الساكف قوس عاتق مزخرف مؤلف من أحجار مقصقة ومدككه بالتناوب أسود
وأصفر .

أما إيوان الباب فمسقوف بنصف قبة غنية بالمقرنصات أما الباب الغربي : فإنه يختلف في شكله وزخارفه عن الباب الشرقي ، بل يشبه من حيث الزخارف الباب الشمالي الأتي وصفه . ويعلو إيوان الباب قوس مقطع إلى فقرات تشبه كعوب الكتب المجلدة أما الإيوان فمعقود بنصف قبة مقسمة إلى ثلاثة فصوص قسمها السفلي مصلع ويعتمد على مقرنصات في الزاويتين يرى هيرتز فيلد أن هذا الباب هو وحده الذي يرجع إلى الجامع الأول .

أما الباب الشمالي : فيختلف أيضاً عن كل من الباب الشرقي والغربي ويتميز بأن له أيواناً قليلة العمق معقوداً بقوس حجري ، ويلى فتحة الباب حجر مهياً لتنقش عليه كتابه . وفوقه مدماك مؤلف من حجارة مدككة متناوبة الألوان ، فوقها طاقة ذات إطار مستدير مؤلفة من مشربيات متناوبة في اللون ، أبيض وأسود .

٤- المئذنة :

وهي مئذنة مربعة الشكل قليلة الارتفاع مشيدة بالحجر ، وقد جددت أكثر من مرة ، أولها في عام (٨٠١ هـ) كما تؤرخ ذلك الكتابة المنقوشة على ساكف باب المئذنة الذي نقل إلى المتحف الوطني عند هدم المئذنة في عام (١٩٦٨ م) وآخرها بعد زلزال عام (١٧٥٩ م) .

نص كتابة المئذنة : ثلاثة أسطر بخط نسخي مملوكي بسيط ، خال من الزخرفة .

١- جدد عمارة هذا الجامع المعمور بملك الله تعالى وقبته ورواقاته وبياضه مولانا ملك الأمراء كافل الممالك الشامية تنبك^(١) .

٢- الظاهري أعز الله أنصاره من ماله بنظر المقر سنقر الشمسي الزمام^(٢) أحسن الله إليه ونظر في حال السادة المؤذنين والمقرئين .

(١) نائب السلطنة في دمشق بين عامي (٧٩٥-٨٠٢ هـ) (١٣٩٢-١٣٩٩ م) ويدعى أيضاً تنبك

الحسني ، وله مسجد ينسب إليه في محلة الميدان يدعى مسجد التينية وفيه تربته .

(٢) لقب دارج في العهد المملوكي يطلق على من يتحدث على باب ستاره السلطان أو الأمير وهو

الموكل بحفظ الحرم وأصلها الزنان ، الفلقشندي صبح الأعشى ، ٥/ ٤٥٩ .

٣- لكل مؤذن منهم في الشهر مبلغ ستين درهم موافقة لما شرطه الواقف رحمه الله في سنة واحد وثمانمئة فمن بدله بعدما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه .

٥- الواجهات الخارجية :

لم يبق من واجهات الجامع إلى عصرنا سوى أجزاء قليلة يمكن أن تعطينا فكرة عما كانت عليه واجهات الجامع في حالته الأولى وهذه الأجزاء موجودة في الواجهة الشرقية على جانبي الباب وفي الواجهة الجنوبية عند الشبايك فقط ولقد كانت واجهاته مشيدة من قسم حجري في الأسفل ، والقسم العلوي ، مشيد بالأجر والكلسة .

ويبلغ ارتفاع القسم الحجري من الواجهات حوالي (٤٨,٤) متراً . مشيدة بالحجارة الجيدة النحت المؤلفة من مداميك يبلغ ارتفاعها الوسطي (٣٨,٠) متراً ولون هذه المداميك أصفر وأسود بالتناوب . وتنتهي في إحداها بطنف (كورنيش) من الحجر ذي اللون السماقي المنحوت على شكل قولية ذات قناة .

ويتخللها شبايك مستطيلة ، كل ثلاثة أمتار شباك أبعاده (١,٤٠ × ٢,٥) م . وفوق كل ساكف الشباك عقد عائق يتوسطه حجر أسود مزخرف ومدكك مع حجارة العقد البيضاء ، وتمتد الواجهة الشرقية باتجاه الجنوب زيادة عن الحرم مسافة عشرة أمتار والزيادة مؤلفة من باب يليه شباك كان كالواجهة الأصلية تماماً من حيث ارتفاع المداميك وألوانها وكذلك الأطاريف وشكل الشبايك .

ونرجح أن تكون هذه الزيادة أضيفت في عهد لاحق على نسق واجهة الجامع من أجل أحداث تربه ملحقة بالجامع . ولا نعلم ماهية هذه التربة بسبب تدهمها وزوال قبورها . إلا أن باب التربة ، مملوكي العصر من حيث الفن المعماري والمقرنصات والعقد العائق الموجود فوق ساكف الباب والذي يشبه كل الشبه عقد شبايك الجامع .

يحتوي الباب على كتابة من العهد العثماني نقشت على القوس العائق والساكف وجوانب إيوان الباب . وفيما يلي نصها :

١- على القوس العاتق : يوجد ما يشبه الرنك أو التوقيع يتضمن العبارة التالية :
السلطان سليمان^(١) عز نصره .

٢- على ساكف الباب : « ملعون بن ملعون من يمنعهم من هذه التربة ويجعلها
حاصل الجيم وكان على القدر الشريف الممتاز فيه الست بنت الشيخ يوسف .

٣- على يمين الباب : « وذلك بتاريخ مستهل سنة سبع وثلاثين وتسع مائة » .

٤- على يسار الباب : سطر مشوه وغير مقروء .

ونشير أخيراً إلى وجود عدد من المراسيم المنقوشة في العهد المملوكي على
طرفي الباب الشرقي ولكنها مشوهة وصعبة القراءة وقد نشر ما أمكن قراءته منها
العالم الأثري سوفاجه المرسوم الأول صادر عن السلطان الأشرف برسياني بتاريخ
سنة (٨٢٦هـ/١٤٢٢م) .

والمرسوم الثاني صادر عن السلطان الظاهر ولا يمكن معرفة أي من السلاطين
هو لأن هناك خمسة لقبوا بهذا اللقب بعد بناء الجامع ، ويتضمن المرسوم إبطال
رسوم مكس سوق الدواب .

أما المرسوم الثالث فمؤرخ في سنة (٩٠٣هـ) وصادر عن نائب السلطنة في
دمشق ويتضمن إبطال الرسوم الموضوعة على شراء الخيل .

قال أبو الفتح محمد التونسي :

وَمَذْرَجٍ لَمْ يَخْلُ مِنْ دَارِجٍ	كَمْ نُزْهَةٍ فِي يَلْبُغَا نَبْغِي
فَاقَ عَلَى الزُّورَاءِ مِنْ عَالِجٍ ^(٢)	يَا حُسْنَهُ مِنْ جَامِعٍ جَامِعٍ
تَحْتَ مَنَارٍ لَيْسَ بِالْمَائِجِ	يَمُوجُ فِي بَرَكْتِهِ مَأْوَها
تَشْهَدُ لِلدَّخْلِ وَالْخَارِجِ	مُئَذِّنَةٌ قَامَتْ عَلَى بَابِهِ

(١) هو السلطان سليمان القانوني بن سليم الفاتح ، حكم بين عامي (٩٢٦-٩٧٤هـ)
(١٥١٩-١٥٦٦م) .

(٢) عالج : موضع .

جامع يلبغا :

كان في الجهة الشمالية لساحة المرجة ، بين مدخل البحصّة وساحة سوق الخيل ، وكانت موضعه تلة تستعمل للشق وتعرف بتلة المستقين . شيّده في العهد المملوكي نائب السلطنة الأمير سيف الدين يلبغا اليحياوي سنة (٧٥٧هـ) ، تبلغ مساحته ٢٤٧٢٠ م^٢ بما فيها صحن والحرم جمعت الحجارة لبنائه من أرجاء المدينة وأعيد ترميمه سنة (١٣٥٠هـ) ثم هدم نهائياً سنة (١٣٩٠هـ) وبني مكانه مسجد حديث درس فيه الشيخ عبد الوهاب دبس وزيت والشيخ عبد الرزاق رحمه الله .

وهدمته دائرة الأوقاف الإسلامية بدمشق (١٩٧٥ م) ، ويقام في موضعه اليوم مجمّع كبير أطلق عليه اسم (مجمّع باسل الأسد) ، وما يزال العمل فيه سارياً في أيّامنا أعني سنة (١٩٩٨ م)^(١) .

جامع حسان :

لا يزال في قصر حجاج إلى الشمال من حنّام الزين ، شيّد في العهد الأتابكي أيّام السلطان نور الدين الشهيد سنة (٥٥٧هـ) ، وصار أواخر العهد العثماني سنة (١٩١٠ م) معروفاً باسم مدرسة الشيخ محمد القاسمي الحلاق^(٢) .

جامع الحلبوني :

لا يزال في حي الحلبوني البرامكة بستان الاعجام سابقاً وجدد بناؤه سنة (١٩٦٠ م) وكان من أشهر خطبائه الشيخ عبد الوهاب الصلاحي رحمه الله ، شيّده حسن أفندي الحلبوني سنة (١٩٣٣ م)^(٣) .

(١) البداية والنهاية لابن كثير ، الفهارس ، الدارس للنعمي ٤٢٣/٢ ، مفاكهة الخلّان ، لابن طولون ، الفهارس ، مختصر تنبيه الطالب للعلموي ٢٢٧ ، ذيل ثمار المقاصد لطلّس ٢٥٩ ، خطط دمشق للعلبي ٣٦٢ .

(٢) ذيل ثمار المقاصد لطلّس ٢٠٨ ، خطط دمشق للعلبي ٣٢٤ ، مآذن دمشق للشهابي ٨١ .

(٣) ذيل ثمار المقاصد لطلّس ٢٠٩ ، خطط دمشق للعلبي ٣٢٤ ، مآذن دمشق للشهابي ٥١٣ .

جامع حمّان آغا :

لا يزال في السويقة عند بداية طريق الميدان التحتاني . شيد في العهد العثماني ، وعلى بابه كتابة بلا تاريخ فيها : « جدّد بعناية حمّان بن علي الصوري » . ويعرف أيضاً بالجامع الصغير لوقوعه قرب جامع مراد باشا الكبير ، كما يُعرف بجامع همّان آغا^(١) .

جامع الأفزم :

لا يزال في منطقة المهاجرين ، إلى الشرق من ساحة المالكي ، بناه نائب دمشق الأمير جمال الدين الأفزم في العهد المملوكي سنة (٧٠٦هـ) ، وجدّد بناؤه بالحجارة سنة (١٩٥٥م) . ويعرف أيضاً بمسجد الأفزم^(٢) .

جامع تنكز :

لا يزال في شارع النصر ، ينسب لنائب الشام في العهد المملوكي الأمير سيف الدين تنكز الناصر . الذي حكم في أيام السلطان (الناصر محمد بن قلاوون عام ١٣١٢م) حتى (١٣٣٩م) ويعتبر هذا الجامع من أجمل المساجد الدمشقية في عهود المماليك بوشر بينائه سنة (٧١٧هـ) واستغرق عاماً كاملاً . ثم حوّله إبراهيم باشا المصري إلى ثكنة عسكرية صُيّر مدرسة للحربية ، واستمرّ على هذا النحو حتى أخلته السلطات الفرنسية سنة (١٩٣٧م) فهدمته دائرة الأوقاف الإسلامية وبنّت في موضعه نسخاً من المحال التجارية وفوقها الجامع . وما زالت التربة التنكزية قائمة إلى اليوم بجانب الجامع . وتعدّ مئذنته من أجمل مآذن العهد المملوكي في دمشق^(٣) . وقامت دائرة الأوقاف الإسلامية بتجديد بنائه على طراز العمارة الإسلامية سنة (١٩٤٥م) .

(١) ذيل ثمار المقاصد لطلس ٢٣٦ ، النقوش الكتابية في أوابد دمشق للشهابي ٢١١ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ١١٨/١٤ ، الدارس للنعمي ٤٣٥/٢ ، مختصر تنبيه الطالب للعلموي ٢٣٠ .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ، الفهارس ، الدارس للنعمي ٤٢٥/٢ ، مختصر تنبيه الطالب للعلموي ٢٢٨ ، منادمة الأطلال لبدران ٣٦٩ ، دمشق تاريخ وصور للشهابي ط ٢ ، ١٥٢ ، مآذن دمشق للشهابي ١٣٥ .

جامع التوبة :

لا يزال قائماً في حي العقبية ، وكان في موضعه خان يُعرف بخان الزنجاري تمارس فيه المنكرات جهاراً ، فهدمه الملك الأشرف موسى بن الملك العادل في العهد الأيوبي سنة (٦٣٢هـ) وبنى مكانه هذا الجامع . وقد تعرّض للحريق في العهد المملوكي سنة (٦٩٩هـ) عند اجتياح « غازان » ملك التتار لدمشق فأعيد بناؤه بعد ذلك ، ثم خرّبه جنود « تيمورلنك » سنة (٨٠٣هـ) فرمّم من جديد ، وتضرّرت مثذنته في زلزال سنة (١١٧٣هـ) ، وفي عام (١٩٣١م) أجريت عليه بعض الترميمات ، وأصيب بالأضرار نتيجة القصف إبان العدوان الفرنسي على دمشق في (٢٩ أيار من عام ١٩٤٥م) ، ثم جدد تجديداً شاملاً عام ١٩٨٧م . ويعرف أيضاً بجامع العقبية ، وجامع الملك الأشرف^(١) . « نسبة إلى بانيه » ومن أشهر أئمته وخطبائه الشيوخ أبو الخير الميداني ، محمد سعيد البرهاني ، محمد الحلواني ، محمود رنكوسي ، محمود الدير عطاني ، عبد الوهاب دبس وزيت ، وسليم المسوتي ، وعبد الرزاق الحفار رحمهم الله .

جامع الحنابلة :

لا يزال في الصالحية ، إلى الشمال من المدرسة العمريّة ، باشر ببناؤه في العهد الأيوبي الشيخ أبو عمر محمد بن قدامة المقدسي سنة (٥٩٨هـ) . ثم دعمه بالمال الأمير مظفر الدين أبو سعيد كوكبوري صاحب إربل وزوج ربيعة خاتون أخت السلطان صلاح الدين الأيوبي . وهو أول من سنّ سنة الاحتفال بالمولد النبوي . تم إنجاز البناء سنة (٦٠٤هـ) ، ثم جُدد عام (١٩٨٧م) . والجدير بالذكر أنه كانت فوق الجامع مثذنتان ، فهُدمت إحداهما وأُبقي على الأخرى . ويعرف هذا الجامع أيضاً بجامع الجبل لوقوعه في سفوح جبل قاسيون ، وجامع الجبل المظفري نسبة لمظفر الدين كوكبوري ، وجامع الحنبليّة ، وجامع الصالحين ، وجامع الصالحية ،

(١) ثمار المقاصد لابن عبد الهادي ١٦٦ ، البداية والنهاية لابن كثير ، الفهارس ، المدارس للنعمي ٤٢٦/٢ .

وجامع المظفري ، ومسجد الصالحين^(١) . ويتميز بمخططه الذي يشبه مخطط الجامع الأموي ويتميز بمحرابه الحجري ومنبره الخشبي ومئذنته المربعة ونوافذه الجصية .

جامع الطاووسية :

لا يزال في شارع بورسعيد ، قبالة سينما الأهرام ، وتسمية الطاووسية خطأ ؛ لأن الموضع الذي يشغله هذا الجامع كانت تقوم فيه (الخانقاه اليونسية) وليس الطاووسية ، فالخانقاه الطاووسية كانت في موضع سينما الأهرام قبالة . أنشأ البناء (أعني جامع الطاووسية خطأ) الأمير يونس دوادار الملك الظاهر برقوق في العهد المملوكي سنة (٧٨٤هـ) ، ثم نقض البناء سنة (٧٩٠هـ) وأعيد من جديد ، ثم في عام (١٩٧٥ م) رُمّ ثانية وشيّدت مئذنته وانتهى العمل فيها سنة (١٩٩٥ م) ؛ لذلك أرى أن يُصحّح الاسم إلى جامع الخانقاه اليونسية . أما الخانقاه الطاووسية التي كانت قبالة فقد شيّدت في العهد السلجوقي سنة (٥٠٤هـ) ثم درست . وتسميته الأخرى : جامع الطاغوسية^(٢) .

جامع الطواشي :

كان مسجداً قديماً خارج باب النصر ، بين محلة الإخصاصية وحكر السّاق [بين الدرويشية وشارع النصر] ، ينسب لمجدّه الطواشي مرجان خازندار الأمير شيخ^(٣) .

جامع عبد الرحمن (١) :

لا يزال في حي الميدان الفوقاني ، ساحة السّخّانة ، حارة الجديدة ، يعتقد بتشييده في العهد العثماني ، وربما كان أقدم من ذلك ، وعنده سقاية مؤرّخة سنة

-
- (١) البداية والنهاية لابن كثير ٤٠٣/١٣ ، ٢٩٣/١٤ ، مناداة الأطلال لبدران ٣٧٣ ، ذيل ثمار المقاصد لطلّس ٢٠٩ ، خطط دمشق للعلبي ٣٢٠ ، مآذن دمشق للشهابي ١٠٣ .
 - (٢) الدارس للنعمي ١٨٩/٢ ، منتخبات التواريخ لدمشق للحصني ٩٦٤ ، ذيل ثمار المقاصد لطلّس ٢٣٧ ، خطط دمشق للعلبي ٣٣٨ ، مشيدات دمشق ذوات الأضرحة للشهابي ٤٨٥ .
 - (٣) الدارس للنعمي ٤٢٢/٢ ، إعلام الوري لابن طولون ٨٠ ، تاريخ البصري ٢٥ .

(١٨٠٥ م) ، وقامت مديرية أوقاف دمشق بتجديده سنة (١٩٦٢ م)^(١) .

جامع عبد الرحمن (٢) :

لا يزال في شارع بغداد ، إلى الشمال المقابل لمقبرة الدحداح ، بجوار قبّة ابن منكورس ، ينسب لرجل تركي اسمه عبد الرحمن مدفون فيه ، لكن العامة تعتقد بأنه عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق^(٢) .

جامع الشيخ رسلان :

لا يزال خارج باب توما ، يعتقد بينائه في العهد الأتابكي سنة ٥٥٠ هـ ، وفيه ضريح الشيخ أرسلان الدمشقي المشهور ، إلى جانب أضرحه أخرى . وللتوسّع انظر المصادر^(٣) .

جامع الشيخ عبد الغني النابلسي :

لا يزال في الصالحية ، محلة أبي جرش ، جنوبي المدرسة العُمرية ، وشرقي الحاجية ، ينسب للشيخ عبد الغني النابلسي المتوفى سنة (١١٤٣ هـ) والمدفون داخله ، وقد أقام حفيده الشيخ مصطفى النابلسي الجامع حول الضريح حوالي سنة (١١٤٥ هـ) ، وجرى تجديده سنة (١٤٠٩ هـ)^(٤) .

جامع الشيخ محيي الدين :

لا يزال في الصالحية ، بجادة المدارس ، قبالة التكية السليمية ، وهو أول جامع عثماني شيد في دمشق ، أنشأه السلطان سليم الأول سنة (٩٢٤ هـ) على ضريح

(١) ذيل ثمار المقاصد لطلّس ٢٣٩ ، مآذن دمشق للشهابي ٥٦٣ .

(٢) ذيل ثمار المقاصد لطلّس ٢٣٨ ، الأعلام الخطيرة لابن شدّاد ٢٧٤ ، البداية والنهاية لابن كثير ٢٧/٧ .

(٣) منادمة الأطلال لبدران ٣١٨ ، الآثار الإسلامية في مدينة دمشق لفاتسنكر ١٠٦ ، ١٠٨ ، ذيل ثمار المقاصد لطلّس ٢٣٣ ، خطط دمشق للعلبي ٣٢٧ ، مشيدات دمشق ذوات الأضرحة للشهابي ٢٧٥ .

(٤) سلك الدرر للمرادي ٣/٣٠ ، الآثار الإسلامية في مدينة دمشق لفاتسنكر ٢٨٠ ، ذيل ثمار المقاصد لطلّس ٢٣٤ ، خطط دمشق للعلبي ٣٣٩ ، مشيدات دمشق ذوات الأضرحة للشهابي ٥٦٩ .

الشيخ محيي الدين بن عربي المتوفى سنة (٦٣٨هـ) تكريماً لهذا الشيخ . ودفن إلى جواره ولداه : سعد الدين وعماد الدين وكان فيه ضريح الأمير البطل عبد القادر الجزائري ، ثم نقلت رفاته إلى الجزائر خطب فيه القاضي ولي الدين بن فرفور ومن خطباته في العصر الحديث الشيخ يحيى الصباغ ، محمد التكريتي ، محمد أمين الخربوطلي ، محمد وفا القصاب وأحمد كفتارو . ويعرف أيضاً بتكية المحيوي بن عربي ، وجامع الخنكار ، وجامع السلطان سليم ، وجامع سليم خان ، والجامع السليمي ، والعمارة الخنكارية ، والعمارة السلطانية ، والعمارة السليمية^(١) . وزينت الجدران بالواح بلاطات التريعات الخزفية الإسلامية الجميلة المتميزة بلونها الأبيض والأزرق وتدرجاته والكتابات وبخاصة اسم لفظ الجلالة (الله) . وأسماء النبي محمد ﷺ وأسماء الخلفاء أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ، أضيف إلى ذلك الرسوم الجميلة النباتية وبخاصة شجرة السرو وجمالياتها الشاقولية .

جامع الدغمشية :

كان في محلة السنجقدار ، واحترق عند حريق السنجقدار سنة (١٩٢٨م) . ولا تتوفر عنه أية معلومات . ذكره طلس عرضاً في سياق حديثه عن جامع نافذ أفندي ، ومسجد السميساطية^(٢) .

جامع الدقاق :

لا يزال في حي الميدان الفوقاني ، شرقي الطريق العام ، في المحلة التي كانت تعرف بالقيبات ، مقابل حمام الدرب ، وكان يُعرف بجامع كريم الدين أو الكريمي نسبة لبانيه في العهد المملوكي سنة (٧١٨هـ) وكيل الخاص السلطاني ببلاد الشام القاضي كريم الدين عبد الكريم بن هبة الله . ويُعرف الجامع أيضاً بجامع القيبات

(١) القلائد الجوهريّة لابن طولون ١/ ١١٤ ، منادمة الأطلال لبدران ٣٨٣ ، ذيل ثمار المقاصد لطلّس ٢٣٤ ، خطط دمشق للعلبي ٣٤٩ ، مشيدات دمشق ذوات الأضرحة للشهابي ٥٨١ .
(٢) ذيل ثمار المقاصد لطلّس ٢٢٦ ، ٢٥٧ .

لوقوعه فيها^(١) . تهدم الجامع أكثر من مرة وجددته مديرية الأوقاف سنة (١٣٥٠ م) وعرف من خطباته الشيخ عبد الرزاق البيطار والشيخ عبد الرحمن الزعبي والشيخ سليم البيطار رحمهم الله .

جامع دكّ الباب :

كان في طريق الصالحية ، عند التقاء جادة الشهداء بجادة عرنوس ، شيّده أبو علي يوسف دكّ الباب سنة (١٨٩٧ م) ودُفن فيه (١٩٠٦ م) ، وكان الشيخ محمد عادل دادة خطيب وإمام الجامع من (١٩٤٩/٦/١ م إلى ١٩٦٥/١/٣١ م) واحترق سنة (١٩٦٥ م) ، ثم أعيد بناؤه مجدّداً في موضع قريب من موضعه الأصلي إلى الشرق المجاور لثانوية جول جمال في حي الطلياني سنة (١٤١٥ هـ / ١٩٩٤ م) استناداً إلى اللوحة الحجرية المؤرّخة فوق بابه^(٢) .

جامع الرفاعي :

لا يزال في حي الميدان الوسطاني ، بسوق الجزماتية ، شمالي حنّام الرفاعي ، يرجّح تشييده في العهد العثماني ، لكن العلبي يرجعه إلى سنة (٩٦٠ هـ) . وفي عام (١٩٢٥ م) احترق نتيجة القصف الفرنسي لحي الميدان إيّان الثورة السورية ، فجددته دائرة الأوقاف الإسلامية خلال السنوات (١٩٢٨ - ١٩٣١ م)^(٣) .

جامع السقيفة :

جامع قديم كان في محلة برج الروس خارج باب توما ، ذكره ابن عساكر ومن تلاه من المؤرّخين ، جدّد في حقبة مختلفة ، ويُعرف اليوم بمسجد الثقافي ، من أسمائه الأخرى مسجد السقيفة ، ومسجد الكنيسة (ذكره فاتسنكر) . انظر أيضاً

(١) إعلام الوري لابن طولون ١٠٥ ، ٢٨٧ ، ذيل ثمار المقاصد لطلّس ٢١٧ ، خطط دمشق للعلبي ٣٢٦ مآذن دمشق للشهابي ٤٥١ .

(٢) منادمة الأطلال لبدران ٣٧٧ ، ذيل ثمار المقاصد لطلّس ٢١٧ ، دمشق تاريخ وصور للشهابي ط ٢ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ .

(٣) ذيل ثمار المقاصد لطلّس ٢١٨ ، مآذن دمشق للشهابي ٤١٩ .

جامع الثقيفي^(١) . يعود إلى عام (٨١٤هـ / ١٤١١م) يتميز بواجهته الجميلة المملوكية الطراز المعماري .

جامع السلطان :

كان في منطقة تحت القلعة ، مقابل برج باب الحديد لقلعة دمشق ، وفي مكان يقع خلف مسجد المؤيد الكائن بزاوية التقاء سوق الهال القديم بشارع الملك فيصل ، بوشر بينائه الفعلي بالعهد المملوكي سنة (٨١٨هـ) [أيام السلطان المؤيد شيخ الذي تولى سنة (٨١٥هـ) وتوفي سنة (٨٢٤هـ)] وكانت المباشرة فيه قبل ذلك ، ونُقلت إليه الحجارة الكبيرة من السور الذي كان في باب جيرون^(٢) .

جامع السنائية :

لا يزال في ساحة باب الجابية ، شيده الوالي العثماني سنان باشا ومجموعة عمرانية تشمل حماماً وسوقاً ومقهى ومكتباً [مدرسة] سنة (٩٩٩هـ) ، وأقيم الجامع في موضع مسجد أقدم كان يُعرف بمسجد البصل أو مسجد رحبة البصل ، ويعرف أيضاً بجامع سنان باشا ، وبمسجد البصل ، وهي تسمية المسجد الأقدم ، وبمسجد رحبة البصل^(٣) ، وزينت جدرانه بالأواح وبلاطات التربيعات الخزفية الإسلامية الجميلة ، وكسيت مآذنه ببلاطات خزفية إسلامية جميلة زرقاء اللون ومن خطبائه أمين البيطار محمد بدر الدين الحسني ، علي الدقر ، سيد الخطيب وغيرهم رحمهم الله .

جامع السنجقدار :

لا يزال في جادة السنجقدار ، أقيم في موضع مسجد صغير أقدم كان يُعرف بمسجد الحدر [نسبة لمنطقة الحدره عنده] ، أو بمسجد الحشر . ويُعرف هذا

-
- (١) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ٨٢/٢ ، الدارس للنعمي ٤٣١/٢ ، مختصر تنبيه الطالب ٢٣٠ ، الآثار الإسلامية في مدينة دمشق لفاتسنكر ١٠٤ ، ذيل ثمار المقاصد طلس ٢٢٤ .
- (٢) الدارس للنعمي ٤٢٦/٢ ، رحلة ابن جبير ٢٠١ .
- (٣) ذيل ثمار المقاصد لطلس ٢٢٧ ، مختصر تنبيه الطالب للعلموي ٢٤٤ ، مناداة الأطلال لبدران ٣٧٩ .

الجامع أيضاً باسم جامع آرغون شاه نسبة لمنشئه نائب دمشق في العهد المملوكي الأمير أرغون شاه الناصري المتوفى سنة (٧٥٠هـ) والمدفون فيه . جدّده سنان آغا (آغا الانكشارية في العهد العثماني سنة (١٠٠٨هـ) ، وأزيحت واجهته الشرقية المقابلة لسوق السروجيّة إلى الخلف سنة (١٩١٦م) عند تنظيم جادة السنجقدار . ويعرف أيضاً بجامع آرغون شاه وجامع الحذر ، وجامع الحذرة ، وجامع العشر ، ولمعرفة تسمية السنجقدار انظر جادة السنجقدار^(١) . وقد أمّ فيه الشيخ أمين السفرجلاني رحمه الله .

جامع السيدة رقية :

لا يزال في حي العمارة الجوانية ، بين زقاق النقيب وزقاق حَمَام سامي ، يُنسب للسيدة رقية بنت الإمام حسين ، وكان في موضعه مسجد قديم صغير يُعرف بمسجد الرأس ، نسبة لرأس الإمام الحسين الذي يُعتقد بوجوده فيه ، وقد دُفن فيه أيضاً رأس الملك الكامل محمد بن الملك المظفر غازي الأيوبي الذي قتله هولاكو سنة (٦٥٨هـ) . جدّده الجامع في العهد العثماني سنة (١١٢٥هـ) ، وسنة (١٣٢٣هـ) ، وفي بداية التسعينيات من القرن العشرين ، بوشر بعمارته بشكل واسع ، فجاء على طراز العمارة الإسلامية في إيران ، ويتميّز بالغنى الزخرفي من الداخل والخارج ، وفوق بوابته لوحة مؤرخة فيها : (هذا مقام السيدة رقية بنت الحسين الشهيد بكرىلاء) . ويعرف أيضاً بمسجد الرأس ، وبمسجد الست رقية (تسمية عامية شائعة) ، وبمسجد السيدة رقية ، وبمشهد الحسين (وهو غير مشهود الحسين في الجامع الأموي) ، وبمشهد السيدة رقية^(٢) .

-
- (١) البداية والنهاية لابن كثير ٢٣٠/١٤ ، ٢٣٣ ، رحلة ابن بطوطة ٦٥٠ ، الروضة البهية لعربي كاتبي ٣١ ، مناداة الأطلال لبدران ٣٧٣ ، ذيل ثمار المقاصد لطلس ٢٢٧ ، خطط دمشق للعلبي ٣٣٣ ، دمشق تاريخ وصور للشهابي ط ٢ ، ٢١٥ ، مآذن دمشق للشهابي ٢١٧ .
- (٢) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ٦٢/٢ ، البداية والنهاية لابن كثير ٢٢٢/٨ ، مفاهية الخلان لابن طولون ٣٥/١ ، ذيل ثمار المقاصد لطلس ٢٢٩ ، مشيدات دمشق ذوات الأضرحة للشهابي ٥٣٩ .

جامع الشبلية :

كان بمحلة الشبلية [بساحة الميسات ومجاوراتها اليوم] ، في المدرسة الشبلية البرّانية ويُعرف أيضاً بمسجد الشبلية^(١) .

جامع شكر :

لا بد أنه كان قرب مقابر الصوفية لقول ابن كثير : وتوفي الشيخ صالح العابد الناسك أحمد بن... الملقب بالقصيدة.. وصُلي عليه بجامع شكر ، ودُفن بالصوفية [كانت مقابر الصوفية في منطقة مستشفى جامعة دمشق اليوم]^(٢) .

جامع شمدین آغا :

كان في أقصى الجهة الشرقية لحي ركن الدين ، قرب مستشفى ابن النفيس ، شيّده محافظ الحاج الشريف محمد سعيد باشا شمدین (شمس الدين) الكردي عام (١٨٩١م) ، وهدم عام (١٩٩٦م) عند تنظيم الشارع ، ويعرف أيضاً بجامع سعيد باشا شمدین^(٣) .

جامع الشمسية :

لا يزال في حي المهاجرين ، عند تقاطع جادة الشمسية بجادة ابن العميد ، المعروفة بالجادة الثالثة ، شيّد في العهد العثماني سنة (١٣١١هـ) ، أيام السلطان عبد الحميد الثاني ، وسمي بالشمسية لوجود مظلة خشبية عند مدخله ، وكلمة شمسية تطلقها العوام على المظلة الواقية من الشمس والمطر^(٤) .

جامع الشنواني :

لا يزال في حي الشعلان إلى الغرب من شارع الحمراء والشرق من مسجد الشعلان ، شيّده سعيد الشنواني سنة (١٩٢٢م) ، ودُفن فيه عند وفاته سنة (١٩٣٣م)^(٥) .

(١) ثمار المقاصد لابن عبد الهادي ١٤٨ ، ١٥٩ ، المروج السندسية لابن كنان ٥٤ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٢٣١/١٤ (حوادث ٧٤٢هـ) .

(٣) ذيل ثمار المقاصد لطلّس ٢٢٤ ، خطط دمشق للعلي ٣٣٦ ، مآذن دمشق للشهابي ٤٣٣ .

(٤) خطط دمشق للعلي ٣٣٦ ، مآذن دمشق للشهابي ٤٠٧ .

(٥) ذيل ثمار المقاصد لطلّس ٢٣١ ، مشيدات دمشق ذوات الأضرحة للشهابي ٥٦٥ .

جامع الشهرزوري :

كان داخل باب كيسان [كنيسة القديس بولص اليوم] ، وكان في الأصل كنيساً لليهود في درب البياعة . شيده الشهرزوري الفقيه الإمام إبراهيم بن محمد الواعظ ، المتوفى في العهد السلجوقي سنة (٤٩٤هـ) ، وجدّد في العهد المملوكي سنة (٧٦٥هـ) . ويعرف أيضاً بمسجد ابن السهروردي ، ومسجد ابن الشهرزوري^(١) .

جامع المزة :

أقدم مسجد في المزة القديمة لا يزال قائماً في أيامنا ، وينسب اليوم للصحابي أسامة بن زيد المتوفى سنة (٥٤هـ) . عمّره الوزير صفى الدين بن شكر المتوفى في العهد الأيوبي سنة (٦٢٢هـ) ، وعند ابن عبد الهادي : إنشاء ابن الشعارة . وجدّد في العهد المملوكي سنة (٧٤٦هـ) ، ثم في العهد العثماني سنة (١٢٢٩م)^(٢) .

جامع المزة الكبير :

لا يزال في شارع المزة ، وسط السوق التجاري ، على الطريق العام ، شيّد سنة (١٩٣٤م)^(٣) . وهو أقدم مسجد في المزة القديمة لا يزال قائماً في أيامنا وينسب اليوم للصحابي أسامة بن زيد .

جامع مسجد الأقصاب :

لا يزال في حي مسجد الأقصاب (عاميَّته حي مز القصب) ، بالطرف الشرقي لشارع الملك فيصل ، على الطريق العام في حي السادات ، ذكره ابن عساكر بقوله : « مسجد عند رأس زقاق سطرا ، فيه رؤوس الصحابة ، يعرف بمسجد القصب ،

(١) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ١٣١/٢ وح ٢ .

(٢) البداية والنهاية ١٢٨/١٣ ، ثمار المقاصد لابن عبد الهادي ١٠٢ ، الدارس للنعمي ٤٣٢/٢ ، مختصر تنبيه الطالب للعلموي ٢٣٠ ، مناداة الأطلال لبدران ٣٨٨ ، خطط دمشق للعلي ٣٨١ (باسم جامع أسامة بن زيد) ، مآذن دمشق للشهابي ٥٠٧ (باسم جامع أسامة بن زيد) .

(٣) خطط دمشق للعلي ٣٨٠ ، مآذن دمشق للشهابي ٣٩١ .

على بابه قناة قديم » . وهذا يؤكد أنه أقدم من الزمن الذي ذكره ابن كثير عندما نسبته للملك الأشرف موسى الأيوبي .

ويعتقد فاتسنكر أنه أقيم فوق كنيسة من العهد البيزنطي ، وفي سنة (٧٢١هـ) من العهد المملوكي وسّع وجدّد ، وفي عام (٨١١هـ) هدمه الأمير ناصر الدين محمد بن إبراهيم بن منجك وأعاد بناءه وتوسيعه فنسب إليه أيضاً ، ثم تعرّض إلى ترميمات أخرى خلال سنة (٨٥٤هـ) ، و (٩٠٠هـ) ، وتضرّرت مئذنته في زلزال (١١٧٣هـ) فأعيد بناء ما تلف منها ويتميز بمحراب جميل حوله فسيفساء رخامية .

ويعرف الجامع أيضاً بجامع السادات ، ومسجد السادات ، ومسجد السادات الزينية ، ومسجد الرؤوس [يعتقد بأنه يضم سبعة رؤوس للصحابة مدفونة فيه] ، وجامع مسجد القصب ، ومسجد الأقصاب ، والجامع القصبي ، ومسجد القصب ، وجامع مزّ القصب [نسبة قديمة غير معروفة] ، وجامع منجك [نسبة لمجدّده الأمير ناصر الدين]^(١) . جدده (٧٢١هـ / ١٣٢١م) اشتهر ممن تولوا الخطبة والإمامة فيه الشيخ إبراهيم العطار ومحمد بشير السلاح ، ومحمد توكلنا وعبد الرحمن الزعبي والشيخ أحمد كفتارو وغيرهم رحمهم الله .

جامع المسلوت :

كان بحارة زقاق البركة ، ولم أتوصّل إلى موضع هذا الزقاق^(٢) .

جامع المصلّى :

لا يزال في حي الميدان التحتاني ، عند ساحة باب المصلّى [ساحة اليرموك اليوم] ، ويعتبر ثاني أكبر جوامع دمشق بعد الأموي . ويرى البعض بأنه أقيم في

(١) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ٨٤/٢ ، البداية والنهاية لابن كثير ٤٧/١٣ ، الآثار الإسلامية في مدينة دمشق لفاتسنكر ٨٩ ، ذيل ثمار المقاصد لطلّس ٢٢٢ ، في رحاب دمشق لدهمان ١٩٧ ، خطط دمشق للعلبي ٣٥٢ ، مشيدات دمشق ذوات الأضرحة للشهابي ٥٩١ مآذن دمشق للشهابي ١٦١ .

(٢) مفاكهة الخلّان لابن طولون ٣١٥/١ .

العهد السلجوقي ، لكن غالبية المصادر التاريخية تؤكد إقامته في العهد الأيوبي أيام الملك العادل سيف الدين محمد بن أيوب سنة (٦٠٦ هـ) ، وتعرض لعمليات التجديد في العهد المملوكي سنة (٧٤٠ هـ) ، ثم في العهد العثماني سنة (١٢١٧ هـ) . وعرف أيضاً بجامع مصلى العيدين [لإقامة صلاة العيدين فيه]^(١) .

الجامع المعلق :

لا يزال قرب الطرف الغربي لشارع الملك فيصل ، بمنطقة (بين الحواصل) ، على الطريق العام ، بين بابي الفرج والفراديس في حي العمارة البرانية ، ينسب بناؤه إلى « بردبك الأشرفي إينال » في العهد المملوكي سنة (٨٦٢ هـ - ١٤٥٧ م) ويعتبر من أجمل مباني دمشق يتميز بواجهته الجميلة ومئذنته البديعة ، وجُدد الجامع أيضاً في العصر الحديث سنة ١٩٨٧ م . ويعرف بجامع بردبك ، وبالجامع البردبكي ، وبالجامع البردبكي الجديد [نسبة لمنشئه بردبك الأشرفي إينال] . وكذلك بالجامع المعلق ؛ [لأنه مرتفع عن الأرض ويُصعد إليه بدرجات] ، وبالجامع الجديد ؛ [لأنه كان جديداً بالمقارنة مع بقية الجوامع حوله] ، وبجامع (بين الحواصل) [لوقوعه في تلك المحلة]^(٢) . تم ترميمه سنة (١٩٨٧ م) وكان من أئمه الخطباء : الشيخ محمد الشريف اليعقوبي رحمه الله .

وأجمل منابر دمشق منبر جامع الجراح في السويقة ، ومنبر جامع الحنابلة في السفح ، ومنبر جامع مراد باشا ومحرابه ، ومحراب جامع التوبة ، ومنبر جامع الشيخ عبد الغني النابلسي وسقفه وشعريته في السفح كل هذا من عمل الأفراد ، ومنه ما عمل رجاء الثواب وحب الخير ، ومنه ما أريد به الظهور وحماية أموال الباني بوقفها على ما بني .

جامع تنكز سنة (٧٤٠ هـ) وهو الآن مدرسة دينية .

(١) الدارس للنعمي ٤١٩/٢ ، مختصر تنبيه الطالب للعلموي ٢٢٦ ، منادمة الأطلال لبدران ٣٨٩ ، خطط دمشق للعلبي ٣١٠ ، مآذن دمشق للشهابي ١١٩ .

(٢) ذيل ثمار المقاصد لطلس ٢٥٣ ، خطط دمشق للعلبي ٣٥٤ ، مآذن دمشق للشهابي ١٦٥ .

جامع يلبيغا سنة (٨٤٧هـ) أنشأه يلبيغا .

جامع الورد سنة (٨٥٢هـ) أنشأه برسباي .

جامع التوبة في العقبية .

جامع منجك في الميدان ومدرسة الجقمقية أمام المدرسة السميساطية على الباب الشمالي من الجامع الأموي .

المدرسة الصابونية أمام تربة باب الصغير .

جامع السنانية من إنشاء سنان باشا .

جامع الدرويشية من عمارة درويش باشا .

وجامع مراد باشا في السويقة .

مدرسة إسماعيل باشا العظم .

مدرسة عبد الله باشا العظم .

مدرسة سليمان باشا العظم .

الجوامع والمساجد المندثرة :

جامع السياس - مدخل سوق الأروام .

جامع اليافي مواجه الدرويشية .

مسجد الساكتين عند باب الجابية .

مسجد مكتب السنانية .

مسجد رباط الخاتون ، التربة الكوكبائية زقاق المحكمة .

جامع المحكمة الشرعية - زقاق المحكمة .

مسجد في خان أسعد باشا العظم .

جامع حارة النطة عند باب جيرون .

جامع الشحم جانب مئذنة الشحم .

مسجد صدقة/ العمري - مجاور للمنارة البيضاء .
مسجد الثلاث مواجه المنارة البيضاء .
مسجد نور الدين - حي الأمين .
جامع باب كيسان/ الشاذوري/ الشهر زوري عند باب كيسان .
مسجد باب شرقي .
مسجد ابن الصوفي - مجاور لباب شرقي .
مسجد حنانيا باب توما .
جامع يوخران مدخل شارع البكري .
مسجد باب توما عند باب توما .
مسجد في محله القرائين - بين باب توما وباب السلامة .
يعتقد أن الجوامع والمساجد المذكورة قد دمرت أيام الاستعمار الفرنسي ونتيجة
المخططات التنظيمية .

* * *

تتمة جوامع دمشق

وفي دمشق نحو (٢٥٠) جامعاً بعضها جميل البناء جداً ، وقد ألحقت بهذه الجوامع مدارس إسلامية ليس فيها سوى بعض العلوم الابتدائية ، ولبعض هذه المدارس مكتبات تحتوي على كتب نادرة وقيمة ، لكن زيارتها صعبة ، واشتهرت مدينة دمشق بكثرة الجوامع والمساجد ، كما اشتهرت بفنون عمارة المساجد والمآذن ، وقد توزعت هذه المساجد في أحياء دمشق كلها ، حيث وجد في محلة واحدة أحياناً أكثر من جامع ، وتعدُّ الجوامع مركزاً للامتداد العمراني ففي حال بناء جامع في منطقة خالية يبدأ عمران الدور حوله . وحسب إفادة مديرية أوقاف دمشق بلغ عدد الجوامع في مدينة دمشق (٤٨٨) حتى تاريخ ١٨ / ٥ / ٢٠٠٦ م) جامعاً .

سنورد أسماء الجوامع والمساجد التي ذكرت في الوثائق الشرعية .

تتمة الجوامع في دمشق :

- جامع الياغوشية (في حي الشاغور) بناه والي دمشق سياغوش باشا عام (١٠٢٧هـ / ١٦١٧م) .
- جامع المؤيد .
- جامع كافل سيباي : دعاه بعضهم جمع الجوامع لأن أحجاره جمعت من مباني الجوامع المتهدمة .
- جامع البزوري (في حي قبر عاتكة) .
- مسجد عاصم (في حي الأقصاب - في جادة عاصم) (٧٧٤هـ) .
- جامع النحاسين (كان خانقاه النحاسية) أنشأه سمش الدين بن نحاس (٨٦٢هـ) .
- جامع الجوزة (في حي العقية) .

- جامع التينية (في حي الميدان الوسطاني) .
- جامع ابن هشام (في سوق الصوف) (٨٣١هـ) .
- جامع القلعي (في سوق الصوف) .
- جامع الكريمي (أو الدقاق) في حي الميدان .
- جامع التيروزي (بين حي باب السريجة وحي قبر عاتكة) (٨٢٣هـ) .
- جامع منجك (في ميدان الحصى - الجزماتية) .
- جامع الورد (في سوق ساروجا) (٨٣٠هـ) .
- مسجد الطشتدار : (في الصالحية - جنوب جامع الحنابلة) .
- جامع المردانية (في الجسر الأبيض) أنشأته ابنة صاحب ماردين زوجة الملك المعظم عيسى (٦١٠هـ) .
- جامع الوالي درويش باشا (٩٨٢هـ) يضم مبناه جامعاً ومكتباً ومدفن وسبيل جامع بعيرة :

من المشيدات المطلة على ساحة « السبع بحرات » في زاوية التقاء شارعي « الباكستان والشهبندر » أنشأه أبو راشد بعيرة سنة (١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م) ودفن فيه وعرف من بين أشهر خطبائه الشيخ محمد بدر الدين عابدين وعبد الرزاق الحفار رحمهما الله .

جامع برسباي (الورد) :

من مشيدات العهد المملوكي في حي « سوق صاروجة » أنشأه الحاجب الكبير بدمشق « سيف الدين برسباي الناصري » سنة (٨٣٠هـ / ١٤٢٦م) المدفون بتربة ملاصقة للجامع . وهو مبنى كبير مشيد بالمداميك الحجرية البلقاء وله بابان : الأول يفتح على حارة « المفتي » والثاني وهو الباب الرئيسي . وللجامع مئذنة مجددة سنة (١٣٥٢هـ / ١٩٣٣م) وقد اشتهر من خطبائه كل من الشيخ أبي الخير عابدين ، والشيخ أبي اليسر عابدين رحمهما الله .

جامع البريدي :

من مشيدات شارع الخطاب ، الواصل بين سوق باب السريجة وجادة المغاربة في حي السوق ، وتقع إلى جواره تربة تضم رفات الشيخ على البريدي المتوفي في بدايات العهد المملوكي (القرن السابع الهجري) الرابع عشر ميلادي ، ومن خطبائه الشيخ محمد شريف اليعقوبي رحمه الله .

جامع بلوزة :

مسجد صغير في حي الميدان الوسطاني - حقل - يسمى أيضاً مسجد التوتة ، وكان من أشهر خطبائه الشيخ محمد سليم اللبني رحمه الله .

جامع التعديل :

واحد من أقدم مساجد دمشق ، جدد بناؤه في العهد العثماني سنة (١٣٠١هـ / ١٨٨٣ م) يقع في حي القنوات ، ويسمى أيضاً مسجد « أبي عصية » من خطبائه كل من الشيخ محمد أمين سويد ، ومحمد سعيد الفرا رحمهما الله .

جامع التوريزي :

من أبنية العهد المملوكي برأس الشويكة من حي « قبر عاتكة » ينسب بناؤه إلى حاجب الحجاب بدمشق الأمير غرس الدين خليل التوريزي المتوفي سنة (٨٢٦هـ / ١٤٢٣ م) والمدفون بترته ، بني الجامع بالمداميك الحجرية ذات اللونين الأسود والأبيض (الأبلق) وتعلو التربة قبة كروية ملساء ، ومئذنة مربعة الشكل مكونة من عدة طبقات ، وكان من أشهر خطبائه الشيخ عبد الرحمن القصار رحمه الله وسطوح جدرانه مزينة بالواح بلاطات التريعات الخزفية الإسلامية التي تعود إلى العصر المملوكي .

جامع الحلاج :

مسجد صغير ، في الميدان الفوقاني - السلطاني - في صحنه بركة ، وإلى جانبها قبران على الأسلوب المملوكي . . . جددت عمارة المسجد سنة (١٣٤١هـ) ومن بين أئمه المعروفين الشيخ بكري الشويكي رحمه الله .

جامع الحيوطية :

يقع الجامع في جادة الحيوطية بمحلة « قبر عاتكة » خلف مشفى المجتهد في منطقة بستان صاحب شيدده الأمير « مكى بن حيوط » سنة (٨٨٥هـ / ١٤٨٠م) ، أما مؤذنته فقد كملت عمارتها بعد تسع سنوات على يد الحاج عبد القادر بن الحلاق الأجرود ، الذي كان يعمل بتجارة الحرير في تلك المحلة ، ومن بين أشهر خطبائه الشيخ رشيد شمس رحمه الله .

جامع درويش باشا :

أنشئ الجامع بشارع الدرويشية في عهد الوزير الأعظم « درويش باشا » والي دمشق العثماني ، وبدىء بالبناء سنة (٩٧٩هـ / ١٥٧١م) واستغرق العمل فيه أربع سنوات انتهت سنة (٨٩٢هـ / ١٥٧٤م) ، فتم تجديد عمارته في سنة (١٣٦٥هـ / ١٩٤٦م) زينت جدرانه بالواح بلاطات التريعات الخزفية الإسلامية الجميلة وتقع إلى جواره تربة عثمانية ، دفن فيها الوالي العثماني عند وفاته سنة (٩٨٧هـ / ١٥٧٩م) ، واشتهر من بين خطبائه الشيخ محمد أمين سويد والشيخ صادق الميداني والشيخ محمد سليم السكري رحمهم الله .

جامع زيد بن ثابت :

في حي باب السريحة (منطقة الفحامة) شُيّد الجامع سنة (٧١٠هـ / ١٣١٠م) في العهد المملوكي ، وأطلق عليه اسم « جامع الثابتية » نسبة إلى الصحابي الكريم زيد بن ثابت الأنصاري المتوفي في المدينة المنورة بعد سنة (٤١هـ / ٦٦١م) . وكان الجامع يضم ضريح شمس الدين (ابن التدمري) المتوفي سنة (٧٨٨هـ / ١٣٨٦م) والذي جدد بناء الجامع ودفن في تربته . وإلى جواره ضريح منسوب للصحابي زيد بن أرقم المتوفي في الكوفة سنة (٦٨هـ / ٦٨٧م) تم تجديد الجامع في العهد العثماني سنة (١١٢٥هـ / ١٧١٣م) ثم هدم الجامع القديم كلية سنة (١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م) وأعيد بناؤه على شكله الحديث ، وكان من أشهر خطبائه الشيخ محمد أمين سويد والشيخ عبد الكريم الرفاعي رحمهما الله .

جامع السادات :

يقع الجامع عند البداية الشمالية لجهة « باب توما » ويعرف أيضاً باسم « المسجد الصغير » يرجع بناؤه إلى سنة (١٢٨٢هـ / ١٨٦٥م) ، ويقال إنه يضم في غرفة عند حائطه الغربي أضرحة السادات ، عمل آل القوتلي على تجديده . وتوالى على الإمامة والخطابة فيه الشيخ محمد بدر الدين الحسني ، وأحمد الدقر وعلي الدقر وسليم توكلنا وعبد الرحمن الزعبي وغيرهم رحمهم الله .

جامع السروجي :

من الجوامع القديمة بدمشق ، يقع في حي الشاغور البراني « محلة القراونة » أنشأه الحاج أحمد بن سليمان المحمليدار ، وتدل إشارات المؤرخين إلى وجوده في سنة (٨٥٠هـ / ١٩١٧م) ، وقد جددت عمارته سنة (١٣٦٥هـ / ١٩٤٦م) .

جامع سنان أغا :

أنشأ الجامع الأمير « سنان أغا عبد الله » سنة (٩٧٧هـ / ١٥٦٢م) في العهد العثماني ويقع في محلة المناخلية بشارع الملك فيصل ، كان من خطبائه العلماء محمد عيد السفرجلاني ، محمد هاشم الخطيب ، ومحمد صالح الفرفور وغيرهم .

جامع سنان باشا :

أنشأه والي دمشق العثماني « يوسف بن عبد الله » الوزير الأعظم ، سنة (٩٩٩هـ / ١٥٩٠م) في موقع مسجد البصل القديم ، وهو جزء من مجموعة معمارية تشمل الجامع والحمام والسوق ويطلق عليه اسم « السنانية » وكان من أشهر أئمنه الخطباء ، محمد الفحل ، أمين البيطار ، محمد جمال القاسمي ، محمد سعيد القاسمي ، محمد بدر الدين الحسني ، علي الدقر ، وعبد المجيد الطرايشي رشيد الخطيب وغيرهم رحمهم الله .

جامع صهيب الرومي :

يقع في حي الميدان - باب مصلى - فيه ضريح الصحابي الكريم « صهيب

الرومي « جدّه الحاج « خلف بن ضرغام » في عهد الملك المعظم عيسى بن الملك العادل سنة (٦٢٤هـ) أم فيه وخطب الشيخ سليم سمارة والشيخ محمد خيرو ياسين رحمهما الله .

جامع العنابي :

جامع صغير في حي باب السريجة ، وكان موجوداً في أواخر العهد العثماني ، جددت عمارته سنة (١٣١٠هـ / ١٨٩٢) ، من خطبائه الشيخ محمد خيرو ياسين وجمال الدين القاسمي رحمهم الله .

جامع فتحي :

من مساجد حي القيمرية - يُعدُّ من التحف المعمارية الرائعة في بنائه ونقوشه ، شيده « فتحي بن محمد بن محمود القلاقنسي » الدفتر دار ، متولي وقف التكية السليمانية سنة (١١٥٦هـ / ١٧٤٢م) وكان من خطبائه المعدودين الشيخ صالح الفرفور رحمه الله .

جامع القاعة :

بني هذا الجامع في حي « الميدان الفوقاني » منطقة القاعة ، في العهد العثماني ، ومن المحتمل أنه أنشئ سنة (١٢١٤هـ / ١٧٩٩م) ، وجددت عمارة الجامع ومئذنته في سنة (١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م) ، بعد هدمها كلياً . وكان من خطبائه المشاهير الشيخ محمد بهجة البيطار ، والشيخ محمد هاشم أبو طوق ، وحسين خطاب رحمهم الله .

جامع منجك :

بناه نائب الشام الأمير « ناصر الدين محمد إبراهيم بن سيف الدين منجك الكبير » سنة (٨١٠هـ / ١٤٠٧م) بمنطقة الجزماتية من حي الميدان الوسطاني وتم تجديده في العهد العثماني تجديداً شاملاً ، كما تم ترميمه عدة مرات وكان من أئمته الشيخ محمد هاشم أبو طوق والشيخ خيرو ياسين رحمهما الله .

جامع أبي النور :

من مشيدات العهد الأيوبي ، في حي ركن الدين ، شارع عبد الغني النابلسي ، أنشأه الأمير سيف الدين محمد سنة (٦١٤هـ / ١٢١٧م) عند تربة والده الأمير زين الدين قراجا الناصري الصلاحي صاحب صرخد المتوفي سنة (٦٠٤هـ / ١٢٠٧م) وفي عام (١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م) هدم المسجد القديم ، أقيمت في مكانه عمارة جديدة ضخمة حملت الاسم الشائع (أبا النور) ، ويشغل قسماً منها المعهد الشرعي وكلية الدعوة الإسلامية ، يتكون البناء من ستة طوابق فسيحة وقبو ، وفي باحة لصيقة بالجامع يقوم مدفن تعلوه قبتان صغيرتان ، وفيه ستة أضرحة من رخام أملس خال من النقوش والكتابات ، ويضم أحد الأضرحة رفات الأمير « قراجا الناصري » وفي ضريح آخر رفات العلامة محمد أمين كفتارو المتوفي سنة (١٩٣٩م) الذي حمل لواء الدعوة إلى الله وتصدّر للتدريس والإرشاد في المسجد طوال سنوات عديدة ، وانتقلت الرسالة من بعده إلى ابنه العلامة الشيخ أحمد كفتارو والذي حوّل المسجد إلى مجمع إسلامي كبير يضم معهداً شرعياً للدعوة والإرشاد ، وكلية للدعوة الإسلامية ، تهيء الشباب روحياً وعلمياً ويتخرجون منها دعاة صالحين .

جامع باب توما (الثقفي) :

هو جامع قديم عند النهاية الجنوبية لشارع « برج الروس » كان يعرف باسم « مسجد الكنيسة » وذكره بدران في كتابه « منادمة الأطلال » باسم مسجد السقيفة ، كما يطلق عليه اسم جامع (الثقفي) نسبة إلى « عثمان الثقفي » المدفون فيه . يرجع بناء الجامع إلى العصر المملوكي حوالي سنة (٨١٤هـ - ١٤١١م) وبعد تجديد الجامع سنة (١٣٦٣هـ / ١٩٤٤م) أنشأت دائرة الأوقاف مئذنة معاصرة على الطراز المملوكي ، كان من أبرز خطبائه في القرن الماضي الشيخ عبد الوهاب الصلاحي رحمه الله^(١) .

(١) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ٧٩/٢ .

جامع التينية :

من مساجد العصر المملوكي في الميداني الفوقاني أقامه نائب السلطنة بدمشق الأمير سيف الدين تنيك الحسيني الظاهري سنة (٧٩٧هـ / ١٣٩٤م) وهو مدفون فيه ، وفيه أيضاً رفات الأمير (تغري بردي) المتوفي سنة (٨١٥هـ / ١٤١٢م) وقد شيد بالمداميك الحجرية ذات اللونين الأسود والأبيض (الأبلق) وتعلو التربة رقبتيان لكل منهما ستة عشر ضلعاً كانت فوقهما قبتان لم يبق لهما أثر .

جامع فتحي (في حي الميدان) .

جامع سنان آغا :

(شمال قلعة دمشق) أنشأه سنان بن عبد الله آغا الإنكشارية عام (٩٧٠هـ / ١٧٤٣م) .

جامع سنان باشا :

تاريخه (٩٩٥هـ / ١٥٨٦م) يتميز مبناه بالجمال المعماري وتزيينه مثذنة إسطوانية الشكل تغطيها بلاطات الخزف الأزرق الجميل . ويتميز الحرم بغنى زخارفه .

جامع كافل سيبي :

دعاه بعضهم جمع الجوامع لأن أحجاره جمعت من مباني الجوامع المتهمة .

جامع البزوري :

(في حي قبر عاتكة) يتميز بمئذنته المربعة الشكل .

مسجد عاصم :

(في حي الأقصاب ، في جادة عاصم) تاريخه (٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) .

مسجد ابن هشام :

في (٨٣١هـ) فرغ من بناء مسجد ابن هشام بالفسقار . بناه القاضي بدر الدين بن مزهر من العهد المملوكي^(١) .

(١) ثمار المقاصد لابن عبد الهادي ١٠٣ .

مسجد ابن طغان : (قلعي)

أسس سنة (٨٧٠ هـ) من العهد المملوكي

مسجد عبد الله بن زكوان :

شيد عام (٢٤٢ هـ) .

جامع الوالي سنان باشا :

تاريخه (٩٩٥ هـ / ١٥٨٦ م) يتميز ميناه بالجمال المعماري وتزينه مثذنة اسطوانية الشكل تغطيها بلاطات الخزف الأزرق الجميل ، ويتميز الحرم بغنى زخارفه .

جامع فتحي :

(في حي القيمرية) أنشأه الموظف فتحي الدفترى عام (١١٥٦ هـ / ١٧٤٣ م) .

جامع الباشورة :

لا يزال في حي الشاغور ، لصيق الباب الصغير من خارجه ، ويعود للقرن السادس للهجرة أيام نور الدين الشهيد ، وتم تجديده سنة (١٩٢٣ م) وسنة (١٩٨٨ م)^(١) .

جامع البدرى :

كان عند المدرسة البدرية ، وكان خرباً في زمن ابن كنان المتوفى سنة ١١٥٣ هـ . انظر أيضاً المدرسة البدرية^(٢) .

* * *

(١) مآذن دمشق للشهابي ٣٥٧ .

(٢) المروج السندسية لابن كنان ٥٣ ، ٨٨ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ ﴾
يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿ [النور: ٣٦] .

صدق الله العظيم



صورة الجامع الأموي

الجامع الأموي أعجوبة ذلك الزمان

الجامع الأموي هو قلب دمشق القديمة والبقعة المقدسة التي كرّست للعبادة منذ آلاف السنين ، وفيها حدث التفاعل بين العديد من ديانات الشرق العربي ، وفيها تطورت ثقافة شعوبه ، وتمازجت أفكارهم وفنونهم تمازجاً رائعاً نشهد أثره في كل شبر من هذه الأرض ، وفي كل عنصر من عناصرها المعمارية والزخرفية . فعليها أقام الآراميون في مطلع الألف الأول قبل الميلاد معبداً للإلههم الكبير (حَدَد) الذي ذاعت شهرته في العالم القديم ، وتحدثت عنه التوراة في سفر الملوك ، ثم بني بعده في القرن الثالث للميلاد معبد على اسم الإله جوبيتر الدمشقي أو (المشتري) ، كما عرفه العرب ، فكان أعظم معابد العصر الروماني فخامة واتساعاً ، ويكفي لتبيين مدى أهميته أن نعلم بأن طول سوره الخارجي بلغ ثلاثمئة وثمانين متراً وعرضه ثلاثمئة متر ، أهم ما تبقى منه بوابته الغربية بجبهتها المثثة المنحوتة بالزخارف الرائعة والمحملة على العمدة العملاقة ، إنها قطعة من بقايا كثيرة تحجبها الأبنية والحارات والأسواق المحيطة بهذا الجامع ، نشاهدها قبيل الدخول إلى الجامع من بابه الغربي .

و حين غدت المسيحية دين الدولة الرسمي ، في أواخر القرن الرابع ، تحول المعبد الوثني إلى كنيسة على اسم النبي يحيى أو القديس يوحنا المعمدان .

ولما قدم العرب المسلمون يحررون بلاد الشام من الحكم البيزنطي ، ودخلوا دمشق في عام ستمئة وخمسة وثلاثين للميلاد ، وقع اختيارهم على هذا المكان ليكون مقر العبادة الجديدة أيضاً ، فشاركوا فيه إخوانهم المسيحيين وفق قواعد الفتح ، كما بينا في الفقرات السابقة ، في حديثنا عن الفتح وقصة بناء هذا الجامع .

ولقد قال الوليد لأهل دمشق : إنكم تفتخرون على سائر البلاد بأربع ، بهوائكم ومائتكم وفاكهتكم وحمّاماتكم ، وأحببت أن يكون مسجدكم الخامس .

والباني لمسجد دمشق هو الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية الخليفة المدفون بباب الصغير ، (٧٠٥ - ٧١٥ م) ، بناه ليصير من أشهر مساجد العالم الإسلامي . وقيل في كتاب عيون التواريخ : في السنة السادسة والتسعين من الهجرة تكامل بناء الجامع الأموي بدمشق ، وكان ابتداء عمارته سنة ست وثمانين فمدة عمارته عشر سنين .

وقد أنفق الوليد على بنائه الأموال الطائلة ، حتى صار آية من آيات الفن العربي والفن البيزنطي معاً ، ما أثار دهشة كل من زاره ، بما امتازت به أعمدته المزدوجة ، وتزيينات الفسيفساء على جدرانها ، والرخام في مختلف أرجائها ، ومصايحه التي كانت معلقة بسلاسل ذهبية . وقد رُمّم الأموي عدة مرات بسبب الحرائق والزلازل التي أصابته مراراً ، ومنها حريق (٤٥٨ هـ) زمن العباسيين ، وآخرها حريق عام (١٣١٠ هـ - ١٨٩٣ م) ، وبالإضافة إلى مكانة الجامع الأموي الفنية المتميزة ، احتل مكانة علمية ودينية كبيرة أيضاً ، سنعرض لبعض سماتها تالياً ، ولكن أبدأ الحديث عن مكانته الفنية .

قال نزار قباني :

أَدْخُلْ صَحْنَ الْجَامِعِ الْأُمَوِيِّ

أَسْلَمْ عَلَى كُلِّ مَنْ فِيهِ

زَاوِيَةٌ . . . زَاوِيَةٌ

بِلَاطَةٌ . . . بِلَاطَةٌ

حَمَامَةٌ . . . حَمَامَةٌ

أَتَجَوَّلُ فِي بَسَاتِينِ الْخَطِّ الْكُوفِيِّ

وَأَقْطِفُ أَزْهَاراً جَمِيلَةً مِنْ كَلَامِ اللَّهِ

وَأَسْمَعُ بَعِينِي صَوْتَ الْفُسَيْفُسَاءِ

وَمُوسِيقَى مَسَابِحِ الْعَقِيقِ

تَأْخُذْنِي حَالَةٌ مِنَ التَّجَلِّيِّ وَالْإِنْخِطَافِ

جامع بني أمية الكبير ، أقدم حضارة إسلامية :

إذا اتخذنا الرقعة الأرضية أو عدد السكان مقياساً للأهمية ، فسورية بلد صغير المساحة ، لكنها على صغر مساحتها ، تقف في الصف الأول ، وعلى قدم المساواة ، مع أعرق بلدان العالم حضارة ، وأغناها تراثاً بالمفاخر التاريخية ، إذ تضم كنوزاً قيمتها فوق كل ثمن ، منها الديني ومنها المدني ، منها الحربي ومنها الفني ، الطبيعي والفلكلوري ، لذلك كانت هدفاً للسياحة الدولية ، ومقصداً منذ أقدم الأزمنة لطلاب المعرفة والراغبين في زيارة الأماكن الدينية .

ولا شك في أن الجامع الأموي يعتبر أهم رموز دمشق على الإطلاق ، لأسباب من أهمها : أنه أقيم على أرض مقدسة شغلت بمعابد الديانات المختلفة التي تعاقبت على هذه الأرض عبر العصور التاريخية ، بحيث يمكن اعتبار تاريخ المبنى بحد ذاته تاريخاً دينياً لمدينة دمشق .

وإلى جانب هذا السبب ، ثمة سبب آخر ، فني الطابع ، ذلك أن الجامع الأموي يحتل مكانة مميزة في تاريخ العمارة عموماً ، وفي الفن الإسلامي على وجه التحديد ، لخصوصية البناء وضخامته ، ولغناه المعماري والتزييني ، إضافة لكونه أهم المنجزات المعمارية في بداية الدولة الإسلامية ، حتى اعتبره الدكتور عفيف بهنسي إمامَ الأبنية ؛ لأنه (منهل لجميع الأبنية التي عرفت بعده) . واعتبره بعض الباحثين (أعظم المساجد لرحابته وجمال نسبه المعمارية) . وهو على حد رأي (سوفاجيه) ، أول نجاح معماري في الإسلام .

وقبل هؤلاء ، تحدث القدماء عن جامع دمشق الكبير معجبين ، وعن قدسيته وقدمه ، فقال أحدهم ، ويُدعى عبد الرحمن : (حيطان مسجد دمشق الأربعة بناها

نبي الله (هود) عليه السلام) ، بينما قال عثمان بن أبي العاتكة : (في قبلة مسجد دمشق قبر هود عليه السلام) . وقال موسى بن حمّاد البربري : (رأيت في مسجد دمشق الكبير كتابة بالذهب في الزجاج ، محفوراً فيه سورة (ألهاكم التكاثر) إلى آخرها ، ورأيت جوهرة حمراء ملصقة بالقاف التي وردت في قوله تعالى ﴿ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ [التكاثر : ٢] ، فسألت عن ذلك ف قيل لي : « إنه كانت للوليد بن عبد الملك بنت فمات ، فأمرت أمها أن تدفن هذه الجوهرة معها في قبرها ، فأمر الوليد بها فصيّرت في (قاف المقابر) من السورة المذكورة ، ولما سألته زوجته عن تنفيذه لوصيتها ، حلف لها أنه قد أودع الجوهرة في (المقابر) فسكتت وهدأ روعها » .

وحكى الجاحظ في كتاب البلدان قال : (قال بعض السلف : ما يجوز أن يكون أحدٌ أشدَّ شوقاً إلى الجنة من أهل دمشق ، لما يروونه من حسن مسجدهم ، وهو مبني على أعمدة الرخام طبقتين ، الطبقة التحتانية أعمدة كبار ، والتي فوقها أعمدة صغار ، في خلال ذلك زينت الجدران بصور لكل مدينة وشجرة في الدنيا ، بالفيسفساء المذهب بالأخضر والأصفر ، وفي وسط السقف لحرم الجامع القبة المعروفة بقبة النسرة ، ليس في دمشق شيء أغلى ولا أبهى منظراً منها . وللجامع ثلاث منارات ، إحداها ، وهي الكبرى ، كانت ديدباناً للروم ، وأقرت ببقائها على ما كانت عليه وصيرت منارة « مئذنة » ، ويقال في الأخبار إن عيسى ابن مريم عليه السلام ينزل من السماء إليها عند قرب قيام الساعة .

وأخرج الإمام السيوطي في (جامعہ) أيضاً عنه ﷺ أنه قال : (ليهبطن عيسى ابن مريم حكماً وإماماً مقسطاً ، وليسكن فجاً حاجاً أو معتمراً وليأتين قبري فيسلم علي ، ولأردن عليه السلام) .

لقد كشفت في الأعوام الأخيرة واجهة عظيمة في الحائط الغربي من الجامع الأموي معمولة بالفيسفساء ، ويرد عهداها إلى أوائل بناء الجامع ، كما عثر في قبة صحن هذا الجامع على رقوق من أهم ما ظفر به الباحثون . وكانت هذه القبة القائمة على سوار عالية معلقة تفتح منذ قرون طويلة ففتحت سنة (١٣١٧ هـ) بأمر السلطان

عبد الحميد العثماني ، وإجابة لمقترح الإمبراطور غليوم الثاني الألماني ، فوقعوا فيها على قطع من الرقوق كتبت فيها سور من القرآن الكريم بالخط الكوفي ، ومنها قطع من مصاحف وربعات ومقاطع من الأشعار بالآرامية الفلسطينية ، وكتابات وأدبيات دينية وقصص رهبانية ، ومزامير عربية بالحرف اليوناني ومقاطع من شعر هوميروس ، وكراريس وأوراق بالقبطية والكرجية والأرمنية في موضوعات دينية وجزازات عبرانية وسامرية فيها نسخ من التوراة ، وتقاويم أعياد السامريين ، وصلوات وصكوك بيع وأوقاف وعقود زواج ، بينها مقاطع لاتينية وإفرنسية قديمة ، وقصائد يرتقي عهدها إلى أيام الحروب الصليبية ، ونسخ إنجيل في رقوق .

فأهدى السلطان قسماً منها إلى إمبراطور ألمانية ، والباقي ما زال مخبوءاً في مستودع وزارة الأوقاف في الآستانة ، وأهدى بعض رجال السلطنة في دار الملك وفي عاصمة الأمويين بعض الرقوق من القرآن منها مجموعة حفظت في دار الآثار بدمشق بينها قطعة كوفية مكتوبة على رق من ربة شريفة وقفها عبد المنعم بن أحمد سنة (٢٩٨ هـ) وعلى الوجه الثاني نقش مذهب باسم واقفها .

بناء الجامع :

بدأ الوليد الاستعداد لعملية البناء الضخمة في عام (٨٦ هـ - ٧٠٥ م) . والوليد هو ابن الخليفة عبد الملك بن مروان ، أبو العباس من ملوك الدولة الأموية بالشام ، كان مولده سنة (٤٨ هـ - ٦٦٨ م) . ولي الملك بعد وفاة أبيه سنة (٨٦ هـ) فوجه الجيوش لفتح البلاد وكان من رجاله القائدان (موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد) وامتدت في عهده حدود الدولة العربية إلى الهند والسند وأطراف الصين شرقاً ، وإلى إسبانيا وأطراف فرنسة غرباً ، وكان مولعاً بالأبنية فجدد بناء المسجدين في مكة والمدينة ، وبنى المسجد الأقصى المبارك ، ومسجد قبة الصخرة المشرفة في بيت المقدس ، وبنى الجامع الأموي الكبير بدمشق ، وكانت نفقاته ستة ملايين دينار ذهباً ، وبنى المشافي ، وشق الطرق ، وعمل الآبار ، وجعل لكل أعمى

قائداً ، ولكل مُقَعِدٍ خادماً ، ورتب لهم الأموال ، توفي في دمشق سنة (٩٦ هـ - ٧١٥ م) ودفن في تربة باب الصغير شمالي قبر معاوية بخمسين متراً ضمن بناء وقبة . وقبره ظاهر محجّر وعليه كلام منقوش وكان نقش خاتمه (يا وليد إنك ميّت) وقد تسلم الإمارة من بعده أخوه سليمان^(١) .



منظر جوي للجامع الأموي والمدينة القديمة

وقد اختلفت الروايات حول الطريقة التي بدأ بها العمل في بناء الجامع ، وما الذي هُدم من المبنى القديم ، وما الذي أُبقي ، إلا أن الرواية الأكثر قرباً للمنطق

(١) انظر سيرته وآثاره في : الكامل لابن الأثير ، والطبري ، واليعقوبي ، والمسعودي ، والذهب المسبوك .

هي أن الوليد قد هدم ما كان بداخل المعبد ، وليس الكنيسة من منشآت رومانية وبيزنطية ، وأبقى على الجدران فقط .

ويعزو الدكتور عبد القادر ربحاوي الاختلاف بين تلك الروايات ، إلى فهم علماء الآثار الخاطيء لرواية ابن عساكر ، ومصدر هذا الخطأ أن المستشرقين والمحدثين فهموا من كلمة كنيسة التي وردت في المصادر العربية القديمة ، كنيسة النصرى ، كما هو في عرفنا الحديث ، بينما الذي قصده القدماء بالكنيسة هو المعبد ؛ لأنهم لا يميزون بين مصطلح معبد وكنيسة ، أي إنّ المسلمين اقتسموا المعبد الذي كان في أيدي النصرى ، ولم يقتسموا الكنيسة الحقيقية التي كانت قائمة في الجانب الغربي للمعبد .

ومما يؤكد الرأي السابق تعدد الروايات عن أعمال بناء المسجد ، وهي الروايات التي جاءت في كتابات المعاصرين العرب لعملية البناء والمستشرقين المحدثين على حد سواء ، والتي تحدثت بالتفصيل عن بناء الأعمدة والقناطر والسقف والقبّة . وقيل : إن قبّة الجامع قد وقعت بعد أن تم بناؤها فشق ذلك على الوليد ، فأتاه بناء فقال : أنا أتولى بناءها على أن تعطيني عهداً لله ألا يدخل معي أحد في بنائها ، ففعل ذلك ، فحفر موضع الأركان حتى بلغ الماء ثم بناها ، فلما استعلت على وجه الأرض ، غطاها بالحصار وهرب عن الوليد ، فأقام يطلبه فلا يقدر عليه ، فلما كانت بعد سنة لم يعلم الوليد إلا وهو على بابها ، فقال : ما دعاك إلى ما صنعت ؟ قال تخرج معي حتى أريك ، فخرج الوليد والناس معه حتى كشف الحصار ، فوجد البنيان قد انحط حتى صار مع وجه الأرض ، ثم قال البناؤ : من هذا كانت تؤتى ، ثم بناها بينائها الذي بنيت عليه .

كلفة بناء الأموي :

وقد أنفق في بناء الجامع الأموي أموالاً عظيمة . وقال عمر بن الأنصاري : إن جملة ما أنفق عليه أربعمئة صندوق من ذهب في كل صندوق أربعة عشر دينار ، وقيل : صرف ألف وسبعون ألف وثمانمئة ألف دينار وذلك في بناء واجهته ،

وكان ابتداء عمارته في سنة ست وثمانين ، وكمل سنة ست وتسعين هجرية ، واجتمع في ترخيمه اثنا عشر ألف مرخم ، وقد بني بأنواع الفصوص المحكمة والمرمر المصقول والجذع المكحول ، ويقال : إِنَّ العمودين اللذين تحت قبة اشتراهما بألف وخمسة مئة دينار ، وهما عمودان مجزعان بحمرة لم ير مثلهما ، وقبة هذه تسمى (قبة النسرة) لعلوها ، ويقال : إن غالب رخام الجامع كان معجوناً ، ولهذا إذا وضع على النار ذاب ، وكان وسط المحيط الفاصل بين الحرم والصحن عمودان صغيران ، يقال : إنهما كانا في عرش (بلقيس) ملكة سبأ ، ومنارة الجامع الشرقية لقبلة هي التي تقدم ذكر نزول عيسى ابن مريم عليه السلام منها كما قاله ابن الوردي في (الخريدة) .

وقال ياقوت الحموي في معجم البلدان : إنها تسمى المنارة البيضاء وكانت ديدباناً للروم ، وصيرت منارة ، وبها يزعمون أنه توجد قطعة من الحجر الذي ضربه (موسى بن عمران) عليه السلام ﴿ فَأَنْبَجَسَتْ مِنْهُ ائْتْنَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ [الاعراف : ١٦٠] وهي تعرف اليوم بمنارة (عيسى) عليه السلام .

وذكر ابن كثير أن الوليد أنفق على بناء الجامع خراج الشام سنتين ، وقيل إنه أخذ ربع أعطيات أهل دمشق تسع سنين ، وكانت خمسة وأربعين ألفاً يستعين بها على عمارة الجامع . وفي رواية أن ما أنفق على الجامع كان أربعمئة صندوق ، في كل صندوق أربعة عشر ألف دينار ، أي خمسة ملايين وست مئة ألف دينار ذهبي ، وهو ما يذكره عبد الباسط العلموي الذي يقول : إن البناء تم على يد سليمان شقيق الوليد عام (٩٩ هـ) . ولإعطاء فكرة عن تكاليف البناء يمكن ملاحظة أن التكاليف التي قدرت لإعادة بناء الجامع عقب حريق عام (١٨٩٣ م) قدرت بسبعين ألف ليرة ذهبية عثمانية آنذاك .

وصف المسجد :

يبلغ طول المسجد (١٥٧) متراً وعرضه (١٠٠) متر ، ويتألف من صحن عرضاني مكشوف تبلغ أبعاده (٤٨×١٢١) متراً ، وتحيط به من الشرق والغرب

والشمال أروقة محمولة على أعمدة عالية . وفي الجنوب من الصحن يقوم الحرم الذي يبلغ طوله (١٣٦) متراً وعرضه (٣٧) متراً ، ويتألف من ثلاثة أجنحة ممتدة من الشرق إلى الغرب يفصل بين كل منهما صف من الأعمدة ، ومن جناح معترض متوسط يصل بين المحراب وصحن الجامع . ويعلو الجامع جملون مرتفع ، وتتوسطه قبة النسр .

وللجامع ثلاث مآذن ، هي المئذنة الشرقية وتسمى مئذنة عيسى أو المئذنة البيضاء ، وقد احترقت عام (٥٧٠هـ) فجددها صلاح الدين الأيوبي ، ثم جُدد بناؤها في عصر مليك شاه ، وفي العهد العثماني أنشئ مخروط في أعلاها ، ويبلغ ارتفاعها (٦٣) متراً . والمئذنة الغربية وقد جدد عمارتها السلطان (قايتباي) بعد أن خربت في حوادث تيمورلنك ، وهندسها معماري عربي اسمه (سلوان بن علي) وفق أسلوب مصري ، ويبلغ ارتفاعها (٦٦) متراً ، وقد رُممت عام (١٩٢٣م) بإشراف الفنان (توفيق طارق) . أما المئذنة الثالثة فهي مئذنة العروس ، القائمة وسط الجدار الشمالي ، وقد أقامها الوليد وطلاها بالذهب ، وغدت فيما بعد نموذجاً للمآذن في سورية وشمال إفريقيا ، ونقل طرازها إلى الأندلس ، وتعد أقدم مئذنة إسلامية ما زالت قائمة .

وللجامع أربعة أبواب هي : باب القوافين كما يعرف الآن ، وكان (يسمى باب الزيادة ، وباب العنبرية أو العنبرانية ، وباب الساعات) ، وهو يقع في الجدار الجنوبي ؛ وباب البريد من جهة الغرب ، وقد أنشئ في عهد السلطان قايتباي ، وعلى جانبه بابان صغيران ؛ وباب العمارة أو الباب الشمالي ، وكان يسمى قديماً (باب الفراديس وباب الناطفانيين أو الناطفين) ، وباب النوفرة ، وهو أكبر الأبواب ، ويقع إلى الشرق وكان يسمى (باب جيرون ، ويسمى أيضاً باب اللبادين) .

- باب السلسلة : الباب الشمالي للجامع الأموي ، ويُعرف أيضاً بباب الكلاسة وباب الناطفانيين وباب العمارة^(١) .

(١) (تاريخ البصري ١٦٨ ح ١) .

- باب السنجق : أحد أبواب الجامع الأموي الداخلية ، المنفذ من صحن الجامع إلى حرمه ، قبالة البحرة العثمانية ، واسمه الأقدم : باب البرادة^(١) .

- باب الساعات : كانت التسمية تطلق على باب الجامع الأموي الجنوبي ، ثم انتقلت إلى بابهِ الشرقي^(٢) .

وإلى الشرق والغرب من الجامع ، أربع صالات ، اثنتان في كل جهة ، يفصل بينهما أحد البابين ، وهذه الصالات تعرف باسم المشاهد ، وهي مشهد عثمان في الجهة الشمالية الغربية ، وهو الآن قاعة الاستقبال في المسجد ، ومشهد عروة في الجهة الجنوبية الغربية ، وهو بيت الوضوء اليوم ، ومشهد أبي بكر في الجهة الغربية الجنوبية ، وأقيم فيه متحف الجامع حديثاً ، ثم مشهد الحسين في الجهة الشمالية الغربية ، وكان فيه رأس الحسين بن علي رضي الله عنهما ، قبل أن يُنقل إلى القاهرة .



صورة واجهة الجامع الأموي

-
- (١) (لطف السمر وقطف الثمر للغزّي ٢/٥٠٥ ح ٢) .
(٢) (ذيل تاريخ دمشق لابن الفلانسّي ٣٣٣ ؛ تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ٢/٤٧ ؛ الأعلام الخطيرة لابن شدّاد ٣٧ ؛ البداية والنهاية لابن كثير ١٤/١٥٦ ؛ تاريخ ابن قاضي شهبة المجلد ١ ، ٣/٦٢٤) .

وفي داخل الحرم أربعة محاريب وهي : محراب المالكية وكان اسمه في السابق محراب الصحابة ؛ لأنهم كانوا يصلون فيه ، ومحراب الحنفية ، ومحراب الشافعية ، ومحراب الحنابلة .

ويقوم في القسم الشرقي من الحرم قبر النبي يحيى ، وفوقه قبة ، أما في صحن الجامع فكانت هناك ثلاث قباب : قبة الساعات في الجهة الشرقية ، وقبة البركة في وسط الصحن ، وقد أزيلت فيما بعد ، وقبة عائشة أو قبة المال في الجهة الغربية ، وهي تقوم على أعمدة من الطراز الكورنثي .

ويستدل من الثقوب في جدران الجامع الداخلية أن الرخام كان يكسو هذه الجدران ، وحسب ما جاء في الروايات القديمة ، فإن هذا الرخام كان متعدد الألوان والأشكال ، كالأبيض ، والمجزع ، والأحمر والأخضر المرشوش والأسود الغرابي ، والأبقع ، والمعجون الأزرق .

كما أن سقف المسجد زين بالخشب الملون ، وزينت شبائكه بالزجاج المعشق ، أما فسيفساء الجامع فقد كانت دائماً مثار إعجاب المؤرخين والباحثين والرحالة وكل من شاهدها ، وقد غطت جميع سقوف الأروقة وجدرانها ، وجميع بطون الأقواس والدهاليز والأقسام العليا من الحرم بعد ارتفاع سبعة أمتار ، وقيل : إنها كانت تغطي قسماً من أرض الحرم .

وتنصف مواضيع الصور بأنها مواضيع محلية تبتعد عن الصور الآدمية ، إذ تمثل أبنية محاطة بأشجار وتعبرها أنهار ، وقد قيل : إنها صور دمشق وبردى ، ورأى آخرون أنها تمثل العالم كله ، وتشير إلى مدى انتشار الإسلام .

بئر الجامع الأموي :

يعتبر هذا البئر بتجهيزاته أحد النفائس المعمارية الفريدة من نوعها في الجامع الأموي ، وقد أحدث هذا البئر في حرم جامع الصحابة الذي أقيم بعد الفتح الإسلامي لدمشق مباشرة ، في مستهل النصف الثاني من عشرينيات القرن الأول

الهجري ، على أرض النصف الشرقي من حرم الجامع الذي أقامه الخليفة الوليد بن عبد الملك فيما بعد في التسعينيات من القرن نفسه ، وذلك من أجل تزويد المصلين بماء للوضوء والشرب .

وعن هذا البئر يقول الأستاذ محمد الخولي :

(إن هذا البئر مرتبط بمحراب المالكية الذي هو المحراب الشرقي من الحرم نفسه ، الذي يعتبر أقدم محراب في حرم الجامع ، إذ يرجعه المؤرخون إلى زمن جامع الصحابة . ويقع البئر تقريباً خلف المحراب المذكور في الخط الخلفي من الجامع .)

يعتبر حجر هذا البئر من النوع النفيس جداً ، ويرجح أن تجهيزاته ترجع إلى مرحلة التوسع التي قام بها الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك بن مروان ، وأحجار هذه التجهيزات نادرة جداً ، وهي مكونة من مستحاثات تعود إلى الزمن المعروف بعصر الكامبري الأول الذي يرجع تقريباً إلى (٥٧٠) مليون عام ، وذلك حسب دراسات أجرتها جامعة كوبنهاغن على الديدان التي تظهر عليها ، المعروفة بديدان (الكلورونيا الحلزونية) .

يقول الجيولوجي السوري الدكتور حسين إبراهيم : إن أقدم حجر في سورية يرجع إلى عشرة ملايين عام فقط ؛ لذلك يميل إلى أن أحجار هذا البئر جلبت من الخارج ، وبما أننا نعلم تاريخياً ، أن الخليفة الوليد دفع لخالد بن يزيد ألفاً وخمس مئة دينار ذهباً ، ثمناً لعمودين نفيسين استعملهما في الجامع الأموي ، فقد يكونان هذين العمودين المقصودين مع توابعهما التي تكون معاً مجموعة البئر .

عن محمد بن شعيب قال : سمعت غير واحد من قدمائنا يذكرون أن التين مسجد دمشق ، وأنهم قد أدركوا فيه شجراً من تين قبل أن يبنيه الوليد .

وعن عمرو بن الدوس الغساني في تفسير ﴿وَالَّتَيْنِ﴾ [التين : ١] قال : التين مسجد دمشق كان بستاناً لهود عليه السلام وفيه تين قديم .

وعن قتادة في قوله عز وجل ﴿وَالَّذِينَ﴾ قال جامع دمشق ﴿وَالَّذِينَ﴾ [التين : ٢] قال
مسجد بيت المقدس ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ [التين : ٢] قال : حيث كلم الله عز وجل موسى عليه
السلام ، ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ [التين : ٣] قال مكة .

وقد وصف أكثر من عالم أجنبي مبنى الجامع الأموي ، ووصفه أحدهم بأنه
(مشفى للروح) كما كانت توصف كل المعابد الجميلة الهامة .



صورة للأموي

فسيفساء الجامع الأموي في دمشق :

يعتبر المسجد الأموي بدمشق من أهم الآثار التاريخية العربية ، وهو كذلك
بالنسبة لتاريخ التصوير ، فقد احتفظ إلى يومنا هذا ببعض رسوم الفسيفساء المرسومة

رسماً واقعياً والمزخرفة بشكل متميز ، وقد اعتبرت من أمتع الرسوم الفسيفسائية المعروفة في العالم وأرقاها ، وقد أثارت هذه الرسوم ، وبالتحديد العمارة المرسومة ، جملة من الآراء المتباينة ، ذلك أنها تكشف عن طرز معمارية مختلفة ، إلا أن الجغرافي العربي (المقدسي) كتب يقول : (إنه من العسير أن تكون هناك شجرة أو مدينة مشهورة لم تصور على تلك الجدران) .

وقد كشفت هذه الرسوم عن صفة عالية ومهارة كبيرة ، ودرجات لونية متنوعة ، ومن الجدير بالذكر أن (مرغيت فان برشم) قامت بتحليل دقيق للألوان ، فوصلت إلى حقيقة (أن تسعة وعشرين لوناً مختلفاً على الأقل قد استعملت في التصوير ، وأنها تشمل ثلاث عشرة درجة من اللون الأخضر وأربع درجات من اللون الأزرق والذهبي وثلاث درجات من اللون الفضي) . ولعل المشهد الشامل على الجدار الغربي (هو المفخرة الرئيسة الباقية من زخرف المسجد ، فهنا نشاهد مجموعات عديدة من مبان ذات طرز مختلفة ، تقع بين ثمانية أشجار ضخمة ، وبالقرب من متسع مائي أشبه بنهر يجري بشكل واقعي .

ويستطيع المرء هنا ، وفي مكان آخر ، أن يميز بين ثلاثة أنواع من العماائر ، أولها القصور المزخرفة بأقراط والمؤلفة من طابقين ، وهناك البيوت الصغيرة والأشجار والأوراق الزخرفية . وقد ظلت المباني المرسومة في هذا المشهد (المشهد الشامل على الجدار الغربي من رواق المسجد الأموي) حديث الباحثين ، وشغلت الكثير من دراسة القيم الفنية المتمثلة في هذا الرسم الفسيفسائي ، ومعظم الكتابات أفاضت في الوصف الأدبي ، في حين أن الرسم يملك من الغنى اللوني والشكلي ما يدفع إلى البحث في خصائصه .

ومن المؤكد أن هناك العديد من الرسوم التي ما تزال مجهولة ، ذلك أن القيم التشكيلية والتقنية العالية التي يطرحها هذا الرسم تجعلنا على ثقة بوجود حركة فنية فسيفسائية ينتمي إليها هذا الرسم .



صورة للفسيفساء

مناظر خلافة :

لقد رصفت جدران الجامع الأموي الكبير بآلاف الأمتار المكعبة من الفسيفساء وتألفت مواضيعها بكل ما يخطر على البال من مناظر خلافة ورسوم هندسية بألوانها الطبيعية التي تدهش كل من يشاهدها ؛ لذلك نالت الاهتمام الكبير من الوصف من قبل الكثير من المؤرخين والرحالة والمستشرقين ، وكان من أقدمهم الحسن بن محمد المهلبى الذي زار الجامع الأموي في القرن الرابع الهجري وقال في وصف فسيفسائه : « الحنايا والحيطان كلها إلى حد سقفه منقوشة أبدع نقش بالفسيفساء الملون المدهون والمذهب ، الذي يخطف الأبصار ، كتب في حائطه القبلي سور من القرآن بالفسيفساء المذهب في تضاعيف النقش » .

ووصف الفسيفساء أيضاً المؤرخ والرحالة « المقدسي » في كتابه الشهير « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » فقال : « وحيطانه إلى قامتين بالرخام المجزّع ثم إلى

السقف بالفسيفساء الملونة والمذهبة في صور أشجار وأمصار وكتابات على غاية الحسن والدقة ولطافة الصنعة ، وما من شيء أو بلد إلا وقد مثل على تلك الحيطان . وقناطر الأروقة ، كلها مرصعة بالفسيفساء .

الفسيفساء يعود إلى عصره الذهبي :

اشتهرت دمشق منذ القدم بصناعة الفسيفساء ، وخير دليل على تقدم صناعة الفسيفساء فيها ما نراه بالجامع الأموي من لوحات فسيفسائية رائعة ، بعضها يعود إلى عهد الوليد بن عبد الملك ، وهو من أجود الأنواع ، وبعضها يعود إلى عهد نور الدين الشهيد الذي قام بترميم ما تلف من فسيفساء الجامع ، الذي تداعى مع مرور الزمن ، لكنه لم يكن بجودة صناعة عصر الوليد ، وفي عهد الملك الظاهر بيبرس رُمم قسم آخر ولكنه لم يكن بمستوى صناعة عصر الوليد أو عصر نور الدين ، أي إنَّ الجودة تدنت ، وبعد ذلك سقط الكثير من فسيفساء الجامع ، إثر الحريق الذي تعرض له والزلازل والعوامل الجوية الأخرى .



صورة للجامع الأموي

في عام (١٩٥٥م) رأت مديرية أوقاف دمشق ، بالاتفاق مع مديرية الآثار والمتاحف ، أن تقوموا بإصلاح ما سقط من الفسيفساء ، وفي عام (١٩٥٥م) أنشأت مديرية الأوقاف ورشة في الجامع الأموي لترميم بعض الأقسام الموجودة في الجامع من فسيفساء قديم يعود إلى عهد الوليد بن عبد الملك ، ورممت بعض أقسام الجامع الغربيّة ، حتى نفذت الكمية الموجودة ، وللضرورة صنع فرن لصهر الزجاج ، وعمل الفسيفساء الملون ، وقد مرتجارب قاسية .

يحدثنا السيد عربي الشلبي رئيس الورشة في الجامع الأموي فيقول : عملت بالورشة منذ تأسيسها ، وقد باشرنا أولاً بإعادة تركيب الفسيفساء القديم حتى نفذ ، بعد ذلك بدأنا بالتجارب من أجل إنتاج فسيفساء لإتمام عملية الترميم ، فلا يزال الجامع تنقصه آلاف الأمتار المربعة من الفسيفساء ، وبدأت بدراسة الفسيفساء وترددت على المكتبة الظاهرية أطالع كل ما كتب عن الفسيفساء ، ساعدني بذلك الفنان أمين الدهان ، وكانت له خبرة في صناعة القيشاني ، وبدأت معركة طويلة وصعبة وتجارب لا تحصى ، امتدت إلى أربع سنوات أو خمس سنوات ، كانت مديرية الأوقاف لا تبخل علينا بشيء خلالها ، فقد كان همنا جميعاً إحياء صناعة الفسيفساء التي اندثرت منذ مدة طويلة .

وأخيراً ، وبعد سنوات من التعب والجهد ، توصلنا إلى إنتاج وتصنيع الفسيفساء الذي فاق الفسيفساء الإيطالي جودة ، إذ إن الفسيفساء الإيطالي هندسي تجاري ، أما فسيفساؤنا فهو بلدي ، إنتاج محلي مستمد من تراثنا ، أي من الأصول ؛ لذلك تحمل فسيفساؤنا قيمة فنية أكبر .

سألته : وماذا عن إتمام الرسوم ، رسوم الجامع ؟ قال : اعتمدنا على الرسوم الأموية القديمة ، إذ عدنا إلى الأصول وإلى الرسوم القديمة ، وما كتب عن لوحات الفسيفساء في الجامع الأموي ، ثم بدأنا بترميم الرسوم كما صنعت ورسمت في عهد الوليد . لقد وجدنا صعوبة للوصول إلى إنتاج ألوان عديدة ، واستطعنا إنتاج ٣٥ لوناً ، وبعد تطبيق الألوان قمنا بإصلاح واجهة باب السنجق ، ومساحتها لا تقل عن

ألف متر مربع ، وقبة الخزانة ، وإكمال الواجهة الغربية ، ومدخل المسجد جهة باب البريد .

متحف الجامع الأموي :

في الجامع متحف خاص يعرض الإرث الحضاري والفني للمبنى خلال العصور الإسلامية التي تعاقبت عليه ، بما يعكس أمجاد هذه الأبدية التي تمثل قفزة نوعية متميزة . وقد افتتح هذا المتحف عقب صلاة عيد الفطر السعيد عام (١٤٠٩هـ / ٦ أيار ١٩٨٩م) . وهو يشتمل على نفائس وآثار هامة ؛ كالشواهد الحجرية والسجاد ولوحات مختلفة من الخط العربي ، ووسائل الإنارة والتوقيت والفسيفساء والخزف والزجاج والنقود العربية وصفحات مخطوطة من القرآن الكريم . هذا بالإضافة إلى عدة ألواح ووثائق منها :

١- جزء من لوحة تعود إلى أيام الخليفة العباسي المقتدر بالله .

٢- لوحة حجرية مزينة بزخارف نباتية تحمل آثار تذهيب من العهد الأموي .

٣- أجزاء من محراب ، مزينة بزخارف كتابية ونباتية متشابكة من العهد الأيوبي .

٤- لوحة باسم السلطان الأشرف أبو النصر قايتباي تحمل تاريخ شعبان عام (٨٨٦هـ) . وفي متحف الجامع درهم فضي أموي أصدره الخليفة الوليد بن عبد الملك في دمشق أثناء قيامه بعمارة الجامع الأموي (٩٤هـ) ، ويوجد في المتحف أيضاً ألواح ووثائق معمارية منها لوحة حجرية مزينة بزخارف نباتية تحمل آثار تذهيب وهي جزء من الكسوة الخاصة بالجامع التي ترجع إلى العهد الأموي ، ويوجد أيضاً وسائل الإنارة قديماً شمعدان من النوع النفيس جداً يعود إلى نهاية عهد المماليك ولوحة تخص الشيخ محيي الدين بن عربي رقت بالخط الثلث في عام (١٢٩٢هـ) ولوحة فنية رائعة (علي وفاطمة) مرقومة بالخط الثلث .

وزود الجامع الأموي في كل العهود بساعات اختلفت أشكالها وأحجامها وفنونها باختلاف العصر اشتهرت منها واحدة من النحاس ذات عصافير وغراب وحية ، فإذا

مضت ساعة من الزمن صاحت العصافير والغراب وصفرت الحية وسقطت بندقة في طست من النحاس .

وساعة أخرى وصفها الرحالة ابن جبير كانت تتألف من طاقات صغيرة لها أبواب من النحاس كلما مضت ساعة أغلق واحد منها وقبل إغلاقه تسقط بندقتان من فمي بازين من النحاس في طستين فيسمع لهما دوي ، ولهذه الساعة في الليل تدبير آخر يقوم على وجود ألواح من الزجاج مستديرة عند كل طاقة وخلف كل زجاجة مصباح يدور وكلما انقضت ساعة احمرت الدائرة الزجاجية بأكملها وهكذا في كل ساعة .

هذا فضلاً عن الساعة الشمسية ، والساعة الفلكية المعقدة التي تسمى البسيط صنعها ابن الشاطر الفلكي في القرن الثامن الهجري وهي الآن بالمتحف الوطني .

الخزنة بيت مال المسلمين :

يذكر جرجي زيدان أن الرحالة الإنكليزي روجرز أذن له برؤية محتوياتها في منتصف القرن التاسع عشر .

وكان آخر من أُتيح له الإطلاع على هذه المكتبة البارون فون سودن أستاذ اللاهوت في كلية برلين ، وكان مهتماً بالبحث عن نسخة قديمة من الأناجيل باللغة اليونانية لم يجر عليها التعديل ، فمر بدمشق في أواخر القرن التاسع عشر والتمس من دولته العمل للسماح له بالإطلاع على تلك الوثائق العلمية المحفوظة في مكتبة الجامع الأموي فلم يوفق في طلبه هذا إلا في نهاية القرن التاسع عشر ، إذ حصل على سماح الدولة العثمانية له بفتح باب خزنة الجامع الأموي بحضور والي دمشق (ناظم باشا) وجماعة من الوجهاء فأوفد البارون فون سودن مستشرقاً ينوب عنه بالقيام بهذه المهمة العلمية ، فتبين للموفدان الخزنة تضم رقوقاً كثيرة ومختلفة معظمها ذو موضوع ديني ومنها أجزاء التوراة باللغة السريانية وبحروف إسطرانجيلية ، ورقوق أخرى عليها كتابات يونانية ولاتينية وآرامية وساحورية وهناك رقوق أخرى عربية .

ضريح النبي يحيى عليه السلام أو القديس يوحنا المعمدان كما يسميه المسيحيون ويقع داخل حرم جامع بني أمية الكبير بدمشق بين أعمدة الرواق الأوسط شرقي المحراب .

لقد أيدت الروايات التاريخية التي أثبتها المؤرخ ابن عساكر خبر العثور على قبره في هذا المكان أثناء تشييد الجامع ، يقول بأن الوليد أمر أن يحافظ عليه ويجعل فوقه عمود يختلف عن العمود الأخرى ليدل عليه ، ثم أقيم له في عهد لاحق ضريح من الخشب المزين بالنقوس ذهب مع الحريق الأخير ، فأعيد بناؤه بالرخام وفق فن العمارة الكلاسيكي كما نشاهد اليوم .

الجامع الأموي عبر التاريخ

١- معبد حَدَدُ الآرامي :

إن أول معبد معروف لدينا ، حيث يقوم الجامع الأموي الآن ، هو معبد حدد الآرامي . و (حَدَدُ) هو إله العاصفة السوري ، أو إله الصاعقة والبرق ، وقد ظل يُعبد في دمشق ثلاثة آلاف سنة . وجاء في بعض الوثائق أنه (هدد) أو (رمون) وهو ك (جوبيتر : المشتري) عند الرومان : (رب الأرباب ، منزل المطر ، مثير الرياح ، بل هو خالق الكون كله) ، وكانت تعبد معه رفيقته (عترغيتس : الزهرة) ، وكان لهما وللآلهة الآخرين تماثيل في المعبد .

لم تكشف الحفريات عن المعالم الدقيقة لهذا المعبد ، لكنه وصف بأنه أعظم المعابد وأقدسها ، وكان يقصده الزوار من جميع البلاد السورية للتبرك به ، وكان يقوم على رابية ترتفع عن مستوى المدينة نحو ستة إلى عشرة أمتار ، ويصعد إليه بسلاسل .

ويحيط بالمعبد سوران أحدهما خارجي طوله (٣٨٠ متراً) وعرضه (٣١٠) أمتار ، وله مدخلان فخمان من الشرق والغرب ، ما زالت بعض أعمدهما قائمة . أما السور الثاني ، فكان يحيط بالهيكل وحدوده حدود الجامع الأموي الآن ، وأبعاده (٩٧×١٥٠) متراً ، وله برج مربع في كل من زواياه الأربع ، وأرضه مرصوفة بالفسيفساء .

٢- معبد جوبيتر الدمشقي :

من المرجح أن المعبد أصبح يحمل اسم (معبد جوبيتر الدمشقي) ، عقب سيطرة الرومان على دمشق ، إلا أنه لا يمكن تأكيد أن المعبد أصابه تبدل في بنائه

الأساسي عقب هذا التحول ، مع أن بعض الكتابات قد أشارت إلى أنه تطور واتسع في عهد السلوقيين والرومان ، ثم أخذ بالتدهور عندما حُوِّل إلى كنيسة . وما زالت آثار المعبد الذي كان من أضخم المعابد الرومانية واضحة حتى يومنا هذا ، فقد كان مؤلفاً من ثلاثة أقسام :

١- الهيكل (Noss) أو (Cella) وتقدر أبعاده (40×30) متراً تقريباً ، وهو متجه من الشرق إلى الغرب ، ولم يبق لهذا الهيكل أثر .

٢- التيمينوس : وهو صحن مستطيل بجدران عالية وأروقة ، تبلغ مساحته (119×97) متراً ، وله أربعة أبواب في نهاية تقاطع منصفَي أضلاع الصحن .

٣- الباريبول (Peribol) : وهو رواق مستطيل يحيط بالتينمينوس ، وأبعاده (358×305) متراً ، وله مداخل أربعة على امتداد مداخل (التيمينوس) وما زالت آثار هذا الرواق المحيطي واضحة في أنحاء مختلفة ، غربي الجامع وشرقيه .

٣- كنيسة يوحنا المعمدان :

يتفق المؤرخون على أن المعبد ، آنف الذكر ، تحول إلى كنيسة في عهد الإمبراطور تيودوس الأول عام (379×390 م) ، ويختلفون في تحديد مكانها من المعبد ، مع وجود آراء تؤكد أن المعبد تحول إلى كنيسة أواخر القرن الرابع الميلادي قبل أن يشيد الإمبراطور الكنيسة .

ويستدل من الدراسات المختلفة أن الكنيسة كانت تقوم إلى الغرب من صحن المعبد ، أي في الموقع الذي كان يقوم فيه (النائوس) سابقاً ، وهو أمر تكرر في العديد من المعابد الرومانية في سورية ، مثل معبد (بل) في تدمر ، ومعبد (جوبيتر) في بعلبك ، وأيضاً معبد يبرود .

وتجمع كتابات المؤرخين على أن كنيسة القديس يوحنا المعمدان ، أو كنيسة (ميرحنا) كما يكتبها ابن عساكر ، كانت قد تدهورت قبيل الفتح الإسلامي . وعندما دخل خالد بن الوليد فاتحاً ، أقام الصلاة في الزاوية الجنوبية الشرقية لـ (التيمينوس) ليس بعيداً عن الكنيسة ، ولعل هذا القسم الذي ما زالت آثاره حتى

اليوم كان صالحاً إلى حد ما ، فصلى فيه الصحابة باتجاه القبلة فكان هذا أول مسجد في الشام ، وقد أقيم أول محراب ما زال يحمل اسم الصحابة أو اسم الحنابلة ، وقد حول المسلمون فيما بعد الجزء الشرقي إلى مسجد ، فكان المسلمون والنصارى يدخلون من باب واحد - هو باب المعبد الأصلي إلى جهة القبلة - فينصرف المسلمون إلى جهة الشرق والنصارى إلى جهة الغرب .

وتختلف الروايات التي تبحث عن كيفية تحول الكنيسة إلى مسجد ، إلا أنها تتفق جميعاً على أن أخذ النصف الغربي من الكنيسة كان لقاء التعويض على النصارى بالكف عن أخذ كنائسهم الأخرى الواقعة في المنطقة التي فتحت من دمشق حرباً .

وتقول أشهر الروايات إن المغيرة بن عبد الملك دخل يوماً على الوليد فرآه مغموماً فسأله عن ذلك فقال : إن المسلمين قد كثروا وضاق عليهم المسجد ، فبعثت إلى النصارى أصحاب هذه الكنيسة لندخلها في المسجد فأبوا علينا ، وقد أقطعتهم قطائع كثيرة ، وبذلت لهم مالاً فامتنعوا ، فقال له المغيرة : لا تغتم ، فقد دخل خالد بن الوليد من الباب الشرقي بالسيف ، وباب الجابية دخل منه أبو عبيدة بالأمان فماسحهم إلى أي موضع بلغ السيف ؟ فإن يكن لنا فيه حق أخذناه فقال له : فرّجت عني ، فتولّ أنت هذا ، فنولاه ، فبلغت المسحة إلى سوق الريحان فإذا باقي الكنيسة قد دخل في المسجد فبعث إليهم فقال لهم : هذا حق وقد جعله الله لنا لنصلي فيه ، لم يصل المسلمون في غضب ولا ظلم ، نأخذ حقنا الذي جعله الله تعالى لنا ، فقالوا له : يا أمير المؤمنين قد أقطعتنا أربع كنائس ، وبذلت لنا من المال كذا وكذا ، فإن رأيت أن تتفضل به علينا فافعل فأعطاهم كنيسة حميد بن درة ، وكنيسة أخرى حيث سوق الجبن ، وكنيسة مريم وكنيسة المصلبة .

وفي عهد عمر بن عبد العزيز وعقب حكمه برّد مدينة (سمرقند) إلى أهلها لما جاؤوا ببينة على أنها فتحت غدرأ ، طلب النصارى استرداد كنيستهم اعتماداً على المعاهدة التي شرطت ألا تهدم كنائسهم ولا تسكن ، فحاول عمر إرضاءهم فأبوا ، فأمر أن تعاد الكنيسة إليهم .

قال رجل من المسلمين : (ارفعوا دعوى إلى أمير المؤمنين بأننا نتمسك بالمعاهدة) والمعاهدة تحمي كنائسهم التي كانت حين الفتح ، ولكنها تمنعهم أن يحدثوا غيرها ، وقد أحدثوا بعد الفتح سبع كنائس مالههم فيها حق ، وعليهم بحكم المعاهدة أن يهدموها ، فإن أحبوا فإننا نعطيهم الكنيسة التي صارت مسجداً ونهدم كل ما أحدثوا من كنائس ، وإن شأؤوا تركت لهم كل كنيسة أحدثوها ، ونجعل للمعاهدة ملحقاً نعترف لهم بها ، فاستمهلوا ثم قبلوا ذلك وتنازلوا عن دعواهم .

حوادث في تاريخ الأموي :

لم يحافظ الجامع على الشكل الذي بني عليه ، فقد تعرض لكثير من الحرائق والزلازل التي غيرت معالمه كثيراً ، كما تعرض للإهمال فترات طويلة من الزمن ، وفكر الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز في إزالة مظاهر الترف منه ، التي رأى فيها خروجاً عن التعاليم الإسلامية ، لكن أهل الشام دافعوا عن زينة الجامع لأنها بنيت من أموالهم وجهدهم ، لا من بيت مال المسلمين ، فعدل عمر عن نيته .

وقيل أيضاً : إن رجلاً رومياً وقع مغشياً عليه لما رأى عظمة الجامع ، فلما سئل عن السبب قال : (إننا معشر أهل رومية نتحدث عن بقاء العرب قليلاً ، فلما رأيت ما بنوا علمت أن لهم مدة سيقونها ، فلذلك أصابني ما أصابني) . فلما أخبر عمر بالقصة قال : (لا أرى مسجد دمشق إلا غيظاً على الكفار) .

وإن كان عمر بن عبد العزيز قد اقتنع بضرورة الحفاظ على جمال الجامع وزينته ، فإن الكوارث لم ترحم جمال البناء ، ولا الجهد المبذول فيه ، وأهم هذه الكوارث حريق عام (٤٦١ هـ - ١٠٦٩ م) ، وحريق عام (١٣١١ هـ - ١٨٩٣ م) اللذان ذهبا بكثير من تزيينات الجامع وآثاره الهامة . فقد أتى حريق (٤٦١ هـ) على جميع محاسن الجامع وما فيه من الزخارف والنقوش البديعة الموجودة منذ أيام الوليد ، وظل على حاله حتى تم تجديده في عام (٤٧٥ هـ - ١٠٧٢ م) ، ثم تالت عليه الزلازل والحرائق . ولم يكن عمل البشر في صحن المسجد أقل من عمل الطبيعة ، فلقد انتابه الإهمال مرة حتى صار كأنه خان أو فندق ، وامتلأ صحنه باللاجئين والمقيمين ، وصار

الرجل يجد لنفسه موضعاً يضع فيه حاجاته وصندوقه ، و يقيم على نفسه مقصورة أو كوخاً ، ويستقر فيه ، وبلغ ما فيه من هذه المقاصير أكثر من ثلاثمئة ، واتخذ فيه الأمراء حواصل ومستودعات ، وبقي كذلك مدة لا يعرف الناس مقدارها ، حتى جاء الملك الظاهر ، فكان من بداية إصلاحاته أن طرد هؤلاء الناس ، ونظف الجامع وغسل رخامه ، وفرشه ، وأعاد مسجداً للعبادة والعلم .

وفي صحوه أحد أيام عام (١٣١١هـ - ١٨٩٣م) شبت نار عظيمة في سقف الجامع من الجهة الغربية ، من نار وقعت من نرجيلة أحد العمال الذين كانوا يصلحون السقف ، ودام الحريق ساعتين ونصف الساعة ، وقد أتى على سقف الجامع وجدرائه وأبوابه وسدته ، ولم يسلم من الحريق إلا المشهد الغربي (مشهد عروة) ، وبدأ الناس بإزالة الأنقاض من الجامع ، كلُّ حَيٍّ من المدينة يشتغل نوبة بجميع أفرادهِ ، وبعد أن تمت عملية التنظيف بُدئ بِجمع التبرعات ، وتسابق الشعب إلى الجود .

وبُدئ في بناء المسجد عام (١٣١٤هـ - ١٨٩٦م) ، وقد اشترك في عملية البناء أكثر من خمسمئة عامل يومياً ، ودام العمل تسع سنوات ، وقدرت النفقات بسبعين ألف ليرة ذهبية .



الحريق الأخير في الجامع الأموي الكبير عام (١٨٩٢م)

لقد أدت الحرائق والزلازل المتتالية إلى تغيير معالم المسجد ، وخاصة قبة النسر التي جددت نوافذها وفق هندسة لا تمت إلى الأصل بصلة ، إلا أن الحديث عن الضرر الذي لحق بالجامع الأموي جراء الحريق الكبير يجب ألا يحول دون الإشارة إلى الجهد الكبير الذي بذله أهل دمشق لإعادة بناء مسجدهم ، وهو لا يقتصر على الجهد العضلي أو التبرع بالمال ، بل يتعداه لإيجاد الوسائل الفنية اللازمة لإنجاز ترميم الجامع وإصلاحه ، فقد تطلبت هذه العملية نقل أعمدة جديدة للجامع من منطقة المزة ، وكانت المشكلة هنا إيجاد طريقة النقل ، فاقترح أحد أبناء المدينة ، واسمه عبد الله الحموي ، صنع عربة واطئة تجرها الثيران ولها ملاقط من تحتها . فلما شككوا برأيه قال : إنه رأى مثلها في مقالع الحجارة في إيطاليا ، فأقروه على صنعها ، فصنعت بإرشاده ، وصارت تحمل العمود الهائل وتأتي به يحف بها الناس والشباب بالعروضات والأهازيج ، ولما وصل العمود ، شكرت اللجنة المشرفة على ترميم الجامع السيد الحموي على ما صنع ، فضحك وقال لهم : أخبركم الآن بالحقيقة ، أنا لم أر مثل هذه العربة في إيطاليا ، ولا ذهبت إليها ولا إلى غيرها ، ولكنني خفت أن أقول لكم إنها من اختراعي فلا تقبلوا بها ، فزعمت لكم أنني رأيته في إيطاليا . وهذه العربة ما زالت موجودة حتى الآن عند الرواق الشمالي لباحة المسجد .

وليس ما سبق كل ما أصاب الأموي ، وإن كان أخطر ما أصابه ، فقد تعرض الجامع إلى عدد كبير من الحرائق والزلازل التي ألحقت به أضراراً مختلفة ، وكانت الحرائق ، باستثناء الأخير منها ، تمتد إليه من البيوت والأسواق الملتصقة به ، التي رأى بعض المهتمين أنها تستر جماله وتشوه منظره وتعرضه للخطر ، ما يتطلب إزالتها ، وقد تم بالفعل كشف جدران الجامع الأموي من الجهتين الجنوبية والغربية ، بحيث أزيلت تقريباً كل الأبنية الدخيلة عليه ، ما أتاح فرصة مشاهدته من الخارج لا من الداخل فقط ، وحسّن سبيل الوصول إليه ، وما تم هو جزء من أعمال ترميم الجامع المستمرة منذ عشرات السنين لإعادته إلى الشكل الذي كان عليه^(١) .

(١) ما ورد في هذه الفقرة مستقى من المصادر التالية : ١ - جورج مارسيه - الفن الإسلامي . =

دور الأموي في حياة دمشق :

للجامع الأموي دور بارز في حياة دمشق الاجتماعية والعلمية والدينية والسياسية ، فقد شهد الجامع أولى حلقات التدريس في تاريخ دمشق ، منذ عصر عبد الملك بن مروان ، حيث ذكر ابن عساكر أن أول من أحدث الدراسة بدمشق هشام ابن إسماعيل المخزومي الذي قدم على عبد الملك وكان والياً على المدينة المنورة ، فحجبه عبد الملك ، فجلس بعد صلاة الصبح في مسجد دمشق وقرأ القرآن الكريم ، فجعل عبد الملك يقرأ بقرائه ، وبعد ذلك صار الناس يوقفون الأوقاف على قراءة القرآن الكريم وتعليمه في الجامع الأموي .

روي عن أبي ثوبان أنه قال : ما ينبغي أن يكون أحد أشد شوقاً إلى الجنة من أهل دمشق ، لما يرون من حسن الجامع الأموي .

وروي عن الفرزدق أنه قال : أهل دمشق في بلدهم قصر من قصور الجنة يعني الجامع الأموي .

ويحكي عن الإمام الشافعي أنه قال : (عجائب الدنيا أربعة وهي : منارة الإسكندرية ، وأصحاب الرقيم ، وهم اثنا عشر رجلاً ، بالروم ، ومراة ببلاد الأندلس على مدينتها ، يجلس الرجل تحتها فينظر صاحبه من مسافة مئة فرسخ ، والرابعة الجامع الأموي وهو مسجد دمشق) .

من محاسن الأموي وسماته :

ومن شرف هذا الجامع أنه لا يخلو من مصلٍ فيه ، وتال لكتاب الله تعالى ، أو ذاكر أو متعلم ، ولا يخلو من صلاة الجماعة في وقتي الظهر والعصر ، أو في وقت المغرب .
ولنذكر الطلاسم والأرصاء التي كانت في هذا الجامع ، فنقول : يحكى أنه لما شرع الوليد في بنائه ، وجد مغارة فيها صورة إنسان من حجارة ، على فرس من حجارة ، ويداه مقبوضتان ، في اليد الواحدة درّة بقدر البيضة ، أخذها الوليد

= ٢- د . غفيف بهنسي - مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية رقم (٣٢) لعام (١٩٨٢ م) - الفن الإسلامي . ٣- د . عبد القادر ربحاوي - العمارة العربية الإسلامية - خصائصها وآثارها في سورية .

ووضعها فوق المحراب ، فكانت تضيء ليلاً على الجامع أكثر من ضوء القنديل ، وباليد الأخرى حَبَّتَان ، حبة قمح وحبة شعير ، فأمر بكسر هذه اليد فكسرت ، فقليل لو تُرِكَت لم يسوَّس في هذا البلد قمح ولا شعير .



قبة الخزنة وهي بناء مصلع قائم على ثمانية عمد كوراثنية الطراز جميلة التيجان .

وكان في الجامع قبل حريقه طلاس من لساير الحشرات ، معلقة في السقف ، وما كان يوجد في الجامع قبل الحريق شيء من الحشرات ، وحتى الآن لم يدخله عصفور ولا عنكبوت . ونقل ابن عساكر أنه لا تنسج فيه العنكبوت ولا يدخله الطائر المعروف بالخطاف ، ولا البرغش ولا الطير المسمى بالسُنُونُو .

وأما محاريب هذا الجامع فأربعة : المحراب الكبير بالمقصورة ، وكان مختصاً بالشافعية ، والمحراب الثاني الشرقي الذي هو تجاه ضريح النبي يحيى الحصور ، وهو مختص بالمالكية ، وأما المحراب الغربي فهو مختص بالحنابلة ، والمحراب الرابع الواقع بين الباب المسمى بالغبيرية وباب الخطابة وهو مختص بالحنفية . وأما أبوابه فسبعة ، ففي جهة القبلة باب الغبرانية ، ومن جهة الغرب باب البريد ، وفي جهة الشرق باب جيرون ، وفي جهة الشمال أربعة أبواب أحدها صغير تجاه الملك صلاح الدين ، والثاني كبير يفتح إلى مدرسة الكلاسة ، والثالث صغير قريب لجهة الشرق يسمى باب الكاملية ، والرابع كبير عظيم يفتح إلى وسط صحن الجامع يسمى باب السلسلة .

ومن محاسن هذا الجامع أن له عدة كثيرة من المدرسين ولكل واحد منهم بقعة معينة يدرس فيها ، وله عدة من الأئمة يصلون في المحاريب كلها على المذاهب الأربعة ، فيصلي كل إمام بجماعة ، وله عدة من الوعاظ على عدد أيام الأسبوع ، وله جم غفير يقرؤون القرآن بالأجزاء تنوف عدتها على ثلاثمائة جزء ، وله أيضاً في مقصورته ثلاثون جزءاً من صحيح البخاري معيّن بقراءته ثلاثون شخصاً ، بوظائف معينة يقرؤونه في ثلاثة أشهر من السنة وهي رجب وشعبان ورمضان . ومن محاسنه أيضاً أن له خمسة وسبعين مؤذنًا عليهم ثلاثة من الرؤساء أصحاب هبة ووقار ، يتناوبون في الأذان فيؤذن كل يوم منهم خمسة وعشرون ، وله عدة من الموقتين البارعين في علم الفلك والحساب يجتهدون في ضبط أوقات الصلوات على أكمل ضبط وإتقان .

ومن محاسنه أيضاً المزاويل (جمع مزوَلَة) وهي الساعة الشمسية التي يعين بها الوقت بظلّ الشاخص الذي يثبت عليها) التي في صحنه المتخذة لمعرفة الأوقات والساعات . ومن محاسنه أيضاً أن المؤذنين المستغفرين بالأسحار يتناوبون كل ليلة فيصعدون واحداً بعد واحد إلى منارة العروس ، ويلهجون بالذكر والتسبيح والاستغفار ومناجاة الواحد القهار الغفار ، من ثلث الليل الأول إلى طلوع الفجر ، ثم يؤذنون جماعة لصلاة الفجر ، ثم يأتون جميعاً إلى الجامع فيلهجون بأنواع الثناء والأذكار ، وأنواع الصلوات على النبي المختار إلى أن يصلوا الفجر ، بإمام بعد إمام إلى طلوع الشمس .

ومن محاسنه أيضاً أن في مقصورته عدة كثيرة من المصاحف أكثر من مئة مصحف ، وعلى كثرتها ، فلا تجد في شهر رمضان مصحفاً تقرأ فيه لكثرة القارئ ، لا سيما آخر الليل ، ووقت السحر ، فالحمد لله الموفق إلى ذلك والهادي إلى خير المسالك . ومنها أن في مقصورته أيضاً مصحف الإمام عثمان يُتَبَرَكُ به ويقال : إنه بخط يده .

ومن محاسنه أيضاً صحنه المبلط الذي لِسَعَتِهِ تشرح به الصدور ، وتبهر العقول ، وفي وسطه اللطيفة المعقود عليها من الرخام الأبيض المصقول ، وبالصحن أيضاً عمودان لطيفان ، برأسهما مشعلان يسرجان في هذه الليالي المذكورة ، وكذلك تنور فيها المنارات ، وتقلّد بقناديل أبهى من قلاند النحور على

أجياد الحور ، وهي ثلاثة فالمنارة الشمالية المسماة بمئذنة العروس من بناء الولي ،
قد تغزّل بها الأدباء وذكر محاسنها البلغاء ، ومن قولهم :



صورة الأموي

معبد الشام يجمعُ الناسَ طُرّاً وإليه شوقاً تميلُ النفوسُ
كيف لا يجمعُ الوري وهو بيتٌ فيه تُجَلَّى على الدوامِ النفوسُ
وأما المنارة الشرقية والغربية ، فقال البصري : فكانتا قبل ذلك ، فإنه كان في
كل زاوية من هذا المعبد صومعة جدّد بنيانها اليونان للرصد ، فسقطت الشماليات
وبقيت القبليات . وأما المنارة الغربية فإن حجة الإسلام أبو حامد الغزالي أقام بها ،
وكان يتعبد بها ، وكان يُدرّسُ بالبقعة الشمالية من المسجد وهي معروفة بالغزالية .
وأما المنارة البيضاء الشرقية فإنه سينزل عندها عيسى ابن مريم عليه السلام ، كما

جاء في الحديث الشريف ، وعندها حَجَرَ يقال إنه قطعة من الحجر الذي ضربه موسى عليه السلام بعصاه فانجست منه اثنتا عشرة عيناً . ذكره ابن الوردي .

وروي عن كعب الأحبار أنه قال : ليدخلن عيسى ابن مريم على جامع دمشق على أحسن ما كان ، فيجلس على منبر معاوية . وروي عن ابن عباس أنه قال : يخرج عيسى ابن مريم عند المنارة الشرقية ثم يأتي مسجد دمشق حتى يقعد على المنبر ، ويدخل المسلمون والنصارى واليهود كلهم يرجوه ، ويأتي مؤذن المسلمين فيقوم ، ويأتي صاحب بوق اليهود وصاحب ناقوس النصارى ، فيقول صاحب البوق أَقْرِعْ بَيْنَنَا ، فيكتب سهام الفرق الثلاثة ، ويُقْرِع بينهم فيخرج سهم المسلمين ، فيؤذن المؤذن ، فتخرج اليهود والنصارى من المسجد ، ثم يخرج يتبع الدجال بمن معه من أهل دمشق ، ثم يأتي بيت المقدس فيرى أبوابها مغلقة وقد حاصرها الدجال ، فيأمر بفتحها ويدركه بباب لدّ ، فيذوب كما يذوب الشمع ، فيقتله الله على يده ، ويمكث عيسى عليه السلام ثلاثين أو أربعين سنة ، الله أعلم ، أي العديدين . ذكره البصروي وغيره .

أقوال في الأموي :

قبل الكثير عن جمال المسجد الأموي وكلفته وقديسيته ، ومن ذلك :

عن السلامي^(١) قال : (حيطان مسجد دمشق الأربعة بناء نبي الله « هود » عليه السلام) .

وعن عثمان بن أبي العاتكة^(٢) قال : (في قبلة مسجد دمشق قبر هود نبي الله عليه السلام) .

وقال الحافظ^(٣) : (عند باب مسجد دمشق المسمى (باب الساعات) صخرة

(١) هو عبد الرحمن بن أحمد بن رجب السلامي البغدادي ثم الدمشقي ، زين الدين أبو الفرج ، حافظ للحديث من العلماء .

(٢) هو سليمان الأزدي الدمشقي صحابي توفي سنة (٥٢ هـ) .

(٣) هو عبد الواحد المقدسي بن علي المقدسي ، أبو الفرج الشيرازي ثم الدمشقي ، الأنصاري =

عظيمة ، كان قديماً يوضع عليها القربان ، فما تقبل منه ، نزلت نار من السماء فأحرقتة .

وقال ابن عساكر : (ومسجد علي بن الحسين ، وهو زين العابدين ، في جامع دمشق ، محروس معروف ، وبه مرقد رأس أبيه الحسين شهيد كربلاء) ، المعروف بدار الحديث ، وقال الحوراني عثمان بن أحمد بن محمد السويدي^(١) : (هو في المسجد الشرقي الشمالي مبني تحت الرواق ، كان رضي الله عنه يصلي فيه كل يوم وليلة ألف ركعة ، وهو مسجد لطيف عليه جلالة وهيبه ، يزار ويتبارك به) .

وقال الهروي^(٢) في كتاب الزيارات : (بمسجد دمشق المنارة الغربية التي أقام بها حجة الإسلام أبو حامد الغزالي)^(٣) . وفي الجامع الأموي أيضاً ، من شرقه ، مسجد عمر بن الخطاب ، ومسجد علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وبالجامع مقصورة الصحابة ، وزاوية الخضر ، ومصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه ، كما ذكروا أنه بخط يده ، قاله الهروي في كتاب (الزيارات) ، وقيل إن مصحف عثمان رضي الله عنه ، في طبرية فنقله (كمشتكين) إلى جامع دمشق .

وقال بعض السلف الصالح : (مكثت أربعين سنة مافاتني صلاة من الخمس ، وما دخلته قط إلا وقعت عيني على شيء لم أكن رأيته من قبل من صناعة ونقش وحكمة) .

= السعدي العبادي الخزرجي ، شيخ الشام في وقته حنبلي ، أصله من شيراز ، تفقه في بغداد ، وسكن بيت المقدس ، واستقر في دمشق فنشر مذهب الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ، وتوفي بدمشق سنة (٤٨٦هـ - ١٠٩٣م) .

(١) أصله من السويداء بجبل حوران ، انتقل إلى دمشق فكان واعظاً في الجامع الأموي توفي سنة (١٠٠٣هـ - ١٥٩٥م) .

(٢) علي بن أبي بكر بن علي الهروي الموصلبي .

(٣) هو محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي ، حجة الإسلام ، فيلسوف متصوف له نحو مائتي مصنف ، وكان يتعبد بها ، وكان يدرس بالبقعة الغربية الشمالية من المسجد وهي المعروفة بالغزالية .

وفي (معجم البلدان) قال ياقوت^(١) : ولما ولي عمر بن عبد العزيز قال : إني أرى في أموال مسجد دمشق كثرة لو أنفقت في غير حقها ، فأنا مستدرك ما استدرك منها ، فردت إلى بيت المال ، أنزع هذا الرخام والفسيفساء وأنزع هذه السلاسل وأصير بدلها حبالاً ، فاشتد ذلك على أهل دمشق . وورد عشرة رجال من قبل ملك الروم إلى دمشق ، فسألوا أن يؤذن لهم بدخول المسجد ، فأذن لهم أن يدخلوا من باب البريد ، فوكل بهم رجلاً يعرف لغتهم ، ويستمع كلامهم وينمي أقوالهم إلى الخليفة رضي الله عنه ، من حيث لا يعلمون ، فمروا في صحن الجامع حتى استقبلوا القبلي ، فرفعوا رؤوسهم إلى المسجد ، فنكس رؤسهم رأسه وأصفر لونه ، فقالوا له في ذلك ، فقال إنا كنا معاشر أهل رومية نتحدث أن بقاء العرب قليل ، فلما رأيت ما بنوا علمت أن لهم مدة أن يبلغوها ، فلما أخبر عمر بن عبد العزيز بذلك قال : مسجداً هذا غيظ على الكفار ، وترك ما هم به . وقد كان رصع محرابه بالجواهر النفيسة الثمينة ، وعلق عليه قناديل الذهب والفضة) .

وقال ياقوت أيضاً في (معجم البلدان) نفسه : (كان الابتداء بعمارة مسجد دمشق في سنة ثمانية وسبعين ، وقيل ثمانية وثمانين للهجرة ، ولما أراد الوليد بن عبد الملك بن مروان بناءه جمع نصارى دمشق ، وقال لهم : إنا نريد في مسجدنا كنيسة ، أي كنيسة (يوحنا المعمدان) ، أي نبي الله يحيى بن زكريا عليهما السلام ، ونعطيك كنيسة عوضها حيث شئتم ، وإن شئتم ضاعفنا لكم الثمن ، فأبوا وجاؤوا بكتاب خالد بن الوليد ، وقالوا إنا نجد في كتابنا أنه لا يهدم كنيسة أحد إلا خنق ، قال لهم الوليد : فأنا أول من يهدمها ، فقام وعليه قباء أصفر فهدم وهدم الناس ، ثم زاد في المسجد ما أراد ، واحتفل ببناؤه بغاية ما أمكنه ، وسهل عليه إخراج الأموال ، وعمل له خمسة أبواب وهي :

١ - باب جيرون شرقاً .

٢ - باب البريد غرباً .

(١) هو الإمام شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي ، صاحب (معجم البلدان) الشهير .

٣- باب الزيادة في قبلته جنوباً .

٤- باب الناطفانيين شمالاً مقابله .

٥- باب الفراديس في دبر القبلة .

ذكر غيث الأرمنازي^(١) في كتاب (دمشق) : على ما حدثني به الصاحب جمال الدين الأكرم أبو الحسن علي بن يوسف الشيباني قال : (إن الوليد أمر أن يستقصى في حفر أساس حيطان الجامع ، فبينما هم يحفرون حائطاً مبنياً على سمت الحفر سواء بسواء ، فأخبروا الوليد بذلك وعرفوه بأحكام الحائط فاستأذنوه بالبنيان فوقه ، فقال : لا أحب الإحكام واليقين فيه ولست أثق بإحكام هذا الحائط حتى تحفروا في وجهه ، إلى أن تدركوا الماء ، فإن كان محكماً مرضياً فابنوا عليه وإلا استأنفوه ، فحفروا في وجه الحائط فوجدوا باباً عليه بلاط من حجر مانع ، وعليه نقش منقور كتابة ، فاجتهدوا في قراءتها حتى ظفروا بمن عرفهم ترجمتها ، وإنها من خط اليونان وإن معنى تلك الكتابة ما صورته) .

وكان بالجامع الأموي ستمئة سلسلة من الذهب ، فلما فرغ من بناء جدران الجامع ، أمر الوليد أن يسقف بالرصاص ، فطلب الحصول عليه من جميع البلاد ، ورصف به السقف ماعدا قطعة بقيت من غير ترصيص ، ولم يوجد لها رصاص إلا عند امرأة أبت أن تبيعه إلا بوزنه ذهباً ، فقال الوليد : اشتروه ولو بوزنه مرتين ذهباً ، فلما قبضت الثمن قالت : إني ظننت أن صاحبكم ظالم في بنائه هذا ، فلما رأيت إنصافه فإني أشهدكم أنه لله ، وردت الثمن ، فلما بلغ الوليد ذلك ، أمر أن يكتب على صفائح تلك المرأة أنه لله ولم يدخلها فيما كتب اسمه عليه .

(١) هو غيث بن علي بن عبد السلام الأرمنازي ، فاضل كان خطيب صور بساحل الشام ، ومن أهلها ، نسبته إلى أرمناز إحدى قرى أنطاكية وأصله منها ، اشتهر بجودة الخط ، وكتب كثيراً فعرف بالكتاب ، وزار دمشق والقدس والقاهرة والإسكندرية وغيرها ، وأخذ عن كثير من العلماء ، وعاد إلى صور فصنف لها تاريخاً لم يتمه ، واستوطن دمشق وتوفي بها سنة (٥٠٩ هـ / ١١١٥ م) .

لم يزل جامع دمشق على تلك الصورة يبهر العقول بالحسن والتنسيق إلى أن وقع فيه حريق في سنة إحدى وستين وأربعمئة ، فأذهب بعض بهجته وأتلف نقوشه وزخرفته ، ثم الحريق الآخر الذي طرق على الجامع المذكور في زماننا سنة عشرة وثلاثمئة وألف ، التهب به جميع سقفه وكل ما به من الأخشاب والجسور الخشبية الحاملة للسقف ، وسقطت أعمدته وجميع ما بجدرانه الأربعة من المرمر والرخام والفسيفساء والنقوش حتى صار جميعه رماداً وتراباً . وفقد مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه .

وقام أهل دمشق قيام رجل واحد ، وبادروا لتجديده بعد أن نظفوه من التراب والرماد والأنقاض بأيديهم وبأموالهم ، وقدر ما صرفوه عليه تسعة ملايين أو عشرة ملايين قرش ، ولم يقبلوا أن يشركوا معهم بهذا المبلغ أحداً ، حتى عاد أحسن مما كان عليه من الرونق والحسن ، خصوصاً ضريح رأس حضرة النبي يحيى عليه السلام ، والمنبر والمحاريب والجدار القبلي والعضادات الأربع والسدود والأبواب والشبابيك فيما لا يقاس ، ولما كان عليه من التصليح القديم ، حيث كان ذلك تصليحاً ، وأما اليوم فتجديد وتعمير حتى أضحي بهجة يضيء على سائر البلدان .

ويقول الأستاذ العلامة الشيخ علي الطنطاوي - رحمه الله - في كتابه (الجامع الأموي في دمشق) :

(لقد تشرفت فزرت آلافاً من المساجد في الداني والقاصي من بلاد الإسلام عامرها ودائها ، فرأيت المسجد الحرام ، ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، والمسجد الأقصى ، والأزهر المعمور ، ومسجد أبي حنيفة ، والجيلاني في بغداد ، وابن طولون والمتوكل في القاهرة ، وسر من رأى أو (سامراء) ، وآثار مسجدي الكوفة والبصرة ، والمسجدين العظيمين المسجد الجامع في دهلي ، وآثار مسجد قوة الإسلام في دهلي القديمة (هكذا ورد الاسم في كتابه) ، ومساجد الملايو وجاوة ، فما رأيت فيها كلها بعد المساجد الثلاثة التي ميزها الله وجعل الصلاة فيها أفضل بدرجات ، مسجداً هو أقدم قديماً ، وأفخم مظهراً وأجمل

عمارة ، وأحلى في العين منظراً ، من الجامع الأموي في دمشق .

هذا الجامع الأموي الذي جئت أعرض عليكم خطوطاً من صورته وملامح من تاريخه ، له حياة طويلة ، ولحياته تاريخ طويل . تاريخ لا يدري إلا ببعضه التاريخ ؛ لأن الأموي ولد قبل أن يكتب التاريخ ، لا تعرف ولا يعرف أحد من الذي وضع الحجر الأول فيه ، ولا متى شُيّد .

صارع النار والدمار ، وثبت على الأدهار والأعصار ، تكسرت على جدرانها موجات القرون كما تتكسر الأمواج على صخرة الشاطئ ثم ترتد عنه ميتة وهو حي قائم .

ذهبت أمية بمالها وسلطانها ، وظل وحده يخلد في الدنيا اسم أمية ، فكان أبقي من كل ما نالت أمية من مال وسلطان .

كان معبداً من أكثر من ثلاثة آلاف سنة ، تداولته أيدي اليونان والرومان وأقوام كانوا قبلهم ، ثم صار للمسيح ، ثم انتهى لمحمد عليه الصلاة والسلام .

قال أحمد شوقي :

كنيسة صارت إلى مسجدٍ هديّة السيّد للسيّد

ولد المسجد ليلة الفتح ، حين شرف الله الشام وأراد لها الخير فاستظلت براية القرآن ، وأتبع داعي الله وشكلت الطريق الموصل (إن شاء الله) إلى الجنة ، ثم شب واكتهل ، ونما واكتمل على عهد الوليد ، يوم كانت دمشق تفرح في غرس محمد ، وتنعم هائلة بالأمن والرخاء في فيء الصرح الذي شاده محمد ﷺ ، حين كانت الليالي أعراساً ، والأيام أفراحاً ، والدنيا ترقص ابتهاجاً وتميس من السرور .

هنالك كان الأموي يتبوأ في دمشق سدة ملك ، قد لبس الفسيفساء وتحلّى بالذهب ، وتسربل بستر الوشي والديباج ، وتاه على كل بناء في الأرض ، ثم أراه الزمان من حلوه ومره ، ومن نعيمه وبؤسه ما يري كل حي في الوجود .

ولست أستطيع أن أعرض عليكم تاريخ الأموي يوماً بيوم ، فلقد كانت تتعاوره

الأيدي دائماً : أيدي المصائب والبغاة بالخراب والدمار وأيدي المصلحين بالعمارة والإصلاح ، حتى غدا ، وفي كل شبر منه تاريخ ، وصار كفسيفسائه ، كل قطعة منه من طبيعة ومن لون ، ولكل يوم من حياته الطويلة قصة .

عبث به التتر والمغول مرتين ، مرة في أواخر القرن السابع الهجري إذ عطلوه واتخذوه معسكراً لهم ، ونصبوا فيه المنجنيقات لرمي القلعة وارتكبوا فيه أفظع أنواع الإثم والفجور ، ومرة أخرى على عهد تيمورلنك الذي أساء إلى دمشق إساءات لم يأت مثلاً أحد .

ثم كان الحريق الأخير سنة (١٣١١هـ) الذي ذهب بالمسجد كله أي الحرم وجدده أهل الشام (دمشق) . وكان قبل ذلك قد تعرض للحريق أكثر من ثماني مرات ، وذلك في الأعوام (٤٦١ / ٥٦٢ / ٥٧٠ / ٦٤٦ / ٦٨١ / ٧٦٠ / ١٠٦٤ / ١١٣١هـ) .

ومن محاسن ما قيل في وصف الشام وجامعها ، ما قاله بدر الدين حسن بن حبيب الحلبي في كتاب سماه (تشنيف السامع في وصف الجامع) ، جاء فيه :

(وأما دمشق فإنها في وجنة الدنيا كالشامة ، وزينة البلاد كريش الطاووس أو طوق الحمامة ، وفي دائرة الأقطار كالنقطة المعلمة ، وفي جيش الأمصار كالملك الذي ينطق بالحكمة ، وفي قلادة الإقليم كالواسطة ، وفي سماء الحلل كالشمس التي بدت أشعتها في الوجوه باسطة ، وهي الربوة المباركة والغوطة التي جلّت عن المماثلة والمشاركة ، والمعدودة من جملة مدائن الجنة ، والمأهولة بالأهلة من أرباب الكتاب والفقه ، والمعروفة بإرم ذات العماد ، والموصوفة بلم يخلق مثلاً في البلاد) .

وبخط الشيخ صلاح الدين الصفدي قوله :

تقول (دمشق) إذ تفاخرُ غيرها بمعبدها الزاهي البديع المشيد
جرى لتناهي حسنه كلُّ معبد وما قصبات السبق إلا لمُعْبدي

وأيضاً :

الجامع الأموي أضحى حسنه
حلّوه إذ حلّوه فانظرُ صحنه
ومن محاسن قوله رحمه الله تعالى :

وفي الجامع الأموي الحسنُ مجتمِعُ
دقائق الحسن يحويها له دَرَجُ
وحبذا معبد كم أطربت أذنأ
جلا العروس على الرائي فطلعتها
ومما قيل في مديح الجامع الأموي :

بجامعِ جَلَّقِ نعم الإقامة
ويمم نحوه في كل وقت
وصلّ فيه للرحمن سرأ
دمشق لم تزل للشام وجهأ
ومما قيل في الأموي :

يا جامعاً في دمشق
لم تُطرب الناس طراً
في حُسنه قد تفرّد
إلا لأنك معبّد

قال الفتح ابن شهيد : تورية باسم معبد الموسيقى العربي :

قاسوا حماة بخلق فأجبتهم
فعرّوس جامع خلق ما مثلها
هذا قياس فاسد وحياتكم
شتان بين عروسنا وحماتكم

عن القاسم بن عبد الرحمن قال : أوحى الله عز وجل إلى جبل قاسيون أن هب
ظلك وبركتك لجبل بيت المقدس ، قال ففعل ، فأوحى الله عز وجل إليه : أما إذ
فعلت ، فإني سأبني لي في حضنك بيتاً . قال عبد الرحمن ، قال الوليد : أي في
وسطك ، وهو هذا المسجد ، يعني مسجد دمشق ، أُعْبِدُ فيه بعد خراب الدنيا

بأربعين عاماً ، ولا تذهب الأيام والليالي حتى أرَدَ عليك ظلك وبركتك . قال : فهو عند الله بمنزلة المؤمن الضعيف المتضرع .

عن أبي زياد الشعباني وأبي أمية الشعباني قالا : كنا بمكة فإذا رجل في ظل الكعبة ، وإذا هو سفيان الثوري ، فسأله رجل فقال له : يا أبا عبد الله ما تقول في الصلاة في هذه البلدة ؟ فقال : بمئة ألف صلاة ، قال : ففي مسجد رسول الله ﷺ ؟ قال : بخمسين ألف صلاة ، قال : ففي مسجد بيت المقدس ؟ قال : أربعين ألف صلاة قال : ففي مسجد دمشق ؟ قال بثلاثين ألف صلاة .

عن المغيرة المقري قال : إن الوليد بن عبد الملك تقدم إلى القوَّام ليلة من الليالي فقال : إني أريد أن أصلي الليلة في المسجد فلا تتركوا فيه أحداً حتى أصلي ، ثم إنه أتى إلى باب الساعات ، فاستفتح الباب ، ففُتِحَ له ، فدخل من باب الساعات ، فإذا رجل فيما بين باب الساعات وباب الخضر الذي يلي المقصورة قائماً يصلي ، وهو أقرب إلى باب الخضر منه إلى باب الساعات ، فقال للقوَّام : ألم آمركم أن لا تتركوا أحداً يصلي ألبتة في المسجد ؟ فقال بعضهم : يا أمير المؤمنين هذا الخضر عليه السلام يصلي في المسجد كل ليلة .

ومن محاسن الشام ما قاله العلامة اليعقوبي :

(مدينة دمشق جليلة قديمة ، وهي مدينة الشام في الجاهلية والإسلام ، وليس لها نظير في جميع بلاد الشام) .

ووصف الأستاذ ابن جبير جامع دمشق ، فقال : (الجامع الأموي من أشهر جوامع الإسلام حسناً وإتقان بناء ، وغرابة صنعة ، واحتفال تنميق وتزيين ، ومن عجيب شأنه أنه لا ينسج فيه عنكبوت ، ولا تدخله ولا تلم به الطير المعروفة بالخطاف) .

وبعد ، فلا شك في أن هذه الجولة على أهم جوامع دمشق ، تستدعي إلى الذاكرة ما تزرخر به هذه المدينة العظيمة من زوايا وخوانق ورُبط ، ومدارس كثيرة تشهد على أنها كانت طليعة للعلم ومنارة لنشره ، في عصور كان العالم يغط أثناءها في ظلمة دامسة . وفيما يلي إطلالة سريعة على هذه المعالم المميزة لدمشق الحبيبة .

النشاط العلمي والسياسي في الأموي

لم تكن مهمة الجامع الأموي لتقتصر في العهود الماضية على العبادة ، وإقامة الصلوات والشعائر الدينية ، بل كان الجامع يحفل بالنشاطات السياسية والاجتماعية . كان الأموي مركزاً للإشعاع الثقافي ، والعلمي ، كانت حلقات العلم والدراسة للصغار والكبار تنعقد في شتى زواياه وجوانبه . كذلك أنشئت حوله عشرات المدارس والمكتبات ، ولعل أبرزها المدرسة العادلية ، التي كانت تضم مجمع اللغة العربية والمكتبة الظاهرية .

ولعله من الأهمية بمكان ، أن نشير إلى أن الجامع الأموي ، كان أيام الانتداب الفرنسي ، ملتقى لأحرار دمشق وسورية كلها ، يتجمع فيه الناس أيام الجمعة ، فيؤدون الصلاة ، والحماسة تغلي في عروقهم ، ويقوم بينهم الخطباء ، فينددون بالاستعمار والمستعمر والغاصب والمحتل ، وما أن تنتهي صلاة الجمعة ، وتتلوها الخطب الحماسية ، حتى ينطلق عشرات الألوف من الناس ، من الجامع الأموي ، باتجاه سوق الحميدية ، والشوارع الأخرى ، في تظاهرات وطنية حماسية ، تهتف للاستقلال ، وتنادي بالحرية ، وتطالب بخروج الغاصب الأجنبي ، ويشتبك المتظاهرون مع القوات الفرنسية ، ويسقط منهم الضحايا ، وتغلق الأسواق وتكرر الصلاة في الأسابيع التالية . وقد تحاصر القوات الفرنسية المصلين وتمنع خروجهم في تظاهرات ، ولكن فرنسا لم تفكر قط ولم تحاول أبداً أن تنتهك حرمة الأموي ، أو تسمح لجندي واحد أن تطأ قدمه صحن الجامع ، ليتعقب متظاهراً ، لقد كان بيت الله هذا ملجأ لكل خائف .

جامع بني أمية الكبير

آية من آيات العقل النير ، والعبقرية المبدعة والفن الإسلامي الرفيع فهو درة العصر ، وتحفة الدهر . واتخذ الجامع الأموي طرازاً يحتذى ، ونموذجاً يقتدى ، وكان ولا يزال محط أنظار المسلمين في الشرق والغرب ، ومهوى أفئدتهم ، يقبل عليه السياح من أقاصي الدنيا ليشاهدوا فن البناء الذي لا يجارى ، وعظمة الإسلام التي لا تبارى^(١) .

(١) عبقریات شامية لعبد الغني العطري

ووصف أبو العساكر سلطان بن علي بن مقلد بن نصر ابن منقذ الكناني هذا
الجامع بقوله :

وكأن جامعها البديع بناؤه	ملك يميز من المساجد جحفا
ذو قبة رفعت فضاهت قلة	ومنابر بنيت فحاكت معقلا
تبدو الأهلة في أعاليها كما	تبدو الهلال تعالياً وتهللا
ويريك سقفاً بالرصاص مدثراً	يعلو جداراً بالرخام مزملا
قد ألف الأقوام بين شكوله	فغدا الرخام بذاته متشكلا
لم يرض تجليلاً بجص فانبرى	بالقَصَّ يعلو والنضار مجللا
يُعْشي سوامَ اللحظ في أرجائه	من عسجد أرضاً ومن فَصَّ حلا
فإذا تذر الشمس فيه تخاله	برقاً تألَّق أو حريقاً مشعلا
فكأنما محرابه من سندس	أو لؤلؤ وزمرد قد فصلا
وتخال طاقات الزجاج إذا بدت	منه للحظك عبقرية مسدلا
تبدو القباب بصحنه لك مثلما	تبدو العرائس بالحلي لتجتلى
وعلت به فوارة من فضة	سالت فظنوها معيناً سلسلا
وبابه حركات ساعات إذا	فتحت لها باب تراجع مقفلا

صلاة الفطر في الأموي

سمعتُ الأذانَ ، وكان مُحلّى	بُسْكَرَةِ الفطر حَلَّتْ فحلاً
فراوغني القلبُ لما أصاخ	وغافلني الدمعُ حين استهلاً
فوجهتُ نحو المآذن روحاً	مُكَبِّلَةً ، وخيالاً أشلاً
وعقلاً يغطّي الضبابُ عليه	فيوشك ألا يرى أو يُدلاً
ولو كنتُ شمساً إذن لاهتديت	فكيف اهتدائي إذا كنتُ ظلاً
أرى بابك الرحبَ خلف الزحامِ	يُكسِّرُ قُفلاً ويجبرُ قفلاً
ليمتحن الوافدين عليه	فأيُّ تولى ، وأيُّ تخلّى
ولكنهم يدخلون جميعاً	فكيف سمحت بأن تُستغلاً

من ازدحامِ بلوغِ المُصلّي
 تسدّ الطريقَ وتغزو المحلّا
 تموّهَ عهداً ذوى واضمحلاً
 كمن يستغيث حبيباً تولّى
 من البئر أرجو خلاصاً ووصلاً
 دُ سرّاً ، وأنكره إن تجلّى
 إلى الصحن مستأنياً مُستدلاً
 وحين توضأت طارَ وعلى
 فأمسكتُ أطرافَ جبلٍ تدلّى
 فأشعلَ نجماً ، وحرّزَ عقلاً
 يعودُ إلى نبعه مستقلاً
 يسدُّ فأضحت مناراً مطلاً
 رُ سبعاً ، فزدتُ ، فزادَ وأغلى
 وحولي ، وفوقي فيحاءَ جدلى
 فيعلنُ قولاً ، ويضمّر قولاً
 فقلتُ له : لو سمحتُ ! فأخلى
 ابن عبد العزيز نجياً ومولى
 تٍ من فوقنا صحتُ : أهلاً وسهلاً
 ومروانَ من خلفهم قد أطلا
 عليّ وعثمانُ هبّا لجلى
 يضُمُّ شتيتاً ويمسحُ ذلاً
 بحاراً ، وحولي رفاقاً وأهلاً
 وأسلحةً ، وجنوداً ، وخيلاً
 يدوّي ، ويصعدُ أعلى فأعلى

ذهبتُ أصلي فلم أستطع
 رأيتُ الدكاكين مثل الفُطورِ
 وتزحف فوق الجدار العريقِ
 وكان الأذان البعيدُ ينادي
 وكنتُ أمُدُّ ذراعي كأنّي
 وما من مغيثٍ سوى ما أردَ
 أزحتُ الدكاكين ثم دخلتُ
 فأرشدني للمياه الحَمَامُ
 فطَيّرني معه ، فارْتفعتُ
 فشَدَّ جذوري ، وأطلقَ جذعي
 ووزّعني في السموات نوراً
 أرُمُّمُ روحي وكانت جداراً
 دخلتُ . . . وكان الإمامُ يكبّد
 وكانت دمشقُ تمور أمامي
 وكان الخطيبُ يزيّنُ عهداً
 وما كاد يختمُ حتى صعدتُ
 فألقيتُ مائرتي ، فاستعدتُ
 وحين أضاءت جميع الثُريا
 رأيتُ الصحابة والتابعين
 وجيشاً مهيباً على رأسه
 فكبرتُ للجامع الأمويّ
 وحين خرجتُ وجدتُ أمامي
 وأسرعةً في انتظار الهبوبِ
 فصرنا إليها ، وكان الأذان

أخيراً :

إن الجامع الأموي الكبير ، عبر تاريخه الطويل منذ بدايات أساساته التي يبدأ تاريخها في الألف الأول قبل الميلاد ، ومن الشواهد التاريخية للعصور التي تعاقبت عليه ، تظهر الآثار الباقية من كل عصر وعهد ، وما تم إنجازه من أعمال ترميمية أو إصلاح أو إضافة عناصر جديدة ، أو تزيينات خاصة في هذا العصر أو ذاك العهد ، وبالتالي فإن كل مرحلة مرت على الجامع الأموي منذ إنشائه قد تركت طابعاً ولمسات خاصة به ، وهذا ما يكسب الجامع الأموي رونقاً وبهاءً وأهمية وقيمة تاريخية وأثرية ومعمارية وفنية على مر العصور ، ولولا تلك اللمسات والأعمال والإضافات التي تمت في كل عصر وعهد لما وصل إلينا من الجامع الأموي شيء .

وقال أبو زُرعة : مسجد دمشق خطّه أبو عبيدة بن الجراح ، وكذلك مسجد حمص . وقيل : لما قدم المهدي يريد بيت المقدس دخل مسجد دمشق ومعه أبو عبد الله الأشعري كاتبه ، فقال : يا أبا عبد الله سبقنا بنو أمية بثلاث . قال : وما هنّ يا أمير المؤمنين ؟ قال : بهذا البيت (يعني المسجد) ، لا أعلم على وجه الأرض مثله ، وينبئ الموالي ، فإن لهم موالي ليس لنا مثلهم ، ويعمر بن عبد العزيز ، لا يكون والله فينا مثله أبداً! . . . ثم أتى بيت المقدس فدخل الصخرة ، فقال : يا أبا عبد الله وهذه رابعة! .

وحكي عمرو بن مهاجر الأنصاري قال : حسبوا ما أنفق على الكرمة التي في قبلة مسجد دمشق ، فإذا هو سبعون ألف دينار .

وقال أبو قصي : أنفق في عمارة مسجد دمشق أربعمئة صندوق ، كل صندوق أربعة عشر ألف دينار .

وقال بعض الشعراء المحدثين في وصف الجامع الأموي :

دمشقٌ قد شاع ذكرُ جامعها	وما حوته رُبى مرابعها
بديعةُ المدن في الكمال لما	يُدركهُ الطَّرفُ من بدائعها
طَيِّبَةُ أرضها مَباركةٌ	باليمن والسَّعد أخذُ طالعها
جامعها جامعُ المحاسن قد	فاقت به المدن في جوامعها

تذَكَّرُ فِي فَضْلِهِ وَرَفَعْتَهُ
قَدْ كَانَ قَبْلَ الْحَرِيقِ مَدْهَشَةً
فَأَذْهَبْتَ بِالْحَرِيقِ بَهْجَتَهُ
إِذَا تَفَكَّرْتَ فِي الْفُصُوصِ وَمَا
أَشْجَارُهَا لَا تَزَالُ مَثْمَرَةً
كَأَنَّهَا مِنْ زُمُرِدٍ غُرَسَتْ
فِيهَا ثِمَارٌ تَخَالُهَا يَنْعَثُ
تَقْطُفُ بِاللَّحْظِ لَا بِجَارِحَةِ الْأَيْدِ
وَتَحْتَهَا مِنْ رُخَامِهِ قَطْعٌ
أَحْكَمَ تَرْخِيمِهَا الْمَرْخُمُ قَدْ
وَإِنْ تَفَكَّرْتَ فِي قَسَاطِرِهِ
وَإِنْ تَبَيَّنْتَ حُسْنَ قُبَّتِهِ
تَخْتَرِقُ الرِّيحُ فِي مَخَارِمِهَا
وَأَرْضُهُ بِالرُّخَامِ قَدْ فُرِشَتْ
مَجَالِسُ الْعِلْمِ فِيهِ مَوْنَقَةٌ
وَكُلُّ بَابٍ عَلَيْهِ مَطْهَرَةٌ
يَرْتَفِقُ الْخَلْقُ مِنْ مِرَافِقِهَا
وَلَا تَزَالُ الْمِيَاهُ جَارِيَةً
وَسَوْقُهَا لَا تَزَالُ آهْلَةً
لَمَا يَشَاءُونَ مِنْ فَوَاكِهِهَا
كَأَنَّهَا جَنَّةٌ مُعْجَلَةٌ
دَامَتْ بِرَغْمِ الْعِدَا مُسَلَّمَةٌ

أَخْبَارُ صَدَقِ رَاقَتْ لِسَامِعِهَا
فَغَيَّرْتَهُ نَارَ بِلَافِعِهَا
فَلَيْسَ يُرْجَى إِيَابُ رَاجِعِهَا
فِيهَا تَيَقَّنْتَ حَذَقَ وَاضِعِهَا
لَا تَرْهَبُ الرِّيحَ فِي مَدَافِعِهَا
فِي أَرْضٍ تَبْنِي تَعْشَى بِفَاقِعِهَا
وَلَيْسَ يُخْشَى فُسَادُ يَانِعِهَا
سَدِي وَلَا تُجْتَنَى لِبَانِعِهَا
لَا قَطَعَ اللَّهُ كَفَّ قَاطِعِهَا
بِأَنَّ عَلَيْهَا إِحْكَامُ صَانِعِهَا
وَسَقْفِهِ بِأَنَّ حَذَقَ رَافِعِهَا
تَحْيَرُ اللَّبُّ فِي أَضَالِعِهَا
عَصْفًا فَتَقْوَى عَلَى زَعَاذِعِهَا
يَنْفَسُحُ الطَّرْفُ فِي مَوَاضِعِهَا
يَنْشَرُحُ الصَّدْرُ فِي مَجَامِعِهَا
قَدْ أَمِنَ النَّاسُ دَفْعَ مَانِعِهَا
وَلَا يَصْدُونُ عَنْ مَنَافِعِهَا
فِيهَا لِمَا شُقَ مِنْ مَشَارِعِهَا
يَزْدَحِمُ النَّاسُ فِي شَوَارِعِهَا
وَمَا يَرِيدُونَ مِنْ بَضَائِعِهَا
فِي الْأَرْضِ لَوْلَا سُرى فِجَائِعِهَا
وَحَاطَهَا اللَّهُ مِنْ قَوَارِعِهَا

* * *

شهر رمضان في دمشق

يعتبر شهر رمضان المبارك مناسبة خاصة لدى المجتمع الإسلامي عامة .

فشهر رمضان ، شهر الصوم ، شهر العبادة والصلاة شهر الطاعة والإحسان .

إن رمضان بالنسبة للمسلمين هو شهر مبارك ، ذكره الله تعالى في القرآن الكريم ، ونستقبل شهر رمضان مع رؤية الهلال حيث تفتح المحكمة الشرعية أبوابها لاستقبال الذين شاهدوا الهلال ويتم تبليغ القاضي الشرعي الأول بالعاصمة دمشق برؤية الهلال ، ثم يقوم القاضي الشرعي بإبلاغ رئيس الجمهورية ثم يعلن بداية شهر رمضان .

يأتي شهر رمضان ليفرض وجوده في كافة المجالات على الفرد والأسرة والمجتمع والإعلام المنظور والمسموع ، فهو شهر التغيير والتبديل في كل شأن من شؤون الحياة .

بمجرد إعلان رؤية هلال رمضان في السماء معلناً بدء شهر يحمل في طياته المحبة والصفاء حتى يبدأ الجميع بتهنئة بعضهم البعض داعين إلى الله تعالى بصيام مقبول ، ويبدأ الشيوخ صلاة التراويح ويذهبون لزيارة بعضهم البعض ليباركوا رمضان ، ومن ضمن هذه العادات مدفع الإفطار ، حيث يوجد في كل المدن والقرى السورية . ومدفع رمضان رمز من رموز هذا الشهر الفضيل ، وكان في دمشق مدفع واحد يوضع على جبل قاسيون ولكن مع التوسع العمراني أصبح في دمشق حوالي (١٧) مدفعاً ، وعند سماع المدفع معلناً الإفطار لا ترى أي شخص في الشوارع ؛ لأنه سيكون وقت الإفطار ، حيث تكون ست البيت وقد جهزت مائدة الإفطار فهو شهر التغيير والتبديل في كل شأن من شؤون الحياة فمواعيد الطعام والشراب والنوم تتغير ، والطاعات والعبادات والإقبال على الصلاة والتقرب من الله تظهر بشكل واضح والبر والإحسان والصدقات توزع على الفقراء والمحتاجين .

كل هذه المظاهر هي من مظاهر شهر رمضان الكريم والتي تنعكس على حياة العائلة بشكل واضح . ومن عادة العائلات الدمشقية أن تجهز نفسها لاستقبال شهر رمضان بعدة أوجه .

نظام البيت :

هنالك الكثير من العائلات التي تقوم بإعداد مكان خاص بوجبة الإفطار ، بحيث يتسع لجميع أفراد العائلة الكبيرة .

المأكولات :

من ضمن التحضيرات لاستقبال شهر رمضان أن تقوم العائلة بشراء احتياجاتها الغذائية قبل بداية الشهر .

يعود التزود بالاحتياجات الغذائية قبل بداية شهر رمضان لضمان تجهيز مائدة غنية بأنصاف ومأكولات متعددة .

فتحرص العائلة على أن يتصدر التمر والبلح كفاكهة مباركة مائدة الإفطار . إضافة إلى أصناف أخرى صحية يفضل أن يتبدىء بها الصائم إفطاره بعد امتناع يوم كامل عن الأكل والشرب مثل شراب القمر الدين والسلطات على اختلافها إلى جانب باقي المأكولات .

سهرات العائلات في رمضان :

تتجمع العائلات حول مائدة واحدة لتناول وجبة الإفطار . ومن عاداتها أن تحيي ليالي الشهر بالسهرات العامة ، والأحاديث الممتعة .

تزاور الناس ، ووصل الأقارب « صلة الرحم » :

يعتبر رمضان أحد الأشهر المهمة في وصل « صلة الرحم » وقد شدد القرآن الكريم على هذه المسألة في عدد من الآيات التي تناولت هذا الشهر بالحديث . والمقصود تفقد الأقارب ، والتزاور فيما بينهم . ويبدو أنها أمست عادة اجتماعية بين الناس إذ تلاحظ كثرة الزيارات داخل العائلة الواحدة .

(يمكن استغلال هذه المسألة لإنشاء محادثة بين الأطفال ، كأن يسألوا عن الزيارات ونوعية الأشخاص الذين يزورونهم) والتعرف على أفراد العائلة الكبيرة .
وهناك سهرات دينية في المساجد والزوايا حيث تتلى آيات قرآنية وتشد الأناشيد الدينية والمدائح النبوية ومنها إقامة الشعائر الدينية في الجامع الأموي ، كما يحرص الدمشقي على أداء الصلوات في المساجد ومنها صلاة التراويح .

ومن الاحتفالات الدينية المميزة في شهر رمضان المبارك الاحتفال الكبير بليلة القدر في السابع والعشرين من رمضان وتكون هذه الاحتفالات فرصة لبث الروح الدينية عند المسلمين وتكون بحضور الأعيان ورجال العلم والدين وجمهور المسلمين .

المسحراتي : نجم شهر رمضان

لا بد من الإشارة هنا إلى المسحراتي وهو الرجل الذي يقوم بإيقاظ النائم لتناول السحور قبيل أذان الفجر ، ويمثل المسحراتي أبرز معالم الشهر الكريم وله دور كبير والذي يعتبر ظاهرة رمضان مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بليالي رمضان ، حيث يكون عادة من أبناء الحي فيبدأ قبل الفجر بإيقاظ الصائمين حتى يتناولوا الطعام قبل وقت الإمساك ، وكان يضرب بواسطة عصا على طبله خاصة يعلقها بخيط رفيع في رقبته ، ويردد المدائح النبوية ويتراخض الأطفال خلفه لسماع نقر طبلته المتميزة وهم يهزجون بأهازيج طريفة ، وكان يلبس الجلباب المعتاد أو القنباز أو الطربوش .

والمسحراتي شخصية موجودة حتى يومنا هذا في بعض المناطق أو الحارات القديمة حيث يعتمد السكان عليه للاستيقاظ وتناول السحور دون أن ينسوه بإعطائه العيديّة في أول أيام عيد الفطر السعيد .

وينادي المسحراتي وهو يضرب على طبلته الخاصة بصوت جهور : (قوم يا صايم وحدّ الدايم) وينادي على بعض أهل الحارة أو الحي مثل (يا أبو أحمد وحدّ الله) .

والتسحير بشكل عام منذ العصر الأموي ويقتصر عمل المسحراتي على شهر

رمضان فقط أي أنها المهنة الوحيدة التي يعمل صاحبها شهراً واحداً في السنة وكان في دمشق وحدها (٧٥) مسحراً وهي مهنة تطوعية .

أما العادة الثانية فهي إطلاق مدفع السحور أول مرة وبعدها بمدة قصيرة مدفع ثان حتى يتم استيقاظ الجميع لتناول وجبة السحور . وبعد تناول السحور يذهب الصائمون إلى المسجد لأداء صلاة الفجر وبعد الصلاة يقرأ بعضهم القرآن الكريم . هذا وأيضاً بعد الانتهاء من صلاة العشاء والتراويح يبدأ درس ديني لمدة نصف ساعة وبعد الدرس تبدأ صلاة التهجد .

أما إحياء ليلة القدر فتبدأ من بعد صلاة التراويح حتى صلاة الفجر وفي هذه الليلة المباركة يقوم بعض الذين أنعم الله عليهم بإحضار مأكولات للمتواجدين بالمسجد ليتسحروا بها ويقام حفل خاص في جانب من الجامع الأموي هو مشهد الحسين ، للتبرك بشعرة من شعرات الرسول صلوات الله عليه وسلامه والجدير بالذكر أن هذه الشعرة لا تخرج إلا في المناسبات الدينية الكبرى ليلة القدر ، ليلة النصف من شعبان ، ذكرى المولد النبوي وتوجد في دمشق ثلاث شعرات واحده مهداة من السلطان عبد الحميد إلى آل سعد الدين والثانية لدى شيوخ الطريقة الشاذلية آل أبي الشامات والثالثة لدى الأشراف آل حمزة يحفظونها في مشهد الحسين .

ويقام الذكر أولاً حتى الوصول إلى حالة الوجد العميق ، ثم يكشف الشيخ الستارة عن مقام الشعرة ويخرج صندوقها من محرابها وهو موشى بالآيات المذهبة ، ومغشى بالحرير . وحين يبدأ بكشف الأغطية ، الواحد تلو الآخر يتعالى صوت المنشدين بأناشيد خاصة بهذه المناسبة ويتلمس الحضور تلك القارورة التي تحوي الشعرة أو يحملها الشيخ فيلوح بها في حركة دائرية على الجميع قبل إعادتها إلى الصندوق في انتظار مناسبة أخرى .

عمدت السلطات منذ عهود بعيدة إلى اعتقال كل مفطر في شهر الصوم يضبط في الأسواق متلبساً ، ويودع في السجن حتى اليوم الأول من أيام عيد الفطر ، علماً بأن الأوامر اقتضت بإغلاق المطاعم ومحلات بيع الأطعمة من بداية شهر رمضان طيلة

النهار وحتى الإفطار تحت طائلة العقوبة لمن لا يتقيد بهذا الموضوع . ولهذا سادت في الأسواق طوال شهر رمضان روح الصفاء والمحبة بين الناس .

الاستعداد للعيد :

فيما يختص بالاستعداد لعيد الفطر السعيد الذي يصادف في الأول من شهر شوال فهو يبدأ قبل أسبوع من انتهاء رمضان المبارك ، حيث يصطحب الأب أولاده معه إلى أسواق دمشق المعروفة لشراء الألبسة والأحذية الجديدة ، كما تشتري الأم لبناتها الاحتياجات اللازمة للعيد .

كما ينهمك أفراد الأسرة بتحضير لوازم وحوائج المعمول من سكر وخميرة وسميد وسمن بلدي وغيرها وذلك لصناعة المعمول بأنواعه الثلاثة : معمول بالتمر (العجوة) والجوز (الكرايج) والفسق الحلبي .

العيد :

في أول أيام العيد وبعد الانتهاء من الصلاة تبدأ المعايدات والتهاني بالعيد السعيد كما يحرص الكثير من المسلمين في دمشق بعد صلاة العيد على زيارة قبور موتاهم ووضع أغصان خضراء عليها معروفة باسم الآس رائحتها مثل المسك ، ثم تبدأ بعد ذلك زيارة الأبناء للآباء والأجداد وكبار أفراد العائلة امتثالاً لأمر الله والرسول عليه الصلاة والسلام بضرورة العمل بصلة الرحم .

لم تختلف العادات والتقاليد الرمضانية في يومنا هذا عن قبل إذ بقي اجتماع العائلة خصوصاً في اليوم الأول من شهر رمضان من التقاليد غير القابلة للتغيير والجميع سوف يكون عند كبير العائلة عدا من كان يعيش خارج البلاد .

وموائد رمضان دائماً غنية ومتنوعة عند الجميع تبعاً للعادات والتقاليد التي تجعل من الموائد لوحات فنية بما تحويه مما لذ وطاب من مأكولات وحلويات ومع حلول شهر رمضان المبارك تبدأ الأفران والمخابز بصنع خبز خاص لا تجده إلا في شهر رمضان ويدعى (المعروك) وهو عبارة عن خبز بالسمن مستدير أو متطاوّل له أحجام مختلفة ، وأيضاً الناعم وهو رقائق مقلية بالزيت وعليها الدبس السائل وينادي عليها البائع (ناعم والهوا رماك يا ناعم) .

والمعروف عن الدمشقي أنه ذواق ، والطعام عنده ليس لسد الجوع فقط وإنما للمتعة أيضاً .

قد تختلف الحياة اليوم عنها في السابق ولكن رمضان بروحه السماوية وتقاليده الإنسانية والاجتماعية جعلته محطة مميزة لدى كل إنسان فيها من الخصوصية والشفافية بحيث لا يغيرها الزمان ولا تعاقب الأجيال .

احتفالات دمشق في الشهور الفضيلة

وكانت ليالي دمشق . تتخذ طابعاً مختلفاً وإيقاعاً خاصاً في الأشهر الفضيلة .

وإذ يهل شهر رمضان تبلغ الليالي ذروتها جمالاً وبهاءً وتعاطفاً ومحبة بين الأهل والناس ، ولا عجب فإن هذا الشهر له قدسيته وكرامته وروعته ، عند المسلمين في دمشق « وفي ليلة الإثنين - رمضان سنة (٨٩٥هـ) تهيأ الناس بدمشق لصوم الغد ، وعلقت القناديل المشتعلة بعد المغرب ، خلال الجامع الأموي . وقال الموقّتون : رؤية هلال رمضان حينئذ عسرة ، فإنه من جهة الجنوب ومكثه على ست درج . فحضر القضاة على العادة بالجامع فلم يره أحد ، فأنكروا على من أشعل القناديل ، كأهل جامع (يلغا) ، فبلغهم فأطفئوها . ثم أتى رجل شهد أنه رأى هلال رمضان بعد المغرب من هذه الليلة . وزكّيَ فحكم بقبول شهادته وأعيدت القناديل وأصبح الناس صياماً بحمد الله تعالى .

وإذا كانت ليالي رمضان كافة بهية ، ومؤنسة ، ممتعة مبهجة للنفوس والقلوب ، فإن ليالي العشر الأخير منه تتميز عن سواها تماماً ، فتكثر أعمال الاستكثار من سبل الإضاءة من المشاعل والقناديل والشمعدانات والثريات والمشكايات ، وكان مشهد دمشق وجامعها في الليل يتغير منذ ليله السابع والعشرين من رمضان ، إذا يبالغ الناس جميعاً في إضاءة مسجدهم ومحلاتهم وأسواقهم .

وإن ليلة عيد الفطر السعيد ليلة لا ينام أهل دمشق فيها فأصحاب المحلات في محلاتهم حتى الصباح ، ويبدأ الناس بإعداد الحلوى ، وفي الصباح يقوم الناس

بزيارة القبور وصلاة العيد في المسجد ، ويتبادلون التهاني بالعيد السعيد ، ومن ثم زيارة الأقرباء وتبادل التهاني بقدوم العيد بقولهم : (كل عام وأنتم بخير) (أعاده الله عليهم بالخير واليمن والبركة) (وتقبل الله طاعتكم وأحياكم إلى أمثاله)^(١) .



واجهة المدرسة الصابونية ومئذنتها العهد المملوكي (القرن الخامس عشر)

(١) دمشق في الأربعينات وعبر القرون نصر الدين البحرة

الخوانق والرُّبُط والزوايا

الخانقاه ، ويقال : الخانكاه بالقاف والكاف وهي كلمة أعجمية : دار الصوفية وجمعه الناس على خوانق .

الخوانق مفردها خانقاه ، وهي كلمة فارسية تعني دار العبادة ينقطع فيها الناس للعبادة^(١) .

ومن أشهر الخوانق في دمشق الخانقاه الأندلسية والباسطية التي أنشأها القاضي زين الدين عبد الباسط ناظر الجيوش الإسلامية .

وصف ابن طولون الخانقاه الباسطية وصفاً دقيقاً كما كانت في القرن العاشر الهجري ، ونزل فيها إبراهيم الخيارتي في القرن الحادي عشر ووصف حدائقها وهندستها وحسن بنائها^(٢) .

ومن الخوانق أيضاً الخانقاه الخاتونية التي أنشأتها الخاتون عصمة الدين زوجة السلطان نور الدين الشهيد ، وتوفيت سنة (٥٨١ هـ) ودفنت في تربتها بالصالحية لصيق الجامع الجديد ، ولا أثر اليوم لهذه الخانقاه بعد هدم جامع تنكز وهدمت معه الخانقاه المذكورة^(٣) .

الخانقاه النحاسية ، تقع لصيق مقبرة الفراديس إلى الجنوب قليلاً من قبر أبي شامة وقد أنشأها الخواجبا شمس الدين بن النحاس الدمشقي (عام ٨٦٢ هـ)

(١) خطط دمشق ، أكرم العلي ص ٣٨٩ .

(٢) المرجع السابق ٣٩٥ .

(٣) المرجع السابق ٣٩٦ .

ولا تزال محافظة على بنائها وواجهتها الجميلة وفي مصلى على يسار الداخل ، وفي الجهة الغربية فناء واسع وبيوت ، وعلى يمين الداخل مقام الشيخ محمد النحاس وإلى جانبه قبران لراغب ومصطفى القوتلي^(١) .

وقد تم ترميم الخانقاه النحاسية أخيراً عام (١٤٢٥) هـ على نفقه الحاج هشام فتح الله السيد .

أولاً- الخوانق :

- | | |
|-------------------------------|---|
| ١- الخانقاه الأسدية | ٢- الخانقاه الإسكافية |
| ٣- الخانقاه الأندلسية | ٤- الخانقاه الباسطية |
| ٥- الخانقاه الحسامية | ٦- الخانقاه الخاتونية |
| ٧- خانقاه دويرة حمد | ٨- الخانقاه الروزنهاية |
| ٩- الخانقاه السيماطية | ١٠- الخانقاه الشبلية |
| ١١- الخانقاه الشرفية | ١٢- الخانقاه الشنباشية |
| ١٣- الخانقاه الشهابية | ١٤- الخانقاه الطواويسية |
| ١٥- الخانقاه العزية | ١٦- الخانقاه القصاعية |
| ١٧- خانقاه القصر | ١٨- الخانقاه الكججانية |
| ١٩- الخانقاه المجاهدية | ٢٠- الخانقاه النجمية |
| ٢١- الخانقاه النجيبة | ٢٢- الخانقاه النحاسية |
| ٢٣- الخانقاه النهريه | ٢٤- الخانقاه اليونسية في جامع الطاووسية |
| ٢٥- الخانقاه الطاحون | ٢٦- الخانقاه الناصرية الأولى |
| ٢٧- الخانقاه الناصرية الثانية | ٢٨- الخانقاه الشومانية |

(١) المرجع السابق ٤٠٧ .

ثانياً - الزوايا :

الزاوية هي المكان المعد للأفعال الصالحة وللعبادة .

بسبب كثرة الطرق الصوفية ، وحب الناس للاجتماع إلى مشايخهم كثرت عمارة الزوايا ، والزاوية مدرسة دينية ودار للضيافة ، ولكن بسبب الظروف الاقتصادية السيئة والاجتماعية فقد تناقص عددها في أيامنا ، وأهم الزوايا : الزاوية الوطية للطريقة الشاذلية ، وتقع شمال جامع الجراح في الشاغور ، وعرفت بزاوية المغاربة حيث كانت ملتقى لأبناء المغرب .

زاوية في جامع الصابونية للطريقة الشاذلية ، وكان لهذه الطريقة شيخ مشايخ ، كما يوجد زاوية أخرى للطريقة الشاذلية في محلة الشاغور ، وفي القنوات .

وطريقة الخلوتية كان لها أكثر من زاوية في دمشق منها قرب باب جيرون ، وفي المدرسة السميسياطية ، في جامع التوبة ، في حي القيمرية ، وزاوية لآل الصمادي في حي الشاغور وزاوية المولوية غربي جامع تنكز ، وزاوية الدواوية في صالحة دمشق ، وزاوية الكردي في محلة العمارة قرب باب الفراديس ، وزاوية الرفاعية في سفح قاسيون ، وزاوية الشيخ التنوخي في محلة مأذنة الشحم ، وزاوية الشيخ بندق في محلة ساروجا بزقاق قولبي ، وزاوية السادة الدسوقية في محلة سوق القاضي ، وزاوية المملطانية وزاوية سعد الدين في محلة القبيبات ، وزاوية طيفور الشامي قرب جبانة باب الصغير ، وزاوية الشيخ فرج في محلة السلاحة ، وزاوية الكيلانية .

الزاوية النحلاوية (التربة الكوكبائية) :

تقع في زقاق المحكمة ، وتتألف من قبتين تقوم كل منهما فوق رقبة قصيرة وتفصل بينهما بوابة مجوفة تعلوها مقرنصات تنتهي بصدفة ، ولعل مئذنة كانت تقوم فوق البوابة ، يعلو دهليز المدخل عقب مدبب ويتوسطه منور نجمي الشكل ، وهي مشيدة بالحجارة الكلسية الصقلية ، تضم بين جدرانها قبر الشيخ نحلاوي وهو مؤلف من ضريحين وتضم أيضاً ضريح زوجة الأمير تنكز وهي ابنة الأمير كوكباي التي توفيت سنة (٧٣٠هـ - ١٣٢٩م) .

الزاوية الهندية :

تقع في حارة النقاشات بالقيصرية حيث تجاور قبر الصحابي معاوية بن أبي سفيان وتطل على فناء مشترك معه ، مسقطها مربع تقريباً ، وذات سقف عال ، يتم الدخول إليها من باب جنوبي عبر الفناء ، وتفتح شبابيك على جانبيه ، يقوم محراب في الجهة القبلية ، ويتوضع موضعاً صغير على الجدار الشمالي عن يمين الباب .

الزاوية السعدية :

تقع في جادة السعدية بمنطقة خراب ، بنيت سنة (١٢١١هـ - ١٧٩٦م) . مدخلها ذو باب خشبي يعلوه ساكف أفقي فوقه قوس دائري حجري منحوت داخله أبيات شعرية تبين صاحب المقام وسنة بنائه .

الزاوية الصمادية :

تقع في شارع الصمادية بجانب الباب الصغير ، أنشأها شمس الدين الصمادي سنة (٩٣٢هـ - ١٥٢٦م) ودُفن فيها مع أحفاده ، لها بوابه معقودة بقوس مدبب ، وضمنه قوس مستدير من الحجارة الملونة يحوي باباً خشبياً ذا مصراع واحد ، وبجانبه سبيل ماء ، واجهتها مشيدة بالمداميك الحجرية ، (أبلق) وتعلوها مثذنة بسيطة ، ولها صحن متوسطه بركة ماء .

١- الزاوية الحيرية الأعففة ٢- الزاوية الحصنية

٣- الزاوية الدهستانية ٤- الزاوية الشيخية

٥- الزاوية الرفاعية ٦- الزاوية الرومية الشرفية

٧- الزاوية السراجية ٨- زاوية الشيخ (أبي سعود)

٩- الزاوية الشرفية ١٠- الزاوية الطالبة

١١- الزاوية الطيبة ١٢- الزاوية العمادية المقدسية

١٣- الزاوية الغسولية ١٤- الزاوية الفرنشية

- ١٥- الزاوية الفقاعية
 ١٦- الزاوية القلندرية الحيدرية
 ١٧- الزاوية القلندرية الدركزنية
 ١٨- زاوية الموصلي
 ١٩- زاوية بميدان الحصى
 ٢٠- الزاوية الوطية
 ٢١- الزاوية اليونسية
 ٢٢- زاوية بحارة الجوبان
 ٢٣- زاوية ابن التتمة
 ٢٤- الزاوية الخلوتية
 ٢٥- الزاوية الأرمزية
 ٢٦- الزاوية الجوزية
 ٢٧- الزاوية المزلقية
 ٢٨- الزاوية المرادية
 ٢٩- الزاوية المرادية الثانية الصغرى
 ٣٠- الزاوية السليمانية
 ٣١- الزاوية السليمية
 ٣٢- الزاوية الياغوشية
 ٣٣- زاوية الخياطين

ثالثاً - المدارس :

سيأتي الحديث عنها فيما بعد .

رابعاً - الربط :

- ١- رباط أبي البيان
 ٢- الرباط التكريتي
 ٣- رباط زهرة
 ٤- رباط ستيتة
 ٥- رباط صفية
 ٦- الرباط الناصري
 ٧- رباط طومان

خامساً - الزوايا :

- ١- زاوية أبي الشامات
 ٢- الزاوية الأرموية
 ٣- الزاوية الحريرية
 ٤- الزاوية الأعقفية
 ٥- زاوية الحصني
 ٦- الزاوية الداودية

- | | |
|--------------------------------|----------------------------------|
| ٧- الزاوية الدهستانية | ٨- الزاوية الدنيورية |
| ٩- الزاوية الشيخية | ١٠- الزاوية الرشيدية |
| ١١- الزاوية السعدية الجباوية | ١٢- الزاوية السيوفية |
| ١٣- الزاوية الصماوية | ١٤- الزاوية العمرية |
| ١٥- زاوية عين الملك | ١٦- الزاوية الفرنثية |
| ١٧- الزاوية القلندرية الدركزية | ١٨- الزاوية القوامية البالية |
| ١٩- الزاوية اليونسية | ٢٠- الزاوية الصوابية |
| ٢١- زاوية المغاربة | ٢٢- الزاوية الأعففية |
| ٢٣- الزاوية القلندرية الحيدرية | ٢٤- الزاوية القلندرية الدنركزينة |
| ٢٥- الزاوية الحصنية | ٢٦- زاوية الموصلي |
| ٢٧- الزاوية الدهستانية | ٢٨- زاوية بميدان الحصى |
| ٢٩- الزاوية الشيخية | ٣٠- الزاوية الوطية |
| ٣١- الزاوية الرفاعية | ٣٢- الزاوية اليونسية |
| ٣٣- الزاوية الرومية الشرفية | ٣٤- زاوية بحارة الجوبان |
| ٣٥- الزاوية السراجية | ٣٦- زاوية الشيخ (أبي سعود) |
| ٣٧- الزاوية الخلوتية | ٣٨- الزاوية الشرفية |
| ٣٩- الزاوية الطالبية | ٤٠- الزاوية الطيبة |
| ٤١- الزاوية العمادية المقدسية | ٤٢- الزاوية الغسولية |
| ٤٣- الزاوية الفرنثية | ٤٤- الزاوية الفقاعية |

* * *

المدارس الأثرية القديمة في دمشق

مثلت دمشق مركز إشعاع علمي وحضاري ، امتد إلى كل أصقاع الأرض وخاصة العالم الإسلامي ، الذي امتدت حدوده إلى مشارف الصين وجنوب فرنسا وانتشار المدارس في أرجاء المدينة منذ قديم الزمن ، جعلها منارة يقصدها طالبو العلم لينهلوا من ينابيع هذه المدارس ، التي قام بأعبائها أفاضل العلماء ، وتجاوز عددها مئتي مدرسة في العهد السلجوقي وحده . . . وإذا كان العديد من هذه المدارس قد درست آثاره مع الأيام ، فإن قسماً آخر ظل قائماً يتابع أداء رسالته في نشر العلم ، ولكن بأسلوب آخر ، إذ تحول إلى مكتبات عامة كالمدرسة الظاهرية ، والمدرسة العادلية ، في حين تحول بعضها إلى أسواق للمهن اليدوية كالمدرسة السليمانية وقد عنيت تلك المدارس بتدريس القرآن الكريم والفقه الإسلامي كما عني بعضها بأنواع العلوم الطبيعية كالفلك والكيمياء والطب والصيدلة ومما يحكى أن الغازي المغولي تيمورلنك ، كان قد أوفد قبيل استيلائه على مدينة دمشق في سنة (٨٠٣ هـ) كشافين من رجاله لاستطلاع أحوالها ، فنقلوا إليه صورة حية عن النهضة العلمية التي ازدهرت فيها ، فامتلاً قلبه ياساً من الاستيلاء عليها . وتكرر الأمر مرتين ، ثم تحققت له الغلبة ، حين تغيرت حالها وتدهورت أوضاعها .

وفيما يلي أسماء بعض المدارس المذهبية القديمة في دمشق ، والتي قام بالتدريس فيها شيوخ دمشق وعلمائها الأعلام ، وتخرجت على أيديهم قوافل من الدعاة والخطباء والقضاة والشعراء .

مدارس دمشق

دور العلم لدى المسلمين ، وعلاقة المسجد بالمدرسة ، والدور المتميز الذي لعبته المدرسة في نشر العلم والثقافة في ربوع العالم الإسلامي ، لا سيما حواضره الكبرى وعلى رأسها مدينة دمشق .

- دوافع الاهتمام بالمدارس : أهمها الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية التي ارتقت بالمدارس ، سواءً أكان على مستوى المنشأة التعليمية كصرح معماري ، أم على مستوى المناهج والعلوم الدراسية ، أم على مستوى العلماء القائمين بالتدريس والمتعلمين المتلقين .

- نوعيات مدارس دمشق في (٩٢٨هـ) إن اهتمام المجتمع ككل بالحركة التعليمية على مستوى الحكم والمحكومين مما أدى إلى كثرة المدارس وتنوعها على النحو الآتي :

- أ- مدارس القرآن الكريم مثل : المدرسة الخضرية ، الجزرية والسنجارية .
- ب- مدارس الحديث الشريف : مثل : المدرسة الأشرفية .
- ج - مدارس جامعة بين القرآن والحديث مثل : مدرسة القرآن والحديث المعبدية .
- د- مدارس الشافعية مثل : الأسدية .
- هـ- مدارس الحنفية مثل : الحاجبية .
- و- مدارس المالكية مثل : الزاوية المالكية .
- ز- مدارس الحنابلة مثل : الصاحبية ، والضيائية ، والعمرية ، والمنجائية .
- ح- مدارس الطب مثل : الدخوارية ، واللبودية النعجية .

مدارس دمشق : دراسة تحليلية :

أ- محتويات المدرسة وبنائها وجوانبها المعمارية :

الإيوان - بيت الصلاة - المئذنة - البهو - مساكن خاصة بالطلاب - استراحة للمدرسين - مكتبة ملحقة بها - أماكن للعاملين بها - قاعات مختلفة للمذاكرة ، وتناول الطعام . . . إلخ .

ب- موارد المدارس المالية : منح السلاطين - الإعانات والصدقات - الأوقاف - أموال الزكاة . . . إلخ .

ج - الأساتذة وطلاب العلم ورجال الإدارة :

المعايير العلمية والأخلاقية والتربوية لاختيار المدرسين ، وبرامج الدراسة ، وكيفية الالتحاق بهذه المدارس ، ودور المعيددين التعليمي بها ، والأدوار المهمة التي يلعبها رجال الإدارة لتهيئة الجو المناسب لإنجاح العملية التعليمية والتربوية والتهذيبية في تلك المدارس ، وأبرز علماء هذه المدارس ، وطبيعة الصلات التي تربط بين الأساتذة وتلاميذهم ، والمستوى الاجتماعي لكل من الفريقين .

وأظهر البحث أن إنشاء المدارس لم يقتصر على الفئة الحاكمة ، إنما كان نشاطاً جماعياً ساهم فيه كل من يستطيع ذلك ، فلماذا لا نستغرب أن يقبل الأمراء والقضاة والخدم والعتقاء والرحالة والنساء وكل مقتدر .

وكان لهاتيك المدارس دور لعبه أولو العلم في تنمية عقول أبناء الأمة ، وسلوكياتهم ، ودرجة تأثيرهم في مجتمعاتهم من خلال : التدريس ، والتأليف ، وعلاقاتهم بالحكام ، وصلاتهم بأحداث وطنهم الكبرى .

مدارس الشافعية :

- | | |
|------------------------------|-----------------------|
| ١- المدرسة الأتابكية | ٢- المدرسة الخنائية |
| ٣- المدرسة الأسدية | ٤- المدرسة الأصفهانية |
| ٥- المدرسة الإقبالية | ٦- المدرسة الأكرية |
| ٧- المدرسة الأمجدية | ٨- المدرسة الأمينية |
| ٩- المدرسة البادرية | ١٠- المدرسة البهنسية |
| ١١- المدرسة التدمرية | ١٢- المدرسة التقوية |
| ١٣- المدرسة الجارحية | ١٤- المدرسة الحلبية |
| ١٥- المدرسة الحمصية | ١٦- المدرسة الجنيصية |
| ١٧- المدرسة الدماغية | ١٨- المدرسة الدولعية |
| ١٩- المدرسة الركنية الجوانية | ٢٠- المدرسة الرواحية |

٢١- الزاوية الخضراء	٢٢- المدرسة الشاذبية
٢٣- المدرسة الشامية البرانية	٢٤- المدرسة الشامية الجوانية
٢٥- المدرسة الشاهينية	٢٦- المدرسة الشريفة
٢٧- المدرسة الشومانية	٢٨- المدرسة الصارمية
٢٩- المدرسة الصالحية	٣٠- المدرسة الطبرية
٣١- المدرسة الطقطائية	٣٢- المدرسة الظاهرية البرانية
٣٣- المدرسة الجوانية الكبرى	٣٤- المدرسة الطيبائية
٣٥- المدرسة العادلية الصغرى	٣٦- المدرسة العادلية الكبرى
٣٧- المدرسة العذراوية	٣٨- المدرسة العزيزية
٣٩- المدرسة العسرونية	٤٠- المدرسة العمادية
٤١- المدرسة الغزالية	٤٢- المدرسة الفارسية
٤٣- المدرسة الفتحية	٤٤- المدرسة الفخرية
٤٥- المدرسة الفلكية	٤٦- المدرسة القليجية
٤٧- المدرسة القواسية	٤٨- المدرسة القيمرية الصغرى
٤٩- المدرسة القيمرية الكبرى	٥٠- مدرسة الكلاسة
٥١- المدرسة المجاهدية البرانية	٥٢- المدرسة المجاهدية الجوانية
٥٣- المدرسة المجونية	٥٤- المدرسة المسروية
٥٥- المدرسة المنكلائية	٥٦- المدرسة الناصرية الجوانية + البرانية
٥٧- المدرسة النجبية	٥٨- المدرسة الصلاحية
٥٩- المدرسة القوصية	٦٠- المدرسة الساوجية
٦١- المدرسة الخليلية	٦٢- المدرسة الشومانية
٦٣- المدرسة الشريفة	٦٤- المدرسة الكروسية

٦٦- المدرسة الطيبانية	٦٥- المدرسة الإسعدية
٦٨- المدرسة الصادرية	٦٧- المدرسة الطيبية
٧٠- المدرسة الأغلبكية	٦٩- الحلقة الكوثرية
٧٢- المدرسة الزيدانية	٧١- المدرسة التقطائية
٧٤- المدرسة الباذرائية	٧٣- المدرسة السيفية
٧٦- المدرسة الطيبة	٧٥- المدرسة الظاهرية الجوانية
٧٨- مدرسة الزاوية	٧٧- المدارس المالكية
٨٠- المدرسة الصمصامية	٧٩- المدرسة الشراييشية

مدارس الحنفية :

٢- المدرسة الإقبالية	١- المدرسة الآمرية
٤- المدرسة البلخية	٣- المدرسة البدرية
٦- المدرسة التاشية	٥- المدرسة التاجية
٨- المدرسة الجقمقية	٧- مدرسة تغري ورمش
١٠- المدرسة الجمالية	٩- المدرسة الجلالية
١٢- المدرسة الجوهرية	١١- المدرسة الجهاركسية
١٤- المدرسة الخاتونية البرانية	١٣- المدرسة الحاجبية
١٦- المدرسة الخلبلية	١٥- المدرسة الخاتونية الجوانية
١٨- المدرسة الريحانية	١٧- المدرسة الركنية البرانية
٢٠- المدرسة السفينية	١٩- المدرسة الزنجارية
٢٢- المدرسة الشبلية البرانية	٢١- المدرسة السيبائية
٢٤- المدرسة الصادرية	٢٣- المدرسة الشبلية الجوانية

- ٢٥- المدرسة الطرخانية
 ٢٧- المدرسة العزية البرانية
 ٢٩- المدرسة العزية بالأموي
 ٣١- المدرسة العزيزية البرانية
 ٣٣- المدرسة العلمية
 ٣٥- المدرسة الفروخشاهية
 ٣٧- المدرسة القاهرية
 ٣٩- المدرسة القصاعية
 ٤١- المدرسة القيمازية
 ٤٣- المدرسة المرشدية
 ٤٥- المدرسة المعينية
 ٤٧- المدرسة المقدمة الجوانية
 ٤٩- المدرسة المنجكية
 ٥١- المدرسة النورية الصغرى
 ٥٣- المدرسة اليغمورية
 ٥٥- المدرسة الظاهرية الجوائية
 ٥٧- المدرسة البيبرسية
- ٢٦- المدرسة الطومانية
 ٢٨- المدرسة العزية الجوانية
 ٣٠- المدرسة العزية بالقنات
 ٣٢- المدرسة العلائية
 ٣٤- المدرسة الفتحية
 ٣٦- مدرسة القاري
 ٣٨- المدرسة القجماسية
 ٤٠- المدرسة القليجية
 ٤٢- المدرسة الماردانية
 ٤٤- المدرسة المعظمية
 ٤٦- المدرسة المقدمة البرانية
 ٤٨- المقصورة الشرفية بالأموي
 ٥٠- المدرسة الميطورية
 ٥٢- المدرسة النورية الكبرى
 ٥٤- المدرسة الأسدية
 ٥٦- العزية البرانية/ العزية الجوانية/ العزية
 ٥٨- المدرسة الآمدية
- مدارس الحنابلة :

- ١- المدرسة الجاموسية
 ٣- المدرسة الحنبلية الشريفة
 ٥- المدرسة الصدرية
 ٢- المدرسة الجوزية
 ٤- مدرسة الصاحبية
 ٦- المدرسة الضيائية الكبرى

- ٧- المدرسة الضيائية المحاسبية
٨- مدرسة العالمية
٩- المدرسة العمرية الكبرى
١٠- مدرسة المحراب بالأموي
١١- المدرسة المسمارية
١٢- المدرسة المنجائية
١٣- المدرسة الضيائية
١٤- المدرسة العمرية
١٥- المدرسة السامرية

مدارس المالكية :

- ١- المدرسة الشراشبية
٢- المدرسة الصمصامية
٣- الزاوية المالكية
٤- المدرسة النورية
٥- المدرسة الصلاحية

مدارس الطب :

- ١- المدرسة الدخوارية
٢- المدرسة الدنيسرية
٣- المدرسة اللبودية
٤- البيمارستان الدقاقي
٥- البيمارستان النوري
٦- البيمارستان القيمني

المدارس العثمانية :

- ١- المدرسة السليمانية البرانية
٢- المدرسة المرادية البرانية
٣- مدرسة إسماعيل باشا العظم
٤- المدرسة السليمانية الجوانية
٥- مدرسة فتحي أفندي
٦- مكتب عنبر
٧- المدرسة المرادية الجوانية

مدرسة ابن شيخ الإسلام :

كانت حلقة تدريس في الجامع الأموي^(١) .

(١) الأعلام الخطيرة لابن شداد ٨٤ .

المدرسة الأتابكية :

كانت في جادة المدارس من حيّ الصالحية ، أوقفها في العهد الأيوبي تركان خاتون زوجة الملك الأشرف موسى سنة (٦٤٠هـ / ١٢٤٢م) ، ولعل تسميتها إلى منشئها باعتبارها من الأتابكة ، أو إلى شقيقها (أرسلان أتابك) ، أو إلى والدها الملك عزّ الدين مسعود بن زنكي وهو من الأتابكة أيضاً ، تحوّلت المدرسة إلى مسجد فيه تربة الواقعة . وتُعرف أيضاً بمسجد الأتابكية [وعلى السنة العامة : التابكية أو التابكية أو الثابتية] ، وبمسجد تربة خاتون ، وبمسجد خاتون^(١) .

المدرسة الإخنائية :

لا يزال مبناها قائماً في حيّ الكلاسية ، إلى يمين الخارج من باب الجامع الأموي الشمالي ، أنشأها في العهد المملوكي القاضي شمس الدين الإخنائي ودُفن فيها عند وفاته سنة (٨١٦هـ / ١٤١٣م) ، واكتمل بناؤها الذي أقيم على أنقاض دار القرآن الرشائية سنة (٨٢٠هـ / ١٤١٧م) . وتُعرف أيضاً بتربة الشيخ محمد الإخنائي ، ولا علاقة لها بالتربة الإخنائية عند مقبرة الباب الصغير^(٢) . وتولى التدريس فيها الشيوخ الأفاضل من آل المنير : عارف وصالح وعبد الحكيم المنير رحمهم الله .

المدرسة الأستدارية :

كانت من مدارس الصالحية ، عند التربة الأستدارية ، بجوار تربة ابن نميرك^(٣) .

المدرسة الأسدية :

كانت من مدارس العهد الزنكي في حارة القصر ، بمحلة الشرف القبلي ، وتطلّ على الميدان الأخضر ، أنشأها أسد الدين شيركوه سنة ٥٦٠هـ ، وتعرف أيضاً

(١) الفلاند الجهرية لابن طولون ١/ ١٦٥ ، الأعلام الخطيرة لابن شدّاد ٢٥١ ، ثمار المقاصد لابن عبد الهادي ١٩١ ، الدارس للنعمي ١/ ١٢٩ ، مختصر تنبيه الطالب للعلموي ٢٦ ، المروج السندسية لابن كَنّان ٤٥ ، منادمة الأطلال لبدران ٧٧ ، خطط دمشق للعلبي ٩٧ .

(٢) الآثار الإسلامية في مدينة دمشق لفاتسنكر ١٢٠ ، العمارة العربية الإسلامية للريحاوي ٩٧ ، خطط دمشق للعلبي ٩٨ .

(٣) المروج السندسية لابن كَنّان ٤٧ .

بالمدرسة الأسدية البرانية ، ولا علاقة لها بالخانقاه الأسدية داخل باب الجابية ،
ولا بالتربة الأسدية في الصالحية^(١) .

المدرسة الأسدية الجوانية :

كانت حلقة تدريس في الجامع الأموي^(٢) .

المدرسة الإسعردية :

هي دار القرآن الإسعردية ، كانت في الجسر الأبيض ، شمالي جامع الماردانية ،
وهي تفصل بين طريق المهاجرين وطريق الصالحية ، أنشأها في العهد المملوكي
الخوaja إبراهيم الإسعردى سنة (٨٢٦هـ / ١٤٢٣م) [وفي بعض المصادر
(٨١٧هـ / ١٤١٤م)] ، وهدمت سنة (١٣٣٨هـ / ١٩١٩م - ١٩٢٠م) .

وحول هدمها ذكر الأستاذ دهمان في حاشيته على القلائد الجهرية ١٢٩ بقوله :
« لما دخل الملك [الأمير] فيصل دمشق في (٣ تشرين الأول ١٩١٩م) [الصواب
١٩١٨م] نزل في دار غربي المدرسة ويفصل بينهما الطريق [جادة العفيف] ، فهدمت
دائرة الأوقاف هذه المدرسة سنة (١٣٣٨هـ / ١٩١٩م - ١٩٢٠م) ؛ لتنشئ مكانها
مسجداً خاصاً بالملك ، ثم حال احتلال القوّات الفرنسية لدمشق دون بقاء الملك فيها ،
فحوّلتها دائرة الأوقاف إلى عقارات » . وتُعرف أيضاً بالمدرسة الإبراهيمية ، وبمدرسة
إبراهيم الإسعردى ، وبالإسعردية ، ودار القرآن الإسعردية ، وبمدرسة الخوaja
إبراهيم ، [ووردت في مفاكهة الخلّان : المدرسة السعدية وأعتقد أنها مصحّفة] .

المدرسة العمرية الكبرى :

لا يزال مبناها قائماً في الصالحية ، بحارة العمرية ، إلى الجنوب من جامع
الحنابلة ، في وسط دير الحنابلة ، أنشأها في العهد الأتابكي الشيخ أبو عمر

(١) الأعلام الخطيرة لابن شداد (فهارس ٣٩٦) ، الدارس للنعمي ١/ ١٥٢ ، ٤٧٣ ، القلائد
الجهرية لابن طولون ١/ ٢٨١ ، مفاكهة الخلّان لابن طولون ١/ ٣٢ ، مختصر تنبيه الطالب
للعلموي ٢٧ ، ٧٨ ، منادمة الأطلال لبدران ٧٩ ، ١٥٢ ، خطط دمشق للعلبي ٩٩ .

(٢) خطط دمشق للعلبي ١٠٠ .

محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة ، وذلك سنة (٥٥٥هـ / ١١٦٠م) . وتُعرف أيضاً بمدرسة أبي عمر المقدسي ، وبمدرسة الشيخ أبي عمر ، وبمدرسة الشيخ عمر العتيقة ، وبالمدرسة الشيخية العمرية ، وبالمدرسة العمرية الشيخية^(١) .

المدرسة الغزالية :

كانت زاوية في الجهة الشمالية الغربية للجامع الأموي ، وفوقها قبة من الخشب مطلية باللون الأخضر ، أنشئت في العهد السلجوقي سنة (٤٨٢هـ / ١٠٨٩م) ، ونُسبت تسميتها إلى الإمام الغزالي الذي نزل بها . وتُعرف أيضاً بحلقة الشيخ نصر المقدسي ، وبحلقة الغزالي ، وبحلقة الغزالية ، وبزاوية الدولعي ، وبالزاوية الدولعية ، وبزاوية الشيخ نصر المقدسي ، وبزاوية الغزالي ، وبالزاوية الغزالية ، وبزاوية القطب النيسبوري^(٢) .

المدرسة العادلية :

بنيت في عهد تاج الملوك تتشي (١٠٧٨م) ، ثم أضيف إليها بعض الدور والقصور ولا تزال أبراجها قائمة تشير إلى عظمتها .

مدرسة الصاحبة :

بنيت سنة (١٢٣٣م) في حي أبي جرش الصالحية وهي نموذج للمدارس الدمشقية ولا تزال تستعمل مدرسة حتى الآن .

المدرسة النورية والبيمارستان :

أجمل ما في البناء القبة المقرنصة التي تعلو المدخل وإلى جوارها مقام (محمد دقيق العيد) : فيه عدة نماذج من خط صاحب المقام وعدد من أسلحة القرن الثاني عشر وعلى مقربة منه باب روماني قديم .

(١) الدارس للنعمي ١٠٠/٢ ، القلائد الجوهري لابن طولون ٢٤٨/١ ، مفاهية الخلان لابن طولون ٢٧٦/١ ، مختصر تنبيه الطالب للعلموي ١٢٨ ، منادمة الأطلال لبدران ٢٤٤ ، خطط دمشق للعلبي ٢٤٢ .

(٢) الدارس للنعمي ١٨٠/١ ، ٤١٣ ، ٤٢٥ ، ٣٩٥/٢ ، مفاهية الخلان لابن طولون (الفهارس) ، مختصر تنبيه الطالب للعلموي ٦٤ ، منادمة الأطلال لبدران ١٣٤ ، خطط دمشق للعلبي ١٤٩ .

مدرسة القرآن الكريم :

تقع في الخضيرية (سوق القطن) أشير إلى أن بانيها محمد الخيضري في أواخر القرن (١٤ م) ويذهب البعض إلى أنها دار نعمان الأبرص .

المدرسة الجقمقية :

من مشيدات العهد المملوكي في حي الكلاسة ، بجوار ضريح السلطان صلاح الدين الأيوبي من جهة الشرق ، تنسب لمنشئها نائب دمشق الأمير سيف الدين جقمق ، سنة (٨٢٢هـ / ١٤١٩م) ، وقد أنشئت على أنقاض دار القرآن الهلالية ، التي خربت في أيام تيمورلنك سنة (٨٠٣هـ / ١٤٠١م) ويطوقها إطار من الخط العربي الجميل ويشغل اليوم متحف الخط العربي .

تولى التدريس فيها الشيخ محمد هاشم الخطيب ، ومحمد عيد السفرجلاني ، ومحمد أحمد دهمان وغيرهم .

المدرسة البادرائية :

من مشيدات أواخر العهد الأيوبي ، في حي العمارة الجوانية ، تنسب لمنشئها سنة (٦٥٤هـ / ١٢٥٦م) ، الإمام نجم الدين أبي محمد عبد الله بن أبي الوفاء محمد بن عثمان البادراني ، نسبة إلى بلدة « بادريا » من أعمال أواسط العراق . المتوفي سنة (٦٥٥هـ / ١٢٥٧م) ، وقد نقل جثمانه إلى تربة المدرسة في حقة لاحقة لوفاته ساهم الملك الناصر الأيوبي في بنائها وحضر افتتاحها ، تولى التدريس فيها الشيخ أحمد الجوبراني ورشيد سنان ومحمد جميل الشطي ومصطفى الشطي وغيرهم .

المدرسة السيائية :

من مشيدات العهد المملوكي بجادة الدرويشية ، على الشارع العام ، وهي آخر مشيدة في ذلك العهد ، بناها الأمير سييائي بن بختجا ، آخر نواب المماليك في الشام ، والذي قتل في معركة « مرج دابق » سنة (٩٢٢هـ / ١٥١٦م) .

بدأ سييبي بعمارتها سنة (٩١٥ هـ) وانتهى عام (٩٢١ هـ) ، واتخذت في العهد العثماني لتعليم الطلاب علوم الدين ، وبعد زوال المدرسة تحول المكان إلى مسجد فيه تربه تعلوها قبة ، درّس فيها الشيخ أحمد القاسمي رحمه الله .
مدرسة العادلية الصغرى :

تقع شرق باب القلعة ، في العسرونية مقابل دار الحديث النورية ، أنشئت سنة (٦٥٦ هـ) ، وأوقفتها « بابا خاتون » بنت « أسد الدين شيركوه » على ابنة عمها « زهرة خاتون » بنت الملك العادل أبي بكر الأيوبي ، تهدمت خلال هجوم « غازان » المغولي على دمشق سنة (٦٩٩ هـ) ، وكذلك خلال غزو « تيمورلنك » سنة (٨٠٣ هـ) ، وأصابها حريق سنة (١٣٢٥ هـ) ، وكانت ترمم في كل مرة ، علّم فيها العديد ممن الشيوخ ممن بينهم محمد الحكيم ، ومحمد أحمد دهمان رحمهما الله .

المدرسة الظاهرية الكبرى :

من مشيدات العهد المملوكي ، في حي الكلاسة من العمارة الجوانية ، قبالة المدرسة العادلية الكبرى ، تنسب للملك الظاهر بيبرس البندقداري المتوفي سنة (٦٧٦ هـ / ١٢٧٧ م) ، وهو من أبرز قادة المسلمين ، قاتل الصليبيين ، وأوقع بهم هزائم متوالية ، وحرّر مدناً عديدة .

شُيِّدَت المدرسة على موضع دار لأحد أمراء سيف الدولة الحمداني ، اشتراها منه الملك الأفضل نجم الدين أيوب ، ثم تحولت للملك السعيد بن الملك الظاهر ، فأمر أن تجعل مدرسة ، وأقيمت فيها تربة دفن فيها رفات أبيه بعد نقله من قلعة دمشق ، وقد اكتمل البناء سنة (٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م) . وأصبح يضم مسجداً ومدرستين ، ودار للحديث .

أقيمت بها في العهد العثماني دار للكتب الوطنية سنة (١٢٩٦ هـ / ١٨٧٩ م) ، سميت (المكتبة الظاهرية) وكان العلامة محمد طاهر الجزائري مشرفاً عليها ، وجمع لها عشرات الكتب والمجلات . تولى التدريس في المدرسة الملحقة بها عدد

من شيوخ دمشق ومنهم الشيخ عبد القادر الخطيب ، وأبو الفتح الخطيب وغيرهم وقد بنيت جدران المدرسة من أحجار ملساء خاصة وفوق مدخلها الرئيسي محفورة ثلاثة أسطر باللغة العربية كما أن جدرانها الداخلية مزخرفة بالمرمر الملون والموازيك وهي اليوم عبارة عن مكتبة عامة (دار الكتب الوطنية) .

المدرسة الجوهريّة :

تقع في حارة « بلاطة » غرب المدرسة النورية الكبرى (زقاق المحكمة) ، وتنسب إلى الصدر نجم الدين أبو بكر محمد بن عياش التميمي الجوهري ، المتوفي سنة (٦٩٤هـ) وكانت داراً للخاتون عذراء ، صاحبة المدرسة العذراوية ، بوشر بعمارتها سنة (٦٧٦هـ) ، حولها الشيخ محمد عيد السفرجلاني إلى مدرسة أهلية تولى التعليم فيها مع عدد من العلماء منهم ، الشيخ إبراهيم الغلايني ، والشيخ بشير السلاج وغيرهم .

دار الحديث الأشرفيّة :

أقيمت هذه الدار - المدرسة - في العهد الأيوبي سنة (٦٣٠هـ / ١٢٣٣م) في سوق العسرونية على يد الملك الأشرف موسى الأيوبي ، وأنشئ معها المسجد في ذلك التاريخ ، وقد تعرضت لعدد من الكوارث .

فقد دُمّرت في هجوم التتار على دمشق (غازان) سنة (٦٩٩هـ) ، فرمّت سنة (٧٠٢هـ / ١٣٠٢م) ، واحترقت ثانية وجددت سنة (١٣٠٠هـ / ١٨٨٣م) وكان الهدف من انشائها تدريس الحديث الشريف ، وقد التصق تاريخها الحديث باسم محدث الديار الشامية الأكبر ، وأستاذ علماء الشام (الشيخ بدر الدين الحسني) ، الذي انقطع منذ حدائنه للمطالعة وحفظ المتون في غرفة أبيه بدار الحديث - المجاورة لداره وقد توافد عليه الطلاب بعد تصدره للتدريس فيها ، من كل مكان ، فانتفعوا بعلمه وفقهه وتخرجوا دعاة ملؤوا الشام علماً وتوجيهاً وأدباً ، وتولى التدريس منهم في دار الحديث الشيوخ : محمد أمين سويد ، ومحمود الرنكوسي ، وصالح الفرفور وغيرهم رحمهم الله .

المدرسة الريحانية :

تقع إلى الغرب من المدرسة النورية (إلى يسار الداخل من حارة بلاطة باتجاه المدرسة الجوهريّة) . بناها جمال الدين ريحان ، الطواشي خادم نور الدين الشهيد ، ووالي القلعة سنة (٥٧٥ هـ) ، تولى التدريس فيها الشيخ محمد بهجة البيطار ، ومحمد الحكيم وغيرهم .

مدرسة القلبقجية (المجاهدية) :

يقع سوق القلبقجية على امتداد جادة سوق الحرير ، وفيه جامع المجاهدية « المدرسة المجاهدية الجوانية » التي بناها الأمير مجاهد الدين بزان المتوفى سنة (٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م) ، وهو من قادة السلطان نور الدين محمود ، وممن تولى التدريس فيها الشيخ : محمد عارف عثمان ، محمد سعيد البرهاني ، محمد هاشم الخطيب ، صالح الفرفور ، ياسين كيوان وغيرهم .

المدرسة النورية الكبرى :

من مدارس العهد الأتابكي في سوق (الخواصين) الخياطين ، تنسب لبانيها السلطان نور الدين محمود بن زنكي ، سنة (٥٦٧ هـ / ١١٧٢ م) ، الذي عرف بحبه للعلم والعمران ، وقد انشأ مئة مدرسة ومسجد ، وجدد أكثر مساجد دمشق وفي مقدمتها الجامع الأموي .

بنى نور الدين « المدرسة للإمام المؤرخ : الحافظ بن عساكر ، ونزل بها الرحالة (ابن جبير) سنة (٥٨٠ هـ) جدّد عمارة المدرسة سنة (١٣١٠ هـ / ١٨٩٣ م) ، بعد أن التهمتها النيران في تلك السنة ، وفيما بعد عادت المدرسة من جديد لأداء دورها في التربية والتعليم ، وتولى التدريس فيها الشيخ أبو الفرج الخطيب رحمه الله .

لها بوابة عالية ذات مصراعين خشبيين . صحن المدرسة مربع الشكل رصفت أرضه بالحجر المزّي والبازلتي وأما حرم مسجد المدرسة فمستطيل وسقفه خشبي وتعلوه مئذنة قصيرة وبسيطة . أهم ما يميزها دفن مُنشئها فيها ، هو رمز فخامتها ، وللمدفن قبة ذات مقرنصات رائعة .

المدرسة السميساطية :

من أشهر الخوانق بدمشق ، أقيمت على أرض دار لعبد العزيز بن مروان ، وأوقفها « أبو القاسم بن محمد السميساطي » ، من أكابر رؤساء ومحدثي دمشق ، المتوفى سنة (٤٥٣هـ) . فتح لها باب إلى دهليز الجامع الأموي في عهد ملك دمشق « تاج الدولة تنش » وكان شيخها شيخ جميع الخوانق بالمدينة حتى سنة (٨٢٤هـ) ، حيث تحولت إلى مدرسة ، وفي سنة (١١٠٠هـ) سكن فيها ودرس الشيخ « أحمد المنيني » وبقيت في أحفاده إلى سنة (١٣٢٥هـ) .

وفي عام (١٣٢٨هـ) درّس فيها الشيخ محمد الأسطواني ، وجدّتها مديرية الأوقاف سنة (١٣٣٩هـ) ، حين تحولت إلى مدرسة شرعية .

مدرسة العادلية الكبرى :

من مشيدات العهد الأيوبي ، في حي الكلاسة ، قبالة المدرسة الظاهرية الكبرى . أول من تولى عمارتها نور الدين الشهيد سنة (٥٦٨هـ) ، وتوقف البناء بعد وفاته ليياشره من جديد الملك العادل : سيف الدين أبي بكر بن أيوب سنة (٦١٢هـ) ، وأكمل البناء ولده الملك المعظم سنة (٦١٩هـ / ١٢٢٢م) وافتتحت المدرسة في احتفال كبير شهده القضاة والعلماء ، خرّبت المدرسة خلال هجوم « غازان المغولي » سنة (٦٩٩هـ) ، وغزو (تيمورلنك » سنة (٨٠٣هـ) ، وكانت عمارتها تجدد في كل مرة ، وقد بقيت مدرسة لها دور كبير في تحفيظ القرآن الكريم ، والحديث الشريف إلى الخمسينات من هذا القرن ، ثم أصبحت في الستينات مقراً لمجمع اللغة العربية ، وتحولت أخيراً إلى مكتبة تشمل قاعتين كبيرتين يلجأ لها الباحثون للإطلاع على الكتب والمخطوطات النادرة . وكان الشيخ محمد المنيني قد تولى التدريس فيها لفترة من الزمن .

مدرسة عبد الله باشا العظم :

من مشيدات العهد العثماني ، في محلة « بين البحيرتين » بناها والي دمشق محمد باشا العظم ، وزاد فيها ابنه « عبد الله » آخر حكام دمشق من آل العظم ،

وباني سوق الحميدية ، تنسب إليه ، ضمن مكتبها أكثر من (٨٠٠) كتاب ومجلة ، نقل منها فيما بعد (٤٥٠) كتاباً إلى دار الكتب الظاهرية . أقام فيها الشيخ عبد القادر بدران خمسين عاماً ، قضاها في التدريس والتوجيه ، وكان طلاب « مكتب عنبر » يتعلمون فيها اللغة العربية على عدد من علماء دمشق : جمال الدين القاسمي ، وعطاء الله الكسم ، ومحمد هاشم الخطيب ، ورشيد سنان ، وعبد الرحمن القصار وغيرهم .

المدرسة الخيضرية :

قرب سوق الصوف أنشأها قاضي القضاة (ابن خيضر) عام (٨٧٨هـ/١٤٧٣م) .

المدرسة الشابكية :

في حي القنوات بناها دوا دار دمشق الأمير (شاز بك الجلباني) المتوفى عام (٨٨٧هـ) .

المدرسة الدلامية :

في الجسر الأبيض أنشأها (ابن دلامة البصري) عام (٨٤٧هـ/١٤٤٣م) .

المدرسة الصابونية :

بناها (شهاب الدين أحمد الصابوني) عام (٨٦٣هـ/١٤٥٨م) وتقع في السنانية - طريق الميدان .

المدرسة الأقبالية .

المدرسة العزيزية :

شمال الجامع الأموي لم يبق منها سوى التربة التي تضم ضريح البطل (صلاح الدين) ينسب فضل بنائها (الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين) ويتميز مبناها بقبة محززة .

المدرسة الناصرية .

المدرسة القيلجعية .

المدرسة البدرية :

على نهر ثورا في حي الميسات بناها (بدر الدين حسن بن الداية) .

المدرسة الجهاركية :

في الصالحية لها قبتان من الآجر لنوافذهما شكل أصداف من الجص ، أنشأها
(فخر الدين شركس) أحد أمراء الأيوبيين المتوفى عام (٦٠٨ هـ) .

المدرسة الیغمورية :

في حي العفيف ، جوار التربة الكجكرية أنشأها نائب الشام (جمال الدين یغمور
(٦٤٧ هـ / ١٢٤٩ م) .

المدرسة المرشدية :

في حي الصالحية ، جوار المدرسة الأشرفية دفنت فيها منشئتها ابنة الملك العظم
(عيسى بن الملك العادل أبي بكر) .

المدرسة العزية :

شرق ثانوية جودت الهاشمي : أنشأها الأمير عز الدين أليك نائب صلخد .

المدرسة الفروخشاهية :

شرق قصر الضيافة ينسب فضل بنائها إلى الأمير (عز الدين فروخشاه) ابن أخ
(صلاح الدين) .

المدرسة السليمانية البرانية :

في موقع القصر الأبلق الذي بناه السلطان الظاهر بيبرس (٦٥٨ - ٦٧٦ هـ) في
دمشق عند ميدان ابن الأتابك بين نهري بردى وبانياس ، شيد السلطان العثماني سليمان
القانوني آخر منشأته في سورية : المدرسة السليمانية البرانية في عام (٩٧٤ هـ) .

بنيت المدرسة السليمانية في الناحية الشرقية من مبنى التكية السليمانية الذي شيد
في عام (٩٦٢ هـ) . وعلى الرغم من صغر حجم المدرسة السليمانية فإنها تعد من
أجمل المدارس العثمانية في سورية ، وهي لا تزيد عن سدس مساحة التكية

السليمانية المجاورة وليس بها مآذن . وتتألف عناصر البناء من حرم تعلوه قبة على شكل نصف دائرة رشيقة تنهض فوق أربع ركائز معقودة ، وصحن مبلط بالرقائق الحجرية تحيط به من الشرق أحد عشر غرفة صغيرة ومثلها من الغرب ، تحمل على أعناقها صفين من القباب نصف الدائرية الصغيرة فتشكل القباب الصغيرة مميرين مظللين بالقباب المحمولة على أعصاب حجرية مربعة ، ويشكل الحرم جهتها الجنوبية وتشكل بوابة عالية ، فبالإضافة إلى البوابتين السابقتين هناك بوابتان مماثلتان واحدة في الجدار الشرقي للتكية وثانية في الجهة الشرقية للمدرسة تغلق الممر المتقدم أمام البوابة الوسطى .

وتقوم البوابات والجدار الداخلي للممر في الصحن على نظام الصفوف الملونة الذي يعرف في العمارة الإسلامية بالأبلق وهو امتداد أفقي من الأحجار البيضاء والسوداء والوردية تمسك الجدار على شكل نطاقات جميلة .

في التكية السليمانية اثنتان وعشرون غرفة مطلة على الصحن أضيف إليها ثلاث وثلاثون كوة صغيرة متشابهة وزعت في الممر الخارجي في بداية الثلث الأخير للقرن الماضي وهو سوق المهن اليدوية . يمارس فيه معلموا الصنائع الشامية القديمة أشغالهم أمام السياح والزوار .

وسوق المهن اليدوية في دمشق هو أصغر أسواق المدينة العريقة التي وصفها أحد زوار القرن قبل الماضي : « بالمدينة التي تحوي بين كل سوق وسوق على سوق ثالثة » ولكن صغر حجمه لم يحل دون قيام شهرة كبيرة له .

وفي السوق نول للسجاد والبسط الصوفية يختصر في سداه ولحمته روائع السجاد القديم المشهور . وهناك أيضاً معمل للزجاج اليدوي ويذكر أن دمشق كانت من أهم حواضر طريق الحرير الممتدة فيما بين الصين وأوربة وفي السوق يصنع أجمل الحرير النفيس الذي يجمع في خيوطه مع الحرير الطبيعي الذهب والفضة . وصناعة الخيط العربي لا تدخل في صناعة النجارة بل تصنف مع صناعة الزخرفة العربية الراقية ، تعتمد على تزيين ألواح الخشب بطبقات سميكة من الطلاء والمعجون مع الغراء والألوان .

وتوزع الأشكال الهندسية والنباتية والكتابات الجميلة للأقلام العربية من آيات قرآنية وأحاديث شريفة وأشعار وحكم . وأيضاً في السوق دكاكين صغيرة لصناعة السيوف العربية وتنزِيل الأصداف البراقة وتطعيم الخشب وصياغة الذهب والفضة والنحاس . وصناعة الخزف وشغل الأغباني والألأجا وتطريز الأزياء القديمة . وللجلد المدبوغ المصنع يدوياً سوق رائجة هنا ، مثله كمثل نحت الفخار وفن الشغل على حجر اللازورد وتنسيق السباحات الأنيقة ومناديل الباتيك المحلي .

المدرسة السلیمانیة الجوانیة :

من مشيدات العهد العثماني ، أوقفها الحاج سليمان بن إبراهيم باشا العظم والي دمشق (عم الوالي المعروف أسعد باشا) في زقاق الوزير إلى الغرب من خان الجمرك . في سنة (١١٩٦هـ) أوقف محمد باشا العظم مكتبة فيها نقل الكثير من كتبها فيما بعد إلى دار الكتب الظاهرية . ودرس فيها الشيخ محمد عيد السفرجلاني رحمه الله .

المدرسة الصاديّة :

كانت تقع عند باب الجامع الأموي الغربي (باب البريد) ، أنشأها شجاع الدولة صادر بن عبد الله في عام (٤٩١هـ / ١٠٩٧م) مخصصة للمذهب الشافعي .

المدرسة الناشئة :

كانت مسجداً ، أنشئ في عام (٥٥٠هـ / ١١٥٥م) ، ثم تحول إلى مدرسة في العهد الأيوبي ، وتنسب إلى الأمير ناشئ الدقاقي (شمس الملوك دقاق) .

المدرسة العادليّة :

دشنت المكتبة العادلية سنة (١٢١٨م) وسميه على شرف أخي صلاح الدين العادل ، يعتبر المعمارون الحديثون أن هذا البناء يثير الاهتمام ، انطلاقاً من وجهة نظر الفن الهندسي . أما زخرفتها فكانت متواضعة ويقيم فيها اليوم مقر المجمع العلمي العربي .

المدرسة الصابونية :

بناها (شهاب الدين أحمد الصابوني) عام (٨٦٣هـ / ١٤٥٨م) وتقع في السنانة - طريق الميدان .

المدرسة الدلامية :

(في الجسر الأبيض) أنشأها (ابن دلامة البصري عام (٨٤٧هـ / ١٤٤٣ م) .

المدرسة الشاذلية :

(في حي القنوات) بناها دوا دار دمشق الأمير (شاز بك الجلباني المتوفى عام (٨٨٧هـ) .

المدرسة الجقمقية :

(في شمال الجامع الأموي) شيدها نائب السلطنة في دمشق الأمير سيف الدين جقمق عام (٨٢٤هـ / ١٤٢١ م) لتكون خانقاه وتربة له ولوالدته ولكن الأمير جقمق قتل بعدما تمرد على خلف السلطان المؤيد المتوفى عام (٨٨٢هـ) .

المدرسة الخضرية :

(قرب سوق الصوف) أنشأها قاضي القضاة (ابن خضر) عام (٨٧٨هـ / ١٤٧٣ م) .

دار الحديث التنكزية :

في سوق البزورية ، جنوب قصر العظم تعود إلى عام (٧٣٩هـ / ١٣٣٨ م) .

المدرسة السبائية :

(أنشأها كافل سيباي) خانقاه اليونسية (المعروفة باسم الطاووسية) أنشأها يونس الدوا دار .

وقد ذكر النعيمي (صاحب كتاب الدارس في تاريخ المدارس) بعد دخول العثمانيين إلى دمشق بنحو خمس سنوات عدد مباني مدارس دمشق في عهود المماليك كما يلي :

(٧) دور قرآن و (٨) دور حديث و (٥٧) مدرسة شافعية و (٥١) مدرسة حنفية و (٤) مدارس مالكية و (١٠) مدارس حنبلية و (٤) مدارس طب و (١) مدرسة هندسة - أضيف إلى ذلك (٢٦) خانقاه و (٢٣) رباط و (٢٦) زاوية ، مما يدل على نهضة ثقافية استمرت بعد وفاة (نور الدين) وعهود الأيوبيين مما جعل الشاعر (سلطان بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني) ينشد في مدارس دمشق قائلاً :

ومدارس لم تأنها في مشكل إلا وجدت فتى يحل المشكلا

ما أمّها امرؤ يكابد حيرة وخصاصة إلا اهتدى وتحوّلًا
وبها وقوف لا يزال مغلّها يستنفذ الأسرى ويغني العيلا
وأئمة تلقى الدروس وسادة تشفي النفوس ودأوا قد أعضلا
ومعاشر اتخذوا الصنائع مكسباً وأفاضل حفظوا العلوم تجملا

وتجدر الإشارة إلى (دار القرآن الرشائية) شمال الجامع الأموي ، قامت على أنقاضها في العصر المملوكي (المدرسة الأخنائية) فقد كانت داراً أوقفها صاحبها (رشاء بن نظيف) عام (٣٧٠هـ / ٤٤٠هـ) على قراءة القرآن ، فكانت أول مدرسة في سورية تظهر كمؤسسة مستقلة عن مدارس الجوامع والمدارس .

في القرن الخامس دخل دمشق طراز من دور العلم سموه بالمدرسة .

وأول مدرسة أنشئت للقرآن الكريم في سنة (٤٤٤هـ) ، أنشأها رشاء بن نظيف المقرئ الدمشقي ، وكثرت بعد ذلك دور القرآن ودور الحديث ، ومدارس الحنفية والشافعية والمالكية والحنابلة والزوايا والرباطات ، أنشأها الملوك وإتباعهم من الأمراء والعقلاء والجواري ، وبعض أهل الخير من التجار والأغنياء . وختم تاريخ المدارس بإنقراض ملوك الطوائف ودخول الدولة العثمانية ذكر صاحب كتاب (الدارس) وهو مما ألف بعد خمس سنين من دخول العثمانيين في دمشق (٧) دور للقرآن و (١٨) داراً للحديث و (٥٧) مدرسة شافعية و (٥١) مدرسة للحنفية و (٤) مدارس للمالكية و (١٠) مدارس للحنابلة . وكان بها أربع مدارس للطب ومدرسة للهندسة ، وفي دمشق وصالحيتها (٢٦) خانقاً و (٢٣) رباطاً و (٢٦) زاوية .

وجميع هذه المدارس والرباطات خربت على عهد العثمانيين . وكانت هذه المدارس مدة قرون أشبه بكليات لمدرسة جامعة كبرى ، تدرس فيها بعض علوم القدماء إلى جانب علوم الدين واللغة ، ومنها خرج أعظم الملة ، وكانت من أجمل الأدوات في إخراج المسلمين من الأمية ، بتعاون هذا الواجب مع الجوامع والكتاتيب التي يقفها أهل الخير لتعليم اليتامى والفقراء القرآن والخط ، وتكون على الأغلب على أبواب الجوامع أو على مقربة منها ؛ ليألف الصغار الصلاة منذ نعومة أظفارهم .

مكتبات دمشق

المكتبة الظاهرية :

بني الملك السعيد أبو المعالي ناصر الدين بن محمد بركة قان ابن الملك الظاهر بيبرس (٦٥٨ / ٦٧٨ هـ) المكتبة الظاهرية . ابتاع الملك السعيد دار أحمد بن الحسين العقيقي ، وكانت قصراً للأيوبيين وأمر ببناء المدرسة الظاهرية ، تقع الظاهرية في حي العمارة بين باب الفرج والفرايس تجاه العادلية بينهما طريق باب البريد المؤدي إلى الجامع الأموي .

المكتبة العمرية :

وكان مقرها في صالحية دمشق وكان فيها خزانة كتب لا نظير لها ، ومن ثم تمتاز الكتب التي نقلت إلى المكتبة الظاهرية بأنها مصححة على أيدي علماء أجلاء مشهورين ، فجمع منها ما يقارب ستمئة واثنين وستين مخطوطاً .

مكتبة عبد الله باشا العظم :

مقرها مدرسة عبد الله باشا بن الوزير محمد باشا محافظ الشام فوجد فيها أربعمئة وواحد وستون مخطوطاً .

مكتبة الخياطين :

وتقع بسوق الخياطين وفيها مجموعة من الكتب وقفها الوزير أسعد باشا العظم وجعلها في مدرسة والده إسماعيل باشا وعدد كتبها التي نقلت إلى الظاهرية ثلاثمئة وخمسة وسبعون مخطوطاً .

مكتبة الأوقاف :

جمعت من خزائن متنوعة ووضعت في ديوان الأوقاف حفاظاً عليها ، وعددها أربعة وستون مخطوطاً وأربعة كتب مطبوعة .

المكتبة المرادية :

كانت مكتبة عظيمة عامرة للمدرسة المرادية أنشأها الشيخ مراد النقشبندي ، ولم يبق منها إلا القليل لم يزد على المئتين وستين مخطوطاً نقلت إلى الظاهرية .

مكتبة الخطابة في الجامع الأموي :

تحتوي على مجموعة كتب وقفها صاحبها علي الدفتري دخل منها إلى الظاهرية ثلاثة وسبعون مخطوطاً فقط .

المكتبة السليمانية :

تقع قرب باب البريد ، وقفها سليمان باشا بن إبراهيم العظم وجعلها في المدرسة السليمانية ، فقد معظمها ولم يبق فيها إلا مئة وثلاثين مخطوطاً فقط .

المكتبة السميساطية :

تقع عند باب الأموي الشمالي المعروف باسم باب العمارة ، وكان مقرها في الخانقاه السميساطية ، وعثر فيها على واحد وثمانين مخطوطاً فقط .

المكتبة السياغوشية :

وكان مقرها في مسجد يقع بجادة تسمى القصّاعين داخل باب الجابية بناه حسن باشا الشور بزي بأمر الوزير الأعظم سياغوش باشا ، لم يبق فيها إلا أحد عشر مخطوطاً .

مكتبة عبد الله باشا العظم :

ومقرها مدرسة عبد الله باشا بن الوزير محمد باشا محافظ الشام فوجد فيها أربعمئة وواحد وستون مخطوطاً .

مكتبة الملاً عثمان الكردي :

وكانت موضوعة في المدرسة السليمانية ووجد فيها ثلاثمئة واثنان عشر مخطوطاً .
* هذه أبرز المكتبات التي كانت في دمشق وساهمت في تكوين مكتبة عامة ، وهناك عدد آخر منها كمكتبة جامع يلبغا والأحمدية وغيرهما .

مكتبة الأسد :

تقع مكتبة الأسد الوطنية في الطرف الغربي من مدينة دمشق وتطل على ساحة الأمويين .

وتعد مكتبة الأسد صرحاً حضارياً هاماً والتكلم عنها يحتاج إلى كتاب خاص .
تم تدشين المكتبة في (١٦ / ١١ / ١٩٨٤ م) وهي من منجزات الحركة
التصحيحية بقيادة الرئيس حافظ الأسد وفيها قاعات للمطالعة ، وأقسام
للمخطوطات ، وقسم للمكفوفين ، وقسم للفهرسة ، وقاعات سمعية بصرية ،
ويقام فيها كل عام معرض للكتاب .



المدرسة الجقمقية بدمشق

* * *

أهم الآثار المسيحية في دمشق

وأخيراً وبعد هذه الجولة الواسعة على أهم مراكز العبادة الإسلامية ، من جوامع ومساجد ودور علم وخوانق وزوايا وربط ومدارس دينية وغيرها ، لا بد من وقفة نتعرف من خلالها على أهم الآثار المسيحية في هذه المدينة القديمة التي ظلت العلاقة بين أبنائها على اختلاف أديانهم ، علاقة ودّ وتآلف في مختلف العصور .

تكمّن أهمية دمشق لدى المسيحيين في أنها قامت بدور مرموق في نشوء المسيحية ، وفيها اعتنق الرسول بولس الدين الجديد على يد الرسول حنانيا أول أساقفتها . ولما اضطهده اليهود والرومان وأرادوا به شراً هرب متدلياً في سلّة من نافذة على السور الشرقي للمدينة (نافذة بولس) في باب كيسان ، وأصبحت دمشق مقراً للأسقفية لا تتقدمها في الدرجة سوى إنطاكية ، وفي سنة (٣٧٩) بنى الإمبراطور (ثيودوسيوس) كنيسة القديس يوحنا المعمدان في الموضع الذي كان قبلاً معبد جوبيتر) .

ومن كبار آباء الكنيسة الذين اشتهروا في دمشق القديس (يوحنا الدمشقي) الذي كان أباً لجدّ أمين بيت مال المسلمين في الدولة الأموية ، منذ فتح دمشق ، ثم اعتزل هذا العمل واعتكف في دير القديس سابا في فلسطين .

وكان في غوطة دمشق ، وفي سفوح قاسيون ، كما روى ابن عساكر في تاريخ دمشق ، خمسة عشر ديراً ، كدير مُرّان ، والنيربين حيث يروى أن القديسة حنة والدة السيدة العذراء أقامت أو دفنت فيه . ولمحمد كرد علي كتاب في وصف الغوطة وما احتوته من كنائس وأديرة .

اشتهرت دمشق بأديرتها قبل الإسلام ، ومن أعظمها دير مُرّان في السفح الغربي من قاسيون ، كان مطلاً على مزارع الزعفران ، وقد ظل عامراً إلى القرن السابع ، وقال فيه الشعراء من القصائد الكثير . وكان بالسفح في الصالحية أكثر من دير تطل

كلها على المدينة وغوطتها ، وفيها أشجار السرو ، ولا نعلم في أي قرن دثرت ، كما أنا نجهل الزمن الذي دثرت فيه أديرة الغوطة . أما كنائس دمشق اليوم فكلها محدثة جددت بعد حوادث سنة (١٨٦٠ م) ، وليس فيها من الجمال ما كان للبيح القديمة ، وللقديم أبداً روعة ليست للجديد .

من أهم الآثار المسيحية في دمشق

أولاً - كاتدرائية دمشق :

كلمة كاتدرائية مشتقة من كلمة (كائدرا) اليونانية ومعناها (المنصة أو السدة أو المرتبة) ، وهي كنيسة الأسقفية ، وكانت قبلاً كنيسة القديس الرسول حنانيا أول أساقفة دمشق ، وكانت دار الأسقفية بجانبها . وقبل ذلك كانت هذه الكاتدرائية هيكلًا للإله رمون إله الآراميين الذين أنشئوها في القرن العشرين قبل المسيح ، في عهد إبراهيم الكلداني . وبتعاقب الفاتحين عليها نقلوا لها آلهتهم ، ولما حولت إلى كنيسة صارت في عهدة الروم (اليونان) أصحاب السلطتين المدنية والدينية في البلاد ، ثم حولها الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك إلى جامع عام (٧٠٦ م) ، وبقي فيها رأس القديس يوحنا المعمدان الذي أخفاه المسيحيون بصندوق في حفرة عميقة في أرض الكنيسة عام (٦١٤ م) . وعندما بني الجامع الأموي ، عثر الفعلة على هذا الصندوق ، فدعوا الوليد ليفتحه وفتح ، فوجد فيه الرأس مع كتابة يونانية تشير إلى صاحبه ، فاحترمه الخليفة الأموي ، وأمر بإعادته إلى ما كان ، وبني فوقه قبة فخمة وهي الباقية إلى يومنا .

ثانياً - الكاتدرائية المريمية :

والتي تعد من أقدم وأجمل كنائس دمشق وأصلها كنيسة مريم على اسم السيدة مريم العذراء ، بنيت في القرن الثاني الميلادي ، وهي أقدم كنيسة في دمشق . ومن المرجح أن الكنيسة القديمة قد تهدمت وبني أحدث منها على أنقاضها ، وكانت إلى ما قبل الفتح الإسلامي يُصلّى فيها . ولما فتح العرب المسلمون دمشق أبقوا تلك الكنيسة مغلقة حتى عام (٧٠٦ م) ؛ لأنها كانت على الخط الفاصل بين دخولهم

دمشق حرباً من الباب الشرقي وصلحاً من باب الجابية ، حيث التقى الجيشان عندها في الشارع المستقيم .

ثم منحت كنيسة مريم مجدداً للمسيحيين بقول الوليد للنصارى : (إننا نعوض عليكم عن كنيسة يحيى بكنيسة مريم) ، وهكذا أعادوا فتحها مجدداً . ثم عمرت في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز بعد إهمالها يبلغ طولها (٧٠) ذراعاً وعرضاً نحو أربعين .

ثالثاً - الدار البطيركية الأنطاكية الأرثوذكسية :

نبذة تاريخية :

كان مقر الدار البطيركية الأنطاكية الأرثوذكسية في مدينة إنطاكية ، وإنطاكية هذه كانت المدينة المهمة في تاريخ المسيحية ، إذ فيها دعي المسيحيون بذلك أولاً ، وفيها علم الرسولان بولس وبرنابا ، وصارت مركزاً للتبشير ، وكانت منذ القرن الأول كرسي أسقفية عظيمة أسسها الرسولان بطرس وبولس ، وكان بطرس أول أساقفتها ، لذلك دعي كرسيها (بكرسي الرسولين بطرس وبولس) . وقد انتقل هذا الكرسي منها إلى دمشق إثر الزلزلة العظيمة التي أصابتها في القرن الرابع عشر الميلادي في عام (١٣٤٢ م) .



صورة بيت القديس حنانيا

رابعاً - بيت القديس حنانيا الرسول :

يقع المقام الذي ورد ذكره في الإنجيل (١٠ : ٩ ع) في حارة حنانيا ، ما بين باب توما وباب شرقي ، بالقرب من الشارع المستقيم (مدحت باشا) ، وهذا المقام هو حجرة تحت الأرض ينزل إليها بأكثر من سلم حجري ، وقد تعمد بولس الرسول بيد حنانيا ففتحت عيناه بعد أن عمي لما ظهر له السيد المسيح ، عليه السلام ، في كوكب .

في عام (١٩٢١ م) قام الكونت دي لوريه بحفريات أظهرت أن الكنيسة كانت سابقاً هيكلًا وثنيًا يعود للقرن الثاني أو الثالث الميلادي ، والبيت هو دون شك جزء من الكنيسة البيزنطية (الصليب المقدس) التي كانت هناك . ويحرص الجميع على زيارتها والاطلاع على قصة بولس واعتناقه المسيحية بمساعدة حنانيا .

خامساً - كنيسة باب كيسان :

وهو أحد أبواب سور دمشق الشرقي مقابل مدار المطار ، وهذا الباب كان يقع خلفه بيت نعمان السوري الذي تدلى بولس الرسول من نافذته بزنبيل (سلة) ، وهرب من دمشق بعد اهتدائه خوفاً من اضطهاد اليهود له ، في النصف الأول من القرن الأول ، وقد جعل الفرنسيون في عام (١٩٣٤ م) بداخله كنيسة .

سادساً - كاتدرائية الروم الكاثوليك في حارة الزيتون :

لوقوعها في الطرف الجنوبي لحارة الزيتون المتفرعة من شارع باب شرقي ، يعود تاريخ بنائها إلى عام (١٩٣٢ م) من القرن الماضي مع الدار البطريركية ، وقد أنشأها البطريرك مكسيموس مظلوم بعد حصوله على البراءة السلطانية ببطريركيته على الروم الكاثوليك ، وبأن يكون كرسي البطريركية في دمشق ، بعد ما كان منذ عام (١٧٢٤ م) في دير المخلص في لبنان . وهي كاتدرائية جميلة ، فيها نقوش وأيقونات جميلة ، وهي على اسم يناح السيدة ، وتقع قبل باب شرقي في حارة الزيتون .

سابعاً - كنيسة الرسول حنانيا :

يعود زمن بنائها إلى عام (١٨٤٠ م) ، وبقينا كانت موجودة قبلاً ، وجددت كما كان يقضي بذلك الشرع الشريف ، أي بالتجديد دون البناء . وهي كنيسة جميلة جداً تحتوي على أيقونات بديعة يمتزج فيها الفن السوري بالفن البيزنطي . تحيط بها دار عربية فسيحة وجميلة تحتوي على غرف عديدة يقطنها بعض الأسر من ذوي الدخل المحدود ، وبجانبها مدرسة كانت إلى عهد قريب مفتوحة لأبناء الطائفة الأرثوذكسية في الميدان . وتقع هذه الكنيسة في حي الميدان ، حارة القرشي ، حيث تعيش في تاريخ دمشق الزاهر بالتآخي بين المسلمين والمسيحيين .

ثامناً - كنيسة القديس يوحنا الدمشقي :

تقع هذه الكنيسة الجميلة في حارة الكنيسة المريمية ، تجاورها جنوباً المدرسة الآسية وشمالاً نزلة سفلى التلة .

بنيت هذه الكنيسة عام (١٨٦٤ م) ، أي في نفس الوقت الذي أعيد فيه بناء الكاتدرائية المريمية . وتحتوي على أيقونات بديعة أيضاً جمع مصوروها الفناني السوري والبيزنطي ، وتوحي بالخشوع لزاثيرها ، منذ اللحظة الأولى لدخوله فيها ، كما هي كنيسة حنانيا في الميدان .

تاسعاً - دير مار بولس في تلة كوكب :

يقع هذا الدير في سهل كوكب الذي يبعد عن دمشق مسافة (١٨ كم) جنوباً على طريق محافظة القنيطرة . وهو مبني على تلة بركانية ، وقد أقيم على أنقاض دير قديم اندثر ، كان المسيحيون الأوائل قد أقاموه في مكان رؤيا القديس بولس الرسول واهتدائه للإيمان المسيحي ، بعدما كان متوجهاً إلى دمشق على رأس قوة ، بتكليف من مجمع اليهود في القدس ، للقضاء على المسيحيين في دمشق الذين تكاثر عددهم بشكل أقلق اليهود ، وبعد أن نجح في البطش بهم في القدس .

ولما وصل إلى كوكب ، برق حوله بغتة نور شديد مع صوت يقول له : (شاؤول ، شاؤول ، لماذا تضطهذي ؟) فسقط عن جواده على الأرض وقد عمي

بصره ، وقام الرسول حنانيا بعدئذ بفتح عينيه لما عمّده في داره ، في الشارع المستقيم (كما سبق السرد عن مقام حنانيا الرسول) .

وقد تحول بولس ، بعد إيمانه ، إلى رسول في جهاده الأمين عن المسيحية مبشراً في كل الأصقاع ، ومنطلقاً من دمشق ، ووجهة الانطلاق نحو إنطاكية وآسية الصغرى وأوربة كلها ، وبالتالي انطلاقة الرسل الآخرين إلى بلاد ما بين النهرين وآسية .

أما الدير القديم الذي بُني الدير الحالي على أنقاضه ، فقد استعمل أهل القرى المجاورة (عرطوز وجديدة عرطوز وصحنايا وداريا) حجارته لبناء مساكنهم كما يصريحون ، كما أن جماعة من الفلاحين عثرت بين أنقاضه على (مبخرة ذهبية) ، وهذا دليل قاطع للشك ، كما أن شهادات من القرون الوسطى ومن حروب الفرنج قد أثبتته مثل كتاب تاريخ القدس (لجاك فيتري) ورحلة (الشوفاليه دارفيو) . أضف إلى ذلك أن سكان القرى المجاورة لكوكب كانوا قبل إعادة البناء يسمّون التل باسم (مار بولس) ، وله عندهم حرمة وقداسة ، ويقصدونه للزيارة ولتعميد أطفالهم على قمّته .

والمرجح أن اسم قرية داريا المجاورة مشتق من (دار رؤيا) ، أي رؤيا القديس بولس ، وقد اجتهد الكثير من المؤرخين والباحثين لإثبات ذلك .

عاشراً - مقام القديس جاورجيوس في دوار المطار :

يقع هذا المقام مقابل باب كيسان في دوار المطار ، ويعود تاريخه إلى القرون المسيحية الأولى ، وحول هذا المقام دفن المسيحيون موتاهم منذ ذلك التاريخ ، كما تشير الدراسات التاريخية . والآن تقع مقبرة الروم الأرثوذكس في الموقع عينه ، وبدخلها هذا المقام . كما بنيت كنيسة على اسم القديس جاورجيوس في المدفن تعود للنصف الثاني من القرن الماضي .

وفي نفس المكان كان يدفن البطارقة الإنطاكيون ، قبل أن يكون لهم مدفن خاص بهم ، في حرم الكاتدرائية المريمية يعود إلى منتصف القرن الماضي ، كما يدفن الأساقفة والكهنة تحت هذا المقام .

أضف إلى أن تنظيم تلك المنطقة لمدافن الطوائف المسيحية جرى في العقد الثالث من هذا القرن من قبل محافظة دمشق الممتازة .

كنيسة حميد بن درّة :

كانت في درب حميدة بن درّة ، ، عند الزقاقين ، ويُعرف أيضاً بدرب السقيل وبدرّب الصقل . مجهولة الموقع . تُنسب إلى حميد بن عمرو مساحق القرشي العامري ، وأمه درّة بنت أبي هاشم خال معاوية بن أبي سفيان ، وكان الدرب إقطاعاً له فنُسبت الكنيسة إليه وهو مسلم^(١) .

كنيسة الداخلة :

أدخلها الخليفة الوليد بن عبد الملك في المسجد الأموي^(٢) .

كنيسة دمشق :

انظر كنيسة يوحنا .

كنيسة دير مران :

كانت في قرية المعظميّة ، بسفوح قاسيون^(٣) .

كنيسة الراهب :

كانت جنوبي دمشق ، وهي من الكنائس الكبار^(٤) .

كنيسة العباد (١) :

كانت عند دار وقناة ابن الماشكي ، جُعِلت مسجداً ، قناة ابن الماشكي كانت تحت مئذنة فيروز في محلّة العقبيّة^(٥) .

(١) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ١٣١/٢ ، الأعلام الخطيرة لابن شدّاد ٥٥ ، ثمار المقاصد

لابن عبد الهادي ٨٢ ، الدارس للنعماني ٣٧٨/٢ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ١٨٢/٩ .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ١٧٣/٩ .

(٤) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ٤١/٢ ، البداية والنهاية لابن كثير ١٧٣/٩ .

(٥) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ١٦٠/٢ .

كنيسة العباد (٢) :

كانت في رأس درب النقاشين وجُعِلت مسجداً^(١) .

كنيسة القديس بولص :

من الكنائس الحديثة ، أقيمت داخل باب كيسان [عند دَوّار المطار الحالي] عام (١٩٣٩ م)^(٢) .

كنيسة القديس جاورجيوس :

في حيّ الميدان ، بمحلّة باب المصلّى^(٣) .

كنيسة القديس غريغوريوس :

داخل باب توما ، بجانب حمام البكري ، أنشئت بعد سنة (١٨٦٠ م)^(٤) .

كنيسة القلانسيين :

كانت في موضع دار الوكالة ، داخل باب الجابية^(٥) .

كنيسة مار سركيس :

بجانب الباب الشرقي ، لصيق السور ، احترقت سنة (١٨٦٠ م) فجددت^(٦) .
وتضم أيقونات نادرة للرسام الشهير ميخائيل التكريتي رسمها (١٨١٣ م) بالإضافة
إلى أيقونات أخرى من الفن البولوني تعود للقرن السابع عشر قدمها الجنرال
اندرس .

(١) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ١٣٢/٢ ، الأعلام الخطيرة لابن شدّاد ١١٣ ، ٢٧٦ ، ثمار المقاصد لابن عبد الهادي ٨٢ .

(٢) دمشق تاريخ وصور للشهابي ط ٢ ، ٣٢٩ .

(٣) الروضة الغناء للقساطلي ١٠٢ .

(٤) الروضة الغناء للقساطلي ١٠٣ .

(٥) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ١٣١/٢ ، الأعلام الخطيرة لابن شدّاد ٢٧٤ ، البداية والنهاية لابن كثير ٢٦/٧ .

(٦) الروضة الغناء للقساطلي ١٠٢ .

كنيسة مار موسى الحبشي :

على الطريق السلطاني إلى الغرب من الباب الشرقي ، احترقت سنة (١٨٦٠ م)
وجدت بمساعي المطران يعقوب الريشاني^(١) .

كنيسة مريم :

من الكنائس العريقة في حي « الخراب » ، بدرب كنيسة مريم ، شرقي درب
الحجر [جادة باب توما] وحمام الزين ، ولا صحة لما يعتقد بوتر في كتابه (خمس
سنوات في دمشق) من أن كنيسة المقسلاط قامت في موضع كنيسة مريم ،
فالمقسلاط في محلة مئذنة الشحم ، وهو المكان الذي التقى فيه أبو عبيدة بن
الجراح بخالد بن الوليد عند فتح دمشق (١٤ هـ) . وكانت الكنيسة قائمة حتى سنة
(٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م) وخربت ، ثم خربت ثانية أيام تيمورلنك (١٤٠٠ م) . وكانت
تقسم إلى كنيستين ، الأولى المريمية والثانية كنيسة (مار نقولا) ، وفي عام
(١٨٦٠ م) احترقت المريمية وتخربت فأعيد بناؤها سنة (١٨٦١ م) وجعلت مع
كنيسة (مار نقولا) كنيسة واحدة وصار اسمها الكنيسة المريمية^(٢) . يبلغ طولها
(٧٠) ذراعاً وعرضاً نحو أربعين .

كنيسة المصلبة :

كانت بين الباب الشرقي وباب توما ، قرب النيطون داخل السور ، بجوار كنيسة
حنانيا ، تخربت بعد سنة (٥٨٠ هـ) . ذكرها المنجد في خارطة دمشق القديمة
(المجمع العلمي العربي) في موضع كنيسة حنانيا وهو خطأ صوابه بقربها^(٣) .

(١) الروضة الغناء للقساطلي ١٠٣ .

(٢) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ١٩٢/٢ ، الأعلام الخطيرة لابن شداد ٥٥ ، البداية والنهاية
لابن كثير ٢٧/٧ ، ٢٥٤/١٣ ، ثمار المقاصد لابن عبد الهادي ٧٢ ، ٧٧ ، الدارس
للنعمي ٣١٦/٢ ، ٣١٧ ، مفاهية الخلان لابن طولون ١٠٠/١ ، ١٣١ ، رحلة ابن جبير
١٩٨ ، الروضة الغناء للقساطلي ١٠١ .

(٣) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ١٣١/٢ ، الأعلام الخطيرة لابن شداد ٢٧٥ ، البداية =

كانت في المقسلاط ، في وسط البلد ، بالقرب من درب الرياحان ، [في محلة
مئذنة الشحم ، وهو المكان الذي التقى فيه أبو عبيدة بن الجراح بخالد بن الوليد عند
فتح دمشق (١٤هـ)] .

وفي معلولا عند أديرتها وقديسيها سحر الحكاية ، فالبلدة بأكملها متحف
بشري ، تروي حكاية تاريخية ذاكرة الحجر فيها ، حكاية تعود لآلاف من السنين
مضت ، يقول المؤرخون فيها إن معلولا هي من أماكن السكن الأولى للإنسان
الأول ، وحفظها سكان المنطقة أنفسهم إلى الآن في طيات لغتهم الآرامية ، لغة
السيد المسيح ، فمعلولا واحدة من ثلاث بلدات في سورية هي الوحيدة في العالم
التي حافظت على اللغة الآرامية متوجة بالسحر والسكينة تنتصب بلدة صيدنايا أعلى
جبل الحلو الذي يرتفع (١٤٥٠ م) فوق سطح البحر في سلسلة جبال القلمون بعيداً
عن الشمال الشرقي لمدينة دمشق بمسافة تقدر بـ (٣٥) كم ، لتطل على روح زوارها
بماض عريق يعود إلى عشرة آلاف عام ، تعبق بروح دين السلام والمحبة وتعاليم
أمير السلام يسوع المسيح ابن مريم العذراء ، معلنة صيدنايا بلدة للأديرة والكنائس
لا ينافسها في هذا بلد من بلاد الشام .

يوجد في البلدة مجموعة من المعاصر وبقايا أبنية منتشرة بين بيوت البلدة ،
إضافة إلى عشرات القطع الحجرية كالتيجان والأعمدة والسواكف المبعثرة في البلدة
والخارجها صيدنايا اسم سرياني الأصل له معان عدة وفق اجتهادات المؤرخين ، إلا
أن أكثر الاحتمالات رجحاناً وقرباً من الواقع : الاحتمال الأول أي بمعنى الغابة
كثيفة الأشجار وبالتالي موقعاً ملائماً للصيد أو الصيادين ؛ لأن الياء والألف في نهاية
الكلمة في اللغة السريانية علامة الجمع والمعنى الآخر (بائعو الأدوية أو
الصيدالة) .

= والنهاية لابن كثير ٢٧/٧ ، ٣٠٩/١٣ ، ثمار المقاصد لابن عبد الهادي ٧٦ ، الدارس
للنعمي ٣١٦/٢ ، ٣١٩ ، خارطة دمشق القديمة للمنجد (المجمع العلمي العربي) .

ويفسر البعض اسمها بسيدتنا ويقصدون السيدة العذراء ويرجح العلماء والمختصون الاحتمال الأول بمعنى (الصيادين) ؛ لأنها جمع أو مكان الصيد ، ويدعم ذلك اعتقاد تقليدي سائد يقول بأن باني (دير السيدة) الملك يوستينيا نوس في القرن السادس الميلادي كان يتصيد في الجبل ، واجتاز هذه المنطقة التي كانت تشتهر بغاباتها وكثرة متصيداتها ، وهناك ظهرت له ظبية ، سرعان ما تحولت إلى امرأة بيضاء غضة كأنها برج فضة وطلبت منه بناء الدير .

يضم دير السيدة أيقونة السيدة العذراء ، وهي إحدى النسخ الأصلية للأيقونات الأربع التي رسمت بيد الرسول لوقا البشير ، وتلقب بالسريانية شاهورة أو شاغورة ومعناها (المعروفة والذائعة الصيت) وهي تحريف الكلمة العربية الشهيرة أو المشهورة .

وهذه أسماء بعض الكنائس الموجودة بدمشق :

- ١- الكنيسة الإنجيلية .
- ٢- كنيسة ودير الفرنسيسكان .
- ٣- كنيسة اليسوعيين .
- ٤- كنيسة ودير العازارية .
- ٥- كنيسة السريان الكاثوليك .
- ٦- كنيسة الأرمن الأرثوذكس
- ٧- كنيسة الأرمن الكاثوليك
- ٨- كاتدرائية مارجرجس

* * *

الأسواق القديمة في مدينة دمشق

اشتهرت دمشق ، منذ قديم الزمان ، بأسواقها الرائعة التي اختفى بعضها عن خارطة دمشق الحديثة ، وبعضها ما يزال شاهداً على عراقة هذه المدينة التجارية ، وفيما يلي ثبت يتضمن أهم أسواق دمشق ، أقدم به بين يدي الحديث ، في هذا الفصل ، عن أهم هذه الأسواق وأشهرها .

- | | |
|--------------------|------------------|
| ١- سوق الحميدية | ٢- سوق مدحت باشا |
| ٣- سوق الخوجة | ٤- سوق ساروجا |
| ٥- سوق السروجية | ٦- سوق الزرابلية |
| ٧- سوق التبني | ٨- سوق الخيل |
| ٩- سوق علي باشا | ١٠- سوق العتيق |
| ١١- سوق المحاربية | ١٢- سوق الهال |
| ١٣- سوق الحدادين | ١٤- سوق النحاسين |
| ١٥- سوق المناخلية | ١٦- سوق البزورية |
| ١٧- سوق السنانية | ١٨- سوق الأروام |
| ١٩- سوق العصورنية | ٢٠- سوق البورص |
| ٢١- سوق باب البريد | ٢٢- سوق المسكية |
| ٢٣- سوق الحرير | ٢٤- سوق القلبقية |
| ٢٥- سوق الخياطين | ٢٦- سوق القوافين |
| ٢٧- سوق القباقيية | ٢٨- سوق السلاح |

٢٩- سوق الصقالين	٣٠- سوق الباب الشرقي
٣١- سوق باب توما	٣٢- سوق القيصرية
٣٣- سوق العمارة	٣٤- سوق السكرية
٣٥- سوق النسوان	٣٦- سوق القطن
٣٧- سوق الصوف	٣٨- سوق الصباغين
٣٩- سوق الدرويشية	٤٠- سوق باب الجابية
٤١- سوق السنانية	٤٢- سوق النحاتين
٤٣- سوق السويقة	٤٤- سوق باب المصلى
٤٥- سوق الجزماتية	٤٦- سوق الإحصاصين
٤٧- سوق تحت القلعة	٤٨- سوق جقمق
٤٩- سوق الجواري	٥٠- سوق الدهشة
٥١- سوق الذراع	٥٢- سوق الصاغة
٥٣- سوق القيشاني	٥٤- سوق المرادية
٥٥- سوق الكوافين	٥٦- سوق الملك فيصل
٥٧- سوق الميدان	٥٨- سوق العنبرانية
٥٩- سوق الجوخ	٦٠- سوق السباهية
٦١- سوق العبي	٦٢- سوق الجراكسية
٦٣- سوق العتالين	٦٤- سوق العلبة
٦٥- سوق الخراطين	٦٦- سوق الأغنام
٦٧- سوق القماحين	٦٨- سوق الاختصاصية
٦٩- سوق القاضي	٧٠- سوق القشاشية
٧١- سوق المرادية	٧٢- سوق الحبالين

٧٤- سوق الصبائين

٧٣- سوق العقادين

٧٦- سوق الضيق

٧٥- سوق الصرماياته

٧٨- سوق الحمير

٧٧- سوق شعيب

٨٠- سوق العصر

٧٩- سوق الدق (الدقاين)

٨٢- سوق الأحد

٨١- سوق أنور باشا

٨٣- سوق الجمعة

قام الرحالة رانيو بوصف دور مدينة دمشق البالغ الأهمية في التجارة وفي تنظيمها المملت للأنظار وفي توزيع مياهها الذي يكمن فيه سر جمال دمشق ، وقال : « تتألف أسواق دمشق من شارعين طويلين مسقوفين ، حتى ليبدو للمرء أن الانتعاش لا يوجد إلا داخل هذين الشارعين خصوصاً وإن المدينة برمتها تحترق تحت الشمس ولا تقل المحلات التجارية فيهما غنى عن محلات القسطنطينية ، ومن جهة أخرى فإن صناعة الأقمشة على الرغم من نشاطها لم تكن لتنافس البضاعة المستوردة من الخارج . غير أن هذا لا يعني أبداً أن الأسواق المحلية تشكو من قلة بعض المواد . فالقوافل التي تأتي من بلاد الفرس ومن الجزيرة العربية ومن الهند تسد الثغرة بشكل كافٍ ، وتأتي الجمال من بغداد وهي محملة بالبن من نوع (الموكا) الذي أصبح نادر الوجود في تركيا ، كما ترسل بلاد الفرس إلى دمشق أفضل أنواع التبنك الموجود لديها ، وهكذا ينعم الدمشقيون بكل هذه الأطايب لدرجة أن سكان إستانبول كانوا يحسدونهم عليها ، ويرتفع وسط السوق واحد من أجمل المعالم الأثرية في الشرق هو خان أسعد باشا العظم الذي يلتقي فيه التجار الأجانب الأثرياء الذين يصلون إلى دمشق إنه فندق وردة بورصة في نفس الوقت ، ويشكل باب الخان تحفة فنية بحفره الناعم والدقيق .

وتتوج الخان ثمان في القبة الصغيرة وفوقها قبة كبيرة تستند على أربعة أعمدة . وأما الجدران فهي مغطاة بالرخام الأسود والأبيض بشكل متواز هندسياً . وهنالك

قاعات مخصصة لإيداع البضائع ، وفي وسط الخان بركة ضخمة مملوءة بالماء تربط إليها الجياد العربية والمصرية والفارسية ويتحلّق المسافرون حول المكان بثيابهم المتنوعة المصادر والموديلات ليناقشوا مع التجار والزوار والزبائن وليدخلوا النارجيلة بهدوء وهم يجلسون على منصّات خشبية يكسوها السجاد .

ويقول لنا لامارتين عن نشاط الأسواق والمقاهي وبائعي المأكولات حيث أتى على وصف هذه الأمور في عام (١٨٣٣ م) ونظرة فاحصة على الجموع في السوق تثير الإعجاب والدهشة :

« إن عدداً من الأغوات يلبسون عباءات طويلة من الحرير الأحمر ومبطنة بفرو السمور وهم يعلقون على أحزمتهم السيوف والخناجر المرصعة بالجواهر ، ويتبعهم (٥ إلى ٦) من الخدم والعبيد يمشون خلفهم بصمت وهم يحملون غلايين وأراكيل أسيادهم الذين يتجهون لقضاء حقبة من النهار على الأرائك الخارجية للمقاهي المبنية على حافة الأنهر التي تخترق المدينة وتظل شجيرات جميلة من الجميز هذه الأرائك حيث يدخلون ويتبادلون الأحاديث مع أصدقائهم . فالمقهى هو الوسيلة الوحيدة للاتصال باستثناء الجوامع لسكان دمشق » .

وينتقل لامارتين للكلام عن محلات البيع الخاصة بالمأكولات ، فيقول : « تجلب محلات بائعي المأكولات الأنظار بنظافتها وأناقتها ونظامها . وتمتلىء واجهات المخازن بكميات وافرة من السِّلل المليئة بزجاجات السوائل والفواكه المجففة وأجناس من الجبوب والبقول لا أعرف أسماءها ، ولكنها تتصف بأشكال وألوان لامعة ورائحة تتلأأ كالحصيات الصغيرة الخارجية فوراً من الماء ، وتُعرض أرغفة الخبز من جميع الكثافات والأنواع في واجهة المحل : فهناك أعداد لا تحصى من الأشكال تباع خلال ساعات مختلفة من النهار وبحسب وقعات الطعام وجميع هذه الأرغفة ساخنة وكأنها من العجين مطلية بالعسل وذات نكهة رائعة » .

ولا يغفل عن ملاحظة المنجزات الرائعة « . . . ففي وسط سوق دمشق الكبير وجدت أجمل خانات الشرق ، خان أسعد باشا الذي تُذكرني قُبته العالية بقبة القديس

بطرس في روما » وينهي لامارتين زيارته لدمشق بهذه اللمسات الرومانسية قائلاً :
« لقد خرجنا من دمشق من باب آخر غير الذي دخلنا منه ، ضمن طريق تحيط به
البساتين الجميلة وعلى حواف سيول من المياه التي تظللها الأشجار الباسقة . . ومن
ثم تسلقنا الجبل الذي شاهدنا منه تلك الإطلالة الرائعة لدى دخولنا إلى دمشق .
فتوقفنا للتأمل كي نخترن في أعماقنا صورتها الخالدة . . ! وأتئذ أدركت لماذا
الأعراف والتقاليد العربية تحدد الفردوس الضائع في دمشق إذ لا شيء على مدار
الكرة الأرضية ، يذكرنا بجنت عدن أكثر منها . . فالسهل الواسع الخصيب وفروع
النهر السبع والبحيرات الرائعة التي تعكس السماء على الأرض . . وموقعها الجغرافي
بين البحرين (ولعله يقصد المتوسط والأحمر) والمناخ الرائع . . كل شيء يُشير
على الأقل ، لماذا كانت دمشق إحدى المدن الأوائل التي صاغها يد الإنسان ! »

وقد استخدمت كلمة الخان ذات الأصل الفارسي منذ بداية العصر الإسلامي
للإشارة إلى الخانات التي أقيمت على الطرق بين المدن ، ثم أطلقت على الخانات
التي أقيمت داخل المدن تلبية للحاجة المتعاضمة .

وتنقسم الخانات من حيث الملكية إلى ثلاثة أنواع : سلطانية ، أي أنها كانت
ملكاً للسلطان أو الدولة يقيمها ولاة الأقاليم بناءً على أمر من السلطان نفسه ، وفي
العهد العباسي كان الوزراء يكلفون ببناء الخانات لأهداف عسكرية أو تجارية أو
بريدية أو لإيواء الحجاج .

والنوع الثاني ، هو الخانات الخيرية التي أنشئت لتقدم الموارد الثابتة للمؤسسات
التربوية أو الخيرية .

والنوع الثالث ، هو الخانات الخاصة التي ينشئها الأثرياء والتجار وأصحاب
النفوذ والمال لاستثمارها من أجل الربح .

في تاريخ دمشق ، أنها شهدت في العهد الأموي إنشاء خان واحد في القرن
الثامن الميلادي ، سمي دار الضيافة ، وأقيم في القرن التاسع خان عباسي ، أطلق
عليه اسم (فندق أماجور) ، وأقيم في القرن العاشر خان عباسي آخر ، وصف بأنه

خان البطيخ ، ثم أطلق اسم القيسارية على خانين أقيما في العهد الفاطمي ، وعندما حل عهد نور الدين محمود بن زنكي البطل الإسلامي الذي وحد الشام ومصر ، صعد عدد الخانات أو القيساريات إلى ٢٢ دفعة واحدة تبعاً لتطور دور دمشق مع قيام وحدة الدولة وازدهار التجارة بين مصر والشام والعراق .

وفي العصر الأيوبي أنشئ حوالي / ٢٥ / قيسارية أو خاناً ، غير أن العصر المملوكي شهد الرقم القياسي في بناء القيساريات أو الخانات وبلغ عدد المشيد منها أكثر من / ١٧٠ / عرفت أسماؤها ومواقعها .

وفي العصر العثماني شُيّد حوالي / ٨٠ / خاناً ، وغابت تسمية القيسارية وأصبح الخان هو التسمية العامة لهذه المنشآت التجارية أو السياحية أو العسكرية .

وتعددت وظائف الخانات حسب الحاجة ، ولكن التخصص التجاري كان أهمها ، ومن أهدافه إيواء القوافل وتخزين السلع وإعداد دكاكين للعرض والبيع .

أما الخانات المشيدة لأغراض عسكرية ، فأكثرها أقيم على الطرق بين المدن وزوّدت بالأبراج والمرامي والتحصينات وغرف الحرس لحماية الطرق ، وشيدت خانات مزودة بمراكز للبريد وأبراج للإشارة بواسطة المشاعل ، ومراكز لإطلاق الحُمّام ، وتخصصت أصناف الخانات بأعمال الفنادق ، فكانت تستقبل المسافرين وتؤمن لهم المبيت ، وفيها أجنحة للعائلات والنساء ومساجد للصلاة ومطابخ لطهي الطعام ، وحمّام للاغتسال ، وأحياناً تضم مقهى لتناول المرطبات والشراب .

وهناك خانات تحولت إلى مشاغل للحرفيين تصنع فيها منتجات مختلفة وتباع أو تخزن بانتظار التسويق .

وفي القرون الأخيرة خصصت خانات للتجار الأوروبيين يقيمون بها على حدة ، وتحول بعضها إلى قنصليات أوروبية رسمية معترف بامتيازاتها .

غير أن الخانات ، بوجه عام ، لم تتقيد بوظيفة معينة ، بل تحولت مع الزمن وتحت ضغط الحاجة ، فتحول بعضها إلى مدارس أو ثكنات أو مساكن أو مشاف أو مخازن للحبوب أو الذخائر ، وفي عصرنا تحولت خاناتٌ إلى متاحف أو مصارف ،

وقد تعرضت مؤسسة الخان إلى ضربة قاسية في القرن التاسع عشر بعد افتتاح قناة السويس وظهور السفن التي تسير بالبخار ، ومن ثم تحولت طرق التجارة إلى عرض البحار ، ثم جاءت الضربة الثانية مع ظهور السيارات التي تعمل بالنفط ، وزوال ظاهرة القوافل وتبدل خارطة الطرق التجارية العالمية .

وما تبقى من الخانات في أسواق دمشق القديمة أصبحت محمية باعتبارها من الأبنية الأثرية التي تتحدث عن الماضي ، ومع أنها ما زالت تمارس الوظائف التجارية فإن طابعها وأساليب توظيفها تبدلت إلى مشاغل ودكاكين ومكاتب ومستودعات ، وأصبح عددها قليلاً لا يقارن مع ما كانت عليه في العهود الأيوبية والمملوكية حيث بلغت مائتين وخمسة وثمانين خاناً لمختلف الاختصاصات التجارية والفندقية والعسكرية والبريدية .

في هذا العصر توجد الخانات الهامة في منطقة الأسواق المركزية التي لا تزال قائمة إلى الشمال والغرب من دمشق القديمة داخل الأسوار ، وبصورة خاصة في أسواق مدحت باشا والبزورية ، والصاغة والحريير والخياطين ، حيث تمارس وظائفها وسط أماكن الكثافة التجارية والحرفية والصناعية ، وتعد نماذج جيدة لهذا النوع من المنشآت التاريخية التي صمدت على مر العصور التاريخية وأصبحت جزءاً من التراث المعماري والأعمال الفنية العربية التي نفذها معلمون مهرة مخلصون في عملهم مصممون على إتقانه .

وفيما يلي لمحة عن أهم الأسواق السابقة وأشهرها :

سوق الحميدية :

من أشهر وأجمل أسواق العالم ويمتد من الغرب بجانب قلعة دمشق إلى الشرق باتجاه الجامع الأموي .

بناء السوق :

بني هذا السوق بديلاً عن سوق الأروام ، فوق الخندق الجنوبي لقلعة دمشق من الغرب إلى الشرق ، بين باب النصر وباب البريد ، وتم البناء على مرحلتين :

المرحلة الأولى : بني خلالها قسمه الغربي الممتد بين باب النصر (عند المدخل الغربي لسوق الحميدية الحالي) وسوق العصريونية أيام الوالي محمد باشا العظم في عهد السلطان عبد الحميد الأول ، وتم البناء سنة (١١٩٥هـ / ١٧٨٠م) وعرفت هذه السوق باسم (السوق الجديدة) .

المرحلة الثانية : بني القسم الشرقي الممتد من سوق العصريونية حتى باب البريد سنة (١٣٠١هـ) الواقعة بين ستي (١٨٨٣ / ١٨٨٤م) ، أيام الوالي راشد ناشد باشا في عهد السلطان عبد الحميد الثاني .



صورة سوق الحميدية عام (١٨٩٠م)

تغطية السوق :

استبدل الوالي (حسين ناظم باشا) سقف هذا السوق الخشبي وسقوف الأسواق الكبيرة الأخرى بأسقف من الحديد والتوتياء ، وقاية لها من الحريق .

وصف السوق :

تباع في سوق الحميدية كل أنواع المنتجات النسيجية ذات المنشأ المختلف ، إلى جانب التحف الشرقية ومحال المرطبات ، (وما زلت أذكر محل دامر الشهير في منتصف السوق من جهة الحريقة ، الذي كانت تدوي في أرجائه أصوات مدقات قرع البوطة الخشبية الطويلة ، عندما تهبط بعنف شديد فوق الكتلة الموجودة في جرن معدني بغية تكثيفها ، وكانت للبوطة تسميات مختلفة ، مثل (القيمق) و (القيمق عرب) وهي البوطة بالقشدة ، ثم (الضوندرما) وهي لفظة تركية أيضاً . إلى جانب ما ذكرت ، كان في هذه السوق محلات الحلويات والمطاعم (الأمراء وأسدية) التي تخصصت في تقديم (صرر الأوزي) وهي (رقاقت من العجين تضم الأرز واللحم والبازلاء) ، إلى جانب الخروف المحشي والمناسف بأنواعها لكل المناسبات من أفراح وأتراح .

تسميات السوق :

سمي القسم الغربي ، بين باب النصر وسوق العصرية (بالسوق الجديدة) ، وكان هذا الموضع معروفاً في السابق (بسوق الأروام) ، ولم تطلق تسميته (سوق الحميدية) على كامله نسبة للسلطان عبد الحميد الثاني ، إلا بعد استكمال بناء قسمه الشرقي الممتد من سوق العصرية حتى باب البريد .

أبعاد السوق :

يبلغ طوله حوالي (٦٠٠ م) وعرضه بحدود (١٥ م) أما الارتفاع فبحدود طابقين .

المحن التي مرت بالسوق :

شب حريق في سوق الحميدية عام (١٣٢٩هـ / ١٩١١م) ، وكان حريقاً كبيراً أتى على كثير من المحال التجارية ، وكانت الخسائر جسيمة ، وفي عام (١٣٣٢هـ / ١٩١٤م) حاول جمال باشا إيصال الشارع المسمى باسمه (شارع

النصر حالياً) ، إلى باب البريد بتغيير أوضاع السوق سوق الحميدية ، بغية كشف جدار قلعة دمشق وما حول الجامع الأموي ، فهدم بعض الأبنية في السوق ، ولم يتمكن من هدم الباقي بسبب الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ / ١٩١٨ م) ، وما كاد الجيش العثماني ينسحب من دمشق حتى قام أصحاب العقارات المهدومة بإعادة بنائها .

وفي (٢٧ تموز سنة ١٣٣٨هـ / ١٩٢٠ م) شب في سوق الحميدية حريق هائل أيضاً بدأ من محلات (سنجر لماكينات الخياطة) في منتصف السوق ، وامتد إلى العسرونية وخان الجمرک ، وكادت النار تصل إلى الجامع الأموي بعد استمرارها ثلاثة أيام متواصلة ، حتى اضطرت الدولة إلى هدم العديد من البيوت (نسفتها بالديناميت) ، بغية إيقاف النار ، كما ورد في (تاريخ المسرح السوري لوصفي المالح) .

هدم المدخل الغربي للسوق :

بدأت عمليات الهدم في (١٦ / ١٠ / ١٩٨٣ م) بغية كشف الجزء الذي كان يشغله هذا السوق من خندق القلعة وزاوية جدارها الجنوبية الغربية .

تجديد أسواق الحميدية ومدحت باشا والخوجة وعلي باشا :

في سنة (١٣٠٢هـ / ١٨٨٤ م) تجدد بدمشق سوق الحميدية الممتد من الباب الغربي للجامع الأموي المعروف بباب البريد إلى باب دائرة المشيرية غرباً ، ولم يكن لهذا السوق نظير بعموم البلدان ، فقد سقّف على طراز سقّف مدخل باب الجامع الأموي الغربي ، المسمى (بالزلحفة) .

ولقد نسب هذا السوق إلى الخانقاه والمدرسة الأحمدية التي كانت قائمة في موقع جامع الحميدية الذي نسب إليهما ، وأنشئ السوق على مراحل متباعدة ، ساهم بأهمها والي دمشق محمد باشا بن مصطفى العظم : (١١٤٣هـ / ١٨٩٠ م) .

وله منشآت عمرانية كثيرة وهامة بدمشق ، وسَقَفُ الوالي حسين ناظم باشا بالتوتياء ، وهو من أجمل أسواق دمشق وبلاد الشام وأهمها ، في كل العصور

القديمة والحديثة . انظره في : خطط دمشق للأستاذ أكرم العلي صفحة : (٤٥٨ - ٤٦٠) . يبلغ طوله حوالي (٦٠٠) متر ، وعرضه بحدود (١٥) متراً ، أما ارتفاعه فبحدود طابقين .



صورة لسوق الحميدية

ومنذ منتصف عام (٢٠٠٢ م) ، بدأت دمشق تشهد جهود عمل حقيقية لإعادة الحياة إلى سوق الحميدية ، وهي جهود تجلت فيها غيرية الجهات الخدمية بالتعاون مع تجار السوق ، لإنجاز أجراً مشروع يعيد الصورة الحقيقية لسوق الحميدية ، بإظهار الأعمدة والتيجان التي فيه كما كانت قبل عام (١٨٩٠ م) .

وتدريجياً ، أخذت الجهود المبذولة تظهر الوجه الجمالي لواجهات المحلات التجارية بعد إزالة الإشغالات التي غطت ، لفترة طويلة ، الأصالة والعراقة لسوق ، شكّل تحفة في غاية الروعة والجمال .

إنها إرادة محافظة دمشق في إحياء تراث المدينة القديمة ، وذلك عندما بدأت بمشروع متكامل جددت فيه البنية التحتية ، فاستبدلت شبكات الصرف الصحي ومياه الشرب والهاتف والكهرباء للسوق مُلغيةً بذلك الشكل العنكبوتي لشبكات الخدمة التي كانت تغطي واجهات المحلات وتهدد بين الفترة والأخرى بنشوب الحرائق .

وأثناء العمل في مشروع إعادة تأهيل البنية التحتية لسوق الحميدية وتجميل نسيجه المعماري ، تم كشف قضية في غاية الخطورة كانت تهدد كامل السوق ، ويعود سبب ذلك لعدم وصول يد الصيانة إلى شبكة الصرف الصحي لسنوات طويلة ، وأثناء الحفريات تبين أن الشبكة المهترئة خالية من مياه الصرف التي أخذت تسرب تحت الأبنية لتشكل أحواضاً من المياه الآسنة تهدد المحلات التجارية حيث بدت فيها التصدعات بصورة واضحة .

ويبدو أن خطر تسرب مياه الصرف الصحي قد طال المدينة القديمة بمعظمها ، وخاصة الأجزاء التي لم تجدد فيها الشبكة منذ اعتمدت الأقنية الرومانية . ولعل المتابع لعمليات إزالة الأتربة في جسم النفق المقابل لمدخل السوق يتضح له بجلاء تشبع التربة بالمياه الآسنة .

إن القيام بمشروع تأهيل السوق كشف الوضع المتردي لشبكة الصرف الصحي التي استبدلت في الوقت المناسب ، وهو ما استدعى الإسراع بوضع خطة متكاملة لتجديد البنية التحتية في المدينة القديمة كلها لحمايتها من التصدع وخطر الانهيار المحتمل . فقد اتضح أن المدينة القديمة تتربع على بؤرة من المياه الآسنة التي تسرب تحت الأبنية ، نظراً لعدم صلاحية وقدم شبكة الصرف التي تبين أنها خالية من المياه تماماً ، ما يؤكد أن المياه الناتجة عن النشاط البشري تذهب تحت الأبنية وهذا يهدد مستقبل هذه الأبنية بالسقوط .

وهكذا ، ولأول مرة ، تم استبدال خط مجرور الصرف الصحي القديم بخط جديد مما يحمي الأبنية من التعرض لخطر التصدع والانهيار بسبب تسرب المياه . كما قامت مؤسسة مياه الفيحة باستبدال الشبكة القديمة حيث استُبدِل الخط الرئيسي بسرعة قياسية لحماية مياه الشرب من التلوث .

إلى ذلك ، أزال مشروع تجديد سوق الحميدية ، كلّ التعديات على الأملاك العامة والتجاوزات على الأرصفة ، وهجوم واجهات المحلات التجارية وبروزها بصورة عشوائية غطت عظمة الأعمدة الموجودة في السوق وجمالها .

ثم جرى التعاون مع استشاريين معماريين متخصصين بالتراث ، لإعادة الأعمدة والتيجان التي غطيت بالمخالفات والتجاوزات . واستمر النشاط الملفت للنظر في حماية مدينة دمشق من العبث ، ومن اللامبالاة في الإساءة إلى تاريخ هذه المدينة من خلال الأمزجة والأهواء ، حتى أطل سوق الحميدية بحلته الجديدة العريقة في آن واحد ، أي عاد إليه وجهه القديم شاباً ، وقد تجدد ، وإن هذه العملية إذا قيِّمت بتجرد ، تعد أجراً عملية تجديد لتراث المدينة نفذت حتى الآن .

وقد اغتنم معظم أصحاب المحلات التجارية فترة تجديد السوق للقيام بترميم محلاتهم وفق الطراز المعماري الأصلي للسوق ، خاصة وأن تلك المحلات عانت من تشققات في البلاط والواجهات الخارجية .

وبعد ، فهذه الجهود مهدت لإعادة دمشق القديمة إلى سابق عهدها مركزاً تجارياً وسياحياً يستقطب الناس مواطنين وسياحاً للاطلاع على عظمة هذه المدينة وتاريخها ، وسيكون هذا المشروع أعظم فائدة ، خاصة إذا استكملت أعمال ترميم جميع الطرقات الضيقة والمحافظة عليها ، ورصفها كما كانت بالحجر ، على النسيج العمراني القديم للحواري العتيقة التي تتعانق فيها الأبنية ، وكأن دمشق القديمة عائلة واحدة .

ومن أحدث أعمال الترميم التي طرأت على سوق الحميدية ، نعود إلى الوراثة قليلاً لنتابع أعمال ترميم جرت على أسواق أخرى مجاورة أو متفرعة من الحميدية ، في أوقات سابقة ، ففي سنة (١٣٠٨ هـ / ١٨٩٠ م) تجدد أيضاً إعمار سوق مدحت باشا المبتدئ أوله من سوق باب الجامعة ، تجاه منارة جامع سييبي الواقع في أول سوق الدرويشية ، وآخره متصل بأول سوق مئذنة الشحم الممتد إلى محلة النصارى ، بالطريق الموصل إلى الباب الشرقي لمدينة دمشق القديمة ، وذلك على طراز سوق الحميدية . وكان اسمه قديماً (السوق الطويل) ، وكان في هذا السوق عند بدايته حمام يسمى حمام المرادنية ، وكان من أجمل حمامات دمشق وأشهرها ، وكانت به جملة بيوت درست جميعها بعد إنشاء هذا السوق .

الشارع المستقيم « السلطاني » :

سوق مدحت باشا :

كان هذا الشارع يمتد من الباب الشرقي حتى باب الجابية بطول ١٦٠٠ متراً تزينه أعمدة رومانية ضخمة على جانبيه لا يزال في أكثر أجزائه يحافظ على اتجاهه وإن ارتفعت مستوى الأرض لأكثر من خمسة أمتار ، فهناك على عمق خمسة أمتار لا تزال الأرض تحتفظ بحجارتها السوداء وقد برز منها القوس الروماني الذي مر منه القديس بولس والكثير من بقايا الأعمدة وقواعد الأقواس التي زال أكثرها .

فتاريخ دمشق موغل في القدم إلى ما قبل العهد الآرامي وفي المنطقة يرجح وجود القصر الملكي جنوب المدينة في تل السماكة المشطور بالشارع المستقيم .

وفي العهد الآرامي أنشئ سور جديد ليحمي المدينة من الغزاة . وحدثت بعض التغييرات على المدينة القديمة خلال الفترة اليونانية والفترة الرومانية حيث أصبح في الشارع المستقيم (ديكومانوس) بعض انحرافات في منطقة (الخراب) وفي الفترة الأموية حدث بعض التغيير ، ولكنه في أغلبه لم يؤثر على النسيج المعماري فقد بقيت أغلبية الأنشطة التجارية متمركزة على المحور الأصلي الشارع المستقيم .

والآن هو سوق غنية بشتى البضائع والخانات الأثرية ويسمى (سوق مدحت باشا) وسماه الرومان (فيكس دكتوس) وهو من أهم ما في دمشق بالنسبة للسائح المسيحي وربما كان هذا الطريق من أقدم الطرق الأثرية القديمة التي ما زالت تستخدم حتى يومنا الحاضر .

ويعد سوق مدحت باشا أحد أهم العناصر المكونة للمدينة القديمة وقد تركزت في السوق خلال الحقب التاريخية مختلف الوظائف المعيشية التجارية ، بل حتى الدينية والسياسية للمدينة واحتوى هذا السوق إضافة إلى مجمل الحوانيت والدكاكين والبسطات التي اتخذها أصحابها لممارسة تجارتهم أو حرفهم على خانات ومساجد وكنائس ما يؤكد على أهمية هذا المحور . وقد جدّده والي دمشق رؤوف بك سنة (١٣٠٨ هـ / ١٨٨٨ م) . . .

وقد كان سوق مدحت باشا من أقدم أسواق دمشق ، ويعرف بالسوق المستقيم والسوق الطويل ، نظمه والي دمشق مدحت باشا بعد سنة (١٢٩٥هـ / ١٨٧٥م) ثم جدّده واليها رؤوف بك سنة (١٣٠٨هـ / ١٨٨٨م) وفي سنة (١٣٢٣هـ / ١٩٠٦م) سُقِفَ بالتوتياء من مدخله الغربي عند باب الجابية ، حتى آخره عند مئذنة الشحم ، واصطفت على جانبيه الحوانيت التجارية المختصة ببيع الأقمشة والعباءات بأنواعها ، وفي نهايته محلات لبيع العطارة والبهارات ، وفيه خمسة خانات ، وقد بني فوق سوق قديم . انظره في : خطط دمشق للأستاذ أكرم العلي صفحة (٤٥٥ و ٤٥٦) .

وفي سنة (١٣٢٣هـ / ١٩٠٦م) ، تجدد السوق المعروف بسوق الخوجة المنشأ على الطراز الحديث ، في محل عرصة خندق قلعة دمشق الغربي ، الذي ابتاعه راغب بن رشيد الخوجة من الدائرة العسكرية ، وشارك في تعميره أحد المسيحيين المعروف بابن الأصفر . ولهذا السوق البديع أربعة أبواب ، أولها في مبتدأ سوق الأروام ، والثاني تجاه سوق النحاسين ، والثالث هو النافذ من باب القلعة القديم إلى اتجاه سوق القميلة وجامع السيد خليل ، والرابع المقابل لجامع السنجدار ، وهذا السوق من ألطف أسواق دمشق الحديثة جداً .

وسوق الخوجة أو (سوق الخجا) ، هو سوق يغلب عليه صناعة الحقائق بأنواعها ومقاييسها المختلفة ، لطلبة المدارس ، والسفريات ، والنسائية ، وللقود ، وهي على أنواع مختلفة ، جلدية وبلاستيكية ونایلون . دَرَسَ هذا السوق سنة (١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م) ، وكان قد أنشأه راغب بن رشيد الخوجة بدعم من والي حسين ناظم باشا سنة (١٣١٣هـ / ١٨٩٣م) ، وقد بني على نمط سوق الحميدية بطابقين ، العلوي مشاغل ، والسفلي متاجر مخصصة لبيع الملابس العسكرية ولوازمها ، إضافة إلى الحقائق الجلدية ، وكذلك لبيع أشغال (الخرز) التي كان سجناء القلعة يصنعونها كحقائب اليد النسائية و (المسابح) ونرايش النرجيلة (الأركيلة) التي كانت تصنع في غاية الإتقان والجمال .

ولقد هدم هذا السوق ، كما سبق ، أواخر عام (١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م) لكشف جدار القلعة وخذقها الغربيين ، وأنشئ بدلاً عنه بناء اسمتي مرتفع في شارع الثورة ، سنة (١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م) الممتد ما بين شارع بغداد ومحلة السنجقدار مخترقاً سوق ساروجا ، ويقع شمالي جامع ست الشام الأيوبية وسوق العتيق ، ومدرسة سيد قريش ، وجسر الزرابلية .

منذ مطلع هذا القرن امتهن عدد كبير من سجناء قلعة دمشق أعمال (الخرز) لملء فراغهم ، وانتجوا منها قطعاً ملونة في غاية الجمال والجدة ، (كالمسابع وحقائب اليد النسائية و(جزادين) صغيرة للعملات وأنطقة للوسط ، وما شابه ذلك ، وقد لاقت هذه المنتجات رواجاً شديداً لدى السواح الذين كانوا يقصدون (سوق الخجا) لاقتنائها ، باعتباره المكان التقليدي لبيعها ، حيث وجدت فيه عدة محال تخصصية تجمعت عند مدخل القلعة الرئيسي من هذا السوق .

وفي سنة (١٢٩٦هـ / ١٨٧٩م) ، تجدد سوق علي باشا البديع بظاهر دمشق ، النافذ من الساحة الكائنة تجاه دوائر الحكومة والبلدية والعدلية أي (ساحة المرجة) إلى ساحة سوق الخيل والطريق الموصلة إلى محلة (سوق ساروجا وخلافها) .

وفي سنة (١٣٢٥هـ / ١٩٠٨م) أبطل الحمام المسمى بحمام القيشاني الواقع لجهة غرب قبلة الجامع الأموي ، وتجدد بمحله سوق الحرير ، وفاق جميع الأسواق ، حتى إنه لم يرخص بدخول الحيوانات المحملة بالخضار والفاكهة والسلع التجارية للبيع المتجولين ولا مرورها منه ، كونه قد رُصِفَتْ أرضه بالرخام والمرمر ، وتوسطته بركة ماء من ألطف مصنوعات المرمر بنافورة جميلة وأنيقة .

سوق السروجية :

سوق قديم مغطى بساطر قوسي من الحديد والتوتياء ، يمتد بين جادة السنجقدار بجوار سوق الزرابلية وشارع الملك فيصل ، بعد أن ينعطف إليه بزاوية قائمة وهو يسير محاذياً لجدار القلعة الشمالي ، وبينهما (قناة العقرباني) من نهر بردى عند ساحة المرجة .

ورد ذكر هذا السوق عند ابن عبد الهادي بقوله : (سوق السروجيين غربي القلعة يباع فيه السروج وآلة الخيل ، ومن هنا أطلق عليه هذا الاسم ، ويباع فيه أيضاً ما يسمى (بيت الفرد ، وجناد الفشك) والخيم ، والشوادر بعد أن تقلصت مهنة صنع السروج .

سوق الزرابلية :

كان امتداد هذا السوق في الأصل بين خان الباشا وسوق التبن شمالاً ، وجادة السنجقدار وسوق سروجيه جنوباً ، وذلك قبل تنظيم المنطقة وفتح شارع الثورة فيها سنة (١٩٧٤ م) . وقد ورد اسم الزرابلية لأول مرة عند ابن الهادي بقوله : (سوق الزرابلين) ، ولهم سوقان ، سوق بالرصيف (بباب البريد ، وسوق بالعقبة) ، مما يدل على وجود سوقين بنفس الاسم ، في موضعين مختلفين ، إبان العهد المملوكي ، وربما كانا أقدم من ذلك .



وذكره القساطلي عند تعداده لأسواق العهد العثماني دون أن يحدد موضعه وقال : (سوق الزرابلية احترق من عشر سنين أربع مرات) ، وباعتبار أن القساطلي نشر مؤلفه لأول مرة عام (١٨٧٩م) ، يمكننا الاستنتاج أن احترق السوق قد تم أواخر الستينيات من القرن التاسع عشر . وفي حديثه عن الزرابيلي يقول : (هو اسم لمن يصنع الزرابيل ، جمع زربول ، وهو اسم غير عربي ، هو مداس كبير غليظ يصنع في سوق مخصوص يسمى الزرابلية ، وهذا المداس ربما يبقى في رجل الفلاح سنين عديدة نظراً للغلظ نعله الأسفل) .

وحدد العلاف موقع السوق حيث هو الآن فقال : هو متفرع من سوق العلافين أو سوق التبن إلى ساحة البحرة المدورة ، حيث ترى منفذين ، أحدهما إلى اليمين ويدعى الزرابلية وفيه كانت تباع أحذية المزارعين ، وينتهي بجادة السنجقदार .

وتبين لي عند زيارتي الميدانية لموقع هذا السوق أن معالمه القديمة تغيرت بعد تنظيم المنطقة كما أسلفت ، إذ اختفت حوائته القديمة وبقي منه الاسم فقط وبضع محلات حديثة البناء ما زالت تحافظ على اختصاصها في بيع الأحذية ، وأمامها على الرصيف عدد من الإسكافية (مصلحو الأحذية) ، وعند واحد منهم (مكنة) يخطط بها نعلًا جديدًا ، أو ما تلف من الحذاء ، أما الزربول فقد اختفى كلياً ولم يعد له وجود أو ذكر .

سوق التبن :

سوق مكشوف قديم ، يمتد من النهاية الجنوبية لشارع الثورة شرقاً إلى الطرف الجنوبي لساحة سوق الخيل غرباً ، وهو امتداد لشارع الملك فيصل الحالي نحو الغرب .

وردت أول إشارة لاسم سوق التبن في العهد الأيوبي عند (ياقوت الحموي) يقول : (إنَّ دار شداد بن عاد في سوق التبن يفتح بابها شمالاً إلى الطريق ، وإنه كان يزرع له الرياحان والورد وغير ذلك فوق الأعمدة بين القنطرتين ، قنطرة دار البطيخ وقنطرة سوق التبن) . وهذه المقولة تدل على أن سوق التبن قريب من دار البطيخ ،

ونحن نعلم أن دار البطيخ في منطقة (تحت القلعة) وهي المنطقة التي كانت ممتدة بين سوق الهال وسوق الخيل إلى جامع يلغا في ساحة المرجة ، وعلى هذا ، فلا بد أن يكون موقع سوق التبن في هذه المنطقة .

وأشار إليه العلاف أواخر العهد العثماني وسماه (سوق العلافين) ، نسبة لما كان يباع فيه من العلف وقال : (ومنه إلى سوق العلافين) ، ويقصد من سوق الخيل ، وعلى طرفيه بعض المقاهي وحوانيت بيع الحبوب والدواجن من الطيور والدجاج والأرانب والحمام وما شابهها ، وهذا الوصف ينطبق على موقع السوق الحالي ، الذي تباع فيه أيضاً العصافير المغردة والبيض والقفف والسلاسل والمكانس (المقشات) .

ساحة سوق الخيل :

تقع هذه الساحة التي كانت في يوم من الأيام سوقاً للخيل إلى الشرق المجاور لساحة المرجة ، ويفتح فيها من جهة الشرق سوق العتيق ومن الجنوب سوق التبن ، على امتداد شارع الملك فيصل ، ومن الشمال زقاق جوزة الحدياء الآخذ إلى سوق ساروجا .

ورد ذكر هذه الساحة باسم (سوق الخيل) في مؤلفات العهد المملوكي التي تحدثت عن أسواق منطقة (تحت القلعة) ، مما يدل على وجودها في تلك الحقبة سوقاً لتجارة الخيول ، وربما كانت أقدم من ذلك ، لأن قلعة دمشق شيدت في العهد السلجوقي سنة (٤٦٩هـ / ١٠٧٦م) ، ومن الطبيعي أن تنشأ حولها الأسواق ، ولكننا لا نملك الدليل على ذلك . وقد اختفى هذا السوق نتيجة انتشار (المكننة الآلية كالسيارات وما شابه ذلك) ، وتحولت تلك الساحة إلى مواقف للعربات والحمير البيض المعدة للنقل والإيجار .

ومن الأسواق التي كانت تفتح في ساحة سوق الخيل ، في ذلك العهد ، سوق (علي باشا) الشهير بالفواكه المتنوعة وما شابه . أما اليوم ، فقد غدت ساحة واسعة لبيع الخضر والفواكه ، وقد ورثت تخصصها من سوقي (الهال وعلي

باشا) ، وأقيمت فيها سرادقات على شكل مربع كبير تغطيه سقوف هرمية من البلاستيك البرتقالي اللون ، ينتشر تحته باعة الخضار والفواكه التي يعرضونها بترتيب جميل ملفت للنظر . وقد أطلق تجار السوق مؤخراً على هذه الساحة (سوق علي باشا) تخليداً لاسمه ، ولجودة معروضاته من الفواكه التي ميزته عن سائر أسواق المدينة .

ومن الحوانيت التراثية المعروفة في هذه الساحة ، حانوت (برو العطار) ويرجع إلى نهايات القرن التاسع عشر ، وكان صاحبه إبراهيم من أشهر من مارس تجارة العطارة في العهد العثماني .

سوق علي باشا :

يقع هذا السوق في منطقة (تحت القلعة) ، ويمتد بين ساحة المرجة ، وساحة سوق الخيل ، بناه (علي باشا الموره لي) أحد وجهاء دمشق سنة (١٢٩٤هـ / ١٨٧٧م) أيام الوالي عمر فوزي باشا ، في عهد السلطان عبد الحميد الثاني ، كما بنى فوقه فندقاً صغيراً ، ما جعله سوقاً مسقوفاً ، ووجد سنة (١٢٩٦هـ / ١٨٧٩م) إبان الولاية الثانية لأحمد حمدي باشا ، هدم في النصف الثاني من أربعينيات هذا القرن أو مطلع خمسينياته .

تخصص السوق ببيع أجود أنواع الفواكه الطازجة والمجففة ، ومن الطريف أن بعضاً من هذه الفواكه كانت تؤجر إلى دور اللهو (الكباريهات) في المساء وتعاد إلى السوق في الصباح ، دون المساس بها ، على اعتبار أنها للمنظر فقط ، (بالعامية للصباة) . كما تعرّض السوق للعديد من طوفانات نهر بردى ، فكانت المياه تغمره وتلف محتوياته وممتلكاته وما جاوره من دور ومحال تجارية وأحياء قريية .

سوق العتيق :

يمتد سوق العتيق بين النهاية الجنوبية لشارع الثورة وساحة سوق الخيل ، ويوازي في استقامته سوق التبني ، لم يرد ذكر هذا السوق في مؤلفات العهد المملوكي ، ولكن هذا الأمر لا ينفي وجوده في ذلك العهد باسم آخر ، والشيء

الوحيد الذي يدعم هذه الفرضية هو وجود سوق التبن المعروف منذ العهد الأيوبي إلى اليوم ، بجواره كبقية الأسواق التي كانت في هذا الموضع ، إضافة إلى أن اسم (سوق العتيق) الذي ظهر لأول مرة في العهد العثماني ، يشير إلى كونه سوقاً قديماً أو مغرقاً في القدم ، لكننا لا نملك الدليل على ذلك سوى التخمين والافتراض .

وكانت أول إشارة لاسم هذا السوق قد جاءت من العلاف بقوله : (والمنفذ الثاني ، ويقصد ساحة البحرة المدوّرة ، ينتهي إلى سوق العتيق ، وفيه تباع أنواع اللحوم والخضر ، ويعود لينتهي في سوق الخيل ويتصل بجادة جوزة الحدباء إلى سوق ساروجة) . وهذه المقولة تنطبق على موقع السوق حالياً .

سوق المحايرية :

كان موقع هذا السوق على امتداد الرصيف الحالي الواصل بين سوق السروجية وسوق الحدادين ، عند شارع الملك فيصل ، قبالة النهاية الجنوبية لسوق الهال . ذكره القساطلي بقوله : سوق المحايرية به يعملون المحاير والصناديق البسيطة للفواكه ، ووصف العلاف موقع هذا السوق عند حديثه عن أسواق دمشق فقال : (ومنه تصل - ويقصد من خان الباشا - إلى سوق المحايرية ، وهو خاص بعمل المحارات والصناديق والخيم) الأمر الذي يدل على استمراره في العهد العثماني .

وعرّف القاسمي صنعة (المحايري) بقوله : (هو من يصنع المحاير ، وهي من الخشب على صفة السرير ، تعمل محامل للحجاج حين سفرهم للحجاز ، وتسمى الواحدة محارة ، وهي شقتان تحملان على ظهر الجمل ، كل شقة بطرف . والمحايري حرفة مهمة ، لها سوق مخصوص بدمشق يعرف بالمحايرية ، وهم يصنعون أيضاً غير المحاير والشباري ، كسحاحير من خشب مخصوصة لتجار المشمش المجفف المعروف (بالنقوع) والقمر الدين ، والعنب وغيرها) .

كما أشارت خارطة شرطة دمشق الصادرة خلال الأعوام (١٩٢٢م - ١٩٢٤م) إلى موقع سوق المحايرية ، وهو يوافق تماماً موقعه الحالي .

سوق الهال :

كان هذا السوق الواسع المكشوف ممتداً بين سوق ساروجا شمالاً وشارع الملك فيصل جنوباً ، وذلك قبل إعمار سوق الهال الجديد في منطقة الزبلطاني حوالي الثمانينيات وانتقاله رسمياً إليه .

أنشئ سوق الهال مخصصاً للخضر والفواكه ضمن حديقة (سامي باشا مردم بك) التي كانت بين خان الباشا ، وجادة القبارين ، وهدم لذلك مسجد (لالا مصطفى باشا) الذي عمّر من جديد في شارع بغداد . وقد أنشئ السوق خلال السنوات (١٩٢٨م - ١٩٣٠م) ، وأطلقت عليه التسمية الفرنسية (HALLE) تشبيهاً له بالسوق الموجود في مدينة باريس الذي يحمل نفس الاسم والتخصص .

وعلى الرغم من انتقال سوق الهال رسمياً إلى موضعه الجديد في (الزبلطاني) - كما أسلفت - ظل الناس يطلقون على هذا الموضع اسم (سوق الهال) ، وظل بائعو الخضر والفواكه ينتشرون في طرفه الجنوبي الآخذ إلى شارع الملك فيصل ، وعلى الرصيف المقابل عند مدخل سوق السروجية . وخلافاً لكل الأسواق في دمشق التي يبدأ العمل فيها بين التاسعة والعاشر صباحاً ، يبدأ العمل في سوق الهال منذ الفجر وحتى الظهيرة ، وقد يستمر البعض من بائعي الفاكهة فيه إلى المساء .

سوق الحدادين :

يشغل هذا السوق النسق الجنوبي من شارع الملك فيصل في الجزء الذي كان يعرف باسم (جادة القبارين) قبل تنظيم الشارع ، ويمتد بين مدخلي سوق السروجية وسوق المناخية . ورد اسم سوق الحدادين لأول مرة عند يوسف عبد الهادي ، الذي حدد مكانه في (باب الجابية وفي الشاغور) ، كما ورد عند ابن طولون (خارج باب الجابية) ، وذكره النعمي دون ذكر لموقعه ، ما يدل على وجوده في العهد المملوكي ، ولكن في موضع مغاير للمكان الذي يشغله الآن .

أما في العهد العثماني فقد أشار إليه العلاف في سياق حديثه عن (قبضيات) ذلك الزمان ، وذكر وقوعه قبيل مدخل جادة المناخ ، وهذا الموضع هو المكان

الذي يشغله الآن ، ومن غير المعروف متى تم انتقاله إليه ، ولكن من الثابت أنه كان فيه خلال العهد العثماني ، وأيام الانتداب الفرنسي ، على الرغم من إعادة تنظيم المنطقة وفتح شارع الملك فيصل في تلك الأيام .

وقد لاحظت عند زيارتي الميدانية لهذا السوق عام (١٩٨٩ م) أن جميع السلع التي تباع فيه كانت من صنع محلي ، فهناك تصنع خزانات الماء والمازوت ، الضخمة منها والصغيرة ، المصنعة من مادة التوتياء ، وكذلك براميل الغسيل والسطول (ومناقل الفحم) وعربات نقل الأتربة والنفايات اليدوية و (قازانات) حمامات المازوت والحطب ، والطناجر الكبيرة المستعملة في (سلق) الحمص والفول وما شابه ذلك وتعرف على ألسنة الناس باسم (الحلل) ومفردها (حلّه) ، والأدوات الزراعية البسيطة ، وأدوات البنائين ، ولوازم اللحامين من (كلاليب) لتعليق ذبائحهم ، وبعض أدوات الروافع الصغيرة (كبكرات) الآبار والسلاسل الحديدية ، وقساطل المدافئ التي يطلق عليها الناس اسم (بوارى الصوبيا) ، ومحامص البن التي تستعمل في الأرياف لتحضير القهوة العربية ، وغير ذلك من الأدوات التي يحتاجها العمال العاديون (كالمطرقة والكريك) أي الرفش و (القظمة) أي المحفار وغير ذلك .

سوق النحاسين :

يتألف هذا السوق من سوقين ضيقين مسقوفين متجاورين ومتوازيين ، يفتحان على شارع الملك فيصل قبالة سوق المناخلية وإلى الغرب قليلاً ، ويتعامدان مع هذا الشارع باتجاه جنوبي شمالي .

ورد ذكر سوق النحاسين عند ابن عبد الهادي ، وقد أشار إلى وجود سوقين ، الأول يباع فيه النحاس تحت القلعة ، والثاني يصنع فيه في باب الفراديس ، كما ذكره ابن طولون وحدد موقعه بتحت القلعة ، ولم يذكر الموقع الآخر ، وأشار إليه النعمي أيضاً ، ويستدل مما تقدم أن هذا السوق كان موجوداً في العهد المملوكي في موضعين : تحت القلعة ، وباب الفراديس المعروف باسم باب العمارة ، وربما كان قبل ذلك في مواضع أخرى لم تصلنا ، فصناعة النحاس من أقدم الصناعات التي عرفها الإنسان .

وفي المصادر التي تتحدث عن الأسواق في العهد العثماني أغفل القساطلي ذكره ، بينما أورده القاسمي دون أن يحدد موقعه ، أما خارطة شرطة دمشق الصادرة خلال الأعوام (١٩٢٢م - ١٩٢٤م) فقد أكدت وجوده في نفس الموضع الذي يشغله الآن وبنفس التسمية ، والطريف في الأمر أن هذه الخارطة أشارت إلى وجود نزل (فندق) ضمن هذا السوق من جهته الجنوبية الآخذة إلى شارع الملك فيصل ، وقد أكد لي المسنون من أهل السوق وجود مثل هذا الفندق ، والطريف في ذلك كيف كان نزلاؤه يتحملون سماع (كونشرتو النحاسيات) التي كانت تعزفها المطارق فيه طوال النهار .



صورة لسوق النحاسين

ما إن تدخل سوق النحاسين حتى تصمّ أذنيك أصوات قصف المقارح الخشبية منها والمعدنية فوق صفائح النحاس بإيقاع متواتر ، يتحول إذا أطلتَ البقاء فيه إلى طنين مستمر ، فالخوانيت متقابلة متقاربة مفتوحة دونما واجهات تخفف الصوت أو الصدى . ويصنعون في هذا السوق أدوات المطبخ النحاسية كالأطباق والمعاجن والحلل الكبيرة ، وفي طرفه الشمالي تصنع (قازانات الحمّام) التي تعمل على المازوت ، والأدوات التريئية كمصبات القهوة ولوازمها من (سماور ومنقل الفحم) وما شابه ذلك ، إلى جانب السيوف العربية .

سوق المناخلية :

يمتد هذا السوق بين سوق العسرونية وشارع الملك فيصل عبر بابي الفرج الداخلي والخارجي مشكلاً بينهما انعطافاً بزائيتين قائمتين ، ويغطيه سائر هرمي من الحديد والتوتياء في معظم أقسامه ، خصوصاً بين البابين ، أما تسميته فنسبة إلى (المناخل والناخلين) أو باعتها .

ورد ذكر سوق المناخلية في مؤلفات العهد المملوكي ، ما يشير إلى وجوده في تلك الفترة ، وربما كان أقدم عهداً من ذلك ، أما في العهد العثماني فذكره القساطلي وهو يعدد الأسواق المتجاورة بقوله : (وسوق الخيل ، وسوق الجمال ، وسوق الخضروية وسوق الحمير وسوق المحاريه وسوق المناخلية ، والبواييجية وكل هذه متصلة مشهورة) .

كما أشار إليه العلاف بقوله : (وفيه باعة الأخشاب والأحذية) ، وأشارت خارطة شرطة دمشق الصادرة خلال الأعوام (١٩٢٢م - ١٩٢٤م) إلى موقعه الحالي .

لاحظت عند زيارتي الميدانية لموقع السوق في عام (١٩٨٩م) أن هجمة الزحف الاختلاطي قد بدأت بالانتشار فيه ، فمتاجر الأحذية الشعبية تتوزع بين متاجر الدهانات ولوازمها ، كذلك حوانيت الأنابيب والأسلاك المعدنية إلى جانب محال بيع الأدوات العسرونية ، كل هذا بين البابين ، أما بعد خروجك من الباب الخارجي باتجاه شارع الملك فيصل ، فيأخذ السوق طابعاً تخصصياً بلوازم النجارين والحدادين والصناع والعدد الصناعية .

ومن المشيدات التاريخية في سوق المناخلية ، باب الفرج الذي شيده السلطان نور الدين محمود بن زنكي الملقب بالشهيد ، ولم يكن موجوداً بين أبواب دمشق الأصلية وسماه بهذه التسمية تفاقلاً ، لما وجد أهل البلد من فرج بفتحه وهو باب مزدوج ، الداخلي منه على حذاء السور ، وقد جدده الملك الصالح أيوب سنة (٦٣٩هـ / ١٢٤١م) في العهد الأيوبي ، أما الخارجي فقد أعيد بناؤه في القرن الخامس عشر ، وكذلك جامع المناخلية أو سنان باشا .

سوق البزورية :

يقع هذا السوق بين قصر العظم شمالاً ومدحت باشا جنوباً ، ويفصله عن الجامع الأموي (سوق السلاح) (والصاغة القديمة) التي احترقت سنة (١٩٦٠ م) وتجري مكانها حفريات أثرية في محاولة للكشف عن قصر معاوية بن أبي سفيان (قصر الخضراء) الذي يعتقد بوجوده في هذا الموضع .

كانت التسمية القديمة لهذا السوق الذي غطي أيام الوالي حسين ناظم باشا بسقف من التوتياء والحديد ، بدلاً من الخشب حماية له من الحريق ، (سوق البزورين) ومع مرور الزمن تحول الاسم إلى (البزورية) نسبة لتخصصه ببيع البزورات المختلفة والتوابل والعطارة ، إلى جانب علب الأفراح و (سَبَتُ العروس) ، وهو تقليد شعبي دمشقي ، يتكون من طبقات من الخشب المزخرف على شكل دوائر مطبقة بعضها فوق بعض ، تملأ بالسكاكر والملبس والمشبك ، يقذف ببعضها العروسان إلى مدعوي العرس ، ويُحمل الباقي إلى غرفة الدخلة لتسلية العروسين . كما اشتهر هذا السوق ببيع منتجات الصناعات السكرية التي تتطلب الكثير من المهارات اليدوية والحس الفني كالنماذج المصغرة من أقفاص الطيور وحقائب اليد وآلة العود وأشكال الورود وغيرها وهي مصنعة من السكر الملون .

وتباع فيه أيضاً الشموع المستعملة في دور العبادة ، والقمر الدين وعصير المشمش المجفف ، ورقاقات الكلاج .

أَتَغْلَغُلُ فِي (سُوقِ الْبُزُورِيَّةِ)

مُبْجَرَأً فِي سُحْبِ الْبَهَارِ

وَعَمَائِمِ الْقَرْنَفُلِ

وَالْقُرْفَةِ . .

وَالْيَانَسُونُ . .

أَتَوْضَأُ بِمَاءِ الْوَرْدِ مَرَّةً

وَبِمَاءِ الْعِشْقِ مَرَّاتٍ



صورة لسوق البزورية

ومن أشهر المشيدات الأثرية في سوق البزورية : خان أسعد باشا ، بناء الوالي أسعد باشا العظم سنة (١١٦٣هـ / ١٧٥٣م) بعد أربع سنوات من بناء قصر العظم وتقوم مديرية الآثار والمتاحف حالياً بترميمه لاستغلاله سياحياً .

وحمام نور الدين الشهيد ، يقع إلى الشمال المجاور لخان أسعد باشا ، وقد اختلفت المصادر في تاريخ بنائه إلا أنها نسبته إلى نور الدين الشهيد ، وهو بلا شك من أقدم الحمامات التي أقيمت بدمشق ، والتي أهملت زمناً طويلاً حتى عام (١٩٧٥م) حين بدىء بترميمه وافتتح مؤخراً ليعود إلى وظيفته الأصلية في استقبال المستحمين .

سوق السنانية :

يمتد هذا السوق بين محلة باب العجابية وجادة سوق الغنم ، ويعود بناؤه إلى القرن السادس عشر للميلاد - نفس الحقبة التي بني بها جامع السنانية - وتوجد فيه

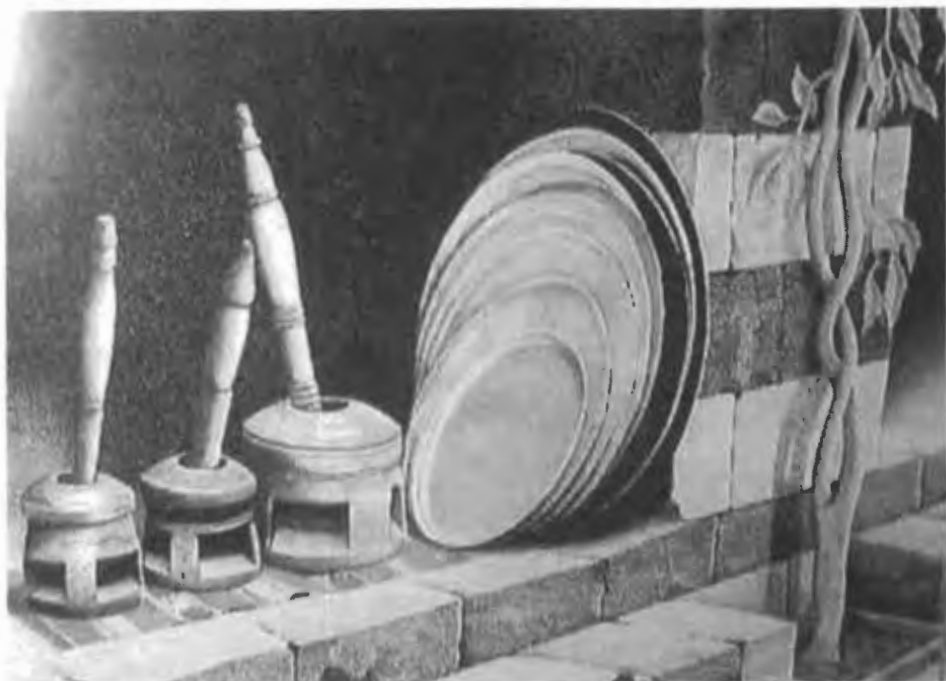
(١٨) قوساً مشيدة من الحجر الصغير تحمل سقفاً (جملوني الشكل) استبدل لاحقاً بالحديد والتنك أو التوتياء (لعله تم في عهد الوالي حسين ناظم باشا عند تغطيته الأسواق الكبيرة بالمعدن) . وما لبث هذا السقف أن تآكل سنة (١٩١٦ م) ولم يبق منه حالياً سوى قسم صغير ممتد من جنوب الجامع حتى سوق الغنم . يقول المؤرخون : بلغ طول هذا السوق حوالي (١٠٥ م) ولعله كان النموذج الأول لأسواق دمشق المغطاة .

من المشيدات الهامة في سوق السنانية (جامع السنانية) الذي بناه الوالي سنان باشا إلى جانب مجموعة عمرانية مشابهة لمجموعة درويش باشا سنة (٩٩٥ هـ / ١٥٨٦ م) في العهد العثماني مكان جامع (البصل القديم) .

سوق الأروام :

يتألف هذا السوق حالياً من مجموعة أسواق صغيرة ضيقة مغطاة تتوزع عند النسق الجنوبي من البداية الغربية لسوق الحميدية ، بما في ذلك شارع أبي عبيدة بن الجراح المؤدي إلى الحريقة ، ويطلق على كامل هذه المنطقة اسم (سوق الأروام) ، والأروام هم اليونانيون أو سكان بلاد السلاجقة التي تعرف أيضاً باسم بلاد الروم في الأناضول (تركيا) الذين أتوا إلى بلاد الشام وشغلوا هذا السوق بدمشق .

لم يرد ذكر هذا السوق في المصادر التي تتحدث عن العهد المملوكي ، وأول إشارة إليه كانت في العهد العثماني ، عندما ذكره البديري الحلاق ثم القساطلي الذي قال عنه بأنه سوق الدلالين ، وسوق النسوان ، كذلك عند القاسمي حيث أورد أن به (الدلال - والمطربازي) ، وهذا الأخير هو من يبيع السلع المنوعة والأمتعة الجديدة والمستعملة أيضاً ، كما ذكر قربه سوق النسوان الذي تأتي النساء إليه بأصناف الملابس وحوائج البيوت فيبيعونها لمن يرغب شراءها من أصحاب السوق أو المارين فيه ، (وهو غير سوق النسوان الحالي في باب الجابية) أما خارطة شرطة دمشق الصادرة خلال الأعوام (١٩٢٢ م - ١٩٢٤ م) فتطلق تسمية (سوق النسوان) على الموضع الذي يشغله الآن سوق الأروام .



صورة صناعات دمشقية

وأما سوق الأروام الذي يحمل التسمية الرسمية كما ذكرت فهو سوق ضيق ، يمتد موازياً لسوق الحميدية من جهة الجنوب من شارع أبي عبيدة إلى شارع عبد القادر الحسيني اللذين يفتحان من محلة الحريقة ، وهو سوق معقود بأقواس من الحجارة تحجب الضوء ما يحمل على الاعتقاد بكونه خاناً قديماً وجد في مواضع دار العدل (دار السعادة) إبان العهد المملوكي .

وتنتشر في هذا السوق حوانيت بيع البسط والمساند المستعملة في المقاعد والدواوين والمفروشات القديمة ذات القيمة التراثية من خزائن وصناديق خشبية محفورة أو مطعمة بالصدف أو ما شابه ذلك ، إلى جانب السجاد العجمي والتبريزي القديم المستعمل وغيره .

والطريف في الأمر منظر (الدلال) الذي يدوس هذه السجاجيد الملقاة على الأرض ذهاباً وإياباً ويطلب من الآخرين أن يفعلوا مثله للتأكد من أصالتها ومتانة صنعها ، وكذلك تباع بالمزاد العلني في هذا السوق المفروشات المعدنية والخشبية وما شابهها .

سوق جقمق :

الأصح جقمق وهو جزء من الشارع المستقيم الروماني وسمي باسم الأمير سيف الدين جقمق الذي بنى فيه الخان الشهير باسمه عام (٨٢٤هـ / ١٤٢١م) . وقد جدد السوق الوالي مدحت باشا عام (١٢٩٥هـ / ١٨٧٨م) وصار يعرف بنفس الاسم . وقد امتد الطريق من باب الجابية إلى البزورية .

سوق العسرونية :

ينسب هذا السوق الذي يقع شرقي القلعة وغربي الجامع الأموي إلى المدرسة العسرونية التي بناها قاضي القضاة شرف الدين أبو سعيد عبد الله بن أبي عسرون بن أبي يسر التميمي الجويني ثم الموصلية الدمشقي ولد بالموصل عام (٤٩٣هـ) وتوفي بدمشق عام (٥٨٦هـ) . وما زال هذا السوق مختصاً ببيع الأدوات المنزلية بشكل خاص .

يمتد هذا السوق من الجنوب إلى الشمال بين سوق الحميدية قبالة زقاق المرستان تقريباً ، وسوق المناخلية ، ذكرته خارطة شرطة دمشق الصادرة خلال الأعوام (١٩٢٢م - ١٩٢٤م) باسم (زقاق البنك) نسبة للبنك الإمبراطوري العثماني الذي كان فيه ، غير أن الشكل الذي رسمته له هذه الخارطة كان مغايراً لشكله الحالي ، إذ كان الموضع مؤلفاً من الزقاق المذكور وسوق مجاور له من جهة الغرب يسمى (سوق القلعة) بينه وبين سوق الطرايشي المسائر لجدار القلعة الشرقي ، الذي يعرف الآن باسم (سوق نصري) .

وعند تنظيم المنطقة في فترة لاحقة ضُمَّ زقاق البنك إلى سوق القلعة ليشكلا سوقاً واحداً هو السوق الذي نطلق عليه حالياً اسم (سوق العسرونية) بعد أن نقلت إليه هذه التسمية من السوق المجاور له من جهة الشرق (سوق البورص الآن) ، حسب

ما ورد في نفس الخارطة .

أطلقت تسمية سوق العسرونية على هذا السوق والمناطق المجاورة له نسبة للمدرسة العسرونية التي كانت تعرف باسم زقاق ابن أبي عصرون رقم (١) الذي يعتبر السوق القديم في المنطقة ، بينما يعتبر سوق العسرونية السوق الجديد المحدث ، ومن الطريف أن البضائع التي تباع فيه هي الأدوات من منزلية ومطبخية وسواها ، وبصورة خاصة تلك التي أصبحت تعرف في زمننا باسم (أدوات العسرونية) واختصاراً (العسرونية) نسبة لتسمية السوق ، كما كان الباعة فيه يعرفون باسم (الخرضجية) .

كان سوق العسرونية ممتداً من سوق الحميدية جنوباً إلى سوق المناخية شمالاً كما أسلفت ، وكان قسمه الجنوبي متخصصاً ببيع بعض المصنوعات الشرقية والنراجيل (الأراكيل) وتوابعها ، والأدوات المنزلية والمطبخية ، ولا يزال إلى يومنا هذا ، أما قسمه الشمالي فكان لتجارة لوازم إكساء البيوت والعدد والأدوات الصناعية ولوازم التجارين وصناع المفاتيح . وفي مطلع الثمانينيات أزيل النسق الغربي لهذا القسم بغية الكشف عن الجدار الشرقي لقلعة دمشق وبابها الرئيسي ، وأبقى على النسق الشرقي منه الذي يمتد حتى سوق المناخية .

مبنى البنك الإمبراطوري العثماني :

شيد البناء سنة (١٣١٣هـ / ١٨٩٥م) أيام السلطان عبد الحميد الثاني وشغله (البنك الإمبراطوري العثماني) ذو الجنسية الإنكليزية ، وفي سنة (١٩٢٤م) تأسس بنك سورية ولبنان الكبير فقام بشراء البنك وشغل مكانه في العسرونية حتى عام (١٩٣٢م) ، حين تخلى عنه وانتقل إلى مبناه الجديد في جسر فكتوريا فحلَّ محله (بنك زليخا) .

سوق البورص :

يقع هذا السوق إلى الغرب المجاور لسوق مردم بك ، بينه وبين سوق العسرونية ، ويتوازي معهما ، كما يفتح في سوق الحميدية وزقاق ابن أبي عصرون رقم (١)

بامتداد جنوبي وشمالى ، سمي بالبورص نسبة إلى البورصة وأصلها (بورسا) وهي لفظة تركية مأخوذة عن الإيطالية ، وتعني (الصيرفة) أو تجارة العملات ، وقد أطلق عليه هذا الاسم عندما كانت متاجر الصيرفة تشغله قبل إلغاء هذه المهنة .

تباع في هذا السوق حالياً الملابس النسائية ، خصوصاً منها (الجلابيات) إلى جانب حقائب اليد ومواد التجميل والنوفوتيه وما شابه ذلك .

سوق باب البريد :

سوق مسقوف بساتر هرمي من الحديد والتوتياء يمتد من النهاية الشرقية لسوق الحميدية قبالة سوق الحرير وزقاق الكلاسه باتجاه جنوبي شمالي .

وقد ذكره القساطلي بأنه (أجمل أسواق المدينة كلها وأحسنها وبه تباع منسوجات هذه البلاد ومنسوجات بلاد الإفرنج الثمينة ، ولا يخلو من مئات بل آلاف الناس ، وفي وسطه قبة شاهقة قائمة على أعمدة عظيمة عليها كتابات كثيرة بالعربية والكوفية ، وهي القبة التي بناها الوالي العثماني (مراد باشا) فوق مربعة باب البريد لضيق العمودين العظيمين الباقيين عند يمين باب البريد وشماله ، ويقصد أعمدة معبد جوييتر ، وشرع بالبناء في أواخر سنة (١٠٠٢هـ / ١٥٩٤م) كما يذكر المحبّي ، ومن المفروض أن يكون انتهأؤه سنة (١٠٠٥هـ / ١٥٩٦م) وهو نفس تاريخ تشييد خان المرادية وسوق المرادية المعروف حالياً بجادة سوق الحرير ، وقد هدمت هذه القبة (حين فتح سوق الحميدية إلى السوق الجديد) كما يقول الحصني ، وهي المرحلة الثانية من إنشاء سوق الحميدية الممتد بين باب البريد وسوق العسرونية سنة (١٣٠١هـ / ١٨٨٣م - ١٨٨٤م) أيام الوالي العثماني راشد ناشد باشا في عهد السلطان عبد الحميد الثاني .

ومن مقولات ابن طولون والمحبّي والقساطلي تستطيع الوصول إلى أن سوق باب البريد كان في العهدين المملوكين والعثماني سوقاً هاماً ، لا كما هو عليه الآن ، فقد تبين لي عند زيارتي الميدانية له أنه انحسر إلى سوق قصير ضيق مغطى ، وبدايته الجنوبية معتمة ينتشر فيها باعة الكتب والقرطاسية ، وكلما أوغلنا في عمقه الشمالي تزايد عدد متاجر الأحذية والأقمشة وألعاب الأطفال وغير ذلك .

سوق المسكية :

سوق صغير مكشوف يحتل حالياً منطقة معبد جوييتر الدمشقي عند الطرف الشرقي لسوق الحميدية في باب البريد .

ورد ذكر هذا السوق عند ابن عبد الهادي من العهد المملوكي باسمين مختلفين (سوق الوراقين) (وسوق الكتبيين) ، وكلاهما في باب البريد ، ما يؤكد وجوده بنفس اختصاصه الحالي في ذلك العهد ولو اختلفت التسميات ، وربما كان أقدم من ذلك . كما ذكره القاسمي في العهد العثماني المتأخر بقوله : (الصحف هو بائع الكتب على أصنافها ، خطأ وطبعاً ، ولبائعي الكتب بدمشق سوق مخصوص يعرف (بالمسكية) ، وهو غربي جامع بني أمية الشهير ، يتعاطون بيع الكتب ، وهي حرفة قديمة شريفة ، وقد ازداد رواجها بواسطة كثرة المطابع الحادثة في هذا العصر ، ولباعتها أسلوب في الاتجار بها والربح منها) .

وأشار العلاف إلى هذا السوق عند حديثه عن سوق الحميدية بقوله : (إلى أن ينتهي ويقصد سوق الحميدية عند سوق المسكية أمام الجامع الأموي حيث دكاكين بيع الكتب والقرطاسية بأنواعها) .

والغريب في الأمر أن تسمية سوق المسكية التي سمعناها لأول مرة في العهد العثماني غلبت تسميته الكتبيين أو الوراقين التي كانت تطلق في العهد المملوكي ، على الرغم من أن هذا السوق كان متخصصاً ببيع الكتب والقرطاسية منذ نشأته .

ويظهر أن الجهل الذي انتشر بين الناس في بدايات العهد العثماني أدى إلى تراجع تجارة الكتب ، ما جعل باعة المسك يحتلون السوق ، فيطلق اسمهم عليه ، أو أنهم وجدوا فيه بكثرة إلى جانب باعة الكتب ، الأمر الذي دفع بهذه التسمية إلى الشيوع على ألسنة الناس ، وما تزال إلى يومنا هذا .

أما المسك فهو طيب من دم دابة كالظبي يدعى (غزال المسك) ، والقطعة من المسك تدعى (مسكة) .



صورة لسوق المسكية

وتبين لي عند زيارتي الميدانية للسوق أنه ما زال محافظاً على تخصصه القديم ببيع الكتب بأنواعها المختلفة ، الجديدة منها والقديمة والمدرسية المستعملة ، وغالبية هذه الكتب ذات مواضيع دينية أو تاريخية أو تراثية أو حكايات الأولين (كسيرة الملك سيف والوزير سالم ، وقصة عنتره) وغيرها ، ومن الغريب أن بعضها كان يحمل عناوين أوردها على سبيل الطرفة ، مثل (الكباريت في إخراج العفاريت ، اللؤلؤ والمرجان في تسخير ملوك الجان ، الجواهر اللماعة في إحضار ملوك الجن في الوقت والساعة ، سحر الكهان في حضور الجان) . وقد تبين لي أنها جميعاً مطبوعة في القاهرة ، وكانت أمنيته في تلك اللحظة أنها لو حملت عناوين بديله مثل (الليزر والذرة في اكتشاف المجرة ، الحاسوب في ضبط العيوب ، الرادار والقمر في رقي البشر) .

كما تبين لي أن عدداً من باعة الكتب افتتحوا حوانيت لهم في سوق باب البريد المجاور ، وتركز باعة القرطاسية في سوق (شاكر غازي) النافذ من باب البريد إلى

زقاق ابن أبي عصرون رقم (١) باتجاه الغرب ، أما باعة (المسك) فلم يبق منهم سوى بائع واحد متجول يعرض بضاعته من العطورات ضمن صندوق خشبي ، وإلى جانب ذلك أعمدة معبد جوييتر الضخمة التي أصبحت واجهات لعرض الكتب وبعض المنسوجات والتحف الشرقية .

سوق الحرير :

سوق ضيق مغطى بساتر هرمي مجدد من الحديد والتوتياء يمتد من الغرب إلى الشرق ، من التقاء جادة سوق الحرير والقلبجية إلى سوق القوافين ، وقد ورد ذكر هذا السور وموقعه عند ابن عبد الهادي بقوله :

(سوق الحرير عند باب الجامع الأموي القبلي ويبيع فيه الحرير) وهذا التحديد يوحى بوقوع السوق في منطقة سوق القوافين الحالية في الفترة التي كتب فيها المؤلف رسالته عن أسواق العهد المملوكي حوالي سنة (٨٨٣هـ / ١٤٧٨م) ، غير أن ابن طولون ذكر وقوع (سوق الحريرية) عند مربع باب الجابية ما يشير إلى كونه في غير الموضع الذي ذكره ابن عبد الهادي .



ثم يأتي القساطلي في العهد العثماني ، فيذكر اسم السوق دون تحديد لموضعه فيقول : (سوق الحرير وكان يقيم فيها باعة الحرير ، وأما الآن ففيها عملة الكنادر وباعة المانيفاتورة) . وتنتهي الإشكال خارطة شرطة دمشق الصادرة خلال الأعوام (١٩٢٢م - ١٩٢٤م) عندما تحدد هذا الموقع في نفس المكان الذي يشغله حالياً . ويبدو مما تقدم أن سوق الحرير كان موجوداً في العهد المملوكي والعثماني ، وربما كان أقدم من ذلك ، ويظهر أن موضعه تبدل قبل أن يستقر في مكانه الحالي .

وتبين لي عند زيارتي الميدانية للسوق أن تجارة الحرير فيه قد انتقلت إلى سوق خان الجمرک ، وحلت محلها حوانيت بيع كلف الخياطة النسائية ولوازمها ، وأدوات الزينة والحلي الاصطناعية والريش الملون والفراء الصناعية ، وأنواع الخرز الملون (البريق) وما شابه ذلك ، وفي قسمه الشرقي الآخذ من سوق القوافين بضع حوانيت متبقية لبيع (الشحاطات) والبقايب والعطور الشعبية ، والتمايم والتعاويذ السائدة عند العامة كالشبة والخزرة الزرقاء ثم كف الحاسد وغيرها .

سوق القلبجية :

يقع هذا السوق على امتداد جادة سوق الحرير بينها وبين سوق الخياطين ، وقد انحسر حالياً إلى بضع محالّ تتجر بالأقمشة بعد أن فقد تخصصه ببيع (القلبق) إثر بطلان استعماله ، وكان العسكريون العثمانيون يعتمرون القلبق لباساً رسمياً للرأس ، وهو يشبه الطربوش في الشكل إلا أنه أسود اللون مغشى بجلد (الجدي) الصغير ، وكذلك اعتمره الدرك والحراس الليليون حتى ألغي نظامهم منذ زمن ليس ببعيد ، وباختفاء تجارة (القلبق) بقيت تسمية (القلبجية) تطلق على هذا الموقع من قبل العامة .

ورد ذكر هذا السوق عند القساطلي والحصني ، بينما لم يرد في المصادر التي تؤرخ للعهد المملوكي ، ما يدعو إلى الاعتقاد بأن التسمية أطلقت عليه في العهد العثماني بعد أن انتشر القلبق لباساً عسكرياً للرأس .

سوق الخياطين :

يمتد هذا السوق المغطى بساتر هرمي (جملوني) من الحديد والتوتياء من زقاق (بين البحرتين) جنوباً إلى سوق مدحت باشا شمالاً ، ويقع على امتداد جادة سوق الحرير وسوق القلبجية .

عرف في العهد المملوكي باسم (سوق الخواصين) وورد ذكر هذه التسمية في خارطتي دمشق القديمة اللتين وضعهما (د . المنجد) ، كما ورد فيها أن قسمه الشمالي الآخذ إلى سوق القلبجية كان يعرف (بالقبانين) ، وهم اللذين يقومون بوزن الأشياء الثقيلة التي لا يستطيع الميزان العادي والبلدي أن يرفعها ، لذلك يستعاض عنها (بالقبان) . أما قسمه الجنوبي الآخذ إلى سوق مدحت باشا فكان يعرف (بالطواقين) ، وقد وردت هذه التسمية من رسالة (نزهة الرفاق في شرح حال الأسواق) لابن عبد الهادي ، كما وردت عند ابن طولون ، و (الطواق) لفظة تركية تعني الخمار أو ما تغطي به المرأة رأسها وهو الستر عموماً ، ويظهر أنهم كانوا يصنعون الخُمُر في هذا الموقع خلال العهد المملوكي ، أو ربما قبل ذلك إلى أن زالت هذه الحرفة بزوال ذلك العهد ، أو استمرت إلى فترة غير معروفة خلال العهد العثماني ثم انقرضت . أما تسمية سوق (الخياطين) فقد وردت إلينا لأول مرة عند القساطلي الذي ذكر به (باعة الأجواخ والمنسوجات وغيرها) ، وعند القاسمي بقوله : (الجوخي بائع الجوخ وغالبيتهم في سوق الخياطين) ما يشير إلى نشوء هذه التسمية في العهد العثماني .

فقد سوق الخياطين كثيراً من تخصصه القديم ، وتبين لي عند زيارتي الميدانية له أنه صار خليطاً من متاجر بيع الخيوط الحريرية والصوفية ، ولوازم الخياطة النسائية والملبوسات الجاهزة الشعبية وما شابه ذلك .

وحدثني مسنوّ التجار في هذا السوق أنه كان في بدايات القرن العشرين على ثلاثة أقسام هي :

١- سوق النورية أو الغزولية : يمتد بين سوق القلبجية والمدرسة النورية الكبرى .

٢- سوق العقادين : بين المدرسة النورية الكبرى وجامع الخياطين ، وقد انتقلت هذه التسمية إلى هذا الموقع بعد أن كان سوق العقادين القديم بجوار سوق الصاغة في القوافين ، وزال كلياً إثر حريق الجامع الأموي عام (١٣١١هـ / ١٨٩٣م) ، وفي هذا السوق كانت تباع خيوط (التخريج) للصايات والشراول والصداري والميتان .

سوق القوافين :

كان هذا السوق في الأصل ضيقاً مسقوفاً يمتد على طول النصف الغربي والجنوبي من جدار الجامع الأموي ، بين بابه الغربي المعروف بباب المسكية وبابه الجنوبي المعروف بباب الزيادة ، حيث يصبح سوقاً مكشوفاً متسعاً ينتهي عند سوق السلاح من الشمال إلى الجنوب . أما تسميته بالقوافين فنسبة (للقواف) وهو بائع أصناف النعال من (صرامي وجزمات وبوايج وغيرها) .

ورد في ذكر سوق القوافين عند القساطلي قوله : « وبه تباع الأحذية العربية » ، كما ورد في خارطة شرطة مدينة دمشق الموضوعة خلال الأعوام (١٩٢٢م - ١٩٢٤م) ، أما الخرائط الحديثة فتسميه (الصاغة) نسبة لسوق الصاغة القديم الذي كان بجواره من جهة الشرق واحترق عام (١٩٦٠م) ، وكذلك تُسمّى العامة ، أما المصادر القديمة التي تؤرخ للعهد المملوكي وما قبله ، فلا تورد ذكره ، الأمر الذي يدعو للاعتقاد بأن هذه التسمية قد أطلقت عليه في العهد العثماني ، أما في الوقت الحاضر فتشغله متاجر الصياغ ، وبضع محال محدودة لبيع الأحذية الشعبية (قباقيب ، شحاطات وما شابه ذلك) ، وهي تتركز عند زاوية التقائه مع سوق الحرير بجوار سوق السلاح .

سوق القباقيب :

يمتد سوق القباقيب من الغرب إلى الشرق بين سوق القوافين وبداية النوفرة ، مسيراً في امتداده الجدار الجنوبي للجامع الأموي ، ذكره ابن عبد الهادي ، وحدد موقعه (شمالي الجامع داخل باب الفراديس) ما يشير إلى وقوعه في ذلك الموضع

إبان العهد المملوكي ، أما القساطلي فوصفه بقوله : (بهذا السوق يعملون القباقب والصناديق والصواني الجميلة المطعمة بالصدف ، وهذه السوق تمتاز عن غيرها بكون سقفها معقوداً بالحجارة) .

وهذا الوصف يعني استمرار السوق في العهد العثماني أولاً ، ثم وقوعه في موضعه الحالي الذي كان مسقوفاً بعقود من الحجارة ثانياً ، أما تسميته فمشتقة من صنع القباقب ، والقباقب حذاء من الخشب يتعل بالقدم بواسطة (سير) من الجلد يثبت بالمسامير المعروفة باسم (مسامير قبقابية) وله أنواع منها :

(قبقاب المهاجرين) وهو أعمها لأنه مصنوع من قبل المهاجرين الشراكسة ، ثم القبقاب (الشبراوي) وهو مرتفع عن الأرض بواسطة قدمين إضافيتين ، (و نصف الكرسي) وهو أقصر من السابق ، وقد يطعم القبقاب أحياناً بالصدف أو يلون سيره بألوان مختلفة . أما عن الضجيج الذي يصدره فلا تسل ، خصوصاً إذا استعمل في الأبنية الطابقية الحديثة وفوق بلاط الحَمَّام ، كما يعتبره بعض الرجال تندرأ من الأسلحة الفتاكة بيد الزوجات .

وفي بداية الثمانينيات أُزيل النسق الشمالي من المحالّ الملاصقة لجدار الجامع الأموي وقاية له من الحريق من جهة ، ولتكشف هذا الجدار المهم أثرياً من الجهة الأخرى ، ففقد السوق تخصصه وأصبح في الوقت الحاضر مزيجاً من بقايا (خراطين الخشب) الذين يصنعون الأدوات المنزلية والمطبخية ، إلى جانب محالّ (الصياغ) الذين يشغلون هذا السوق إن لم يكن أكثر .

سوق السلاح :

سوق صغير مسقوف بالتوتياء يمتد بين سوق القوافين وزقاق بين البحرتين قرب بداية سوق البزورية ، وهو امتداد لهذا السوق الأخير ، لأنه يشاطره بيع نفس المواد إلى جانب محال أخرى غير تخصصية . أما تسميته فجاءت نسبة لما كان يباع فيه من أسلحة بيضاء (كالسيوف ، والرماح ، والخناجر) ، ومع بطلان استعمالها ، فقد السوق تدريجياً تخصصه وتحول إلى محال تجارية مختلفة ، وقد ورد ذكره عند ابن

طولون ما يدل على وجوده في العهد المملوكي وربما قبل ذلك . وقد ذكره النعيمي والقساطلي الذي قال : إنَّه يسمى أيضاً (سوق التتن) ، وهي كلمة تركية تعني التبغ ، وكذلك ورد عند الغزي الذي أشار بأن أحمد المغربي المتوفى سنة (١٠٠٨هـ / ١٥٩٩م) قام بتوسيع هذا السوق .



صورة لسوق القباقيبة

سوق الصقالين :

سوق صغير ضيق يفتح طرفه الغربي قرب النهاية الجنوبية لسوق البزورية ، كما يفتح طرفه الشرقي في (نزلة معاوية) ، ويغطيه ساتر معدني مجزأ ، ولم يرد ذكره في المؤلفات التي تتحدث عن أسواق دمشق في العهد المملوكي كما لم يُشر إليه القساطلي بهذا الاسم بل باسم (سوق الرز) غير أن القاسمي ذكر تسمية الصقالين عند الحديث عن الرزاز بقوله : (الرزاز اسم من يتجر بالأرز ، وغالب مقر تجاره في الخان المسمى به ، ومحله عندنا في الشام بسوق الصقالين الآخذ إلى سوق البزورية) .

والصقال بالعربية : من يجلو ويملّس ويكشف الصدا ، ولم أتمكن من الرنط بين هذه التسمية وبين السوق ، وكذلك لم يتمكن التجار فيه ، وقد حدثني أحد كبار السن فيهم أنه قد تفتحت عيناه على الدنيا واسم هذا السوق (الصقالين) وهو لا يعرف معنى ذلك ، أما ولتييخر فيطلق عليه اسم سوق الرز ، ولعلها نسبة لخان الرز الموجود فيه ، الذي ذكره د . يحيى وصنّفه ضمن خانات العهد العثماني ، قبل عام (١٩٠٠ م) ، كما أشارت إليه خارطة شرطة دمشق باسم (الصقالين) ، وهذه كلها مؤشرات تدعو إلى الاعتقاد بنشوء هذا السوق في العهد العثماني ، وبخاصة أن خان الرز هو من خانات ذلك العهد ، على الرغم من أن سوق البزورية من أسواق العهد المملوكي ، ولم أجد عند زيارتي الميدانية للسوق والخان سوى بضع حوانيت لبيع أكياس النايلون والورق والأغطية البلاستيكية (المشمعات) ، إلى جانب مستودعات متعددة وبضع محال تتجر ببيع حلويات الأطفال كالسكاكر والبسكويت .

سوق الباب الشرقي :

يمتد هذا السوق من الغرب إلى الشرق ضمن جادة الباب الشرقي ، بين نقطة التقاء جادات (الخراب وباب توما وطالع القبة) وبين الباب الشرقي نفسه . ورد ذكر السوق عند ابن عبد الهادي ما يشير إلى وجوده في العهد المملوكي ، وربما كان في عهود أسبق ، لكننا لا نملك الدليل على ذلك ، أما في العهد العثماني فلم يأت على ذكره أحد ، لا الغزي ولا القساطلي ولا القاسمي ولا العلاف ، غير أن إغفال الحديث عنه في ذلك العهد لا يعني عدم وجوده ، لأن الصورة الملتقطة له خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر تثبت عكس ذلك ، سيما أنه امتداد للشارع المستقيم ، بل يعني أنه فقد بعضاً من أهميته في تلك الفترة حين ظهرت أسواق أخرى جديدة فازت بنصيب أوفر عند تعدادها من قبل الكتاب الذين ذكروهم .

ولقد وجدت إثر زيارتي الميدانية للسوق أنه مؤلف من نصفين متناقضين تماماً ، فنصفه الغربي بين جادة باب توما وحارة الزيتون قديمُ المُشَيّدات ، بينما نصفه الثاني بين هذه الحارة والباب الشرقي تشغله دكاكين قديمة ما زالت تحافظ على طابعها

التراثي الجميل ، وبينها دكان الحلاق الذي ما إن تدخله حتى ينقلك الزمن إلى بدايات هذا القرن ، وقبلاته على النسق الجنوبي دكان (لغسل السجاد ورتيه) إلى جانب محل (بسكليتاتي) ، ثم مطعم يليه حانوت لبيع المصنوعات الشرقية ، وقبلته دكان لتصليح الأسلحة ثم مكتب للتاكسي ، إضافة إلى باعة الخضرة والفواكه المنتشرين على طول الرصيف الجنوبي الأمر الذي يحيل هذا النصف إلى (سوق) صغير يؤمن الاكتفاء الذاتي لسكان المنطقة .

وإذا ما تخطيت هذه الحوانيت ، وكذلك حارة الزيتون شرقاً ، تكون قد دخلت في عالم جديد من التحديث والمدرنة ، المشيدات فيه حجرية مكعبة كعلب الكبريت ، والسوق عندها تخصصي بحت ، تنتشر فيه حوانيت بيع المصنوعات الشرقية والنحاسية والتحف والموزاييك ، وهناك أيضاً متجر لبيع المنحوتات الخشبية الفنية من تماثيل تعبيرية ورمزية وما شابه ذلك . وتتفرع عن هذا السوق قرب نهايته الشرقية من جهة الشمال حارة ضيقة هي دخلة حنانيا ، وعندها لوحة كتب عليها (سوق حنانيا الأثري للشرقيات) ، وفيه عدد من باعة العاديات الشرقية .

وعند بداية جادة الباب الشرقي ، وعلى ناصيتها الشمالية ، بضع مشيدات سكنية جميلة ، يعود تاريخ بنائها إلى العهد العثماني المتأخر ، منها بيت سويد وبيت الشاوي وبيت الدكتور قشيشو ، كما يوجد عند منتصف ناصيتها الجنوبية مما يلي حارة الزيتون ، جامع العريشة ، ثم كنيسة السريان الكاثوليك ، وإذا ما تخطيت الباب الشرقي نفسه ، وجدت على يسارك متاجر بيع التحف الشرقية وآخرها (ورشة النعسان للمصنوعات الشرقية) .

سوق باب توما :

يمتد سوق باب توما حالياً بين مدخل جادة باب توما قرب الباب نفسه ودخلة (سفلى التلة) عند المدرسة الآسية أما في السابق فكان ممتداً من خارج الباب حتى جادة الباب الشرقي .

ورد ذكر هذا السوق عند ابن عبد الهادي ما يشير إلى وجوده في العهد المملوكي وربما كان موجوداً منذ العهد الأتابكي ، لأن نور الدين الشهيد أقام عند كل باب من أبواب دمشق باشورة (سوقاً صغيراً) ، ومن المحتمل أنه استمر من تلك الفترة إلى العهود اللاحقة ، ويظهر أن أهميته تضاعفت في العهد العثماني حتى إن مصادر تلك الفترة لم تتطرق إلى ذكره كسوق ، بل كانت تكتفي بالقول : باب توما ، ولكنه كان موجوداً داخل الباب وخارجه كما تؤكد الصور التي رسمها له فنانون أوروبيون زاروا المنطقة خلال القرن التاسع عشر ، وكان الغزي هو الوحيد الذي ذكر وجوده كسوق في ذلك العهد .

ورأيت في زيارتي الميدانية لهذا السوق أن الحوانيت والمتاجر تنتشر في ناصيته مشكلة نموذجاً وصفيّاً للأسواق غير المتخصصة ، فهناك حوانيت بيع الخضروات والفواكه والأسماك والحيوانات البحرية والمكتبات ومحال القرطاسية ، إلى جانب متاجر الملابس ومواد التجميل والهدايا والنظارات الطبية منها والشمسية ، ومحال بيع الأدوات الكهربائية والنوفوتيه ومحلات التصوير والحلاقة . كما رأيت محلين لإصلاح (بابور الكاز واللوكسات) المستعملة كأجهزة إضاءة ، وفرناً لإنتاج الخبز الإفرنجي الذي يعرف (بالصموني) . وخلاصة القول إن سوق باب توما في الوقت الراهن هو سوق صغير متطور يحوي كل شيء تقريباً .

ومن المشيدات الموجودة داخل هذا السوق الحالي مسجد السادات أو مسجد العمادي أو (المسجد الصغير) ، وبجواره من جهة الجنوب دير اللاتين ثم كنيسة اللاتين وبيت الدادا (بيت التاج الإسباني) ، بعده دير الراهبات العازارية ثم دير الآباء العازاريين ، ثم كنيسة السريان الأرثوذكس ، وأخيراً دير راهبات الأرمن الكاثوليك . وعلى النسق المقابل ، قرب جادة الباب الشرقي ، يقع جامع البيانة .



OLD DAMASCUS

باب توما

صورة لسوق باب توما

سوق القيمرية :

يمتد هذا السوق من الغرب إلى الشرق بين جادة النوفرة وجامع المدرسة الفتحية المعروفة باسم (جامع فتحي) ، وتعد البوابة الشرقية (برويلون) الرواق سوق معبد جوبيتر ، أو بالأصح ما بقي من الأعمدة في هذا الموضع الحد الفاصل بين هذه الجادة والسوق الحالي .

كان اسم المحلة التي يمتد فيها سوق القيمرية في العهد المملوكي (الحرثيين) ، وفيها أنشأ الأمير ناصر الدين الحسين بن عبد العزيز بن أبي الفوارس الكردي القيمري المدرسة القيمرية الكبرى سنة (٦٥٠هـ / ١٢٥٢م) وأواخر العهد الأيوبي ، ومن اسمها اشتقت تسمية حي القيمرية بكامله ، والسوق عنده ، غير أن اسم سوق الحرثيين بقي على ألسنة الناس في العهود المتلاحقة ، والغريب أن ابن عبد الهادي لم يذكر هذا السوق في رسالته التي عدد فيها الأسواق في العهد المملوكي .

شاعت تسمية سوق القيمرية في العهد العثماني بصورة خاصة ، فقد ذكره الغزي بقوله : (وكان من عادتي إذا ذهبت إلى زيارة الشيخ محيي الدين الذهبي بدكانه التي

يدق فيها الذهب بسوق القيصرية تجاه المدرسة القيصرية) ، وتشير هذه المقولة بوضوح إلى نفس الموقع الذي يشغله هذا السوق حالياً ، أما القساطلي فلم يأت على ذكره بين الأسواق التي عددها في (الروضة الغناء) على الرغم من أن الفعالية الاقتصادية لحي القيصرية كانت في ذروتها خلال القرن التاسع عشر ، حين تركزت فيه صناعات (الصاية الحربية ، والموزاييك والنجارة والصباغة ، والطباعة) ، إلى جانب بعض الصناعات الغذائية والمعدنية ، لذلك أطلق عليه تشبيهاً اسم (الهند الصغيرة) .

وعند زيارتي الميدانية للسوق ، وجدت أنه قد تقلص إلى عدد ضئيل من الحوانيت التي يشغلها باعة الأحذية والشرقيات ، إلى جانب المطرقات ومصليحي الساعات والبسكليتات (وبواير الكاز) وهناك أيضاً فرن (للصفيحة) ومطعم شعبي ، وفرن للخبز ، وحداد وخياط ، ومحل للمجوهرات ومحلات للتوفوتيه ، وبضع مكاتب للقرطاسية ولوازم الطلاب ، وبائع عصير وكاتو (الحبوب ، والرز بحليب) بجوار متجر المفروشات الخيزران والقش .

ومن المشيدات الهامة في هذا السوق ، جامع فتحي (جامع المدرسة الفتحية) ، وهناك المدرسة القيصرية الكبرى المعروفة حالياً بجامع (القطار) ، ولكنها لا تقع في السوق نفسه بل بجواره ؛ لذلك لن أتعرض إلى ذكرها .

سوق العمارة :

يمتد هذا السوق المغطى بساتر هرمي معدني محدث في حي العمارة الجوانية مخترقاً (باب الفراديس) الأثري ، من قرب مقام السيدة (رقية بنت الحسين) جنوباً ، إلى شارع الملك فيصل شمالاً ، مع انحراف قليل نحو الجنوب الشرقي والشمال الغربي .

ورد ذكر سوق العمارة عند ابن عبد الهادي ، ما يؤكد وجوده في العهد المملوكي ، وربما كان أقدم من ذلك ، وكانت منطقة باب الفراديس غنية بالأسواق في ذلك العهد (كسوق النحاسين ، وسوق العلبية ، وسوق الآدمية ، والخور وسوق الهواوية ، وسوق داخل باب الفراديس ، وسوق مزيلي الآثار ، وسوق القباقيب) .

كما ذكره القساطلي أواخر العهد العثماني بقوله : (سوق العمارة وهي سوق طويلة مشهورة تباع فيها لوازم القوات) ، ولكنه لم يحدد موقعه ، تماماً كمن سبقه من المؤرخين ، أما ولتسينجر فقد أشار بخارطته التي وضعها لمدينة دمشق حوالي سنة (١٩١٧م - ١٩١٨م) إلى سوق مغطى في نفس موقع السوق الحالي ، مع امتداد قليل نحو الشمال ، عبر جادة بين الحواصل التي اخترقها شارع الملك فيصل فيما بعد ، غير أنه لم يسمه ، ثم عاد مرة أخرى وذكر سوقاً (يتصل بشمال باب الفراديس ويتجه نحو المدينة الجديدة ، العمارة ، ولم يسمه أيضاً) .

ووردت عند القاسمي تسمية جديدة لسوق العمارة في سياق حديثه عن (النطّاع) وهو من يصنع النطع أو أطباق القش بقوله : (كان لهذه الحرفة سوق مخصوص بدمشق في محلة العمارة ، يعرف بسوق النطّاعين ، ثم على تعاقب الأعوام والسنين تغيرت هيئة ذلك السوق ولم يبق من شهرته شيء سوى الجامع والقهوة الموجودين فيه ، والآن يعرفان بجامع النطّاعين وقهوة النطّاعين أو (اللطّاعين) ، باللام كما تلفظها العامة ، لا يزال موجوداً فيه إلى الآن .

وقد وجدت عند بحثي الميداني في المنطقة أنه سوق طويل ضيق مغطى بساتر هرمي معدني مجدّد ، بعد تآكل ساتره القديم ، وهو مزدحم بالمارة ، ولا يسمح فيه بمرور الآليات خلافاً (للبسكليتات) التي كانت تمر بجانب مرور السهم من الرمية ، متلوّية متموجة ، تسفل بسرعة الضوء بل أسرع منه بين جموع المشتريين . وفي هذا السوق عدد كبير من باعة اللحم والساكر والحلويات ، وأقل منهم باعة التوفوتيه ومواد التجميل ، والأحذية والأدوات المنزلية والكهربائية والصمديّات ، وإصلاح الساعات ، وهناك دكان لحلاق ، ومصلح بوابير الكاز واللوكسات وهو في نفس الوقت سمكري ، وتتنجى (بائع التبغ) ، وفرن . وقد شاهدت عند المدخل الجنوبي لهذا السوق ، بجوار جامع العمرية ، لوحة زرقاء قديمة كتب عليها (العمارة الجوّانية) ، كما شاهدت عند مدخله الشمالي من جهة شارع الملك فيصل لوحة حديثة مغايرة للأولى تحمل الكتابة التالية (شارع مقام السيدة رقية بنت الحسين) .

سوق السكرية :

سوق ضيق مسقوف بساير معدني ، يمتد من الغرب إلى الشرق بين محلة باب الجابية وبين سوق الذراع ، ويوازي سوق مدحت باشا من جهة الجنوب ، كما يفتح بمدخلين ضيقين .

ذكره ابن عبد الهادي بقوله : (سوق السكرين تحت سوق البزورين يباع فيه السكر) ، ما يشير إلى وجوده في العهد المملوكي ، كما ذكره القاسمي ، وحدد موقعه (قرب البزورية في محلة باب الجابية) ، وهذا يدل على استمراره في العهد العثماني أيضاً ، غير أن ولتسينجر يمنحه اسم (سوق العطارين) وهي تسمية تطلق على من يبيع أصناف شتى من السكر وغيره ، ويظهر أنه موقع التباس ، إذ يقول القساطلي : (سوق البزورية وهي سوق من العطارين تباع بها السكاكر والمربيات والحلويات وهي سوق جميلة ومرتبة) ، كما أشارت خارطة شرطة دمشق الصادرة خلال الأعوام (١٩٢٢م - ١٩٢٤م) إلى اسم سوق السكرية ، وحددت موقعه حيث هو الآن .

ومن جملة ما تقدم نتوصل إلى الاعتقاد بأن موضع السوق وتسميته لم يتبدلا منذ العهد المملوكي حتى الآن ، وأن الشيء الوحيد الذي تغير هو نوعية السلع التي كانت تباع فيه ، إذ استبدل السكر بالمنسوجات .

وسوق السكرية بحالته الراهنة سوق ضيق وطويل نسبياً - كما أسلفت - وهو مكتظ بمتاجر الأقمشة والملبوسات النسائية والأجواخ والحريير والكريتون وما شابه ذلك ، والبضائع المعروضة فيه معلقة أو متدلية أو مرصوفة أمام الدكاكين وفي داخلها ، ما يضيف على جوّه لمسة شاعرية من مساحة ولون ، وكأن السائر فيه يسير فوق سطح كوكب آخر ، والغريب في الأمر أن تسمية السكرية ما زالت تطلق عليه إلى يومنا هذا ، على الرغم من تبدل نوعية السلعة التي تباع فيه .

هذا ، وتعرف البداية الغربية لهذا السوق باسم سوق (البالة) ، وقد اطلقت التسمية عليها لوجود باعة البالة عندها ، والبالى كلمة إيطالية تعريبها (الإباله) وهي تعني : حزمة من المنسوجات أو الملبوسات ضخمة ومحكمة اللف والربط .

والمفهوم الدارج عندنا بأنها ألبسة مستعملة ، بينما الصحيح بأنها ألبسة فائضة أو كاسدة عن الاستهلاك ، أو أن طرازها يعود إلى سنة أسبق ، الأمر الذي يجعل الدول الأوروبية تقوم بتصديرها إلى أسواق العالم الثالث لقلة راغبيها عندهم .

سوق النسوان :

يحتل سوق النسوان حالياً باب الجابية الأثري نفسه ، ويمتد منه قليلاً نحو الداخل والخارج ، كما يلتقي بسوق القطن من جهة الشرق ، أما من جهة الغرب ، فبسوقي (السكرية) المجاور لسوق مدحت باشا و (الصباغين) الممتد جنوباً من منطقة السنانية في محلة باب الجابية .

لم ترد تسمية هذا السوق في مؤلفات العهد المملوكي ، وأول إشارة إليه جاءت من القساطلي بقوله : (سوق النسوان وهي جزء من سوق الأروام) ، ما يشير إلى نشوئه في العهد العثماني ولكن في غير موضعه الحالي ، وهنا أود أن أوضح نقطة يمكن أن تؤدي إلى حصول التباس نتيجة إطلاق نفس التسميات على الأسواق التي وُجدت في غير مواقعها الحالية ، فاستناداً إلى خارطة شرطة مدينة دمشق الصادرة خلال الأعوام (١٩٢٢م - ١٩٢٤م) كانت هذه التسميات والمواقع هي :



صورة لسوق النسوان

١- سوق الأروام : أطلقت التسمية على النصف الغربي لسوق الحميدية بين الدرويشية والعصرونية ، ثم صارت تطلق في أيامنا هذه على السوق الصغير المتفرع عنه .

٢- سوق النسوان : كان هذا هو اسم سوق الأروام الحالي .

٣- سوق الصوف : كان بين سوقي النسوان والأروام القديمين (سوقي الأروام والحميدية الآن) وقد ورد اسم سوق النسوان أيضاً عند القاسمي بقوله : (يأتي النساء إليه بأصناف الملبوسات وحوائج البيوت فيبعنّها لمن يرغب شراءها من أصحاب السوق أو المارّة) . غير أنه لا يذكر موقعه ، شأنه شأن من سبقه من المؤرخين الذين كانوا يعدّدون أسماء الأسواق دونما ذكر لمواقعها ، الأمر الذي خلق لنا إشكالاً كبيراً في تحديد المواضع التي كانت تشغلها هذه الأسواق ، ومن المؤسف ألا يفكر أحدهم ولو بوضع مخطط تقريبي لهذه المواقع ، مع العلم أن أقدم خارطة مفصلة وصلتنا عنها هي خارطة شرطة مدينة دمشق التي ذكرتها قبل قليل ، أما بقية خرائط الثلاثينيات وما بعدها ، فهي خرائط عامة للمدينة ولا تفني بالغرض الذي نحن بصدد بحثه ، إلا أن القاسمي يعاود ذكر سوق النسوان في موضع آخر من قاموسه ، وفي هذه المرّة يشير إلى موقعه بشكل عام فيقول : (سوق النسوان قرب الباب الشرقي لقلعة دمشق تباع فيه السلع العتيقة البالية فيشتريها (المطربازيون ويصلحون ما يمكن إصلاحه ويعلقونها في حوانيتهم ويبيعونها لمن يرغب ذلك) .

من غير المعروف متى انتقلت تسمية سوق النسوان إلى السوق الحالي في باب الجابية ، على الرغم من أن سوق (البالة) المجاور له عند بداية سوق السكرية أحق منه بهذه التسمية ، غير أن هذا الأمر لا بد أن يكون قد وقع بعد عام (١٩٢٤م) ، وهو العام الذي صدرت فيه خارطة شرطة دمشق المذكورة . وقد ذكر لي بعض تجار هذه السوق بأنه يعرف أيضاً على ألسنة الناس باسم (سوق ميله أو أبو ميله) ، ولعل هذه اللفظة جاءت تحريفاً لاسم (سوق قميلة) الذي كان في منطقة (تحت القلعة) إبّان العهد المملوكي كما يذكر ابن عبد الهادي ، وكانت تباع فيه (الخلقان) ، أما

في العهد العثماني فقد ذكره القساطلي بقوله : (سوق قميلة يباع فيها النحاس المستعمل وغير المستعمل والأثاث المستعمل والأسلحة وغير ذلك) دون أن يحدد موضعه .



صورة للمنشآت والمباني في ساحة الشهداء

سوق القطن :

سوق مستقيم مغطى بسائر هرمي من المعدن ، يمتد من الغرب إلى الشرق بين سوق النسوان وسوق الصوف كما يفتح في سوقي السكرية والذراع الواقعين إلى الشمال منه .

ورد ذكر هذا السوق عند النعيمي ، كما ورد عند ابن عبد الهادي الذي ذكره بقوله : (سوق القطنين تحت سوق جقمق يباع فيه القطن) ، ما يؤكد وجوده في العهد المملوكي ، وربما قبل ذلك ، ولعله السوق الذي قصده ابن طولون عندما قال : (وخرجت النار من حانوت تحميمص القضمانيه في باب الجابية ، ولم تلحق

ما في شرقيه من سوق الغزل ، والجانب القبلي الذي فيه المئذنة الجركسية ،
ولا سوق المنجدين والفسقار) ، ونستنتج من هذه المقوله أن :

١ - سوق القضمانيين كان داخل باب الجابية وفي شرقيّه سوق الغزل .

٢ - سوق الغزل هو سوق القطن لوجود المئذنة الجركسية (مئذنة جامع جركس)
على جانبه القبلي .

٣ - سوق المنجدين كان بجوار سوق القضمانية أو قربه ، وكذلك الفسقار (عند
البداية الغربية لسوق مدحت باشا الحالي) .

ما زال هذا السوق القديم محافظاً على تخصصه في تجارة القطن إلى اليوم ، وقد
أضيفت إليها تجارة الصوف الخام بعد أن تخلّى عنها سوقها المعروف (بسوق
الصوف) ، أو سوق الحبالين الواقع على امتداد سوق القطن نحو الشرق ، وتعد
الدخلة المجاورة لجامع القلعي نقطة نهاية هذا السوق وبداية سوق الصوف .

ولقد لاحظت أثناء تجوالي في هذا الموقع أن لا شيء مثير فيه من وجهة النظر
الجمالية ، فبالات القطن والصوف تتكدس داخل الحوانيت وخارجها ناثرة بقاياها
في كل مكان ، فقط تخترق أذنك أصوات الصفير الحاد الذي يصدر عن القضبان
المعدنية النحيلة كلما شقت الهواء هابطة بعنف فوق كتلة الصوف ، بغية
(تنفيشها) ، كذلك يلفت نظرك مرأى (الموازين) الضخمة المتدلية من سقف كل
حانوت .

ومن أهم المشيدات التاريخية في هذا السوق جامع القلعي وسبيل الخزنة ،
وكلاهما من العهد المملوكي .

سوق الصوف :

يمتد هذا السوق المغطى من الغرب إلى الشرق موازياً لسوق مدحت باشا من
جهة الجنوب ، بين سوق القطن وجادة الشماعين ، ويغطي قسمه الشرقي سائر
هرمي من المعدن يحجب عنه الضوء . ذكره ابن الهادي باسم (سوق الحبالين)
وحدد موقعه في باب الجابية ، وكذلك ابن طولون ، وعيّن موقعه بالقرب من باب

الجابية ، أما النعيمي فيسميه (سوق الصوف) ، وابن شداد (سوق الصِّرف) ما يشير إلى وجوده في العهد المملوكي وربما كان أقدم من ذلك ، وكتب عنه القساطلي يقول : (سوق الحبالين يباع فيه المرس والخيطان والحبال) . وحددت خارطة شرطة مدينة دمشق الصادرة خلال الأعوام (١٩٢٢م - ١٩٢٤م) موقعه في نفس مكانه الحالي وسمته (سوق الحبالين) .

ويعرّف القاسمي الصوَّاف بقوله : (هو الذي يتجر بالصوف العتيق القليل والجديد ، يشتريه من القرى ويبيعه في سوق الصوف ليستعمل حشواً للفرش واللحف ، أو غزلاً لتصنع منه (الجوارب) المعروفة بشغل الشام ، وهي أمتن من التي تأتي من غيرها) .

وتبينت من زيارتي الميدانية للسوق أنه ما زال محافظاً - إلى حدٍّ ما - على اختصاصه ، فمعظم حوانيته تتجر بالأصواف الملونة الجاهزة للحياكة على شكل (شلل وكباكيب) ، وبالحبال والمرس والخيوط ، كما لاحظت وجود نوع جديد من الحبال المشغولة المعدة لتعليق أصص النباتات إلى السقف التي تعرف بالأجنبية باسم (ماكراميه) وهي من وسائط التزيين في البيوتات الحديثة .

سوق الصباغين :

يمتد هذا السوق الصغير المغطى بساتر هرمي من الحديد والتوتياء من الشمال إلى الجنوب ، بين باب الجابية الأثري نفسه ، ومحلة باب الجابية المجاورة للسنانية ، مسيراً الجدار الشرقي لجامع السنانية ، ومنتهاً عند الزاوية الجنوبية لهذا الجامع بجوار مكتب السنانية ، وفي هذا الموضع بالذات لوحة معدنية تحمل عبارة (زقاق سوق القطن) ، ويظهر أنها التسمية الرسمية لهذا السوق .

لم أعر على ذكر لسوق الصباغين في أي من المراجع المملوكية أو العثمانية ، وأول إشارة إليه جاءت في خارطة شرطة مدينة دمشق الموضوعة خلال السنوات (١٩٢٢م - ١٩٢٤م) ، الأمر الذي يدعو للاعتقاد بأنه نشأ مع بدايات هذا القرن أو ربما في القرن التاسع عشر ، وهناك احتمال لنشوءه قبل ذلك ، غير أن صغره وقلة أهميته جعلتا المؤرخين يهملون ذكره .

وقد حدثني المُسنُّون من تجار هذا السوق أنهم لا ينسون كيف تراكض الناس فيه لدى سماعهم خبر اكتشاف (جِرار) تحت أرضه ، أثناء الحفريات التي جرت فيه ، وقد اعتقدوا بأنها تحتوي على الذهب ، ففوجئوا باحتوائها على الأصبغة ، ما يدل على أن الصباغين كانوا يشغلونه ، ومنهم جاءت تسميته ، أما اليوم فتشغله حوانيت بيع الألبسة العربية (والفروات الطفالية) ، إلى جانب بضع متاجر للكريتون والأقمشة الشعبية التي يرتديها البدو والحضر على حد سواء .

سوق الدرويشية :

يمتد هذا السوق بين المدخلين الغربيين لسوق الحميدية ، وسوق مدحت باشا باتجاه شرقي جنوبي ، وتعهده الخرائط الحديثة جزءاً من شارع سعد زغلول .

لم يكن سوق الدرويشية قائماً في العهد المملوكي ، إلا أن ابن عبد الهادي ذكر وجود عدة أسواق كانت في الموضع الذي يشغله الآن وهي (سوق الأخصاصيين) الذين يصنعون (الأخصاص والأفصاص) ونحو ذلك ، (وسوق الدفوفين) والطنابر عند سوق الأخصاصيين ، وسوق التنورية ، وهم مفرقون ، وجلهم بجسر الزلاية إلى باب الجابية ، وسوق المحارية ، وكان لهم سوقان أحدهما عند الأخصاصيين ثم بطل .

تلاشت أسماء الأسواق المذكورة في العهد العثماني ، منذ نشوء جامع درويش باشا ، وحلّت محلها تسمية (سوق الدرويشية المشتقة من اسم الجامع ، وحدّد القساطلي بدايته من رأس سوق الأروام) ، أي القسم الغربي من سوق الحميدية إلى باب الجابية . وتحدث عنه العلاف بقوله : ثم تسير على الجادة العامة من السنجقدار فتجد سوق الدرويشية ، ويكثر فيه باعة اللوازم الخشبية كالكراسي والمقاعد والدرابزونات الخشبية ، ومطارق الكبة والأجران الخشبية ، وباعة متنوعة حتى تصل إلى مدخل سوق مدحت باشا .

كما ذكره القاسمي عند حديثه عن الصناعات الشامية في مواضع متعددة من قاموسه فقال : (الأراكيلي هو صانع الأراكيل ، وهذه الصنعة باق منها بقعة في الشام ، وغالبهم في محلة الدرويشية) .

ثم قال : (الخراط اسم لمن يحترف الخراطة وهي حرفة شهيرة رائجة ، ولها سوق مخصوص عندنا بدمشق يسمى بالخراطين ، أول جادة الدرويشية ، أشهر من نار على علم) .

وقال أيضاً : (السرايري اسم لمن يصنع السرير ، والجمع سراير ، والسرير هو المهد الذي يوضع فيه المولود ويحرك من أجل أن ينام ، وهو إما من دف وهو القديم بالشام ، أو من حديد يصنعه الحدادون ، كالفيلاتية ، وغالب وجوده عندهم بالدرويشية الجادة المشهورة بدمشق) .

وفي حديثه عن البَسْطَاطِي يقول : هو اسم لمن ليس له دكان ، فيسْطُ في أطراف الطريق العمومية ، وغالبتهم عند باب سراية العسكرية ، ويقصد المشيرية التي كانت موضع القصر العدلي اليوم وفي سوق الدرويشية .

وعند بحثي الميداني لحالة السوق الحالية ، تبين لي أن الحوانيت التخصصية التي كانت فيه قد اختفت كلياً ، وحلت محلها متاجر ودكاكين بيع الأحذية والملبوسات النسائية البسيطة ، والملابس الداخلية ، وألعاب الأطفال ، والأدوات العصرية والنوفوتيه ، والمسجلات والراديو ، والساعات ووكالات استيراد الأجهزة المنزلية والكهربائية ، وأجهزة المكاتب ، وثمة حانوت يبيع الهدايا والحيوانات (المحنطة ، المصبرة) ومحل آخر لصناعة الخيزران من مقاعد ومناضد وما شابه ذلك ، وكلما اقتربنا من ساحة باب الجابية التي كانت في العهدين المملوكي والعثماني سوقاً هاماً ، تغيرت معالم التحديث في سوق الدرويشية ، وصارت حوانيت بيع المواد الغذائية بديلة عن متاجر الأجهزة والكهربائيات ، فهناك باعة (القطايف والمطبقات وشلل الكنافة) والزيت والزيتون ، وشواؤو اللحم ضمن المطاعم الشعبية ، والفرايج المشوية والفلافل ، والساكر الرخيصة والموايح ، وفرن لخبز الكعك ، وإسكافية لإصلاح الأحذية المعطوبة فوراً ، وفندق شعبي وصيدليات ، وباعة منتجات نحاسية شرقية ، وهناك أيضاً حوانيت (السمكية) ، وباعة المرطبات والبوظة والحلويات ، والملبوسات الشعبية على اختلاف أنواعها .



صورة سوق الدرويشية

سوق باب الجابية :

يمتد سوق باب الجابية بين سوقي مدحت باشا والسنانية ، مسائراً في امتداده سوق الدرويشية ، ويعتبر استمراراً له مع انعطاف نحو الجنوب الشرقي ، وتعدده الخرائط الحديثة جزءاً من شارع سعد زغلول .

ذكره ابن عبد الهادي بقوله : (سوق باب الجابية وهو يحتوي على دكاكين مختلفة) ، الأمر الذي يشير إلى وجوده في العهد المملوكي ولربما كان أقدم من ذلك ، ولكننا لا نملك الدليل ولا المصدر .

كما ورد ذكره عند القساطلي الذي قال : (وبه تباع العطارة) ، ما يدل على استمراره في العهد العثماني ، أما القاسمي فيروي لنا في قاموسه أن (الخشيفاتي هو اسم لمن يبيع الخشاف ، وهذه الحرفة كانت كثيرة ، وبيعها في الأسواق المشتهرة كباب الجابية) .

وتدل مقولة القاسمي على أن هذا السوق كان شهيراً في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، أما العلاف فلا يذكره بل ينتقل من سوق الدرويشية إلى سوق السنانية مباشرة عندما يقول : (حتى تصل إلى سوق مدحت باشا ، فإذا تجاوزت المدخل في الجادة دخلت سوق السنانية ، وفيه جامع سنان باشا ويتفرع من هنا ثلاثة منافذ ، اثنان على يمين الجادة أحدهما يتصل بحي القنوات وينتهي إلى سيدي خمار- ويقصد شارع خالد بن الوليد - والثاني يتصل بمنفذين آخرين أحدهما ينتهي بطريق كفرسوسة ، والثاني بحي الميدان وقبر عاتكة وسواها) .

الوصف في هذه المقولة ينطبق تماماً على ساحة باب الجابية الحالية ، إلا أن العلاف نسي أن يذكر المنفذ الآخذ إلى سوق الصباغين الذي كان موجوداً في ذلك الزمن .

والغريب أن يطلق اسم سوق السنانية على هذه المنطقة التي ذكرها الأقدمون باسم سوق باب الجابية واشتهرت به .

عند تجوالي في المنطقة لم أجد أثراً للسوق ، بل سمعت الناس يطلقون تسمية باب الجابية (عرفاً) على الجزء الممتد من شارع الدرويشية ، بين جامع درويش باشا وسوق السنانية ، وتبين لي بعد العودة إلى الخرائط القديمة ، وسؤال كبار السن من أهل السوق عن موقعه وامتداده ، أنه كان في العمارة الحجرية الحديثة التي تشغلها الآن دوائر حكومية من بينها (دائرة التموين) وغيرها ، وأنه كان ممتداً ، كما ذكرت في بداية هذا البحث ، بين سوق مدحت باشا والسنانية ، كما لاحظت أيضاً أن سوق البالة ، (البداية الغربية لسوق السكرية) ، يفتح فيه ، أما السوق الذي نحن بصدد فلا وجود له ، بل ما بقي منه لا يتجاوز بضعة حوانيت معدودة على الأصابع فيها باعة (البوظة والحلويات الشعبية) كالقطايف والكنافة وما شابه ذلك ، إلى جانب باعة الخضار والفواكه وباعة الفلافل والفروج المشوي وعصير الفواكه .

في هذا السوق ، أو إن صح التعبير (فيما تبقى من السوق) ، مشيدتان تاريخيتان وهما جامع السنانية ، ومكتب السنانية بجواره .

سوق السنانية :

يمتد هذا السوق المغطى بساطر قوسي من الحديد والتوتياء ، بين محلة باب الجابية وجادة سوق الغنم الآخذة إلى حي الميدان ، وينسب بناؤه للوالي العثماني سنان باشا حوالي سنة (٩٩٩هـ / ١٥٩٠م) وهي نفس الفترة التي جرى فيها بناء جامع السنانية ومكتب السنانية . توجد في هذا السوق قرابة (١٨) قوساً مشيدة من الحجر الصغير ، كانت تحمل سقفاً جملونياً استبدل في حقبة لاحقة بالحديد والتوتياء ، ولعل هذا الاستبدال تم في عهد الوالي العثماني (حسين ناظم باشا) الذي استمرت ولايته على فترات ثلاث ، بين السنوات (١٨٩٥م - ١٩١١م) عندما قام بتغطية الأسواق الكبيرة في مدينة دمشق بسقوف من الحديد والتوتياء حماية لها من الحريق ، ثم لم يلبث هذا السقف أن تآكل سنة (١٩١٦م) ولم يبق منه حالياً سوى قسم صغير ممتد بين جنوبي جامع السنانية وبداية سوق الغنم . ويقول المؤرخون : بلغ طول السوق حوالي (١٠٥) أمتار ، ولعله كان النموذج الأول لأسواق دمشق المغطاة ، وكان به قوم يعملون العلب وغيرهم تجار وصباغون .

تنتشر في سوق السنانية حالياً متاجر لبيع (الفروات) والألبسة العربية ، وقد شاهدت عند زيارتي الميدانية بضع حوانيت للمنتجات النحاسية الشرقية إلى جانب حوانيت للأحذية الشعبية ، ودكان لبيع الحلويات الدمشقية (كالمشبك والجوزية والسمسمية والناطف) وما شابه ذلك .

وذكر القاسمي الذي عدد الصناعات القائمة في دمشق إبان العهد العثماني أن سوق السنانية كان يحتوي على :

١- حوانيت الحبوبايتة ، وهم باعة الحبوب المنوعة من حمص وفول وعدس وقنبز ولوبياء وماش وغير ذلك من صعتر وسماق وقشر رمان يابس ، وسلل وقفف وأطباق من قش للسفر ، ومناخل وغراييل ومكانس ومقشحات .

٢- حوانيت السرايحية : وهم صناع السرايخ - جمع سريجة - وهي وعاء كبير

منسوج من حشيش عريض كالخوص الذي تنسج منه القفف ، يوضع فيه كل شيء ثقيل مثل التراب والأحجار والقمامة والبطيخ ، ويوضع على ظهر الدابة ويتدلى من الجانبين .

٣- مركز بيع الحمام : كان هذا المركز ضمن (قهوة السنانية) ، وكان من يلعب بالحمام ويطيره في الجو يدعى (الحميماتي) وهي شخصية غير مستحبة آنذاك ؛ لأن صاحبها (يكشف) الجيران ، أو حريم الجار عند وقوفه فوق السطوح لممارسة هذه الهواية المقصورة على عدد قليل من الناس ، كما جاء وقت كانت فيه شهادة الحميماتي غير مقبولة في المحاكم ؛ لأنه يمارس الكذب على حميماتي آخر بعد سرقة لأحد طيوره من الجو .

٤- حوانيت الزمارين : وهم من يصنعُ الزمامير من القصب كالشبابة ، وهي آلة نفخ موسيقية تستعمل في الأرياف ويسمى صانعها أو لاعبها (زمار) .

٥- قاعة النشا : وهي المكان الذي يصنع فيه النشاء .

سوق النحاتين :

يقع هذا السوق حالياً في جادة سوق الغنم ، عند نهاية سوق السنانية ، في الطريق الآخذ إلى حي الميدان التحتاني ، ويمتد باتجاه شمالي غربي وجنوبي شرقي بين التربة المردمية ، عند زاوية شارع البدوي ، والتربة السنبلية (تربة آل دركل) ، كما تنتشر حوانيته على طرفي الطريق قرب مقبرة الباب الصغير من جهة الشمال .

وردتنا إشارة يتيمة لتسمية هذا السوق من القاسمي ، وهو يتحدث عن صناعة النحات بقوله : (هو من ينحت الأحجار حسب المرغوب) ثم يقول أيضاً : (ولهم - يقصد النحاتين - سوق مخصوص يعرف بسوق النحاتين ، ومحلات آخر يوجدون بها وينتجون بها أصناف الحجارة ويهيئونها ويصنعونها في دكاكينهم ويبيعونها لمن يرغب بمشتراها ، حاضرة مع نحت الأحجار من نوع الرخام المختصة بشواهد للقبور ، وأجران الماء وغيرها) .

وهذه المقولة تشير إلى وجود مثل هذا السوق في العهد العثماني المتأخر ، ولربما كان أقدم من ذلك بكثير ، ولكن لم يرد له ذكر في المصادر التي تتحدث عن العهد المملوكي أو ما قبله ، كما أن القاسمي اكتفى كأقرانه بذكر اسم السوق دون التعرض لموقعه ، الأمر الذي يفرض أكثر من احتمال حول وجوده سابقاً في نفس موقعه الحالي أو في مكان آخر ، أو حتى في أكثر من موضع واحد ، لكننا لا نملك الدليل على هذا الافتراض .

وتبين لي من زيارتي الميدانية لسوق النحاتين أن أصحاب هذه الحرفة يعتمدون الرخام بالذات ، دون سائر أنواع الأحجار الأخرى ، في تحضيرهم لشواهد القبور واللوحات المؤرخة للمشيدات ، و(البحرات) المزينة بالنوافير والمستعملة لأغراض الديكور ، أما أجران الحمامات والأجران التي كانت تستعمل في تحضير (أكلة الكبة) وهرس البرغل واللحم ، فقد اختفت صناعتها من هذا السوق وغيره من أسواق مدينة دمشق .

سوق السويقة :

يمتد سوق السويقة بين سوقي الغنم وباب المصلى على الطريق الآخذ إلى حي الميدان ، ويشكل في مساره ضلعي مثلث منفرج الزاوية ، ففي بدايته الشمالية يتجه من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي حتى جامع مراد باشا ، (جامع النقشبندي) ، حيث ينعطف باتجاه شمالي جنوبي ليلتقي بسوق باب المصلى ، ويعتبر هذا الأخير امتداداً له ، إذ لا فاصل مكانياً بينهما يشير إلى انتهاء هذا السوق وبَدْء سوق آخر .

ورد اسم سوق السويقة لأول مرة في العهد العثماني ، عندما أشار إليه البديري الحلاق ، أما في العهد المملوكي فلم تكن هذه التسمية مطروحة ، غير أنه قطعاً كان موجوداً بدلالة أمرين : أولهما أن محلة السويقة كانت (ضاحية مملوكية) ، ومن غير المعقول أن لا تقوم عندها سوق ، وثانيهما ما ذكره ابن عبد الهادي عند تعداده لأسواق الميدان بقوله : (سوق عند باب المصلى) ، وهو السوق الحالي القائم في

ذلك الموضوع والذي سأحدث عنه بعد قليل ، و (سوق شمالي المصلى) وهذا الوصف ينطبق على الموقع الجغرافي لسوق السويقة الحالي : إذ هو شمالي المصلى ، أو جامع باب المصلى ، كما يعرف أيضاً ، ثم إن التسلسل المنطقي يؤكد وجود هذا السوق في تلك الفترة ، ولو بغير تسميته نتيجة الاستمرارية الاقتصادية لأسواق المنطقة التي تبدأ بسوق السنانية ثم سوق الغنم ، ومن بعده سوق السويقة ، ثم سوق باب المصلى والجزماتية وأبو حبل .

ويمكنني القول ، إثر زيارتي الميدانية لهذا السوق صيف عام (١٩٨٩ م) ، أنه سوق تخصصي بصناعة النحاسيات وأدوات الزراعة اليدوية الحديدية أولاً ، ثم حواصل الخشب ومناشره ثانياً ، بالإضافة إلى عدد كبير من الحوانيت التي تباع المواد التموينية الاعتيادية كأي سوق آخر في مكان ما من مدينة دمشق .

ومن المشيدات الهامة في سوق السويقة : جامع مراد باشا ، وجامع هتان آغا أو الجامع الصغير ، وقبالته مقام وضريح الشيخ حسن الجباوي .

سوق باب المصلى :

يمتد سوق باب المصلى باتجاه شمالي جنوبي بين السويقة وساحة اليرموك (دوار باب المصلى) ، ويتداخل هذان السوقان بحيث لا يمكن التفريق بين بداية هذا ونهاية ذاك ، وعلى هذا الأساس يمكننا الافتراض نظرياً بأن سوق باب المصلى يبدأ حيث ينتهي سوق السويقة ، في نقطة تتوسط الطريق الممتد بين الجامع الصغير وجامع باب المصلى .

ورد ذكر هذا السوق في رسالة ابن عبد الهادي بقوله : (سوق عند باب المصلى) ، ما يؤكد وجوده في العهد المملوكي ، كذلك أشار إليه القساطلي في سياق حديثه عن أسواق حي الميدان دون أن يسميه ، عندما قال : (ويمتد من رأس هذه السوق الجنوبي) ، ويقصد سوق الغنم ، طريق متسع مستقيم طوله نحو ميلين يخترق الميدان من الشمال إلى الجنوب ، وعلى جانبيه دكاكين وقهاوٍ وحواصل الحنطة ، الأمر الذي يدل على استمراره في العهد العثماني .

وتحدث العلاف عنه في مطلع القرن العشرين وقال : (إلى أن تدخل من باب المصلى وعلى طرفيه حوانيت الحدادين ونجاري الأدوات الزراعية الخشبية كالبرثر والأعواد وما مثلها ، وهناك حدّادون وجلّادون وفرايّة على طول الجادة في جانبيها حتى تصل الجزماتية) .

لم أجد عند زيارتي الميدانية لهذا السوق أيّاً من الحوانيت التي ذكرها القساطلي أو العلاف ، بل رأيت حواصل الخشب ومناشره ، وحوانيت بيع البراميل البلاستيكية والمعدنية ، أما خلاف ذلك فهو سوق عادي كبقية الأسواق المنتشرة في كل حارة أو جادة من جادات المدينة ، حيث محالّ بيع المواد الغذائية والتموينية وغيرها .

سوق الجزماتية :

يقع هذا السوق في محلة الميدان التحتاني التي كانت تعرف في السابق باسم (ميدان الحصى) ، وعلى امتداد سوق باب مصلى ، باتجاه شمالي جنوبي بين ساحة اليرموك (دوار باب المصلى) وجسر (المحلق الجنوبي) عند تقاطعه مع شارع الميدان .

ولم تكن تسمية سوق الجزماتية واردة في العهد المملوكي وكان في موقعه إثنان ذلك العهد ، سوق ذكره ابن عبد الهادي بقوله : (سوق القمح عرصات بميدان الحصى وما والاها) ، إلى أن جاءت أول إشارة إليه في العهد العثماني عندما ذكره القاسمي بقوله : (الجزماتي اسم لمن يصنع الجزمات عندنا في الشام ، ولها سوق مخصص بميدان الحصى يقال له سوق الجزماتية) .

وفي مطلع القرن العشرين ورد اسم هذا السوق عند العلاف الذي قال : (حتى تصل الجزماتية حيث تكثر حوانيت لوازم القادمين من قرى حوران ، جزمات والجزمة حذاء طويل وله طفرأ زرقاء ، عباءات وألبسة مختلفة عربية ، وهكذا حتى تصل إلى باب مصر) .



صورة لسوق الجزماتية

لم أشاهد في هذا السوق ، عند زيارتي الميدانية لأسواق الميدان ، أثراً للجزمات أو العباءات أو الألبسة العربية المختلفة ، بل رأيت سوقاً كبقية أسواق المدينة غير التخصصية ، ينتشر فيه باعة المواد الغذائية والاستهلاكية ، وباعة الخضار والفواكه ، واللحوم . وإذا اعتبرنا الحلويات ، وخصوصاً الشعبية منها كالقطائف والمطبقات ، نوعاً من التخصص ، فيمكننا القول : إن سوق الجزماتية هو سوق تخصصي بها ، في أشهر الشتاء ، وتخصصي بالمرطبات والبوظة في أشهر الصيف ، وفيما عدا ذلك ، فهو سوق استهلاكي مؤلف من مناطق مختلفة التسميات ، ففي بدايته الشمالية ، مما يلي ساحة اليرموك ، يعرف بـ (الصحابة) ، وهي تسمية شائعة أصلها (صهيب) نسبة لجامع سيدي صهيب ، تليها نحو الجنوب تسمية (القرشي) نسبة لمسجد الولي القرشي ، ثم يأتي سوق الجزماتية حتى تقاطع شارع الميدان وجسر الطريق المحلق الجنوبي ، كما أسلفت .

من المشيدات الهامة في سوق الجزماتية تربة (آراق السلحدار) ، وجامع سيدي صهيب ، وجامع الموصلي ، ثم مسجد الولي القرشي ، وهو عبارة عن غرفة صغيرة ، بعده جامع الرفاعي ، ثم حمام الرفاعي ، وعند نهاية السوق الجنوبية وداخل نسقه الغربي ، يقوم جامع منجك .

سوق أبي جرش :

كان في الصالحية ، بمحلة أبي جرش ، بين المدرسة العمرية وجامع الحنابلة .
دُرس^(١) .

سوق الأحد :

كان في حي القيمرية ، قبله [جنوبي] المطرزيين . دُرس^(٢) .



صورة لسوق قديم

(١) القلائد الجوهريّة لابن طولون ٣٥١/١ وح ٦ .

(٢) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ٧٠/٢ ، الأعلام الخطيرة لابن شدّاد ١١٦ ، ثمار المقاصد لابن عبد الهادي ٨٣ .

سوق الأخصاصيين :

كان غربي دار السعادة [في جادة الدرويشية الحالية] ، يصنعون به الأخصاص وأقفاص الطيور ونحو ذلك ، وذكر البصري في تاريخه أن هذا السوق احترق يوم الجمعة خامس ربيع الأول من سنة (٩٠٢ هـ) [أواخر العهد المملوكي] فاحترقت الحوانيت والربوعة التي فوقها جميعاً من الزقاق القبلي إلى الزقاق الشمالي . ويُعرف السوق اليوم بسوق الدرويشية^(١) .

سوق الجمعة :

لا يزال في حي الصالحية ، بجادة المدارس ، وأول ذكر له ورد عند العلاف وفي خارطة بلدية دمشق (١٩٢١م - ١٩٢٤م) ، سمي بذلك لأنه كان يُقام قديماً كل يوم جمعة ، أما اليوم فهو سوق دائم ، وكان سوق الجركسية [الجهاركسية وعاميتها الشركية] في موضع قسمه الغربي مما يلي المدرسة الجهاركسية ، وبجواره من جهة الغرب سوق شعيب^(٢) .

سوق الخجا :

وقد يرد اسمه (سوق الخجة) : كان من أسواق العهد العثماني لصيق الجدار الغربي لقلعة دمشق ، أنشأه راغب بن رشيد الخوجة بعد أن اشترى الأرض من الدائرة العسكرية السلطانية ، بتشجيع من الوالي حسين ناظم باشا خلال ولايته الأولى التي بدأت (١٨٩٥م) وانتهت سنة (١٩٠٧م) ، وذلك للتخلص من الأقدار التي كان الناس يلقونها في خندق القلعة ، وما كان يتبع ذلك من انتشار الروائح الكريهة والأمراض .

وقد جدّد السوق سنة (١٩٠٥م) وقام الوالي المذكور بتغطيته بالحديد والتوتياء

(١) نزهة الرفاق لابن عبد الهادي رقم ٥٨ ، تاريخ البصري ١٩٥ .

(٢) القلائد الجوهريّة لابن طولون ٣٥٤/١ ح ٢ ، دمشق في مطلع القرن العشرين للعلاف ١٩٠ ، ٢٠٤ ، أسواق دمشق القديمة للشهابي ٥١٢ .

أسوة بسوق الحميدية . وفي أواخر سنة (١٩٨٣ م) هدم السوق لكشف جدار القلعة ، وأقيم بديله في شارع الثورة باسم (سوق الخجا الجديد)^(١) .
سوق الخراطين (١) :

كان في محلة الدرويشية ، جنوبي دار السعادة [في سوق الحميدية إلى الغرب من جامع الأحمدية الحالي] . تنسب التسمية إلى صنّاع خراطة الخشب . دُرِسَ .
سوق الصالحية :

اختلفت المصادر في موقعه ، فمنها من يقول : عند التربة التكريتية [هذه التربة اليوم في سوق الجمعة ، قبالة دار الحديث الأشرفية البرانية] ، ومنهم من يجعله قرب الجامع المظفري [جامع الحنابلة] واحترق في العهد المملوكي سنة (٧٤٤هـ / ١٣٤٣ م) وأتت النار على ما يقارب (١٢٠) دكاناً . وبتقاطع المقولتين نستنتج أن سوق الصالحية ربما كان يمتدّ من قرب جامع الحنابلة إلى التربة التكريتية ، ولعله كان يتألف من عدة أسواق أصغر تؤلف بمجموعها هذا السوق ، ولاسيما أن تسمية (سوق) كانت تُطلق في العهد المملوكي على عدة دكاكين متجاورة تباع نفس السلعة . غير أن الأستاذ دهمان جعله بين جامع الحنابلة والمدرسة العمرية . ويُعرف سوق الصالحيّة أيضاً بسوق الصالحية الكبير . واليوم لا يزال هذا السوق ممتداً بين التربة السلامية [تربة ابن سلامة الرقي] والتربة التكريتية . دُرِسَ^(٢) .

* * *

(١) دمشق تاريخ وصور للشهابي ط ٢ ، ٢١٩ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٧٢ / ١٤ ، ٢٤٣ ، الدارس للنعيمة ٢ / ٢٣٧ ، مختصر تنبيه الطالب للعلموي ١٨٨ ، القلائد الجوهريّة لابن طولون ١ / ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣٥١ و٦ .

الخانات والقيساريات والحمامات

أولاً - خانات دمشق شواهد شامخة على التاريخ الاقتصادي :

تألقت دمشق منذ بزوغ شمس الحضارة الإنسانية موقعها البارز على طرق التجارة العالمية ، ولكونها من المراكز الهامة لمرور القوافل التي تحمل السلع الرائجة بين الشرق والغرب عبر الصحراء ، وتأهلت ذاتياً للتعامل مع هذه الحركة العالمية للتبادل عبر تلك الشرايين التي نظمتها سواعد الرجال وعقولهم ، ولا ريب في أن دمشق ، الواحة الكبيرة في المشرق العربي حيث تتلاقى القارات الكبرى الثلاث . لعبت هذا الدور الحضاري بكفاءة وأعدت له مستلزماته من خلال الحاجة والممارسة والتجربة .

برزت الخانات بعد الفتح الإسلامي لدمشق وقيام الدولة الأموية التي أنشأت شبكاتها الإدارية والعسكرية والبريدية ، وتعددت أغراضها في المراحل الأولى فكانت للاجتماع والمبيت وتخزين البضائع وعقد الصفقات ، وتراوحت وظائفها بين إيواء القوافل وتموينها ، وبين كونها مقراً للمقاتلين ، أو منشآت لأغراض البريد أو العمل الفندقية البحت .

وتتمتع الخانات بهندسة عمرانية خاصة ووظائف متشابهة ، فهي من حيث تصميمها تتألف غالباً من طابقين وتحتوي في داخلها على باحة سماوية تتوسطها بركة ماء وغرف عديدة على جوانب الساحة تستخدم كمستودعات لخزن البضائع ، والطابق العلوي يتألف من غرف عديدة وهي مكان لنزول التجار فيها وتضم اسطبلات ومسجداً ومكاتب للتجارة ، وقد تختص هذه الخانات والقيساريات بسلعة من السلع أو مهنة من المهن أو لتجار مدينة ما .

وتتميز عمارة الخانات ، فهي تفتح وتغلق بأبواب واسعة كبيرة تتسع لمرور القوافل ويكون الباب عادة ضمن إيوان على جانبيه مقعدين من الحجر (مكسلتين) ، ويغلق بمصراعين من الخشب المصفتح بالحديد ، يفتح في أحدها باب صغير (خوخة) ، يلي الباب دهليز مسقوف بعقد ، وتوجد على جانبيه مخازن تجارية ، كما يوجد درج على أحد جانبيه للصعود إلى الطابق الأعلى .

ويؤدي الدهليز إلى باحة واسعة تتوسطها بركة ، والباحة غالباً مسقوفة بقباب عالية ، وتحيط بالباحة غرفٌ مطلة عليها مباشرة أو تفصل بينهما أحياناً أروقة ذات أقواس محمولة على عضائد .

أما الطابق العلوي فيتألف من رواق مسقوف غالباً بالقباب الصغيرة وأحياناً بقباب معقودة ، وعلى جانبه أو جانبيه غرف صغيرة ، والخان مبني بالحجارة الجيدة النحت ، في واجهته وبوابته وجدرانه الداخلية . أما القباب فمبنية بالأجر ومطلية بالكلسة البيضاء . ويتخلل الواجهات والبوابات بعض الحليات المعمارية والأحجار الملونة . وغالباً ما تضم واجهات الخان الخارجية مخازن تجارية مفتوحة على السوق العام .

وقد أوردت الوثائق أسماء وأوصاف عدد من الخانات والقيساريات في مدينة دمشق ، ونذكر فيما يلي أسماء الخانات التي وردت في وثائق المحاكم الشرعية على سبيل المثال .

خان أسعد باشا العظم :

يقف على رأس خانات دمشق بصورة خاصة ، وخانات المشرق العربي بصورة عامة من حيث ضخامة البناء وقوة التصميم وفخامة المدخل وتعدد الأقسام ، وقد شيده أسعد باشا العظم والي دمشق بين عامي (١٧٤٣م و ١٧٥٦م) على مساحة تزيد عن ٢٥٠٠ متر مربع من وسط سوق البزورية الشهير ، وتزدان واجهته الخارجية الشاهقة بأقواس من المقرنصات تلتقي في ذروتها بقوقعة منحوتة على شكل حوز مجوفة ، وتعلوها لوحة عريضة من الزخارف المتشابكة والمربعات المرصعة بالرخام

والحجارة الوردية والمشقفات السوداء ، وتتوسطها الكتابة التاريخية .

وفي أعلى جهة المدخل نافذتان متناظرتان مغلفتان بشبكين حديديين ، ويمر الدهليز إلى قلب الخان تحت سلسلة من القنوات المتصالبة المزدانة بالنجميات والأزهار المنحوتة ، ثم ينفذ إلى ساحة ذات منظر شرقي جليل تبلغ مساحتها ٧٢٩ متراً مربعاً ، ويسرح البصر فيها عالياً إلى مدى شاهق حيث تحلق تسع قباق على ارتفاع عشرين متراً ، تحملها أربعة أعمدة ضخمة وتتوسط الساحة بحرة كبيرة ذات أضلاع من حجر البازلت الأسود .

يتمتع الفراغ الداخلي للخان بمشهد ضخم يعود بنا إلى أجواء القرون الوسطى ، فهناك أربع واجهات حجرية للغرف الأرضية تتعاقب فيها المداميك السوداء والبيضاء ، وتعلوها شرفات الطابق العلوي التي تطل على داخل البناء من الجهات الأربع ، وحولها رواق متواصل له درابزينات خشبية متشابكة بأشكال هندسية ، وتعلوها سلسلة من العقود بالألوان الحجرية القائمة .

حول ساحة الخان إحدى وعشرون حجرة لها مستودعات داخلية ، وكانت تستخدم مكاتب ودكاكين تجارية ومشغل حرفية ، ولها أبواب من الخشب المتين المحفور ونوافذ ذات شباك حديدية ، وفي الطابق العلوي خمس وأربعون غرفة لها أبواب من الخشب المنقوش ونوافذ خارجية وداخلية .

يقوم خان أسعد باشا منذ إنشائه بدور تجاري بارز في دمشق ، وكانت مخازنه إلى وقت قريب ملأى بمواد الرز والسكر والتوابل والبهارات والسكر والخيط والبالات ، وحين تردى وضعه بسبب الاستخدام السيئ وسوء النظافة وعدم الصيانة تدخلت المديرية العامة للآثار والمتاحف بادئة باستملاك خان أسعد باشا ، ثم أنفقت مبالغ طائلة على ترميمه حتى استعاد نظافته ومئاته ورواه وتوازنه ، وتدرس وزارتا الثقافة والسياحة الوجوه الفضلى لتوظيفه بشروط تصون عمارته وأقسامه ، وتظهره بالشكل اللائق ، وتؤمن له الاستخدام المجدي والحي .

خان العمود :

هو الخان الصغير المقابل لخان أسعد باشا ، ويضم عدة مخازن موزعة على باحتين يصل بينهما ممر ، وفي الباحة الداخلية بقايا عمود تبدو عليه بدايات عقود يبدو منها أن الباحتين كانتا تعلوهما قباب تهدمت منذ زمن بعيد ، وهناك طابق يضم عدة غرف مقيمة ، تحتفظ بأبوابها القديمة ، وتشغل هذا الخان مستودعات الصابون والمنظفات والساكر ومصنوعات البلاستيك .

خان الصدرانية :

يستقبل الزائر لسوق البزورية عند انعطافه إلى سوق الصاغة أو إلى متحف التقاليد الشعبية في قصر العظم ، وقد وضع تصميم هذا الخان وفقاً لموقعه والرقعة المستطيلة الضيقة التي أقيم عليها ، ويبدأ الخان برواق مائل إلى الانحدار تعلوه ثلاث قباب متوالية ، وعلى جانبيه ثمانية مخازن ، ثم تظهر باحة مستطيلة يحيط بها رواق المخازن تحتفظ بأبوابها الخشبية القديمة ونوافذها الحجرية ، كما أن الطابق العلوي يطل على الباحة من نوافذ قديمة ، وفيه غرف عديدة ذات قباب من الآجر الأحمر .

وتبدو في هذا الخان مهارة التصميم الذي يحتوي على حلول هندسية سمحت بالاستفادة من كل شبر ، وتوزع الضوء والفراغات بصورة عملية ، على الرغم من ضيق الموقع وانحصاره على مفترق طرق ضيقة ومزدحمة بالمرور .

خان جقمق :

في سوق مدحت باشا ، من العصر المملوكي أنشأه سيف الدين جقمق نائب السلطة بين عامي (٨٢٢ - ٨٢٤ هـ) ويقع في الطرف الغربي لسوق مدحت باشا وإلى الشرق من خان الزيت ، في مدخله أقدم بوابة مشرعة ومزخرفة لخانات دمشق ، يقودنا ممر مسقوف إلى باحة مستطيلة ذات بحرة مضلعة يحيط بها ثمانية عشر مخزناً وإيوانات ، والطابق العلوي أعيد ترميمه بعد حريق وأصبح بناءً حديثاً ، وتشغل متاجر الجوخ والأقمشة والخیوط أهم أقسام هذا الخان . وهناك أيوان مغطى بقبة

متصالبة من الطرفين الشرقي والغربي ومؤلف من ٢٢ غرفة وهذا الخان مبني من الحجارة المنحوتة .

خان الخياطين :

يتوسط الجانب الشرقي من سوق الخياطين ، أنشأه الوالي العثماني شمس باشا في عام (٩٦٣ هـ) ، وله بوابة عالية ومزخرفة تحمل كتابة تركية عن تأسيس الخان يليها ممر مسقوف بقبوة سريرية ، يقودنا إلى باحة مستطيلة بها رواق واثنان عشر مخزناً ، كانت هناك بحرة مستطيلة تشغل وسط الباحة ، ولكنها زالت منذ سنوات ، وفي الطابق العلوي من الخان العديد من الحجرات التي تشغلها مشاغل الخياطة وآلات صناعة الكنزات . وهذا أقدم خان عثماني في دمشق ، يميزه بابه وجدرانه الخارجية التي حافظت على أصالتها .

خان الحرير :

بناه الوالي العثماني درويش باشا في عام (٩٨١ هـ) الموافق لعام (١٥٧٣ م) ، وأوقفه على جامع الدرويشية المعروف ، الذي بناه الوالي المذكور مقابل السور الغربي لدمشق ، وهو الآن (الجامع) في الموقع المواجه ، لمدخل منطقة الحريقة التجارية ، ويمكن رؤية واجهته البديعة من وسط المنطقة المذكورة .

أما الخان فهو قائم وسط سوق الحرير جنوبي الجامع الأموي ، وتبلغ مساحته ٢٥٠٠ متر مربع ، يحيط به على جداره الخارجي سبعة وعشرون مخزناً مسقوفة بقبوات سريرية ومبنية بالحجر ، وللخان باب مزخرف يتألف من مصراعين وعليه نص عربي عن تاريخ البناء ، ويليه مدخل مسقوف بقبوات متصالبة ، يقود الداخل إلى باحة يحيط بها تسعة عشر محلاً ذات أبواب ونوافذ مقوسة تزدهن بالزخارف .

أما الطابق العلوي المبني بالحجر الأبيض ، فيبدأ برواق تعلوه أربع وأربعون قبة صغيرة ، وتتوزع على مساره الغرف التي يزيد عددها على خمسين غرفة ، وجميعها تستخدم محلات ومعارض ومستودعات ومشاغل لصنع المطرزات والجوارب والأحذية والبقايب ، وهو من الخانات الواسعة التي تستخدم بكثافة عالية وفعالية كبيرة .

خان الجمرک :

بناه الوالي مراد باشا عام (١٥٩٦م) ، وقيل : إنه كان موقوفاً على فقراء الحرمين الشريفين ، ثم انقلب إلى ملكية خاصة ، ويبدو أن اسمه السابق هو خان المرادية ، وله أبواب من المرمر والحجارة التي يتناوب فيها اللونان : الأصفر والأسود .

وقد تحول هذا الخان إلى سوق مزدحم يضم أكثر من خمسين مخزناً لبيع الأقمشة والنسيج ، ويمتاز هذا الخان بسلسلة من القباب العالية تشتمل على عشرات الشبايك والقماري .

وقد تعرض هذا الخان لحريق شديد منذ سنوات ، وأعيد بناء متاجره وترميم جدرانه وقبابه ، ويُعدُّ من أجمل المعالم التجارية في أسواق دمشق القديمة ، كما أنه في الواقع من أهم التفرعات المتصلة بسوق الحميدية .

خان الزيت :

ويتميز خان الزيت خلافاً للخانين المجاورين له باحتوائه على عشرين قبة صغيرة وقد نسبت تسميته إلى الزيت الذي كان يباع فيه في القسم الغربي من سوق مدحت باشا ، بُني في القرن السابع عشر من العهد العثماني وله باب مشرع ومزخرف ومدخل جميل يقودنا إلى باحة مستطيلة في وسطها بركة ماء يحدها رواقان قائمة على أعمدة وأقواس والطابق العلوي مؤلف من رواق مسقوف بقباب صغيرة وذو صف واحد من الغرف ، وهناك ثمانية عشر محلاً بين ورشة خياطة ومعمل نسيج ومستودع .

خان سليمان باشا :

ويعرف أيضاً بخان الحماصنة نسبة إلى نزلائه من تجار مدينة حمص أنشأه والي دمشق في العهد العثماني سليمان باشا العظم ، وانتهى بناؤه في عام (١٧٣٦م) وفقاً للنص المحفور على حجارة الباب ، ويقع هذا الخان جنوب سوق مدحت باشا على

بعد أمتار قليلة من مدخل سوق البزورية ، قريباً من محلة الدقاين ، يبدأ بواجهة من الحجر المنحوت بمداميك تحت قبوات متصالية ، وعلى الجانبين أربعة مخازن تليها باحة مستطيلة تقارب مساحتها ثلاثمئة متر مربع مبلطة بالحجارة ، كانت تتوسطها بحرة للمنافع ودورة المياه ، ويبدو أن سماء الباحة كانت مغطاة بقبتين انهارتا منذ سنوات ، وبقيت الأقواس المستننة قائمة وله طابق علوي يصعد إليه بواسطة درجين في جانبي دهليز المدخل .

ويشتمل هذا الخان على ٤٦ مخزناً وحجرة ما تزال تحتفظ بأبوابها ونوافذها القديمة واجهاته وعقوده مبنية بالحجر الأبلق .

هذه هي أهم الخانات الباقية في دمشق . ويلاحظ أنها قائمة في الأسواق التجارية التي تحيط بالجامع الأموي الكبير من الجنوب والغرب ، وتشتمل على أكثر مناطق النشاط التجاري التي تحيط بالجامع الأموي الكبير من الجنوب والغرب ، غير أن الخانات لم تعد مؤهلة لاستيعاب الفعاليات التجارية المتزايدة التي غطت الأسواق بكثافة غير معهودة ، وفرضت إقامة أسواق حديثة تتناسب مع اتساع رقعة دمشق وترامي أطرافها ومضاعفة سكانها الذين ارتفع تعدادهم إلى الملايين ، ولقد عدد الباحث الدكتور فؤاد يحيى أسماء ٢٦٧ خاناً في دمشق ، في دراسة نشر ملخصها في مجلة الحوليات الأثرية ، ولم يبق من هذه الخانات إلا القليل ، غير أن النماذج الباقية التي أشرنا إلى بعضها توضح الأهمية المعمارية والأثرية لهذه المؤسسة الاقتصادية طوال العصر الإسلامي ، وتعبّر عن الوظائف المتنوعة التي تحملت أعباءها في مجرى النشاط الإنساني الطويل .

وتبقى خانات دمشق صروحاً عمرانية شاهقة تشهد على عبقرية واضعي التصميم ومعلمي البناء ودقة الحرفيين الفنانين ومثانة المواد وأمانة العمال المنفذين ، فهي أبنية شامخة يجول فيها البصر بنظرات الإعجاب والاحترام ، وأوابد فخمة تتحدث عن التاريخ الاقتصادي لبلاد الشام .

خان التن^(١) :

من العهد العثماني ، ويقع في سوق الصاغة جنوبي الجامع الأموي وبابه مفتوح على سوق السلاح صحنه مسقوف بالقباب ، حيث تغطي قسمه الرئيسي ثلاث قباب كبيرة ، طابقه العلوي مؤلف من ممر مسقوف بعقد وتوزع على جانبيه غرف صغيرة ويتفرع من باحته بواسطة دهليز ضيق جناحان صغيران مماثلان للخان .

خان السفرجلاني :

خان صغير من العهد العثماني ، يقع في سوق الصاغة وهو مؤلف من طابقين . له صحن مسقوف بثلاث قباب وحوله رواق .

خان الصدراني :

من العهد العثماني ويقع بالقرب من قصر العظم ، بابه مفتوح على سوق البزورية ، له دهليز مسقوف بعقد وثلاث قباب يليه صحن متعامد مع الدهليز المسقوف بقبطين أيضاً ومحاط بأروقة من ثلاث جهات . له طابق علوي ذو ممر مسقوف بالقباب ، وذو غرف صغيرة .

خان الدكة :

من خانات العهد المملوكي قرب النهاية الغربية لسوق مدحت باشا وهو من أقدم الخانات المملوكية التي مازالت موجودة في مدينة دمشق القديمة يؤرخ (٧٤٠هـ / ١٣٢٩م) .

خان الصنوبر :

وهو خان الفوقاني أو خان المحروق أنشئ قبل عام (١٩٢٤م) وهو خان صغير عموماً .

خان الرز :

أنشئ قبل عام (١٩٠٠م) وهو عثماني متخصص في تجارة الرز . وبعد ، فأورد فيما يلي ثبناً بأسماء أهم خانات دمشق :

(١) التن كلمة تركية تعني التبغ .

خان قطنا :

يقع بين الخانين الجمرك والمرادية

خان الزعفرنجية :

يقع في سوق القلبقجية جنوبي خان الجمرك .

خان الجوخية :

بناه الوالي أحمد شمسي باشا عام (٩٦٠هـ / ١٥٥٣م) .

ثبت بأهم خانات دمشق الأخرى :

- | | |
|------------------------------|------------------------------|
| ١- خان أربك | ٢- خان أسعد باشا |
| ٣- خان الإصطبل | ٤- خان الأقمشة |
| ٥- خان البطيخ | ٦- خان البقسماط |
| ٧- خان التين | ٨- خان التوبة (قرب الجامع) |
| ٩- خان التوبة (شارع النصر) | ١٠- خان جقمق |
| ١١- خان جلق | ١٢- خان الجلود |
| ١٣- خان الجمرك | ١٤- خان الجواميس |
| ١٥- خان الجوخية | ١٦- خان الجيجاوي |
| ١٧- خان الحججي | ١٨- خان الحرمين |
| ١٩- خان الحرير | ٢٠- خان الحصني |
| ٢١- خان حكر السماق | ٢٢- خان الخيال |
| ٢٣- خان الدكة | ٢٤- خان الرز |
| ٢٥- خان الزعفرنجية | ٢٦- خان الزيت |
| ٢٧- خان السبيل | ٢٨- خان سرور |
| ٢٩- خان السفرجلاني | ٣٠- خان السلطان العتيق |

- | | |
|---------------------|-------------------------|
| ٣٢- خان السيد | ٣١- خان سليمان باشا |
| ٣٤- خان شموط | ٣٣- خان الشاغور |
| ٣٦- خان الصدرانية | ٣٥- خان الشيخ صالح |
| ٣٨- خان الصواف | ٣٧- خان الصنوبر |
| ٤٠- خان طولون | ٣٩- خان الصاغة |
| ٤٢- خان عاتكة | ٤١- خان الظاهر |
| ٤٤- خان العامود | ٤٣- خان العنبري |
| ٤٦- خان العميان | ٤٥- خان فارس |
| ٤٨- خان قصر الحجاج | ٤٧- خان القطن |
| ٥٠- خان قماري | ٤٩- خان القوتلي |
| ٥٢- خان الكزبري | ٥١- خان لالا مصطفى باشا |
| ٥٤- خان الليمون | ٥٣- خان المرأة |
| ٥٦- خان المرادية | ٥٥- خان المرجة |
| ٥٨- خان مردم بك | ٥٧- خان المقدم |
| ٦٠- خان منجك | ٥٩- خان الناصر |
| ٦٢- خان النجبي | ٦١- خان النحاس |
| ٦٤- خان مراد باشا | ٦٣- خان البصل |
| ٦٦- خان الحوصلية | ٦٥- خان الهوى |
| ٦٨- خان الدهيناتية | ٦٧- خان المحتسب |
| ٧٠- خان الطبجي | ٦٩- خان حسن باشا |
| ٧٢- خان فجماس | ٧١- خان الفحم |
| ٧٤- خان الأوضة باشي | ٧٣- خان مقصود |

٧٦- خان الياسرجية	٧٥- خان البياض
٧٨- خان الباشا	٧٧- خان العتالين
٨٠- خان المشعلجية	٧٩- خان العياط
٨٢- خان البهرامية	٨١- خان الجصطل
٨٤- خان العصريونية	٨٣- خان بني الرفاعي
٨٦- خان الأبازة	٨٥- خان البارجية
٨٨- خان بكار	٨٧- خان بني الصايغ
٩٠- خان الشيخ	٨٩- خان الملاح
٩٢- خان القيشاني	٩١- خان فتحي
٩٤- خان الجوار	٩٣- خان القاري
٩٦- خان العمود	٩٥- خان أسعد باشا العظم
٩٨- خان جقمق	٩٧- خان الصدرانية
١٠٠- خان الحرير	٩٩- خان الخياطين
١٠٢- خان سليمان باشا	١٠١- خان الزيت
١٠٤- خان الزعفرنجية	١٠٣- خان قطنا
	١٠٥- خان التتن

الخانات الزائلة :

- خان بمحلة القماحين ، خارج دمشق
- خان بني الناشف : كان بالقرب من جامع درويش باشا .
- خان بني رمضان : كان بمحلة الشيخ محيي الدين .
- خان الخضيرية : كان داخل دمشق بحلة القطانين .
- خان السمرجية : ويعرف أيضاً بخان الحورة .

خان سيياي : لعله منسوب إلى نائب السلطنة في أواخر العهد المملوكي ، لكنه
مذكور في وثائق عام (١٠٤١هـ / ١٦٣١م) .

خان لوضع الغلة : داخل باب شرقي .

خان عبد العظيم : داخل دمشق .

خان الثلاج .

خان بسوق الحمام .

ذكرت هذه الخانات في وثائق المحاكم الشرعية لعام (١٧٥٦م)

ثانياً - الحمامات الدمشقية :

اشتهرت دمشق بحماماتها لتدفق المياه عليها من كل صوب ، واشتهرت
حماماتها بأناقة بنائها وحسن نظافتها ، وفي حماماتها المحدثه في القرن العاشر
وما بعد مقاصير من القاشاني البديع ، وآخر ما دثر منها حمام القيشاني وحمام
الخياطين . وكان في دمشق في القرن التاسع مئة حمام .

يقال : إن الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك عندما بنى المسجد الأموي
بدمشق تحدّث إلى أهلها بقوله : « تفخرون على الناس بأربع خصال ، تفخرون
بمائكم وهوائكم وفاكهتكم وحماماتكم فأحببت أن يكون مسجدكم الخامسة » .

إن أول من تحدّث عن حمامات دمشق الحافظ ابن عساكر ، فذكر سبعة
وخمسين حماماً ، ثم أتى بعده ابن شداد فزاد عليها حتى بلغت خمسة وثمانين
حماماً . وفي القرن الثاني الهجري أتى أبو علي الحسن بن أحمد بن زفر الأربلي
الشافعي المتوفى سنة (٧٢٦هـ) ، فعدد سبعة وسبعين حماماً داخل دمشق ، ثم
نقل يوسف عبد الهادي في مخطوطه « عدة كلمات في مقدار الحمامات » ما ذكره
ابن شداد والأربلي فبلغ مجموع ما عدده مئة وسبعة وستين حماماً ثمّ تعرض
عبد القادر محمد النعمي الدمشقي في كتابه « الدارس في تاريخ المدارس » لذكر
سته وثلاثين حماماً ورد ذكر معظمها في ماكتبه من سبقه . وعدد محمد بن طولون

الصالحى المتوفى سنة (٩٥٣هـ) في كتابه « القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحية ،
فذكر أحد عشر حمّاماً .

وفي القرن الحادي عشر وفي عام (١٩٤٢م) أفردَ المهندسان الفرنسيان
أيكوشار ولوكور لحمّامات دمشق كتاباً من جزأين أطلقا عليهما اسم « حمّامات
دمشق » عدّدا فيه حمّامات دمشق في تلك الفترة فبلغت ستين حمّاماً ، كما أصدر
صلاح الدين المنجد عام (١٩٤٧م) كراساً بعنوان « حمّامات دمشق نصوص قديمة
من ابن عساكر وابن عبد الهادي » أورد فيه بحثاً بعنوان حمّامات دمشق في زماننا
عدد فيه ثمانية وعشرين حمّاماً .

وفي أواخر العهد الخامس من هذا القرن أجريت دراسة ميدانية لهذه الحمّامات ،
فكان منها تسعة وعشرون حمّاماً لا تزال تقوم بوظيفتها وحوّلها أصحابها ومُلاكها إلى
دور للسكن أو إلى محالٍّ للصناعات والتجارات وخزن البضاعة ، وبعد ربع قرن من
الزمان عادت الدراسات حول الحمّامات التي كانت تمارس وظيفتها في الخمسينيّات
من هذا القرن فوجد ما يقارب ثلثها قد توقف .

وهكذا بلغت الحمّامات التي تخلت عن عملها في أيامنا هذه سبعة وعشرين
حمّاماً بعد أن قامت المديرية العامة للآثار والمتاحف بدمشق بإخلاء حمّام نور الدين
بالزورية من المحالِّ التجارية والمستودعات التي كانت تشغل أجزاءه وأشرفت على
ترميمه بشكل يماثل وضعه الأصلي ، ومن هذه الحمّامات :

١- حمّام العفيف :

وينسب إلى الشيخ محمد العفيفي ، أوردّه أيكوشار ولوكور في كتابهما في جملة
حمّامات ما قبل القرن الرابع عشر الميلادي .

٢- حمّام الجوزة :

وهو من الحمّامات الأثرية المسجلة لدى المديرية العامة للآثار والمتاحف ،
التي اعتبرته من حمّامات القرن السادس الهجري ، وقد عدّه أيكوشار في جملة
حمّامات القرن الرابع عشر الميلادي .

٣- حمّام السلطان :

(في حي الأقباص ، غرب جامع السادات) سمي بذلك ؛ لأن السلطان سليماً كان يتردد عليه ، وكان له مدخلان : الأول رئيسي وهو على الجادة من جهة الشمال بالنسبة للحمّام ، والمدخل الآخر فرعي وهو بالشرق .

وقد حدث أن السلطان سليماً كان يدخل من المدخل الذي على الجادة ويخرج من الباب الفرعي الذي بالشرق ، وقد عده أيكوشار في جملة حمّامات القرن الرابع عشر الميلادي ، وعَدَّتْهُ المديرية العامة للآثار والمتاحف من حمّامات القرن السابع الهجري ، ونسبته إلى الملك الأشرف قايتباي ، وأنه بني عام (٦٩٤ هـ) .

٤ - حمّام قصر العظم :

وهو أنموذج لحمّامات القصور الدمشقية والدور الخاصة ، ويعتبر من الحمّامات التي حافظت على رونقها وطابعها ومكوناتها دون المساس بأي جانب منها ، وقد حولت المديرية العامة للآثار والمتاحف هذا الحمّام إلى متحف شعبي جزءاً من متحف التقاليد الشعبية في قصر العظم ، وقد عده أيكوشار زهرة حمّامات القرن ١٨ و١٩ الميلادي .

٥- حمّام الخراب :

وقد اعتبره أيكوشار من حمّامات القرن ١٨ و١٩ الميلاديين .

٦- حمّام فتحي :

وهو من الحمّامات الدمشقية الحديثة العهد « القرن الثامن عشر » وقد اعتبرته المديرية العامة للآثار والمتاحف أنموذجاً للآثار العثمانية . وقد جدده عام (١٣١٦ هـ) السيدان شفيق ومحمود ولدا عارف آغا النوري .

حمّامات تعمل إلى اليوم :

أما الحمّامات التي لا تزال تمارس عملها في أيامنا هذه فقد بلغ عددها ٢٠ حمّاماً ومن هذه الحمّامات :

١- حَمَّام الملك الظاهر :

يقع في باب البريد شمالي المدرسة الظاهرية ويتألف من :

١- البراني : رباعي الشكل محاط بأقواس عليها قبة ذات (١٢) نافذة ، فيه (٤) مصاطب ، وتتوسطه بحرة وردية .

٢- الوسطاني : يضم بحرة ومراحض ورشاشين للماء ومقصورة .

٣- الجواني : على طرفيه ايوانات يتفرع منهما مقصورتان الأرض مبلطة بالحجر الأسود والوردي ، والواجهات من الحجر الأبلق .

من الحَمَّامات الدمشقية الشهيرة . ذكره النعمي الدمشقي في « الدارس » وجاء في الحاشية أنه معروف بحَمَّام الملك الظاهر بجوار المدرسة الظاهرية ، وعدّه أيكوشار ولوكور في كتابهما في جملة حَمَّامات ما قبل القرن الرابع عشر الميلادي . ينسب هذا الحَمَّام إلى أحمد بن الحسين العقيقي أحد أعلام الشيعة .

٢- حَمَّام النوفرة :

ويقع عند أسفل درج باب جيرون « النوفرة » للمسجد الأموي عند بحرة كانت قائمة حتى الستينيات من القرن العشرين وكانت ذات نوفرة تتشامخ منها المياه عالياً ، وكان يعرف قديماً باسم حَمَّام درب العجم الكبير ، كان لهذا الحَمَّام أهمية كبيرة بسبب موقعه عند أحد أبواب المسجد الأموي . ويتألف من ثلاثة أقسام :

١- البراني : صحن رباعي الشكل تتوسطه بحرة من الحجر الوردي .

٢- الوسطاني : يضم الدورات ومصطبة ومقصورة .

٣- الجواني : يضم إيوانين وأربعة أجران ومثلاث مقصورات .

بلاط هذا الحمام من الحجر الأسود والوردي والرخام وواجهته من الحجر الأبلق .

٣- حمّام نور الدين :

يقع في سوق البزورية بجوار خان أسعد باشا ، ينسب إلى السلطان نور الدين ، وهو من أقدم الحمّامات الدمشقية القائمة في أيامنا هذه ، ذكره أيكوشار ولوكور في جملة حمّامات ما قبل القرن الرابع عشر الميلادي ، وقد اعتبرته المديرية العامة للآثار والمتاحف في جملة الآثار الهامة بمدينة دمشق ، ونسبته إلى السلطان نور الدين محمود الشهيد .

باب الحمام الغربي يفتح على ممر مغطي بقبة يؤدي إلى القسم البراني المسقوف بقبة ، وتتوسطه بركة ماء تُغذى من خزانات الحمام . في جانب الإيوان الشرقي الشمالي مدخل يؤدي إلى ردهة صغيرة مغطاة بقبتين نصف كرويتين ، وفي شمالها مدخل إلى الوسطاني تطلله ثلاثُ قبابٍ ، وإلى الغرب منه يفتح الجواني ، وهو مستطيل الشكل تعلوه قبة وقد رصفت أرضية الحمام بالرخام المزخرف الجميل .

٤- حمّام التوريزي :

ورد في « الدارس » للنعمي الدمشقي أنه في سنة ثمان وأربعين وثمانمئة في شهر ربيع الأول فتح حمّام الأمير عز الدين خليل التوريزي شرقي مدرسته . وهو حمّام كبير حسن .

وقد أثبت أيكور وزميله هذا الحمّام في زمرة حمّامات القرن الخامس عشر الميلادي (١٤٤٤م) وهو تاريخ قريب من التاريخ الذي حدده النعمي الدمشقي وهو سنة (٨٤٨هـ) واعتبرت المديرية العامة للآثار والمتاحف هذا الحمّام من الحمّامات الدمشقية ذات الصفة الأثرية ، ووضعت على بابه لافتة كتب عليها : حمّام التوريزي (٨٤٨هـ) بناه الأمير خليل التوريزي صاحب الحجاب (بين باب سريجة وحي قبر عاتكة) .

٥- حمام الزين :

وهو من حمامات القرن الثامن الهجري وتعدّه المديرية العامة للآثار والمتاحف من الأبنية الأثرية ، وصنّفه أيكوشار في زمرة حمامات القرن الرابع عشر الميلادي وعلى مدخله لوحة ذكر فيها أنه رقم عام (١٢٨٩ هـ) على يدي ابن النوري . في حي السوق أنشأه (ابن النشو) (٧٩٩ هـ / ١٣٩٧ م) .

٦- حمام السلسلة :

في حي الكلاسة قرب الباب الشمالي للجامع الأموي ، ويعرف أيضاً بحمام (المؤيد) ، ويعتقد (ولتسنجر) بأنه من بدايات القرن التاسع عشر للميلاد ، بينما يرجعه (إيكوشار) إلى ما قبل القرن الرابع عشر للميلاد ، وتقول الروايات بأن تسميته جاءت من (سلسلة) كانت تتدلّى في مدخله ويقسم عليها الناس إذا اختلفوا في أمر ما .

٧- حمام فتحي :

الذي ينسب إلى فتحي أفندي الدفتر دار ويقع في الميدان الوسطاني ، بناه في عام (١١٥٦ هـ / ١٧٤٣ م) ، ويشمل على براني فيه بركة ماء من الرخام المشقف والمزخرف بحشوات جميلة والحمام على شكل صحن رباعي تحيط به أربعة أقواس ، تحت القوس الشمالي والجنوبي إيوانان كانت تنتظم حولهما المساطب ، وتحت القوس الشرقي مسطبتان على جانبي المدخل إلى البراني من الشارع ، وتحت القوس الغربي مصطبة إلى جانبها مدخل إلى الوسطاني ، وأرضه مبلطة بالرخام والحجر الأسود والوردي ، وفوق الأقواس قبة .

٨- حمام إسماعيل باشا :

يقع في سوق الخياطين جنوب خان الجوخية ، ويعرف باسم الوزير إسماعيل باشا . يضم براني وجوني ، البراني يحتوي على بركة ماء ومشلع وعدة مصاطب مستديرة ومنافع شرعية ، والجواني يحتوي على عدة مقاصير وأجرنة وبيت حرارة

وقميم وخزانين نحاس أحدهما دخانية والثانية نارية ومرافق ومنافع شرعية يأخذ البراني شكل باحة مربعة بها أربعة أقواس تلتقي بدعائم ، وفوقها قبة بها ثمانية نوافذ ، فوق كل نافذة تزيينات بعروق نباتية متناظر في جميع النوافذ ، يحيط بتلك العروق أقواس مزينة برسوم ورود على مهاد أزرق ، في مركز القبة تقوم رقبة أسفلها مزين بالورود ، وقد بُلِّطَتْ أرض الحمام بأنواع الرخام وزخرف بألوان ومقرنصات جميلة متناظرة .

٩- حمام سليمان باشا :

بنى الوزير سليمان باشا أكثر من حمام ، ولكن الحمام الذي عرف باسمه يقع داخل باب الجابية بسوق البهرامية والمرادنية ويشتمل على مشلح مستدير به مساطب بالأحجار المنحوتة ، وجدرانه ، وعضائده جميعها من الحجر الأبلق المنحوت ، راكب عليها قبة معقودة بالأجر والأحجار والمؤن ، وفسحة مبلطة بالبلاط الرخام المعدري والقاري والمزي ، وبركة ماء مرخمة يجري إليها الماء وإلى بقية حقوق الحمام من الطالع القائم البناء بأقميم الحمام وإليه بالدمنة الجديدة التي أنشأ تعميرها الوزير سليمان باشا ، ومنها من نهر القنوات وباب وأربعة شبايك بقضبان حديدية تطل على السوق ، وباب ثاني للحمام من الأقميم وبراني ووسطاني وجواني وبیت حرارة به أربعة عواميد رخام راكب عليها قبة ، ولكل من البراني والوسطاني والجواني مقاصر وأجران مبلط أرضها بأنواع البلاط الرخام والمعدري والقاري والأصفر والمزي ، ومضخ ماء بالدهليز ومرتفق وأقميم راكب عليه قدرتا نحاس أحدهما نيرانية والثانية دخانية وخزانة وحاصل ومنافع شرعية ، وهذا الحمام يقع في سوق مدحت باشا ولكنه هدم أثناء القصف الفرنسي لدمشق عام (١٣٤٤هـ / ١٩٢٥م) .

١٠- حمام الورد :

(في سوق ساروجا) يعود إلى عام (٧٢٦هـ) وقد ذكره الأربلي في كتابه (حمامات دمشق) .

١١- حمام القيشاني :

زينت جدرانه بألواح بلاطات التريعات الخزفية الإسلامية الجميلة ، وإن أهمية هذه الروائع الفنية جعلت مبنى هذا الحمام يعرف باسم (حمام القيشاني) وقد تحول هذا المبنى إلى سوق وما زال عدد من بلاطات القيشاني تزين جدرانه ، وتجذب أنظار المارين .

أبداع حمّامات الدنيا في مدينة المياه دمشق :

وكانت دمشق قديماً هبة بردى حباها الخالق المياه حتى قيل : « لقد سُمّت أرضها كثرة الماء حتى اشتاقت إلى الظّماء » فتكاد تناديك بها الصم الصلاب : اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب » تغلغل نهر الذهب في بقاعها فغدت جنة وارفة الظلال ، واستجابت المدينة بمياهها لنداء قصورها ومساجدها وحمّاماتها حتى ألفتها ، كل هذا كان قديماً ، وأما الآن فَمَنْ ينظر إلى نهر بردى ويتذكر ما قيل فيه يحزنُ حزناً شديداً على هذا النهر الذي كان عظيماً وانتهى ، ولا مجال للشك في أن دمشق كانت ذات ماء وفير فيما مضى ومن يجول ببصره في أسواق دمشق القديمة يرى حمّاماتها التي كانت تتلازم في مدينة المياه وتفخر بجوارها وتسعد بروائها ، وتقع بجانب مساجدها لتحتل مكاناً بارزاً بين المكونات الجوهرية للمدينة الإسلامية .

وكانت دمشق فيما مضى تسمى مدينة المياه ؛ لكثرة مياهها العذبة النقية ، وكان اسمها أيضاً جنة الله في أرضه ، وهي جنة الدنيا من كثرة أشجارها الخضراء المثمرة ، وحديثنا الآن عن الحمّامات في دمشق وهي من أبداع حمّامات الدنيا ، لما تمتاز به من البناء والزخرفة والفرش والخدمة ، ولاسيما تزيينها بنوافير الماء داخلاً وخارجاً وبالبرك المبنية من المرمر على أجمل طراز ، فالداخل لتلك الحمّامات يتنعم بها بجميع حواسه ، أولاً بالغسل بالماء الزلال ، وثانياً بالنظر لزخرفته ونوافير مياهه ، وثالثاً بالشّم من روائح الأعطار التي تصرف في كل يوم في كل حمّام ،

ورابعاً في أكثر الأوقات يصادف وجود منشد ذي صوت حسن رخيم فيتنعم أيضاً بالسماع وقد يقدم للقاصد المشروبات المتنوعة بالثلج ، وهو مما لا يوجد نظيره ولا تسمع بوجوده بسواها من البلدان .

وكان للحمام أهمية في الحياة الاجتماعية الدمشقية ، أما عمران هذه المنشآت فهو متفاوت ويختلف نمط بناء كل حمام من حيث الزخرفة والمواد المستخدمة ، وطريقة البناء والمساحة التي بني عليها ، ولكن غالباً ما يتألف الحمام من الأقسام التالية : البراني - الوسطاني - الجواني - القميم (الاقميم) الخزانة - الموقد .

يقع الحمام الدمشقي وسط حارة بين جدران مشتركة تساهم في الحفاظ على حرارته . حيث لا يرى بمجمله إلا من سطوح المنازل المجاورة ، فهو مؤلف من قبة كبيرة تهيمن على قباب صغيرة يخترقها النور بواسطة قماري ، وتعلو هذه القبة مناوور بلورية إلى جانبها مدخنة .

وللحمام مدخل ثانوي ، غالباً ما يقع على طريق جانبي يوصل إلى مكان الخدمات وله باب بسيط ضيق ، يرى من الطريق خالياً من التزيينات أو الكتابات التي تهدي المارة إليه .

ولا يكاد المرء يميز بين المدخل إلى الحمام ومداخل الدور ، لكن منشفة أو أكثر تكون منشورة على حبل يعترض الزقاق تدل على وجود الحمام .

ومن الجدير بالذكر هنا أن غياب الشبايك وكل تهوية يؤدي إلى الحفاظ على البخار ، أما الحفاظ على الحرارة فيتم بواسطة جدران سميكة من الآجر ، وغطاء من القباب من مادة الآجر ذاتها ، ومن جهة أخرى فإن كثافة البخار والاستعمال الدائم للمياه يتطلب كتامة الأرض ، وتؤمن هذه الكتامة بواسطة التبليط بالحجر الصقيل أو الرخام . والبنية المعمارية للصالات التي يأتي إليها البخار لا يمكن أن تتطور إلا ضمن هذا الإطار . وخلف تلك الجدران الصماء ، يتجلى سحر الشرق ، من خلال لمسات الإبداع الفني لتداعب مخيلة الزائر ، وتتفجر عيوناً فتسترسل قرائح الشعراء بأبيات تروي قصة نعيم الدنيا .

ويتألف الحَمَّام من أقسام وردهات ودهاليز ومقاصير لها أسماء يعرفها أهل دمشق ، ولكل منها وظيفة تتميز بها .

فالقسم الأكثر أنساً يسمى البراني ويتكون من باحة مسقوفة على شكل قبة تستند على مثلثات كروية تحيط بها النوافذ ، فتستند عليها القبة المشكلة لسقف البراني تعلوها قفاعة (منور) ترتفع مشكلة ما يشبه البرج المحاط بالنافذ ، أما زجاج النافذ فملون بألوان زاهية ، ويكون وفق شبكة هندسية بديعة من الخيط العربي ، منفذة بالجص أو الخشب المدكك بأسلوب الزجاج المعشق ، ما يسمح بدخول أشعة الشمس بألوان ذلك الزجاج بشكل جميل أخاذ .

وتتدلى من سقف القفاعة سلاسل السراج والمشكاوات مُشكَّلة ثريا تثير البراني .

وتشكل الباحة أرضيته المرصوفة بحجارة مصقولة وردية وسوداء ، تتخللها تشكيلات جميلة من الرخام المشقف ، لتكون أشكالا هندسية متتالية ومتناظرة بديعة التكوين ، تتوسطها بحرة مكسوة من الحجر الوردي تتمركز فيها كأس ، تنطلق منها نافورة تسلسل لترسل رذاذها فتداعب النسيم وتنشر الرطوبة والطراوة ، أو قد تنطلق مياهها عبر نوافير قد تكون على شكل رؤوس السباع ، وتسترخي على أطرافها أحواض نباتات وزهور ثرثرة بالعطر .

وتتلاقى الأقواس بالجدران فتزدان برسوم نباتية تؤطرها تقبع في الزوايا فتشكل بوابة تحتضن في فراغاتها إيوانات مسقوفة ، أرضيتها بمستوى درجة أو أكثر من مستوى الباحة ، وتنتصب في فنائها مصاطب مفروشة بالرياش ، والأرائك والمساند المنجدة بالدامسكو المطرزة بالرسوم البديعة المجللة بالمناشف والفوط المزركشة والمقصبة .

ويستجيب البراني بخدماته لمرتاده الذين يتلقون الترحيب من المعلم الجالس

على سدة بجانب المدخل الخارجي لـ « البراني » فيحفظ أماناتهم في صندوق خاص ، ويستوفي منهم الأجر ، وإلى جواره كتيبات بواجهات زجاجية ورفوف خشبية لوضع صرر المناشف والفوط .

يتم الانتقال من البراني إلى الوسطاني عبر جناح يتألف من دهليز وردهة ، مهوية من الداخل يتخلله مدخل على طرفيه بابان متقابلان ، يتحركان على زعرور للحفاظ على حرارته ، وتتسرب إليه الشمس من حفر دائرية في السقف وتشكل أرضية الوسطاني تشكيلات من الحجر الأسود والوردي ، على حين ترى أرضية الإيوانين ومقصورة النورة مرخمة بتشكلات الرخام والحجر الأسود والوردي ، ويرتفع إكساء الجدران بالبلاط العادي أو البورسلان بارتفاع معين ، ليعلوه إكساء بالكلسة البيضاء في جدران الجناح الوسطاني والجواني .

ويقابل مدخل الوسطاني مدخلاً لبابين متقابلين ، يتحركان على زعرور للدخول إلى الجواني ، وفي بداية ممر بيت النار الذي يتوسط الجواني مصطبة حارة ، تعلوها فتحة يتم من خلالها الاتصال مع عامل القميم لتعديل حرارة الماء ، وعلى جانب الممر إيوانان يتفرع عن كل منهما عدد من المقاصير تحتوي كل منها على عدد من الأجران ، ومن تلك المقاصير مقصورة الغطس ، ولكل مقصورة مدخل بقوس معقود بالحجر أو الآجر بنقوش على الجص يتقدمه باب يتحرك على زعرور ؛ حيث تسع الغرفة الواحدة لعدة أشخاص يتهايمسون ويتسامرون ويدلكون لبعضهم البعض وهنا يطلب من عامل (المكيّس) بعض الأعمال مثل التدليك (التفريك بواسطة كيس في يد العامل من القماش الخشن) وبه تزال طبقة الجلد السطحية الميتة .

تتناوب دروب من الحجر الأسود والوردي لتشكيل أرضية ممر بيت النار ، كما تزين تشكيلات بديعة من الرخام المشقف مع تشكيلات من الحجر الأسود والوردي أرضية الإيوانين والمقاصير .

تعدت أهمية الحمامات الدمشقية كونها وجهاً من وجوه الفن والإبداع الإنساني ، لتعطي خاصة ذات طابع فريد من العادات والتقاليد .

فالحمام بالنسبة للدمشقيين مظهر من المظاهر الصحية ، وملتقى للحياة الاجتماعية التي يتجلى فيها الظرف والصفاء والأدب والمجاملة .

ومن المعروف عن حَمَّام الرجال أَنَّهُ عادةً من المغرب إلى ظهر اليوم التالي ،
بينما النساء من الظهر إلى المغرب .

وحَمَّام النساء له عادات وتقاليد مميزة ، فإذا كانت الأم لديها شاب تريد تزويجه
فإنها تنتقي لولدها عروسة من الحَمَّام ، حيث تتاح لها الفرصة بالانتقاء وإمعان النظر
بالبنت المبتغاة ، والاطلاع على محاسنها .

أما طاقم تشغيل الحمام النسائي فيتألف من المعلمة : وهي التي تستقبل
الزبائن وتقبض الأجرة ، ثم الأسطة التي تقوم بتغسيل البدن والرأس للزبونة ،
والبلانة : التي تقوم بتدليك البدن بالكيس وتقوم أيضاً بصبغ الشعر وحمل البقج
للنساء الموسرات . زقافة البارد : وهي التي تأتي بالماء البارد وتضيفه إلى
الساخن ، أما الناطورة : فمهمتها حراسة ثياب النساء وتأتين بمناشفهن وتلف
أبدانهن .

أما طاقم الحمام للرجال فيتألف من المعلم وهو صاحب الحمام أو مستأجره
والناطور والمصوبن والأجير والقميمي والزبَّال والتبع الذي كان يقدم المناشف
للزبائن أما الصابون المستخدم في الحمامات فكان البلدي النابلسي والجعفري
ويستخدم الفلاحون والفقراء نبات الإشنان من أجل تنعيم الشعر والبدن وجلي
الأوساخ عن أجسادهم .

ومن المناسبات الموروثة حَمَّام العرس ، حيث تدعو أم العروس الأقارب إلى
حَمَّام السوق . بعد أن تحجزه لحسابها لهذه المناسبة ، فتضاء الشموع وتنطلق
الزغاريد من أهل العروسين ، ليدخلوا في موكب حافل بالسرور ، ومن المعتقدات
السائدة بأن الاستحَمَّام في يوم من أيام الأفراد الواقعة بين اليوم السابع من الولادة ،
واليوم الواحد والعشرين يجعل الحليب كامل التكوين ؛ لأن حليب النفساء يكون
بشكل صمغة مفيدة لغذاء الطفل وإنَّ أقلَّ إزعاج يصيب المرضع قد يسبب نضوب
حليبها من ثديها ، لذا تقوم بحَمَّام النفاس بفسخ الصمغة وتحويلها إلى حليب كامل
التكوين وكذلك يوم الأربعاء فيكون على شكل فرح يتداعى أهل النفساء والقابلة

وصاحباتها إلى الحمّام ، فيحين فرحتهن بالزغاريد والمرح والأغاني وتكون الوليمة عامرة وتسمى سفرة حمّام الأربعين .

ولا شك في أن شهرة مدينة دمشق منذ عدة قرون بكثرة مياهها ووفرة حمّامات السوق فيها ، وبما يلاقيه الزائر من متعة وأنس ، جعل الدمشقيين وزوار المدينة يعتبرون الحمّام نعيم الدنيا ، وهذا ما جعل منها أفضل المدن ، في هذا المجال ، وكانت هذه الحمّامات بَحَقَّ سمةً من السّماتِ المميزة لمدينة دمشق ومجال فخر لأبنائها .

فالحمامات بالإضافة إلى كونها أهم المنشآت المعمارية والإسلامية فهي حاجة صحية ونفسية وجدت منذ وعي الإنسان وجوده على الأرض ، والذي يشهد على ذلك الأحواض المحفورة في الصخور (خزانات الماء) لاستعمالات متعددة وهي تعود إلى عصور موهلة في القدم ؛ لذلك لا بد من الحفاظ عليها وعلى هذا الإرث الاجتماعي المهم والتمسك به ودعم هذه المنشآت من قبل الدولة لما لها علاقة وثيقة بين التراث وعراقة الماضي المجيد .

فالحمامات تلعب دوراً أساسياً اليوم في ظل فقدان التواصل بين الأسرة ، في جمع المحبة والألفة بين الناس فيتم بها الإعلان عن زواج أو ولادة أو مناسبة معينة فيباركون لبعضهم البعض .

هل جربت يوماً أن تدخل الحمامات الأثرية في دمشق ؟ لا شك أنك إن دخلت إلى هناك ستجد نوعاً من الدفء يحيط بك ! ليس الدفء بالاستحمام فحسب ، بل الشعور بالراحة والسرور داخل حمامات معمارية وأثرية وجدت منذ آلاف السنين ، حيث تشعر أنك عاجز عن وصف هذا المكان بالتأكيد ! لما له من ماضي عريق يسري في أوصال حياتنا اليومية المعتادة والتي غلبت عليها مشقات وموضة المجتمعات الغربية بكل مفرداتها وتركيباتها ، حتى لم يخلو بيت قط اليوم من (الدوش الحمام أو الغطاس أو البانيو) .

وبعد ، فأورد فيما يلي ثبثاً يتضمن أسماء أهم الحمّامات في دمشق :

- | | |
|-----------------------------|------------------------------|
| ١- حمّام القناطر | ٢- حمّام القيمرية |
| ٣- حمّام العيلاني | ٤- حمّام المرستان |
| ٥- حمّام التوتة | ٦- حمّام البكري |
| ٧- حمّام أمونة | ٨- حمّام البوشي |
| ٩- حمّام الجوزة | ١٠- حمّام الجديد في القماحين |
| ١١- حمّام التيروزي | ١٢- حمّام الحاجب |
| ١٣- حمّام الحدادين | ١٤- حمّام الحموي |
| ١٥- حمّام الخانجي | ١٦- حمّام الخراب العربي |
| ١٧- حمّام الخراب الشرقي | ١٨- حمّام الخياطين |
| ١٩- حمّام الدبس | ٢٠- حمّام الذهب |
| ٢١- حمّام الدرب | ٢٢- حمّام الراس |
| ٢٣- حمّام عز الدين | ٢٤- حمّام الرماني |
| ٢٥- حمّام الرفاعي | ٢٦- حمّام الزين |
| ٢٧- حمّام ساقى | ٢٨- حمّام السرايا |
| ٢٩- حمّام سبع القاعات | ٣٠- حمّام السروجي |
| ٣١- حمّام السكاكري | ٣٢- حمّام السنانية |
| ٣٣- حمّام الجديد في الميدان | ٣٤- حمّام الشيخ حسن |
| ٣٥- حمّام العفيف | ٣٦- حمّام العمري |
| ٣٧- حمّام عبد الباسط | ٣٨- حمّام القاري |
| ٣٩- حمّام فتحي | ٤٠- حمّام القاضي |
| ٤١- حمّام عقيل حمّام | ٤٢- القيشاني |

- ٤٣- حمّام المسك
٤٤- حمّام الملك الظاهر
٤٥- حمّام المقدم
٤٦- حمّام المناخلية
٤٧- حمّام الملكة
٤٨- حمّام الموصللي
٤٩- حمّام منجك
٥٠- حمّام الناصري البراني
٥١- حمّام الناصري الجواني
٥٢- حمّام النوفرة
٥٣- حمّام نور الدين
٥٤- حمّام الورد
٥٥- حمّام الشيخ رسلان
٥٦- حمّام ركاب
٥٧- حمّام السلسلة
٥٨- حمّام سنقر
٥٩- حمّام الصّفي
٦٠- حمّام عذراء
٦١- حمام السلطان
٦٢- حمام البزورية
٦٣- حمام الراهب
٦٤- حمام النايب
٦٥- حمام طالع القبة
٦٦- حمام الرقاوي
٦٧- حمام الزراميزية
٦٨- حمام الحبس
٦٩- حمام الطوائف
٧٠- حمام أسامة
٧١- حمام بن عبدي
٧٢- حمام الميدان
٧٣- حمام الغواص
٧٤- حمام البابين
٧٥- حمام قجماس
٧٦- حمام أمير علي
٧٧- حمام الباشا
٧٨- حمام المحكمة
٧٩- حمام الشيخ عمر
٨٠- حمام الغزالي
٨١- حمام سنان باشا
٨٢- حمام الجسر الأبيض
٨٣- حمام الترجمان
٨٤- حمام بني مزلق
٨٥- حمام الدرّج
٨٦- حمام العقيقي

٨٧- حمام الجزماتية	٨٨- حمام الشروري
٨٩- حمام الكبير	٩٠- حمام السوق
٩١- حمام القلعة	٩٢- حمام المرايات
٩٣- حمام أبي شجاع	٩٤- حمام العرايس
٩٥- حمام القضمانيّة	٩٦- حمام النورية
٩٧- حمام ملكة	٩٨- حمام سوق الخياطين
٩٩- حمام القاشاني	١٠٠- حمام الرفاعي
١٠١- حمام الورد	١٠٢- حمام الظاهرية

ثالثاً - القيساريات :

اشتهرت دمشق في كل العصور بنشاطها التجاري بسبب موقعها الهام على طريق قوافل التجار والحجاج واقتضى ذلك إقامة منازل للمسافرين ومنشآت للنشاط التجاري وكان يطلق على هذه المؤسسات والمنشآت الفنادق والقيساريات والخانات ، وهذه الأسماء تعد دخيلة على اللغة العربية ، لكنها معربة ومستخدمة منذ قرون .

أما القيسارية التي جمعها العرب على قيساريات وقياسر ، فهي أيضاً من أصل يوناني وتعني البناء الملكي .

وسنستعرض فيما يلي ما أمكننا من أسماء القيساريات الموجودة في دمشق :

١- قيسارية ابن الباني	٢- قيسارية ابن الرسام
٣- قيسارية ابن الفرفور	٤- قيسارية ابن المزلق
٥- قيسارية البهار	٦- قيسارية تنكرز
٧- قيسارية الدهشة	٨- قيسارية سوق السلاح
٩- قيسارية الفرنج	١٠- قيسارية الفواخرة
١١- قيسارية يلبغا الكبرى	١٢- القيسارية الفخرية
١٣- قيسارية السلطان في زقاق الدر	١٤- قيسارية الجعفري بالشعارين

- ١٥- قيسارية الفرار
 ١٦- قيسارية الفرش في درب عجلان
 ١٧- قيسارية الوزيز في سوق القمح ، في الكتافين ١٨- قيسارية القطن
 ١٩- قيسارية الصياغ
 ٢٠- قيسارية النحاس في محلة مأذنة الشحم
 ٢١- قيسارية الدهيناتية
 ٢٢- قيسارية الأزراية في سوق الخياطين
 ٢٣- قيسارية السفرجلانية
 ٢٤- قيسارية الدقاقين في سوق الدقاقين
 ٢٥- قيسارية مسبك الفولاز
 ٢٦- قيسارية البهنسي
 ٢٧- قيسارية القواسين
 ٢٨- قيسارية القجماسي
 ٢٩- قيسارية تنم
 قيسارية البهنسية في سوق السلاح قرب الجامع الأموي ٢٤ مثال (قيسارية في
 سوق القوافين ، داخل باب الفرج تشتمل على تحتاني وفوقاني ، والتحتاني يشتمل
 على ساحة سماوية بها بركة ماء واثنا عشر أوضة ، والفوقاني يشتمل على (٢٥)
 أوضة يصعد إليها بسلم حجري ومنافع ومرافق وحقوق شرعية .



صورة للبيت الدمشقي القديم

دمشق وجماليتها عمارتها وبيوتها البيت الدمشقي القديم

تتميز دمشق بجمال هندستها المعمارية العربية الإسلامية . ف وراء أسوارها العالية تتجاور بيوتها القديمة متكئة على بعضها لتعكس العلاقات الاجتماعية الحميمة بين سكانها . وتُضفي عليها الجمال والخضرة الناضرة والماء الرقاق والمحبة بين أفرادها وتشكل مع جمال الزخارف والنقوش الفنية الجميلة (لوحة جميلة) تجذب الانتباه وتثير الإعجاب والتقدير .

إن الحديث عن البيت الدمشقي القديم العريق محبب إلى النفوس ، يُعيد إلى الذاكرة صوراً جميلة متألفة لذلك الماضي التليد .

لقد تألفت في عمارة البيت الدمشقي القديم عبقرية المهندس المعماري العربي الموهوب الذي عرف متطلبات مجتمعه المختلفة ، فصمّم المبنى أجمل تصميم وسكب من روحه في إبداعه المعماري الفني المتميز .

إن البيت العربي القديم أحد شواهد العمارة العربية الإسلامية ، فهو نموذج صادق لجمال هذه العمارة العربية الإسلامية ، وأحد مفاخر فن العمارة العربية الإسلامية عبر العصور .

وتعد مباني البيوت الدمشقية القديمة ثروة حضارية متميزة ، وذلك لما تحويه من عناصر معمارية نشأت وتطورت في مدينة دمشق العربية الإسلامية العريقة خلال مئات السنين الماضية إنها ثمرة تفاعل الإنسان الدمشقي مع بيئته ومجتمعه ومحيطه .

وإن البيت الدمشقي القديم يعتبر إحدى مآثر العمارة العربية الإسلامية بمواصفاته التي اكتسبها عبر عصور الازدهار الحضاري التي وصل فيها فن العمارة العربية الإسلامية إلى قمة الإبداع الفني والمعماري .

لقد تغنى الرحالة والباحثون في الشرق والغرب بجمالية عمارة البيت الدمشقي القديم الذي انتقل طراز عمارته إلى الأندلس وعدد من أقطار أوربة وأخيراً إلى أمريكا عن طريق الفتوحات الإسبانية والأوروبية في القرن الخامس عشر الميلادي وما بعده .

إن البيت الدمشقي القديم مؤسسة معمارية متميزة بالجمال المعماري وتوفر المتطلبات المعمارية ، وينسجم فن عمارته مع فن العمارة الشرقية من حيث المظهر والمخطط ، ويعكس الحاجات الاجتماعية ، ويراعي التقاليد الإسلامية ويفيد من المواد الأولية اللازمة للمبنى والمتوفرة في غوطة دمشق المتميزة بغنى أخشابها الجيدة .

ويعتبر البيت الدمشقي القديم بمثابة متحف روائع الفنون اليدوية التقليدية التي أبدعتها أيدي أولئك الفنانين والصناع الفنيين المتميزين بالمواهب الفنية والخبرات المهنية والمهارات اليدوية ، ويعود إليها فضل الإسهام في إغناء التراث الفني والحضاري .

ويمارس هؤلاء الفنانون والصناع الفنيون فعاليتهم في أسواق المدينة القديمة ، أو بيوتهم التي تبدو بمثابة ورشات عمل فعالة ، وبخاصة في أحياء الميدان وسوق ساروجا والصالحية . . . وغيرها .

لقد بذل الإنسان الدمشقي جهوده الكبيرة لبيدع مكان سكنه وإقامته ، وذلك كي يتناسب مع ظروف حياته الاجتماعية والاقتصادية والروحية وغيرها .

إن دار الإنسان مرآة حالته الاجتماعية والاقتصادية ، ومكان سكنه وأمنه ، ومجمع أفراد أسرته ، وملتقى الأصدقاء والأقرباء والزملاء ، فليس هناك أخطر من خروج الناس من بلادهم .

لقد أضاف الدمشقي إلى بيته لمسات فنية تضيفي الجمال عليه ، وتزيده روعة وجمالاً ، وتجعله جميلاً كالعروس الجميلة ، وذلك لما تتميز به داره من سعة في المساحة ، وقاعات جميلة ، وباحات واسعة تزينها أغراس الورود والياسمين ، وأشجار الليمون والكتّاد التي تحيط ببحرة الماء الرخامية الجميلة ، مما يجعل مبنى

الدار كحديقة غناء وارفة الظلال تبعث الفرح والسرور ، وقد تميزت هذه الدار بالسعة وموسيقى صوت جريان المياه والنباتات الخضراء النظرة ، وللمرأة الدمشقية اهتمام خاص بالورود والأزهار المختلفة والحرص عليها ورعايتها وسقايتها .

إن البيوت الصغيرة ومباني القصور الكبيرة لها منظر خارجي بسيط ، ولكن وراء الجدران تبدو الأنافة المعمارية وعبقورية الإبداع المعماري ، وإن هذا التباين الكبير بين بساطة المظهر الخارجي ، وغنى جمالية المظهر الداخلي لفت أنظار الكثيرين من الرحالة والباحثين .

يشغل مبنى البيت الدمشقي القديم مساحة واسعة من الأرض ، وتحيط به الجدران الصماء التي قلما أن يكون لها نافذة مطلة على الطريق أو الحارة ، وخاصة في الطابق الأرضي من المبنى ، فليست هناك أية نظرة للجار ؛ لأن النوافذ تطل على باحة الدار .

كانت أحياء دمشق مؤلفة من حارات ذات طرق ضيقة ، تتجاور مبانيها وتتلاصق ببعضها ، مما يعطي للمدينة وأحيائها طابع الألفة والتألف الاجتماعي ، والجدير بالذكر أن أبواب البيوت الدمشقية ليست متقابلة وذلك لثلا تنكشف على بعضها أثناء الخروج منها والدخول إليها .

وقد أخذ أولئك المهندسون المعماريون القدماء بعين الاعتبار جهة الشروق والغروب ، وهبوب الرياح . . . وغيرها من العوامل الطبيعية .

كانت المرأة الدمشقية ترتدي الحجاب خارج بيتها ، وتخلعه داخل بيتها وقد تنافس الرحالة والباحثون في وصف البيت الدمشقي القديم ، وقد وصفه أحدهم بالمرأة الجميلة المحجبة .

وهناك الطابق العلوي من مبنى البيت الدمشقي القديم مفروش بالحصر المصرية أو بالطنافس العجمية وفي غرفة ديوان عريض ، وجدرانها مكسوة بالخشب المنقوش والمدهون والمزين بالزخارف الجميلة المختلفة وسقوفها مكسوة بالخشب المزين بالنقوش والزخارف الجميلة .

وهناك الأقبية تحت الأرض تحفظ فيها مؤونة العائلة ، وتفتح في البيت الدمشقي القديم حياة عائلية سعيدة ونشيطة ، يتمتع أفرادها بجمال منظره الداخلي ، تزيينه زخرفة فنية جميلة ، وقد استخدم في عمارته مواد البناء مثل الطين والخشب والرخام والجص ، أضيف إلى ذلك الخشب المحفور ، والألوان ، والكتابات العربية التزيينية ليس فقط في كسوة الجدران والنوافذ المتراصة حول الباحة الداخلية ، بل وفي سقوف الحجرات أيضاً .

وتوجد في الحجرات تجهيزات فنية في جدرانها الداخلية المجهزة للكتب ، وحفظ وعرض أواني الزينة الخزفية والزجاجية والمعدنية (في الكتابي) . . . وهناك الفرش والأغطية والوسائد (تحفظ فيما يسمى اليوك) .

كان يقيم في البيت الدمشقي القديم أسرة دمشقية كبيرة تتألف غالباً من الجدّ والجدة ، والأبناء وزوجاتهم ، والأحفاد من ذكور وإناث من مختلف الأعمار . . . يسكنون في حي يقيم فيه الأقرباء والأصدقاء ، متعاونين متضامنين متحابين ، وذلك في وحدات سكنية صغيرة ، تفتح أبوابها على بوابات خارجية ، تفصلها عن الأزقة الأخرى أبواب عامة خارجية ، تصلها بالأسواق ومنشآت المرافق المختلفة كالجوامع والمساجد ، والحمامات وسبل المياه ، والمدارس . . . وغيرها . . . متقدمة أو متأخرة ، تطل على أزقة ضيقة ومتعرجة تنفذ إليها أبواب منخفضة للدور المختلفة ، وتطل عليها شرفات ونوافذ علوية .

١- المنظر العام لمدينة دمشق القديمة يتألف من تجمع المباني المختلفة ، يضمها مخطط عمراني متداخل المباني والعناصر ، تبدو وحداته متفاوتة السعة ، متباينة المظاهر ، تعكس أنماط التركيب الاجتماعي المتعدد والمتفاوت من حيث الدخل والثقافة .

يتوفر في مبنى البيت الدمشقي القديم الهدوء والجمال المعماري وجمال الورود والأزهار مما يجعل هذا المبنى بمثابة جنة ، فيها المياه الجارية والورود والأزهار الجميلة الألوان والأشكال . . . والغرف الواسعة ، وكانت قرعة القبقاب على

أحجار الأرضية كإيقاعات موسيقية تعبّر عن جمالية الحياة والحيوية ، تجعل الإنسان يشكر خالقه بأجمل عبارات الشكر ، ويردّد قائلاً : (تبارك الخالق الخلاق فيما خلق...)

وكان لهذا كله صدهاء وأثره في الإحساس بأهمية التراث ووجوب المحافظة عليه للأجيال الصاعدة .

وأعدت معارض للفنون الشامية القديمة ، ومعارض متنقلة ومؤقتة تعرض الكنوز الثقافية .

وعقدت مؤتمرات تتعلق بالتراث الثقافي والحضاري ، وسجلت دمشق في السجل الدولي للمدن الأثرية القديمة لدى منظمة اليونسكو كما سجل غيرها من المدن السورية وبخاصة حلب وتدمر وبصرى... وغيرها... ويعتبر (بيت نظام) أحد البيوت الدمشقية القديمة الجميلة ، وأحد المباني الأثرية الهامة .

تميز مبناه بطرازه المعماري الجميل وغناه الزخرفي والإيماء بالحياة الدمشقية السعيدة .

لقد ازداد الاهتمام بمباني دمشق القديمة المختلفة من جوامع ومساجد وكنائس ومدارس وحمامات وخانات وأسواق وسبل المياه... وغيرها... وترميمها وصيانتها والمحافظة عليها للأجيال الصاعدة .

فالبيوت الدمشقية القديمة تبدو كمجمع فنون ابتكرتها الأجيال المتعاقبة ، وأسهمت في إغنائها بالروائع الجميلة ، وإذا كان بعضهم أساء التصرف بها ، فإن انتشار الوعي الحضاري تطلّب اتخاذ كل الإجراءات اللازمة للمحافظة عليها ، وكان المرحوم محمد كرد علي في طليعة المطالبين بتأسيس (دائرة آثار) أسوة بمصر ، يعهد إليها بمهمة المحافظة على التراث الحضاري والثقافي ، فكان تأسيس (دار الآثار) عام (١٩٢٠م) بداية مباركة أسهمت في المحافظة على الآثار في متحف دمشق ، ودراسة تاريخ الماضي وأحداثه وآثاره ، وانتشار الوعي الحضاري .

وبعدما كانت الجامعة تدرّس التاريخ وتعتمد على الآثار في توثيقه ، أصبحت

دراسة الآثار أحد الاختصاصات العلمية في الجامعة ، فهناك قسم الآثار ، والمعهد المتوسط للآثار . . . وأصبح في بلادنا مختصون يتميزون بالتأهيل العلمي والخبرات الفنية والأثرية وغيرها . . . وأصبحت مديرية الآثار مهتمة بكل ما يتعلق بالآثار المنقولة وغير المنقولة . وبدأت مديرية المباني التاريخية تقوم بتوثيق هذه المباني وترميمها والمحافظة عليها .

وإذا كانت دمشق قد فقدت كثيراً من مبانيها الجميلة مثل مبنى (حمام ملكة) و . . . وغيره . . . فإن هناك اهتماماً كبيراً بمباني البيوت الدمشقية القديمة وأخص بالذكر منها :

- | | |
|-------------------|---------------|
| - بيت خالد العظم | - بيت نظام |
| - بيت الدحداح | - بيت المجلد |
| - بيت جبري | - بيت السباعي |
| - بيت قصر النعسان | - بيت العقاد |

وهناك دور جميلة اتخذت سكناً للقناصل في العصر العثماني كدار قنصل فرنسة ، وهناك بيوت دمشقية جميلة مثل بيت آل فريج ، وانطون شامية ، وقصر علي بك (بيت العظم) ودار حبيب الصباغ .

وقد تضمن التقرير الرسمي عام (١٢٨٨هـ / ١٨٧١م) أن عدد دور دمشق نحو / ١٤٦٩٦ داراً وتجدر الإشارة إلى مبنى دار عنبر . يتميز هذا المبنى بالسعة ، وجمال عمارته ، ورصف أرضه بالرخام الجميل ، وتزيين جدرانه بأجمل النقوش ، اتخذت السلطة العثمانية هذا المبنى مدرسة ثانوية نقلت في بعد إلى المبنى الحالي المعروف باسم ثانوية جودة الهاشمي وأصبح مبنى يوسف عنبر مدرسة صنائع للإناث .

وهناك دار السيد سعيد القوتلي شمال الجامع الأموي بدمشق ، ودار أخيه السيد مراد في حي سيدي عامود الذي قصفته القوات الفرنسية عام (١٩٢٥م) فاحترق

وعرف منذئذ باسم الحريقة كانت دار السيد مراد منزل الملوك والأمراء القادمين لزيارة دمشق ، وقد نزل فيها إبراهيم باشا المصري والأمير نقولا الروسي .

وهناك دار حسن آغا البارودي جد الزعيم الوطني فخري البارودي في حي القنوات وهناك دار محمد سعيد باشا اليوسف ، ودار محمد فوزي باشا العظم ، ودار أحمد آغا إيش في سوق ساروجا . . . وغيرها من المباني الدمشقية الجميلة التي تعد من روائع فن العمارة المدنية والسكنية العربية الإسلامية .

معالم أو تفاصيل البيت الدمشقي :

يدخل إلى البيت الدمشقي القديم من بوابته (الخوخة) التي تسمح بمرور شخص بعد آخر وتؤدي إلى (صحن الدار) الجميل الذي يبدو كأنه جنة وريحان ، وذلك بعد المرور بدهليز أو ممر ، فتبدو باحة الدار الواسعة رائعة تزينها الورود والأزهار والأشجار ، ومن هذه الأشجار التوت والخميسة والتين والليمون وال نارنج والكباد . . . وغيرها . . . وما ألد طعم ثمار هذه الأشجار في المربيات وعصيرها في الشراب والمأكولات الشهية والصحية .

ونجد في المعاجم أسماء هذه النباتات الشامية العريقة التي تزين البيوت الدمشقية القديمة . وتضفي الجمال عليها بألوانها الطبيعية وجمال خضرتها السندسية اللون وشذاها وعبيرها . . . مما يسهم في بث النشاط والإحساس بالصحة والسعادة .

وأسهمت الفنون التطبيقية في إضفاء الجمال المعماري على عمارة البيوت الدمشقية القديمة التي تبدو واجهاتها بمثابة بساط رائع ومتميز بالزخارف الجميلة المختلفة المنفذة من الرخام المشقف ، وهناك زخارف حجرية سوداء وبيضاء اللون وتكوينات وتشكيلات فنية جميلة من الأحجار الطبيعية اللون .

ويتوسط هذه الباحة بحرة منفذة من الآجر المشوي ، ومكسوة بالرخام المشقف أو بأحجار بيضاء وسوداء ومزّية صفراء ، تزينها الزخارف الجميلة ذات الخيوط الهندسية الفنية المنحنية ، وتتوزع على حافتها ألواح من الرخام أو الحجر المفصص ، وباللونين الأحمر والأبيض ، وكثيراً ما توجد هذه البحرة أمام واجهة

(الليوان/الإيوان) ، وفي منتصف محور قوس (الليوان/الإيوان) الكبير في جنوب الدار .

ويستخدم هذا (الليوان/الإيوان) في الصيف ، ويحمي الأسرة من حرارة الصيف وأشعة الشمس الحارة المباشرة ، ويعادل ارتفاع سقف الإيوان ارتفاع طابقين أو نحو / ١٣م / ولا يخلو هذا القسم في بعض الدور الدمشقية من العتبات (والمجالس) المحيطة بجدرانها الداخلية ، ولا يخلو سقف (الليوان) من الزخارف الخشبية الجميلة ، المنفذة من الأخشاب بعدة أشكال ، فترى في صناعتها الخشبية الفنية الجميلة الحشوات والمداليات وتختلف العناصر الفنية الجميلة التي تسهم في تشكيل هذه اللوحة الفنية الجميلة ذات الزخارف الفنية الرائعة والنادرة .

و(الإيوان) بمثابة غرفة تحيط بها ثلاثة جدران فقط ، وتطل على باحة الدار وقد فرشت أرض الإيوان بالسجاد العجمي الجميل ، ووضعت أمام جدرانها الثلاثة الأرائك الجميلة والمريحة والمساند المطرزة البديعة ، وفي هذا الإيوان كانت الأسرة الدمشقية تمضي أجمل سهراتها الصيفية ، وكان أفراد هذه الأسرة يتمتعون بسماع زقزقة العصافير والعنادل والحمام والشحارير .

وكانت تتدلى من سقف الإيوان سلسلة نحاسية تحمل مشكاة جميلة فيها زيت للإنارة ليلاً .

وقد بني سقف الإيوان من الخشب الثمين المزخرف كخشب الأبنوس والصنل ، وتبدو زخارف الإيوان وحشواتها وغيرها كنموذج جميل ، وفي مرحلة لاحقة غطي السقف بألواح رقيقة من الخشب المدهون ، واستخدم الجبس لتزيينه بالدلايات أو الطنف . . . ويظهر في صدر الإيوان مصب رخامي في جانبيه كوتان توضع فيها الأزهار أو غيرها . . . ويتوزع في جدران البيوت الدمشقية القديمة فتحات جدارية وتجاويف مفيدة ، منها (الكوات) ذات الأبعاد الصغيرة ، تستخدم لعرض الشمعدانات وقناديل الكاز . . ، وفي بعض المباني نجد فتحة جدارية ينساب منها الماء السائل من الأعلى والمنسكب كالشلال الجميل بصوته ومنظره . . . وذلك

عبر (نظام تمديد الطوالع الطبيعي للمياه العذبة) التي تصبّ أخيراً في حوض البحرة . . . وهكذا نجد مرآة تعكس نفسها ، فصوت الماء وجريانه ، والجو الرطب والمنعش الذي يشكله ويجعله بمثابة (مكيف هواء) .

ولا تخلو أية دار دمشقية من قاعة رئيسة للضيافة والاستقبال ، ذات أرضية متفاوتة المناسيب ، وذلك لتخلق تيارات هوائية رطبة وعازلة وحافظة لدرجة حرارة معتدلة . . . حيث أن الأرضية هي الأساس عند المدخل ، وهناك (الطزر) الذي يرتفع بأرضيته عن الأول ، وتكون هذه القاعات بطزر واحد ، أو اثنين أو ثلاثة في بعض الأحيان .

ويزين جدران هذا القاعات كسوة من الرخام المشقف الجميل المطعم بالصدف أو غيره . . . أو مزينة بنقوش من الحجر تجسّد روعة الفن والإبداع الفني .

وتبدو السقوف رائعة ، وإذا قورنت (بالليوان/بالإيوان) فإنها أكثر غنى واختلافاً ، يتوسطها ويحملها قوس حجري ضخّم مزنّن بزخارف سطحية ، أو بأحجار مزخرفة بنماذج من الفن الأبلق ذي الأشكال الهندسية والمنحنيات الجميلة التي تكسو الفتحات القوسية التي تعلو الأبواب والنوافذ ، والبحرة الصغيرة - كما في الباحة السماوية - فهي في هذه القاعات (كالفسقية) لها نافورة ماء تسهم في تبريد الجو في أيام حر فصل الصيف .

وهناك فتحات جدارية جانبية أو تجاويف تعرف باسم (كتيبات) ، تتوسطها فتحة تزيد بمقدار الضعف عنها تسمى (اليوك) أو (اليوق) ، تكون واجهاتها مفتوحة ، أو مغلقة بأبواب مشغولة بشتى أنواع الزخارف والخيوط الفنية الجميلة . وفي أعلى جدران القاعة نوافذ زجاجية ملونة جميلة تسمح بدخول الضوء إلى القاعة ، وتسمى (شمسية) أو (قمرية) .

وتحفظ في خزائن (الكتيبات) مجموعات الأواني الخزفية الصينية النفيسة ، والنراجيل والغلايين وفناجين القهوة وقماقم ماء الورد والمباخر المختلفة الأشكال المستعملة لأحراق الطيوب والبخور .

وإذا كانت للبيت الدمشقي القديم فيما بعد نوافذ مطلة على الطريق العام فإن لهذه النوافذ مواصفات وهي غالباً في الطابق العلوي وهي تتألف من الخشب المزخرف بقضبان خشبية متعارضة ومشكلة زخارف جميلة ، وتتيح لأفراد الأسرة رؤية كل ما يجري في الطريق العام دون أن يتمكن أي كان من رؤية أفراد هذه الأسرة أضف إلى ذلك فائدتها في التهوية . وتسمى هذه النوافذ الخشبية (الخص) ، وإن هذا الخص أو (المشربية) جزء من التراث الفني والمعماري الإسلامي .

أقسام البيت الدمشقي :

تتألف البيوت الدمشقية القديمة من ثلاث أقسام هي :

- قسم السلملك للرجال .
- قسم الحرملك للنساء .
- قسم الخدم .

ويتألف البيت الدمشقي القديم من قسم خارجي (برّاني) وقسم داخلي للأسرة ، وتتميز هذه البيوت الدمشقية القديمة بزخارفها الفنية الجميلة التي تدل على مكانة أصحابها الاقتصادية .

ولهذه البيوت (منشر الغسيل) يعرف باسم (المشرقة) ، يشبه الفسحة السماوية . يتألف المبنى من طابق واحد ، وإذا كان هناك مبنى أعلى من هذا الطابق فإن هناك غرفة تعرف باسم (الطيارة) .

وتجدر الإشارة إلى الغرف العلوية المسماة (فرنكات) تتخذ للمبيت فيها في فصل الشتاء البارد ، ويفصل ملكية البناء في الأسطح جدار بسيط وخفيف الوزن ، مصنع على النموذج البغدادي المكسوقبال اللبن أو الآجر ومطلي بالكلس العربي الأبيض اللون ، ويسمى هذا الجدار الفاصل بين سطوح المباني المتجاورة باسم (الطبلة) .

وفي المطبخ المدخنة والوجاق والموقد والكندوش مكان خزن الحبوب ، وبيت المؤونة (السقيفة) .

تتميز البيوت الدمشقية القديمة ببوابة ضخمة تتمفصل مع ساقف الباب ونعلته (بزعرور) ، أي مفصل اسطواني من صلب خشب الباب ، وهو مصفح بالصاج السميك لحمايته من التآكل بسبب الاحتكاك ، وله (الساقط) أي الدقر الخشبي الداخلي .

يؤدي هذا الباب الضخم إلى دهليز يوصل إلى باحة الدار السماوية ، وكثيراً ما يزين هذا المكان بالأثاث وبخاصة (القنصلية) ذات المرآة الجدارية ، وطاولة بيضوية الشكل .

وقد وصف الباحثون البيوت الدمشقية القديمة أجمل وصف كقولهم : إن البيوت في دمشق ، بترتيب بنائها بأجمل طراز معماري وترتيب هندسي وفني ليس لها نظير في جميع البلدان الأخرى .

إن كل دار لا تخلو من وجود (إيوان) قبلي ، وهناك (بركة ماء) في منتصف الباحة ، يصلها الماء بقساطل فخارية محكمة من مقاسم نهر القنوات أو غيره من فروع نهر بردى المشهور قديماً باسم (نهر الذهب) .

ويحيط بباحة الدار غرف وقاعات كبيرة ، تزين جدرانها زخارف شرقية ، وتعلوها غرف جميلة ، وفي القاعات (بركة ماء) تسهم في تبريد الجو أيام حر الصيف ، وإن ما يفيض من مياه البحرة يجري ضمن قساطل إلى الحمامات الذي يقذف بأقذارها في قناة مخصصة لها تحت الأرض إلى (السياق العام) المخصص في كل حي ، ويصب في (نهر قليط) الذي تصل مياهه إلى بساتين (ثمن الشاغور) و (ثمن الميدان) . . . إن باحات البيوت الدمشقية القديمة مزينة بالأشجار المختلفة وبخاصة الليمون الحامض ، والليمون الحلو ، والبرتقال ، والكباد ، والطرنج ، والفراسكين والنارنج ، والكرمنتينا ، والأفندي .

وهناك الورود والأزهار الجميلة التي تزين باحات البيوت الدمشقية القديمة مثل : الزنبق بأنواعه ، والورود والرياحين والياسمين ، والخميسة والشمشير ذي الورق الأخضر العريض ، والنرجس والفل والليلكي والبنفسج وغيره من الورود

والأزهار ذات الألوان الطبيعية الجميلة والشذا والرائحة الزكية العطرة . . . مما يجعل هذه البيوت الدمشقية القديمة بمثابة فردوس أرضي ، لا يحتاج أصحاب هذه البيوت إلى المتنزهات والمصايف وغيرها .

وقد تغنى الباحثون في البيوت الدمشقية القديمة وجمالياتها .

قال المرحوم السيد عبدالله المشهداني العراقي الدمشقي - أحد أهل البيت الكرام - بعد عودته من البيت الحرام سنة حجّه :

لما وصلنا إلى مكة المكرمة ، استأذنت على أميرها الشريف عبد المطلب ، ودخلت عليه ، وعنده عدد من الأشراف من عائلته ، فأكرمني واحتفل بي ، وسألني عن دمشق الشام ، فأخذت أصف له دمشق وترتيب أحوالها ، وكان يتعجب ويردد قائلاً : (الماء في كل بيت ؟) ، فأكدت له ذلك قائلاً : حتى ولو كان أفقر الناس ، لا بد من وجود ماء في داره ، فقال الشريف : والله ، أنتم يا أهل دمشق ملوك ، هنيئاً لكم ، وصار يترنم بما وصفته له من حسن انتظام دمشق ، ويخاطب بذلك الحاضرين .

أبواب بيوت دمشق القديمة :

تعد أبواب بيوت دمشق القديمة جزءاً من تاريخ الفنون التطبيقية ، وفن العمارة العربية الإسلامية القديمة .

وإذا توقفت صناعة هذه الأبواب منذ زمن بعيد ، فإن ما تبقى منها في بعض البيوت الدمشقية القديمة يعتبر نماذج نادرة لهذه الأبواب ، وذلك قبل دخول تصاميم الأبواب الأوروبية وبخاصة الإيطالية ، وأبواب الحديد المختلفة .

كان باب البيت الدمشقي من الخشب ، ويتألف من قطعة واحدة (درفة واحدة) وكان البسيط من الأبواب يتألف من الخشب المغلف بالزنك ، تدقّ فيه المسامير موزعة بأشكال تربيعات هندسية .

وهناك نوع آخر من الخشب المقوّى بالمسامير الفولاذية .

وإن للباب نموذجين كما يلي :

- نموذج باب بسيط مؤلف من درفة واحدة .

- نموذج باب كبير وضخم يتألف من باب مرتفع يتوسطه آخر صغير لدخول الأشخاص منه وهو من أبواب الأغنياء والأعيان . وفي أكثر الأحيان ، يكون القسم العلوي من هذا الباب بشكل قوس كبير .

كان الباب في بوابات مباني الأعيان والأغنياء أكبر حجماً ، ويدخله باب آخر أصغر منه ، يستخدم للدخول والخروج منه ، وهو على شكل يشبه شكل (الخوخة) مما جعله يعرف بهذا الاسم .

ويعتبر صحن الدار متميزاً بسعته ونباتاته ورحابته وفوائده في التهوية والإضاءة وحسن تلطيف الجو صيفاً وشتاء . إنه ملتقى أفراد الأسرة وجلساتهم الصباحية والمسائية ولقاءاتهم بأقربائهم وجيرانهم والمناسبات الاجتماعية المختلفة في الأفراح والأحزان .

ويصعد إلى الإيوان بثلاث درجات ، وأرضه مرصوفة بالحجر الزهري اللون والأبيض المصقول ، وقد فرشت أرض الأيوان بالسجاد العجمي النفيس ، وفي الصدر مصطبة من الرخام الأبيض الجميل ، توضع عليها (طرايح) محشوة بالقطن للجلوس عليها وهناك (مخدات) للاتكاء عليها ، وهي مغطاة بقماش قطني جميل مزخرف ، وهناك (مساند) مطرزة جميلة .

ولللجدارين الجانبيين في الإيوان طرازان من الفرش ، وهما يكونان مفروشين مثل المصطبة التي في الصدر ، أو هناك على جانبي الإيوان كراسي كبيرة من الخشب مقعدها من القش ، وعليها مفارش من القطن ، وذلك للجلوس عليها براحة .

وفي صدر الإيوان تجويف مستطيل الشكل فيه مرآة كبيرة ، وهناك تجويفان صغيران توضع فيهما أصص أوراق الليمون الخضراء اللون .

إن جمالية البيت الدمشقي القديم بسعته وباحتة وبحرته وإيوانه وغير ذلك تثير

السرور الجمالي في نفس المرأة وأفراد أسرتها وتحررهم من الملل ووصفت الدار
الدمشقية في الأمثال الشعبية أجمل وصف كقولهم :

دار ودّار وطيور تناغي الواحد القهار .

إن جمال البيت الدمشقي القديم جعل الشعراء يتغنون بجماله وبياحته وقاعاته
ووروده وأزهاره وأشجاره ، وزخارفه وبحرة مائه . . . بل ويكل ما فيه .

وإن جمالية بحرة الماء في صحن الدار جعلت الشاعر أبا اسحق إبراهيم ينشد
قائلاً :

بركة يصعد الأنابيب منها يقعد الماء فوقها ويقوم
فلذا أطلقت فواقع تبدو كالقوارير من زجاج مقوم
وكان السماء صفحتها الزر قاء والياسمين فيها نجوم

وتغنى الشريف العقيلي ببخرة ماء صحن الدار قائلاً :

وبركة قد أفادتنا عجباً ما ماج من مائها وما انسكباً
من حول فوارة مركبة قد انحنى ظهر مائها تعباً

وقال ابن حجاج المتوفى عام (٣٩١ هـ) في نافورة بحرة صحن الدار :

صنعت في دارك فوارة أغرقت في الأرض بها الأنجما
فاض على نجم السهى ماؤها فأصبحت أرضك تسقى السما

وأشدد الوجيه المناوي في نافورة مياه صحن الدار قائلاً :

فوارة تشبه في شكلها سبيكة من فضة خالصة
تلهيك بالحسن فقد أصبحت جارية ملهية راقصة

ووصف الشاعر العمري نافورة بحرة صحن الدار وبقر بها الثريا المصنوعة من

القناديل الجميلة قائلاً :

انظر إلى فوارة قد أبدعت رقصاً حلاً بين النساء تهصر
فكأنما هي والثريا جنبها تومي للشم خدودها إذ تخطر
حسناء تاهت بالدلال فكلما قربت من الصب المتيم تنظر

ووصف الشاعر عبد الجليل التغلبي نافورة مياه بحرة صحن الدار قائلاً :

انظر إلى فوارة قد حكت جاريةً قوامها كالغصن الغصين
أرخت على أعطافها حليةً بدبعةً مثل خيوط اللجين

وإن زيارة البيوت الدمشقية القديمة والتأمل في جمالية أشجارها وورودها
وأزهارها تترك في نفس الزائر ذكريات لا يمحوها مرور الأيام ، لكل منها اسمه
العلمي والشعبي مثل :

أحمد بيك ، أرطاسية ، أصابع البوبو ، أم كلثوم ، حسن اليوسف ، البنفسج ،
حلق المحبوب ، خد بنت الملك ، خد العروس ، الخميسة ، الدادا ، دعة
القطعة ، راخي شعره ، الريحان ، الساعة ، السبع بحرات ، السجادة ، السمكة ،
السيم ، الشب الظريف ، الشكرية ، الخبيزة ، المسكة ، الشمعة ، الشمشيرة ، شم
النسيم ، الضراير ، العطرة ، الفل ، الفليفلة ، الزينة ، القرنفل ، القناديل ،
المضعف ، المجنونة ، المكحلة ، المنشور ، النرجس ، النفوفة ، الهرجاية ،
الهوا الناعم ، الهواء الخشن ، ياسمين عراتلي ، ياسمين أبيض بلدي ، ياسمين
أصفر البكونيا الليلكة ، البوري ، الزلف ، البنفشة ، المستحية ، المحكمة ، لسان
الحماية ، الكولونيا ، الشاب الظريف .

وكان من أهم نباتات البيوت الدمشقية الوردة الدمشقية الجوري البلدي الأبيض
الناصع والأحمر الرائع ، وأفردت له حيزاً خاصاً .

ومن أشجار البيوت الدمشقية القديمة الليمون الحامض ، والليمون الحلو ،
والبرتقال والكباد ، والطرنج ، والفراسكين والنانج ، والكرمتينا ، والأفندي ،
والتوت ، والتين ، والأكيدنيا . . .

وكثيراً ما تصف أصحاب الورود والأزهار والرياحين على حافة بحرة مياه صحن
الدار ، وتسهم في إضفاء ظل ظليل ولطيف في باحة الدار . وذلك مع ظل أشجار
الصفصاف والكباد النانج والعنب . . . وتمتد على جذوعها وأغصانها نهايات

أغراس الورود والياسمين والليلك .. وغيرها ... فتبدو في أجمل منظر منعش
الروح ويهيج البصر .

قال ابن دمرdash يصف النارج :

تأملُ ترى النارج في الدوح باسمًا نضيراً يروق العين من جُلنَّاره

وقد استحسن الشعراء منظر بحرة مياه باحة الدار وأشجارها وورودها وأزهارها
فجادت قرائحهم بأجمل القصائد التي منها قصيدة الشاعر عبد السلام الكاملي في
شجرة النارج :

انظر إلى النارج في أغصانه الـ ... خضر اللواتي للنواظر ممتعة

كعقود ياقوت الحسان تبددت فتلقَّطته يدُ الزبرجد مسرعة

وعبّر الشاعر محمد الخزجي الدمشقي عن عشقه الورد قائلاً :

انظر إلى الورد ما أحلى شمائله سبحان خالقه من يابس الحطب

كأنه وجنةُ المحبوب نقطها كفُّ المحبِّ بدينار من الذهب

قال شاعر العمري في فوارة ماء بقربها الثريا المصنوعة من القناديل :

انظر إلى فوارةٍ قد أبدعتُ رقصاً حلا بين النسائم تهصرُ

فكأنما هي والثريا جنبها تومي للشم خدودها إذ تخطرُ

حسناء تاهت بالدلال فكلمًا قرئت من الصبِّ المتيمِّ تنظرُ

قال عبد الجليل التغلبي يصف فوارة ماء :

انظر إلى فوارةٍ قد حكثُ جاريةً قوامها كالغصين الغصين

أزحت على أعطافها حليةً بديةً مثل خيوط اللجينِ

قال مصطفى الصمادي في وصف فوارة ماء :

وبي فوارةٌ غشَّت وروداً بيركتها عليها الماء سالا

ولاحت وردةٌ للعين حلَّت بأعلاها فزادتها جمالا

تُحاكي قبة الألباس فيها بساطاً من يواقيت تلالا
ويحملها عمود من لجين لها المُرجان قد أضحى هلالا

فمن صحن الدار في البيت الدمشقي القديم الشاعرى الجميل تصل إلى أسماعنا
إيقاعات المياه المنبعثة من ثقب النافورة ، والمتراقصة على سطح مياه البحرة التي
توسط صحن الدار .

وتكون هذه البحرة مربعة أو مستطيلة أو مضلعة أو مستديرة ، وفي وسطها نافورة
المياه ، وقد كسيت سطوح هذه البحرة بالواح الرخام المجزع والمشقف كفسيفساء
رخامية جميلة التكوين والتشكيل والألوان المنسجمة ، وتبدو جمالية خطوط
زخارفها الهندسية الفنية والمنحنية على جوانبها ، وكثيراً ما تكون البحرة مقابل
واجهة الإيوان ، وتتدفق مياه هذه البحرة من أربعة أنابيب ذات أشكال مختلفة
واتجاهات متنوعة تسهم في تقوية حركة جريان المياه في البحرة .

وهناك مظلة معدنية مثمثة الشكل مثبتة بفرع شجرة في باحة الدار تتدلى فوق
البحرة ، وتدعى (الكبك) توضع عليها صحن الطعام في الصيف وذلك لحفظها
من الفساد بسبب حرارة الصيف ، مما يجعلها تقوم مقام (البراد) في عصرنا ،
وذلك لحفظ الطعام بعيداً عن حشرات الأرض والهررة ، وغالباً ما يكون لهذه
المظلة غطاء من المنخل له شكل قبة ، ومهما يكن من أمر ، فإننا نستطيع أن نقول أن
صحن البيت يبدو بمثابة عالم آخر جميل يختلف عن البيئة الخارجية ، ويحجب عن
أفراد الأسرة مختلف العوامل الطبيعية الخارجية ، ويترك لهم حرية التمتع بجمالية
السماء ورطوبة الفضاء ، وإيقاعات رقصات المياه ، وزخارف جوانب البحرة .

وهناك الزخارف والنقوش الجميلة داخل مبنى البيوت الدمشقية القديمة ،
والكسوة الخشبية الجميلة في القرن الثامن عشر الميلادي ، كل هذا يدل على أهمية
المنجزات المعمارية والفنية التي أبدعها ذلك الفنان الدمشقي المتميز بخبرته المهنية
وثقافته الجمالية وذوقه الفني ومهارته اليدوية . فهناك الزخارف الهندسية والنباتية
والأشرطة الكتابية التي أضفت على روائع الفنون الخشبية الجمال الفني .

وتدل هذه الروائع الخشبية على حسن اهتمام ذلك الفنان باختيار نوع الخشب لتزيين جدران القاعات ، وأعداد لوحات فنية مدهونة ومحفورة ومزينة بأجمل الزخارف الهندسية والنباتية والكتابية المنفذة بتقنيات فنية مختلفة تدل على جمالية هذا الفن المعماري والهندسي المحلي ، ومدى براعة الصانع الفنين الدمشقيين في إبداع هذه الروائع الفنية الجميلة .

فهناك زخارف محفورة في الخشب ، منها الغائر ومنها النافر والتي تدهن بألوان منسجمة .

وهناك زخارف محفورة لها أشكال هندسية نافرة وغائرة توضع فوق قطعة من الخشب غير المزخرف ثم تدهن بالألوان المناسبة... وهناك زخارف فنية من الجبس تزين بها الألواح الخشبية وذلك بحسب الرسم على قطعه قماش ثم تطلّى بالدهان... وهناك زخارف مرسومة على الخشب مباشرة ، أو على قطعة قماش ، وتدهن بالألوان الجميلة المناسبة ، وتؤلف مواضيعها الفنية أشكالاً نباتية وهندسية ورسوماً مختلفة . وكان هذا الأسلوب الفني منتشرًا ورائجاً وهناك التحف الخشبية المختلفة المزينة بالرسوم الجميلة الألوان .

وكانت هذه الزخارف تستخدم في كسوة الجدران والسقوف . كما استخدم الرخام بأنواعه أيضاً كعناصر تزيينية في كسوة الجدران .

وهناك (المصببات) الجانبية لبحرة صحن الدار ، وهي من الرخام الملون وقد زين أعلاها بمقرنصات جميلة تتميز بالدقة ، ويقوم إلى جانبي كل مصب عمودان رخاميان لهما تاجان مزينان بأوراق نباتية ، وينحدر الماء منهما .

وتميزت البحرة (الفسقية) بجماليتها لتكوينها من فصوص رخامية ملونة متجمعة تمثل أشكالاً هندسية ، لبعضها شكل نجم .

وكانت أرضية أكثرية البيوت الدمشقية القديمة ، وبخاصة دور الأغنياء ، كانت مفروشة ومرصوفة بالرخام الملون الجميل ، وبترتيب هندسي بديع ، وكان أولئك

الصناع الفنيون يستخدمون الألوان الترابية المحلية والألوان ذات الأصل النباتي المتميزة بالثبات .

وفي صحن الدار ، يشاهد درج من الحجر يتألف من نحو عشرين درجة يؤدي إلى الطابق العلوي وتسمى الغرفة التي في منتصف الدرج باسم (التكنة) أو السقيفة .

وتتسلق عريشة العنب حتى سطح المبنى . وكانت العائلات الدمشقية حريصة على زراعة الأشجار دائمة الخضراء في صحن الدار ، والإفادة من ثمار النارج والكباد والليمون . . . وغيرها في إعداد (المربى) اللذيذ الطعم ، وعصير العنب الزيني المشهور .

ويقابل الإيوان عبر الباحة السماوية (القاعة الرئيسة) المعدة لاستقبال الضيوف . وهي ذات نوعين : صيفية وشتوية ، إن القاعة الصيفية تكون في الجهة الجنوبية من صحن الدار ، مفتوحة على الجهة الشمالية ، تتلقى نسيمه البارد الرطب ، وذات أرضية متفاوتة المناسيب وذلك لخلق تيارات هوائية رطبة وعازلة وحافظة لدرجة حرارة معتدلة ، ويتألف بلاط القاعات من قسمين ، لهما ارتفاع مختلف ، فالقسم الأول (العتبة) يحتوي على (فسقية أي بحرة ماء) لها شكل مثنى الأضلاع مع نافورة ماء ، وقد صنعت الفسقية من الرخام الملون الجميل له تكوينات هندسية جميلة ، وتكون هذه القاعة بطرز واحد أو اثنين أو ثلاثة ، وتكون أرضيتها مرصوفة بالرخام الملون في تكوينات هندسية جميلة ، ويرتفع سقف هذه القاعة نحو ثمانية أمتار ، وهو مستوي الشكل ، ومن الخشب المدهون والمشغول وله أشكال هندسية ، وزوايا ، وتقاطيع نافرة يغلب عليها اللون الخمري ، وفي هذه القاعة قوسان حجريان من الحجر المحفور ، وفي صدر هذه القاعة خزانة كبيرة داخل الجدار فيها رفوف تعرض عليها أنفس مجموعات الأواني الصينية الجميلة ، ويكسو جدران هذه القاعة الرخام المشقف والمطعم بالصدف أو بنقوش من الحجر الذي جعله الفن والإبداع أثراً فنياً ، وهذه القاعة مفروشة بالحصر المصرية أو بالطنافس العجمية ، ويحيط بها ديوان عريض .

أما القاعة الشتوية فإنها في الجهة الشمالية من صحن الدار ، تواجه أشعة الشمس ، وهي إما أن تكون ذات طزر واحد أي القسم المرتفع من القاعة ، أو ذات طزرين أو ثلاثة .

وتكون كسوة الجدران بحسب ثروة المالك بالخشب المنقوش ، وبألواح المرمر المجزع بطراز عربي ، ومدهونة بألوان براقه ونقوش ذهبية اللون .

وفي جدران العتبة طاقات صغيرة أو تجاويف تسمى المشكاة ، وهي عنصر معماري مزخرف وأنيق توضع فيها قناديل الزيت للإضاءة مساء وتكون غرفة الاستقبال مفروشة بالفرش العربي الجميل المرصع بالصدف والقماش الدمشقي (الدامسكو) .

أما السقف ، فإنه من الخشب المدهون ، ومزين برسوم ورود وتحتوي بين طياتها على مرايا صغيرة ، ورسوم أزهار مدهونة بألوان هادئة وزاهية يرتاح النظر بها . . . أو مزينة بأحجار مزخرفة بنماذج (الأبلق) ذي الأشكال الهندسية والخطوط المنحنية . . . أو بالجص ، أو الرخام المحفور بالألوان والكتابات العربية التزيينية . . . تدل كلها على براعة ذلك المعمارى الدمشقي وذوقه الفني في حسن اختيار الألوان ، ومدى تمتعه بطاقة من الصبر لإبداع الصور الصغيرة والمنمنمات الرائعة ، ويتدلى من السقف مقرنصات تنتهي بفوانيس من الخشب المحفور والمدهون تنسجم مع زخرفة السقف .

وفي أعلى جدران القاعة نوافذ زجاجية ملونة تسهم في إضاءة هذه القاعة تسمى (شمسية) أو (قمرية) .

وكثيراً ما يكون في الجدران خزائن وتجهيزات فنية ، وذلك لتحفظ فيها الكتب وأواني الزينة ، لقد كانت هذه الخزائن الجدارية خاصة لحفظ الأواني الصينية النفيسة والنراجيل ، أضف إلى ذلك النفائس النحاسية المطعمة بالفضة وهناك فناجين القهوة ، وقماقم ماء الورد ، والمجامر ذات الأشكال المختلفة ، المستعملة في حرق الطيوب والبخور ، وتسمى هذه الخزائن الجدارية باسم (الكتابي) ومهما يكن

من أمر ، فإن هذه القاعات ذات الفلسفية والأجواء المناسبة كانت صحية تتوفر فيها عناصر الرفاه للنساء اللواتي كن يلازم بيوتهن ، وقلما تتاح لهن فرصة التجول خارج بيوتهن ، وهناك أجنحة أخرى حول صحن الدار ، فيها غرف استقبال إضافية صغيرة ، ومنها ما يسمى (مربع الدوس) .

أما قسم الخدمات في البيت الدمشقي القديم ، فإنه يتألف من المطبخ الذي يوجد دائماً في الطابق الأرضي ، ويطل على صحن الدار ، ويكون واسعاً ، وأرضه مفروشة بالحجر الأسمر الداكن ، وإلى جانبه بحرة صغيرة يصب فيها الماء من على جوانبها وتستعمل لتنظيف الصحن وأواني المطبخ وذلك بعد جليها . ثم توضع على رف جانب البحرة لتنشف من الماء .

وفي صدر المطبخ (أوجاق) أي مكان الموقد حيث يُوضع فيه الحطب ويشعل ، وفوقه منضوب خاص لطهي الطعام إنه العنصر الأكثر أهمية في المطبخ ، ويكون مبنياً من القرميد توضع عليه الطنجرة أو القدر للطبخ ، ويتسع لأكثر من طنجرة وقد بني هذا الموقد بشكل يصعد الدخان والبخار في فوهة تتصل بمدخنة تمتد حتى السطح ، وإلى جانب البحرة مصرف للمياه .

وكانوا يستعملون (الصفوة) أي الرماد المتبقي من الخشب بعد حرقه ، وذلك للتنظيف وكان يستعمل أيضاً (الأسنان) للتنظيف أيضاً ، وهو مسحوق نباتي .

وكانت القدور تبقى براقاً ؛ وذلك لإرسالها للتبييض كلما تطلب ذلك بعد فترة زمنية وكانت المياه تؤخذ من أحد فروع نهر بردى بواسطة أقبية أرضية فخارية تصل إلى (موزع) كان في كل حي من أحياء دمشق يعرف باسم (طالع) . وقد توجد آبار في بعض الدور القديمة ، وتوجد أيضاً في المطبخ خزانة (نملية) ذات جدران من شبك (المنخل الناعم) وذلك لحفظ الطعام ، ومنع الحشرات من الوصول إليه . وكان يبرد الماء بالإبريق (أو الشربة) الإناء المصنوع من الفخار .

وهناك (المعجن) وهو طبق نحاسي كبير مبيّض ، يوضع فيه الخبز البيتي المشروح ويستعمل أيضاً لعجن الطحين .

وكان على الكانون القدر وفيه (الكفكير) و (الكبجاية) و (ملاعق الخشب) وفي زاوية المطبخ يوجد (الكوندوش) وهو عبارة عن خزانة خشبية مغلقة تماماً ، توجد فيها فتحتان أحدها علوية في سقفه ، والأخرى في أسفله ، ولهما (مغاليق) . ويستعمل هذا الكوندوش لحفظ الحنطة المستخدمة في صناعة الخبز .

ومن المطبخ ، يمر يؤدي إلى (الحمام) ، ولم يكن الحمام موجوداً في كل بيت دمشقي ؛ لأن السكان كانوا يغتسلون في (حمام السوق) .

وقد كثر عدد الحمامات في دمشق وتزايد عددها في القرن الثامن عشر حتى وصل عددها إلى مئة وعشرين حماماً في مختلف أحياء دمشق ، ولم يبق منها في عصرنا سوى نحو عشرين حماماً .

وكان الدمشقيون يغتسلون في المطبخ في حال الاغتسال الضروري والسريع فيستعملون إناء كبيراً يملؤونه بالماء ، ويضعونه على فوهة النار ، وذلك لتسخين الماء والاستحمام به ومنه .

أما الحمام في مبنى البيت الدمشقي الكبير ، فإنه يقسم إلى ثلاثة أقسام :

- القسم البرّاني .

- القسم الوسطاني .

- القسم الداخلي (الجوّاني) .

وفوق الحمام توجد سقيفة من الحجر أو الخشب لسقط المتاع ، والحطب الضروري للطبخ والحمام .

وكانت أقسام الحمام تتصل ببعضها بممرات ضيقة ومتعرجة لمنع التأثير المباشر للهواء الخارجي البارد على المستحمين ، ولتجنب الرؤية المباشرة .

أما (دورات المياه) في البيت الدمشقي القديم ، وتسمى (بيت الخلاء ، بيت المي) فيلاحظ أنها :

- متعامدة مع اتجاه القبلة .

- مصدر المياه إلى يسار الداخل (ويمين المستخدم) . وهو دائم الجريان .

- جهاز دورة المياه حجري كله ، وذلك لتأمين الكثافة اللازمة . وكان ما يفيض عن البحرات داخل البيت يجري في قساطل من الحجر : محكمة البناء ، إلى دورات المياه ، داخل هذه البيوت ، حيث يذهب مع قذارتها في قناة مخصصة تحت الأرض إلى المجرى العام المخصص لكل حي ، حيث تجتمع أخيراً بالنهر الكبير المعروف باسم (نهر قليط) ، فيخرج إلى البساتين في (ثمن الشاغور) وفي شرقي (ثمن الميدانين) ، وينتهي في أراضيها .

الطابق العلوي :

ولمبنى البيوت الدمشقية القديمة طبقة عليا سكنية لها نوافذ عديدة مطلة على صحن الدار تعرف باسم (فرنكات) تتخذ للمبيت والإقامة في فصل الشتاء .

فهناك درج حجري أو خشبي ظاهر أو مخفي ، يؤدي إلى هذا الطابق العلوي من المبنى ، وإلى جهة شمال الصاعد على الدرج غرفة كبيرة تعرف باسم (القصر) تتميز بزخارف جدرانها وسقفها ، وأرضها مرصوفة بالرخام الأبيض الجميل في تكوينات هندسية جميلة ، وهناك طزر صغير يعلو أرض القصر بدرجة ، وتوضع الطراريح والمساند ، وفي صدر القصر (يوك) أو خزانة فيها رفوف تحفظ فيها الكتب ، ويتألف السقف من أعمدة خشبية ضخمة زينت برسوم أزهار وأغصان نباتية بألوان زاهية جميلة وهناك كتابات وأدعية مختلفة ، يحتوي هذا الطابق العلوي على رواق مغطى يدور حول الأجنحة الثلاثة (الشمالي والشرقي والغربي) موصلاً الغرف المتعددة ببعضها .

أما (الجناح الجنوبي) فإنه مشغول عادة (بالإيوان) المرتفع ، وهو بدون طابق علوي فوقه ، وأحياناً عولجت القاعة الرئيسة المقابلة للإيوان المعالجة نفسها ، وغطت ارتفاع طابقين ، مما أدى إلى تقسيم الطابق العلوي إلى جناحين مستقلين ومنفصلين يصعد إليهما بواسطة درجين من الطابق الأرضي .

خصصت غرف الطابق العلوي لاستعمالات عائلية مختلفة ، وقد أمكن ذلك

بفضل انفصالها عن بعضها في مجال الحركة ، وانفتاحها كلها على الرواق .

وفي بعض البيوت الدمشقية القديمة ، أضيفت غرفة على سطح مبنى الطابق العلوي عرفت باسم (الطيارة) أو (العلّة) الذي يدل على أصدق تعبير عن وضعها المعماري وقد أحيطت من ثلاث جهات بالنوافذ الزجاجية ، واستعملت صيفاً وشتاء كغرفة معيشة ، إنها غرفة وحيدة ، وتشاهد (المشرقة) فوق الغرف العليا ، وهي منشر للغسيل ، وهي تشبه فسحة سماوية .

وقد جاءت غرف النوم عموماً في الطابق العلوي ، مواجهة للجهة الجنوبية ، ومفتوحة بنوافذ زجاجية على رواق مظل على صحن البيت ، لتستقبل أشعة الشمس الدافئة شتاء ، حيث تقل زاوية ميل أشعة الشمس في هذا الفصل ، فتدخل أشعتها إلى عمق الغرف ، فتساعد في إضاءتها ، وتنقية هوائها وتدفتتها .

وفي غرف النوم توضع (الفرش) و (اللحف) وغيرها في خزانة جدارية كبيرة مغلقة بأبواب خشبية مشغولة بأنواع الزخارف وهي من مصراعين وتسمى (اليوك) . ويوجد في الطابق العلوي (الدوار) الذي هو ممر زجاجي على غرف النوم ، وهناك (الممشى) أو (الممشاية) الممر بين الغرف ، ويمنع الرواق المطر من الوصول إلى غرف النوم .

وفي فصل الصيف ، تستعمل غرف النوم في الطابق الأرضي المتميز بالرطوبة واعتدال الحرارة .

إن البيوت الدمشقية القديمة المتجاورة مع بعضها ، والملتصقة ببعضها ، وذلك عبر طرق وأزقة ضيقة ، تبدو فيها دروب ودخلات غير نافذة ، حصروها في مدخل واحد ، له باب ضخم مفتوح طيلة النهار ، ويغلق ليلاً .

وكان يسكن هذه البيوت الدمشقية القديمة الأقرباء والأصدقاء ويعيشون مع بعضهم متعاونين متضامنين ، وتفصل هذه البيوت عن الأزقة الأخرى أبواب عامة تصلها بالأسواق والمنشآت المختلفة كالجوامع والمساجد والكنائس والحمامات ومناهل المياه والمدارس ، متقدمة أو متأخرة على أزقة ضيقة وملتوية .

وكان المنظر العام لمدينة دمشق القديمة هو-تجمع للمباني يضمها مخطط متداخل العناصر ، وحداته السكنية هي منازل متفاوتة المساحات ، متباينة المظاهر ، تعكس نماذج التكوين الاجتماعي المتنوع ، والمختلف من حيث الدخل والثقافة .
إن هذا كله هو التراث الذي نعبر عنه دائماً بالتقدير ، وفي القول الشعبي المأثور : من لا ماضي له ، لا حاضر له .

ويجدر بنا الاعتراف بالجميل لأجدادنا الذين أبدعوا لنا هذا التراث ، ويجب علينا المحافظة عليه والاستمرار فيه .

وإذا كانت الأحياء القديمة ومبانيها المختلفة تتميز بالهدوء ، فإن الحياة الحديثة المعاصرة وصخبها وضجيجها مما يجعل الإنسان المعاصر يتذكر ذلك الهدوء وجمالية الحياة والمساكن وما فيها من صور جنات النعيم من روائع العمارة السكنية وباحاتها وبحراتها ونباتاتها وأثاثها .

أثاث البيت الدمشقي :

كان الأثاث المنزلي في البيت الدمشقي القديم بسيطاً ولكنه جميل ويتميز بجمالية البساطة ، فهناك صناديق خشبية استخدمت لحفظ الثياب ، وكانت قد صنعت من خشب السرو أو الصنوبر المانع للحشرات (كالأرضة ، والعت ، والسوس . . .) وكان حجم هذه الصناديق مختلفاً من صندوق لآخر ، كما تختلف من حيث زخارفه تبعاً لثروات رب الأسرة ، وكانت المرأة تحفظ في هذا الصندوق أدوات زينتها (من مشط ومراة ومكحلة وغيرها . . .) .

لباس الدمشقي وزينته :

وكان لباس الرجل مؤلفاً من الصاية والقنباز ، والقفطان المقصب والألابة والدامر والعباءة والمضربية والجة أو الفروة والشال والعمامة الأغباني .

وكان لباس المرأة مؤلفاً من الثوب والسروال الطويل والصدار المصنوع من الحرير ، والقميص المصنوع من القطن أو الحرير والمضربية والدامر والأزار وكان الرأس يُغطى ، وكانت النساء حين خروجهن من دورهن يأتزرن بمئزر ينسدل إلى

القدم ، وكن يغطين وجوههن ببراقع أو مناديل ، وقد أولعت المرأة الدمشقية بالزينة والحلي من الذهب المرصع بالأحجار الكريمة وبخاصة الأساور والخواتم والأقراط والخلاخل والقلادات والأطواق والسلاسل ، وكان للأساور أنواع منها العريضة والمبرومة ، والرقيقة والضخمة .

واستخدمت الدنانير الذهبية المختلفة في الحلي النسائية المختلفة ، حيث كانت تجمعها في سلسلة ذهبية ، وتجعلها تتدلى من عنقها إلى صدرها ، فكانت حليها عنصر زينتها ورمز ثروتها .

وإن حب الخير دفع كثيرات من النساء دمشق إلى إعارة حليهن إلى قريباتهن في مناسبات الأفراح .

وكانت المرأة الدمشقية تتجمل بالأساور الذهبية التي منها ما يعرف باسم (سوار الحية) ؛ لأن السوار ينتهي في طرفه أو طرفيه بشكل رأس حية التي تعدها الأساطير القديمة رمز (الشباب المتجدد) ؛ لأن الأفعى تنزع ثوبها سنوياً ليكون لها الثوب الجديد .

وللمرأة الدمشقية ذوقها الخاص في حسن اختيار الحلي والمحافظة عليها .

وتتميز المرأة بالإخلاص والوفاء لزوجها . تضع كل حليها تحت تصرف زوجها كلما أحست أن زوجها بحاجة إلى مال لحل أزمة من أزماته الحياتية .

الحياة الاجتماعية في البيت الدمشقي :

يسود الأسرة الدمشقية نظام عائلي متوارث ، جعل السلطة في الأسرة الدمشقية بيد رب العائلة الجد أو الأب ، وجعل الإشراف على أمور الأسرة الداخلية بيد كبيرة هذه الأسرة الجدة أو الأم أو العممة كان الأب في الأسرة الدمشقية يتمتع باحترام كبير وحب كبير من قبل كل أفراد الأسرة ، له هيئته واحترامه ، ويتجلى هذا الاحترام والحب بعادة تقبيل يد الجد والأب والجدة والأم والعممة .

وكانت الأسرة الدمشقية تتميز بالحياة المشتركة السعيدة ، فالجميع يؤدون الصلاة ، ويتناولون الطعام معاً .

كانت نساء الأسرة تهتم بإعداد الطعام وكان رجال الأسرة يهتمون بشراء كل ما يلزم من طعام وغيره وكانت كبيرة الأسرة توزع العمل بين أفراد الأسرة .

أسهمت العادات والتقاليد الاجتماعية في ظهور مفردات يستحسن شرحها مثل :

- الكتبية : خزانة جدارية بدون أبواب تحفظ فيها بعض الكتب والأواني المختلفة الزجاجية والخزفية والشمعدانات .

- النافذة القمرية : نافذة صغيرة في أعلى جدران القاعات ، ذات زجاج ملون جميل ، ثابت لا يفتح .

- الخرستانة : مثل الكتبية لها باب خشبي .

- اليوك : تجويف في الجدار تحفظ فيه الفرشات واللفف والمخدات .

- القاعة : غرفة كبيرة ، جدرانها وسقفها مكسوة بالخشب المزين بالرسوم والألوان والنقوش والزخارف والكتابات ، لها (فسقية ماء) في عتبة القاعة .

- المشرقة : المساحة الكبيرة في سطح الطابق العلوي .

- الإيوان : غرفة كبيرة في الطابق الأرضي ذات ثلاثة جدران ومطلّة على صحن الدار يمضي فيه أفراد الأسرة سهراتهم الصيفية . وهي مرتفعة عن سطح صحن الدار .

- الكيلار : بيت المؤونة .

والخلاصة :

يمثل البيت الدمشقي القديم مرحلة حضارية ومعمارية وفنية متطورة فهو ثمرة مواهب وعبقريات ، وملاحظات ومهارات أبناء الأجيال السابقة .

ففي البيت الدمشقي القديم كل متطلبات الإنسان الحياتية والأمنية والرفاهية ، إنه قصر الجمال والأحلام تعجز عن وصفه الأقلام .

من الأمثال الدمشقية ما يلي :

بيت الإنسان فردوسه ، وفردوس الإنسان بيته .

مما يفسّر مدى اهتمام الإنسان بعمارة بيته وجمالياته .

وإذا فقدنا الكثير من البيوت الدمشقية القديمة : فإن ما تبقى منها يدل على جمالية تلك البيوت ، ويتطلب منا جميعاً المحافظة على ما تبقى منها للأجيال الصاعدة في عصر أصبح فيه الاهتمام بالتراث والمحافظة عليه من أهم معايير رقي الأمم وتقدمها ووعيها الحضاري .

أَتَذَكِّرُ البُيُوتَ الدِمَشْقِيَّةَ

بِمَقَابِضِ أَبْوَابِهَا النَحَاسِيَّةِ

وَسُقُوفِهَا الْمُطَرَّزَةِ بِالْقَيْشَانِي

وَبَاحَاتِهَا الْجَوَانِيَّةِ

الَّتِي تُذَكِّرُكَ بِأَوْصَافِ الْجَنَّةِ . .

الْبَيْتُ الدِمَشْقِيُّ

خَارِجٌ عَلَى نَصِّ الْفَنِّ الْمَعْمَارِيِّ .

هَنْدَسَةُ الْبُيُوتِ عِنْدَنَا . .

تَقُومُ عَلَى أُسَاسٍ عَاطِفِيٍّ

فَكُلُّ بَيْتٍ . . . يَسْنُدُ خَاصَرَةَ الْبَيْتِ الْآخَرِ

وَكُلُّ شُرْفَةٍ .

تَمُدُّ يَدَهَا لِلشُّرْفَةِ الْمَقَابِلَةِ . . .

الْبُيُوتُ الدِمَشْقِيَّةُ بُيُوتُ عَاشِقَةٍ

فَهِيَ تُسَلِّمُ عَلَى بَعْضِهَا صَبَاحاً

وَتَتَبَادَلُ الزِّيَارَاتُ . . .

- فِي السَّرِّ - لَيْلاً

أَحْوَاضُ الشَّمْشِيرِ . . . وَاللَّيْلِكِ . . . وَالْقُرْطَاسِيَا

البِرْكَهُ الوسطى ، عَيْنُ الدار الزرقاء
الياسمينُ الزاحفُ على أكتاف المخادعُ . .
وعلى أكتافنا . .

النافورة الذهبية - طفلة البيت المدللة
التي لا تنشف لها حنجرة
والقاعاتُ الظليلةُ أواني الرطوبة . . ومخبؤها
ومما قاله الشاعر أحمد المفتي :

والياسمينة فتحت أزهارها
والشمعة الحسناء تنشر عطرها
من خلف خص طل وجه فاتن
هذي دمشق حييتي بجمالها
والليلكية عرشت بجمان
وسط الديار وفي حمى الليوان
قمر يغيب بحسنها الفتان
ماسـت وراء المد والعمران

ومن البيوت الدمشقية :

- | | |
|----------------------------|---------------------------------|
| ١- قصر العظم | ٢- بيت مردم بك |
| ٣- بيت الأسطواني | ٤- بيت الخطيب |
| ٥- بيت العطار | ٦- بيت القوتلي |
| ٧- بيت عبد الله باشا العظم | ٨- بيت سر أميني |
| ٩- بيت أبو رياح الجزائري | ١٠- بيت الغزي |
| ١١- بيت جبري | ١٢- بيت الشيرازي |
| ١٣- بيت الخالدي | ١٤- بيت العجلاني |
| ١٥- بيت عثمان | ١٦- بيت القهوجي |
| ١٧- بيت التيناوي | ١٨- بيت الشيخ بدر الدين الحسيني |
| ١٩- بيت المنجد | ٢٠- بيت الصواف |

- ٢١- بيت الشيخ طاهر الحسين
٢٣- بيت سقا أميني
٢٥- بيت جمعة
٢٧- بيت الصوان
٢٩- بيت النابلسي
٣١- بيت السادات
٣٣- مكتب عنبر
٣٥- بيت السمان
٣٧- بيت مباردي
٣٩- بيت شامندي
٤١- بيت الشامي
٤٣- بيت السهيان
٤٥- بيت شنياره
٤٧- بيت محاماه
٤٩- قصر النعسان
٥١- بيت البقاعي
٥٣- بيت الشاوي
٥٥- بيت فرنسيس
٥٧- بيت عريضة
٥٩- بيت سويد
٦١- بيت نظام
٦٣- بيت الحفار
- ٢٢- بيت الأمير عبد القادر الجزائري
٢٤- بيت الدوجي
٢٦- القصر الأموي
٢٨- بيت أم سلمة
٣٠- بيت مراد
٣٢- بيت الإمام
٣٤- بيت الشاس
٣٦- بيت الخرسان
٣٨- بيت السياف
٤٠- بيت المجلد
٤٢- بيت الدادا
٤٤- بيت فرنسة
٤٦- بيت فتوح
٤٨- بيت قشيشو
٥٠- بيت الشطه
٥٢- بيت الدحداح
٥٤- بيت عبد النور
٥٦- بيت القبوات
٥٨- بيت مرقده
٦٠- بيت قباني
٦٢- بيت الكسم
٦٤- بيت المعلم

٦٥- بيت نياڊو (إسطنبولي)	٦٦- بيت بيضون
٦٧- بيت طوطه	٦٨- بيت شمعايا (الشماعية)
٦٩- بيت الجنان	٧٠- بيت السباعي
٧١- بيت العقاد	٧٢- بيت الجباوي
٧٣- بيت الكزبري	٧٤- بيت الطيبي
٧٥- بيت الهندي	٧٦- بيت الصفدي
٧٧- بيت حورانية	٧٨- بيت كلاس
٧٩- بيت الكيال	٨٠- بيت علاوي

معالم الحياة في دمشق

لقد كانت وما تزال مدينة دمشق مثار اهتمام كثير من المستكشفين والباحثين والأدباء والرحالة ولقد زار دمشق أديبان فرنسيان هما الشاعر الرومانسي (ألفونس دي مارتين) الذي زار سورية ولبنان في عام (١٨٣٣ م) ، والرحالة (شارل رانيو) الذي تجول في أرجاء دمشق في عام (١٨٤٦ م) وقد قام الاثنان بوصفٍ شيقٍ ودقيقٍ لمعالم الحياة في دمشق بشكل لم يستطع أبناؤها المعاصرون أن يفعلوا ذلك ، ونورد فيما يلي مقتطفات من هذه اللوحات الفنية الرائعة .

يبدأ رانيو بوصف إطلالته على دمشق ، وكان شاباً في الثالثة والعشرين من عمره عام (١٨٤٦ م) عندما وصل إليها من الجبال اللبنانية (وكان دخوله ، على الأرجح من قبة السيّار أسفل جبل قاسيون مباشرة أي في نهاية طريق القوافل الآتية من بيروت ولبنان) فيقول : « تحت أقدامنا ينبسط سهل شاسع مُغطى بالغابات ، وفي الأفق تضيق العينان على المدى الواسع وصولاً حتى صحراء بغداد ، وتبدو دمشق واحة رائعة بين صحراء الرمال البعيدة وصحراء الحجارة المزدحمة في الجبل الذي تقف عليه . . ومن هذا الارتفاع ظهرت دمشق وسط الحداثق كغمامة رمادية في بحرٍ من الخضار . . . المآذن ، البيوت والأشياء جميعاً تتماوج باتجاه اللون الأزرق الخفيف ، وحول المدينة

الأم ينتشر عدد من القرى... اللوحة مكتملة... وبين الوقت والآخر تنفجر الأشجار في هذه اللوحة الجميلة ليظهر من خلالها مرج رائع يخترقه نهر صغير يرسم طريقه الحلزونية وسط الخضار قبل أن يعود ويختفي تحت قناطر الأشجار الوارفة وبمقدار ما كنا نهبط على الجبل بمقدار ما كانت مجموعات الخضار تتوزع وتنقسم... كل شجرة تستقل عن الكتلة العامة لتتخذ شكلاً خاصاً بها... وترتفع أشجار الحور حادة إلى الفضاء ، وأشجار الجوز أغصانها القوية حولها .

ويتابع رانيو وصفه الممتع قائلاً : « عندما نصل إلى السهل يختفي هذا المشهد الرائع ؛ لأننا نكون قد دخلنا في الدروب الخضراء التي تؤدي إلى المدينة... وعلى جانبي هذه الدروب ينتشر الفلاحون العرب وهم يوزعون مياه الري على بسايتهم عبر أقنية ترابية أو من الحصى... معالم الحياة بدأت تظهر أكثر فأكثر... هنا نلتقي مجموعة من الخيالة ، وهناك نشاهد حلقة من الناس قد انعقدت وأخذ أفرادها يتجاذبون أطراف الحديث هكذا حتى نصل إلى المدينة ، إلى دمشق التي طالما سمعنا عنها... وعندما نصل إلى بوابة المدينة بعد ساعة من السير في هذه الدروب الجميلة نصاب بصدمة ، فالبيوت المنخفضة حلت محل الأشجار الباسقة والجدران المصنوعة من الطوب الأحمر لا تغطيها سوى قشرة واهية من الكلس... الشوارع حزينة وغير نظيفة... الشمس حادة وتبهر العيون ، خاصة وأنا اعتدنا على ظلال الحداث التي كنا نسير بينها .

ويستمر قائلاً : ولكن يجب عدم التوقف مطلقاً عند هذا الانطباع الأولي ، ففي الشرق فإن الثروة والجمال يفضلان الظل... نحن لا نجد هنا الاستعراض المترف الذي يحيط بخارج منازلنا في أوربة... فالبيوت هنا ، مثلها مثل النساء يختبئن خلف الحجاب . فالنساء يعبرن الشوارع محجبات لدرجة أنك لا يمكن أن تميز بين واحدة وأخرى... ولكن يقال : إن خلف هذه الثياب الفضفاضة التي تغطي كل النساء ، هنالك أناقة مفرطة... وهكذا هو الأمر بالنسبة للبيوت ، فالقصور والبيوت العادية تبدو متشابهة من الخارج . ولكن خلف تلك الجدران العادية تختبئ مساكن أنيقة عملت المخيلة العربية على تزيينها بنعومة .

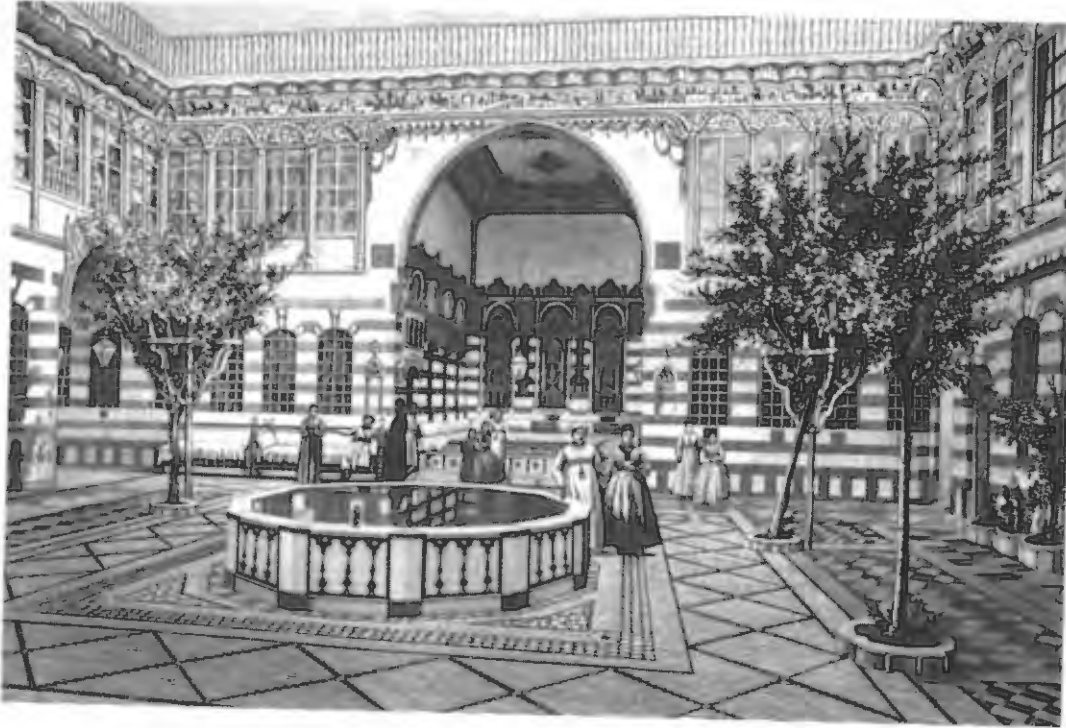
وينتقل بعد ذلك إلى داخل البيوت ويأتي وصفه شبيهاً لما قاله الشاعر لامارتين في عام (١٨٣٢ م) والذي يصف البيت الدمشقي بشاعرية ناعمة فيقول :

« على الرغم من المظهر الخارجي الذي عادة ما يكون بائساً فإن الأمر يختلف من الداخل . ولقد أتيح لنا مجال دخول بعض المنازل الدمشقية حيث اعترف بأنني ذهلت لدى مشاهدتي للترف والأناقة الداخلية . فعادة بعد أن نعبُر الباب الخارجي ونجتاز ممشى مظلماً نجد أنفسنا في باحةٍ تزينها ينابيع مياه تصب في بُركٍ رخامية ، وحول هذه البُرك نباتات رائعة وأحياناً حفنة من أشجار الصفصاف ، والباحة مغطاة ببلاط جميل من الرخام أو من الحجارة المسطحة والمرصوفة باعتناء إلى جانب بعضها البعض ، وتتسلق الدوالي على جدران الباحة وتغطيها . . وغالباً ما تكون الجدران مكسوة برخام أبيض وأسود ، ومن هذه الباحة تتفرّع خمسة أو ستة أبواب ذات هندسة عربية مميّزة ويؤدي كل باب إلى غرفة من الغرف التي يتألف منها المنزل وتشكل معظم الصالونات من مستويين ، فالأول ، وهو المنخفض مخصص للخدم والمساعدين وأما الثاني فأعلى من الأول يبضع درجات ومنفصل عنه بفواصلٍ رخامي أو من خشب الأرز المحفور بعناية فائقة وهو مخصص لأصحاب المنزل والضيوف ، وفي وسط الصالون ينصب نبع ماء أو نبعان في بركة صغيرة أو في إحدى زواياه ، وتزدان جوانب الصالون الخارجية بأواني الزهور حيث تأتي طيور السنونو واليمام لتشرب بحرية ولتستريح على ضفاف البركة وقد يُغطي الرخام أيضاً بعض الجدران حتى ارتفاع معيّن ، وأما القسم الذي لا يُغطيه الرخام فهو مزدان برسوم زاهية الألوان ، وأحياناً تلفت النقوش الذهبية الأنظار في منازل الميسورين » .

ويتابع لامارتين وصفه الشيق فيتوقف عند الأثاث مبدياً إعجابه فيقول :

« يتألف الأثاث من سجاد رائع عجمي أو بغدادي ، يغطي أرض الصالون بأجمعها ، رخامياً كان أو من خشب الأرز . وهناك عدد كبير من المساند والفرش يتكئ عليها أهالي المنزل . ويوجد مقعد مرتفع في الصالون وفي بعض الغرف ، ويكون مُغلّفاً بسجادة ناعمة جداً وأكثر أناقة من سجادات الأرض ويجلس النساء

والأولاد على بعض المقاعد وهم يقومون بأعمال البيت العادية... وتقوم أسرة الأطفال على الأرض بين السجاد والمساند ، ولرب البيت صالون خاص به يستقبل فيه الضيوف والزوار ، وكنا ندخل لنجد صاحب الدار جالساً براحة على مقعده وبقربه قلم طويل فيقوم عند اللزوم بكتابة شيء ما على ورقة في يده اليسرى أو على ركبته أو يدقق حساباته خلال النهار ، ذلك أن التجارة هي شغل الدمشقيين الشاغل وموهبتهم البارزة . وفي كل الأمكنة التي زرناها كان صاحب المنزل يستقبلنا بترحاب وبحفاوة فيضيفنا بالغليون والقهوة » .



صورة لبيت دمشقي واجهة الأبواب

عظماء دفنوا في دمشق^(١)

لم تخل دمشق يوماً من عظيم سواء كانت مقراً لحكم وإدارة ، أو تعيش في تخلف وخراب وحرب ، وفي مراحلها المزدهرة الطويلة حوت الكثير من الصحابة والقادة والعلماء الذين سارت أخبارهم في كل المناطق ، وسوف نأتي على ذكر أهم أسماء العظماء الذين تأكد لنا وجود قبورهم في المدينة ، في حين يفوق العدد الحقيقي آلاف الأعلام على مدى ألفي السنة الأخيرة من حياة البشر ، وربما إلى أبعد من ذلك إذا أخذنا بالرواية التي تقول : إنّ أهل الكهف (مدفونون في جبل قاسيون) .

أولاً - قبور بعض أنبياء الله :

قبر نبي الله هابيل : مدفون في منطقة الزبداني .

قبر نبي الله ذي الكفل : ابن نبي الله أيوب عليهما السلام مدفون في سفح جبل قاسيون وقبره ظاهر ويزار وعليه بناء ، وعنده من الجلال والهيبة ما يحقق وجوده هناك .

قبر سيدنا موسى عليه السلام : (في الكثيب الأحمر) في قرية قبلي دمشق يقال : إنه قرب (مسجد القدم) وهو معروف مشهور ، وللحافظ بن طولون في ذلك جزء لطيف نحو كراسة جمع منها أقوال العلماء وسماه (تحفة الحبيب بأخبار الكثيب) واعتمد فيه أن موسى كلیم الله عليه السلام مدفون في هذا الكثيب وبني

(١) أخذت مصادر هذه الوفيات من : ١ - وفيات الأعيان لابن خلكان . ٢ - أحداث التاريخ الإسلامي لعبد السلام الترماني . ٣ - كتاب الإصابة في تمييز الصحابة . ٤ - وصف دمشق لذكريا القزويني . ٥ - الروضة البهية في فضائل دمشق المحمية لمحمد عز الدين بن حسين عربي كاتبي .

عليه الشيخ الصالح البركة القدوة محمد بن قيصر بناءً يحيط به يتبركُ به الناس .

ويروي ابن جبير أن في قاسيون ألف نبي وسبعين ألف شهيد ، يؤيد ذلك العلامة عبد الغني النابلسي المتوفي عام (١٧٣٣ م) رحمه الله تعالى .

قبر النبي يحيى بن زكريا عليه السلام : ضريحه في المسجد الأموي ، ويذكر أن الوليد هو الذي أمر ببناء مقام له في وسط الجامع عندما عثر عليه داخل سبط ضمن صندوق ، وتذكر الروايات أن شَعْرُهُ وَبَشَرَتُهُ كانا بعد مرور مئات السنين على حالهما لم يتغيرا ، وهو يوحنا المعمدان ، معمد السيد المسيح عليه السلام بمياه الأردن المقدسة .

قبر حزقيل : مؤمن آل فرعون مذكور في القرآن الكريم (سورة غافر) .

ثانياً - عدد من آل بيت الرسول عليه السلام وصحابته رضي الله عنهم :

يقال : إنَّ في مقبرة باب الصغير قبور جملة من أهل البيت وغيرهم ، كقبر سهل بن حنظلة ، وقبر أم الحسن بنت حمزة بن جعفر الصادق ، وقبر علي بن عبد الله بن عباس ، وقبر زوجته أم الحسن بنت جعفر بن الحسن بن الحسين بن فاطمة الزهراء ، وقبر خديجة بنت زين العابدين ، هؤلاء في تربة واحدة ، وقبر سكينه بنت الحسين ، وقبر محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب ، وبها قبور كثيرة لم تعرف ، لما قيل بأن مقبرة باب الصغير حرثت وزرعت نحو مئة سنة .

وقال الحافظ بن طولون ، وقبلني باب الصغير قبة ابن حمامة وثلاث من أزواج النبي ﷺ ، وقبر فضة جارية السيدة فاطمة الزهراء ، وقبر أم الدرداء ، وهؤلاء كلهن في تربة واحدة ونقل من كتاب الإشارات في الزيارات أن قبر السيدة زينب بنت الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه بمقبرة باب الصغير يزار ويتبرك به ، وقبر سكينه بنت الحسين بتربة القلندرية داخل القبة ، وقبر السيدة فاطمة ابنة الإمام علي أيضاً بمقبرة باب الصغير عليه بناء معروف يقصد للزيارة ، والمعروف عن أهل دمشق أن قبر السيدة زينب ابنة الإمام علي في تربة نسبت إليها يقال لها الآن قبر الست .

أبو الجماهير الكفرسوساني : من الصحابة ، مقامه في كفرسوسة .
أبو الدحداح : دفن في التربة المنسوبة إليه .
أبو الدرداء الصحابي الخزرجي : ولّاه الخليفة عمر القضاء بدمشق ، ومات بها
في خلافة الإمام عثمان وقبره معروف بباب الصغير .
أبو مسلم الخولاني : عبد الله بن ثوب مدفون في داريا .



صورة مقبرة باب الصغير

أبو النور السعدي : ابن حليلة السعدية مرضعة الرسول صلى الله عليه وسلم
وهو أخو الرسول بالرضاعة ، مقامه في كفر سوسة .

أبو ذر الغفاري رضي الله عنه : مدفون في الشاغور .

أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه : يذكر في كتاب (الفضائل البهية) أن
مسجد أبي عبيدة بن الجراح خارج باب الجابية ، وأبو عبيدة هو عامر بن عبد الله بن
الجراح الفهري القرشي ، الأمير القائد فاتح البلاد الشامية ، الصحابي الجليل وأحد
المبشرين بالجنة ، أمين الأمة ، ولد بمكة سنة (٤٠ ق . هـ / ٥٨٤ م) وهو من
السابقين إلى الإسلام ، شهد المشاهد كلها ، وولاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه
قيادة الجيش الزاحف إلى الشام بعد خالد بن الوليد رضي الله عنه ، فتم له فتح
الشام ، وبلغ نهر الفرات شرقاً وآسية الصغرى شمالاً ، ورتب للبلاد المرابطين
والعمال ، وتعلقت به قلوب الناس لرقة وأناته وتواضعه ، توفي بطاعون عمواس
سنة (١٨ هـ / ٦٣٩ م) ودفن في غور بيسان بفلسطين . وانقرض عقبه ، له / ١٤ /
حديثاً ، انتزع بأسنانه نصلاً من جبهة النبي ﷺ يوم أحد فهتم ، وفي الحديث :
(لكل نبي أمين وأميني أبو عبيدة بن الجراح) ، وينسب إليه جامع خارج باب
الجابية بدمشق .

أبو موسى الأشعري : مدفون في الغوطة الشرقية .

أبي بن كعب بن قيس الخزرجي رضي الله عنه : قيل : إنه دفن في المدينة وقيل
بدمشق وهو المشهور ، قبره الآن خارج دمشق قرب باب شرقي عليه قبة عظيمة يزار
ويتبرك به .

أبي بن كعب ، عبد الله بن مسعود ، معاذ بن جبل : جنوب الباب الشرقي .

أبو سليمان الداراني : مدفون بداريا وله كرامات ومناقب وتراجم جليلة .

أسامة بن زيد : أحد الصحابة وكان يُكنى (حَبَّ رسول الله) تولى قيادة الجيش
وعمره (١٧ سنة) وقبره بالمزة في مسجد معروف .

- أسماء زوجة جعفر الطيار رضي الله عنه : في مقبرة باب الصغير .
- آل عثمان بن عفان رضي الله عنه : في مقبرة باب الصغير .
- أم الحسن بنت جعفر بن / ابن / فاطمة الزهراء زوجة سليمان .
- أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان رضي الله عنها زوج الرسول ﷺ ، وأخت الخليفة معاوية بن أبي سفيان وقبرها في باب الصغير يزار .
- أم سلمة بنت أبي أمية رضي الله عنها زوج الرسول ﷺ ، كانت أول من هاجر إلى المدينة مع زوجها أبي سلمة وقبرها في باب الصغير .
- أم عاتكة أخت الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه .
- أوس بن أوس الثقفي : نزل دمشق ومات بها في خلافة عثمان .
- بسرة بن فاتك الأسدي : أخو خزيم بن فاتك وهو الذي قسم دمشق بين المسلمين بعد فتحها .
- بلال الحبشي بن رباح : مولى أبي بكر الصديق ومؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم حضر مع عمر فتح القدس واختلف في محل دفنه ف قيل : دفن في حلب ، وقيل : بداريا ، وقيل : بدمشق بباب الصغير ، وقبره معروف ويزار وعليه لوحة رخامية بالخط الكوفي من القرن الخامس الهجري وعلى الباب كتابة تشير إلى تجديد التربة في العهد الأيوبي وهو من السبعة الأوائل في الإسلام .
- تميم الداري بن حبيب الأنصاري : الذي اختطفته الجن في قرية الطيبة .
- حجر بن عدي الكندي : وأصحابه الذين قتلهم معاوية في قرية عدرا أو عذراء سنة (٦٧١هـ / ٦٧١م) .
- حرملة بن الوليد : شقيق الصحابي خالد بن الوليد ، مدفون في جوبر .
- الحسن بن القاسم : مدفون في المزة .
- الحسين بن علي بن أبي طالب « رضي الله عنه » في جامع بني أمية .
- حفصة بنت سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه زوجة الرسول ﷺ .

خديجة بنت زين العابدين .

خفاف بن ندبة أبو عميرة بن الحارث السلمي : ابن عم الخنساء توفي نحو (٦٤٠م) .

خولة بنت الأزور : أخت ضرار ، حضرت فتوح الشام ، وحاربت فيها مع أخيها ضرار الذي استطاعت إنقاذه من الأسر ، وخولة قلعت عين توما زوج ابنة هرقل في اليرموك ، ماتت في دمشق ، ودفنت خارج باب توما مع أخيها ، بالقرب منه ، وقبرها مشهور يُقصد للزيارة ، أما قبر أخيها ضرار بن الأزور الأسدي ، فخارج باب شرقي ، وقبره معروف . ومن الجهة الشمالية لقبر خولة يوجد قبر أبي الدحداح ، أما غربي دمشق فلم يدفن فيه أحد من الصحابة .

دحية الكلبي رضي الله عنه : الصحابي الجليل وهو من الصحابة المدفونين بدمشق ، بالمزة ، رضوان الله وسلامه عليهم ، وكان سيدنا جبريل عليه السلام يأتي النبي صلى الله عليه وسلم على صورة دحية .

ذو الخمار الأسود : جامع خالد بن الوليد شارع خالد بن الوليد .

رقية الكبرى بنت علي بن أبي طالب رضي الله عنها : وضريحها داخل باب الفراديس في مسجد صغير فيه قبة تزار .

روق بن دثار ، صحابي .

زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه : في المسجد شارع خالد بن الوليد .

زين العابدين (علي بن الحسين) : مدفون في جامع بني أمية .

زينب الكبرى بنت علي بن أبي طالب ولها قبر شهير يزار بقرية راوية جنوب شرق دمشق .

زينب بنت الإمام علي رضي الله عنه (زينب الصغرى) : الملقبة بأم كلثوم ، ولها قبر فخيم في ضاحية راوية جنوبي دمشق تعرف اليوم بقرية قبر الست لوجود قبر الست زينب فيها وعلى القبر اليوم تابوت ثمين صنع حديثاً في إيران من خشب الموزاييك ، وحوله قفص من الفضة ، وفوقه قبة زينت بالمرايا والخزف .

سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه : مدفون في المزة .

سعد بن عباد بن حارثة الخزرجي الأكبر الأنصاري ، سيد الخزرج : أجمعوا على أنه مات في الشام ، سنة أربع عشرة للهجرة في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، ودفن في قرية المنيحة أو المليحة ، وسبب موته ، كما ذكره الحاكم في مستدركه ، أن سعداً أتى سباطة قوم فبال قائماً ، فرمته الجن وسمعوا الجن ينشدون :

نحن قتلنا سيد الخزرج سعد بن عباده
فرميناهم بسهم فلم يُخطِ فؤاده

ويقال : إنَّ سعداً مدفون في قرية بيت لهيا ، حيث يقال : إنَّ (أم البشر حواء) عليها السلام قد سكنت فيها ، وقد تبين بالتقصي أن قرية بيت لهيا هذه كانت شمال المشفى الإنكليزي قديماً ، مشفى الزهراوي للولادة حالياً ، الواقع شمال حي القصاع ، وفي الجهة الشرقية من بستان الناعمة ، في أرض أبو جرش غربي بانوراما حرب تشرين ، وأن هناك قبور بيت لهيا (أو لحيا) ، كما يقولها السلف ، وقد دثرت معالمها . وعن أحمد بن سليمان ، سمعت شيوخنا الدمشقيين قديماً يذكرون أن الإشارات التي بدمشق في برزة عند المسجد الذي يقال له مسجد إبراهيم عليه السلام إلخ . . .

سكينة بنت أبي بكر رضي الله عنها : مدفونة في مقبرة الباب الصغير .

سكينة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب ، ولها قبر في مقبرة باب الصغير وعليه قبة وبداخلها تابوت خشبي منقوش بالزخارف والكتابات بخط كوفي مشجر جميل يرجع تاريخ صنعه إلى القرن الخامس الهجري ويذكر أنها كانت سيدة الشعراء .

الست رقية : وهي بنت الرسول صلى الله عليه وسلم وزوجة الخليفة عثمان بن عفان توفيت بالمدينة ، لها مقام أو ضريح في محلة العمارة خلف باب الفردائس وعليه تابوت حديث ثمين من خشب الموزاييك المرصع بالعاج ، وحوله قفص من

النحاس المزخرف ، أما البناء والقبة فقد شيئا في العهد الأيوبي ثم جدد البناء حديثاً .

سليمان بن علي بن العباس .

سهل بن الربيع الأوسي الصحابي : مدفون في مقبرة الباب الصغير .

سهل بن ربيع الأنصاري الصحابي : سكن دمشق ومات فيها في ابتداء خلافة معاوية ودفن في مقبرة الباب الصغير .

شرحبيل بن حسناء رضي الله عنه : قال الصوري في ظاهر دمشق خارج باب توما بالقرب من ضريح العارف بالله الشيخ رسلان ضريح اشتهر بأنه ضريحه .

شمعون الصحابي : شهد فتوح الشام وكان من كتاب دمشق وفي باب الصغير بأرض الشاغور ضريح يعرف بشمعون فيحتمل أن يكون هو .

الشيخ قسيم : عده بعضهم من الصحابة وله مناقب كثيرة .

الصحابة الثلاثة (الشهداء) في طريق الصالحية الرئيسي بجوامع الشهداء .

الصهباء زوجة علي بن أبي طالب ووالدة عمر ورقية الكبرى .

صهيب الرومي رضي الله عنه : مدفون في طريق الميدان - الصحابة .

العباس بن مرداس بن أبي عامر السلمى أبو الهيثم : أمه الخنساء الشاعرة ، مات في دمشق في خلافة سيدنا عمر رضي الله عنه نحو (١٨هـ / ٦٩٣م) حامل سنجق سيدنا رسول الله ﷺ .

عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه : مقامه معروف في شارع بغداد ضمن مسجد باسمه .

عبد الرحمن بن عوف : في كفرسوسة .

عبد الله بن الإمام زين العابدين رضي الله عنه : في مقبرة الباب الصغير .

عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه : في مقبرة الباب الصغير .

عبد الله بن جعفر الطيار رضي الله عنه : في مقبرة الباب الصغير .

عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي : أبو يوسف ينتهي نسبه إلى نبي الله يوسف بن يعقوب عليهما السلام ، أسلم عند قدوم النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة .

علي بن عبد الله بن أبي طالب .

عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه مدفون في القنوات .

عمر بن علي بن أبي طالب .

عمر ذو الفخر رضي الله عنه : مدفون في قبر عاتكة .

فاطمة بنت الإمام علي : مدفونة بمقبرة الباب الصغير .

فضالة بن عبيد الصحابي : سكن دمشق وولي قضاءها لمعاوية ومات بدمشق ودفن في مقبرة الباب الصغير .

فضة (ميمونة) جارية فاطمة الزهراء رضي الله عنها : في مقبرة الباب الصغير الجنوبية .

قوقس الثقفي : في مقبرة الباب الصغير .

كناس (أبو مرثد الغنوي) : في مقبرة (تربة باب شرقي) .

ليلى بنت الإمام علي رضي الله عنه : مدفونة في قصر الحجاج بالسويقة .

محمد أبو الجدايل بن الإمام علي رضي الله عنه : مدفون في المزة .

محمد بن عبد الله بن الحسين بن محمد رضي الله عنهم : هو ابن إسماعيل بن جعفر الصادق .

محمد بن عبد الله بن الحسين بن أحمد بن إسماعيل بن إبراهيم ابن عثمان المقدسي ثم الدمشقي توفي سنة (٦٦٥ هـ / ١٢٦٦ م) .

محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب .

مدرك الفزاري الصحابي توفي في دمشق ودفن بين قريتي راوية وحجيرة ، من غوطة دمشق الشرقية وكان أول مسلم دفن بها .

مشهد الخضر .

معاذ بن جبل : تحقيقاً هو معاذ بن جبل عمر أبو عبد الرحمن وهو صحابي جليل إبان أبو المجد .

معاوية رضي الله عنه : مدفون في مقبرة الباب الصغير .

معاوية أبو ليلى : ولي دمشق ٤٠ يوماً

مقداد الكندي الأسود رضي الله عنه : في طريق السيدة زينب .

مكحول مولى سعيد بن العاص .

نجم الدين بن إسرائيل .

واثلة بن الأسقع : شهد فتح دمشق ومصر ثم نزل الشام ومات في خلافة عبد الملك بن مروان ، ودفن في مقبرة الباب الصغير وقبره معروف وهو خادم النبي ﷺ .

ثالثاً - قبور خلفاء وأمرء وولاة :

معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن صخر بن أمية : مؤسس الدولة الأموية في دمشق وأحد صحابة الرسول وكتبة الوحي ، أول من أوجد الأساطيل البحرية ، وأول من أحدث البريد ، وفي عهده معركة ذات السواري التي حولت المتوسط إلى بحر عربي بعد أن كان رومياً .

توفي في رجب سنة (٦١ هـ) ودفن بمقبرة الباب الصغير ، وأوصى أن يكفن بثوب كان الرسول ﷺ كساه إياه وأذخره ليوم موته ، كما وضع في عينيه وأذنيه ومنخره بعضاً من شعر الرسول وقلامة أظافر الرسول . ومع معاوية بن أبي سفيان أحد عشر وزيراً في تربة الباب الصغير .

خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان : أول من عني بالفلسفة ، وله معرفة بالكيمياء والطب والصنائع ، له كتاب الحرات ، وكتاب الصحيفة الكبير والصغير ، واشتهرت وصيته إلى ابنه في الصنعة ، وقد جمع مكتبة عظيمة .

عاتكة بنت يزيد بن معاوية : من ربات المجد والرفعة ، وقد شغلت مكاناً هاماً في حياة دمشق خلال الفترة الأموية ، فهي ابنة الخليفة يزيد بن معاوية ، وزوجة الخليفة عبد الملك بن مروان ، وأم الخليفة يزيد بن عبد الملك ، وكان لها اثنا عشر خليفة من خلفاء بني أمية .

عبد الملك بن مروان : ولد سنة (٢٦ هـ) ونشأ في المدينة فقيهاً وعالماً ، يعد أول من عرب الدواوين ، وفي عهده تم ضبط الحروف بالنقط والحركات وأول من صك الدنانير العربية ، مدفون في مقبرة الباب الصغير .

الوليد بن عبد الملك : أشهر خلفاء بني أمية ولد سنة (٤٦ هـ) . تم في عهده فتح الهند والسند والأندلس ، ومن أعماله الخالدة عمارته للمباني العظيمة ، فقد بنى الجامع الأموي في دمشق ، ومسجد المدينة المنورة ، والمسجد الأقصى ، وأعاد بناء المسجد الحرام في مكة المكرمة .

اهتم بعمارة الضياع ، وكان أول من افتتح المستشفيات لمعالجة المرضى ، توفي سنة (٩٦ هـ) في دير مران قرب قبة السيار المشرفة على الربوة وحُمل على الأعناق ليُدفن في مقبرة الباب الصغير .

السلطان نور الدين محمود زنكي : ابن أبي سعيد زنكي بن آق سنقر ، ولد بحلب في (١٧ شوال عام ٥١١ هـ) فتح حلب ، والرها ، والمعرة ، وكفرطاب ، تولى حلب عام (٥٤١ هـ) ، ثم أخذ دمشق سنة (٥٤٩ هـ) ، وضم إلى مملكته سائر بلاد الشام ، ولم تعد دمشق مقراً للسلطين والملوك إلا بعهده ، بعد زوال حكم بني أمية .

كان أول من بنى داراً للحديث ، وكان أعدل ملوك زمانه وأكثرهم جهاداً وأحرصهم على عمل الخير ، غير البدع التي كانت في الأذان ، وكسر الصليبيين في حارم ، وبنى الجسور ، وأكمل سور المدينة ، واستخرج عين أحد ، كان حريصاً على تحصيل الكتب وتوسيعها ، توفي في (١١ شوال عام ٥٦٩ هـ) وقبره معروف في سوق الخياطين ضمن الجامع المعروف باسمه .

فتح في بلاد الروم عدة حصون ، واستعاد أكثر من خمسين حصناً ، وأعاد بناء سور دمشق ، وبنى البيمارستان النوري الذي يعرف باسمه .

الملك الظاهر بيبرس ، ركن الدين : حكم البلاد ، وهزم التتار والمغول في (عين جالوت) اشتهر بالعدل وحماية العلماء والمفكرين ، ودفن بجوار القلعة بترتبه المعروفة الآن المشهورة بالمكتبة الظاهرية ، التي أغنت البلاد بعدد وافر من الكتب والمخطوطات ، وهو أشهر سلاطين المماليك ، وصاحب معركة (عين جالوت) قضى معظم حكمه في محاربة الفرنج ، توفي سنة (٦٧٦ هـ) بعد أن حكم سبع عشرة سنة وشهرين .

السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب : فاتح بيت المقدس وأعظم ملوك زمانه ، وصاحب معركة حطين ولد سنة (٥٣٢ هـ) ، وُحِدَ مصر والشام ، وامتدت دولته إلى المحيط الهندي جنوباً وتونس غرباً والعراق شرقاً .

صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي ، ملك البلاد وفتح الفتوحات وكسر الإفرنج مرات ، وجاهد بنفسه وقاد الجيوش ، وهزم الصليبيين في حطين واسترد بيت المقدس من أيديهم في رجب عام (٥٨٣ هـ) توفي في (٢٧ صفر) وعمره (٥٧ سنة) ودفن بداره بقلعة دمشق ، ولم يخلف سوى دينار و ٣٦ درهماً ، ولم يترك عقاراً ولا شيئاً من أنواع الأملاك .

وهو مشهور بعفة نفسه وعفوه وكرمه ، وموقفه مع ريتشارد قلب الأسد ملك الإنكليز ، وقبره معروف عند الجامع الأموي رحمه الله تعالى .

آل صلاح الدين الأيوبي : مدفونون في البزورية .

ست الشام بنت نجم الدين أيوب أخت الملك الناصر صلاح الدين : من سيدات وأميرات البيت الأيوبي بدمشق ، وكانت ذات عقل ورأي وهي أخت الملوك وعمه أولادهم ، وكان لها من الملوك المحارم خمسة وثلاثون ملكاً ، أنشأت المدرسة الشامية الجوانية جنوب البيمارستان النوري والمدرسة الشامية البرانية في سوق ساروجا .

الأمير ركن الدين منكورس : أحد علماء الفلك والحكام العادلين ، وكان نائب الملك العادل في الديار المصرية في دمشق ، كان محتشماً عفيفاً كثير الصدقات يجيء إلى الجامع وحده ومعه طواقه ، له في قاسيون مقبرة ومدرسة توفي سنة (٦٣١هـ) .

الأمير عز الدين عسقلان : مدفون في باب المصلى .

الأمير عبد القادر الجزائري : ولد بالجزائر عام (١٢٢٢هـ) وكان قائداً للثوار في الجزائر ضد الاستعمار الفرنسي ، ظهرت منه شجاعة كبيرة تحدث عنها الكثيرون ، وعندما تمكنت فرنسا من الثوار الجزائريين واعتقلت الأمير عبد القادر اختار دمشق مقراً له .

اشتغل في دمشق بالعلم والأدب ، وحضر مجالس العلماء ، وكان له الفضل الكبير في إسعاف المنكوبين في حوادث الستين المشهورة ، وصفه المؤرخون بأنه أمير العلماء ، وعالم الأمراء ، توفي سنة (١٣٠٠هـ) ودفن بتربة الشيخ محيي الدين بن عربي بالصالحية ، نقلت رفاته إلى الجزائر بعد استقلالها .

رابعاً - قبور علماء وأدباء وفقهاء ومشاهير دين وعلم :

ابن خلكان : أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان ، قاضي القضاة بالشام ، ولد بأربيل سنة (٦٠٨هـ) صنف تاريخاً بديعاً سماه (وفيات الأعيان) . كان إماماً وأديباً بارعاً ومؤرخاً جامعاً ، وله الباع الطويل في الفقه والنحو والأدب غزير الفضل ، توفي في رجب سنة (٦٨١هـ) ودفن بسفح قاسيون .

ابن قيم الجوزية : محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي ثم الدمشقي الفقيه الأصولي النحوي المفسرُ ومُتَمَنُّ في علوم كثيرة ، العارف بالحديث ومعانيه والفقه ودقائقه والاستنباط منه ، له مصنفات كثيرة في فنون عديدة ، توفي عام (٧٥١هـ) ودفن في مقبرة الباب الصغير .

ابن مالك العلامة حجة العرب في اللغة : الإمام محمد بن عبد الله بن مالك ، إمام اللغة العربية ، وبحر النحو والصرف ، الشاعر ، نزيل دمشق ولد عام

(٥٩٨هـ) وصرف همه إلى إتقان لسان العرب حتى بلغ فيه الغاية وأربى على المتقدمين ، كان إماماً في القرآن واللغة ، صنف التصانيف المفيدة التي سارت بها الركبان ، وانتشرت في جميع البلدان ، منها : تسهيل الفوائد في النحو ، وكتاب الضرب في معرفة لسان العرب ، وهو صاحب الألفية المشهورة بألفية ابن مالك . توفي في شعبان عام (٦٧٢هـ) ودفن بالصالحية بتربة ابن الصايغ .

أبو القاسم ابن عساكر : علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله ، الحافظ الكبير وإمام أهل الحديث في زمانه ، وصاحب تاريخ دمشق وغير ذلك من المصنفات المفيدة منها التاريخ الكبير (٨٠٠ جزء في ٨٠ مجلدة) . رحل إلى بلاد كثيرة وسمع من (١٣٠٠) شيخ و (١٨٠) امرأة ، كان مُعْرِضاً عن المناصب ، يختم القرآن كل جمعة ختمة وفي رمضان كل يوم ختمة . قليل الالتفات إلى الأمراء ، توفي في رجب عام (٥٧١هـ) ودفن في مقبرة الباب الصغير شرق الحجرة التي فيها معاوية .

أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني : العلامة أحمد بن عبد الحليم بن عبد الله النميري الحراني ، الأستاذ ، إمام الحفاظ ، وكلمة الأئمة الأيقاظ ، الأصولي المفسر ، المجتهد المنعوت بتقي الدين ، فريد عصره علماً ومعرفةً وشجاعةً وذكاءً . وقد بلغت تصانيفه خمس مئة مجلد ، برع في علوم الكلام والفلسفة وعني بعلوم الحديث والقرآن . ولد بحران عام (٦٦١هـ) وقدم إلى دمشق مع أهله عام (٦٦٧هـ) ومات معتقلاً بقلعتها في (٢٠ ذي القعدة ٧٢٨هـ) وكانت له جنازة حافلة حضرها (٦٠) ألف رجل وقيل (٢٠٠ ألف رجل) بالإضافة إلى (١٥ ألف امرأة) ودفن في مقبرة الصوفية .

زين الدين بن رجب : شيخ الإسلام شيخ الحنابلة بدمشق ، كان إماماً في الحديث والأصول والفقه ، أجمع أهل وقته على جلالته وديانته وعلومه وصلابته في الدين وله مصنفات كثيرة منها (شرح البخاري ، وشرح الأربعين القوصية ، طبقات الحنابلة ، القواعد ، رياض الأنس) وغير ذلك .

صدر الدين الخطيب : داريا .

عبد الرحمن العيني الصالحى : له (شرح البخارى) توفي سنة (٨٩٣هـ / ١٤٨٨ م) في برزة بسفح جبل قاسيون مسجد أبينا إبراهيم الخليل عليه السلام .

عماد الدين بن كثير : القرشى البصرى ثم الدمشقى ، تفقه على البرهان الفزارى والكمال ابن قاضى شهبة ، أقبل على علم الأصول والحديث وحفظ المتن والتواريخ حتى برع وهو شاب فى فنون عديدة ، وله مصنفات كثيرة وهو صاحب التاريخ ، كان يميل إلى شيخه ابن تيمية ويناضل عنه ، مات عام (٧٧٤هـ) ودفن بمقبرة الصوفية عند شيخه ابن تيمية .

محمد بن رمضان الحنفى العالم الزاهد : توفي ودفن فى مقبرة الباب الصغير توفي سنة (٩٢٢هـ / ١٥١٦ م) .

محمى الدين بن شرف النووى : وكان قد ترك الرئاسة والتصنع توفي سنة (٦٧٦هـ / ١٣٢٥ م) وقبره فى قرية نوى فى حوران .

المقداد بن أبى الأسود الدؤلى ، فى قرية بيت سحم .

منصور بن عماد بن كثير : فى مقبرة الباب الصغير .

خامساً - قبور بعض أولياء الله :

أبو الفضل الشيبانى رضى الله عنه : مدفون فى مقبرة الباب الصغير .

أبو مسلم عبد الله بن ثوب الخولانى اليماني : كان من كبار زهاد التابعين وعبادهم وصالحهم ومن أهل الكرامات الظاهرة . فى داريا .

أبو يزيد البسطامى : فى قرية البجدلية ، توفي سنة (٢٦١هـ / ٨٧٥ م) وقيل (٢٦٤هـ / ٨٧٨ م) .

أحمد البدوى : مدفون فى الشاغور .

أرسلان الشيخ (رسلان) : هو الشيخ أرسلان بن يعقوب بن عبد الله بن عبد الرحمن الجبرى . كان يعمل نشاراً للخشب ويتصدق بثلاثي أجرته ، وكان مشهوراً بالزهد والصلاح ، ولد بدمشق بتاريخ لم نعرفه ، وتوفي فيها سنة

(٦٩٩هـ / ١٣٠٠م) . وقبره معروف يقال له (الشيخ رسلان) تخفيفاً . أَلَف رسالة في التوحيد منها نسخة مخطوطة في المكتبة الظاهرية بدمشق ، ولديها رسالة أخرى مخطوطة أيضاً في ترجمته ، توفي سنة (٥٥١هـ / ١١٥٥م) .

تقي الدين الحصني ، الشيخ العالم العارف بالله تعالى : نشأ في العلم والعبادة وأعرض عن الدنيا واشتغل بالآخرة ، وله نوادر في الزهد لا يوجد في تراجم الكبار والأولياء أعظم منها ، وله كرامات كثيرة منها ، لما خرج المسلمون إلى غزاة (جزيرة قبرص) والتحم القتال رأى جماعة من العسكر الشيخ تقي الدين يقاتل أمام العسكر وأخبروا جماعة الشيخ وغيرهم من أهل البلد فأجابوهم بأنهم لم يفقدوه يوماً واحداً ولا غاب عنهم أبداً ، ومن كراماته أنه يطعم الرطب الجني الصغار والكبار في غير أوانه إلى غير ذلك وله كرامات شهيرة وتصانيف جليلة منها (شرح المنهاج ، قمع النفوس ، شرح صحيح مسلم ، شرح أسماء الله الحسنى ، وسير الممالك في ثلاثة مجلدات) وغير ذلك توفي سنة (٨٢٩هـ / ١٤٢٦م) . و(دفن بالقيبات) ، في الميدان الفوقاني قبل بوابة الله .

حسن الجباوي : في السويقة .

حسن المشهور في دمشق بلقب الشيخ حسن ، مدفون في السويقة .

حياة بن قيس الحراني : الشيخ المعتقد الزاهد الكبير ، من أقواله : من أحب أن يرى خوف الله في قلبه ، ويكشف بأحوال الصديقين فلا يأكل إلا حلالاً ولا يعمل إلا في فريضة أو سُنَّة ، وما حُرِّم من الوصول إلا بشيئين ، (سوء اللقمة وأذى الناس) وقال : اجعل الزهد عبادتك ، واحذر أن تجعله حرفتك . ولد في الأناضول ، واستوطن حران العواميد وتوفي فيها سنة (٥٨١هـ / ١١٨٥م) .

خالد النقشبندي : صاحب الأحوال السنية والكرامات المشهورة الشهرزوري من ذرية سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه توفي سنة (١٢٤٢هـ / ١٨٢٧م) وله مقام مشهور في حي الأكراد .

خليل النيروزي : مدفون ضمن مسجد في باب السريجة .

دنكز : مدفون في جامع دنكز الموجود في شارع النصر .

ذو النون المصري : في السنانية .

ستي جابية : في تربة باب الصغير .

السروجي : العارف بالله المدفون في الشاغور .

شهاب : في قرية عقربا وقد غسله وكفنه إبراهيم بن أدهم تحقيقاً لأمنيته .

عبد الرحمن برق مدفون في قرية عربين .

عبد الرحمن بن سراج : مدفون ضمن مسجد عبد الكريم الرفاعي في كفر
سوسة .

عبد الغني النابلسي : هو عبد الغني بن إسماعيل النابلسي ، العالم العارف
صاحب التصانيف العالية ، والتأليف البديعة ، وله كرامات وكشوفات ظاهرة ،
توفي رضي الله عنه سنة (١١٤٣ هـ / ١٧٣٠ م) وقبره في المسجد المسمى باسمه في
الصالحية .

عثمان بن الجراح الحسيني : مدفون في الشاغور .

عز الدين : شيخ مدفون ضمن مسجد في باب السريجة .

علي البريدي : مدفون ضمن مسجد البريدي .

محمد البهلول : في السنانية .

محمد الشيباني رضي الله عنه : مدفون في جديدة الشيباني .

محمد بن أبي الفضل الموصلي الميداني : العارف بالله الشيخ الولي الشهير من
ذرية العلامة سيدي أبي بكر الموصلي دفين القدس ، الذي ينتهي نسبه إلى القطب
الجليل سيدي الحسين الهاشمي القرشي قضيب البان الموصلي توفي سنة
(١٠٠٨ هـ / ١٦٠٠ م) .

محيي الدين محمد بن أحمد عبد الله الطائي المغربي الأندلسي المعروف بابن
عربي الشيخ الأكبر ، صاحب الكرامات والكشوفات الظاهرة والخوارق الباهرة ،

سلطان أهل الحقيقة على الإطلاق بعصره ، وشيخ مشايخ أهل العرفان ، له القدم الراسخة في التوحيد . ولد بمدينة (مرسية) بالمغرب برمضان عام (٦٥٠ هـ) ، وطاف البلاد وسكن بلاد الروم مدة ، وجمع مجاميع الطريقة ، حدث ببغداد ودمشق ، صنف المصنفات العديدة ، ونظم الأشعار الحسنة ، فصار بحر الحقائق وقطب زمانه وولي عصره وأوانه ، توفي في ٢٢ ربيع الأول عام (٦٣٨ هـ) ودفن بتربة ابن الزاكي بسفح قاسيون .

مسعود بن محمد مسعود دفن في مقابر الصوفية . .

رابعة الشامية : (رضي الله عنها) زوجة أحمد بن أبي الحواري عابدة زاهدة ورعة (متنسكة) . أدركت الجنيد (رضي الله عنه) ، والشيخ أبا سليمان (الداراني رضي الله عنه أستاذ بعلمها) توفيت بدمشق ودفنت ببيتها داخل دمشق بالقيصرية ، ومقامها مشهور جليل عليه مهابة (وجلالة) والدعاء عند قبرها مستجاب .

ضرار بن الأزور : الصحابي وهو ضرار بن مالك بن أوس بن أحد الأبطال في الجاهلية والإسلام وهو أخ خولة بنت الأزور وهي من أشجع النساء في عصرها ، شاعرة توفيت (٣٥ هـ) والصحابي ضرار شهد فتح دمشق ومات فيها (١١ هـ) ودفن ظاهر دمشق خارج باب شرقي على جانب الطريق ، وضريحه عليه أنس ومهابة وجلالة وقبره ظاهر يزار ويتبرك به في محلة الجزماء .

أبو الدرداء (عويمر) : الخزرجي الصحابي الأنصاري ، أحد العلماء العاملين وأحد الأئمة الكبار من زهاد الصحابة المعرضين عن الدنيا ، ولي القضاء بدمشق ولأه عمر بن الخطاب (رضي الله عنهما) توفي بدمشق في خلافة (عثمان بن عفان) رضي الله عنه ودفن بمقبرة باب الصغير ، وقبره ظاهر يزار (معروف) ويتبرك به وزوجته التابعة المدعوة أم الدرداء الصغرى مدفونة عنده وبقره ، وفي قلعة دمشق معبد أبي الدرداء الصحابي وهو معروف يزار ويتبارك به .

ملاحظة : عثرت دائرة الآثار في عام (١٩٣٨ م) على شاهدين إحداهما تخص قبر أبي الدرداء وأخرى تخص زوجته ، مكتوبتان بخط كوفي يرجع إلى القرن الرابع

أو الخامس وعشر عليهما مردومتين على بعد عشرين متراً إلى الجنوب الغربي من قبر معاوية ، وهما محفوظتان في المتحف الوطني .

واثلة بن الأسقع : (من أهل الصفة) خدم النبي ﷺ ثلاث سنين توفي في خلافة عبد الملك بن مروان ثلاث وثمانين وعمره مئة وخمسون سنة ، وقال ابن سُمَيْعُ : بأنه عمره مائة وخمس وستين سنة والأصح (٦٨) سنة كما صححه النووي ، وهو آخر من مات بدمشق من الصحابة ودفن (بمقبرة) باب الصغير وقبره معروف ويزار ويتبارك به .

أوس بن أوس الثقفي الصحابي : (وهو غير أوس بن أبي أوس بن حذيفة ، كما حققه ابن حجر) صاحب رسول الله ﷺ سكن الشام وكان معبده بيته قبلي سور دمشق ، وكان من أهل الصفة العابدين الزاهدين المعرضين عن الدنيا مات في خلافة عثمان (رضي الله عنه) ودفن بمقبرة باب الصغير تجاه المدرسة الصابونية ويتبرك الناس (به) .

الفخر ابن عساكر : شيخ الشافعية بالشام ، كان لا يخلو لسانه من ذكر الله في قيامه وقعوده ، وطلب منه قبول القضاء فأبى وامتنع وكان زاهداً عابداً ورعاً منقطعاً إلى العلم والعبادة (حسن الأخلاق ، قليل الرغبة في الدنيا) كثير التهجد غزير الدمعة ، كثير التواضع توفي بدمشق سنة (٦٢٠ هـ) ودفن بطرف مقابر الصوفية الشرقي مقابل قبر أبي الصلاح .

مشهد الخضر : قال النووي في تهذيب الأسماء : الخضر بفتح الخاء وكسر الضاد وكان أبوه من الملوك ، وفي سبب تلقيبه بالخضر أقوال :

قال الأكثرون : لأنه جلس على فروة بيضاء فصارت خضراء ، والفروة : وجه الأرض .

وكنيته : أبو العباس ، وهو صاحب موسى الكليم عليه الصلاة والسلام .
واختلف في حياته ونبوته ، فالأكثرون من العلماء (قالوا : هو حي) موجود

بين أظهرنا ، وذلك متفق عليه عند الصوفية وأهل الصلاح والمعرفة . وحكاياتهم في رؤيته والاجتماع به والأخذ عنه وسؤاله وجوابه في المواضيع الشريفة ومواطن الخير أكثر من أن تحصى .

مقام الخضر في مقبرة باب كيسان ، شرقي دمشق ، موضع يقال : إن الخضر رؤي فيه ، وهو موضع يتبرك به الناس ويزورونه .

عماد الدين الزنكي : كان زاهداً في ثياب قائد وعالماً في ثياب ملك جاء الرجل والزمن مدبر ، والعدو الغاصب يتحكم بأكثر من نصف الشام والوطن دويلات وحكومات وضع اللبنة الأولى للتحرير باسترداد (الرها) أول أمارات الصليبيين في الشام عام (١١٤٤ م) وقبره في منطقة سوق الخياطين في قاعة مهيبة في المدرسة النورية .

عبد الله بن جعفر : بن أبي طالب ابن عم رسولنا الكريم ﷺ ويجاور ضريح سيدنا بلال .

فضالة بن عبيد : من صحابة الرسول الكريم مدفون في مقبرة باب الصغير .

عوف بن مالك الأصبحي : من صحابه الرسول الكريم وقبره في مقبرة باب الصغير .

والمطلب بن ربيعة : القرشي من صحابة الرسول الكريم وقبره في مقبرة باب الصغير .

فاطمة الصغرى : بنت الإمام الحسين رضي الله عنهم ومدفونة في مقبرة باب الصغير .

أسماء زوجة الصحابي : الكريم جعفر الطيار أيضاً في مقبرة باب الصغير .

ميمونة بنت الإمام : الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم مدفونة في مقبرة باب الصغير .

حميدة بنت سلم : بن عقيل بن أبي طالب وقبرها في مقبرة باب الصغير .

محمد بن أحمد شمس : الدين الذهبي المحدث والمؤرخ البليغ وقد ترك
للأجيال مؤلفاته القيمة منها سير النبلاء ، دول الإسلام ، تذكرة الحفاظ ، وقبره
موجود في مقبرة باب الصغير .

علاء الدين بن الشاطر : الفلكي والرياضي الدمشقي العربي كان أول من صنع
ساعة ميكانيكية بحجم صغير وتولى التوقيت بالجامع الأموي وصنع أسطرلاباً - جهاز
تدرس به أشعة الشمس في أوقات مختلفة - ، ومدفون في مقبرة باب الصغير .
أحمد بن هشام النحوي : الشهير ومن الأدباء والعلماء قبره في مقبرة باب
الصغير .

إبراهيم السفرجلاني : ابن الجوهرى وتاج الدين ابن محاسن وابن عنين وابن
الدرا وابن الكيال الفقيه والخطيب والقاضي شهاب الدين العمادي والشاعر
المحاسني تقي الدين الحصني ، وهم من الفقهاء والأدباء والعلماء والشعراء ، ومن
المؤكد أن الكثيرين فينا لم يسمعوا بأسمائهم وجميعهم في مقبرة باب الصغير .

ناصر الدين أبو المعالي : بن الملك العادل وعلى مبعدة خطوات من الحائط
الشمالي للجامع الأموي ومن نافذة التربة الكاملية الجوانية المطلة على رواق الجامع
يطالعنا ضريح الملك ناصر دفن بعد وفاته في قلعة دمشق ثم نقلت رفاته إلى تربته
بجوار الأموي .

الأشرف موسى : بن الملك العادل ولا نبتعد كثيراً عن ضريح السلطان صلاح
الدين فإلى يسار الداخل لتربته من جهة زقاق الكلاسة هناك ضريح متواضع يضم
رفات الملك الأشرف موسى الذي اهتم بالعمران فبنى في عهده جامع التوبة في حي
العقيبة ومسجد القصب ودار السعادة وجدد مسجد أبي الدرداء في قلعة دمشق .

أحمد بن أيوب : الملك العادل شقيق السلطان صلاح الدين حارب الصليبيين
توفي بدمشق ودفن في قلعتها ثم نقلت رفاته إلى المدرسة العادلية .

حجر بن عدي الصحابي : الكريم من مجاهدي القادسية وضريحه في مسجد
الأقصاب .

وفي مقبرة الدحداح التي عرفت باسم الفراديس أيضاً أضرحة العديد من أعلام المسلمين من أشهرهم :

أبي شامة المقدسي : الإمام عبد الرحمن بن إسماعيل المؤرخ . والعالم محمد أمين المحيي والمؤرخ الشاعر الشمس الغزي والأديب الشاعر شاعر العمري والمؤرخان القرمانى والبوريني والشعراء إبراهيم بن منصور الفتال وابن مرعي الدمشقي وابن النقيب .

وفي سفح جبل قاسيون من العلماء والأولياء ما لا يحصره العد ومنهم :

ضريح النحوي اللغوي الشهير جمال الدين بن مالك وكذلك المؤرخ ابن القلانسي والمحدث ابن الصلاح والعالم العشاب ابن البيطار ، والطبيب مذهب الدين الدخوار والعالم الطبيب سيف الدين الآمري .

شاهنشاہ بن أيوب : أخى السلطان صلاح الدين ، وكان له دور مشهود في محاربة الصليبيين مع السلطان نور الدين الشهيد وهذا الضريح موجود في التربة النجمية المجاور للمدرسة الشامية .



التربة البدرية أطلال الماضي

التُّرب في دمشق

لقد كانت بداية عمارة الترب في دمشق مع بداية دخول السلاجقة إليها سنة (٤٦٨هـ/ ١٠٧٥م) وتواصلت في عهود مماليكهم الأتابكة والزنكيين وأنصارهم من أتابكة دمشق (ضغتكين) وأولاده .

ولعل العهد الأيوبي كان الأكثر عناية بالترب سواء منها الخاصة أو ترب المساجد والمدارس ، وما تبقى منها إلى يومنا يعطي فكرة عما كانت عليه حالها ، في ذلك العهد ، على الرغم من تقشفها المعماري وتواضعها الزخرفي ، وذلك بسبب شبهها بالمنشآت العسكرية والحصون ، ولأنها كانت التجارب الأولى في البناء ، والأهم كون مفهوم الجمال قام على البساطة والجدية .

أما المماليك فقد أولوا الترب والأضرحة عناية ملحوظة ، فصارت أكثر غنى وترفاً معمارياً ، نتيجة التطور ورغبة المعمارين في تقديم إضافات جديدة ، وكذلك ولع السلاطين ونوابهم بإطفاء لمسة من العظمة على حكمهم ، وعلى العكس من ذلك بدا العثمانيون أقل اهتماماً بإنشاء الترب في عواصم الولايات كدمشق ، ولأن الولاية لم يكونوا بمنزلة السلاطين ، وليست لديهم الموارد اللازمة وبسبب النظام الإداري الذي يتغير فيه الولاية بتسارع لا يسمح بإقامة منشآت وبالذات ترب المدارس ، وفي حين ازداد الاهتمام ببناء الأضرحة والمقامات ، ومزارات الأولياء ، والصالحين التي بنيت لإخضاع الجماهير استجابة لمصلحة الدولة العليا ، ولكن ذلك لا ينقص من قدر ولاية معدودين كدرويش بشارستان باشا .

وبنيت الأضرحة في عهد السلاجقة وفق نموذجين :

الأول : قبر على شكل برج ، والثاني على شكل قبة وما لبثت عمارة الترب أن انتشرت في العهد الأيوبي ، وامتازت مشيداتها بالفخامة مع تقشف بالزخرفة والزهد في الزينة .

ومقبرة الباب الصغير ، أكبر مقبرة في دمشق وتعرف (بمقبرة الباب الصغير)

نسبة إلى باب صغير في سور دمشق القديمة من جهة الجنوب . وهذه المقبرة قديمة جداً ، قيل : إنها كانت بستاناً لامرأة فوقفته مقبرة ، وورد في كتاب (الزيارات) للهروي أنها حرثت وزرعت بقدر مئة سنة ، فلذلك لا تعرف القبور فيها . وقيل : إنه دفن فيها كثير من الصحابة والتابعين وغيرهم .

تربة السلطان نور الدين :

وهي جزء من المدرسة النورية الكبرى الكائنة عند مدخل سوق الخياطين ، وتعد من أهم أبنية دمشق التاريخية ، قاعة مربعة ، يزخر داخلها بالمقرنصات الرائعة ، وشكلها الخارجي نموذج فريد في هندسة القباب ، وتضم التربة قبراً على شكل سنامي تغطيه زخارف نباتية نادرة .

ولد نور الدين في مدينة حلب في عام (٥١١هـ / ١١١٧م) حيث أبوه حاكماً عليها وأتابكا لسلطان بغداد السلجوقي ، ثم خلف أباه في الملك سنة (٥٤١هـ / ١١٤٦م) واشتهر بشجاعته وتقواه وتفانيه في تحرير البلاد من الفرنج ، وشهد قبيل وفاته سنة (٥٦٩هـ / ١١٧٣م) تحقيق وحدة القطرين مصر والشام على يديه وبمساعدة قائديه صلاح الدين الأيوبي وعمه أسد الدين .

تربة السلطان صلاح الدين :

تقع إلى جوار الجامع الأموي عند بابه الشمالي ، وكانت جزءاً من المدرسة العزيزية التي بناها ابنه العزيز عثمان ، وصلاح الدين أشهر من أن يُعرّف ، واسمه يوسف بن أيوب ، ولد بتكريت في عام (٥٣٢هـ / ١١٣٧م) ودخل مع والده والي الأكراد في خدمة نور الدين فبعثه بعد فتح دمشق مع عمه القائد أسد الدين شيركوه لتحرير مصر ، وصار بعد مقتل عمه وزيراً في بلاط الخلافة الفاطمية في القاهرة . ثم انفرد بالحكم بعد موت العاضد آخر خلفاء الفاطميين . ثم خلف نور الدين في السلطنة على مصر والشام سنة (٥٧٠هـ) ، ولقب بالملك الناصر وافتتح بيت المقدس .

سار على نهج نور الدين وقاد معارك التحرير والوحدة ، فضم اليمن وليبيا إلى

الدولة العربية ، التي أصبحت حدودها تمتد من أقصى الجزيرة في الشمال إلى عدن في الجنوب وإلى تونس غرباً وعاصمتها دمشق . توفي صلاح الدين في قلعة دمشق فدفن فيها ثلاث سنين ثم نقل رفاته إلى تربته المعروفة اليوم . وقد أحيطت تربته بالعناية والرعاية في كل العصور . على قبره اليوم تابوت خشبي ثمين محلى بالنقوش ، تطوف به آية الكرسي المكتوبة بخط كوفي جميل ، وهو التابوت الأصلي الذي يرجع إلى العهد الأيوبي . وإلى جانبه تابوت آخر من الرخام الأبيض وضع في عهد السلطان عبد الحميد سنة (١٨٧٨ م) . وقد زينت جدران تربته بألواح القاشاني الجميلة وضعت سنة (١٠٣٧هـ / ١٦٢٧ م) وتغص تربته اليوم بوفود الزوار من العرب والمسلمين والسياح الأجانب القادمين من مختلف أنحاء العالم .

تربة الملك الظاهر :

السلطان ركن الدين بيبرس البندقداري هو أشهر سلاطين المماليك وأول من وطد حكمهم في الشام بعد زوال دولة بني أيوب إثر دخول التتار دمشق في أيام ملكهم هولاكو . وقد أسهم إلى جانب السلطان سيف الدين قطز في كسر التتار في معركة عين جالوت المشهورة سنة (٦٥٨هـ / ١٢٥٩ م) ، وقضى معظم حياته في محاربة الفرنج وتحرير أجزاء هامة من الوطن العربي من أيديهم ، وُخلد اسمه على أكثر من حصن وقلعة ومدينة . وتوفي هو أيضاً في قلعة دمشق كأسلافه العظماء ، ثم نقل جثمانه ليدفن في المدرسة الظاهرية .

تعد هذه المدرسة من روائع العمارة في العهد المملوكي ، وأجمل ما فيها بوابتها ذات المقرنصات الحجرية ، وتربه السلطان التي تأخذ بالألباب حسننها وبهاؤها . فلقد كسيت جدرانها بالرخام الملون ، وبالنقوش والفسيفساء الزجاجية الشبيهة بفسيفساء الجامع الأموي ، وبأشرطة الكتابات المذهبة والنقوش ، وأهم من ذلك كله محرابها الذي يعد من أجمل ما أنتجه الفن الإسلامي من المحاريب . وتضم التربة قبر الظاهر ، وهو تابوت بسيط من الحجر وإلى جانبه قبر ابنه بركة خان .

وتميزت دمشق أيضاً بوجود عدد من المدافن والترب على مر العصور مثل :

التربة الأفريدونية :

بناها في أول طريق الميدان بدمشق التاجر العجمي (شمس الدين أفريدون بن محمد الأصفهاني) في سنة (٧٤٤هـ / ١٣٤٣م) . وواجهتها الخارجية من أجمل آثار الفن المملوكي .

التربة الألبيجغائية :

تنسب إلى الأمير ألجي بغا ، وموقعها شمالي المدرسة الصابونية في أول طريق الميدان بدمشق .

تربة الأمير ابن المقدم :

في مقبرة الدحداح وتسمى اليوم (قبر طلحة) تنسب إلى الأمير إبراهيم بن محمد بن المقدم المتوفي سنة (٥٩٧هـ / ١٢٠١م) وتقع قرب جامع الشيخ عبد الرحمن .

تربة صفوة الملك :

كانت مكان سينما الأهرام - تجاه مؤسسة الكهرباء - سرقت أرضها وهدمت وزالت آثارها . وهي الخانقاه الطاووسية منسوبة إلى شمس الملوك دقاق السلجوقي (٤٩٧هـ) وكان فيها قبة تسمى (قبة الطواويس) ، فيها قبر الملك دقاق وأمه صفوة الملك (توفيت سنة ٥١٣هـ) . وكان في القبة كتابات كوفية ، وزخارف جصية رائعة . وكان هذا البناء الوحيد الذي تركه السلاجقة في دمشق .

١- التربة العمادية في حي الصالحية شمال المدرسة الجهاركسية .

٢- تربة ست الشام بجوار المدرسة الشامية في سوق ساروجا .

٣- التربة الصارومية في الصالحية غرب جامع الحنابلة .

٥- تربة عين الشمس في محلة الصالحية شرق جامع الشيخ محيي الدين .

٦- تربة ريحان بن عبد الله في الصالحية .

٧- التربة الكاملية خلف الجدار الشمالي للجامع الأموي .

- ٨- التربة الأسدية في الصالحية في حي الشيخ محيي الدين .
 - ٩- التربة الطرخانية في العقبة شرق جامع النحاسين .
 - ١٠- التربة الكنجة في الصالحية شرق جامع الحنابلة .
 - ١١- تربة عبد الرحمن بن نجدة في سفح جبل قاسيون شمال جامع الحنابلة .
 - ١٢- التربة القلندرية في مقبرة الباب الصغير .
 - ١٣- التربة التكريتية في الصالحية .
 - ١٤- التربة الكجكنية أو الكجكرية في حي العفيف .
 - ١٥- التربة الدوباجية في الصالحية .
 - ١٦- تربة الأمير غورلو في الصالحية .
 - ١٧- تربة أراق في حي الميدان الوسطاني .
 - ١٨- التربة الأفريدونية عند باب الجابية .
 - ١٩- التربة الجيبغائية قرب المدرسة الصابونية في باب الجابية .
 - ٢٠- التربة العادلية البرانية في سفح جبل قاسيون .
 - ٢١- التربة الكوكبائية جنوب زقاق المحكمة .
 - ٢٢- التربة الرشيدية في حي الميدان .
 - ٢٣- تربة الشيخ حسن أو تربة مختار ٧١٦هـ .
 - ٢٤- التربة الإخنائية شمال الجامع الأموي .
 - ٢٥- التربة السنبلية : شمال تربة الشيخ حسن وتعرف بمدفن آل دركل ٨٣٦هـ .
 - ٢٦- التربة البدرية الرسيمية في جوار جامع الشيخ رسلان قرب باب توما .
 - ٢٧- تربة قرب باب الجابية .
- وأشهر المقابر هي مقبرة باب الصغير ومرج الدحداح ومقبرة الحمزية والصوفية
وباب شرقي .

٢٨- تربة ابن المقدم في حي الدحاح ويتميز مبناها بقبة جيدة قائمة على أربعة أقواس .

٢٩- التربة النجمية : في سوق ساروجة ويتميز مبناها بقبته .

٣٠- تربة ابن زنكي الأمير السلجوقي : في حي عين الكرش بناءها ٦٢١ هـ .

٣١- التربة الفرنتية في حي الصالحية عام ٦٢١ هـ .

٣٢- التربة القيمرية : في حي الصالحية قرب اليمارستان القيمري ٦٥٤ هـ .

٣٣- تربة مثقال : مقابل الجامع الجديد ٦٢١ هـ في حي الصالحية .

٣٤- التربة القاهرية : التي تعود للملك القاهر .

٣٥- التربة الخاتونية : نسبة لخاتون عصمة الدين زوجة صلاح الدين .

٣٦- تربة المسجف قرب كفرسوسة ٦١٥ هـ .

٣٧- التربة النطفية : في الصالحية عند باب جامع الحنابلة .

٣٨- تربة ابن سلامة : في الصالحية ٦١٠ هـ .

٣٩- تربة الولي الشيباني .

٤٠- تربة بلبان .

٤١- تربة مجهولة تعرف بمقام الشيخ حرملة .

٤٢- تربة السيار .

٤٣- تربة مجهولة تقع غربي جامع الحنابلة مقابلة له .

٤٤- تربة مجهولة تقع إلى جوار التربة السابقة .

٤٥- التربة الحافظية : في حي الميسات ويحتفظ المتحف الوطني بدمشق

بضريحها الخشبي .

* * *

وَمِنَ التُّرْبِ فِي دِمَشْقٍ أَيْضاً

- | | |
|-----------------------------------|-----------------------------|
| ١- التربة البدرية الأولى | ٢- التربة الحافظة |
| ٣- التربة العمادية | ٤- تربة ست الشام |
| ٥- تربة الدحداح | ٦- تربة عين الشمس |
| ٧- تربة ريحان بن عبد الله | ٨- التربة الكاملية |
| ٩- التربة الأسدية | ١٠- الطرخانية |
| ١١- التربة الكنجية | ١٢- تربة عبد الرحمن بن نجدة |
| ١٣- التربة القلندرية | ١٤- التربة التكريتية |
| ١٥- التربة الكجكنية | ١٦- التربة الدوباجية |
| ١٧- تربة الأمير غورلو | ١٨- تربة آراق |
| ١٩- التربة الأفريدونية | ٢٠- التربة الجيفائية |
| ٢١- التربة الصارمية | ٢٢- تربة السلطان نور الدين |
| ٢٣- التربة العادلية البرانية | ٢٤- التربة الكوكبائية |
| ٢٥- التربة الرشيدية | ٢٦- تربة الشيخ حسن |
| ٢٧- التربة الإخنائية | ٢٨- التربة السنبلية |
| ٢٩- التربة البدرية الثانية | ٣٠- تربة بهادر |
| ٣١- تربة ابن المقدم | ٣٢- التربة النجمية |
| ٣٣- تربة ابن زنكي الأمير السلجوقي | ٣٤- التربة الغرنتية |
| ٣٥- التربة القيصرية | ٣٦- تربة مثقال |
| ٣٧- التربة القاهرية | ٣٨- التربة الخاتونية |
| ٣٩- تربة المسجف | ٤٠- التربة النطفية |

٤١- تربة ابن سلامة	٤٢- تربة السلطان صلاح الدين
٤٣- تربة الملك الظاهر	٤٤- التربة الأجرية
٤٥- التربة الأتابكية	٤٦- التربة الأرسلانية
٤٧- التربة الأكزية	٤٨- التربة الأيدمرية الأولى
٤٩- التربة الأيدمرية الثانية	٥٠- التربة البالجية
٥١- التربة البدرانية الحمزية	٥٢- التربة البدرية الثانية
٥٣- التربة البرسبائية الناصرية	٥٤- التربة البزورية
٥٥- التربة البصية	٥٦- التربة البلبانية الأولى
٥٧- التربة البلبانية الثانية	٥٨- التربة البلبانية الثالث
٥٩- التربة البهائية	٦٠- التربة البهنسية
٦١- التربة التقروشية أو التغري برمشية	٦٢- التربة التنكزية
٦٣- التربة التوروزية	٦٤- التربة الجمالية المصرية
٦٥- التربة الجوكندارية	٦٦- التربة الخطابية
٦٧- التربة الدهستانية	٦٨- التربة الرحبية
٦٩- تربة الحزقي	٧٠- التربة الرفاعية
٧١- التربة الركنية	٧٢- التربة الزاهرية
٧٣- التربة الزويزانية	٧٤- التربة الشبلية
٧٥- التربة الشرابيشية	٧٦- التربة الشهابية
٧٧- التربة الشهيدية	٧٨- التربة الصصرية
٧٩- التربة الصوابية	٨٠- التربة الطوغانية الناصرية
٨١- التربة العادلية الجوانية	٨٢- التربة العلائية الأميرية
٨٣- التربة الغزلية	٨٤- التربة الاستدارية

- ٨٥- التربة القراجية الصلاحية الأولى ٨٦- التربة القراجية الصلاحية الثانية
- ٨٧- التربة القطينية ٨٨- التربة القمارية
- ٨٩- التربة الكاملية الجوانية ٩٠- التربة الكركية الأياسية الفخرية
- ٩١- التربة الكروسية ٩٢- التربة الكندية
- ٩٣- التربة المؤيدية الشيخية ٩٤- التربة المؤيدية الصوفية
- ٩٥- التربة المحمدية ٩٦- التربة المختارية الطواشية
- ٩٧- التربة المراعية ٩٨- التربة المزلقية
- ٩٩- التربة المعظمية ١٠٠- التربة الملكية الأشرفية
- ١٠١- التربة المنكبائية ١٠٢- التربة الناصرية
- ١٠٣- التربة النشائية ١٠٤- التربة الهولية
- ١٠٥- التربة اليونسية ١٠٦- التربة اليونسية الدوادارية
- ١٠٧- تربة صفوة الملك ١٠٨- تربة الشيخ أرسلان بن يعقوب
- ١٠٩- التربة السلامية ١١٠- التربة العديمية
- ١١١- التربة القانباية ١١٢- تربة بمسجد القدم
- ١١٣- التربة القطلوبكية ١١٤- التربة السنقرية الصلاحية
- ١١٥- التربة الغرية ومسجد الحلبي ١١٦- التربة الجمالية الأسنائية القوصية

ملاحظة : إن أكثر ما ذكرناه لم يبقَ له أثر .

التربة البدرية : في الطريق إلى ركن الدين وبالقرب من نهر ثورا توجد ساحة تتوسطها قبة أثرية ، وعن هذه القبة تحدث ابن كثير في تاريخه فقال :

(وفيها قوض المعظم النظر في (التربة البدرية) تجاه الشبلية عند الجسر الذي على ثورا يقال له جسر كحيل ، وهي منسوبة إلى حسن بن الداية ، كان هو وأخوته من أكابر نور الدين محمود بن زنكي ، وقد جعلت بحدود الأربعين وست مئة جامعاً

يخطب فيه يوم الجمعة) وقال العدوي أيضاً : (إن هذا الجامع قد تهدم وصار خراباً) ، وأضيف وقفه إلى وقف الجامع المظفري المعروف بجامع الحنابلة .

قال : بالقرب من جسر كحيل . . . من جهة طريق عين الكرش . . . قبة مهدومة الأعلى وتلك القبة الباقية من آثار تلك المدرسة ، بناها الأمير بدر الدين حسين بن الداية المعروف بـ (لالا) المتوفى بعد سنة (٦٠٠ هـ) بقليل .

وعن الذين عملوا في التدريس بالمدرسة يذكر الشيخ شمس الدين أبو المظفر سبط بن الجوزي ، أمه رابة بنت الشيخ جمال الدين بن أبي الفرج ابن الجوزي الواعظ . كثير الفضائل والصفات ، وله مرآة الزمان في عشرين مجلداً من أحسن التواريخ نظم فيه كتاب المنتظم لجده ، وزاد عليه وذيل إلى زمانه ، كان له مجلس وعظ وعلى طريقة جده ، درس بالقرية وبالشبلية التي بالجبل عند جسر كحيل ، وفوض إليه البدرية التي قبالتها فكانت سكنه وبها توفي ، فالقبة البدرية وهي ما تبقى من الجامع والمدرسة كانت في يوم من الأيام معهداً للعلماء .

التربة الحافظية : تنسب التربة الحافظية إلى أرغون الحافظية سنة (٨٤٦ هـ) هي والمسجد بها قبلي جسر كحيل وشمالي التربة القيمرية بدرب الشبلية من الصالحية ، كانت بستاناً لياقوت خادم تاج الدين الكندي ، فاشترته أرغون الحافظية عتيقة الملك العادل ، وكانت عاقلة ومدبرة جمعت أموالاً عظيمة ، قال ابن كثير ، صادرها الصالح إسماعيل فأخذ منها أربعمئة صندوق من المال ؛ وذلك لأنها كانت تبعث بالأطعمة والثياب إلى الملك المغيـث عمر بن نجم الدين أيوب ، وهو مسجون بالقلعة ، ولما توفيت دفنت بها سنة (٦٤٨ هـ) وكانت أوقفت عليها أوقافاً جديدة منها بستان بصر ، وقال في (مختصر شذرات الذهب) الحافظة أرغون ، وردت بضعة أسطر تحت اسم أرغون ، وفي الدارس أرغون العادلية عتيقة الملك العادل ، وسميت بالحافظة لتربيتها للملك الحافظ صاحب قلعة جعبر .

* * *

الاحتفال بخروج المحمل الشريف إلى الحج

لقد كان الدمشقيون يهتمون بالمحمل طوال القرون التي عاشوا فيها تحت الحكم العثماني . لقد كان الحج مناسبة اجتماعية واقتصادية كبيرة يجتمع خلالها الحجاج المسلمون من جميع الجنسيات في دمشق ويحملون معهم منتجات بلادهم فيبادلونها بمنتجات دمشقية فتروج حركة التجارة ثم يسIRON بموكب حافل إلى مكة المكرمة وراء المحمل الشريف الذي يحمل الكسوة السلطانية إلى الكعبة الشريفة .

وقد اكتسبت دمشق بسبب ذلك صبغة قدسية فصارت تدعى بشام شريف . وكان اهتمام الدولة العثمانية بالمحمل الشامي كبيراً ؛ لأنها كانت تعده رمزاً لسيادة السلطان على الحرمين الشريفين . وكانت تكلف واليها في دمشق أن يكون قائداً للحج الشامي كي يسهر على راحة وأمن الحجاج ، وابتداءً من القرن التاسع عشر أصبحت إمارة الحج وظيفة مستقلة تكلف الدولة أحد باشاوتها لهذه المهمة .

وكان للمحمل الشريف مراسم متعددة يجري الاحتفال بها في شهر شوال من كل عام وتتم على الشكل التالي :

- ففي اليوم الأول الذي يسمونه (بيوم الزيت) ، ويتم نقل الزيت فيه من قرية كفرسوسة على ظهر الإبل حتى المستودع الخاص بأدوات محمل الحج في حي البحصّة .

- وفي اليوم الثاني يحتفل بنقل الشمع من الدار التي سكب فيها في كفرسوسة ووزنه ثلاثة قناطير كما يحمل ماء الورد من محصول قرية المزة ووزنه قنطار واحد ، والملبس ووزنه عشرة أرتال . ويحمل الشمع عادة على أعناق الرجال ملفوفاً بالشال الكشميري وذلك من أجل إهدائه إلى الحرمين الشريفين .

- ويسمى اليوم الثالث بيوم السنجق يخرجون فيه السنجق الشريف من القلعة التي

كان يحفظ بها وينقلونه باحتفال مهيب إلى دائرة المشيرية (مكان قصر العدل حالياً) فيستقبله المشير ويضعه في قصره .

- وفي اليوم الرابع ويسمونه بيوم المحمل ، يخرج موكب الحج مع المحمل أو السنجق باحتفال عظيم إلى حي الميدان فباب مصر ومنها إلى قرية القدم التي توجد فيها قبة جامع العسالي ، ويوضع المحمل ضمن هذه القبة نحو عشرة أيام ريثما تنتهي أسباب السفر إلى الحجاز وكان المسلمون يلاقون صعوبات كبيرة في طريق ذهابهم إلى الأماكن المقدسة . وكان على الموكب أن يقطع (٢٨) رحلة بين دمشق والمدينة المنورة تستغرق (٣٧٩) ساعة لا يخفى أن دمشق تمتعت ولفترات طويلة بأهمية كبيرة كمدينة متعددة النشاطات ، كالنشاط الديني والعلمي والاقتصادي المتميز ، ومن أبرز مظاهر هذه النشاطات كالنشاط الديني والعلمي والاقتصادي المتميز . ومن أبرز مظاهر هذه النشاطات كانت قافلة الحج التي أغنت الحياة الدمشقية من النواحي الاجتماعية والاقتصادية وأعطت المدينة رفقاً اقتصادياً كبيراً وأتاحت موارد رزق متنوعة لتجار دمشق ، وفرصة للقاء العلماء والشيخوخ من كافة البلاد .

وقد رافقت قافلة الحج مظاهر احتفالية رائعة كان أبناء دمشق ينتظرونها كل عام ، حيث كان الاهتمام بالمحمل الشريف كبيراً ، وكان الحجاج يتوافدون إلى دمشق في الأسبوع الأخير من شهر شعبان وتمتلئ المدينة شيئاً فشيئاً بالحجاج طول شهر رمضان وبفضل أهمية موقع مدينة دمشق كأكبر مدينة في حافة الصحراء السورية الحجازية ، وهي على أقصر طريق من الآستانة إلى الحرمين الشريفين غدت هذه المدينة مركزاً يتجمع فيه الحجاج من بلاد العجم وتركيا وتركستان وغيرها من الجهات الشمالية ؛ للانطلاق منها إلى الديار المقدسة وأصبح لدمشق لون من القدسية حيث دعيت شام شريف ، وكثيراً ما يكون الموكب الشامي يتعرض لخطر العشائر البدوية الضاربة في بادية الشام عبر الطريق ما بين مزيريب والمدينة .

وتقديراً لأهمية الخطر أسندت الدولة منصب إمارة الحج إلى والي دمشق ، كما

قدّرت الدولة الأعباء المالية التي تتطلبها مسؤولية موكب الحج من باشا الشام فاكثفت بأن فرضت عليه مبلغاً رمزياً من المال واهتمت الدولة أيضاً بأخبار قافلة الحج وطلبت من الوالي والمكلف بإمارة الحج تزويدها بأخبار الموكب بانتظام . وتقوم خلال موسم الحج فرص للمتاجرة وإقامة علاقات تجارية نادراً ما تتمكن مدينة أخرى من القيام بها ، إذ يلتقي في دمشق كل عام (٣٠-٤٠) ألف مسلم من شتى الأقطار الإسلامية المشرقية يقودهم الوالي إلى مكة ثم يعود بهم ، وقد جاء في إحصاء جمعه دبلوماسي فرنسي من الجمرک سنة (١٨١٥) بأن المدينة استقبلت منتجات أسبوعية بقيمة (١٨,٥٨٠,٠٠٠) فرنكاً فرنسياً . ويساوي هذا المبلغ ضعف ما تستقبله سورية من البضائع الأوربية ويستخدم في نقل هذه البضائع (٥٣٣٦) جملاً و (٢٢٨٩) بغلاً كما كانت لقافلة الحج أهمية خاصة لبعض الطوائف الحرفية كطائفة الجمالين ، حيث يتم تأجير آلاف الجمال خلال موسم الحج ، وطائفة العكامين الذين يقومون بقيادة الجمال^(١) ، وخدمة الحجاج والحفاظ على أمتعتهم ومساعدتهم في الحل والترحال والعناية بأمور الجمال .

وبذلك نرى أن لقافلة الحج دوراً هاماً لدمشق من الناحية الاجتماعية والدينية والنشاط الاقتصادي الذي كان يرافقها . كما أغنت الحياة الثقافية بتوافد العلماء إليها ، إقامة بعضهم فيها وتبادل الآراء بين العلماء الأغراب والمحليين مما أغنى الحركة الفكرية في دمشق .

عادات أهل دمشق في استقبال الحجاج :

يتمتع حجيج بيت الله الحرام بتقدير واحترام أهل دمشق ، وذلك من خلال استقبالهم لهم عند عودتهم بمجاميع متتابعة ، معبرين عن ذلك بتقديم أنواع الطعام وأرغفة الخبز ، لمشاركتهم بها طلباً للبركة والخير . وتيمناً بزيارة بيت الله الحرام ، وصف ذلك ابن جُبَيْر فقال : (عند صُدُورهم إلى دمشق ، في هذا العام ، هو عام

(١) المرجع : مشاهد وأحداث دمشقية في منتصف القرن التاسع عشر (١٢٥٦-١٢٧٧هـ / ١٨٤٠-١٨٦١م) . جمع الشيخ محمد سعيد الأسطوني ، تحقيق الدكتور أسعد أسطواني .

ثمانين خرج النَّاس لتلقيهم الجَم الغفير ، نساءً ورجالاً ، يصافحونهم ويتمسحون بهم ، وأخرجوا الدراهم لفُقرائهم يتلقونهم بها ، وأخرجوا إليهم الأطعمة ، فأخبرني من أبصر كثيراً من النساء يتلقين الحاجَّ ، ويناولنه الخبز ، فإذا عضَّ الحاجُّ منه اختطفنه منه ، وتبادرن لأكله تبرّكاً بأكل الحاجِّ له ، ودفعن له عوضاً عنه دراهم إلى غير ذلك من الأمور العجيبة كإقامة الزينات وألعاب السيف والترس والعروضات أمام بيت الحاج لمدة ثلاثة أيام ^(١) .

وكانت زينات الحج قديماً من أجمل وأروع من الآن عندما تدخل حارة سيأتي أحد أهلها من الحج تشاهد الجيران متعاونين على تزيين بيته بل حارته ، فمن أول الحارة تشم رائحة الأشجار الخضراء والبخور وتدهن المنازل باللون الأبيض ويتعاون الجميع بهذا ، ثم تفرش الأرض بالسجاد وترفرف الأعلام والرايات الملونة بين غصون الأشجار ، فللماضي نكهة مختلفة نكهة خاصة عبق الماضي العتيق .



صورة محفل الحج في الميدان

(١) المرجع التقاليد والعادات الدمشقية خلال عهود السلجوقيين - الزنكيين - الأيوبيين ، د . فراس حياوي السامرائي .

إطالة على التقاليد الدمشقية الأصيلة

واستكمالاً لبحث تاريخ دمشق وعراقه دمشق وأصالة دمشق نورد هذا البحث عن التراث الضخم للتقاليد الدمشقية العتيقة ، وهي ما يخص الأفراس بدمشق الشام ، وإن الكشف عن هذا التراث هو خطوة موضوعية لفهم تلك التقاليد والعادات التي قد تندثر بفعل التطور السريع المسيطر على عالمنا المعاصر ، ونحن لانكتفي بعرض هذه العادات والتقاليد عرضاً جافاً ، بل نعيدها إلى جذورها العميقة من خلال تاريخها العريق .

فالزغردة (الزلغوة) ترتبط بشكل مباشر بترائنا الشعبي ، تحدث فيه عن تلك الحياة الاجتماعية في البيت والساحات العامة والأسواق أيضاً ، تبين الضرورات المادية من أدوات ومن خلال الاصطلاحات ضمن الزغردة .

وقد تتغير في الزغردة بعض الكلمات ؛ وما ذلك إلا بسبب المفردات بين منطقة وأخرى ، إلا أنها تبقى بحد ذاتها تعبر عن حياة أجدادنا التي ما زال بعضها باقياً في كثير من أحياء الشام .

والزغردة هي جزء من الأغنية الشعبية ، إلا أنها جزء منفرد ، ولقد جمعنا بعض الزغاريد التي تقال في مناسبات مختلفة ، وكذلك أوردنا بعض ما يقال في العراضات الشعبية الشامية ، وهذه جميعاً ظاهرة اجتماعية استمدت قيمتها الذاتية أو الموضوعية من خلال السلوك الاجتماعي في فترة ما ، ومن تقاليد أهل دمشق بترائهم الضخم نجد صورة جميلة تعني بالحجاج لبيت الله وبالأفراس في دمشق الشام بكل مراحل الأفراس من خلال الخطبة ، وكتب الكتاب وتجهيز العروس والعريس والتلييسة والتفيلة والدخلة أو العرس ونسوق هنا بعض من هذا التراث المتمثل بالزغاريد (الزلغوة) والعراضات ، تحدث فيه عن تلك الحياة الاجتماعية في البيت

الدمشقي والساحات العامة والأسواق والحارات ، وكثير من الزغاريد والعروضات
تعبر عن حياة أجدادنا والتي ما زال بعضها باقياً في كثير من أحياء الشام ونورد في هذا
الجزء بعض من الزغاريد والعروضات لما لها من أصل وتقاليد تراثي شعبي يدل على
أصالة هذه المدينة وأهلها من رجولة وشهامة وتوازن فكري .

ومما يقال بمناسبة العرس للعروسين ، ومما يقال في العروضات للرجال ،
وأيضاً ما يقال من زغاريد بمناسبة طهور الولد .

ونرجو من الله تعالى أن نكون قد وقفنا فيما قدمناه من هذه المادة المجهولة غير
المعلومة لدى البعض ، والله الموفق والمستعان .

* * *

زغاريد الحجاج

- أوها يا حجي حج البيت بيلبقلك
- أوها يلي مسكت شباك النبي تنقل عن مهلك
- أوها يلي ملايكة السما قامت ونادتلك
- أوها لرش ورد الحبق والله ع دربك
- لي لي لي لي ليش
- أوها حجيت يا حجي وعانور النبي استهديت
- أوها لبيت من فوق الجبل وحجر النبي دانيت
- أوها لرش ريحان فوق الوجه يا حجي
- أوها والوجه منور ونور النبي والبيت
- لي لي لي لي ليش
- أوها وحمل محملك حمل
- أوها وحاج يا حجي تتدل
- أوها ويبقى العز بدارك
- أوها دايم دوم وتكمل
- لي لي لي لي ليش
- أوها وحجيت وليت
- أوها وزرت الحرم والبيت
- أوها والحجة بتلبقلك
- أوها ومن قلبنا تهنيت
- لي لي لي لي ليش

- أوها وصليت بالمدينة
 - أوها فرحي يا حزينة
 - أوها وهالليلة فرحتنا
 - أوها ما أحلى ليلتنا
 لي لي لي لي ليش
 - أوها وصليت بمكة
 - أوها وانحلت اللبكه^(١) :
 - أوها قومي^(٢) يا أم فلان
 - أوها كبري الكعكة
 لي لي لي لي ليش
 - أوها قوموا عملوا ليمون
 - أوها وحجنا ميمون
 - أوها وألف الحمد لله
 - أوها وحجينا يا مزيون
 لي لي لي لي ليش
 - أوها يا حجي تتها
 - أوها أطلب وأتمنى
 - أوها رشو القرنفل
 - أوها بالورد شنشلنا^(٣)
 لي لي لي لي ليش

(١) اللبكة : المشكلة

(٢) قومي : انهضي .

(٣) شنشلنا : زينا .

زلغوظة زفة العروس

أوها بناتنا مخبّاية

أوها ورجالنا مرتاية

أوها وجهازها عالموضة

أوها سجادة ومراية

لي لي لي ليش

أوها ياصحن توت

أوها ومجلل بياثوت

أوها كبروا اليتامى

أوها وفتحوا البيوت

لي لي لي ليش

أوها صلوا على محمد

أوها وزيدوا صلاته

أوها يللي ما بيصلي على محمد

أوها تطقّ وتنبق مرارته

لي لي لي ليش

أوها اسم العريس يا واحد

أوها اسم العريس يا تنين

أوها يا خرزة زرّة

أوها ترد عنهن العين

لي لي لي ليش

أوها يا صحن تين
أوها ومجلل بالياسمين
أوها وعريسنا صغير
أوها وما طبأ العشرين
لي لي لي ليش

أوها صحتين وصحة
أوها أربع عوافي معها
أوها ويللي مابتقول صحة
أوها جوزها يدببحها
لي لي لي ليش

أوها فستق وبندق وبلح
أوها قلب العدو انجرح
أوها وطئت قلوب الأعداي
أوها اليوم أنا عندي فرح
لي لي لي ليش

أوها يا ذهب مطنطن بجراسو
أوها والذهب محمي بحرّاسو
أوها كل مين يياخذ من بيت . . .
أوها ييمشي ومرفوع راسو
لي لي لي لي ليش

أوها ياما دبكو برجليهم
أوها ياما تغامزوا بعينهم
أوها وقالوا فلان ما بيتجوز
أوها تجوز وقلع عينهم
لي لي لي ليش

أوها يا عريس لا تعبس
أوها فك البقجة والبس
أوها سوالفها عرق الريحان
أوها وشواربك عرق النرجس
لي لي لي ليش

أوها زأأ العصفور لأنفلاً
أوها بين الدوالي والورء
أوها يامخلاً فؤتة (فلان)
أوها وجبينه مكلل بالعرء
لي لي لي ليش

أوها ياما أعدوا جنبي
أوها وياما جرحوا ألبى
أوها وآلو فلان ماييتجوز
أوها تجوز ونصرني ربي
لي لي لي ليش

أوها أم العريس أنا جوعانة
أوها وبدي صفيحة مأمرة
أوها انشا الله تضلي سالمة
أوها وديارك معمرة
لي لي لي ليش

أوها حصتك بياسين
أوها يازهرة البساتين
أوها ويا مصحف صغير
أوها ياعروس السلاطين
لي لي لي ليش

أوها ياصحن رز بحليب
أوها وكل ما برد بيطيب
أوها نحنا أهلية
أوها وما في حدا غريب
لي لي لي ليش

أوها سبع بقج بقجتلك
أوها والثامنة بالصندوق
أوها تسلم دقن أبوكي
أوها يلي ما حاجك لمخلوق
لي لي لي ليش

أوها يا عروس قيمي هاالغطا وارميه
أوها يسعد يلي حَبْكُو ويلي سعا فيه
أوها الوجه دورة قمر والعين تغزل فيه
أوها والخصر شلة حرير والعريس سايح فيه
لي لي لي ليش

أوها يا عروس ارفعي راسك
أوها ولا تستقلي بناسك
أوها والورد حمرة خدودك
أوها والياسمين هو فراشك
لي لي لي ليش

أوها شو أكلت إمك لجابتك حلوة
أوها أكلت القلب والمعلق والكلوة
أوها يا عروستنا شو حطت ع راسها
أوها حطت زهور وياسمين وفلة
لي لي لي ليش

أوها يسعد صباحك يارمان مليسي
أوها يلي قطفتك من البستان ع كيبي
أوها إن قدر الله وجلست مجاليسي
أوها لاكتب كتابك وخط النقد من كيبي
لي لي لي ليش

أوها يسعد صباحك ياوردة جورّة
أوها ياوردع أمه ياخلقه إلهية
أوها لو قدموا لي بدالك من الألف للميّة
أوها مابهوى بدالك ولا لي بحدائيّة
لي لي لي ليش .
أوها ياعروس استوى الرمان بصدرك إلّو سنين
أوها اسمك من الذهب محلاه ويخزي العين
أوها رمان مز الطعم زهر وإلّو لونين
أوها بالسند والهند ما لقو مثل هالعينين
لي لي لي ليش

أوها ياعروس قومي تنقلي ع التين
أوها قديش رميتي بقلوب العاشقين
أوها وما جابت متلك حوايا زهرة الرياحين
أوها انتي أصلية ونيال الشارين
لي لي لي ليش

أوها ياعروس مالك عابسة مالك
أوها قومي كحلي عيونك وارمي الهم من بالك
أوها وعريسك قمر وآه وألف نيالك
أوها انتي شمسة والكواكب قبالك
لي لي لي ليش

أوها ياعروس سامية يا حبة المرجان
أوها يا صافية يانقية يا زينة الخلان
أوها لزين تملك فضة لزين تملك مرجان
أوها لزين تملك ذهب حتى يقلب الميزان
لي لي لي ليش

أوها ياعروس قومي تنقلي عالتوت
أوها والورد أحمر عمّر للخدود بيوت
أوها وحياة خالق السمكة بقلب الحوت
أوها أنا بحبك وخلي هالعدوين تموت
لي لي لي ليش

أوها ياعروس أنا ما بحتاج وصيكي
أوها لا تخلي حدا منبت حماكي يشكيكي
أوها حبي حماكي وحبي السلف والجارة
أوها وحبي حماتك هي بدل أملك تربكيكي
لي لي لي ليش

أوها الوجه دورة قمر والعنق مايل ميل
أوها والخصر من رقتوا هذ الجسم والحيل
أوها يانا يمين الضحى ويانا يمين الليل
أوها ردوا علي غزالي ما بقالى حيل
لي لي لي ليش

أوها ياعروس قومي لنمشي فيكي
أوها ياقمر بيلالي وكل الحلا فيكي
أوها وكل ما هب الهوى بيرميكي
أوها وعاحضن ابن عمك وكلنا نفرح فيكي
لي لي لي ليش .

أوها وخدود العروس مزهرة زهر اللونين
أوها ياورد جوري مفتح بين البساتين
أوها وأحلى من لون الندي اسم الله ويخزي العين
أوها وهي العروس بيناتكن يامين متلامين
لي لي لي ليش .

أوها فايته ع دار وطالعة من دار
أوها بإيد خاتم لولو وبإيد لفت الزنار
أوها ولمن شفتها قلت العفو ياستار
أوها كان القمر بالسما شو نزلوع الدار
لي لي لي ليش .

أوها مين يلّي ماهوي مين يلّي ماحب
أوها مين يلّي ما عشق وفوق راسو رب
أوها وحياة من خلق الرمان يفرط حب وحب
أوها حتى القمر بالسما لبنت عمه حب
لي لي لي ليش .

أوها ياواقفة ع الدرج ولابسة الخلخال
أوها مرجان خدك ضوى مرجان خدك مال
أوها والوجه دورة قمر وما خلق بالبال
أوها متلك الله ما خلق ولا أحلى
لي لي لي ليش .

أوها ياعروس الله يكون معك
أوها ها البكي كله ما بينفعك
أوها إن كان إلک شي مسمار
أوها بالحيط عند أهلك قلعيه وخديه معك
لي لي لي ليش .

أوها وسموك ما قَصّروا سموك عرق الآس
أوها قصير بين الشجر مشكوك فوق الراس
أوها والرمل ما بيعجن والشوك ما بينداس
أوها والسر ما بينعطى إلا لناس وناس
لي لي لي ليش .

أوها وياعروس أنت مرباك بالشام
أوها لا يوم قلبك هوى ولا يوم قلبك مال
أوها وإن تمنّوا الحسن بتسوي ألف خيال
أوها وإن تمنّوا العقل بيلاقوه بقلب الشام
لي لي لي ليش .

أوها لح غنيلك غنيّة يابنت حوريّة
أوها يلّي الصبح صبّحتك ومسّيتك عشيّة
أوها ويلّي وجهها أبيض مثل الوردة الجورية
أوها وع جهازك نزل الوالي وبركابو ألف وميّة
لي لي لي ليش .

أوها ويابعد عيني قديش مشيتك غيّة
أوها يامشية الريم ع الأرض صبحيّة
أوها ويامطرة الخير نزلت بالمربعانيّة
أوها أحلى من الشهد ينقّطع هالشامية
لي لي لي ليش .

زغاريد :

أوها شو هالنهار اللايق
أوها فرحت لنا فيه كل الخلايق
أوها وطقت قلوب الأعادي
أوها وحقّت كل الحقايق
لي لي لي ليش

أوها ع اللعلعي اللعلعي
أوها ياصبايا تجمّعي
أوها يليل طول وطول
أوها وياشمس لاتطلعي
لي لي لي ليش

أوها يَلِّي كُتب غلب
أوها والعقد حطوه بالعلب
أوها يَلِّي حكي ولأس
أوها طلع حمار بلا دنب
لي لي لي ليش

أوها وقبقابك راديو
أوها وسيرو ييغني
أوها وعريسك حلو
أوها وإن شاء الله بتتهني
لي لي لي ليش

أوها الهشي الهشي
أوها ياخاروف محشي
أوها ونحنا بيت
أوها ويبلقلنا كل شي
لي لي لي ليش

أوها القط قال نو
أوها الكلب قال عو
أوها ويللي ما بيعبنا
أوها ما يطلع عليه الضو
لي لي لي ليش

أوها صحتين وصحة
أوها أربع عوافي معها
أوها أربع غراير سمسّم
أوها وعلى اللقمة لكم ألف صحة
لي لي لي ليش

أوها ومبارك ماعملنا
أوها وهذا العرس إلنا
أوها ومبارك يا . . .
وأوها واطلب واتمنى
لي لي لي ليش

زغاريد العروس (الرَّجُل)

- أوها وسعيد ياخذ سعدية
- أوها وابنا ياخذها لصبية
- أوها ميدان وصالحية واحد .
- أوها وصلوا على خير البرية
لي لي لي ليش

أوها يا عريس يا أبيض يامعجون بالفضّة
أوها يا أبيض من البيض قُلّي إيمنى بترضى
أوها وإن كان أهلك أسسوك بالفضّة
أوها أنا عبدتك لحد اليوم لترضى
لي لي لي ليش

أوها يابعد عيني ولبس الجوخ يلبقلك
أوها يلي زينت المحضر بفهمك وعقلك
أوها إلك جوز عيون بيرموني ع المهلك
أوها وقامة جليلة الله يخليك لأهلك
لي لي لي ليش

أوها ياعريسنا يا زردة
أوها وإخوانه معلقين فيها
أوها وأبوه هو شمعتهن
أوها ورب السما لا يطفئها
لي لي لي ليش

أوها ياعريسنا لاتندم ع مالك
أوها وبكرة بتصبح غصن البان بدارك
أوها ويتصير غصن البان تتنقل
أوها المال بيفنى وبنت العم بتبقالك
لي لي لي ليش

أوها مبارك ياعريس جديد
أوها ريته مبارك وإيامك كلها عيد
أوها ريته مبارك ياسند بيك
أوها ريته مبارك وريت عمرك يزيد
لي لي لي ليش

أوها مبارك يا عريسنا يا أسمراني
أوها أصلك من العود والعود غالي
أوها وحياة يلي خلقك أنت عليّ غالي
أوها لزقك من الحمام ع باب داري
لي لي لي ليش

أوها مسّيك بالخير يلي ما حدا مسّاك
أوها لساك ع العهد لما غيرنا نسّاك
أوها لو قطعوني بحد السيف أنا ما بنسّاك
أوها خليك ع العهد يلي كتبته أنا وياك
لي لي لي ليش

أوها يا عريس غيرك ما بقا حدا يحلالي
أوها يابو الشفايف مثل العقيق بتلالي
أوها ربوك أهلك بالدلال وع الغالي
أوها وقالوا بالمتل : طير المربي غالي
لي لي لي ليش

أوها يا عريس يلي صار لو سنة ناظر
أوها وعروسته جوهرة شو جسمها عاطر
أوها يلله يابنات غنوا لينجلي الخاطر
أوها صار لنا ناظرين تسع أيام والعاشر
لي لي لي ليش

أوها قالوا غزالك أصيل قلت هالشامي
أوها قالوا غزالك بيجرح قلت وييداوي
أوها شبهت لون خدودك لورد مكاوي
أوها شو بتعمل الإم لوكان الولد غاوي
لي لي لي ليش

أوها ما أحلى العريس وخاتمو بإيدو
أوها بطلب من رب السما ينصرو ويزيدو
أوها ريتو يصير حاكم والناس تحت إيدو
لي لي لي ليش

أوها عريسنا ياقمر ياقامة عود الزان
أوها زفوا عريسنا زفوا يازينة الفرسان
أوها زفوا عريسنا وصلوا ع النبي العدنان
أوها شيخ الشباب وكبير حارة الميدان
لي لي لي ليش

أوها ياعريس تحت الشجرة حلقوا لك
أوها ولاد عمك ع الصفيّين وقفوا لك
أوها جابو الحرير وقاسوه على طولك
أوها طلع قصير وما رضيو يقولوا لك
لي لي لي ليش

أوها وعريسنا رافع علم
أوها وحواجه خط القلم
أوها وطلع ع الأسكي
أوها وإن شاء الله ما بيندم
لي لي لي ليش

زغاريد بمناسبة الولادة :

أوها مبارك والسبع بركات
أوها بتستاهلي ياداية شورة حرايرية
أوها وزيارة سيدنا محمد والكعبة المجلية
لي لي لي ليش

أوها ولدت وقامت
أوها ع فراشها نامت
أوها إلك الحمد ياربي
أوها ماشمت فينا شامت
لي لي لي ليش

أوها ياما داروا بالزقاق
أوها ياما لعبوا بالكعاب
أوها وقالوا فلانة ما بتحب
أوها حبلت ونصرها الرب الخلاق
لي لي لي ليش

أوها ياداي تي الله يعطيكي
أوها وإن شاء الله بحجك
أوها منجي ومنكا فيكي
لي لي لي ليش

زغاريد الطهور

أوها يامطهر الصبيان طهر لي وحيدي
أوها يامطهر الصبيان لبسو الجديد
أوها يامطهر الصبيان طيري اليوم بإيدي
أوها يامطهر الصبيان اليوم يوم عيدي
لي لي لي ليش

أوها عرق الريحان طولو
أوها وكل البنات عم يغنولو
أوها واليوم يوم طهورو
أوها ويلله كلكن زلغطولو
لي لي لي ليش

أوها وفتحت الياسمينه
أوها عبقت ريحتها الجنية
أوها واليوم طهورها الصبي
أوها وأمه ماضلت حزينة
لي لي لي ليش

أوها وريتك تتهني يا أمو
أوها والورد اليوم عم يشمو
أوها وريته مبارك هالطهور
أوها والعدو الله يغمو
لي لي لي ليش

أوها يامطهر خفف أيدك
أوها ريته ربنا يزيدك
أوها دخلك لاتوجع وحيدنا
أوها لنقوله اليوم عيدك
لي لي لي ليش

أوها والله يحميك
أوها من يلي يعاديك
أوها وحوطتك بالله
أوها وبطهورك الله يهنيك
لي لي لي ليش

أوها ياسلام ياسلام
أوها اليوم طهرنا الغلام
أوها ياشمس طلعي
أوها وما أحلى هالقوام
لي لي لي ليش

عراضات شامية

في يوم زفاف الشاب يذهب مع بعض إخوته ورفاقه إلى الحمام ، ومن ثم يأتي الحلاق إليه في منزله ليقص له شعره ، ويحلق له ذقنه ، وبعد صلاة المغرب تجري مرحلة التليسة ، ويكون ذلك في غير داره ؛ لأن داره في هذه الفترة من حظ النساء ، ويتوافد المدعوون من الرجال إلى المنزل الجديد من الأقارب والمعارف والجيران وبعد ساعة من السمر ، وتبادل عبارات الترحيب بالمدعوين ومن المدعوين لأهل البيت ، وقد يتخلل ذلك سماع قصة المولد النبوي الشريفة ، ثم بعد توزيع الملابس وبعض أنواع الشرابات ، ينهض أحد الموكلين بالشاب وينهض وبعض رفاقه وإخوته وأعمامه فيدخلون غرفة خاصة لهذه المناسبة ، حيث يتم خلع ثيابه ويبدؤون بتلبيسه اللباس الجديد بعد تعطيره ، بينما يبدأ المدعوون بالتصفيق والنداءات باليُمن والبركة وغير ذلك ، وهنا تتعالى الأصوات فيقول أحدهم :

عريس الزين يتهنى

يطلب عليّ ويتمنى

ويردد الموجودون هذه العبارات وراءه

عريس الزين ياغالي

يطلب عليّ ويلالي

عريس الزين ما بيعو

لو جاب لي من الثمن غالي

ثم يقول أحد الموجودين مع البعض :

صلوا على محمد ، زين زين ، مكحول العين ، نَيْرْ وغضير ، وعالدنيا ،

وهيه ، ماشاء الله .

وبعد أن تنتهي مرحلة التليسة للشاب يجلس وسط المدعوين ، وفي هذه الفترة تجري لعبة السيف والترس حيث تسمع قرعة السيوف كأنها سيمفونية رائعة الأنغام . ثم ينتقلون إلى الطريق وتبدأ المرحلة الأخيرة ، فيسير لاعبوا السيوف مع أصوات قرعة سيوفهم أثناء المبارزات التي يؤدونها ببراعة فائقة وعلى الجانبين يسير الشباب ، وفي الوسط يسير العروس وإلى جانبه والده وأعمامه وأخواله وبعض وجوه المنطقة ، وعندما يكتمل الموكب بكل عناصره ، يتقدم شخص محدد يدعى عقيد الحي أمام الموكب حيث يقول :

يا أهل العدية ويرد الموجودون : هيه

يارجال الديرة ويرد الموجودون : هيه

ياسامعين الصوت ويرد الموجودون : هيه

الله لا يقطع لكم ذرية ويرد الموجودون : هيه

هي الراية المجلية ويرد الموجودون : هيه

ويتابع الموكب مسيره ويعود العقيد من جديد فيقول :

كانت الراية وراية نبينا

وراية الأنبياء والصالحين

وراية سلطان العارفين

وراية شيخ الحارة

وراية الأكابر

وراية وجوه الحي

وراية العريس

وراية أبو العريس

وراية كل من صلى على النبي العدنان

والدنيا وبيض الله وجهه
ويردد آخر ويردد الآخرون ما يقول

هي لنا هي لنا
ضرب السيف طاع لنا
هي لنا هي لنا
عز العرب بأرضنا

ونعود للعقيد الذي يقول ويردد المجتمعون ما يقول
وإن هللتي هللنا لك
صبينا البارود قبالك
وإن هللتي ياعروبية
الواحد منا بيسوى مئة

ويردد خلفه الناس كل جملة يقولها ثم يقول الجميع
صلوا على محمد ، زين الزين ، مكحول العين ، نير وغضير الخ الخ
وعندما ينتهي المسير من منزل العروس يقول العقيد :

شن كليلة شن كليلة
شو هالليلة شو هالليلة
الله يعينه ع هالليلة

من هالليلة صار له عيلة
ثم يقول ويردد الآخرون :

بخاطركم رايعين نروح استروا ما شفتوا منا .

ويهتثون العروس ووالده وإخوته ويمضي كل في سبيله ، وهكذا ينتهي
الموكب ، يدخل العروس ومعه والده أو أخوه الأكبر إلى دار العروس ، بينما تبدأ

النساء بالزغاريد فيجلس الشاب إلى جانب العروس فترة من الزمن ، وفي النهاية تقوم أمه وأم العروس فتقودان العروسين إلى غرفتهما الخاصة ، وتكون أمه قد أوصت ابنها بالمثل المشهور :

(اقطع رأس القط من ليلة العرس)

ومما يقال في العراضات الشامية :

يا صلاتك يا محمد

وطبعاً يردد الموجودون ما يقول

والصلاة صلّوا عليه

وعلينا وعليه

وعلى من زار قبره

وعلى من حج إليه

حجت الحجاج لأجله

والسنة نجاور حداه

يا ويلاه يا ويلاه

ع الحرم واللي بناه

صلوا ، على محمد ، زين الزين ، مكحول العين ، نير وغضير ، وعالدنيا وهيه .

وكان سابقاً في دمشق بعض المعتقدات والخرافات التي لا تستند إلى حقيقة أو واقع . وينطبق عليها اسم (الفلوكلور) الشعبي وسأورد بعض منها والمتداولة بدمشق خاصة ولا زال البعض يؤمنون بها ولا سيما في الأحياء الشعبية والقرى والأرياف والبعض يسميها بـ (دفتر النسوان) .

عزيزي القارئ إليك ما استطعت أجمعه فمثلاً .

- حاذر أن تقص أظافرك ليلاً . كي لا ترى منامات وحشة .
- يوم الأربعاء فيه ساعات نحس وفيها ساعة حظ أيضاً ويمتنعوا عن زيارة المرضى من بعد عصر الثلاثاء لدخول يوم الأربعاء .
- لا تغسلو الثياب يوم الإثنين ؛ لأن السيدة فاطمة دعت - في زعمهم - أن غسيل الإثنين لا ينقى ، وصاحبه لا يبقى .
- لا يلقون الماء الساخن على الأرض ، كي لا يصيب الجن فتنتقم من الفاعل .
- يجب قبل إلقاء الماء الساخن على الأرض أن يقول الذي يفعل كلمة (دستور) دستور من خاطركم .
- لا يقصون ثوباً في أيام الثلاثاء ؛ لأن هذا الثوب يذهب حريقاً أو إرثاً .
- يخافون القطعة السوداء ، ويتحاشون إيذاءها ؛ لأنها قد تكون جنياً متخفياً .
- لا تصفر في الليل فبذلك تجمع الشياطين .
- لا يقيمون أعراساً يوم الجمعة ؛ لأن عروس الجمعة قريبة الرجعة .
- يقولون : إن الفراشة التي تطير في البيت ، ما هي إلا روح من أرواح الأقرباء تحوم فيه فيجب العطف عليها وعدم إيذاؤها .
- لا يقطعون شجرة في المنزل ؛ لأن قطعها يسبب وفاة صاحب المنزل .
- لا يرشون أحداً بالماء ؛ لأن الرش بالماء يسبب الفراق .
- لا يخرجون الأواني النحاسية من البيت بعد المغرب . . . والسبب مجهول .
- لا يدخلون قطع الصابون إلى المنازل في أيام السبت ، ولا يخرجونها ؛ لأنها قد تسبب وفاة أحد أفراد المنزل وغسله بها .
- إذا طنت أذنك اليمين ، فهذا يعني أن صديقاً أو محباً يذكرك ، أما إذا طنت الأذن اليسرى فعدوك هو الذي يذكرك .
- إذا شعرت بحكة في باطن كفك الأيمن ، فإن قبضة من المال في طريقها

إليك ، أما إذا كانت الحكمة في الكف الأيسر فهذا يعني أنك ستدفع .

- يعطون العروس ساعة دخولها بيت الزوجية ، قطعة من العجين لتلصقها خلف الباب ، وتلصق العروس معها في بيت الزوجية إلى الأبد .

- إذا حدثت وفاة في أحد المنازل ، فإنهم يصرون على إخراج المغتسل قبل المتوفى ، لثلاثا تتكرر الوفاة ثانية وثالثة . وكان النسوة لا يكنسن بيوتهن في ذلك اليوم ؛ لاعتقادهم أن الكنس يعني التعجيل بموت عزيز مقيم في البيت .

- إذا وقف الغراب على أحد المنازل وصاح ، فإن غائباً سيعود في ذلك اليوم أو الأسبوع .

- إذا شعرت بحكمة في الحاجبين ، فإنك ستذهب للسلام على غائب .

- أما إذا مسحت قطة البيت وجهها بيدها ، فإن ضيوفاً ولا بد في طريقهم إلى البيت .

- يسقى المرعوب ماء بطاسة ، كنا نسميها (طاسة الرعبة) وكانت من النحاس غالباً ، ومزنة بآيات كريمة وتعويذات وبسملات محفورة على جدرانها وفي قاعها .

- لا يشربون القهوة أو الشاي في فنجان منقور من طرفه .

- كان يعلق على الجدار رقماً مكتوبة بخط جميل : « الحسود لا يسود » و : « عين الحاسد تبلى بالعمى » وكثيراً ما كان يتوسطها صورة مرسومة لعين كبيرة وأيضاً : « من راقب الناس مات هماً » وكثيراً ما تعلق حدوة حصان على باب البيت الدمشقي ؛ لأن هذه تجلب الحظ وأيضاً تعلق خرزة زرقاء خوفاً من العين الصيابة .

- كان المسافرين إلى مكان بعيد وهو كاره ويتمنى أن يعود بسرعة يكتب على جدار بيته قبل انطلاقه في سفرته الآية الكريمة (إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد)

- لا يترك المقص مفتوحاً فيسبب خناقه ومشاكل في البيت .

- إذا شب حوار بين اثنين أو جماعتين وحك شخص أظافره ببعضها البعض كان كأنه يشعل النار في هذا الحوار ويؤجج الخلاف بين المتحاورين .

- هذا غيظ من فيض من (دفتر النسوان الشامي) هذا الدفتر ، وما أكبره وما أوسعاه . وكما سبق أن قلت ؛ فإن هذا الدفتر في طريقه إلى الزوال ، ولم يعد لدى معظم الناس أكثر من ذكرى للتفكه والتسلية .

* * *

الأكلات الشامية

اسم الأكلة	المكونات
أباوات	مصران الخاروف محشي رز ولحمة مفرومة وصنوبر وحمص وبهارات .
أبو بسطي	يقطين - لحمة - رب البندورة - بصل .
أبو شلهوب	برغل خشن - كوسا - كزبرة - ثوم - لحمة مفرومة .
إمام بيلضي	باذنجان مقلم - بصل - ثوم - فليفلة وبندورة .
بابا غنوج	بندورة - فليفلة - باذنجان - دبس رمان - طحينة .
الباسماشكات	لحمة مفرومة - رز - دهنة - عصفر - بهارات - كمون - لحمة شرحات .
باطرش	باذنجان - لحمة مفرومة - رب البندورة - لبن - طحينة - شوندر - ليمون - ملح .
جظ مظ	لحمة - بصل - بندورة - بيض - بهارات .
حرا بأصبغه	عدس - عججن - كزبرة - ثوم - بصل مقلي - خبز مقلي .
داوود باشا	لحمة مفرومة ناعمة طابات صغيرة - رب البندورة - بصل - حمص .
ستي ازبئي	عدس - معكرونة - لحمة مفرومة - كزبرة - ثوم .
شاكريه	لحمة مسلوقة - لبن مشوي - بصل .
شلباطو	كرنب مقطع - رز - لحمة مفرومة .
شيش برك	عججن محشي لحمة مفرومة - لبن مطبوخ مع نشاء .
طاطر برك	معكرونة حلزون تسلق ويوضع اللبن - ثوم وعلى الوجه لحمة مفرومة - صنوبر فليفلة حمرا .

اسم الأكلة	المكونات
فتة لحمة بخل	كلاوي - لحمة شقف - بصل - خل - خبز - لبن .
فتة مقادم	مقادم مسلوقة - خبز - لبن مع طحينة - بقدونس .
فتة مكدوس	بأذنجان - لحمة مفرومة - رب البندورة - بصل .
فول مدمس	بندورة - بصل - بقدونس - زيت زيتون - نعنغ - حمض الليمون - ثوم . والبعض يضع لبن مع طحينة .
فول مقلّى	فول أخضر - كزبرة - ثوم - زيت .
كباب هندي	بندورة - بصل - لحمة ناعمة .
كبة بالصينية	لحمة كبة - برغل - بصل - لحمة مفرومة وطبقة من تحت والحشوة وطبقة فوقها .
كبة حميص	لحمة كبة - برغل - أقراص محشية لحمة - صنوبر - ثم تقلى .
كبة حيلة	لحمة وبطاطا مسلوقة مع برغل .
كبة لبنية	برغل - لحمة كبة - بهارات - لبن مشوي .
كبة مبرومة	لحمة كبة - برغل - بهارات - لحمة مفرومة - صنوبر - تُلف بواسطة قطعة قماش .
كبة مشمشية	برغل - لحمة كبة - لبن مشوي - لحمة موزات - فول أخضر .
كبة مقلية	لحمة كبة - برغل أقراص أكبر من الكبة الحميص محشية لحمة مفرومة وجوز وبصل وصنوبر ثم تقلى .
كواج	بطاطا - بندورة - كوسا - بصل - لحمة قطع .
مجردة	برغل - عدس - لحمة مفرومة - بصل .
المشمشية	برغل - عدس - لبن مشوي - فول - كزبرة .
مغربية	دجاج أو لحمة - برغل .
مفركة بطاطا	بطاطا قطع - لحمة - بصل - قليل من الماء .
مفركة كوسا	لحمة - بصل مقلّى - كوسا مقطعة .

اسم الأكلة	المكونات
مقلوبة	رز - باذنجان - لحمة مفرومة .
منزلة أحمر	بندورة - لحمة - كزبرة - ثوم .
منزلة أسود	باذنجان مقلي - محشي لحمة وبصل يوضع في إناء مع الماء .
منزلة كوسا	كوسا قطع مقلية - لحمة مفرومة مقلية مع كزبرة و ثوم .
منسفة	باذنجان - لحمة مفرومة - بصل ناعم (مفركة باذنجان) .
يلنجي	ورق عنب أو باذنجان أو ورق سلق - رز - بندورة - رب البندورة بصل - نعنع - ثوم - حمض الليمون .
يهودي مسافر	كرنب - باذنجان - لحمة مفرومة .
العروسة	السندويشة : مؤلفة من الزعتر والزيت أو الجبنة أو اللبنة أو الزبدة مع المرملاذ .
التسقية	حمص مسلوق ومنها تسقية بزيت أو بسمنة أو بالبودة وخبز مقطّع وماء الحمص .
طباخ روجو	باذنجان - كوسا - بندورة - لحمة شقف - بصل - نعنع - ثوم .
كبة نية	برغل ناعم - لحمة هبرة - وبهارات .
ديابة	برغل - لحمة هبرة - وبهارات .
برغل بفول	برغل - فول - لحمة مفرومة - كزبرة - ثوم .
المحاشي	كوسا - باذنجان - فليفلة : رز لحمة مفرومة - بهارات .
رز بحليب	رز - سكر - حليب - نشاء .
ألماسية	حليب - سكر - نشاء .
الشيخ محشي	كوسا - لحمة مفرومة - لبن مطبوخ .
تماري وكعك وحلي سنونك ، الكراويا ، الناعم .	

* * *

الملابس الدمشقية

كانت الملابس في دمشق أنواعاً كثيرة ولها دلالات . وكان الرجل الشعبي يرتدي قنبازاً من الحرير الأبيض المسمى (روز) وعلى وسطه زنار حريري أو قطني ، ومن فوقه سترة أو سترة طويلة تسمى (ساكو) ، وتحت القنباز سروال أبيض طويل يصل إلى الكعب ، وفي الرجل حذاء من نوع الصباط . أما في الشتاء فيكون القنباز من الجوخ الدافئ وفوقه الساكو من النوع نفسه . وكانت فوق ذلك عباءة من الصوف يندس تحتها حين يجلس في الدار متدفناً بها ، أو حين يكون في خارج الدار . وكانت توجد أيضاً (فروة) وهي معطف مبطن من الداخل بفراء الخروف الناعم الممشط مما يصنعه أبناء حرفة الفراء المعروفون (بالفرايين) وكان الرجل الكبير في السن يعتمر بعمامة - مزركشه - مسماة باللغة الأغباني أو حسب الاصطلاح الدارج (اللام ألف) ، ولعل ذلك لأنها تلف على شكل الحرف المذكور فوق الطربوش الأحمر . ولكن العمامات أنواع . فأهل العلم يلفونها من شاش أبيض لفة بيضاء فوق الطربوش .

وأهل التصوف والتقى يلفونها على طاقية بلا طربوش ، وإن كانوا من المنسوبين إلى البيت النبوي فالعمامة خضراء علامة الأشراف .

أما الشبان من غير أهل الحرف وأهل التدين ، وكذلك الرجال الآخرون عموماً فيلبسون الزي التقليدي الشائع في تلك الأيام وهو الطربوش . وكان من أدب الطرابيش أن تكون طويلة وغامقة ، وقد كان من العيب أن يكون الطربوش قصيراً أو أحمر فاقعاً ، ومن يجترئ على جعله كذلك كان الوسط الشعبي يزدري به وقد يسميه (بوش) والعياذ بالله .

وأنواع الأحذية كانت الصرماية واحدة من أنواع الأحذية وتقاربها أنواع أخرى هي المشاية والتاسونة والبابوجة والمست والشحاطة والخف والكندره والجزمة والكلاش والشاروخ .

وهناك زي شعبي آخر للشباب هو الشروال الأسود وقد يكون مطرزاً من ناحيتي الجيبين ، وله بين الساقين (سرج) أي قطعة قماش كبيرة تنثني عند الارتداء ، وهي فضفاضة تنزل إلى ما يقرب من (لبة) الساق . وفوق الشروال الذي يربط بدكة ، أو ما كان يسمى (تكة) زنار عجمي إذا كان الشاب موسراً ، وعلى الجذع ميثان وهو شبه قميص بلا أكمام من نوع قماش الشروال وله أكثر من عشرين زراً متقاربة من الرقبة إلى البطن وكلها من القماش وليس له ياقة . .

وفوق الميثان سترة من النوع نفسه وأكمامها عريضة ولها أردان . أي طرف الكم من آخره مفتوح ومزركش ليترك حرية لحركة اليد ، ويسمى (كطشية) والكاف هنا تلفظ كالجيم المصرية . أما لباس الرأس فهو طاقية أو حطة وعقال .

ويلبس آخرون من الرجال ولا سيما الموظفون اللباس الذي يسمى (محكمجي) أي اللباس الأفرنجي من بنطلون وجاكيت وربطة عنق وصدريه وطوبوش وفي الرجل صباط . وراجت في فترة ما دليل الأناقة عادة حمل عصا صقيلة معكوفة اليد من الأعلى يسمونها (البسطون) من أصل الكلمة الفرنجي ، وإذا (تبغدد) حاملها قذف بها بحركات موزونة إلى الإمام فالأعلى ثم إلى أسفل حتى تدق بالأرض مع كل خطوة يمشيها .

ملابس النساء

أما ملابس النساء فقد كانت النساء الشعبيات يلبس الإزار الأبيض ثم بعد مدة صارت النساء يلبس الملاء (الزم السوداء) وهي تغطي الجسد كله فلا يبين منه لا ملمح ولا شكل ولا تعرف العجوز من الصبية (إلا من تناقل في المشية) ، ولا تظهر اليد فكل شيء في المرأة عند هذا الوسط يعتبر عورة حتى صوتها . أما في الوسط

الأقل تشدداً فبدأت الملاء السوداء ذات القطعتين والمنديل المنفصل فأدناهما تنورة (يسميها الدمشقيون خراطة) - وتتألف الملاية من تنورة مزمومة على الخصر أو بدكة . وكانت النسوة يربطهن على خصورهن تحت الثياب (جيبة) من القماش ، يخبئن فيها محافظهن خاصة ، لأن الملاية لا جيوب لها - أو معطف وأعلاهما هي المسحاة (برالينه) أي ما تلبسه الحاجات في الحج ، ثم على الوجه كان المنديل طاقين ثم أصبح في وقت متأخر طاقاً واحداً لترى المرأة سبيلها ، ثم ظهر ما يسمى على الطالع أي على الموضة ، فلبست النساء معطفاً وفوقه منديل فقط يلف به الرأس اسمه جورجيت ، ثم بدأت تظهر الأيدي ، ثم بدأت تقصر المعاطف وهكذا بالتدريج إلى أن صار بعض الناس يقولون الآن : إننا لا نعرف هل البنت التي تمشي في الطريق عروس تزف هذه اللحظة إلى عريسها أم لا .

ولكن هذه العملية استغرقت خمسين سنة ، والآن نجد شوارع المدينة أكبر معرض للأزياء القديمة والحديثة على السواء ، ولم يعد أحد يستغرب ، وذلك لرسوخ العادات في بعض الأوساط ، ولسرعة التبدل المذهلة في أوساط أخرى .

ثياب الصغار الجاهزة

والصغار في الوسط الذي يرتدي الملابس الفرنسية كانوا يلبسون ثياباً حاضرة معدة سلفاً مؤلفة من بنطلون قصير وفوقه جاكيت . وفي الفترة التي تمتد من (١٩٢٨) فما بعد أحببت الحكومة أن تعمل زياً موحداً للتلاميذ ، وإن تشجع في الوقت نفسه الصناعة النسيجية الوطنية الناشئة ، فأمرت بزي موحد من الجوخ الكحلي وهو مزرر وشبه عسكري من ناحية الصدر إلا أن له ياقة صغيرة واحدة إلى الجانب الأيسر من قبل التأنق فقط .

وكانت الثياب نوعين . نوع للحفلات وأيام الجمع والمناسبات وهو الذي يحفظونه وقد تستمر (بدلة عرس) الرجل طول حياته ، ونوع آخر للأيام العادية .

وعلى ذلك فالناس هنا ماعدا الميسورين لم يكونوا ينطقمون كل يوم كما هو الشأن الآن .

وكذلك السيدات ، فإن ثياب العرس (والثوب الممتاز المقصّب المشغول يسمى تفصيلة) تحفظ للمناسبات ، وفي الأيام العادية تلبس المرأة الروب المعروف أيضاً باسم (سرّكس) وربما كانت هذه الكلمة أصلها شرّكس للدلالة على نوع الثياب .

ثياب العيد

كان أهلنا يشترون لنا بدلة كاملة في السنة تشتري على العيد . وكنا ننتظره بلهفة ونأخذ البدلة والصباط الجديد ، وغالباً ما يكون من نوع نصف الجزمة المسمى (بوتين) ، والأطفال كانوا يسمونه تحريفاً (بيتون) على وزن زيتون ، وكنا نلبس هذه الأحذية في المدرسة والمشاور الرسمية ، أما فيما عدا ذلك فنلبس القبقاب وهو یرن تماماً كما یرن قبقاب غوار في مسلسلاته ! فإذا اشترى أبائنا البدلة والصباط أو البيتون أخذناه معنا إلى فراشنا ليلة العيد لينام معنا ونستيقظ على فرح الثياب الجديدة . ومثل ذلك للبنات الصغيرات فأروابهن تشبه أرواب اللعب لأنّ بما عليها من شرائط ملونة وكشاكش ، وكذلك الروب من العيد إلى العيد .

الميسورون أكثر بدؤوا يرفدون ثوب العيد بآخر أثناء السنة ، ولكن ما ذكرته كان الحالة الشاملة ، ولذلك كان العيد له طنة ورنّة وبهجة في نفوس الأطفال لا يعادلها شيء .

وفي انتظار العيد نلبس أي شيء من قميص وبنطلون مصنوع في البيت أو حاضر من السوق . وكان الثوب إذا تمزق أخذناه إلى الرّتا (وهو الرّفاء) إن كانت له قيمة ، أو جرت خياطته كيفما اتفق ، أما الصباط فإذا ذاب الكعب وضعوا له (ميالة) ، وإذا ذابت المقدمه وضعوا (بوزة) ، وإذا ذاب كله وضعوا له نصف نعل وكعباً جديداً فيحيا الصباط ثلاثة أضعاف حياته . . وكذلك الجوارب فترقيع الجوارب معروف فتخاط أولاً لتغلق (عيونها) إذا انفتحت هنا وهناك ، ثم ترقع من

ناحية الكعب أو (تسفل) بوضع قطعة من جورب آخر سميك على قدر القدم .
وليس من شيء يكب أبداً ، فنوب الأخ الكبير يدور لأخيه الذي يليه وهكذا .
ويذهب لابن العم الأصغر أو ابن الخال والخالة حتى لا يبقى منه إلا الخيطان ،
فيؤخذ عندئذ مع سواه من الأقمشة المهترئة لتجعل حشايا وفرشاً للفقراء .

وهناك أيضاً آلة اسمها (المنذفة) تقوم بتحويل القماش المستهلك من جديد إلى
صوف أو قطن ، وتصنع منه أنواع من البسط . وكل هذا كان مألوفاً في الحياة .
إن كان من يقرأ هذا الكتاب دمشقياً من قدامها فلن أزيد في حديث الألبسة
الدمشقية وضعاً ومجتمعاً وتقاليد وعادات .

* * *

نزار قباني

أنا الدمشقي لو شرحتم جسدي
لسال منه عناقيد وتفاح
مآذن الشام تبكي إذ تعانقني
وللمآذن كالأشجار أرواح
للياسمين حقوق في منازلنا
وقطة البيت تغفو حيث ترتاح
طاحونة البن جزء من طفولتنا
فكيف ننسى وعطر الهال فواح
وأخيراً :

سنرحل جميعاً ، كما رحلت من قبلنا قوافل كتّاب وشخصيات بأسرها دون
استثناء .. إن عاجلاً أو أجلاً .

سنرحل ، وتبقى الذكريات ، وتبقى الغالية دمشق ...
إيه يا دمشق .

يا جدة المدن ، يا سحر الشرق ..

فيك ولدنا ، وترعرعنا ، وتعلمنا حب الوطن ، فيك نمت أحلامنا وأزهرت
آمالنا ، وفيك دغدغ الحب شغاف قلوبنا في سنّ الشَّباب ، وأحرقت ذكريات
الماضي صميم أرواحنا ، عندما تبدد الماضي وغابت عن مآقينا وجوه عزيزة ،
واختفت ضحكات وتبدلت أيام وسنوات .

سنترك يوماً ، ولكن .. لا تنسنا أيتها الحبيبة الخالدة دمشق ؛ لتبقى أسماؤنا
مسجلة على ذُرَى قاسيونك وبين أزقة حاراتك الحانية الودیعة .

ستبقين يا دمشق ، على أديم الدهر ، سحراً وألقاً وتاريخاً وأصاله لا تمحوها
القرون .

وستأتي أجيال جديدة ، وتحافظ على تراث الأجداد ، وتتذكر على الدوام أن
دمشق باقية ، وأرواح أبنائها ، معلقة بها إلى الأزل .

* * *

خاتمة

الحمد لله نعمده ونستعينه ونتوب إليه ونستغفره . . .

اللهم اجعل عملي هذا خالصاً لك ، اللهم إني أسألك أن تنفع به وأن تنييني عليه .

وبعد ،

فأودُّ أن أبين للقارئ الكريم ، بكل أمانة وإخلاص ، أنه ليس لي فضل في تأليف هذا الكتاب ، إلا فضل الجمع لما يحويه ، وأن الفضل كل الفضل يعود لأصحاب الكتب التي رجعت إليها واستقيت منها مادة كتابي هذا . .

رحمهم الله وأثابهم على ما فعلوا ، ورحم كلَّ من كتب عن دمشق ، وعزَّ الشُّرُق أوله دمشق .

وأسأله تعالى التوفيق والسداد ، وأن يتقبل منا صالح أعمالنا ، إنه سميع الدعاء ، والحمد لله رب العالمين . .

قام بجمع هذه الكراسة وترتيبها لبيان مكانة مدينة دمشق ، أدامها الله علينا .

مصادر الكتاب ومراجعته

- ١- أبواب دمشق ، محاضرة الأستاذ عبد القادر المغربي .
- ٢- الآثار الإسلامية في مدينة دمشق ، قاسم طوير .
- ٣- الآثار المسيحية في دمشق ، جوزيف زيتون .
- ٤- أحداث التاريخ الإسلامي ، عبد السلام الترماني .
- ٥- أسواق دمشق القديمة ، ومشيداتها التاريخية ، د . قتيبة الشهابي .
- ٦- البحث عن دمشق ، شوقي بغدادي .
- ٧- بيمارستان نور الدين زنكي ، علي القيم .
- ٨- البيوت الدمشقية القديمة ، فرج العش .
- ٩- تاريخ المزة وآثارها .
- ١٠- تاريخ دمشق ، ابن عساكر .
- ١١- الجامع الأموي في دمشق ، الشيخ علي الطنطاوي .
- ١٢- حقائق الإنعام في فضل الشام ، عبد الرحمن بن إبراهيم بن عبد الرزاق الدمشقي .
- ١٣- دراسات حول مجتمع دمشق في القرن الماضي .
- ١٤- دمشق بين الماضي والحاضر ، د . ساطع محلي .
- ١٥- دمشق تاريخ وصور ، الدكتور قتيبة الشهابي - مآذن دمشق - أبواب دمشق .
- ١٦- دمشق صور من جمالها ، للشيخ علي الطنطاوي .
- ١٧- دمشق عبر العصور ، الأستاذ هاني المبارك .

- ١٨- دمشق في عهد المماليك ، نقولا زيادة .
- ١٩- دمشق مدينة السحر والشعر ، محمد كرد علي .
- ٢٠- دمشق ونور الدين الشهيد ، نصر الدين البهرة .
- ٢١- ديوان ابن عنين .
- ٢٢- رحلة برتراندون ديلا بروكير إلى الشرق ، ترجمة محمود زايد .
- ٢٣- رواد الشرق الأوسط في العصور الوسطى ، نقولا زيادة .
- ٢٤- الروضة البهية في فضائل دمشق المحمية ، لمحمد عز الدين بن حسين عربي كاتبي .
- ٢٥- الروضة الغناء في دمشق الفيحاء ، نعمان قساطلي .
- ٢٦- الريف السوري ، وصفي زكريا .
- ٢٧- زغاريد وأمثال شامية ، محيي الدين قيروط .
- ٢٨- السبل في دمشق ، مطر خشان .
- ٢٩- صالحة دمشق ، د . ميخائيل مانيكة .
- ٣٠- طرائف وصور من تاريخ دمشق ، هاني الخيّر .
- ٣١- عظماء دفنوا في دمشق ، مصطفى المقداد .
- ٣٢- العمارة العربية الإسلامية ، خصائصها وآثارها في سورية ، د . عبد القادر ربحاوي .
- ٣٣- غوطة دمشق ، محمد كرد علي .
- ٣٤- غوطة دمشق ، محمد وصفي زكريا .
- ٣٥- فضائل الشام ، الحافظ محمد بن أحمد بن عبد الهادي ، تحقيق مجدي فتحي السيد .
- ٣٦- فضائل الشام ، للحافظ أبي سعد السمعاني .

- ٣٧- فضائل الشام ، للحافظ محمد بن أحمد بن عبد الهادي ، راجعه عبد الرحيم قمحية .
- ٣٨- فضائل الشام ودمشق ، لأبي الحسن علي بن إبراهيم بن عبد الرزاق الدمشقي .
- ٣٩- الفن الإسلامي ، جورج مارسيه .
- ٤٠- الفن الإسلامي ، مجلة الحوليات الأثرية ، عفيف بهنسي .
- ٤١- في رحاب دمشق ، محمد أحمد دهمان .
- ٤٢- قالوا في دمشق ، محمد كرد علي المقدسي .
- ٤٣- قصر العظم ، البديري الحلاق .
- ٤٤- كتاب الإصابة في تمييز الصحابة ، لابن حجر العسقلاني .
- ٤٥- كتاب زيارات الشام المسمى : الإشارات إلى أماكن الزيارات ، للعالم عثمان بن أحمد بن محمد بن رجب بن سويح بن سعيد السويدي الشهير بابن الحوراني .
- ٤٦- لسان العرب ، لابن منظور .
- ٤٧- مدينة دمشق تراثها ومعالمها التاريخية ، عبد القادر الريحاوي .
- ٤٨- مرآة دمشق ، تاريخ دمشق وأهلها ، عبد العزيز العظمة .
- ٤٩- تاريخ المزة ، محمد عمر حمادة .
- ٥٠- معجم دمشق التاريخي ، الدكتور قتيبة الشهابي .
- ٥١- منتخبات التواريخ لدمشق ، محمد أديب آل تقي الدين الحصني .
- ٥٢- نزهة الأنام في محاسن الشام ، أبي البقاء عبد الله البديري .
- ٥٣- الوحدة الحضارية في بلاد الشام ، جان كوفان .
- ٥٤- وصف دمشق من مذكرات الرحالة الفارس دارفيو . ترجمة أحمد إيش .
- ٥٥- وصف دمشق ، لتركيا القزويني .

- ٥٦- وفيات الأعيان ، لابن خلكان .
- ٥٧- الجامع الأموي الكبير ، لجنة إصلاح وتطوير الجامع الأموي الكبير ، محمد أمين أبو الشامات .
- ٥٨- دمشق تراثها ومعالمها التاريخية ، الدكتور عبد القادر ربحاوي .
- ٥٩- روائع التراث في دمشق ، الدكتور عبد القادر ربحاوي .
- ٦٠- الآثار التاريخية في دمشق ، جان سوفاجيه ، تعريب أكرم حسن العلي .
- ٦١- الآثار الإسلامية في مدينة دمشق ، ولتسينجر ، تعريب قاسم طوير .
- ٦٢- الحمامات الدمشقية : منير الكيال دمشق (١٩٨٦ م) .
- ٦٣- مشاهد وأحداث دمشقية في القرن التاسع عشر ، جمع محمد سعيد الأسطواني .
- ٦٤- دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ليندا شيلشر .
- ٦٥- تاريخ دمشق (١١٣٧ / ١٧٢٤ م) دراسة اجتماعية اقتصادية عمرانية من خلال وثائق المحاكم الشرعية ، إشراف الدكتور محمود علي عامر ، إعداد محمد غسان عبيد .
- ٦٦- عادات وتقاليد لحارات الدمشقية القديمة : إلفة الإدلبي .
- ٦٧- ٦٨- أخبار دمشق في القرن (١٨) ، بديري قاسمي .
- ٦٨- حوادث دمشق اليومية : بديري قاسمي .
- ٦٩- الروضة الغناء في دمشق الفيحاء ، قساطلي .
- ٧٠- دمشق في مطلع القرن العشرين ، أحمد حلمي العلاف .
- ٧١- في رحاب دمشق ، محمد أحمد دهمان .
- ٧٢- العرب وراء اللهب ، عبد الغني الأسطواني .
- ٧٣- صفحة من الأيام الحمراء ، محمد سعيد العاص .
- ٧٤- دمشق تحت القنابل ، حسان هندي .

- ٧٥- إضراب دمشق (١٩٣٦ م) ، فريد شوى .
- ٧٦- حديث دمشقي ، نجاة قصاب حسن .
- ٧٧- روائع من العمارة العربية والإسلامية ، الحمصي .
- ٧٨- خطط دمشق ، أكرم العلي .
- ٧٩- ولتسينجر - واتسينجر ، الآثار الإسلامية في مدينة دمشق (١٩٢٤ م) ،
تعريب قام طوير .
- ٨٠- مخطط دمشق القديمة - مخطط هيئة - إدارة دمشق القديمة ، المنجد .
- ٨١- التقاليد والعادات الدمشقية خلال عهود السلجوقيين - الزنكيين -
الأيوبيين ، د . فراس حياوي السامرائي .
- ٨٢- مشاهد وأحداث دمشقية في منتصف القرن التاسع عشر (١٢٥٦-١٢٧٧هـ /
١٨٤٠ / ١٨٦١ م) ، جمع الشيخ محمد سعيد الأسطواني ، تحقيق الدكتور أسعد
الأسطواني .
- ٨٣- القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحية ، لابن طولون .
- ٨٤- منتخبات من تاريخ دمشق ، للحصني .
- ٨٥- الحوليات الأثرية العربية السورية .
- ٨٦- معالم وأعلام في بلاد العرب ، أحمد قدامة .
- ٨٧- قبور العظماء في دمشق ، د. عبد القادر الريحاوي .
- ٨٨- وثائق مديرية أوقاف دمشق .
- ٨٩- منادمة الأطلال ومسامرة الخيال ، الشيخ عبد القادر بدران .
- ٩٠- دمشق الشام أقدم مدينة في العالم ، أيوب سعدية .

* * *

المحتوى

٥	تقديم الأستاذ هاني المبارك
٩	مقدمة
١٧	تمهيد - دمشق تاريخ وحضارة
٢٩	تحية الشام
٣٠	فضل مدينة دمشق وبلاد الشام
٣٥	الأبدال
٣٩	قالوا في دمشق
٣٩	آيات قرآنية ذكرت فيها دمشق
٤٣	مكانة بلاد الشام في الحديث النبوي الشريف
٥٠	من أقوال الصحابة والتابعين في دمشق
٥٤	اقتباسات من أقوال القدماء والمحدثين في دمشق
٦٢	مواضع في دمشق يجاب فيها الدعاء
٦٦	من أقوال الشعراء في دمشق
٩٣	تسميات دمشق
٩٣	دمشق
٩٥	خلق
٩٧	جيرون
١٠١	الفيحاء
١٠١	الشام
١٠٣	وصف دمشق عند القدماء والمحدثين

١١٠	أهالي دمشق
١١٣	ذكر بيوتات وعائلات دمشق القديمة
١١٨	عدد سكان دمشق وتوزعهم على أحيائها
١٢٠	الخصوبة السكانية
١٢٠	الهجرة الوافدة
١٢١	الهجرة الخارجية
١٢١	الأحياء الشعبية
١٢٢	الكثافة السكانية
١٢٤	إطلالة على تاريخ (دمشق)
١٢٤	موجز لتاريخ دمشق
١٢٦	نتائج البحوث الآثارية تؤكد قدم ظهور دمشق
١٢٦	دمشق البداية والامتداد
١٣٤	جنة آدم وحواء
١٤١	دمشق عاصمة الآراميين
١٤٥	تحت حكم اليونان
١٤٦	العهد اليوناني - المكدوني
١٤٩	العهد الروماني
١٥١	فتح دمشق في العصر الإسلامي
١٥٥	مدينة دمشق منذ الفتح الإسلامي حتى نهاية العهد الأموي
١٦١	دمشق في عهد العباسيين ومن تلاهم
١٦٢	دمشق في العهد الفاطمي
١٦٣	السلاجقة وأتابكتهم
١٦٤	دمشق في عهد السلاجقة الأتابكة
١٦٥	الصلبيون والأيوبيون
١٦٨	دمشق في العهد الأيوبي

١٦٩	الممالك
١٧٠	دمشق في عهد الممالك
١٧٣	العهد العثماني
١٧٤	دمشق في العهد العثماني
١٨٠	صفحات من تاريخ دمشق
١٨٠	١- دمشق في القرن الرابع عشر
١٨٠	٢- دمشق في القرن الخامس عشر
١٨٢	٣- دمشق في القرن السادس عشر
١٨٢	٤- دمشق في القرن السابع عشر
١٨٤	٥- دمشق في القرن العشرين
١٨٥	دمشق ونور الدين الشهيد
١٨٩	بیمارستان نور الدين زنكي
١٩١	طبيعة دمشق ومناخها ومتنزهاتها
١٩٨	أنهارها
٢٠٥	متنزهات دمشق
٢٠٥	متنزه الطويلة
٢٠٦	متنزه ساحة بوابة الميدان الفوقاني
٢٠٧	متنزه ساحة السخانة
٢٠٧	متنزه الصوفانية
٢٠٧	متنزه باب شرقي
٢٠٧	متنزه الزينية وبرج الروس
٢٠٨	متنزه مرجة الدحداح
٢٠٨	متنزه جنائن المزابل
٢٠٩	متنزه باب السلام
٢٠٩	متنزه ماء عين كرش

٢٠٩	 متنزہ جبل قاسیون
٢٠٩	 متنزہ مصطفیٰ غلیوم العاهل الالماني
٢١٠	 متنزہ جنائن الآس وحب الآس
٢١٠	 المتنزہات الخاصة بدمشق
٢١٠	 متنزہ المرج الأخضر
٢١٣	 متنزہ دمر
٢١٣	 متنزہ الربوة
٢٤٢	 ورده دمشق
٢٤٩	 جغرافية دمشق
٢٤٩	 الموقع
٢٥٦	 التاريخ العمراني لدمشق القديمة
٢٥٨	 الاتساع العمراني
٢٦٠	 مدينة دمشق القديمة
٢٦٥	 جبل قاسیون
٢٨٠	 الصالحية
٢٨٥	 عهد الزنکین (١١٥٤م/٥٤٩هـ) (١١٧٦م/٥٧١هـ)
٢٨٦	 العهد الأيوبي (١١٧٦م/٥٧١هـ) - (١٢٦٠م/٦٥٨هـ)
٢٨٨	 عهد المماليك (١٢٦٠م/٦٥٨هـ) - (١٥١٦م/٩٢٢هـ)
٢٨٨	 عهد العثمانيين بدءاً من (٩٢٢هـ - ١٥١٦م)
٢٩٠	 المهاجرين
٢٩٥	 قبتا السيار والنصر
٢٩٦	 الأكراد
٢٩٧	 مغائر قاسیون
٢٩٧	 مغارة الجوعية
٢٩٧	 مغارة الأربعين

٢٩٩	جبل الربوة
٢٩٩	المزة
٢٩٩	سكانها
٣٠٠	موقعها
٣٠٠	منتجات المزة
٣٠٠	المزة في التاريخ
٣٠٠	آثار المزة
٣٠١	أعلام المزة
٣٠٣	المزة الحديثة
٣٠٤	ساحات دمشق
٣١٥	سور مدينة دمشق تاريخ وحضارة
٣١٧	قلعة دمشق
٣٢٠	تاريخ القلعة
٣٢٢	١ - القلعة السلجوقية
٣٢٣	٢ - القلعة الأيوبية
٣٢٥	مخطط القلعة
٣٢٧	دورها السياسي والاجتماعي والعسكري
٣٣٠	بعث القلعة
٣٣١	تجديد الواجهة الغربية
٣٣١	البرج الغربي الأوسط
٣٣٢	مستقبل القلعة
٣٣٤	أبواب دمشق
٣٣٧	الباب الشرقي
٣٣٨	باب الجابية
٣٣٩	باب كيسان

٣٣٩	باب الجنيق (باب السلامة)
٣٤٠	باب الفراديس (باب العمارة)
٣٤٠	باب الصغير
٣٤٢	آ- باب الفرج
٣٤٤	ب- باب النصر
٣٤٥	باب الجابية، وذكرى يوم من حضارتنا العربية
٣٤٨	باب توما
٣٥١	أحاديث ونصوص ورد فيها ذكر بعض أبواب دمشق
٣٥٤	الأثمان
٣٥٥	١- ثمن القنوات
٣٥٨	٢- ثمن سوق ساروجا
٣٦١	٣- ثمن العمارة
٣٦٣	٤- ثمن القيمرية
٣٦٦	٥- ثمن الشاغور
٣٦٧	٦- ثمن الميدان التحتاني
٣٦٨	٧- ثمن الميداني الفوقاني
٣٦٨	٨- ثمن الصالحية
٣٧٦	الحارات والدروب والأزقة
٣٨٠	السبل في دمشق
٣٨٣	أولاً- العهد الأيوبي
٣٨٣	سبيل زقاق الموصللي
٣٨٣	ثانياً العهد المملوكي
٣٨٣	سبيل البريدي
٣٨٤	ثالثاً العهد العثماني
٣٨٤	سبيل أبي الشامات

٣٨٥	سبيل جامع العريشة (جامع السادات الصغير)
٣٨٥	سبيل جامع الشيخ يعقوب
٣٨٧	دواليب دمشق
٣٨٨	أهم المعالم الأثرية في دمشق
٣٨٩	قصر العظم
٣٩٦	خان أسعد باشا
٣٩٦	موقع الخان
٣٩٧	تاريخ بنائه
٣٩٩	مزايا الخان
٣٩٩	مكتب عنبر
٤٠٣	حمام النوفرة
٤٠٥	أقسامه
٤٠٥	زقاق الحمراءوي
٤٠٧	حي سوق ساروجا
٤٠٩	قائمة المباني الأثرية
٤٠٩	النقشبندى
٤١١	ناعورة الشيخ محيي الدين
٤١٢	صانع الناعورة
٤١٤	البيمارستانات
٤١٤	ما هي البيمارستانات؟
٤١٤	البيمارستان النوري
٤١٦	العلاج بالموسيقى
٤١٨	زخارف المبنى
٤١٩	البيمارستان القيمري
٤٢١	المساجد ودور القرآن والحديث في دمشق

٤٢١	الجوامع والمساجد القديمة في دمشق
٤٢٩	دور القرآن الكريم
٤٣٠	دور الحديث الشريف
٤٧١	الجامع الأموي
٤٧٣	جامع بني أمية الكبير، أقدم حضارة إسلامية
٤٧٥	بناء الجامع
٤٧٧	كلفة بناء الأموي
٤٧٩	وصف المسجد
٤٨٢	بئر الجامع الأموي
٤٨٤	فسيفساء الجامع الأموي في دمشق
٤٨٧	الفسيفساء يعود إلى عصره الذهبي
٤٨٩	متحف الجامع الأموي
٤٩١	الأموي عبر التاريخ
٤٩١	١- معبد حدد الآرامي
٤٩١	٢- معبد جوبيتر الدمشقي
٤٩٢	٣- كنيسة يوحنا المعمدان
٤٩٤	حوادث في تاريخ الأموي
٤٩٧	دور الأموي في حياة دمشق
٤٩٧	من محاسن الأموي وسماته
٥٠١	أقوال في الأموي
٥١٥	شهر رمضان في دمشق
٥٢٢	الخوانق والربط والزوايا
٥٢٣	أولاً- الخوانق
٥٢٤	ثانياً- الزوايا
٥٢٦	ثالثاً- المدارس

٥٢٦	 رابعاً - الربط
٥٢٦	 خامساً - الزوايا
٥٢٨	 المدارس الأثرية القديمة في دمشق
٥٣٠	 مدارس الشافعية
٥٣٢	 مدارس الحنفية
٥٣٣	 مدارس الحنابلة
٥٣٤	 مدارس المالكية
٥٣٤	 مدارس الطب
٥٣٤	 المدارس العثمانية
٥٤٩	 مكاتب دمشق
٥٥٢	 أهم الآثار المسيحية في دمشق
٥٥٣	 أولاً - كاتدرائية دمشق
٥٥٣	 ثانياً - الكاتدرائية المريمية
٥٥٤	 ثالثاً - الدار البطريركية الأنطاكية الأرثوذكسية
٥٥٥	 رابعاً - بيت المقدس حنانيا الرسول
٥٥٥	 خامساً - كنيسة باب كيسان
٥٥٥	 سادساً - كاتدرائية الروم الكاثوليك في حارة الزيتون
٥٥٦	 سابعاً - كنيسة الرسول حنانيا
٥٥٦	 ثامناً - كنيسة القديس يوحنا الدمشقي
٥٥٦	 تاسعاً - دير ماربولس في تلة كوكب
٥٥٧	 عاشراً - مقام القديس جاورجيوس في دوار المطار
٥٦٣	 الأسواق القديمة في مدينة دمشق
٥٦٩	 سوق الحميدية
٥٦٩	 بناء السوق
٥٧٠	 تغطية السوق

٥٧١	وصف السوق
٥٧١	تسميات السوق
٥٧١	أبعاد السوق
٥٧١	المحن التي مرت بالسوق
٥٧٢	هدم المدخل الغربي للسوق
٥٧٢	تجديد أسواق الحميدية ومدحت باشا والخوجة وعلي باشا
٥٧٨	سوق السروجية
٥٧٩	سوق الزرابلية
٥٨٠	سوق التبن
٥٨١	ساحة سوق الخيل
٥٨٢	سوق علي باشا
٥٨٢	سوق العتيق
٥٨٣	سوق المحايرية
٥٨٤	سوق الهال
٥٨٤	سوق الحدادين
٥٨٥	سوق النحاسيين
٥٨٧	سوق المناخلية
٥٨٨	سوق البزورية
٥٨٩	سوق السنانية
٥٩٠	سوق الأروام
٥٩٢	سوق العصريونية
٥٩٣	مبنى البنك الإمبراطوري العثماني
٥٩٣	سوق البورص
٥٩٤	سوق باب البريد
٥٩٥	سوق المسكية

٥٩٧	سوق الحرير
٥٩٨	سوق القلبقجة
٥٩٩	سوق الخياطين
٦٠٠	سوق القوافين
٦٠٠	سوق القباقيب
٦٠١	سوق السلاح
٦٠٢	سوق الصقالين
٦٠٣	سوق الباب الشرقي
٦٠٤	سوق باب توما
٦٠٦	سوق القيمرية
٦٠٧	سوق العمارة
٦٠٩	سوق السكرية
٦١٠	سوق النسوان
٦١٢	سوق القطن
٦١٣	سوق الصوف
٦١٤	سوق الصباغين
٦١٥	سوق الدرويشية
٦١٧	سوق باب الجابية
٦١٩	سوق السنانية
٦٢٠	سوق النحاتين
٦٢١	سوق السويقة
٦٢٢	سوق باب المصلى
٦٢٣	سوق الجزماتية
٦٢٥	سوق أبي جرش
٦٢٥	سوق الأحد

٦٢٦	سوق الأخصاصيين
٦٢٦	سوق الجمعة
٦٢٦	سوق الخجبا
٦٢٧	سوق الخراطين
٦٢٧	سوق الصالحية
٦٢٨	الخانات والقيساريات والحمامات
٦٢٨	أولاً، خانات دمشق شواهد شامخة على التاريخ الاقتصادي
٦٢٩	خان أسعد باشا العظم
٦٣١	خان العمود
٦٣١	خان الصدرانية
٦٣١	خان جقمق
٦٣٢	خان الخياطين
٦٣٢	خان الحرير
٦٣٣	خان الجمرك
٦٣٣	خان الزيت
٦٣٣	خان سليمان باشا
٦٣٦	ثبت بأهم خانات دمشق الأخرى
٦٣٩	ثانياً الحمامات الدمشقية
٦٤٠	١ - حمام العفيف
٦٤٠	٢ - حمام الجوزة
٦٤١	٣ - حمام السلطان
٦٤١	٤ - حمام قصر العظم
٦٤١	٥ - حمام فتحي
٦٤١	حمامات تعمل إلى اليوم
٦٤٢	١ - حمام الملك الظاهر

٦٤٢	٢ - حَمَّام النوفرة
٦٤٣	٣ - حَمَّام نور الدين
٦٤٣	٤ - حَمَّام التوريزي
٦٤٤	٥ - حَمَّام الزين
٦٤٦	أبدع حَمَّامات الدنيا في مدينة المياه دمشق
٦٥٢	أسماء أهم الحَمَّامات في دمشق
٦٥٤	ثالثاً، القيساريات
٦٥٦	البيت الدمشقي القديم
٦٦٢	وصف البيوت الدمشقية القديمة من الداخل
٦٦٧	أبواب بيوت دمشق القديمة
٦٩٠	عظماء دفنوا في دمشق
٦٩٠	أولاً قبور بعض أنبياء الله
٦٩١	ثانياً عدد من آل بيت الرسول عليه السلام وصحابته رضي الله عنهم
٦٩٩	ثالثاً قبور خلفاء وأمرء وولاءة
٧٠٢	رابعاً قبور علماء وأدباء وفقهاء ومشاهير دين وعلم
٧٠٤	خامساً قبور بعض أولياء الله
٧١٢	الترب في دمشق
٧٢٠	التربة البدرية
٧٢١	التربة الحافظية
٧٢٢	الاحتفال بخروج المحمل الشريف إلى الحج
٧٢٦	إطلالة على التقاليد الدمشقية الأصيلة
٧٢٨	زغاريد الحجاج
٧٣٠	زلغوة زفة العروس
٧٣٩	زغاريد
٧٤١	زغاريد العريس

٧٤٥		زغاريد بمناسبة الولادة
٧٤٦		زغاريد الطهور
٧٤٨		عراضات شامية
٧٥٥		الأكلات الشامية
٧٥٨		الملابس الدمشقية
٧٦٥		الخاتمة
٧٦٦		مصادر الكتاب ومراجعته
٧٧١		المحتوى

* * *